

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي
(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الأول

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

مقدمة المؤسسة

إن تأسيس مؤسسة البعثة تعود الى الشهور الاولى بعد إنتصار الثورة الاسلامية حيث بدأت نشاطاتها في مدينة طهران أولا وكان الهدف من وراء إنشاء هذه المؤسسة تجميع كافة البرامج الثقافية والخدمية الاجتماعية التي كنت نظمها وأنجزتها قبل إنتصار الثورة ضمن مؤسسة موحدة ، وبفضل من الله سبحانه وتعالى ورعاية بقية الله الأعظم المهدي الموعود عجل الله فرجه الشريف فقد تم انجاز خطوات هامة جدا في الأقسام المختلفة من المؤسسة لا أرى أن الفرصة سانحة لذكرها الآن.

ومن نشاطاتها ، قسم الدراسات الإسلامية ، فقد نشط هذا القسم في مدينة طهران أولا ، ثم انتقل إلى مدينة قم ، وباشر ادارته سماحة العلامة حجة الاسلام والمسلمين الحاج الشيخ جعفر الخراساني.

وخلال اربعة عشر عاما من النشاط المستمر حسب الخطة المرسومة تم انجاز أكبر حجم من البحوث والدراسات حول تراث ، متقدمي أعلام الامامية والتي تدور حول موضوعين أساسيين هما القرآن والعتره وكذا ترجمة آثار فارسية مفيدة للقارئ العربي.

ومن جملة كتب التفسير التي تم تحقيقها بأسلوب علمي في تفسير البرهان وتفسير آلاء الرحمن وتفسير العياشي وتفسير نفحات الرحمن ، وكما تم تحقيق كتاب الأمل للصدوق وأمالى للشيخ الطوسي ودلائل الإمامة ، ومن الكتب التي قام قسم الترجمة في المؤسسة بمجموعة طيبة من المؤلفات الفارسية الحديثة التي يستفيد منها القارئ العربي كـ « تفسير الأمل في كتاب الله المنزل » وترجمة مؤلفات الخطيب المعروف الشيخ الفلسفي رحمته الله والكاتب الاسلامي الشهير الشهيد مطهرى رحمته الله وكتب قيمة أخرى.

ومن ضمن التحقيقات التي اجريت بشأن التفاسير ، نشير هنا إلى التفسير المروى عن أهل البيت عليهم السلام حيث جمعت كافة الروايات التفسيرية المنتشرة في ما يقارب من مئتي مصدر من المصادر المعتمدة ، وتم تصنيفها وتبويبها في كتاب بعنوان « معجم تفسير أهل البيت عليهم السلام » وهو

جاحز للطبع. وقد جاهز كل الروايات التفسيرية في الاقراص DC المطبوعة لتكون الكتاب في تناول ايدي المحققين ويسهل الرجوع اليه.

فقد توقف عمل المؤسسة بصورة مؤقتة بسبب بعض مشاكل وأملنا كبير بأن نباشر العمل من جديد ومن جملة البرامج التي نحاول اعادة العمل بها وتنشيطها هي نخضة الترجمة ، لأنّ اللغة العربية هي اللغة الأولى للعالم الإسلامي ، ونعتقد أن أى تأليف مفيد للمجتمع الإسلامي يجب أن ينشر باللغة العربية اولا ومن ثم باللغة الفارسية واللغات الأخرى.

وفي الوقت الذي نسعى إلى تنشيط وتفعيل هذه الوحدة من جديد ، يعصر قلوبنا ألما لفقد صديقنا العزيز والغالي الذي كان محور الحركة في المؤسسة ألا وهو الشيخ الخراساني ، فقد لقي ربه ، وندعو الله بأن يطر على روحه شآبيب رحمته ورضوانه ، ويكون نهجه مستمرا وماثلا أمام أعين تابعيه ومحبيه. آمين رب العالمين.

علي الاسلامي

مؤسسة البعثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على محمد الأمين وآله الهداة الميامين.

وبعد :

لقد حثَّ الله تعالى عباده على تدبُّر آيات الكتاب الكريم وفهم معانيه السامية وألفاظه الدقيقة ، فقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١) وقال سبحانه : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٢) .

وكان الرسول الاكرم ﷺ هو الذي تحمّل خلال حياته المباركة عبء تفسير آيات الكتاب الكريم وبيان مضامينه المتعلقة باقامة الدلائل على أصول الاعتقاد وأحكام الشريعة وتنظيم حياة المجتمع الاسلامي وشؤون الدولة الإسلامية وغيرها.

قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣) وكان بيان الرسول ﷺ وما صدر عنه من التنزيل والتأويل وحيا من الله تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٤) .

وتوجّهت رجالات الأمة منذ عصر الصحابة وإلى يومنا هذا جيلا بعد جيل إلى تفسير أي القرآن الكريم ، وتدبُّر آياته ، والبحث في إعجازه وعلومه المختلفة ، ممّا أدى إلى إيجاد نهضة فكرية قيّمة ، وبناء تراث علمي فذّ زخرت به حياة الأمة في مختلف فروع العلم والمعرفة. ولكي نتّجه صوب تحقيق البناء الفكري السليم والتحصين العقائدي الصحيح ، لا بدّ أن نميّز بين التفسير الخالص لوجه الله المجرّد عن الهوى والميول ، وبين التفسير العقيم الذي يميل بكلام الله حيثما شاء هوى المفسر وميوله وأغراضه. فاذا كان الأول يسهم في بناء الذات أخلاقا وعقائدا ، وفي بناء المجتمع أفرادا وأسرا ، فإنّ الثاني من أشدّ عوامل الهدم والانحراف.

(١) محمد : ٤٧ / ٢٤ .

(٢) سورة ص : ٣٨ / ٢٩ .

(٣) النحل : ١٦ / ٤٤ .

(٤) النجم : ٥٣ / ٣ و ٤ .

ومّا لا ريب فيه أنّ التفسير القويم تجده عند أهله ، أولئك الذين نزل في بيوتهم ، واقتربوا به إلى قيام الساعة ، فقد تواتر عند جميع المسلمين أنّ الرسول الأعظم ﷺ قال : « إني تارك فيكم ، ما إن تمسكنم به لن تضلوا بعدي ؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » ^(١) . فقرن ﷺ بين الكتاب وعترته المعصومين منذ فجر الرسالة وحتى يوم القيامة .

فأهل البيت عترة النبي المصطفى صلوات الله عليهم هم الأجدد بإدراك مضامين الكتاب الكريم وفهم دقائقه ، وأبعاد مضامينه العالية ، وتصاريف أغراضه ومراميه ، وقولهم الصدق ، وتفسيرهم عين الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ^(٢) .

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت ، وأين نزلت ، وعلى من نزلت ، إنّ ربي وهب لي قلبا عقولا ، ولسانا طلقا سؤولا » ^(٣) . وقال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام : « إنّ رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم ، فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلمه إياه ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّهم » ^(٤) .

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام : « نحن الراسخون في العلم ، ونحن نعلم تأويله » ^(٥) . وعليه فإنّ حديث أهل البيت عليهم السلام من أهمّ مفاتيح فهم كتاب الله تعالى ، ولا يتيسّر للمفسّر أن يفهم القرآن الكريم على وجهه الصحيح إذا لم يستأنس بأحاديثهم عليهم السلام في فهم دقائق مضامينه وإدراك معانيه ، وإذا لم يضع أمامه تصورا عن المنهج الذي اتبعه أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم والخطوط الأساسية التي رسموها لفهم الكتاب العزيز .

من هذا المنطلق نخض قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة ومنذ فجر تأسيسه بمهمة إعداد وتحقيق ونشر سلسلة من التفاسير التي تصبّ في هذا الهدف السامي ، فكان حاصل الجهود الخيرة العاملة في هذا الحقل هو إعداد (معجم تفسير أهل البيت عليهم السلام) والذي يضمّ ما تفرّق من حديثهم عليهم السلام الوارد في التفسير من مصادر الحديث والرواية المعتبرة باستثناء كتب التفسير . ومن نتائج أعمال قسم الدراسات الإسلامية في هذا المجال تحقيق ونشر (تفسير العياشي)

(١) سنن الترمذي ٥ : ٦٦٣ / ٣٧٨٦ و ٣٧٨٨ - كتاب المناقب ، مستدرک الحاكم ٣ : ١٤٨ .

(٢) الأحزاب : ٣٣ / ٣٣ .

(٣) كنز العمال ١٣ : ١٢٨ / ٣٦٤٠٤ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٩٦ ، تفسير العياشي ١ : ٢٩٣ / ٦٤٦ .

(٥) الكافي ١ : ١٦٦ / ١ ، تفسير العياشي ١ : ٢٣٩ / ٦٤٨ .

لمحمد بن مسعود العياشي المتوفى نحو سنة ٣٢٠ هـ ، وكتاب (البرهان في تفسير القرآن) للسيد هاشم البحراني المتوفى سنة ١١٠٧ هـ ، وكتاب (آلاء الرحمن في تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد البلاغي المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ ، وغيرها من التفاسير والدراسات التي صدرت ، أو لا تزال قيد الطبع أو التحقيق وتنتظر دورها في النشر والتوزيع باذن الله وتوفيقه.

والكتاب الذي بين يديك (نفحات الرحمن في تفسير القرآن) واحد من سلسلة التفاسير التي تبني قسم الدراسات الاسلامية تحقيقها وإخراجها بشكل أنيق يناسب مكانة مؤلفيها وجلالتهم ، وهو من تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي أحد أعلام الطائفة الحقة وشيوخها المبرزين قدس الله روحه ونور ضريحه ، نرجو من الله تعالى أن ينفع به الاخوة المؤمنون سيما طلبة القرآن وعلومه السامية.

ترجمة المؤلف

هو الشيخ محمد بن الميرزا عبد الرحيم بن الميرزا نجف المستوفي بن الميرزا محمد علي الشيرازي
النهاوندي^(١) .

ولادته ونشأته ورحلاته

ولد الشيخ محمد النهاوندي في الخامس عشر من شهر رجب سنة ١٢٩١ هـ^(٢) في النجف
الأشرف ، فنشأ منذ طفولته المبكرة في بيئة علمية ووسط يزخر بالفضيلة والمعرفة ، حيث أمضى نحو
ثلاث سنوات من أيام طفولته في النجف الأشرف مهد العلم والورع والتقوى ، وعاش في كنف أبيه
العالم المتبحر والفقير البارع الميرزا عبد الرحيم النهاوندي نحو ثلاثة عشر عاما (١٢٩١ - ١٣٠٤ هـ
(نحل خلالها من فيض علمه ومعرفته واكتسب معالم تقواه وزهده.

وعند ما لى أبوه نداء الحق في التاسع من ربيع الثاني سنة ١٣٠٤ هـ توفّر الشيخ محمد علي
الأخذ عن أخيه الميرزا محمد حسن النهاوندي الذي كان عالما عاملا وفقيرا بارعا ، وأخذ عن
مدرسي المدرسة الفخرية (مدرسة الخان مروي) في طهران والتي كان والده مدرسا بها.
وفي سنة ١٣١٧ هـ تشرف الشيخ محمد مع أخيه الميرزا محمد حسن بزيارة مشهود الامام الرضا
عليه السلام وجاور هناك مدة أخذ فيها عن فضلاء عصره المعروفين كالحاج الشيخ حسن علي الطهراني
ومير سيد علي الحائري اليزدي وغيرهما.

وفي نحو سنة ١٣٢٤ هـ توجه الشيخ محمد إلى العراق لزيارة العتبات المقدسة وإدامة الدرس

(١) ترجم له الشيخ آقا بزرك في نقيب البشر : ١٢٨ (مخطوط) ، وفي الذريعة ٩ : ١٠٠٦ عند ذكر ديوانه ، و ١٢ :
١٦٣ عند ذكر كتابه (سراج النهج) و ١٥ : ١٢٢ عند ذكر كتابه (ضياء الأبصار) و ٢٤ : ٢٤٧ عند ذكر
كتاب (نفحات الرحمن) .

وذكره في أثناء ترجمة والده الميرزا عبد الرحيم النهاوندي في نقيب البشر ٣ : ١١٠٨ ، فوائد الرضوية : ٢٢٨
، ربحانة الأدب ٦ : ٢٦٦ ، الذريعة ٩ : ٦٨٧ عند ذكر ديوان والده.

(٢) وذكر الشيخ آقا بزرك في نقيب البشر ٣ : ١١٠٩ (ترجمة الشيخ عبد الرحيم النهاوندي) أن ولادته كانت في
سنة ١٢٨٩ هـ وهي السنة التي عاد فيها والده من النجف إلى إيران ، وما أثبتناه بناء على ما رواه في الذريعة ٩ :
٦٨٧ عن الشيخ محمد النهاوندي في تاريخ ولادته وبعض تفاصيل حياته ، وما أثبتناه موافق أيضا للذريعة ٩ :
١٠٠٦ و ١٢ : ١٦٣ ، ونقيب البشر (القسم المخطوط) : ١٢٨ - ترجمة الشيخ محمد النهاوندي.

والتحصيل ، فتلمذ في كربلاء للسيد إسماعيل الصدر الأصفهاني ، وتوفرت له فرصة التلمذة في الفقه والأصول والعقائد والأخلاق عند فضلاء ذلك العصر وأعلامه المعروفين حيث حضر أبحاث الملا كاظم الخراساني ، والسيد محمد كاظم اليزدي ، والحاج ميرزا حسين الخليلي ، والشيخ عبد الله المازندراني ، والملا لطف علي ، وحضر في سامراء دروس آية الله الميرزا محمد تقى الشيرازي ، وغير هؤلاء من جهابذة العلم والمعرفة حتى وصل إلى كمال الاجتهاد في العلوم النقلية والعقلية.

وعاد إلى خراسان على أثر وفاة أخيه الميرزا محمد حسن وذلك نحو سنة ١٣٢٩ هـ وجاور المشهد الرضوي المقدس ، وقام مقام أخيه في التصدي لشؤون الزعامة الدينية وتولي شؤون المرجعية والافتاء في المسائل الشرعية والأحكام ، واشتغل أيضا خلال مدة إقامته في مشهد بالتدريس والبحث والتأليف.

وفي سنة ١٣٦٠ هـ توجه إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج ، وفي هذه الرحلة زار العتبات المقدسة في العراق ثم عاد إلى مشهد وبقي هناك حتى وافاه الأجل.

وفاته :

توفي الشيخ محمد النهاوندي في الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ ودفن في الحرم الرضوي الشريف في مشهد ^(١) .

اسرته العلمية

١ - جدّه أبيه

كان جدّه أبيه محمد علي الشيرازي حاكما في نهاوند من قبل السلطان محمد شاه القاجاري ، واستوطن أولاده وأحفاده بها ، ومنهم والد المؤلف الميرزا عبد الرحيم النهاوندي.

٢ - والده

كان والده الميرزا عبد الرحيم النهاوندي ^(٢) عالما متبحرا وفقهيا بارعا وزاهدا تقيا ، ولد في نهاوند سنة ١٢٣٧ هـ ، واشتهر في أول أمره بحسن الخطّ وتجويده حتى بلغ الكمال فيه ، ثمّ توجه إلى تحصیل العلوم الدينية ، فهاجر من موطنه إلى بروجرد ، فقرأ على علمائها المعروفين آنذاك ، ثمّ توجه إلى العراق فتلمذ للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر حتى توفي الأخير سنة ١٢٦٦ هـ ، فقرأ بعده على

(١) راجع نقباء البشر (مخطوط) : ١٢٨ ، الذريعة ٩ : ١٠٠٧ و ١٢ : ١٦٣ .

(٢) راجع ترجمته في أعيان الشيعة ٧ : ٤٧٠ ، نقباء البشر ٣ : ١١٠٨ ، الفوائد الرضوية : ٢٢٨ ، ربحانة الأدب ٦ : ٢٦٦ ، الذريعة ٩ : ٦٨٧ .

الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري ، وتصدى خلال ذلك للتدريس ، فحظي بتأييد استاذة الشيخ الأنصاري وتقديره.

وبعد وفاة الشيخ الأنصاري في سنة ١٢٨١ هـ تفرغ للتدريس في النجف ، وأصبح من مشاهير علمائها وأعلامها المحققين وتخرج عليه جمع من الفضلاء.

وغادر الشيخ عبد الرحيم النهاوندي أرض العراق بعد إقامة استمرت نحو ثلاثين عاما ، وذلك سنة ١٢٩١ هـ ^(١) ، وهي السنة التي ولد فيها ابنه محمد صاحب النفحات ، وتشرف بزيارة مرقد الامام الرضا عليه السلام في مشهد ، وأقام لمدة سنة مجاورا للمشهد الرضوي المقدس ، ثم غادر بعدها مارا في طهران ، وهناك ألح عليه جماعة من فضلائها وعلمائها لطلب الإقامة بها وتولي التدريس في المدرسة الفخرية (المعروفة بمدرسة مروي) فأقام في طهران ملبيا طلبهم ، وفوض إليه الحاج ملا علي الكني مهمة التدريس في المدرسة المذكورة ، وتولى أيضا مهام المرجعية والافتاء وإقامة صلاة الجماعة حيث كان يقتدي به عامة متدربي المدينة وأعلامها ، لما يتصف به من زهد وتقوى وما يحظى به من وجاهة تامة ومكانة مرموقة.

وتخرج عليه جماعة من الأعلام كالْحاج ميرزا علي تقي سبط السيد محمد المجاهد ، والسيد محمد الطباطبائي ، والحاج ميرزا مهدي كلستانه وغيرهم.

وبقي الشيخ عبد الرحيم مقيما في طهران حتى وافاه الأجل في يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الثاني سنة ١٣٠٤ هـ وحمل جثمانه إلى قم ^(٢) فدفن في أول حجرة من حجرات الصحن الجديد للسيدة فاطمة بنت موسى بن جعفر عليه السلام على يسار الداخل من الباب الشرقي.

وترك الشيخ عبد الرحيم مجموعة من الآثار العلمية منها في الأصول مقدار من أصل البراءة ، وحاشية القوانين ، وفي الفقه : كتاب العتق ، وكتاب الوقف ، وديوان شعر فيه مجموعة من أشعاره في كراريس بخطه كانت عند ولده الشيخ محمد.

٣ - أخوه

(١) قيل أيضا : سنة ١٢٨٩ هـ ، كما في نقباء البشر ٣ : ١١٠٩ (ترجمة الشيخ عبد الرحيم النهاوندي) وريحانة الأدب ٦ : ٢٦٨ ، وما أثبتناه موافق لرواية الشيخ آقا بزرك عن الشيخ محمد النهاوندي ، في الذريعة ٩ : ٦٨٧ ، وراجع أيضا : نقباء البشر (مخطوط) : ١٢٨ ترجمة الشيخ محمد ، والذريعة ٩ : ١٠٠٦ و ١٢ : ١٦٣ .

(٢) ذكر الشيخ آقا بزرك في نقباء البشر ٣ : ١١٠٩ أنه حمل جثمانه إلى النجف ، وهو وهم ، فقد ذكر في الذريعة ٩ : ٦٨٧ أنه دفن في قم ، وهو مطابق لحقيقة الحال ولكافة المصادر التي ترجمت له ، راجع الفوائد الرضوية : ٢٢٩ ، ریحانة الأدب ٦ : ٢٦٨ .

أكبر إخوته الشيخ الميرزا محمد حسن^(١) ، وكان عالما عاملا وفقهيا بارعا ، تشرف بعد وفاة أبيه سنة ١٣٠٤ هـ بزيارة الامامين العسكريين في سامراء ، ومكث هناك مدة حضر فيها دروس المجدد الشيرازي ، ثم عاد إلى طهران ومنها إلى مشهد ، فأقام بها متوليا شؤون التدريس والمرجعية والافتاء حتى وفاته في نحو سنة ١٣٢٩ هـ^(٢) فقام مقامه بالتدريس والامامة أخوه الشيخ محمد صاحب النفحات.

مصنفاته :

- ذكر الشيخ آقا بزرك في الذريعة أربعة مصنفات تركها الشيخ محمد النهاوندي ، وهي :
- ١ - ديوانه ، قال الشيخ آقا بزرك : له ديوان شعر ... وقد استكتبت منه قصيدته المستزاد في رثاء الحسين الشهيد عليه السلام^(٣) .
 - ٢ - سراج النهج في مسائل العمرة والحج ، قال الشيخ آقا بزرك : استدلاي مبسوط ، يقرب من ثلاثة آلاف بيت^(٤) .
 - ٣ - ضياء الأبصار في مباحث الخيار ، قال الشيخ آقا بزرك : تكلم [فيه] على الخيارات السبعة وبحث في كل منها في سبعة مقامات ، وبحث في الخاتمة عن أحكام الخيار في تسع كراريس ، يقرب من ٨٠٠٠ بيت^(٥) .
 - ٤ - نفحات الرحمن في تفسير القرآن ، وهو هذا الكتاب ، قال الشيخ آقا بزرك : ملّع عربي وفارسي ، للمحدث النهاوندي محمد بن عبد الرحيم الطهراني النهاوندي ، نزيل مشهد خراسان ، المجلد الأول منه طبع سنه ١٣٥٧ هـ على الحجر في ٤٩٦ صفحة مع مقدمة تشتمل على ٤٠ طرفة فيما يتعلق بالقرآن ، والمجلد الثاني الى آخر سورة الاسراء^(٦) ، وطبع الرابع سنة ١٣٧٠ هـ في ٥٠٤ صفحة^(٧) .

(١) راجع ترجمته في نقباء البشر ١ : ٤٠٦ و ٣ : ١١٠٩ .

(٢) كذا في الذريعة ٩ : ٦٨٧ و ١٠٠٧ ، ونقباء البشر ٣ : ١١٠٩ ، لكن في نقباء البشر ١ : ٤٠٦ أّخ وفاته في حدود سنة ١٣٢٨ هـ وكلا التاريخين ليس فيهما جزم وتحديد.

(٣) الذريعة ٩ : ١٠٠٦ .

(٤) الذريعة ١٢ : ١٦٣ .

(٥) الذريعة ١٥ : ١٢٢ .

(٦) وطبع الجزء الثالث في النصف من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٦٣ هـ .

(٧) الذريعة ٢٤ : ٢٤٧ .

هذا الكتاب

هو تفسير مزجي متوسط بين البسط والايجاز ، كتبه المؤلف بأسلوب واضح وعبرة سائغة خالية من التعقيد والابهام ، وسمّاه في المقدمة حيث قال : وسمّيته ب (نفحات الرحمن في تفسير القرآن) وهكذا جاء اسمه في الذريعة على ما تقدّم ، لكنّه جاء بزيادة (وتبيين الفرقان) كما في صدر الجزء الأول والثالث والرابع من الطبعة الحجرية ، المذكورة. وفرغ منه في آخر سنة ١٣٦٩ هـ .

منهجه في التفسير

رسم المؤلف في أوّل مقدمته الخطوط العامة التي اتبعها في تفسيره ، وهي بمجموعها تمثل طريقته التي نهجها في تفسير القرآن ، ويمكننا أن نخصرها في سبع نقاط اعتمادا على ما ذكره حيث قال :

- ١ - اصطفت من التفاسير ما هو لبابها.
- ٢ - اكتفيت من الوجوه بما هو صوابها.
- ٣ - بالغت في الجدل بنقل ما وصل إليّ بطرق الخاصة والعامة من الروايات.
- ٤ - استفرغت الوسع في بيان وجه النظم بين السور والآيات.
- ٥ - صرفت الهمّ في التعرض لأسباب النزول الواردة في الآثار.
- ٦ - بذلت الجهد في الاسفار عن وجوه بعض النكت والأسرار.
- ٧ - كففت عن التكلم في أعاريب الكلمات وبيان وجوه القراءات التي كانت مخالفة للقراءة المشهورة ، إلّا التي وجدتها عن أهل الذكر مأثورة.

طرف الكتاب

قبل أن يشرع المؤلف في التفسير مهّد لتفسيره بأربعين طرفة وخاتمة ، وقد تضمّنت الطرف بحثا مهمة في علوم القرآن كاعجاز القرآن ودلائله ، ونزوله ، وترتيبه وجمعه ، وأسمائه ، ومحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه ، وسلامته من التحريف ، وثواب تعلّمه وتعليمه ، وآداب تلاوته وحفظه ، وفضائل السور والآيات وغيرها من البحوث والتحقيقات المهمة في علم التفسير .

مصادر الكتاب

وجعل المؤلف خاتمة طرفه الأربعين في ذكر المصادر التي اعتمدها في تفسيره ، وهي عشرة من

مصادر التفسير والحديث :

- ١ - جوامع الجامع في التفسير ، لأمين الاسلام الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي .
- ٢ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي .
- ٣ - حواشي على كتاب أنوار التنزيل ، للشيخ محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي المعروف بالشيخ البهائي .
- ٤ - الصافي في تفسير القرآن ، للمولى محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني .
- ٥ - مفاتيح الغيب ، لفخر الدين الرازي .
- ٦ - الاتقان ، لجلال الدين السيوطي .
- ٧ - تفسير أبي السعود .
- ٨ - أنوار التنزيل ، للبيضاوي .
- ٩ - روح البيان ، للشيخ إسماعيل حقي البروسوي .
- ١٠ - تفصيل وسائل الشيعة ، للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي .

طبعااته

طبع هذا التفسير طبعة واحدة في أربعة أجزاء على الحجر في حياة مصنفه ؛ وذلك في الفترة الواقعة بين سنة (١٣٥٧ - ١٣٧٠ هـ) وهذه الطبعة نادرة الوجود عزيزة الحصول فضلا عن أنها تزخر بكثير من التصحيف والتحريف والعيوب الطباعية ، ولهذا عمد قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة إلى تجديد طباعته بعد تحقيقه وفقا لأساليب التحقيق العلمي المعروفة ، ليأخذ حيزه في المكتبة الاسلامية ، ويكون أكثر فائدة لمريدي التفسير ومحبي الكتاب العزيز .

منهج التحقيق

- اتبعنا اسلوب التحقيق الجماعي المعمول به في قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة ، أي تقسيم العمل ثم انجازه خطوة خطوة من قبل مجاميع متخصصة ومتدربة في هذا الفن .
- وقبل أن نذكر خطوات العمل في هذا التفسير المبارك ، لا بد من الاشارة إلى مسألتين :
- ١ - إننا قد اعتمدنا في تحقيقنا هذا على الطبعة الحجرية المشار إليها آنفا ، بعد تحليلها من عيوب الطباعة القديمة .
 - ٢ - إن المؤلف قد ذكر مختصرا من التفسير باللغة الفارسية في تلك الطبعة ، ولم نورد في طبعتنا هذه ، لأن المؤلف لم يمزجه أثناء تفسيره العربي بل جعله منفصلا عنه بحيث يمكن جعله كتابا

مستقلا ، وإذا تمّ طبعه بشكل مستقلّ سيكون أسهل تناولاً وأكثر فائدة لقراء اللغة الفارسية.

أما خطوات العمل في هذا التفسير فيمكن تلخيصها بالنقاط التالية :

١ - تخريج النصوص القرآنية والحديثية وأقوال المفسرين وغيرهم من المصادر التي اعتمدها المؤلف أو من مصادرها الأولية ، وقد لاحظنا أنّ نقول المصنف من مصادر الحديث كالتهديب والكافي ومصنفات الشيخ الصدوق وغيرها ، منقولة بالواسطة عن (تفسير الصافي) وذلك لكثرة الفوارق بين نصوص (نفحات الرحمن) ونصوص المصادر المشار إليها مع تطابقها تماماً مع (تفسير الصافي) ولذلك خرّجنا مثل هذه الأحاديث عن مصادرها الأولية وعن (تفسير الصافي) أيضاً ، ليتضح للقارئ مدى التفاوت بين الروايتين.

٢ - مقابلة النصوص والمتون المنقولة بالمصادر التي نقل عنها المصنف أو بمصادرها الأولية مع الإشارة في حال الاختلافات الضرورية أو في حال اعتمادنا نسخة المصدر.

٣ - ترقيم الآيات الواردة في متن التفسير ليكون أسهل تناولاً.

٤ - تقويم النص بتخليصه من التصحيف والتحريف الوارد في طبعته الحجرية الأولى ، وشرح الغريب ، ووضع الحركات الضرورية في مواضع الحاجة.

٥ - وضعنا ما أثبتناه لاقتضاء السياق بين معقوفتين إشارة إلى عدم وجوده في نسخة التفسير ، وكذلك ما رأيناه ضرورياً من المصادر.

٦ - صياغة هوامش الكتاب بالاعتماد على سلسلة الخطوات السابقة.

٧ - الملاحظة النهائية وتتضمن مراجعة متن الكتاب وهوامشه بدقة للتأكد من سلامة النصّ وضبطه.

تقدير وثناء

تقدّم وافر الشكر ومزيد الامتنان للاخوة العاملين في (قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة - قم) على جهودهم القيمة التي بذلوها لانجاز تحقيق هذا السفر المبارك ، ونخصّ بالذكر منهم الاستاذ المحقق الاخ علي الكعبي دام فضله ، والسادة الأفاضل عبد الحميد الرضوي وموسى دانشمند محولاتي وعصام البدري وفقهم الله لمراضية. ولله سبحانه الفضل والمنة ومنه نستمد العون والتوفيق.

قسم الدراسات الاسلامية

مؤسسة البعثة - قم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، وأنزل الكتاب ولم يجعل له عوجا
قيما ليبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيرا ، وجعله في ظلمات الأرضين شمسا مضيئة وقمرا منيرا
، وأبّلى به عن هدى رسوله ، وأوضح به الحق وأرشد البرية إلى سبيله ، وذكرهم به تذكيرا ، تحدّى ^(١)
الجاحدين في إتيان سورة من مثله فلم يفعلوا ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وتجلّى فيه
بظهور قدرته ، وبهور حكمته ، وسطوع نور عظمتة ، حتى رآه بقلبه من كان بصيرا.

والصلاة والسلام على من أرسله برحمته وفضله إلى الناس بشيرا ، وختم به الرسالة ، وبشّر به
المرسلون أممهم تبشيرا ، وشرف الملائكة المقرّبين بأن جعلهم له ظهيرا ونصيرا.
وعلى ابن عمّه ، وكاشف غمّه ، وزوج ابنته ، والمخصوص بأخوّته ، الذي وهبه الله له وصيا
ووزيرا ، وعلى الأئمة من ذرّيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

أمّا بعد : فقد طال ما جال فكري في أن أكتب للكتاب الكريم تفسيرا ، كي يكون ذخري
لحين فقري ونجاتي في يوم يكون شرّه مستطيرا ، وإن كان لقصور باعي وقلة اطلاعي عليّ عسيرا ، إلّا
أنّ شوقي الأكيد هاج روعي ، وكلّفني السعي فوق ما في وسعي ، فشمرت للغوص في هذا البحر
العميق ، فشرعت فيه سائلا من الله الإعانة والتوفيق.

فاصطفيت من التفاسير ما هو لبابها ، واكتفيت من الوجوه بما هو صوابها ، وبالغت في الجدّ
بنقل ما وصل إليّ بطرق الخاصّة والعامة من الروايات ، واستفرغت الوسع في بيان وجه النظم بين
السور والآيات ، وصرفت الهمة في التعرّض لأسباب النزول الواردة في الآثار ، وبذلت الجهد في
الإسفار عن وجوه بعض النكت والأسرار ، وكففت عن التكلّم في أعارب الكلمات ، وبيان وجوه
القراءات التي

(١) في النسخة : وحدّ.

كانت مخالفة للقراءة المشهورة ، إلا التي وجدتها عن أهل الذكر مأثورة ، وسميته ب (نفحات الرحمن في تفسير القرآن) .

ثمّ إنّي رأيت أن أهدي للمهتدي البصير ، قبل الشروع في التفسير ، طرائف بارعة ، ولطائف نافعة ، تثبيتاً للقلوب ، وتمهيداً للمطلوب ، وتشجيعاً للأذهان ، وتنبيهاً للوسنان ، فهيأت مع قلّة البضاعة ، وعدم التدرّب في الصناعة ، ببذل الجهد وتحمل الكلفة ، من المطالب المرتبطة بعلم القرآن أربعين طرفة ، وجعلتها مقدّمة ، وجئت لها بخاتمة ^(١) ، راجياً من الله أن يجعل ذلك لي وإخواني المؤمنين نعمة دائمة ، وأن ينعم عليّ بالاعتصام في مزالّ الأقدام.

(١) في النسخة : خاتمة.

الطرفة الأولى

في أنّ الكتاب العزيز

أعظم معجزات خاتم النبيين ﷺ

لا ريب في أنّ الكتاب العزيز كان من أعظم معجزات خاتم النبيين ﷺ حيث إنّّه كانت جهة الإعجاز فيه أظهر من المعجزات الباهرة التي كانت لسائر الأنبياء العظام ، وتأثيره في النفوس أشدّ من تأثيرها ؛ لبداهة أنّ المؤمنين به ﷺ من العرب مع عرافتهم بشدّة العصبية واللّجاج ، كانوا في زمانه أكثر من المؤمنين بسائر الأنبياء في زمانهم ، وكان إيمان أتباعه به ، وانقيادهم لأمره - مع كونهم أشدّ الخلق تكبرا ، وأكثرهم تفاخرا - أقوى وأزید من إيمان سائر الأمم بأنبيائهم ، وانقيادهم لأوامرهم.

وكان حبّ العرب له ، وشغفهم به - مع كونهم أقسى الناس قلبا ، وأقلّهم رافة - أشدّ وأكثر من حبّ بني إسرائيل لموسى بن عمران عليه السلام مع كونه صاحب تسع آيات بينات ، ومن حبّ الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام مع كونه محيي الأموات ، ومبرئ الأكمه والأبرص.

حيث إنّ المؤمنين بنبيّنا ﷺ كانوا يتسابقون إلى بذل المهج ، والغور في اللّجج ، ويتسارعون إلى معانقة السيوف ، وشرب الحتوف ، تحفظا لسلامته ، وترويجا لشريعته ، وبنو إسرائيل كانوا أحفظ لأنفسهم من نفس موسى عليه السلام حيث إنّّه لما قال لهم ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١) ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾^(٢) و﴿إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٣).

ولم ينقل عن^(٤) حواريي عيسى عليه السلام فرع شديد حين رأوه على الصليب ، ونقل أنّه لما مات نبيّنا ﷺ عزيزا في فراشه غشي على بعض المؤمنين من شدّة الحزن ، وجنّ آخر ، وصار يوم موته مثلا في شدّة البكاء والحزن ، ولم يكن جميع ذلك إلّا لكون إعجاز كتابه الكريم أشدّ تأثيرا في

(١) المائة : ٥ / ٢١ .

(٢) المائة : ٥ / ٢٢ .

(٣) المائة : ٥ / ٢٤ .

(٤) في النسخة : من .

نفوسهم من آيات نبوة موسى وعيسى ﷺ في نفوس أتباعهما.

مع أنّ القرآن العظيم أوجد في نفوس العرب آثارا لم توجد لها ^(١) معجزات سائر الأنبياء ، حيث إنّه أخرجهم بسماعه من ظلمات الجهالة وغمرات الضلالة ، بعد تماديهم فيها وتمزّجهم عليها ، إلى نور الهداية وأوج الحكمة ، وصيّهم بعد أمّيتهم علماء حكماء ، بل كادوا أن يكونوا من الحكمة والمعرفة أنبياء ، وبلغوا من العلم إلى أن صاروا بعد وحشيتهم أساتيد الأمم ، وسادة العجم.

انظر إلى حوارّي عيسى مع كوثهم أكمل من آمن به ، وأعلم بما جاء به ، قالوا : ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ^(٢) وأطفال أمة نبيّنا ﷺ في زمانه كانوا يقولون : إنّ الله على كلّ شيء قدير ، ولا يعجز الله شيء في الأرض ولا في السماء.

والحاصل أنّ العاقل المتأمل في آيات ^(٣) القرآن المجيد ، لا يرتاب في أنّها كلام الله ، وأنّها أعظم المعجزات ، وقد أفرد جمع كثير من علماء الاسلام إعجاز القرآن بالتصنيف ، ومع ذلك حاروا في كشف حجب البيان عن وجوه إعجازه بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان.

فالمنصف يرى القرآن في الهداية والبيان كالروح في الجسد ، يعرف بمظاهرة وآثاره ، ويعجز العارفون عن بيان حقيقته وكنهه. فإنّ قريشا ^(٤) كانت أفصح العرب لسانا ، وأعذبهم بيانا ، وأخلصهم لغة ، وأرفعهم عن الرداء لهجة ، ومع ذلك كان النبي ﷺ يحتجّ عليهم بالقرآن صباحا ومساء ، ويحتجهم على أن يعارضوه بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكّلما ازداد تحديا لهم بها وتقريبا عليهم ، كشف عجزهم عن نقصهم ما كان مستورا ^(٥) ، وظهر منهم ما كان خفيا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة ، قالوا : أنت تعرف أخبار الأمم ، ولذا تقدر على ما نعجز عنه ، فقال : جيئوا بها مفتريات ، ولذا لم يأت بمثله أريب عن معارضة ، ولم يبرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولا تكلفه طبع فصيح ماهر ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، فدلّ ذلك على عجز القوم عن معارضته مع كثرة كلامهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أتباعه.

ومن الواضح أنّهم لو جاءوا بسورة واحدة أو آيات يسيرة بدل الهجاء ومعارضة الشعراء ،

لكان

(١) في النسخة : يوجد لها.

(٢) المائدة : ١١٢ / ٥ .

(٣) في النسخة : الآيات.

(٤) في النسخة : القريش.

(٥) كذا ، ولا تخلو العبارة من اضطراب. ولعلّها : كشف عجزهم ما كان مستورا من نقصهم.

أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأضرّ عليه وعلى أصحابه ، مع أنّ الكلام سيّد عملهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الفكر والجدّ في الأمر الغامض المشكل ، فكيف بالسّهل الجليل المنفعة والعظيم الفائدة !

روي عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنّه رقى له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، فقال : يا عمّ ، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه لأن لا تأتي (١) محمّدا ، ولتعرض لما قاله (٢) . قال : قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنّك كاره له . قال : وما ذا أقول ؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، وو الله إنّ لقوله الذي يقوله حلاوة ، وإنّ عليه لطاوة (٣) ، وإنّه لمثمر أعلاه ، معذوق (٤) أسفله ، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنّه ليحطم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتّى تقول فيه . قال : فدعني حتّى أفكر . فلمّا فكر قال : هذا (٥) سحر يؤثر ، يآثره عن غيره (٦) .

روي أنّ قوله عزّ وجلّ في أوّل حم السجدة إلى قوله : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٧) نزل في شبيبة وعتبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان بن حرب ، وأبي جهل ، وذكر أنّهم بعثواهم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليكلّمه ، وكان حسن الحديث ، عجيب الشأن ، بليغ الكلام ، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده . فقرأ النبيّ صلوات الله وسلامه عليه سورة حم السجدة من أولها حتّى انتهى إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٨) فوثب مخافة العذاب ، فاستحكوه ما سمع ، فذكر أنّه لم يسمع منه كلمة واحدة ، ولا اهتدى لجوابه (٩) . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرّدّ .

قال عثمان بن مظعون : والله ، لعلموا أنّه من عند الله إذ لم يهتدوا لجوابه (١٠) .

وروي أنّ جبير بن مطعم ورد على النبي ﷺ في حليف له أراد أن يفاديه ، فدخل والنبيّ

صلوات

(١) في الاتقان وحياة الصحابة : فانك أتيت .

(٢) في الاتقان وحياة الصحابة : لما قبله .

(٣) الطلاوة : الحسن والتّونق .

(٤) في الاتقان وحياة الصحابة : مغدق .

(٥) في حياة الصحابة : إنّ هذا إلّا .

(٦) الاتقان في علوم القرآن ٤ : ٥ ، حياة الصحابة ١ : ٦٣ .

(٧) فصلت : ٤١ / ٤ .

(٨) فصلت : ٤١ / ١٣ .

(٩) الدر المنثور ٧ : ٣٠٩ .

(١٠) في النسخة : بجوابه ، وكذا في المورد المتقدّم .

الله عليه يقرأ سورة ﴿وَالطُّورِ* وَكِتَابٍ مُسْتُورٍ﴾^(١) في صلاة الفجر ، قال : فلمّا انتهى إلى قوله : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ* مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾^(٢) قال : خشيت أن يدركني العذاب فأسلمت^(٣) .

وروي أنّ ابن أبي العوجاء وثلاثة نفر من الدهريّة^(٤) اتّفقوا على أن يعارض كلّ واحد منهم ربع القرآن ، وكانوا بمكّة ، وعاهدوا على أن يجيئوا بمعارضته في العام القابل ، فلمّا حال الحول ، واجتمعوا في مقام ابراهيم عليه السلام قال أحدهم : إني لما رأيت قوله : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَا سَمَاءَ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾^(٥) كفتت عن المعارضة.

وقال الآخر : وكذلك أنا ، لما وجدت قوله : ﴿فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾^(٦) أيسر عن المعارضة. وكانوا يسرّون بذلك ، إذ مرّ عليهم الصادق صلوات الله عليه فالتفت [إليهم] وقرأ عليهم : ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾^(٧) فبهتوا^(٨) . وأمثال هذه الروايات كثيرة جدّا.

ومما يشهد على أنّ القرآن العظيم فوق طوق البشر ، أنّ من قايس بين آياته وكلمات رسول الله ﷺ وخطبه البليغة ، وجد التفاوت بينهما تفاوت الخالق والمخلوق ، والواجب والممكن ، مع أنّه صلوات الله عليه كان أفصح من نطق بالضاد ، ولم يسمع بكلام أحسن أسلوبا ، وألطف لفظا ، وأعدل وزنا ، وأجمل مذهبا ، وأحسن موقعا ، وأسهل مخرجا ، وأفصح بيانا ، وأبين فحوى ، وأكرم مطالعا من كلامه ﷺ .

والحاصل : أنّ الكتاب العزيز في لسان العربيّة بلغ مبلغا من الفصاحة والبلاغة وحسن النظم والاسلوب لا يمكن للبشر أن يدانيه بالفطرة والعقل والاكتساب. وقد صدق الصادق صلوات الله عليه حيث قال : « لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ، ولكنهم لا يبصرون »^(٩) .

وعن النبي ﷺ في وصف القرآن قال : « ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تحصى عجائبه ، ولا تبلى غرائب »^(١٠) .

(١) الطور : ٥٢ / ١ و ٢.

(٢) الطور : ٥٢ / ٧ و ٨.

(٣) الكشف : ٤ : ٤٠٩.

(٤) رجل دهري : ملحد لا يؤمن بالآخرة ، يقول ببقاء الدهر. المعجم الوسيط ٢ : ٢٩٩.

(٥) هود : ١١ / ٤٤.

(٦) يوسف : ١٢ / ٨٠.

(٧) الإسراء : ١٧ / ٨٨.

(٨) الخرائج والجرائح ٢ : ٧١٠ / ٥.

(٩) أسرار الصلاة / للشهيد الثاني : ١٤٠.

(١٠) تفسير العياشي ١ : ٧٤ / ١ ، الكافي ٢ : ٤٣٨ / ٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « لا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الذي لم تلبث ^(١) الجن إذ سمعته أن قالت : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ ^(٢) . وسيأتي - إن شاء الله - عند تفسير قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ^(٣) مزيد بيان لذلك والتعرض لوجوه إعجازه بمقدار فهمي القاصر .

الطرفة الثانية

في تعريف المعجزة

وأن القرآن العظيم معجزة عقلية

المعجزة : هي الأمر الخارق للعادة ، المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة من مدعي النبوة عند احتمال صدقه في الدعوى ، وهي قسمان : حسية ؛ كصيرورة العصا ثعبانا ، وإحياء الموتى ، وإطعام الجمع الكثير بالطعام اليسير . وعقلية : كإعجاز القرآن المجيد . قيل : كانت معجزات أنبياء بني إسرائيل أكثرها حسية ، لبلادة أممهم ، وقلة ذكائهم ، بخلاف معجزات نبينا صلوات الله عليه وآله فإن عمدتها عقلية لفرط ذكاء أمته ، وكمال فهمهم ، ولأن هذه الشريعة ونبوة هذا النبي باقية دائمة مدى الدهر ، وأحكامه مستمرة إلى يوم القيامة ، فخص نبينا بأن أعظم معجزاته عقلية باقية ليراها ذوو ^(٤) البصائر قرنا بعد قرن ، كالشمس تجري ما استقرت الأرضون ودارت السماوات .

عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما يمثله آمن ^(٥) البشر ، وإنما كان الذي أوتيته ^(٦) وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » ^(٧) .

قال بعض العلماء : إن معناه أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة . وخرقه العادة في فصاحته وبلاغته ونظمه واسلوبه وإخباره بالمغيبات باق إلى آخر الدهر ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه

(١) في تفسير العياشي : لم تكنه .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٧٥ / ٢ ، والآيتان من سورة الجن : ٧٢ / ١ و ٢ .

(٣) البقرة : ٢ / ٢٤ .

(٤) في النسخة : ذو .

(٥) في صحيح البخاري : ما مثله آمن عليه .

(٦) في صحيح البخاري : أوتيت .

(٧) صحيح البخاري ٦ : ٣١٣ / ٣ ، وزاد فيه : يوم القيامة .

سيكون ^(١) ، وكلّ من سمعه في القرون المتطاولة ، وكان عارفا بكلام العرب واسلوب بياهم ، تتمّ عليه الحجّة بسماعه ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ^(٣) فإنّ الآيتين دالتان على أنّ الحجّة بتلاوة الكتاب العزيز وسماع كلام الله تتمّ على كلّ أحد من العارفين بكلام العرب ومحاوراتهم.

روي أنّ رجلا سأل أبا عبد الله عليه السلام : ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس ^(٤) إلّا غضاضة ^(٥) ؟ فقال عليه السلام : « لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله ^(٦) لزمان دون زمان ، ولا لناس دون ناس ، فهو في كلّ زمان جديد ، وعند كلّ قوم غرض إلى يوم القيامة » ^(٧) .

وفي خطبة طويلة لأمير المؤمنين صلوات الله عليه : « ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحها ، وسراجا لا يخبو توقده ، وبحرا لا يدرك قعره ، ومنهاجا لا يضلّ ناهجه ^(٨) ، وشعا لا يظلم ضوؤه ، وفرقا لا يحمد برهانه ، وبنينا لا تهدم أركانه » ^(٩) .

وفي رواية عن الرضا عليه السلام : « لا يخلق على الأزمنة ، ولا يغث ^(١٠) على الألسنة ، لأنّه لم يجعل لزمان دون زمان ، بل جعل دليل البرهان ، وحجّة على كلّ إنسان ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ^(١١) .

وفي خطبة فاطمة عليها السلام في أمر فذك : « لله فيكم عهد قدّمه إليكم ، وبقية استخلفها عليكم : كتاب الله ، بيّنة بصائره ، وآي منكشفة سرائره ^(١٢) ، وبرهان متجلية ظواهره ، مدمم للبرية استماعه ، وقائد إلى الرضوان أتباعه ، ومؤدّ إلى النجاة أشياعه ، فيه تبيان حجج الله المنيرة ، ومحارمه المحرّمة ، وفضائل المدونة ، وجمله الكافية ، ورخصته الموهوبة ، وشرائطه المكتوبة ، وبيّناته الجالية » ^(١٣) . إلى غير ذلك من الروايات.

(١) فتح الباري ٩ : ٥ .

(٢) العنكبوت : ٢٩ / ٥١ .

(٣) التوبة : ٩ / ٦ .

(٤) في عيون أخبار الرضا عليه السلام : عند النشر والدراسة .

(٥) الغضّ : الطريّ ، والغضاضة : الطراوة والتضارة .

(٦) في عيون أخبار الرضا عليه السلام : لم ينزله .

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٨٧ / ٣٢ ، أمالي الطوسي : ٥٨٠ / ١٢٠٣ .

(٨) في النهج : نهجه .

(٩) نهج البلاغة : ٣١٤ الخطبة ١٩٨ .

(١٠) خلق الثوب : بلي ، وغثّ حديث القوم : ردؤ وفسد .

(١١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٣٠ / ٩ ، والآية من سورة فصلت : ٤١ / ٤٢ .

(١٢) في النسخة : سرائرها .

(١٣) بلاغات النساء : ٢٥ ، دلائل الإمامة : ١١٣ ، الاحتجاج : ٩٩ .

هذا في حقّ العارف بلسان العرب ، وأمّا غير العارف فتتمّ عليه الحجّة بتصديق أهل اللسان إعجازه ، كما تمّت الحجّة على بني إسرائيل الجاهلين بعلم السحرة بتصديق السحرة إعجاز العصا ، وعلى الجاهلين بعلم الطبّ بتصديق الأطباء إعجاز إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

الطرفة الثالثة

في أنّ الكتاب العزيز مع قطع النظر

عن وجوه إعجازه دليل صدق النبي ﷺ

لا شبهة أنّ الكتاب العزيز مع غضّ النظر عن وجوه إعجازه ، يكون من أقوى دلائل صدق نبينا ﷺ لوجوه ، منها :

[١] - أنّه ﷺ أعلن في الناس بصريح كتابه الكريم بأنّ موسى بن عمران ؑ بشر أمته بظهوره صلوات الله عليه وبعثته ، وأخبر بعلائمه ونعوته ، وأنّ عيسى بن مريم ؑ بشر مع ذلك باسمه السامي ، حيث قال في كتابه العزيز : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١) .

فلو لم يكن نبينا ﷺ صادقاً في دعواه ، وعلى حجة فيما ادّعه ، ما كانت اليهود والنصارى مع كثرة عددهم ورهبانهم ، وشدة عداوتهم له ﷺ ولجأهم في ملّتهم ، ساكتين عن معارضته مع تمكّنهم من إحاض حجّته ، وقدرتهم على إبطال دعوته ، ولبادروا إلى تكذيبه ، ولتسارعوا إلى تفضيحه وتنكيهه بأن كانت الأحبار والرهبان لحفظ رياستهم وملّتهم حرّموا على أنفسهم الرّقاد ، وتنادوا بأعلى أصواتهم في البلاد ، وأحضروا الناس في الميعاد ، وأتوا بكتبهم في محضر الحاضر والبادي ، وفتحوها على رؤوس الأشهاد ، وألزموا النبيّ ﷺ على أن يريهم منها آية فيها اسمه أو نعته ، ويخرج منها عبارة فيها علامته وصفته فيظهر عند ذلك بعجزه ، إفحامه وبهته ، فلم يمكن أن يخضّر له بعد ذلك عود ، ولم يقم له عمود ، فلمّا لم يظهر تظاهروهم في ردّه - ولو كان لبان - علمنا بثبوت نعوته في كتبهم ، وتيقّننا بصدقه في إخباره .

إن قيل : قد نطق الكتاب العزيز في عدّة مواضع ، بأنّ اليهود والنصارى حرّفوا الكتابين ،

وغوّروا

(١) الصف : ٦١ / ٦ .

الآيات المبشّرات ببعثته ، الدالات على نعوته ، واتفق المسلمون عليه ، ولازم ذلك أنّه لم يكن في ذلك الوقت في الكتابين آية دالة على نعته ، ولم يكن النبي ﷺ قادرا على إثبات بشارة موسى وعيسى عليهما السلام بمجيئه ورسالته ، ولذلك لم يؤمن أكثر أهل الكتابين بنبوته ، ولو كان في الكتابين ذكر علائمه المنطبقة عليه ، لم يبق لهم عذر في عدم الايمان والتسليم.

قلنا : نعم ، ولكنّه لم يقع التحريف في جميع النسخ الموجودة في ذلك العصر من الكتابين ، وإمّا وقع في عدّة كتب كانوا يظهرونها لعوامهم ، ويتلوونها عليهم إضلالا لهم ، وحفظا لرياستهم في السرّ والخفاء ، ولم يقدروا على التجاهر بالمعارضة لكون النسخ غير المحرّفة كثيرة الوجود ، وكانت عدّة من المسلمين من علماء الفريقين مطلّعين على الآيات غير المحرّفة ، قادرين على إفحام المعارضين الجاحدين ، فلم يجسر أحد على التظاهر بالتكذيب والإنكار ، بل سلك المتمردون مع النبيّ والمسلمين سبيل النفاق.

[٢] - ومنها : أنّ العادة قاضية بأنّ كلّ من يريد أن يثبت لنفسه بين الناس مرتبة من الكمال التي ليست له ، ويدّعي كونه في مرتبة الواجدين أو فوقهم ، وكان لتلك المرتبة من الكمال آثار في الأنظار ، لا بدّ لذلك المدّعي الكاذب من السّعي في إلقاء الشّبّهات في ملازمة تلك الآثار لتلك المرتبة من الكمال ، وإزالة اعتقاد الناس بها ، ومن المبالغة في تنقيص من عرف بهذه المرتبة وتكذيبه في دعوى وجدانه الآثار ، وتكذيب نقلها عنه ، ومن الجدلّ في الإرزاء به حتّى تحصل له رفعة القدر وسماع الدعوى.

مثلا إذا ادّعى مدّع كاذب لنفسه مرتبة النبوة ، وكانت في اعتقاد الناس ملازمة لإتيان المعجزة وعمل خارق للعادة ، وكان المدّعي عاجزا عن ذلك ، فلا بدّ له من إنكار ملازمة النبوة للعاجاز ، ومن السّعي في إلقاء الشّبّهات في أذهان المعتقدين بصدور الإعجاز وخوارق العادات من الأنبياء ﷺ ، ومن حطّ رتبتهم وقدرهم ، ومن سلب العصمة عنهم حتّى يمكنه دعوى التساوي معهم أو التعالي عليهم.

كما ترى ذلك من الفرقة الضالّة البائيّة ^(١) ، حيث إنهم على ما نقل عنهم أنكروا جميع

المعجزات

(١) البائيّة : فرقة أسسها علي محمد ، الملقب بالباب ، المولود بشيراز سنة ١٢٣٥ هـ والمقتول سنة ١٢٦٦ هـ في تبريز بإيران ، وادّعى أنّه الباب الذي لا يجوز الدخول إلّا منه ، وقال بنسخ فرائض الإسلام ، وإنه أفضل من الرسول الأكرم ﷺ ، وإن أقرانه أفضل من الصحابة ، وإن البشر يعجز عن الإتيان بقرآنه ، وسمّى كتابه (البيان) وكان يقول إنه المهدي. معجم الفرق الإسلامية : ٤٨.

ونسبوها إلى الكذب وقالوا : إنّه لا برهان على صدق دعوى مدّعي النبوة إلّا نفوذ قوله وتأثيره في النفوس وقبول الناس.

وكما نرى من أهل السنّة من القول بعدم لزوم عصمة الإمام ، حتّى يتمشّي من الفرقة الأولى دعوى النبوة أو مرتبة فوقها ، ومن الفرقة الثانية دعوى إمامة أئمتّهم مع اتّفاق المسلمين على أنّهم كانوا مشركين في المدة المديدة من عمرهم.

ولما رأينا أنّ نبينا ﷺ بالغ في كتابه العزيز في تعظيم سائر الأنبياء أكثر من تعظيم أمّهم لهم ، وأثبت لهم من المعجزات وخوارق العادات أزيد ممّا اعتقد بها المؤمنون بهم ، كتكلم عيسى عليه السلام في المهد ، وعروجه حيّا إلى السّماء ، وإلقاء شبهه على غيره ، ثم ادّعى لنفسه النبوة ، بل ادّعى أنّه أفضل وأعظم شأنًا من الأنبياء الذين هم ذوو المعاجز الباهرة ، ثم علمنا أنّه آمن به كثير من العقلاء وجمع من امم سائر الأنبياء كاليهود والنصارى وغيرهم من مشركي العرب مع نهاية افتتاهم بألّهتهم وكمال ثباتهم في ملّتهم ، علمنا أنّ هذا المدّعي للنبوة كان قادرا على ما كان سائر الأنبياء قادرين عليه من المعجزات ، وأتى بخارق عادة دالّ على صدقه كما أتى غيره من الأنبياء ، وكان له من العلم ما كان لهم ، ومن الأخلاق والأعمال ما يشبه أخلاقهم وأعمالهم ، وإلّا لم يكدر يمكن أن ينتظم آخره ، ويظهر نوره ، ويزداد على الشمس ظهوره.

إن قيل : إنّ كتابه ناطق أنّه لم يكن له معجزة من معاجز موسى بن عمران عليه السلام حيث قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ (١) بل فيه آيات دالة على أنّه لم يكن له معجزة أصلا كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ (٢) ثم لم يجبه الرسول بأنّي قد جئتكم بما جاء به موسى أو : آتيتكم بعد به ، أو : آتيتكم بمثل ما أتى به سائر الأنبياء والرسل ، بل أجابهم بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ ﴾ (٣) أو قوله : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أو قوله : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٤) وأمثال ذلك.

قلنا : إنّه يكفي في إثبات النبوة إتيان أمر خارق للعادة بحيث يكون إيجاد الله له بيد ذلك النبيّ تصديقا منه تعالى لدعواه ، وإن لم يكن من أنواع إعجاز سائر الأنبياء ، كما أنّه كان لكل واحد من أنبياء

(١) في النسخة : على .

(٢) القصص : ٢٨ / ٤٨ .

(٣) يونس : ١٠ / ٢٠ .

(٤) القصص : ٢٨ / ٤٨ .

(٥) العنكبوت : ٢٩ / ٥٠ .

بني إسرائيل نوع خاص من الإعجاز ، أو أنواع مخصوصة ، ولم يكونوا متوافقين على نوع واحد أو أنواع خاصة ، فإن موسى عليه السلام كان له معجزة العصا ، واليد البيضاء ، وخلق البحر ، وسائر الآيات التسع ، لاقتضاء زمانه لها وعدم اقتضاءه لغيرها ، ولم يظهر من عيسى عليه السلام هذه الأنواع من المعجزات ، بل ظهر منه ما ناسب زمانه من إحياء الأموات وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك .

فلازم النبوة إتيان جنس المعجزة كي يكون دليلا على صدق الدعوى ، فإذا أتى مدعي النبوة بمعجزة دالة على صدق دعواه ، وجب الإيمان به ، والتصديق بنبوته ، واتباع أحكامه ، ولو لم يكن من الأنواع التي كانت لغيره .

نعم إذا توقف هداية شخص على الإتيان بمسؤوله ، وكان سؤاله عن إرادة الاهتداء لا عن التعنت واللجاج ، كان على النبي إجابة مسؤوله وإزالة شبهته ، وأما إذا كان السؤال عن تعنت ولجاج بعد وضوح الحق ، فلم يحسن إجابة السائل المتعنت ، بل يجب جوابه بما يدل على تعنته ، كما أجابهم الله بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾^(١) .

والغرض من التقرير السابق ، هو علمنا من الأمانة القاطعة بأنه كان له عليه السلام معجزة ظاهرة دالة على صدقه إجمالا ، ولو لم يكن من أنواع معجزات سائر الأنبياء عليهم السلام بل كان أقل ، كتحرّك الشجر من مكانه بأمره ، أو تسييح الحصاة في يده ، أو أعظم كانشقاق القمر ، وإحياء الرّم ، فبعد ثبوت إتيانه بما كان مشتركا مع معجزات سائر الأنبياء في جنس الإعجاز ، وإن كان مغايرا لها بالنوع ، يظهر صدقه ويجب اتباعه .

ولا ينافي هذه الآيات ما ادّعيناه حيث إنّ الظاهر أنّ الكفار سألوا إتيان الأنواع المعهودة من سائر الأنبياء كموسى وعيسى ، لا أنهم سألوا صدور جنس المعجزة منه عليه السلام بل الكتاب العزيز دالّ بالصراحة على أنّه كان له معجزة وآية حيث قال : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾^(٢) وقال في تقرير معارضته : ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾^(٣) وأمثال ذلك .

ولما كان سؤالهم تعنتا لم يحسن إجابة مسؤولهم ، ولذا لم يجبههم إلّا بالتفريع والتبكي كقوله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٥) ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) القصص : ٢٨ / ٤٨ .

(٢) الأنعام : ٦ / ١٢٤ .

(٣) القمر : ٥٤ / ٢ .

(٤) القصص : ٢٨ / ٤٨ .

(٥) الأنعام : ٦ / ١٢٤ .

قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(١) ، وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٢) إلى غير ذلك.

[٣] - ومنها : أنّ العاقل المنصف ، البصير ببيانات الأنبياء والمرسلين ، وكلمات الأولياء المقربين ، والحجج المعصومين ، إذا تأمل في الكتاب العزيز ومطالبه ، وتدبر في مضامينه وجوانبه ، علم أنّ هذه المطالب المهمة الشافية ، بهذه البيانات اللطيفة العالية الوافية ، لا يمكن أن تصدر إلّا من لسان النبوة ، وأنّ هذه الدرر الثمينة لا تخرج إلّا من معدن الرسالة ، وهذه الأنوار الباهرة لا تشرق إلّا من عالم الربوبية ، حيث إنّهُ ليس فيه إلّا بيان التوحيد بأنواعه ، من الذاتيّ والصفاتيّ والأفعاليّ ، وبيان الصفات الجلالية السلبية ، والجمالية الثبوتية ، والحثّ على القيام بالعبودية ، والدعوة إلى المحسنات العقلية كالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى وابن السبيل ، وصلة الرحم ، والوفاء بالعقود والعهود وغير ذلك ، والزجر من المنكر والفحشاء والبغي ، وبيان أحكام العبادات والمعاملات ، وقوانين السياسات ، والترغيب إلى تهذيب الأخلاق ، والزهد في الدنيا ، والتوجّه إلى الآخرة ، وبيان العبر والمواعظ ، وذكر حكم بعض الأحكام ، وقصص الأنبياء السالفة ، وعظمة شأنهم وتفصيل معاجزهم وكيفية دعوتهم وشرح معاملة أمهم معهم ، واستئصال من خالفهم بالعذاب ، وبيان المعاد ، وإقامة الأدلة عليه وكيفية الحشر والصراط والميزان والحساب ، والتلطّف والعتاب ، وبيان الجنة وكيفية نعمها ، وبيان النار وتفصيل شذائدها.

وقال بعض : إنّ القرآن العظيم قد اشتمل على كلّ شيء ، أمّا أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلّا وفي القرآن ما يدلّ عليها ، ولا يعلمها إلّا الراسخون ، وفيه الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، ووصف الجنة والنار ، وتعليم الإقرار بالله وبصفاته وأفعاله ، وتعليم الاعتراف بإنعامه والشكر عليها ، والاحتجاج على المخالفين ، والردّ على الملحدين ، وبيان الرغبة والرهبة ، والخير والشر ، والحسن والقبيح ، ونعت الحكمة ، وفضل المعرفة ، ومدح الأبرار وذمّ الفجّار ، والتسليم والتحسين ، والتوكيد والتقريع ، وبيان الأخلاق الذميمة ، وشرف الآداب.

وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السماوات والأرض ، وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى ، وبدء الخلق ، وأسماء مشاهير الأنبياء والرسل والملائكة ، وعيون أخبار الأمم السالفة ، وقصة آدم

مع

(١) الأنعام : ٦ / ٣٧.

(٢) العنكبوت : ٢٩ / ٥٠.

إبليس في إخراجهم من الجنة ، ورفع إدريس إلى السماء ، وإغراق قوم نوح ، وقصة عاد الأولى والثانية ، وثمود والناقة ، وقوم يونس ، وقوم شعيب ، وقوم لوط ، وقوم تبع ، وأصحاب الرس ، وقصة إبراهيم في مجادلة قومه ومناظرته نمرود ، وقصة ابنه إسماعيل مع أمه بمكة ، وبناء البيت ، وقصة الذبح ، وقصة يوسف بطولها ، وقصة موسى في ولادته وإلقائه في اليم ، وقتل القبطي ، ومسيره إلى مدين وتزوجه بنت شعيب ، وكلامه تبارك وتعالى معه بجانب الطور ، ومجيئه إلى فرعون ، وخروجه مع بني إسرائيل من مصر ، وإغراق عدوه فرعون وجنوده ، وقصة العجل ، والقوم الذين خرج بهم إلى الطور وأخذتهم ^(١) الصاعقة ، وقصة القتل من بني إسرائيل ، وذبح البقرة ، وقصته مع الخضر ^(٢) ، وقصته في قتال الجبارين ، وقصة القوم الذين ساروا في سرب ^(٣) من الأرض إلى الصين ، وقصة طالوت وداود مع جالوت ، وقصة سليمان وفتنته وخبره مع ملكة سبأ ، وإتيان عرشها ^(٤) .

وقصة القوم الذين خرجوا فرارا من الطاعون ، فأماهم الله ثم أحياهم ، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مغرب الشمس ومطلعها ، وبناء السد ، وقصة أيوب ، وذو الكفل ، وإلياس ، وقصة أصحاب الرقيم ، وقصة بخت نصر ^(٥) ، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة ، وقصة أصحاب الجنة ، وقصة مؤمن آل ياسين ، وقصة أصحاب الفيل .

وفيه من شأن النبي ﷺ دعوة إبراهيم به ، وبشارة عيسى بمجيئه ، وبعثته ، وهجرته ، ومن غزواته سرية ابن الحضرمي في سورة البقرة ، وغزوة بدر في سورة الأنفال ، وغزوة أحد في سورة آل عمران ، وقصة بدر الصغرى فيها ، وغزوة الخندق في سورة الأحزاب ، وقصة الحديبية في سورة الفتح ، وقصة بني النضير في سورة الحشر ، وغزوة حنين وتبوك في سورة البقرة ، وحجة الوداع في سورة المائدة ، ونكاحه زينب بنت جحش في سورة الأحزاب ، وتحريم سرّيته وتظاهر أزواجه عليه ، وقصة الإفك ، وقصة الإسراء ، وانشقاق القمر ، وسحر اليهود إياه .

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته ، وكيفية الموت وقبض الروح وما يفعل بها بعده ، وصعودها إلى السماء ، وفتح باب السماء للروح المؤمنة ، وإلقاء الكافرة في النار ، وعذاب القبر والسؤال فيه ، ومقرّ الأرواح ، وأشراف الساعة الكبرى ؛ وهي نزول عيسى ، وخروج الدجال ، ويأجوج ومأجوج ، ودابة

(١) في النسخة : وأخذهم .

(٢) في النسخة : خضر .

(٣) السرب : الحفير تحت الأرض .

(٤) في النسخة : عرشه .

(٥) في النسخة : بخت النصر .

الأرض ، والدّخان ، ورفع القرآن ، والحسف ، وطلوع الشمس من مغربها ، وغلق باب التوبة ، وأحوال البعث من التفحات الثلاث : نفخة الفزع ، ونفخة الصّعق ، ونفخة القيام ، والحشر والنشر وأهوال الموقف ، وشدة حرّ الشّمس ، وظلّ العرش ، والميزان ، والحوض ، والصراط ، والحساب لقوم ونجاة آخرين منه ، وشهادة الأعضاء ، وإيتاء الكتب بالإيمان والشمائل وخلف الظهر ، والشفاعة والمقام المحمود ، والجنة وأبوابها ، وما فيها من الأنهار والأشجار والأثمار والحليّ والأواني والقصور والخور والدرجات ومقام الرضوان ، والتحليلات الإلهيّة ، والنار وأبوابها وما فيها من الأودية والسلاسل والأغلال وأنواع العقارب وألوان العذاب والزّقوم والضريع والحميم.

وفيه جميع أسمائه تعالى الحسنى كما ورد في حديث ^(١) ، وجملة أسماء النبيّ ﷺ .

وفيه شعب الإيمان ، ومقامات المتّقين ، وشرائع الاسلام ، وأنواع الكبائر ، وكثير من الصغائر ، وغير ذلك من العلوم.

وقد أفرد جمع من العلماء كتباً فيما تضمّنه القرآن. والظاهر أنّ جميع ما تضمّنه ظاهر الكتاب تحت ثلاثة عناوين :

التوحيد : ويدخل فيه معرفة الله بصفاته وأفعاله ، ومعرفة أنبيائه ومخلوقاته.

والتذكير : وفيه قصص الأمم الماضية ، والمعاد ، والوعد ، والوعيد ، والجنة ، والنار.

والأحكام : من العمليّات والأخلاقيّات.

قيل : ولذلك ورد أنّ الفاتحة أمّ القرآن لأنّ فيها الأقسام الثلاثة ، وسورة الإخلاص ثلثه لأنّ فيها التّوحيد كلّ ، فهل يأتي بمثل هذا الكتاب غير النبيّ ﷺ ؟ وهل يكون الغرض من بعث النبيّ ﷺ إلّا تكميل النفوس بمعرفة المبدأ والمعاد والحكمة النظرية والحكمة العملية من العبادات والمعاملات والسياسات والأخلاق وتربية النفوس بالقيام بها ؟ وهل يقاس القرآن بسائر الكتب السماويّة التي ليس فيها عشر ما في القرآن من العلوم والحكم ؟ فإن كان سائر الكتب السماويّة من عند الله ومنتسبا إلى الله ، فهذا الكتاب الكريم أحقّ وأولى بالانتساب منها ، فإنّ جميع ما ذكرنا فهو ظاهره ، وأما باطنه فبحر لا ينزف ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ ^(٢) .

(١) راجع التوحيد للصدوق : ١٩٤ / ٨ .

(٢) لقمان : ٣١ / ٢٧ .

نقل أنه قيل لموسى بن عمران : يا موسى ، إنما مثل كتاب أحمد في الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن ، كلما مخضته أخرجت زبدته.

الطرفة الرابعة

في بيان سرّ نزول القرآن جملة

إلى البيت المعمور في ليلة القدر

قد اتفقت الأمة من الخاصة والعامة ، وتضافرت بل تواترت نصوصهم على أنّ الكتاب العزيز نزل أولاً في ليلة القدر مجموعاً من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور الذي يكون في السماء الرابعة ، أو إلى بيت العزة في سماء الدنيا إلى السفرة الكرام البررة ، ثمّ نزل به جبرئيل نجوماً على خاتم النبيين ﷺ في مدة عشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين سنة على حسب اختلاف العلماء في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد بعثته وقبل هجرته.

وقيل في سرّ إنزاله جملة أولاً إلى سماء الدنيا أو إلى البيت المعمور : إنّه تفخيم أمر القرآن وأمر النبي الذي أنزل إليه ، وذلك لأنّ فيه إعلام سكّان السماوات السبع بأنّ هذا الكتاب آخر الكتب ، منزل على آخر الرسل وخاتمهم لأشرف الأمم ، قد قرّناه إليهم لتنزله عليهم ، ولو لا أنّ الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجّماً بحسب الوقائع لتنزله إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله ، ولكنّ الله باين بينه وبينها ، فجعل لهذا النبي الكريم الأمرين : إنزاله جملة ، ثمّ إنزاله مفترقاً ، تشريفاً للمنزل عليه.

وقيل : إنّ السرّ هو تسليمه تبارك وتعالى لهذه الأمة ما كان أبرز لهم من الخطّ من الرحمة التي استحقّوها لأجل مبعث محمد ﷺ ، وذلك أنّ بعثة محمد ﷺ كانت رحمة ، فلمّا خرجت الرحمة وفتح بابها جاءت بمحمد ﷺ وبالقرآن معا ، فوضع القرآن ببيت العزة في السماء الدنيا ليدخل في حدّ الدنيا ، ووضعت النبوة في قلب محمد ﷺ ، وجاء جبرئيل ﷺ بالرسالة ثمّ بالوحي ، كأنّه تعالى أراد أن يسلم إلى الأمة الرحمة التي كانت حظّها من الله.

وقيل : إنّ السرّ في نزوله جملة إلى سماء الدنيا ، تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة ، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم ، ولهذا المعنى أمر الله سبعين ألف ملك أن يشيعوا سورة

الأنعام ، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبرئيل بإملائه على السفرة الكرام وإنساخهم إياه وتلاوتهم له.

وفيه أيضا التسوية بين نبينا ﷺ وبين موسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهما السلام في إنزاله كتابه جملة كما أنزل كتابيهما جملتين ، والتفضيل لمحمد ﷺ في إنزاله عليه منجما لحكم كثيرة لا يعلمها إلا الله.

أقول : يمكن أن يكون السرّ تكميل عالم الملكوت ووجود الروحانيين بإيجاد الكتاب الكريم فيهم ، وتقريره أن يقال : المراد من إنزاله إلى سماء الدنيا أو إلى البيت المعمور هو إبداعه تعالى وإيجاده كتابه الكريم بوجوده الجوهرى وصورته النورية في ملكوت السماء وعالم الأنوار ، بعد وجوده في مكنون علمه المعبر عنه بالعرش تارة وباللوح المحفوظ أخرى.

ولما كان وجود خاتم النبيين ﷺ رحمة للعالمين ، حصل ببركته استعداد الكمال لجميع العوالم الملكية والملكويتية ، وكما كان للكتاب العظيم تأثير عظيم بوجوده اللفظي والكتبي في تكميل النفوس المستعدة في عالم الملك ، كان لوجوده الجوهرى التورى في عالم الملكوت تأثير في تكميل وجود الذوات المستعدة الملكوتية والملكية ، وبحصول مرتبة من الكمال الوجودي لعالم الوجود صار مستحقا لتزيينه بوجود خاتم النبيين ، وتكميله ببعثته ، فشملت هذه الرحمة العظيمة ، وبعثه الله فيه.

ثم بعد هذا الفيض حصل له استعداد قبول فيض آخر ، واستحقاق رحمة أتم من إنزال كتابه الكريم الذي هو تجلّي صفاته التامة في العوالم ، وكان إيجاد الكتاب الكريم في عالم الملكوت تكميل الرحمة على جميع الموجودات الملكية والملكويتية ببركة وجود نبي الرحمة ﷺ وإرساله رحمة للعالمين.

ولعلّ هذا الوجه الذي ذكرناه ، أوجه في الواقع ، وأقرب إلى الأذهان من الوجه الذي ذكره الفيض ﷺ في مقدمات (الصافي) فإنه بعد نقل الروايات الدالة على نزول القرآن جملة إلى البيت المعمور في ليلة القدر ؛ قال : كأنّه أريد به نزول معناه على قلب النبي ﷺ كما قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ ﴾^(١) ثمّ نزل في طول عشرين سنة نجوما من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه

(١) الشعراء : ٢٦ / ١٩٣ و ١٩٤.

كلّما أتاه جبرئيل بالوحي وقرأه عليه بألفاظه.

إلى أن قال ﷺ : وبهذا التحقيق حصل التوفيق بين نزوله تدريجاً ودفعه ، واسترحنا من تكلفات المفسرين ^(١) ، انتهى.

مع أنّه ليس فيما ذكرناه حمل الروايات على خلاف ظاهرها ، إذ من الواضح أنّه ليس المراد من القرآن الذي نزل في البيت المعمور الأصوات المعتمدة على المخارج ، المعبر عنها بالحروف والكلمات ، ولا النقوش المنطبعة في الأوراق والصفحات ، بل وجوده الجوهرى ، فإنّ له صورة في عالم الملكوت مغايرة لصورته في هذا العالم ، واستعمال لفظ الإنزال في معنى الإيجاد غير عزيز كما قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ^(٢) أي أوجد لكم.

نعم في خبر المفضل إشعار بتوجيهه ﷺ حيث قال : قال الصادق عليه السلام : « يا مفضل ، إنّ القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة ، والله تعالى يقول : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ^(٣) ، وقال : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ^(٤) ، وقال : ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ^(٥) .

قال المفضل : يا مولاي ، فهذا تنزيله الذي ذكره الله في كتابه ، فكيف ظهر الوحي في ثلاث وعشرين سنة ؟

قال : « نعم يا مفضل ، أعطاه الله القرآن في شهر رمضان ، وكان لا يبلغه إلّا في وقت استحقاق الخطاب ، ولا يؤدّيه إلّا في وقت أمر ونهي ، فهبط جبرئيل عليه السلام بالوحي فبلغ ما يؤمر به [وهو قوله : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ^(٦)]

فقال المفضل : أشهد أنّكم من علم الله علمتم ، وبقدرته قدرتم ، وبحكمه نطقتم ، وبأمره تعملون ^(٧) .

ويمكن حمله على ما ذكرنا من الوجه ، أو إبقاؤه على ظاهره إن كان له ظهور فيما ذكره ﷺ من التوجيه والقول بنزوله في البيت المعمور وفي قلب النبي ﷺ ولا منافاة بينهما.

في بيان أسرار نزول القرآن العظيم نجوماً على النبي ﷺ

وأما سرّ نزوله نجوماً ، فكثير منه :

[١] - أنّه ﷺ بنزوله نجوماً كان يتحدّى بكلّ نجم من آية أو سورة تنزل عليه ، ومن

(١) تفسير الصافي ١ : ٥٧ .

(٢) الزمر : ٣٩ / ٦ .

(٣) البقرة : ٢ / ١٨٥ .

(٤) الدخان : ٤٤ / ٣ - ٥ .

(٥) الفرقان : ٢٥ / ٣٢ .

(٦) القيامة : ٧٥ / ١٦ .

(٧) بحار الأنوار ٩٢ : ٣٨ .

الواضح أنّ عجز الفصحاء عن الاتيان بمثل كلّ واحد من النجوم أظهر في الإعجاز من عجزهم عن إتيان مثل المجموع إذا كان نزوله جملة واحدة إذا كان تحدّى به.

[٢] - ومنه : أنّ في إنزاله نجوما كان لطفًا على المؤمنين ، حيث إنّ كان بنزول نجم يزداد فرحهم و يقينهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾^(١) .

[٣] - وأيضًا : كان بنزول الآيات في مواقع الجهاد يزداد نشاطهم ورغبتهم وجدّهم فيه ، وإذا نزلت بهم بليّة ثم نزلت في شأنهم آية ، كان يهون عليهم تلك البليّة ، وإذا وقعوا في تعب وعناء ، كان نزول الآيات يزيل تعبهم وعناءهم بتكميل بصيرتهم و يقينهم .

[٤] - ومنه : أنّ مناسبة الوقائع ، وخصوصيّات المقامات ، وانضمام القرائن الحالّة ، كانت موجبة لزيادة البلاغة .

[٥] - ومنه : أنّ نزول بعض الآيات ردّا على الكفّار في مواقع معارضتهم ، أو إلقاء شبهاتهم ، أو تهديدًا لهم عند صدور استهزاءهم والطعون منهم على الاسلام والمسلمين ، أو زجرًا لهم عند إرادتهم الفساد في الدّين ، كان أشدّ تأثيرًا في تبكيّتهم وتقريعهم وردعهم وزجرهم وهدايتهم وتبعهم إلى الايمان والانقياد للحقّ .

[٦] - ومنه : أنّ نزوله مفرّقًا أدعى لقبوله وتحمل إطاعة أحكامه ، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة ، فإنّه كان يثقل قبوله على كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي .

روي عن عائشة أنّها قالت : إنّما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل^(٢) فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أوّل شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنا ، لقالوا : لا ندع الزّنا أبداً^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « ليس أحد أرفق من الله تعالى ، فمن رفقته تبارك وتعالى أنّه نقلهم من خصلة إلى خصلة ، ولو حمل عليهم جملة واحدة لهلكوا »^(٤) .

وفي رواية عنهم عليه السلام : « أنّ الله تعالى إذا أراد أن يفرض فريضة أنزلها شيئًا بعد شيء ، حتّى يوطّن

(١) التوبة : ٩ / ١٢٤ .

(٢) قيل : المفصل : مجموعة سور تبدأ من سورة محمد ﷺ إلى آخر القرآن ، سميت بذلك لكثرة الفواصل بينها .

تفسير الصافي ١ : ١٨ ، وراجع : الطرفة (١٣) .

(٣) صحيح البخاري ٦ : ٣١٨ / ١٤ .

(٤) الكافي ٦ : ٣٩٥ / ٣ ، التهذيب ٩ : ١٠٢ / ٤٤٣ .

الناس أنفسهم عليها ، ويسكنوا إلى أمر الله ونهيه [فيها] ، وكان ذلك من [فعل الله عز وجل على وجه] التدبير فيهم أصوب وأقرب لهم إلى الأخذ بها ، وأقلّ لنفارهم منها » (١) .

أقول : ولعلّه إلى جميع الوجوه المذكورة أشار سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (٢) .
روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : أخذ موسى الألواح بعد ما سكن (٣) عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف ، فنقلت عليهم وأبوا أن يقرّوا بها حتّى نتق الله عليهم الجبل كأنّه ظلّة ، ودنا منهم حتّى خافوا أن يقع عليهم ، فأقرّوا بها (٤) .
أقول : لعلّه من الأصار التي كانت على بني إسرائيل أنّه نزلت التوراة على موسى دفعة ، وحمل عليهم جميع التكاليف بدوا ، فصار ثقيلا عليهم ، فأبوا عن قبولها.

الطرفة الخامسة

في أنّ جمع القرآن كان

في عصر النبي ﷺ وبأمره

الحقّ الذي لا ينبغي أن يعرض عنه ، هو أنّ جمع القرآن كان في عصر النبي ﷺ وبأمره لشهادة الآثار ، وحكم العقل ، ومساعدة الاعتبار.

[أولا] : أمّا الآثار فقد روي عن ابن عباس ، قال : قلت لعثمان : ما حملكم [على] أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ووضعتموها في السبع الطوال (٥) ؟

فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه [السور] ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصّتها شبيهة بقصّتها ، فظننت أنّها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنّها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر

(١) الكافي ٦ : ٤٠٧ / ٢ .

(٢) الاسراء : ١٧ / ١٠٦ .

(٣) في الاتقان : سكت .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١ : ١٥٤ .

(٥) قيل : السبع الطوال هي السبع الأول بعد الفاتحة ، والمئين من سورة الإسراء إلى سبع سور ، سميت بذلك لأنّ كلّ منها على نحو مائة آية ، والمثاني بقية السور . تفسير الصافي ١ : ١٨ ، وراجع : الطرفة (١٣) .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ووضعتهما في السبع الطوال ، انتهى ^(١) .

فدلّت هذه الرواية على أنّ كتاب الوحي كانوا يكتبون السور والآيات في عصر النبي ﷺ مجموعة مرتّبة بأمره .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام : يا عليّ ، القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس ، فخذوه واجمعوه ، ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التّوراة . فانطلق عليّ عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر وختم عليه في بيته ، وقال : لا أرتدي حتى أجمعه قال : كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء ، حتّى جمعه » ^(٢) .

قال : وقال رسول الله ﷺ : « لو أنّ الناس قرءوا القرآن كما انزل ، ما اختلف اثنان » ^(٣) . فإنّ الظاهر منه عدم تأخير أمير المؤمنين عليه السلام في امثال أمر النبي ﷺ وأنّه جمعه في حياته . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ^(٤) ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبيّ بن كعب » ^(٥) .

وعن قتادة ، قال : سألت أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ قال : أربعة ، كلّهم من الأنصار : أبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت : من أبو زيد ؟ قال : أحد عموميّ ^(٦) .

وعن ابن حجر : قد ذكر ابن أبي داود في من جمع القرآن قيس بن أبي صعصعة ^(٧) . وروي عن غيره أنّ أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السّكن ، إلى أن قال : ومات ولم يدع عقباً ، ونحن ورثناه ^(٨) .

وعن ابن أبي داود : أنّه مات قريباً من وفاة رسول الله ﷺ فذهب علمه ولم يؤخذ عنه ^(٩) . وقال أبو أحمد العسكريّ : لم يجمع القرآن من الأوس غير سعد بن عبيد ^(١٠) .

(١) مستدرک الحاكم ٢ : ٢٢١ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٥١ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٥١ .

(٤) في النسخة : عبيد الله بن عمر بن العاص ، تصحيف ، انظر تهذيب الكمال ١٥ : ٣٥٧ .

(٥) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٢٤٤ .

(٦) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٢٤٤ .

(٧) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٢٤٩ .

(٨) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٢٤٩ .

(٩) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٢٥٠ .

(١٠) في النسخة : سعيد بن عبيد ، تصحيف ، انظر الطبقات الكبرى ٢ : ٣٥٥ .

وقال محمد بن حبيب : سعد بن عبيد أحد من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ (١) .
وعن قتادة ، عن أنس قال : افتخر الحَيَّان : الأوس والخزرج ، فقال الأوس : منّا أربعة : من
اهتزّ العرش له : سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين : خزيمه بن ثابت ، ومن غسلته
الملائكة : حنظلة بن أبي عامر ، ومن حمته الدّبر (٢) : عاصم بن ثابت. فقال الخزرج : منّا أربعة
جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم (٣) .

وروي البخاري عن أنس ، قال : مات رسول الله ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو
الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد (٤) .
قال بعض الفحول : قد استنكر جماعة الحصر في الأربعة (٥) .

وقال المازني : لا يلزم من قول أنس : لم يجمعه غيرهم ، أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك
، إلى أن قال : وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ، ولا متمسك لهم فيه ، فإنّا لا نسلّم
حملة على ظاهره (٦) .

وعن القرطبي : قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة
مثل هذا العدد. قال : وإنّما خصّ أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم (٧) .

أقول : الظاهر أنّ القراء مع حفظهم لجميع القرآن كان عندهم مكتوبا جميعه ، فإذا طعنت
الملاحدة على القرآن ، وأنكروا تواتره ، تمسكا برواية أنس ، فكيف لم يطعنوا ولا يطعنون على من
اعتقد أنّ القرآن لم يكن مجموعا في زمان النبي ﷺ بل كانت آياته وسوره متفرقة عند الناس ثمّ
تصدى لجمعه بعد وفاة النبي ﷺ أبو بكر وعمر ، مع عدم علمهما بجميع القرآن حتّى جمعه -
على ما قيل - بشهادة شاهدين ؟

وعن النسائي ، عن عبد الله بن عمر ، قال : جمعت القرآن فقرأت به كلّ ليلة ، فبلغ النبي
ﷺ فقال :

(١) الخبر : ٢٨٦ ، الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٩ .

(٢) الدّبر : التحل ، وعاصم بن ثابت. يسمّى حمي الدّبر ، وذلك لأنّه لما أصيب يوم الرجيع أراد المشركون أن
يأخذوا رأسه ، فبعث الله سبحانه عليه مثل الظّلة من الدّبر فحمته منهم ، وكان قد عاهد الله تعالى أن لا يمس
مشركا ولا يمسّه مشرك. أسد الغابة ٣ : ٧٣ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٧ .

(٤) صحيح البخاري ٦ : ٣٢١ / ٢٥ .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٥ .

(٦) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٥ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٥ .

« إقرأه في شهر »^(١) .

وعن محمد بن كعب القرطبي^(٢) ، قال : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري^(٣) .

وعن ابن سيرين ، قال : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة لا يختلف فيهم : معاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وأبو زيد ، واختلفوا في رجلين من ثلاثة : أبو الدرداء وعثمان ، وقيل : عثمان وتميم الداري^(٤) .

وعن الشعبي ، قال : جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ستة : أبي ، وزيد ، ومعاذ ، وأبو الدرداء وسعد بن عبيد ، وأبو زيد ، ومجمع بن جارية قد أخذه إلا سورتين أو ثلاثة^(٥) .

وعن أبي عبيد في كتاب (القراءات) أنه ذكر القراء من أصحاب النبي ﷺ فعدّ من المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم . وعدّ ابن أبي داود من القراء : تميم الداري ، وعقبة بن عامر^(٦) . قال : وممن جمعه أيضا أبو موسى الأشعري^(٧) .

وروى في (الطبقات) : أنّ امرأة من الصحابيات جمعت القرآن . وروى عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث : أنّ رسول الله ﷺ كان يزورها ويسمّيها الشهيذة رحمها الله ، وكانت قد جمعت القرآن^(٨) .

أقول : العجب كلّ العجب أنّ أحدا من هؤلاء لم يعدّوا في من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أمير المؤمنين عليّ^(٩) ، بل روى ابن حجر وغيره من علماء العامة أنّ عليّا^(١٠) جمع القرآن على ترتيب النزول بعد وفاة النبي ﷺ^(٩) .

إن قيل : إنّ المراد من جمع القرآن في الروايات السابقة هو حفظ جميعه لا تدوينه في القراطيس .

قلنا : هذا الاحتمال في غاية البعد ، إذ لا يمكن عادة أن ينحصر في زمان النبي ﷺ حفاظ جميع القرآن في أربعة أو خمسة من الصحابة مع وضوح اشتياق المؤمنين إلى تلاوة القرآن ، وكمال قوّة

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٨ .

(٢) في النسخة : القرطبي .

(٣) الطبقات الكبرى ٢ : ٣٥٦ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٨ .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٨ .

(٦) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٨ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٤٩ .

(٨) الطبقات الكبرى ٨ : ٤٥٧ ، الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٥٠ .

(٩) الطبقات الكبرى ٢ : ٣٣٨ ، الصواعق المحرقة : ١٢٨ .

حفظهم ، وكون تلاوة القرآن وتعلّمه من أهمّ مشاغلهم ، وأفضل عباداتهم ، بل الظاهر أنّ المراد من جمع القرآن هو تدوينه مع ما أفاده النبي ﷺ من تفسير آياته ، وبيان معضلاته ، وكيفية قراءته وسائر العلوم الراجعة إليه .

وعلى هذا النحو من الجمع يحمل ما روته العامة من أنّه لما بويع أبو بكر ، وتحلّف عليّ عليه السلام عن بيعته ، وجلس في بيته ، بعث إليه أبو بكر ، وقال : ما أبطأك عني ، أكرهت إمارتي ؟ قال عليّ عليه السلام : ما كرهت إمارتك ، ولكن آليت أن لا أرتدي بردائي إلّا للصلاة حتّى أجمع القرآن ^(١) .

وكذا ما روي في (الاحتجاج) عن أبي ذرّ رضي الله عنه أنّه لما توفّي رسول الله ﷺ جمع عليّ عليه السلام القرآن ، وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم ، لما قد أوصاه بذلك رسول الله ﷺ ، فلمّا فتحه أبو بكر خرج في أوّل صفحة فتحها فضائح القوم ، فوثب عمر وقال : أردده يا عليّ ، فلا حاجة لنا فيه . فأخذه عليّ عليه السلام وانصرف ^(٢) .

فإنّ خروج فضائح القوم فيما جمعه عليّ عليه السلام لذكره شأن نزول الآيات ، فإنّ كثيرا منها نزلت بسبب عصيان أصحابه ، كما روت العامة أنّه بعد ما أجبر عمر زوجته على الواقعة في ليلة الصّيام حراما ، نزل قوله تعالى : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ^(٣) ، وأنّه بعد ما أبى أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وجمع من الصحابة عن قبول آية محاسبة ما في النفس ، نزل قوله تعالى : ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ^(٤) وأنّه بعد ما شرب جمع من الصحابة الخمر وتكلّم بعضهم في حال السكر بالكفر نزلت آية تحريم الخمر ^(٥) ، أنّه بعد ما قتل اسامة مسلما ألقى إليه السلام بطمع الغيمة نزلت آية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ^(٦) إلى غير ذلك ممّا ذكر في مواقعها .

والحاصل : أنّ الكتاب الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه بيان شأن نزول الآيات ، وأسماء الذين نزلت فيهم وأوقات نزولها ، وتأويل متشابهاتها ، وتعيين ناسخها ومنسوخها ، وذكر عاقبها وخاصّها ، وبيان العلوم المرتبطة بها ، وكيفية قراءتها .

(١) الطبقات الكبرى ٢ : ٣٣٨ ، الصواعق المحرقة : ١٢٨ .

(٢) الاحتجاج : ١٥٥ .

(٣) الدر المنثور ١ : ٤٧٧ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ١٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ١٢٥ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٢٨٦ .

(٥) أسباب النزول : ٨٧ .

(٦) الدر المنثور ٢ : ٦٣٤ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ٩٤ .

ويؤيد ذلك أنه نقل عن ابن سيرين أنه قال : بلغني أنه كتبه على تنزيله ، ولو اجيب إلى ذلك الكتاب لوجد فيه علم كثير ^(١) .

ونقل عنه أيضا أنه قال : كتب عليّ عليه السلام في مصحفه الناسخ والمنسوخ ^(٢) .
بل يشهد لذلك ما رواه الطبرسي في (الاحتجاج) في جملة احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار أن طلحة قال له في جملة مسائله عنه : يا أبا الحسن ، أريد أن أسألك عن مسألة ، رأيتك خرجت بثوب مختوم ، فقلت : « أيها الناس ، إني لم أزل مشغلا برسول الله صلى الله عليه وآله بغسله وكفنه ودفنه ، ثم اشتغلت بكتاب الله حتى جمعته ، فهذا كتاب الله عندي مجموعا ، لم يسقط عني حرف واحد » .

إلى أن قال : فما يمنعك أن تخرج كتاب الله على الناس ، وقد عهد عثمان حين أخذ ما ألف عمر فجمع له الكتاب ، وحمل الناس على قراءة واحدة ، فمزق مصحف أبي بن كعب وابن مسعود وأحرقهما بالنار ؟

فقال له علي عليه السلام : « يا طلحة ، إن كل آية أنزلها الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وآله [عندي] بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي [وتأويل كل آية أنزلها الله على محمد ، وكل حرام وحلال أو حد أو حكم أو شيء إليه تحتاج الأمة إلى يوم القيامة مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي] حتى أرش الخدش » ^(٣) .

قال طلحة : كل شيء من صغير وكبير ، أو خاص أو عام ، كان أو يكون إلى يوم القيامة ، فهو عندك مكتوب ؟ !

قال : « نعم ، وسوى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله أسر إلي في مرضه مفتاح ألف باب [من العلم يفتح من كل ألف باب] ولو أن الأمة منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله اتبعوني وأطاعوني ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » .

إلى أن قال : ثم قال طلحة : لا أراك - يا أبا الحسن - أجبتني عما سألتك عنه من أمر القرآن ، ألا تظهره للناس ؟ قال : « يا طلحة ، عمدا كففت عن جوابك » .

(١) الاستيعاب - المطبوع بهامش الاصابة ٢ : ٢٥٣ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٠٤ .

(٣) الأرض : دية الجراحات .

قال : فأخبرني عمّا كتب عمر وعثمان ، أقرآن كلّهُ ، أم فيه ما ليس بقرآن ؟ قال : « يا طلحة ، بل قرآن كلّهُ » . قال : « إن أخذتم بما فيه نجوت من النار ودخلتم الجنة ، فإنّ فيه حجّتنا وبيان حقّنا وفرض طاعتنا » . قال طلحة : حسبي إذا كان قرآنا فحسبي .

قال طلحة : فأخبرني عمّا في يديك من القرآن ، وتأويله ، وعلم الحلال والحرام ، إلى من تدفعه ، ومن صاحبه بعدك ؟ قال عائشة : « إنّ الذي أمرني رسول الله ﷺ أن أدفعه إليه وصيّ وأولى الناس بعدي بالناس ابني الحسن ، ثمّ يدفعه ابني الحسن إلى ابني الحسين ، ثم يصير إلى واحد بعد واحد [من ولد الحسين] حتى يرد آخرهم على رسول الله ﷺ حوضه [هم مع القرآن] لا يفارقونه والقرآن معهم لا يفارقهم » (١) .

وعن جابر عن أبي جعفر عائشة أنّه قال : « ما يستطيع أحد أن يدّعي أنّه جمع القرآن كلّهُ ، ظاهره وباطنه غير الأوصياء عليهم السلام » (٢) .

وعنه أيضا ، قال : سمعت أبا جعفر عائشة يقول : « ما من أحد من التّاس يقول [إنّه] جمع القرآن كلّهُ كما أنزل الله إلّا كذاب ، وما جمعه وما حفظه كما أنزل الله إلّا عليّ بن أبي طالب والأئمّة من بعده عليهم السلام » (٣) .

ومّا يؤيّد ما ذكرنا من كون القرآن مجموعا على عهد النبيّ ﷺ ، بل يدلّ عليه ، أنّ اسم الكتاب لا يصحّ إطلاقه عرفا إلّا على المطالب المجتمعة المرتبة المدوّنة في أوراق منضودة لغرض واحد ، فإذا كانت مطالب متفرّقة غير مدوّنة أو مدوّنة في أوراق متشتّية ، لا يسمّى كتابا ، ولا شبهة أنّ الله تعالى بعد هجرة النبيّ ﷺ سمّى جميع ما أنزله على النبيّ ﷺ كتابا بقوله في سورة البقرة التي هي أوّل ما نزلت في المدينة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٤) .

وكذا النبيّ ﷺ أطلق على ما أنزل عليه لفظ الكتاب على ما في كثير من الروايات المعتمدة ، بل المتواترة ، منها الرواية المتفق عليها بين الخاصّة والعامة من قوله ﷺ : « إيّ مخلف فيكم الثّقلين ما إن تمسّكنم بهما لن تضلّوا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي » الخبر (٥) . فإنّه نصّ في أنّه كان في ذلك الوقت

(١) الاحتجاج : ١٥٣ .

(٢) بصائر الدرجات : ٢١٣ / ١ .

(٣) بصائر الدرجات : ٢٣ / ٢ .

(٤) البقرة : ٢ / ٢ .

(٥) معاني الأخبار : ٩٠ / ١ - ٥ ، صحيح مسلم ٤ : ١٨٧٣ و ١٨٧٤ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٦٢ / ٣٧٨٦ و : ٦٦٣ / ٣٧٨٨ ، مسند أحمد ٣ : ١٤ ، ١٧ ، ٤٠ : ٣٦٧ ، ٣٧١ و ١٨٢ ، ١٨٩ ، سنن الدارمي ٢ : ٤٣٢ ، مصابيح السنة ٤ : ١٨٥ / ٤٨٠٠ و : ١٩٠ / ٤٨١٦ .

آيات وسور مدوّنة مستحقّة لإطلاق اسم الكتاب عليها ، ولا يمكن القول بأنّ هذا الإطلاق كان من باب المشاركة حيث ^(١) إنّه كان يعلم أنّ بعد وفاته ﷺ يجمع ما انزل عليه ويكون كتابا ، [لأنّا نعلم أنّ التسمية كانت بعد تدوين مقدار من السّور والآيات المنزلة وتحقّق مصداق الكتاب ، ولذا لم يذكر في السور القصار المكيّة التي كانت من أوائل ما نزل لفظ الكتاب.

والحاصل : أنّ لفظ الكتاب بعد ثبوت كونه حقيقة عرفيّة في مطالب مرتّبة مجموعة مدوّنة ظاهر في أنّ كلّ آية تضمّنته كقوله : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أو ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أو ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابِ﴾ أو ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ ^(٢) نزلت بعد تحقّق مصداقه وتدوين سور وآيات مرتّبة مجموعة في أوراق وصفحات أو أكتاف أو عسب مجتمعة ، ولا يلزم الالتزام بنزول جميع الآيات والسور قبل هذا الإطلاق حتّى يعترض عليه بأنّه خلاف الإجماع والمتواتر من الأخبار من أنّ القرآن نزل متدرّجا إلى قبيل وفاته بأيّام أو ساعات.

نعم ، يلزم القول بتغيير مصداق الكتاب صغرا وكبرا ، بسبب انضمام ما ينزل فيما بعد التدوين إليه تدريجيا ، فيرجع الكلام إلى أنّ جميع القرآن في كلّ زمان ، وكتاب الله في كلّ وقت ، كان مقدارا من هذا المجموع الذي بأيدينا ، وبضمّ الآيات شيئا فشيئا بلغ ما بلغ.

فما ذكره المرتضى رضوان الله عليه من أنّ القرآن كان عهد رسول الله ﷺ مجموعا مؤلّفا على ما هو عليه الآن ، وأن جماعة من الصّحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبيّ ﷺ عدة ختمات ^(٣) ، حقّ غير مخدوش ، فإنّ المراد جمعه وختمه بمقدار المنزل في وقت الختم والجمع ، فإنّ تمام القرآن كان في وقت الختم ذلك المقدار الذي ختموه ، وليس مراده ختم جميع ما انزل إليه إلى حين وفاته.

وليت شعري ، كيف قال عمر في مرض النبيّ ﷺ بعد أمره بإحضار الدّواة والكتف : إنّ الرجل ليهجر ، حسبنا كتاب الله ! ^(٤) مع كون آيات الكتاب متفرّقة بين الأصحاب ، وعدم علم أحد غير أمير المؤمنين ع ^(٥) بجميعها ، وعدم معرفة مثل زيد بن ثابت بها ، حتّى نقل عنه أنه جمعها بشهادة الشهود

(١) في نسخة : بملاحظة.

(٢) البقرة : ٢ / ٢ ، السجدة : ٣٢ / ٢ ، الزمر : ٣٩ / ٤١ ، يونس : ١٠ / ١ .

(٣) مجمع البيان ١ : ٨٤ .

(٤) راجع : صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٧ / ١٦٣٧ ، مسند أحمد ١ : ٢٢٢ ، مسند أبي يعلى ٤ : ٢٩٨ / ٢٤٠٩ ، البداية والنهاية ٥ : ٢٠٠ ، تاريخ الطبري ٣ : ١٩٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢ : ٤٨٥ .

إلا آية من سورة الأحزاب ، فإنه لم يجدها إلا عند خزيمة بن ثابت ، فأدخلها في القرآن بشهادته وحده ، ولم يكن غيره مطلقاً عليها !

وكيف لم يعترض أحد على عمر بأئك لا تدري أين آيات الكتاب وعند من تكون ؟ فعلم أنّ الكتاب كان جميعه معيّناً معلوما مشهوراً بين الأصحاب.

[ثانياً] : وأمّا حكم العقل فيبانه : أنه لا شبهة أنّ جمع الآيات كان من أهمّ الواجبات لأنّ فيه حفظ أصلها من الضياع ، وحفظ ترتيبها ونظمها من الاختلال مع أنّ عليها مدار شرع الإسلام ، وأساس الدين والأحكام ، ولم يكن للنبي ﷺ والمسلمين شغل واجب أهمّ منه إلاّ الجهاد ، ولم يكن مزاحماً به في أغلب الأوقات مع كون أمير المؤمنين ﷺ وكثير من الصحابة الخالصين غالب الحضور ، وعنده ﷺ ، وكان جمع القرآن وترتيبه في غاية السهولة ، فكيف يمكن القول بالتسامح والتساهل والتسويق من النبي ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ والخلصين من الصحابة في مدّة عشرين سنة ، وتأخير أمير المؤمنين ﷺ هذا الواجب إلى بعد وفاة النبي ﷺ حتّى يقع كثير من الآيات معرضاً للتغيير والضياع ؟

والحاصل : أنّ جمع الكتاب وترتيب كلّ ما نزل منه في كلّ وقت وتدوينه ونشره ، كان من أوجب الواجبات وأهمّ الامور ، لوضوح أنّه كان من أعظم معجزات النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وأتمّ الدلائل على صدق النبوة وأساس الشريعة ، ومأخذ الأحكام الإلهية ، ولم يكن مزاحماً بأهمّ منه في أغلب الأوقات ، مع أنّنا نعلم أنّه كان أغلب أوقات النبي ﷺ والمؤمنين الصادقين مصروفاً في العبادات ، وأيّ عبادة كان أهمّ من جمع القرآن الذي كان بجمعه وحفظه حفظ الإسلام مع علمهم بكثرة المنافقين والمعاندين للدين مع إقدامهم في مشاقّ الامور لحفظ الاسلام.

وكان جمع القرآن عليهم في غاية السهولة ، خصوصاً على النبي ﷺ مع ملازمة أمير المؤمنين ﷺ لخدمته في الليل والنهار ، فالمتأمل المنصف يقطع بوقوع الجمع متدرجاً بتدرج النزول بأمر النبي ﷺ وخطّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، يقطع بجمع كثير من المؤمنين له وتأليف نسخ كثيرة منه ، وعرضها على النبي ﷺ وعدم تساهل كثير منهم فيه ، حيث لم يكن في زمان النبي ﷺ علم غير علم القرآن ، ولم يكن للصحابة حظّ وعبادة أكثر من تلاوة القرآن.

[ثالثاً] : وأمّا العادة والاعتبار فيبانه : أنّه كان لعدّة من أصحاب النبي ﷺ منصب كتابة

الوحي ، فلا بدّ

لهم بحسب العادة [من] تهيئة لوازم الكتابة من القلم والمداد والأوراق ، أو غير ذلك من الأشياء القابلة للكتابة ، حتى لا يكون لهم تعطيل في موقع الحاجة والقيام بالوظيفة وحفظ الترتيب وإيراد كل سورة أو آية في محلها وموردها ، حتى لا يحصل لهم تحير وكلفة في الكتابة ، وبعيد غايته أنهم كانوا يكتبون الآيات في أوراق متفرقة غير منتظمة ، بحيث إذا أمرهم النبي ﷺ أن يضعوا آية كذا في موضع كذا ، كانوا يدورون ^(١) تلك الأوراق ويفتشون الصحائف المشتتة حتى يجدوا موقعها.

والحاصل : أن التأمل الصادق قاض بأن الكتاب الذين كان منهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد جمعوا جميع الآيات المنزلة على الترتيب الذي كان يأمرهم به النبي ﷺ ، ولم يكونوا غير معتنين بجمعه وترتيبه ، ولا يمكن القول بأنهم كتبوا الآيات في أشياء متفرقة من غير ترتيب ونظم إلى أن دعا الله نبيه ﷺ إلى جواره ، وتقمص أبو بكر خلافته ، وأتفق قتل كثير من القراء باليمامة ، ولم تكن في جميع المدة نسخة مجموعة من الكتاب العزيز بين المسلمين ، وكان أربعة أو خمسة من الصحابة حافظين لجميع القرآن ، وتالين له عن ظهر القلب ، وغيرهم لم يكونوا مطلعين إلا بقليل من آياته ، وكان عند كل منهم جزء قليل منه حتى صمم أبو بكر وعمر لخوف ذهاب القرآن ، على جمعه وترتيبه وكتابة نسخة منه ، كما رواه بعض العامة.

روى البخاري عن زيد بن ثابت ، قال : أرسل [إليّ] أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر ^(٢) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير. فلم يزل [عمر] يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت الذي رأى عمر.

قال زيد : قال أبو بكر : إنك [رجل] شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن واجمعه. قال زيد : فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ . قال : هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتبعت

(١) كذا ، ومراده يبحثون ، والكلمة عامية عراقية تؤدي هذا المعنى.

(٢) استحرّ القتل : اشتدّ.

القرآن أجمعه من العصب واللخاف ^(١) وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد لها مع غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ^(٢) حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر ^(٣) .

وعن الليث بن سعد ، قال : أول من جمع القرآن أبو بكر ، وكتبه زيد ، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت ، فكان لا يكتب آية إلا بشهادة عدلين ، وإن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع خزيمة بن ثابت ، فقال : اكتبوها ، فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين ، فكتب . وإن عمر أتى بأية الرجم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما بما قضيا من اللذة نكالا من الله والله عزيز حكيم) ^(٤) فلم يكتبها لأنه كان وحده ^(٥) .

وعن ابن أبي داود ، قال : قدم عمر وقال : من [كان] تلقى شيئا من القرآن من رسول الله ﷺ فليأت به . وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب ، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شيهدان ^(٦) .

وعن [ابن] أبي داود : أن عمر سأل عن آية من كتاب الله ، فقيل : كانت مع فلان ، قتل يوم اليمامة . فقال : إنا لله ، وأمر بجمع القرآن ، فكان أول من جمعه ^(٧) .

أقول : لعمرى ، إن في هذه الأخبار تضعيف الثقل الأكبر وتوهين نبوة خاتم النبيين ﷺ وتخريب أساس الدين ، وتلقين الملحد الحجة في إنكار تواتر الكتاب المبين ، وليس ببعيد من

(١) العصب : جمع العسيب ، وهي جريدة النخل المستقيمة ، يكشط خوصها ، واللخاف : جمع اللخفة : وهي حجر أبيض عريض رقيق .

(٢) التوبة : ٩ / ١٢٨ .

(٣) صحيح البخاري ٦ : ٣١٤ / ٨ ، الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٠٣ .

(٤) من الثابت أن القرآن الكريم نقل إلينا بالتواتر ، وقد نقلته الجماعة عن الجماعة وذلك مقطوع به عند جميع أهل الإسلام ، وآية الرجم المزعومة منقولة بالآحاد ، بدليل قوله في آخر الحديث (فلم يكتبها لأنه كان وحده) والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، وعليه فإن أمثال هذه الروايات لا يؤخذ بها في إثبات القرآن الكريم ، فإن أمكن حملها على أحد وجوه الحمل وإلا فليضرب بها الجدار .

وقد حمل ابن حزم في (المحلى) آية الرجم على نسخ التلاوة ، أي مما نسخ لفظه وبقي حكمه . هو حمل باطل ، لأنها لو كانت منسوخة التلاوة لما جاء عمر ليكتبها في المصحف . وفي برهان الزركشي ٢ : ٤٣ أن ابن ظفر أنكر في (الينبوع) عدها مما نسخ تلاوة وقال : لأن خبر الواحد لا يثبت القرآن . وحملها أبو جعفر النحاس على السنة حيث قال : ليس حكمها حكم القرآن الذي نقله الجماعة عن الجماعة ، لكنها سنة ثابتة . راجع : سلامة القرآن من التحريف : ٦٤ .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٠٦ .

(٦) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٠٥ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٠٤ .

المستضعفين للثقل الأصغر والمنكرين لإمامة أمير المؤمنين عليه السلام والمعرضين عن أهل الذكر والحجج المعصومين.

وليت شعري ، ما ألجأ عمر وأبا بكر إلى التوسّل بزيد بن ثابت الشابّ الحدث في جمع الكتاب الكريم مع عدم علمه بجميع الآيات ، وأمير المؤمنين صلوات الله عليه بين أظهرهم ، وهو باتّفاق الأمة أعلم الناس بكتاب الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ !

وما السبب في اعتمادهم بشهادة شاهدين في كون شيء من كتاب الله إلّا في آيتين من آخر براءة فاكتفوا فيه بشهادة خزيمة ولم يرجعوا إلى عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه في شيء مع أنّه كان عنده جميع القرآن ، وكان أصدق وأوثق من خزيمة وسائر الأمة ؟ وكيف قال عمر بعد سؤاله عن آية من الكتاب وإطلاعه على كونها عند قتيل اليمامة : إنّ الله ، مع علمه بأنّه لم يفت عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه شيء من الآيات ، وأنّه لم يكن يكتب آيات الكتاب من البرّ والفاجر ؟

الطرفة السادسة

في أنّ القرآن العظيم جمع ثلاث مرات

أحدها كان بحضرة النبي صلى الله عليه وآله

قال الحاكم في (المستدرك) : جمع القرآن ثلاث مرّات : أحدها بحضرة النبي صلى الله عليه وآله واستدل بحديث زيد بن ثابت ، قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله نؤلف القرآن من الرقاع ^(١) .
الثانية : بحضرة أبي بكر - وأستدلّ برواية البخاري عن زيد بن ثابت ، من بلوغ خبر مقتل أهل اليمامة ، وقول عمر : أنّ القتل قد استحرّ بقراء القرآن يوم اليمامة .. إلى آخره ^(٢) - وقد مرّ ذكره في الطرفة السابقة.

وعن الحارث المحاسبي في كتاب (فهم السنن) : كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنّه صلى الله عليه وآله كان يأمر بكتابتها ، ولكنه كان مفرّقا في الرّقاع والأكتاف والعسب ، فإنّما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فيها القرآن منتشر فجمعها جامع ،

(١) مستدرك الحاكم ٢ : ٢٢٩ .

(٢) صحيح البخاري ٦ : ١٣٥ / ١٩٩ .

وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء.

قال : فإن قيل : كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال ؟

قيل : لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ونظم معروف ، قد شاهدوا تلاوته من النبي ﷺ عشرين سنة ، فكان تزوير ما ليس منه مأمونا ، وإنما [كان] الخوف من ذهاب شيء من صحفه.

وقد تقدّم في حديث [زيد] أنه جمع القرآن من العصب واللخاف. وفي رواية : والرقاع ، وفي أخرى : من قطع الأديم ، وفي أخرى : والأكتاف ، وفي أخرى : والأضلاع ، وفي أخرى : والأقتاب .^(١)

قال الحاكم : والجمع الثالث هو ترتيب السور في زمن عثمان ^(٢) .

روى البخاري عن أنس ، أنّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وآذربيجان مع أهل العراق ، فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : أدرك [هذه] الأمة قبل أن يختلفوا [في الكتاب] اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد ابن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهب القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كلّ افق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال زيد : ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾**^(٣) .. الآية ، فألحقناها في سورتها في المصحف ^(٤) .

وقال جمع من العامة : إنّ جمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتّساع اللغات ، فأدّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتّباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجّاً بأنّه

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٠٦ .

(٢) مستدرک الحاكم ٢ : ٢٢٩ .

(٣) الأحزاب : ٣٣ / ٢٣ .

(٤) صحيح البخاري ٦ : ٣١٥ / ٩ .

نزل بلغتهم^(١) .

وقال الحارث المحاسبي : المشهور أنّ جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ، إنّما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهدته من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشّام في حروف القراءات^(٢) .

أقول : الظاهر من بعض الروايات ، وجمع من العلماء ، أنّ الجمع الذي وقع في زمان النبي ﷺ كان مشتملا على العلوم المرتبطة بالقرآن ، من بيان شأن نزول الآيات ، ومن التفسيرات والتأويلات المأخوذ من النبي ﷺ ووجوه القراءات ، كما نقل عن ابن سيرين أنّه قال : بلغني أنّه كتبه عليّ عائشة على تنزيهه ، ولو أجيب إلى ذلك الكتاب لوجد فيه علم كثير^(٣) .

وقال : إنّ كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ^(٤) .

وقال بعض العامة : قد كان بعض الصحابة يدخلون في قراءتهم شيئا من التفسير إيضاحا ، لأنهم محققون فيما تلقّوه من رسول الله ﷺ قرآنا ، فهم آمنون من أن يلبس بعض ذلك ببعض ، وربما كان يكتبه بعضهم^(٥) ، كقراءة ابن عباس : **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾**^(٦) ثم يزيد^(٧) (في مواسم الحج)^(٨) .

أقول : ولعلّ قراءة بعض الآيات المنسوبة إلى عبد الله بن مسعود من هذا القبيل ، كقراءته قوله تعالى : **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** فاختلفوا **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾**^(٩) .

ثم إنّ لما كان في هذا الجمع فضائح القوم ؛ أسقط أبو بكر شأن نزول الآيات وتفسيرها وتأويلها ، وجمعه ثانيا مع إثبات وجوه القراءات ، ثمّ في زمان عثمان لما كثرت الاختلاف جمعه ثالثا على قراءة زيد بن ثابت ، وحمل الناس على قراءته ، وأسقط سائر القراءات وأحرق مصاحف الكملين من قراء الصحابة كعبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما.

ونقل عن ابن مسعود ما يقرب من هذا المضمون : لو كان لي مثل ما لهم لفعلت بصحفهم

مثل ما

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢١٠ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢١١ .

(٣) الاستيعاب - المطبوع بهامش الاصابة ٢ : ٢٥٣ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٠٤ .

(٥) النشر في القراءات العشر ١ : ٣٢ .

(٦) البقرة : ٢ / ١٩٨ .

(٧) أي بعد الآية للتفسير والايضاح .

(٨) صحيح البخاري ٦ : ٥٩ / ٤٤ .

(٩) البقرة : ٢ / ٢١٣ .

فعلوا بصحيفتي ، ولقد قرأت على رسول الله ﷺ سبعين سورة ، وكان زيد بن ثابت في صلب أبيه الكافر - أو قال : - كان يلعب مع الصبيان (١) .

الطرفة السابعة

في أن ترتيب سور القرآن

وآياته كان بأمر الله ووحيه

لا ريب في أن آيات الكتاب العزيزة وسوره ترتيباً مرضياً عند الله ، ثابتاً في اللوح المحفوظ ، منزلاً على النبي ﷺ بواسطة جبرئيل عليه السلام ، لأن حسن الترتيب والنظم مما له مدخل تام في حسن الكتاب ، وفي القرآن المجيد الذي هو أحسن الكتب ، ومطالبه أحسن الحديث ، والعلوم المنطوية فيه أشرف العلوم وأعلاها ، وبيانه في الفصاحة والبلاغة فوق طوق البشر ، لا بد من أن يكون ترتيبه على أحسن الوجوه ، ونظمه أحسن النظام ، بل قال بعض العلماء : إن حسن نظم آيات القرآن وسوره من وجوه إعجازه ، ومن بدائع اسلوبه ، وعلى هذا لا بد أن يكون نظم وترتيبه من قبل الله تعالى ، ولا يكون من البشر ، ويؤيد ذلك أن الله تعالى أضاف الكتاب الكريم إلى ذاته المقدسة . ومن الواضح أن الكتاب اسم لمجموع المطالب المرتبة المنظمة ، فإذا ألف أحد الأحاديث النبوية وبوّجها وربّتها في دفتر ، أو جمع شخص خطب أمير المؤمنين عليه السلام في ديوان ، منضماً ومرتباً ، لا ينسب ذلك الدفتر والديوان إلى النبي ، وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما ، بل يضاف إلى المؤلف والجامع ، وعلى هذا يدل إطلاق كتاب الله في الآيات الكريمة ، والروايات المتواترة على هذه المجموعة المرتبة المنظمة ، على أن علومها وعباداتها ونظمها وترتيبها وتأليفها من الله تعالى ، لا شريك له فيها من خلقه .

ويدل على ذلك ما روي عن عثمان بن أبي العاص ، قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوّبه ، ثم قال : أتاني جبرئيل ، فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (٢) إلى آخرها (٣) .

(١) مستدرک الحاكم ٢ : ٢٢٨ .

(٢) النحل : ١٦ / ٩٠ .

(٣) مسند أحمد ٤ : ٢١٨ ، الإتقان في علوم القرآن ١ : ٢١٢ .

وما روي من أن جبرئيل عليه السلام لما أتى بآية : ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(١) قال : وضعها بين آيتي الرِّبَا والدِّين ^(٢) . وفي رواية : وضعها بعد مائتين وثمانين آية من سورة البقرة ^(٣) .
وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال »^(٤) ، وغير ذلك من الروايات.

ومّا ذكرنا ظهر أنّه بعد ما ثبت أنّ جمع الكتاب الكريم كان في زمان النبي صلى الله عليه وآله وبأمره ، لا بدّ من القول بكون ترتيب جميع آياته وسوره مطابقا للترتيب الذي أوحى الله به إلى نبيّه صلى الله عليه وآله ، وموافقا لما نزل به جبرئيل عليه السلام ، فكلّما نزل من الآيات والسور كان يأمر النبي صلى الله عليه وآله كتاب الوحي بكتابتها في موضعها الذي يأمر جبرئيل بوضعها في ذلك الموضع ، مع أنّ النبي صلى الله عليه وآله كما كان مأمورا بتبليغ أصل الآيات والسور إلى الأمتة ، كان مأمورا بتبليغ نظمها وترتيبها إليهم ، ولا يمكن منه التقصير في التبليغ وأداء وظيفة الرسالة ، فكلّ من كان حافظا للآيات والسور ، كان عالما بترتيبها ونظمها ، وكلّ من جمع القرآن في عصره صلى الله عليه وآله كان جمعه على الترتيب المأمور به ، مع أنّ كثيرا من الصحابة كانوا يعرضون على النبي صلى الله عليه وآله كلّ ما حفظوه من القرآن أو جمعه ، فلو لم يكن على الترتيب المنزل لكان النبي صلى الله عليه وآله يغيّره.

فتحصل من جميع ذلك أنّ كلّ ما كتبه كتاب الوحي ، وكلّ ما جمعه الصحابة من القرآن في عصر النبي صلى الله عليه وآله ، لا جرم كان موافقا في النظم والترتيب لما كان له من النظم في اللوح المحفوظ .
ويؤيد ذلك ما روي عن ابن الزبير ، قال : قلت لعثمان : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾^(٥) قد نسختها الآية الاخرى فلم تكتبها أو ^(٦) تدعها ؟ قال : يابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه ^(٧) .

وما رواه مسلم ، عن عمر ، قال : ما سألت النبي صلى الله عليه وآله عن شيء أكثر ممّا سألته عن الكلالة حتّى طعن بإصبعه في صدري ، وقال : « تكفيك آية الصيف ^(٨) التي في آخر سورة النساء »^(٩) .

(١) البقرة : ٢ / ٢٨١ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢١٧ .

(٣) تفسير الرازي ٧ : ١٠٤ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢١٨ .

(٥) البقرة : ٢ / ٢٤٠ .

(٦) في المصدر : ولم .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢١٣ .

(٨) قال الجزري في شرح الحديث : أي التي نزلت في الصيف ، وهي الآية التي في آخر سورة النساء ، والتي في أولها نزلت في الشتاء . النهاية ٣ : ٦٨ .

(٩) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢١٣ .

وما روته عائشة من أنّ النبي ﷺ كان يقرأ في الليل سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ^(١) .
 وقال السيد المرتضى رضوان الله عليه : إنّ القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان ،
 أي عصر النبي ﷺ - إلى أن قال : - وإنّ جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن
 كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدّة ختمات ، وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنّه كان
 مجموعاً مرتّباً غير مبتور ولا مبثوث ^(٢) .
 أقول : كلّ ذلك يورث القطع بأنّ ترتيب الآيات والسور لم يكن بأهواء الصّحابة وسلاقتهم
 ، بل كان بوحى الله وأمر رسوله ﷺ .

الطرفة الثامنة

في أنّ ترتيب القرآن ليس بترتيب

النزول بل لمناسبات لطيفة

لا شبهة في أنّ الترتيب المقرّر عند الله ، المنزل على النبيّ بين الآيات والسور لمناسبات لطيفة ،
 وروابط منيفة ، ونكت بديعة ، وحكم بليغة لا يعلم جميعها إلّا الله والراسخون في العلم ، ولا يدركها
 إلّا من نور الله قلبه ، وخصّ بالانقياد ربّه ، ووهب له فهم القرآن ، وباشر روحه روح الايمان.
 قال بعض العلماء : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط ^(٣) .
 وقال آخر : من تأمل في لطائف نظم السور ^(٤) وفي بدائع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنّه
 معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته ^(٥) .
 وقال آخر : ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتّى تكون الكلمة الواحدة متّسقة المعاني ،
 منتظمة المباني ، علم عظيم ^(٦) .
 هذا ، ولعمري أنّ ما ذكرته بالنظر إلى حكمة الله البالغة ، وعدم إمكان وضعه الشيء في غير
 موضعه ، وترجيحه أمراً بلا مرجّح ، من أوضح الواضحات وأبين البيّنات ، غنيّ عن الاستدلال
 والتأييد بأقوال

(١) مسند أحمد ٦ : ٩٢ .

(٢) مجمع البيان ١ : ٨٤ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٣٦٩ .

(٤) في الإتقان : وقال الإمام الرازي في سورة البقرة : ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة .

(٥) الاتقان في علوم القرآن ٣ : ٣٧٠ .

(٦) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٣٦٩ .

الرجال ، والعجب مع ذلك من بعض حيث قال ^(١) : علم المناسبة علم حسن ، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد ، مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة ، لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلّف بما لا يقدر عليه إلّا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن الحديث ، فضلا عن أحسنه ، فإنّ القرآن نزل في تيّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرّعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتّى ربط بعضه ببعض ^(٢) ، انتهى.

فإنّ مثل هذا الكلام في ترتيب كلام الله لا ينبغي صدوره من عاقل ، فضلا عن فاضل ، إذ من الواضح أنّ كلّ من ألّف كتابا مشتملا على مطالب متفرّقة وقضايا متشّتة ، يلاحظ البتّة في ترتيبها مناسبة وارتباطا ، فكيف بالحكيم المتعال !

فإنّ المناسبات بين القضايا المتفرّقة والأحكام المختلفة كثيرة جدّا خصوصا في نظر من كان عالما بحقائق الأشياء وجهات الامور ، نعم فهم غير العلماء الراسخين الرّبّانيين قاصر عن درك جميع المناسبات اللّطيفة المنظورة للّطيف الخبير ، ولذا لم يحم حوله المفسّرون ، ولم يخض فيه المتبحّرون.

نعم ، تكلف قليل من علماء العائمة لبيانها ، وأجالوا الفكر في هذه العرصة مع عدم كونهم من فرسانها ، وأين لهم التمكن في هذا القصر المشيد ، وأيّ لهم التناوش من مكان بعيد ؟ حيث إنّهم ما ثقفوا بجبل الله المتين ، وما اتّخذوا سبيلا مع الهداة الرّاسخين.

وإني وإن سلكت في هذا الطريق الزليق ، وغصت في هذا البحر العميق ، وخضت كالذي خاضوا ، وأفضت من حيث أفاضوا ، غير أنّي لمعرفتي بقصوري ما غضضت على ما نلت بضرس قاطع ، وما حكمت فيما قلت على أنّه هو الحقّ الواقع ، بل أبديت ما يليق بالظنّ والاحتمال لئلا يتوهّم في ترتيب الكتاب العزيز ما توهمه هذا البعض من الأمر المحال.

قال الشيخ وليّ الدين المّلوي : قد وهم من قال : لا يطلب للآي الكريمة مناسبة ، لأنّها على حسب الوقائع المتفرّقة ، وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا ، فالمصحف على وفق ما في اللّوح المحفوظ مرتّبة سورة كلّها وآياته بالتوقيف كما انزل جملة إلى بيت العزّة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ، والذي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أوّل

(١) هو الشيخ عز الدين بن عبد السّلام.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٣٧٠.

كلّ شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك علم جم ، وهكذا في السور ، يطلب وجه اتّصالها بما قبلها وما سبقت له ^(١) .

قال بعض العلماء : سورة الفاتحة تضمّنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الاسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية ، وسورة البقرة تضمّنت قواعد الدين وإقامة الدليل عليه ، وآل عمران مكتملة لمقصودها ، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه لما تمسك به النصارى ، وفي البقرة ذكر أنّ الحج مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع ، وأوجب الشروع فيه في آل عمران ^(٢) .

وكان خطاب النصارى في آل عمران أكثر ، كما أنّ خطاب اليهود في البقرة أكثر ؛ لأنّ التوراة أصل والانجيل فرع لها ، والنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر ، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ، ولهذا كانت السور المكّية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء ، فخطوب به جميع الناس ، والسور المدنيّة فيها خطاب من أقرّ بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخطوبوا بيا أيّها الذين آمنوا ، ويا أهل الكتاب ، ويا بني إسرائيل .

وأما سورة النساء فتضمّنت أحكام الأسباب التي بين الناس ، وهي نوعان : مخلوقة لله ومقدورة لهم كالنسب والصّهر ، ولذا افتتحت بقوله : ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثم قال : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ ^(٣) فانظر هذه المناسبة العجيبة في الافتتاح وبراعة الاستهلال حيث تضمّنت الآية المفتتح بها ، ما أكثر السورة في احكامه ، من نكاح النساء ومحرماته والموارث المتعلقة بالأرحام ، فإنّ ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم ، ثم خلق زوجته منه ، ثم بثّ منهما رجالا كثيرا ونساء كثيرة .

وأما المائدة فسورة العقود ، تضمّنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين ، والوفاء بعهود الرّسل ، وما أخذ على الأمة ، وبها تمّ الدين ، فهي سورة التّكميل لأنّ فيها تحريم الصّيد على المحرم الذي هو [من] تمام الإحرام ، وتحريم الخمر الذي هو [من] تمام حفظ العقل والدين ، وعقوبة المعتدين من

(١) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٣٧٠ .

(٢) في الإتيان : النصارى ، وأوجب الحجّ في آل عمران ، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع ، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه .

(٣) النساء : ٤ / ١ .

السَّرَاق والمُحَارِبِينَ ، الذي هو من تمام حفظ الدِّماء والأموال ، وإحلال الطَّيِّبَات الذي هو من تمام عبادة الله ، ولهذا ذكر فيها ما يختصُّ بشريعة مُحَمَّد ﷺ كالوضوء ، والتميم ، والحكم بالقرآن على كلِّ ذي دين .

ولهذا أكثر فيها من ذكر الإكمال والإتمام ، وذكر فيها أنَّ من ارتدَّ عَوَّضَ الله بخير منه ، ولا يزال هذا الدين كاملاً ، ولهذا ورد أنَّها آخر سورة نزلت ، وفيها من إشارات الختم والتمام ، وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنَّيات [من] أحسن الترتيب ^(١) .

وقال بعض آخر : إذا اعتبرت افتتاح كلِّ سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثمَّ هو يخفى تارة ويظهر أخرى ، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد ، فإنَّه مناسب لختم المائدة من فصل القضاء ، كما قال تعالى : ﴿وَفُضِّي بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) .

وكافتتاح سورة فاطر بالحمد ، فإنَّه مناسب لختم ما قبلها من قوله : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ^(٣) كما قال تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٤) .

أقول : الغرض من نقل هذه العباثر والوجوه هو التأييد ، وإن قلنا إنَّ المدعى لوضوحه غني عنه .

الطَّرْفَةُ التَّاسِعَةُ

في أسامي الكتاب العزيز

ووحيه ومناسبة تسميته بالقرآن

قال بعض ^(٥) : إنَّ الله تعالى سمَّى كتابه العزيز بخمسة وخمسين اسماً ^(٦) . كالفرقان ، والذكر ، وأحسن الحديث ، وغيرها . والظاهر أنَّ جميعها ألقاب وأوصاف له ، إلَّا القرآن فإنَّ الأقوى والأظهر أن يكون علماً له بوضع الله تعالى .

(١) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٣٨١ .

(٢) الزمر : ٣٩ / ٧٥ .

(٣) سبأ : ٣٤ / ٥٤ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٣٨٠ ، والآية من سورة الأنعام : ٦ / ٤٥ .

(٥) القائل : هو القاضي أبو المعالي عزيى بن عبد الملك المعروف بشيذلة ، صاحب كتاب (البرهان في مشكلات

القرآن) والمتوفى سنة ٤٩٤ . راجع : شذرات الذهب ٣ : ٤٠١ ، كشف الظنون ١ : ٢٤١ .

(٦) البرهان في علوم القرآن ١ : ٣٤٣ ، الإتيان في علوم القرآن ١ : ١٧٨ .

وقد ذكروا في اشتقاقه ، ووجه مناسبتة وجوها ، والأظهر الأشهر أن يكون القرآن مهموزا ، من القرء بمعنى الجمع ، ومنه : قرأت الماء في الحوض : أي جمعته ، وعلى هذا يكون وجه مناسبة التسمية كونه جامعا لثمرات جميع الكتب السالفة المنزلة ^(١) .

قالوا : إنّ الله جمع جميع الكتب السماوية في التوراة والإنجيل ، وجمع جميع ما في التوراة والإنجيل في القرآن ^(٢) .

ويشهد له ما روي عن النبي ﷺ قال : « أعطيت السور الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأعطيت المثاني مكان الزبور ، وفضلت بالمفصل ثمان وستون ^(٣) سورة » ^(٤) . والأوفى والأنسب كونه جامعا لجميع أنواع العلوم كلّها ، كما قال الله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٥) ، وقال تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ^(٦) . وعنه ^(٧) : « من فهم القرآن فسر [به] جمل العلم » ^(٨) .

وقال ^(٩) في وصف القرآن : « ظاهره حكم ، وباطنه علم ، ظاهره أنيق وباطنه عميق ، له تخوم ^(١٠) ، وعلى تخومه تخوم ، لا تحصى عجائبه ، ولا تبلى غرائب ، فيه مصابيح الهدى ومنار ^(١١) الحكمة » ^(١٢) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « [قد] ولدني رسول الله ﷺ وأنا أعلم كتاب الله ، وفيه بدء الخلق ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وفيه خبر السماء وخبر الأرض ، وخبر الجنة والنار ، وخبر ما كان وما هو كائن ، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي ، إنّ الله تعالى يقول : فيه تبيان كل شيء » ^(١٣) .

وعن ابن عباس ، قال : لو ضلّ منّا عقل كُنّا نجده بالقرآن ^(١٤) ، إلى غير ذلك من الأخبار.

(١) الاتقان في علوم القرآن ١ : ١٨٢ .

(٢) نحوه في الإتقان في علوم القرآن ٤ : ٢٨ .

(٣) في تفسير العياشي : سبع وستين .

(٤) الكافي ٢ : ٤٣٩ / ١٠ ، تفسير العياشي ١ : ١٠٧ / ١٠٢ .

(٥) النحل : ١٦ / ٨٩ .

(٦) الأنعام : ٦ / ٣٨ .

(٧) إحياء علوم الدين ١ : ٣٤٢ .

(٨) التخيم : منتهى كل قرية أو أرض ، يقال : فلان على تخم من الأرض ، والجمع تخوم ، مثل : فلس وفلوس .

(٩) في العياشي : ومنازل .

(١٠) تفسير العياشي ١ : ٧٤ / ١ .

(١١) الكافي ١ : ٥٠ / ٨ . والآية من سورة النحل : ١٦ / ٨٩ .

(١٢) نحوه في الإتقان في علوم القرآن ٤ : ٣٠ - ٣١ .

الطرفة العاشرة

فى أنّ الكتاب الذي بأيدينا هو الكتاب المنزل

المجموع بأمر النبي ﷺ بلا تحريف

وتغيير وزيادة ونقصان

الحق أنّ الكتاب العزيز الذي بأيدينا ، هو ذلك الكتاب المنزل ، المجموع ، المرتب بأمر النبي ﷺ في عصره بلا تحريف وتغيير ، وزيادة ونقصان ، لتواتره بين المسلمين كلّاً وأبعاضاً وترتيباً وقراءة ، ونهاية اهتمام المسلمين كافة ، خصوصاً علماءهم وقراءهم ، في حفظه ، وتلاوته ، والبحث عنه ، لأنّه أساس الإسلام ، وأعظم معجزات سيّد الأنام عليه وعلى آله الصّلاة والسّلام ، ومأخذ الأحكام ، ومنشور الله إلى خلقه ، ونوره المبين في أرضه .

عن السيّد المرتضى ، على ما حكى عنه في جواب مسائل الطّرابلسيّات : أنّ العلم بصحّة نقل القرآن ، كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار ، والوقائع العظام ، والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإنّ العناية اشتدّت ، والدّواعي توقّرت على نقله وحراسته ، وبلغت حدّاً لم يبلغه فيما ذكرناه ، لأنّ القرآن معجزة النبوّة ومأخذ العلوم الشرعيّة والأحكام الدينيّة ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتّى عرفوا كلّ شيء اختلف فيه ، من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد ؟ !

وقال قدس الله روحه أيضاً : إنّ العلم بتفسير القرآن وأبعاضه في صحّة نقله كالعلم بجملته ، وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنّفة ، ككتاب سيبويه ، والمزني ، فإنّ أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما ، حتّى لو أنّ مدخلا أدخل في كتاب سيبويه باباً في النحو ليس من الكتاب لعرف وميّز وعلم أنّه ملحق وليس من أصل الكتاب ، وكذلك القول في كتاب المزني ، ومعلوم أنّ العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء .

وذكر أيضاً أنّ القرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعاً مؤلّفاً على ما هو عليه الآن ، واستدلّ على ذلك بأنّ القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان ، حتّى عيّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له ، وأنّه كان يعرض على النبي ﷺ ويتلى عليه ، وأنّ جماعة من الصحابة

مثل

عبد الله بن مسعود ، وأبي ابن كعب وغيرهما ، ختموا القرآن على النبي ﷺ عدّة ختمات ، وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً غير مبتور ، ولا مبثوث ، وذكر أنّ من خالف في ذلك [من] الإماميّة والحشويّة لا يعتدّ بخلافهم ، فإنّ الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنّوا صحّتها ، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحّته (١) .

ولعمري ، إنّ رضوان الله عليه أبان الحقّ وأجاد ، وأتى بما فوق المراد ، وإن قال الفيض رحمه الله بعد نقله : لقائل أن يقول : كما أنّ الدواعي كانت متوقّرة على نقل القرآن وحراسته من المؤمنين ، كذلك كانت متوقّرة على تغييره من المنافقين المبدّلين للوصيّة ، المغيّرين للخلافة ، لتضمّنه ما يضادّ رأيهم وهواهم (٢) .

أقول : نعم ، ولكن كان توقّر دواعيهم على التغيير ، كتوقّر دواعيهم على إطفاء نور النبي ﷺ وإبطال أمره ، فكما لم ينالوا بمقصودهم في أمر النبوّة لحفظ الله وتأييده ، وقوّة المسلمين وكثرتهم بحيث صار المنافقون بينهم كالشّامة السوداء في الثور الأبيض ، لم ينالوا من القرآن ما كان في قلوبهم من الغرض ، بل كان دون نيلهم إليه حرط القتاد .

ثمّ قال الفيض رحمه الله : والتغيير فيه إن وقع ، فإنّما وقع قبل انتشاره في البلدان ، واستقراره على ما هو عليه الآن ، والضبط الشديد إنّما كان بعد ذلك ، فلا تنافي بينهما (٣) .

أقول : قد ثبت أنّ القرآن كان مجموعاً في زمان النبي ﷺ وكان شدّة اهتمام المسلمين في حفظ ذلك المجموع بعد النبي ﷺ وفي زمان احتمل بعض وقوع التحريف فيه ، كاهتمامهم في حفظ أنفسهم وأعراضهم ، ومن الواضح أنّه لم ينتشر الاسلام في بقاع الأرض وأقطارها إلّا بانتشار الكتاب المجيد فيها ، حيث إنّ إعجاز القرآن دعا الناس إلى الاسلام والإيمان بخاتم النبيين ﷺ ، بل كان نشر الكتاب وشيوعه بين النّاس أكثر من نشر الإسلام ، إذ الكفّار المعاندين للدين ، لشدّة (٤) إعجابهم بآيات الله وسور القرآن ، كانوا يحفظونها ويتلوونها أكثر من حفظهم وقراءتهم لقصائد (٥) شعراء العرب كامرئ القيس وأضرابه ، وخطب الفصحاء ، مع شيوع قوّة الحافظة في أهل ذلك العصر بحيث كان كثير منهم يحفظون الخطب الطوال بسماعها مرّة واحدة ، ولذا كانت العادة مقتضية لأن تكون كلّ آية وسورة في

(١) مجمع البيان ١ : ٨٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧ .

(٢) تفسير الصافي ١ : ٤٨ .

(٣) تفسير الصافي ١ : ٤٨ .

(٤) في النسخة : بشدّة .

(٥) في النسخة : من قصائد .

حفظ جمع كثير كان عددهم فوق حد التواتر ، مع أنه كان حفظ القرآن وتلاوته من أعظم عبادات المسلمين ، فالعادة تقتضي أن يكون جمع كثير منهم حافظين لجميع القرآن .

ومن الواضح أنه كان اهتمامهم بحفظ القرآن من التغيير ، وصيانتهم له من التحريف ؛ كاهتمامهم بحفظ الإسلام وحفظ النبي ﷺ من أن تصيبه آفة وجراحة ، حيث إنهم كانوا ينفذون أنفسهم وأولادهم وأعراضهم وأموالهم دون نفسه الشريفة .

ومن الغرائب ، قوله ﷺ : بل لقائل أن يقول : إنه إنما لا يتغير ^(١) في نفسه ، وإنما التغيير في كتابتهم إياه ، وتلقظهم به ، فإنهم ما حَرَفُوا إِلَّا عند نسخهم من الأصل ، وبقي الأصل على ما هو عليه عند أهله ؛ وهم العلماء به ، فما هو عند العلماء به ليس بمحرّف ، وإنما المحرّف ما أظهره لأتباعهم ^(٢) . انتهى .

فإنّ هذا الاحتمال مبنيّ على فرض كون القرآن الموجود في عصر النبي ﷺ وبعده ، نسخة واحدة أو نسختين عند واحد من الصحابة أو اثنين ، ثم استنسخه جماعة من المنافقين مع عدم اطلاع أكثر المسلمين به وبآياته ، ثم خفي الأصل عن الأنظار ، وانتشر المحرّف في الأقطار ، وهذا الاحتمال ممّا لا ينبغي انقداحه في ذهن أحد ، حيث إنّ القرآن كان بآياته وسوره أظهر من الشمس عند المسلمين ، ولم يكن بينهم علم غير علم القرآن ، فكيف يمكن عدم اطلاع أغلبهم بآياته وسوره ومحلّ آياته وكيفية قراءته !

وقال شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي رضوان الله عليه : وأمّا الكلام في زيادته ونقصانه فممّا لا يليق به ، لأنّ الزيادة فيه مجمع على بطلانها ، والنقصان منه فالظاهر أيضا من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى ، وهو الظاهر في الروايات ، غير أنّه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ، ونقل شيء منه من موضع إلى موضع ، طريقها الآحاد التي لا توجب علما [ولا عملا] فالأولى الإعراض عنها ، وترك التشاغل بها ، لأنّه يمكن تأويلها ^(٣) .

وقال شيخنا الصدوق ﷺ في (اعتقاداته) : اعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزله الله على نبيّه هو ما بين الدّقتين و [هو] ما في أيدي النّاس ، ليس بأكثر من ذلك ، ومن نسب إلينا أنّا نقول إنّّه أكثر من ذلك فهو

(١) في تفسير الصافي : إنه ما تغير .

(٢) تفسير الصافي ١ : ٤٨ .

(٣) تفسير التبيان ١ : ٣ .

كاذب علينا ^(١) ، انتهى.

والعجب مع هذا الكلام من الصدوق أنه نسب إلى الكليني رضوان الله عليه الذي هو من مجدي المذهب الجعفري القول بتحريف القرآن ^(٢) ، مستندا إلى نقله بعض الروايات التي وردت في هذا المعنى ، وعدم تعرضه للقدح فيها ، مع ذكره في أول الكافي أنه كان يثق بما رواه فيه ، فإنه لا دلالة لنقل الروايات والوثوق بصدورها على اعتقاد الناقل بمضمونها أو إفتائه به ، لإمكان حملها على محامل ، كالتقية أو غيرها ، أو رد الناقل علمها إلى الراسخين في العلم ، مع أن الصدوق رحمته الله كان أعرف بمذهب الكليني رحمته الله من غيره ، وكيف يمكن تكذيبه نسبة التحريف إلى الإمامية مع قول شيخه به.

والظاهر أن الصدوق رحمته الله لعلمه بإجماع الإمامية ، ودلالة روايات كثيرة ، بل الكتاب المجيد على عدم تحريفه ، وملاحظة لزوم الوهن من القول به في أساس الإسلام ، وتواتر الكتاب أعرض عن الروايات الكثيرة الدالة على وقوع التحريف فيه ، مع أنه لغاية تعبده بظواهر الأخبار ذهب إلى القول بجواز السهو على النبي صلوات الله عليه وآله.

نعم ، نسب السيد المرتضى رحمته الله الخلاف في ذلك إلى قوم من أصحاب الحديث من الإمامية مع تخطئة لهم قال : إن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهم ، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخبارا ضعيفة ظنوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته ^(٣) .

ولعل في قوله : (مضاف إلى قوم) دلالة على عدم ثبوت النسبة عنده ، والمراد من (أصحاب الحديث) علي بن إبراهيم القمي رحمته الله ومن حذا حذوه.

قال القمي رحمته الله في تفسيره : وأما ما كان خلاف ما أنزل الله ، فقله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ

(١) اعتقادات الصدوق : ٩٣ .

(٢) لم نجد في سائر مصنفات الشيخ الصدوق أي تصريح أو تلميح بنسبة القول بالتحريف إلى ثقة الاسلام الكليني ، كما لم نجد أحدا نقله عن الشيخ الصدوق ، وقد استند بعض المحدثين الذين نسبوا إلى الشيخ الكليني القول بالتحريف (كالفيض في الصافي ١ : ٤٧) على جملة من روايات الكافي ، مع أنه لا توجد في الكافي رواية واحدة تدل دلالة صريحة على التحريف ، ولكن اشتبه عليهم حال بعض الروايات ، وهي إحدى وستون رواية فقط بجميع أجزاء الكافي ، لظهورها باختلاف القراءة أو التفسير ، فعدوا ذلك من أصل المصحف ، وقد بينت بعض الدراسات الحديثة ذلك بكل تفصيل. راجع : دفاع عن الكافي ٢ : ٢١٩ - ٥٠١ .

(٣) مجمع البيان ١ : ٨٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧ .

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ^(١) فقال أبو عبد الله عليه السلام لقارىء هذه الآية : « [خير أمة] يقتلون أمير المؤمنين والحسين بن علي عليه السلام ؟ » .

فقيل له : كيف نزلت يا بن رسول الله ؟ فقال : « إنما نزلت : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ألا ترى مدح الله لهم في آخر الآية : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^(٢) .

ومثله : أنه قرىء على أبي عبد الله عليه السلام : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾^(٣) فقال أبو عبد الله عليه السلام : « لقد سألوكم [الله] عظيماً أن يجعلهم للمتقين إماماً » .

فقيل له : يا بن رسول الله ، كيف نزلت ؟ فقال : « إنما نزلت : (واجعل لنا من المتقين إماماً) » .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾^(٤) فقال أبو عبد الله عليه السلام : « يحفظ الشيء من أمر الله ! وكيف يكون المعقب من بين يديه ؟ »
فقيل له : [و] كيف ذلك يا بن رسول الله ؟ فقال : « إنما نزلت : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وريب يحفظونه بأمر الله () » ومثله كثير .

وأما ما هو محذوف عنه^(٥) فهو قوله تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ - في علي كذا نزلت - ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾^(٦) وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ - في علي - ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾^(٧) وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ - آل محمد حقهم - ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ ﴾^(٨) وقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ - آل محمد حقهم - ﴿ أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾^(٩) وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ ﴾ - آل محمد حقهم - ﴿ فِي عَمْرَاتِ الْمَوْتِ ﴾^(١٠) ومثله كثير نذكره في مواضعه إن شاء الله . قال : وأما التقليل والتأخير فإن آية عدة النساء الناسخة التي هي أربعة أشهر

وعشر ، قدّمت على المنسوخة التي هي سنة ، وكان يجب [أولاً] أن تقرأ المنسوخة التي نزلت قبل ، ثم الناسخة التي نزلت بعد .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾^(١١) وإنما هو : (ويتلوه شاهد منه إماماً ورحمة ومن قبله كتاب موسى) .

(١) آل عمران : ٣ / ١١٠ . (٢) آل عمران : ٣ / ١١٠ .

(٣) الفرقان : ٢٥ / ٧٤ . (٤) الرعد : ١٣ / ١١ .

(٥) في المصدر : محرف منه . (٦) النساء : ٤ / ١٦٦ .

(٧) المائدة : ٥ / ٦٧ . (٨) النساء : ٤ / ١٦٨ .

(٩) الشعراء : ٢٦ / ٢٢٧ . (١٠) الأنعام : ٦ / ٩٣ .

(١١) هود : ١١ / ١٧ .

وقوله : ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾^(١) وإنما هي (نَحْيَا ونموت) لأن الدَّهْرِيَّة لم يقرّوا بالبعث بعد الموت ، وإنما قالوا : نحيا ونموت ، فقدّموا حرفا على حرف ، ومثله كثير .

قال : وأما الآيات التي هي في سورة وقامها في سورة أخرى ؛ فقول موسى عليه السلام : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾^(٢) و﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^(٣) فنصف الآية في سورة البقرة ، ونصفها في سورة المائدة .

وقوله : ﴿اٰكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٤) فردّ الله عليهم ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٥) فنصف الآية في سورة الفرقان ، ونصفها في سورة العنكبوت ، ومثله كثير^(٦) ، انتهى كلامه رفع مقامه .

أقول : إلى هذه الأخبار الضعاف أشار الشيخ رحمه الله بقوله : أنه وردت أخبار كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع ، طريقها الآحاد التي لا توجب علما ، فالأولى الإعراض عنها وترك التشاغل بها ، لأنه يمكن تأويلها .
إلى أن قال : ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه ، وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه ، وعرضها عليه ، فما وافقه عمل عليه ، وما خالفه يجتنب ، ولم يلتفت إليه^(٧) .

أقول : أخبار العرض على الكتاب متضافرة ، بل متواترة معنى أو إجمالا ، وأخبار وقوع التحريف والتغيير مخالفة للكتاب العزيز ، فيشملها قولهم عليه السلام : « ما خالف كتاب الله فهو زحرف أو « باطل » أو « فاضربه على الجدار » أو « لم نقله »^(٨) .

فإنّ قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٩) دالّ على تشريف القرآن وتفضيله على سائر الكتب السماوية بضمانه تعالى بحفظه من الاندراس والانطماس ، وتعهده على صيانه من التحريف والتغيير إلى يوم القيامة ، فكما أنّ ذهاب جميع القرآن ومحوه من بين الناس وجعل كتاب آخر فيهم ينافي ضمانه تعالى لحفظه ، كذلك إسقاط آية أو سورة ، أو تغيير كلمة منه أو هيئته المنزلة

(١) المؤمنون : ٢٣ / ٣٧ .

(٢) البقرة : ٢ / ٦١ .

(٣) المائدة : ٥ / ٢٢ .

(٤) الفرقان : ٥ / ٢٥ .

(٥) العنكبوت : ٢٩ / ٤٨ .

(٦) تفسير القمي ١ : ١٠ .

(٧) تفسير التبيان ١ : ٣ .

(٨) الكافي ١ : ٥٥ / باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب .

(٩) الحجر : ١٥ / ٩ .

ينافي ضمانه تعالى لحفظه ، لأنّ كلّ آية منه قرآن ، ومحو شيء منه مادّة أو كيفة محو للقرآن .
وتقريبه ببيان أوضح : أنّ الله تعالى فضّل دين الإسلام على سائر الأديان بوعده بظهوره على
الدين كلّ ، ومن الواضح أنّ ظهور هذا الدين المبين بظهور القرآن المبين ، وهو بقاءه بين الناس
محفوظا من التغيير والتحريف والاندراس والانطماس ، فلذا تعهّد سبحانه وتعالى بحفظه من جميع
ذلك ، وفضّله على سائر الكتب السماوية بضمان صيانه من كيد المعاندين ودسّ الملحدين ، ولم
يكن منه تعالى هذا التعهّد والضمان في سائر الكتب ، ولذا وقع فيها التحريف والتغيير ، وسقطت
عن الحجّة والاعتبار كسائر الأديان ، فلو قلنا بوقوع التحريف في القرآن - ولو من جهة الترتيب -
لنافى الضمان منه تعالى ، وارتفع بمزّيته على الكتابين وفضيلته من هذه الجهة من البين .
إن قيل : حفظه تعالى النسخة التي جمعها كتبها أمير المؤمنين عليه السلام وأودعها عند أوصيائه
المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وبقاؤها عند خاتمهم إلى الآن ، وإلى آخر الزمان ، كاف في
الوفاء بالعهد وأداء الضمان .

قلنا : ليست هذه الدرجة من الحفظ مزّيّة وفضيلة له ، لكونها مشتركة بين القرآن وسائر
الكتب السماوية ، حيث إنّ من المقطوع أنّه كانت نسخة واحدة غير محرّفة من سائر الكتب محفوظة
عند الأنبياء والأوصياء ، ولعلّها من موارثهم الموجودة الآن عند خاتم الوصيّين ووارث علوم الأنبياء
المرسلين عجل الله فرجه ، فلا يكون وجود هذه النسخة الصحيحة غير المحرّفة منها الذي يكون
كوجودها في اللوح المحفوظ مزّيّة وفضيلة للكتاب الكريم .

قال في (كشف الغطاء) ^(١) في كتاب القرآن ، المبحث الثامن في نقصه : لا ريب أنّه محفوظ
من النقصان بحفظ الملك الدّيّان ، كما دلّ عليه صريح القرآن ، وإجماع العلماء في كلّ زمان ، ولا
عبرة بالنادر ، وما ورد من أخبار النقص تمنع البديهة من العمل بظاهرها ، إلى أن قال : فلا بدّ من
تأويلها بأحد وجوه ^(٢) .

وعن الشيخ البهائي عليه السلام في تغيير القرآن ، قال : والصحيح أنّ القرآن العظيم محفوظ عن
ذلك ، زيادة كان أو نقصانا ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(٣) وما اشتهر بين الناس
من إسقاط اسم

(١) للشيخ جعفر المعروف بكاشف الغطاء المتوفّي سنة ١٢٢٨ هـ .

(٢) كشف الغطاء : ٢٩٨ .

(٣) الحجر : ١٥ / ٩ .

أمير المؤمنين عليه السلام منه في بعض المواضع ، مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ - في علي - ^(١) وغير ذلك فهو غير معتبر عند العلماء ^(٢) .

وعن الشيخ علي بن عبد العالي رحمته الله أنه صنّف في نفي النقيصة في القرآن رسالة مستقلة ، وذكر كلام الصدوق المتقدم ، ثم اعترض بما يدل على النقيصة في الأحاديث ، فأجاب عنها بأن الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة أو الإجماع ، ولم يمكن تأويله ولا حمله على بعض الوجوه ، وجب طرحه ^(٣) .

وبالجملة : أخبار التحريف مع مخالفتها للكتاب الكريم ، ووهن سند كثير منها ، وإعراض أعيان الأصحاب عنها ، ومخالفتها لحكم العقل والعادة والاعتبار ، غير قابلة لأن يعتدّ بها عاقل ، فضلا عن فاضل ، بل نقل كثير من الأصحاب الإجماع على خلافها كما ظهر من كشف الغطاء ، والشيخ البهائي وغيرهما قدس الله أسرارهم.

وعن القاضي نور الله رحمته الله في كتاب (مصائب النواصب) : ما نسب إلى الشيعة الإمامية من وقوع التغيير في القرآن ، ليس ممّا قال به جمهور الإمامية ، إنّما قال به شذمة قليلة منهم لا اعتداد بهم فيما بينهم ^(٤) .

وعن المفيد رحمته الله أنه قال : قال جماعة من أهل الإمامية إنّه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة ، ولكن حذف ما كان مثبتا في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيهه ^(٥) .

وعن المقدّس البغدادي قدس الله روحه في (شرح الوافية) ^(٦) : وإتّما الكلام في النقيصة ، والمعروف بين أصحابنا - حتّى حكى عليه الاجماع - عدم النقيصة أيضا ^(٧) ، انتهى.

مع أنّ ما ذكر في الروايات من الساقطات كآية رجم الشيخ والشيخة وأمثالها ، وكلمة (من خلفه وريب) من قوله : ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ^(٨) وغير ذلك ، بعيد من فصاحة الكتاب العزيز وأسلوبه ، بل يدفعها السنة المتواترة من خبر الثقلين.

(١) المائدة : ٥ / ٦٧ .

(٢) (٣) . آلاء الرحمن ١ : ٦٥ .

(٤) آلاء الرحمن ١ : ٦٤ .

(٥) أوائل المقالات : ٨١ .

(٦) الوافية في الأصول : للمولى عبد الله بن محمد ، المشهور بالفاضل التوني ، المتوفى سنة ١٠٧١ هـ .

(٧) آلاء الرحمن ١ : ٦٥ .

(٨) الرعد : ١٣ / ١١ .

قال الشيخ رحمه الله : وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله رواية لا يدفعها أحد ، أنه قال : « إني مخلف فيكم الثقلين ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، وإهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » قال : وهذا يدلّ على أنّه موجود في كلّ عصر ، لأنّه لا يجوز أن يأمرنا بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به ، كما أنّ أهل البيت ومن يجب اتّباع قوله حاصل في كلّ وقت ، وإذا كان الموجود بيننا مجمعا على صحّته ، فينبغي أن نتشغل بتفسيره وبيان معانيه ونترك ما سواه ^(١) .

وحمل كلامه رحمه الله على وجوده جميعا عند أهله كما صدر عن الفيض رحمه الله خلاف نصّه ^(٢) ، فإنّ القرآن الذي فيه جميع الأحكام ، حتّى أرش الخدش ، غير مقدور التمسك به ^(٣) ، ولا ينتقض بعدم إمكان التمسك بالعترة في زمان الغيبة ، فإنّ المراد بالتمسك بهم توليهم والأخذ بأقوالهم ، وهذا ممكن لكلّ أحد في كلّ عصر لوجود رواياتهم ، وإن لم يمكن التشرف بحضرتهم ، واكتساب الفيوضات الخاصّة من زيارتهم ، واقتباس الأنوار ببركة صحبتهم.

فيتبيّن من جميع ما فصلناه عدم المجال لاحتمال وقوع التحريف في القرآن الشريف بوجه من الوجوه ، فضلا عن القول به من كلّ وجه.

الطّرفة الحادية عشرة

في عدد سور القرآن ، وبيان الاختلاف فيه

المشهور بين الإمامية رضوان الله عليهم أنّ عدد سور الكتاب العزيز مائة وأثنا عشر ، لعدّهم الضّحى والانشراح سورة واحدة ، والفيل وقريش أيضا سورة واحدة ، بل ادّعى بعض الأساطين الإجماع عليه ^(٤) ، وعليه النصوص المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام ^(٥) .

ونقل جماعة من العامّة أنّ في مصحف أبيّ أنّ سورة الفيل وسورة لإيلاف واحدة ^(٦) .

ونقل عن طاوس وغيره من مفسّري العامّة ، على ما في (إتيان السيوطي) : أنّ الضّحى وألم نشرح

(١) تفسير التبيان ١ : ٣ .

(٢) راجع تفسير الصافي ١ : ٤٩ .

(٣) لعلّه يريد به القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، وهو لا يختلف عن الكتاب الذي بين أيدينا إلّا في الترتيب ، حيث إنه عليه السلام جمعه على ترتيب النزول ، وقدم فيه المنسوخ على الناسخ ، وكتب فيه تأويل بعض الآيات وتفسيرها.

(٤) اعتقادات الصدوق : ٩٣ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٩ و ٨٢٧ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٤ .

سورة واحدة ^(١) .

وخالف في ذلك أكثرهم ، وذهبوا إلى أنّ عدد السور مائة وأربع عشرة ، وادّعوا عليه إجماعهم ^(٢) .

نعم ، قال بعضهم بكونه مائة وثلاث عشرة ، يجعل الأنفال والبراءة واحدة ، لعدم البسملة بينهما ، ولما روي عن مجاهد وسفيان وأبي روق ^(٣) ، وهو بمكان من الضعف لاشتغال تعددهما وتعدّد اسمهما بين المسلمين ، ولرواية المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام : « لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة براءة ؛ لأنّ بسم الله للأمان والرحمة ، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف » ^(٤) .

وعن ابن عباس ، قالت : سألت علي بن أبي طالب : لم لم تكتب في براءة ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ ؟ قال : « لأنّها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف » ^(٥) .

وقال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المثني ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ ووضعتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينزل عليه السور ذات ^(٦) العدد ... ^(٧) الخبر ، وقد مرّ تمامه في بعض الطرائف ^(٨) السابقة ^(٩) .

وروى الصدوق رحمته الله في (ثواب الأعمال) ، والعيّاشي ، عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة الأنفال وسورة البراءة في كلّ شهر لم يدخله نفاق أبدا » ^(١٠) .

فمن جميع ذلك ، ومن عدم ظهور شبهة في تعددهما بين الأصحاب ، مع تعرّضهم لاتّحاد بعض السور كما مرّ ، لا ينبغي الإشكال في تعدّد البراءة والأنفال ، وإنّ ما رواه الطبرسيّ والعيّاشيّ عليهما الرحمة عن الصادق عليه السلام : « الأنفال وبراءة واحد » ^(١١) مؤوّل أو مطروح.

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢٨ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢٥ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢٥ .

(٤) مجمع البيان ٥ : ٤ .

(٥) مستدرک الحاكم ٢ : ٣٣٠ .

(٦) في المستدرک : رسول الله صلى الله عليه وآله مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات .

(٧) مستدرک الحاكم ٢ : ٣٣٠ .

(٨) كذا ، والطرائف جمع طريفة ، أما الطرفة فجمعها طرف .

(٩) تقدم في الطرفة الخامسة .

(١٠) ثواب الأعمال : ١٠٦ ، تفسير العيّاشي ٢ : ٢١٣ / ١٧٦٨ .

(١١) مجمع البيان ٥ : ٤ ، تفسير العيّاشي ٢ : ٢١٣ / ١٧٧٠ .

الطَّرْفَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةٌ

في بيان معنى السورة ، وأنَّ اسم كلِّ سورة

كان بتوقيف من النبي ﷺ

السُّورَةُ : اسم لطائفة من القرآن ذات فاتحة وخاتمة ، مسمّاة باسم خاصّ بتوقيف من النبي ﷺ ، وقد نصّ النبي ﷺ بأسماء السور في الأحاديث والآثار .
روي عن عكرمة ، قال : كان المشركون يقولون : سورة البقرة ، وسورة العنكبوت ، يستهزئون بها ، فنزل : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(١) .

ووجه التسمية بالأسماء المعيّنة المعروفة ظاهر ، فإنَّ سورة الحمد سمّيت بالفاتحة لافتتاح القرآن بها ، وسورة البقرة لذكر قصّة البقرة فيها ، ولم تذكر في غيرها ، وسورة آل عمران لذكر آل عمران فيها ، وهكذا سائر السور ، وأمّا وجه تسمية كلِّ قطعة معيّنة بالسورة لارتفاع منزلتها وشأنها لأنّها كلام الله .

وتطلق السورة على المنزلة الرفيعة ، وقيل : إنّها مأخوذة من سور البلد لإحاطتها بآياتها ، واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور ، ومنه السّوار لإحاطته بالسّاعد .

الطَّرْفَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةٌ

في أنّ عدّة سور من القرآن سمّيت بالطوال

وعدّة منها بالمئين وعدّة بالمئاني

وعدّة بالمفصل ووجه التسمية

كما سمّيت كلُّ سورة باسم خاصّ ، سمّيت عدّة سور باسم مخصوص .
عن (الكافي) : بإسناده عن سعد الإسكاف ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « قال النبي ﷺ : أعطيت السور الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأعطيت المئاني مكان الزبور ، وفضّلت بالمفصل ثمان وستون سورة ، وهو مهيمن على سائر الكتب ، فالتوراة لموسى ، والإنجيل لعيسى ، والزبور لداود »^(٢) .

ثمّ اعلم أنّه يستفاد من الرواية الشريفة امور :

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ١٨٧ ، والآية من سورة الحجر : ٩٥ / ١٥ .

(٢) الكافي ٢ : ٤٣٩ / ١٠ .

الأول : أنّ جميع سور القرآن يكون داخلا تحت العناوين الأربعة ، لا تخرج منها سورة.

الثاني : أنّ الطوال مقدّم في الترتيب على المئين ، والمئين على المثاني والمثاني على المفصّل.

الثالث : أنّ الطوال أفضل من المئين ، لكونها بمنزلة التوراة التي هي أفضل من الإنجيل ، والمئين أفضل من المثاني لكونها بمنزلة الإنجيل الذي هو أفضل من الزبور ، ويمكن استفادة كون المفصّل أفضل من المثاني ، لأنّها ممّا فضّل به النبي ﷺ .

قيل : الطول كصرد. وفي بعض روايات العامة : الطوال ، قيل : سميت به لكثرة طولها ، وسمي ما بعدها مئين لأنّ كلّ سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها ، وسمي ما ولي المئين بالمثاني ، لأنّها نثتها أي كانت بعدها ، فهي لها ثوان والمئون لها أوائل.

وقال الفراء : المثاني : هي السور التي آيها أقلّ من مائة ، لأنّها تثني أكثر ممّا يثنّى الطول والمئون.

وقيل : لثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر ، أو لثنية القصص فيها.

وسمي ما ولي المثاني من قصار السور بالمفصّل لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة. وقيل : لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمّى بالمحكم أيضا ^(١) .

في تعيين السور الطوال والمئين والمثاني والمفصّل روي عن سعيد بن جبير ، قال : إنّ الذي تدعونه المفصّل هو المحكم ، وآخره سورة الناس بلا نزاع ^(٢) .

ثم لا إشكال في أنّ عدد الطوال سبع ، لرواية واثلة عن النبي ﷺ قال : « أعطيت السبع الطوال مكان التوراة » ^(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنّ السبع الطوال ^(٤) : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ^(٥) . قال الراوي : فذكر السابعة فنسيتها. وفي رواية أخرى عنه : أنّها الكهف ^(٦) .

وعن مجاهد وسعيد بن جبير : أنّها يونس ^(٧) .

وقال الفيض رحمته الله : الطوال ^(٨) السبع بعد الفاتحة ، على أن تعدّ الأنفال والبراءة واحدة ، لنزولهما جميعا

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢٠.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢١.

(٣) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢١٨.

(٤) في الإتيان : الطول.

(٥) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢٠.

(٦) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢٠.

(٧) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٢٠.

(٨) في تفسير الصافي : الطول.

في المغازي ، وتسميتهما بالقرينتين ^(١) .

وفيه : أنه بعد ما ثبت أنّ الأنفال وبراءة سورتان ، كيف يمكن عدّهما واحدة ، إلّا أن يحمل ما روي عن الصادق عليه السلام من قوله : « الأنفال وبراءة واحد » ^(٢) على تنزيلهما منزلة الواحد من هذه الجهة ، مؤيّداً بالإشعار النبويّ على تقدّم السبع الطوال على غيره.

ثمّ قال : والمئين : من بني إسرائيل إلى سبع سور [سمّيت بها] لأنّ كلّاً منها على نحو مائة آية. والمفصّل : من سورة محمد إلى آخر القرآن ، سمّيت به لكثرة الفواصل [بينها] ^(٣) .

أقول : هذا مبنيّ على عدّ الضحى ، والانشراح ، والفيل ، وقريش ، أربع سور ، وهذا خلاف الأخبار والمعروف بين الأصحاب ، وعليه فلا بدّ أن يعدّ المفصّل من الجاثية حتّى تتمّ ثمان وستون سورة إلى آخر القرآن على ما في الرواية الشريفة.

ثمّ قال عليه السلام : والمثاني بقية السور ، وهي التي تقصر عن المئين ، وتزيد على المفصّل ^(٤) .
أقول : كان عليه أن يكتفي في تعيين المثاني بذكر بقية السور ، إذ بعض المثاني لا تزيد على بعض سور المفصّل على ما حدّه ، لأنّ عدد آيات سورة الرحمن التي جعلها في المفصّل ثمان وسبعون ، وسورة الواقعة ستّ وتسعون ، وليس في المثاني بعد الكهف سورة تكون آياتها بهذا العدد إلّا قليلاً كطه ، والأنبياء ، والمؤمنون ، والشعراء ، والصافات.

ونقل عن جرير بن عبد الحميد أنّه قال : تأليف مصحف عبد الله بن مسعود ، الطوال ^(٥) : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والأنعام ، والأعراف ، والمائدة ، ويونس.
والمئين : براءة ، والنحل ، وهود ، ويوسف ، والكهف ، وبني إسرائيل ، والأنبياء ، وطه ، والمؤمنون ، والشعراء ، والصافات.

والمثاني : الأحزاب ، والحجّ ، والقصص ، والنمل ، والتّور ، والأنفال ، ومريم ، والعنكبوت ، والروم ، ويس ، والفرقان ، والحجر ، والزّعد ، وسبأ ، والملائكة ، وإبراهيم ، وص ، والذين كفروا ، ولقمان ، والزمر.

والحواميم : حم المؤمن ، والزخرف ، والسجدة ، وجمعسق ، والأحقاف ، والجاثية ، والدخان.

(١) تفسير الصافي ١ : ١٨ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ٤ ، تفسير العياشي ٢ : ٢١٣ / ١٧٧٠ .

(٣) تفسير الصافي ١ : ١٨ .

(٤) تفسير الصافي ١ : ١٨ .

(٥) في الإتيقان : الطّول.

والممتحنات ^(١) : إنّنا فتحنا لك ، والحشر ، وتنزيل السّجدة ، والطلاق ، ون والقلم ،
والحجرات ، وتبارك ، والتغابن ، والمنافقون ، والجمعة ، والصفّ ، وقل أوحى ، وإنّا أرسلنا ، والمجادلة
، والممتحنة ^(٢) .

والمفصّل : من الرّحمن إلى آخر القرآن ^(٣) .

أقول : الظاهر من هذا الخبر أنّ الممتحنات والحواميم عند ابن مسعود قسمان خارجان من
الأقسام الأربعة ، وأنّه كان ترتيب السور في مصحفه على خلاف المصحف الذي بأيدينا ، إلّا أنّه لا
اعتبار بهذا النقل.

الطّرفة الرابعة عشرة

في فوائد تقطيع القرآن سورا ، واختلافها

في الطول والقصر والتوسط

قال الزمخشريّ : الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سورا كثيرة ، وكذلك أنزل الله التوراة
والإنجيل والزبور ، وما أوحاه إلى أنبيائه مسوّرة ، وبوّب المصنّفون في كتبهم أبوابا موشّحة الصدور
بالتراجم.

منها : أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا.
ومنها : أنّ القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ، ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث
على التحصيل منه لو استمرّ على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع ميلا أو فرسخا ، نفّس
ذلك منه ونشط للسّير . ومن ثمّ جرّئ القرآن أجزاء وأخماسا .

ومنها : أنّ الحافظ إذا حفظ ^(٤) السورة اعتقد أنّه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلّة بنفسها ،
فيعظم عنده ما حفظه.

ومنه حديث أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا ، ومن ذلك ^(٥) كانت
القراءة في الصلاة بسورة أفضل.

ومنها : أنّ التفصيل بسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملائمة بعضها لبعض ، وبذلك

تتلاحظ

(١) (والممتحنات) ليست في الإتيقان.

(٢) زاد في الإتيقان : ويا أيها النبي لم تحرم.

(٣) الإتيقان ١ : ٢٢٣ .

(٤) في المصدر والإتيقان والبرهان : حذق.

(٥) في المصدر : ثمّة ، وفي الإتيقان والبرهان : ثم.

المعاني والنظم ، إلى غير ذلك من الفوائد ، انتهى ^(١) .

وقيل : إنّ الحكمة في تسوير القرآن سورا تحقيق كون السورة بمجرّدها معجزة وآية من آيات الله ، والإشارة إلى أنّ كلّ سورة نمط مستقلّ ، فسورة يوسف تترجم عن قصّته ، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم ، إلى غير ذلك.

وأما حكمة اختلاف السور طولا وقصرا ، التنبيه على أنّ الطول ليس من شرائط الإعجاز ، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.

وأما الحكمة في جعلها مختلفة المراتب في الطول والقصر والتوسّط بينهما سهولة التعليم والتعلّم وتدرّيج الأطفال والمتعلمين من السور القصار إلى ما فوقها حتّى ينتهون إلى الأوساط ومنها يتدرّجون إلى الطوال على اختلاف مراتبها ، وتيسير الله على عباده في حفظ كتابه ^(٢) وفي قراءة سوره في أضيّق الأوقات وأوساطها وطوالها في الصلوات وغيرها ، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح التي لا يعلمها إلّا الله تعالى.

الطّرفة الخامسة عشرة

في أنّ البسملة جزء من كلّ سورة ،

بل هي أعظم آياتها

لا شبهة أنّ البسملة آية من آيات القرآن ، وجزء من الفاتحة ، وغيرها من السور عدا براءة ، بل هي أعظم الآيات وأفضلها ، حيث روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام : « سرقوا أكرم آية من كتاب الله : بسم الله الرحمن الرحيم ^(٤) الخبر . والعياشي ، عن الصادق عليه السلام قال : « ما لهم ؟ - يعني العامة - قاتلهم الله ، عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فرعموا أنّها بدعة إذا أظهروها [وهي بسم الله الرحمن الرحيم] » ^(٥) إلى غير ذلك من الروايات.

وأما كونها جزءا من الفاتحة ، فلما روي في الصحيح عن محمد بن مسلم ، قال : سألت أبا

(١) الكشف ١ : ٩٧ ، الإتقان في علوم القرآن ١ : ٢٢٩ ، البرهان في علوم القرآن ١ : ٣٣٤ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١ : ٢٢٨ .

(٣) التهذيب ٢ : ٢٨٩ / ١١٥٩ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٠٠ / ٧٧ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٠٣ / ٨٩ .

عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم ، أهي الفاتحة ؟ قال : « نعم » .

قلت : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ من السبع المثاني ؟ قال : « نعم » ^(١) ، أفضلهن ^(٢) .

وعن الحسن العسكري ، عن آبائه عليهم السلام ، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال في حديث : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ آية من فاتحة الكتاب ، وهي سبع آيات تمامها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٣) .

وفي (عيون الأخبار) قال : قيل لأمر المؤمنين عليهم السلام : أخبرنا عن بسم الله الرحمن الرحيم ، أهي من فاتحة الكتاب ؟ قال .

فقال : « نعم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقرأها ويعدّها آية منها ويقول : فاتحة الكتاب هي السبع المثاني » ^(٤) .

وعن أم سلمة - بالطريق العامي - : أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ * ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٥) إلى أن قالت : وعدّ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ آية ، ولم يعدّ عليهم ^(٦) .

وعن علي عليه السلام أنه سئل عن السبع المثاني ، فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فقليل له : إنما هي ست آيات ؟ فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ آية ^(٧) .

وعن ابن عباس ، قال : السبع المثاني فاتحة الكتاب . قيل : فأين السابعة ؟ قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٨) .

وعن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا قرأتم الحمد ، فاقروا ، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فإنّها أمّ القرآن ، وأمّ الكتاب ، والسبع المثاني ، إحدى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ آياتها » ^(٩) .

وأما كونها كجزء من سائر السور ، فلما روي عن معاوية بن عمّار ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إذا قمت للصلاة ، أقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ في فاتحة القرآن ؟ قال : « نعم » . قلت : فإذا قرأت فاتحة القرآن ، أقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مع السورة ؟ قال : « نعم » ^(١٠) .

(١) في التهذيب : نعم ، هي . (٢) التهذيب ٢ : ٢٨٩ / ١١٥٧ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٩ / ١٠ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٣٠١ / ٥٩ .

(٥) الفاتحة ١ / ١ و ٢ .

(٦) سنن الدارقطني ١ : ٣٠٧ / ٢١ .

(٧) سنن الدارقطني ١ : ٣١٣ / ٤٠ ، السنن الكبرى ٢ : ٤٥ .

(٨) السنن الكبرى ٢ : ٤٥ .

(٩) سنن الدارقطني ١ : ٣١٢ / ٣٦ ، السنن الكبرى ٢ : ٤٥ ، وفيهما : إحداها ، بدل : إحدى آياتها .

(١٠) الكافي ٣ : ٣١٢ / ١ ، الاستبصار ١ : ٣١١ / ١١٥٥ .

وعن يحيى بن أبي عمران ، قال : كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام : جعلت فداك ، ما تقول في رجل ابتداء ب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في صلاته وحده في أم الكتاب ، فلمّا صار إلى غير أم الكتاب من السورة تركها ، فقال العباسي : ليس بذلك بأس ؟ فكتب بخطّه : « يعيدها مرتين على رغم أنفه » يعني العباسي ^(١) . والظاهر أنّ إيجاب الإعادة لعدم تماميّة السورة ، لا لكون البسملة واجبا مستقلا .

ومن طرق العامة ، ما روي عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وآله لا يعرف فصل السورة حتّى تنزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وزاد البرّاز : فإذا أنزلت ، عرف أنّ السورة [قد] ختمت ، واستقبلت ، أو ابتدئت سورة أخرى ^(٢) .

وعن ابن عباس ، قال : كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتّى تنزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، فإذا أنزلت علموا أنّ السورة قد انقضت ^(٣) .

وعنه أيضا أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا جاءه جبرئيل فقرأ : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، علم أنّها سورة ^(٤) .

وعن ابن عمر : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « كان إذا جاءني جبرئيل بالوحي ، أول ما يلقي عليّ : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ » ^(٥) .

وعنه أيضا ، قال : « نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كلّ سورة » ^(٦) .
وعن أنس ، قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم بين أظهرنا ، إذ أغفى إغفاءة ، ثمّ رفع رأسه متبسّما فقال : « أنزلت عليّ أنفا سورة ، فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوفَرُ﴾ » ^(٧) .

ولا يخفى أنّ على ما ذكرنا اتّفقت الإماميّة رضوان الله عليهم أجمعين ، وأمّا العامة فقد اختلفوا على أقوال شتى ، منهم من انكر كونها من القرآن ، وإليه أشار ابن عباس بقوله : استرق الشيطان من الناس

(١) الكافي ٣ : ٣١٣ / ٢ ، الاستبصار ١ : ٣١١ / ١١٥٦ ، والمراد بأبي جعفر الجواد عليه السلام ، والعباس هو هشام بن إبراهيم ، وكان يعارض الرضا والجواد عليهما السلام ، وقوله « يعيدها مرتين » يمكن أن يكون متعلّقا بكتب ، فيكون من تنمة كلام الراوي ، وقال الفيض : « يعيدها » يعني الصلاة أو البسملة ، والأول أظهر ، « مرتين » متعلق بقوله : « فكتب » لا بقوله : « يعيدها » إذ لا وجه لتكرار الإعادة .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٦٨ .

(٣) مستدرک الحاكم ١ : ٢٣٢ .

(٤) مستدرک الحاكم ١ : ٢٣١ .

(٥) سنن الدارقطني ١ : ٣٠٥ / ١٣ ، الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٧٠ .

(٦) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٧٠ .

(٧) صحيح مسلم ١ : ٣٠٠ / ٥٣ ، الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٧٠ ، والآيتان من سورة الكوثر : ١٠٨ / ١ .

أعظم آية من القرآن : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) .
 ويقولون : أغفل الناس آية من كتاب الله لم تنزل على أحد سوى النبي ﷺ إلا أن يكون سليمان بن داود ، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) .
 وفي ذيل كلامه إشارة إلى ما روي عن النبي ﷺ قال : « لا أخرج من المسجد حتى أخبرك بآية لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري » ثم قال : « بأي شيء تفتتح القرآن إذا افتتحت الصلاة ؟ » قلت : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال : « هي هي »^(٣) .
 وما عن الباقر عليه السلام : « سرقوا أكرم آية من كتاب الله ، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٤) »
 وينبغي الإتيان بها عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه .
 ومنهم من قال إنها آية مستقلة ليست جزءا من سورة .
 ومنهم من قال إنها جزء من الفاتحة دون غيرها من السور .
 واستدل من قال منهم بأنها جزء من جميع السور بأنه يكفي في إثبات تواتر كونها من جميع السور إثباتها في مصاحف الصحابة فمن بعدها بخط المصحف مع منعهم أن يكتب في المصحف ما ليس منه كأسماء السور ، وآمين ، وغير ذلك ، فلو لم تكن قرآنا لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز ، لأن ذلك يحمل الناس على اعتقادها قرآنا فيكونون مغررين بالمسلمين ، حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا ، وهذا مما لا يجوز اعتقاده في الصحابة .
 إن قيل : لعله اثبت للفصل بين السور . اجيب : بأن هذا فيه تغرير ، ولا يجوز ارتكابه لمجرد الفصل ، ولو كانت لكتبت بين براءة والأنفال .

الطرفة السادسة عشرة

في أن آيات الكتاب العزيز

بين محكم ومتشابه وفي تعريف كل منها

لا ريب في أن آيات الكتاب العزيز قسمان : محكم ومتشابه ، كما قال الله تعالى : ﴿آيَاتُ

مُحْكَمَاتٌ

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٦٨ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٦٨ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٢٦٨ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٠٠ / ٧٧ .

هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٍ ^(١) واختلفت في تعريفهما الروايات وكلمات العلماء.

والحقّ أنّ المراد بالمحكم : هو الكلام الواضح الدلالة بحيث لا يكون للعرف - ولو بملاحظة القرائن المكتنفة به - تحيّر في استفادة المراد منه ، ولا يحتاج في تعيين المقصود منه إلى الرجوع إلى العالم أو إلى القرائن المنفصلة والأدلة العقلية والتقليدية الخارجية.

والمراد بالمتشابه : هو الكلام المجمل أو المبهم الذي يشتبه المراد منه على العرف ، بحيث لا يكون له بالوضع أو بالقرائن المتصلة حقيقة أو حكما ظهور في المراد منه ، بل لا بدّ في الاستفادة منه من الرجوع إلى العالم الخبير بمراد المتكلم ، أو إلى الاجتهاد في تحصيل القرائن المنفصلة عن الكلام من حكم العقل المستقلّ ، أو سائر كلمات المتكلم.

ولعلّه إلى ما ذكرنا يرجع ما عن العياشي عليه السلام عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن المحكم والمتشابه فقال : « المحكم ما يعمل به ، والمتشابه ما اشتبه على جاهله » ^(٢) فإنّ الظاهر أنّ المراد من قوله : « ما يعمل به » ، هو الكلام الذي لا يتوقّف العرف في فهم المراد منه والعمل به ، وهو جميع آيات الأحكام.

كما روي عن ابن عباس ، قال : المحكمات : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ، وما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات : منسوخه ، ومقدّمه ، ومؤخّره ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما يؤمن به ولا يعمل به ^(٣) .

وعن مجاهد ، قال : المحكمات : ما فيه الحلال والحرام ، وما سوى ذلك منه متشابه يصدّق بعضه بعضا ^(٤) .

في أنّ النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين من ذريته عليهم السلام عالمون بتأويل المتشابه ، وفي تغليط القائلين باختصاص علمه بالله تعالى وعن الرّبيع ، قال : المحكمات : هي أوامره وزواجره ^(٥) . إلى غير ذلك من التعريفات ، فإنّ جميعها بيان لموارد التنّصيص والظهور ، وهي جميع الأحكام دون غيرها ، فإنّ في غير آيات الأحكام كثيرا ما يكون الإجمال والإهمال.

ثمّ إنّّه قد غلط من قال باختصاص العلم بتأويل المتشابهات بالله سبحانه ، وإنّّه ممّا استأثر به ذاته المقدّسة ، ولا يعلمه النبي صلى الله عليه وآله وأوصياؤه المعصومون صلوات الله

(١) آل عمران : ٣ / ٧.

(٢) تفسير الصافي ١ : ٢٩٥ ، تفسير العياشي ١ : ٨٧ / ٣٨ « نحوه » .

(٣) تفسير الطبري ٣ : ١١٥ .

(٤) تفسير الطبري ٣ : ١١٥ ، الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٤ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٥ ، وفيه : هي الأمرة الزاجرة.

عليهم أجمعين ، فإنّ فائدة الكلام تفهيم الغير ، فلو خلا عن هذه الفائدة ، ولو بالنسبة إلى الواحد ، كان لغوا ، والحكيم تعالى منزّه عنه ، مع أنّ النبيّ ﷺ كان يتحدّى بكلّ آية من الكتاب العزيز ، ولا يمكن أن يتحدّى بما لا يعرف المراد منه ، ولا يفهم معناه ، مع أنّه تعالى استثنى عن جميع الخلق غير العالمين بتأويل المتشابهات الراسخين في العلم ، وقرّهم بذاته المقدّسة في العلم بتأويلها ، والمراد بالراسخين في العلم النبيّ ﷺ وأوصياؤه من بعده صلوات الله عليهم كما في رواية . [عن أحدهما عليه السلام] قال : « فرسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم ، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّ » .^(١)

وعن أمير المؤمنين - في حديث - قال : « إنّ الله جلّ ذكره بسعة رحمته ورأفته بخلقه ، وعلمه بما يحدثه المبدّلون من تغيير كلامه ^(٢) ، قسّم كلامه ثلاثة أقسام ؛ وجعل قسما منه يعرفه العالم والجاهل ، وقسما لا يعرفه إلّا من صفا ذهنه ، ولطف حسّه ، وصحّ تميّزه ، ممّن شرح الله صدره للإسلام ، وقسما لا يعرفه إلّا الله وأنبياءه ^(٣) والراسخون في العلم » ^(٤) .

وعن العياشيّ : عن الصادق عليه السلام - في حديث - قال : « نحن الراسخون في العلم ، ونحن نعلم تأويله » ^(٥) .

وعن ابن عباس بطريق عامّي في قوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ^(٦) قال : أنا ممّن يعلم تأويله ^(٧) .

وعن مجاهد ، في قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال : يعلمون تأويله ، و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ^(٨) .

وعن الضحاك ، قال : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه ومنسوخه ^(٩) ، ولا حلاله ولا ^(١٠) حرامه ، ولا محكمه عن ^(١١) متشابهه ^(١٢) .

وعن النوويّ على ما نقله السيوطيّ عنه ، أنّه قال في (شرح مسلم) : إنّّه الأصح ؛ لأنّه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته ^(١٣) .

ثمّ أنّ منشأ غلط أكثر أهل السنّة في المقام ، توهم كون الواو في ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾

استثنافا

(١) الكافي ١ : ١٦٦ / ٢ . (٢) في الإحتجاج : كتابه .

(٣) في الإحتجاج : وامنائه . (٤) الإحتجاج : ٢٥٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥ .

(٥) تفسير العياشيّ ١ : ٢٩٣ / ٦٤٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥ .

(٦) آل عمران : ٣ / ٧ .

(٧) (٨) . الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٦ .

(٩) في الإتيان : من منسوخه . (١٠) و (١١) . في الإتيان : من .

(١٢) و (١٣) . الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٦ .

و [ما] بعده مبتدأ وقوله : ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾^(١) خبره ، وهو بمكان من الضّعف لقوة ظهور الواو في العطف ، وعدم وجود قرينة في المقام تليق أن تكون صارفا عنه.

وأضعف منه تأييد بعضهم هذا التوهم بأن الآية دلّت على ذمّ متّبعي المتشابه ، ووصفهم بالزيف وابتغاء الفتنة ، وعلى مدح الذين فوّضوا العلم إلى الله ، وسلّموا إليه ، حيث إنّ الآية دالّة على ذمّ أهل الزيف غير العالمين بتأويل المتشابه ، بأنّهم مع جهلهم بتأويله يؤوّلونه ويتّبعونه لا طلبا للحقّ ، بل ابتغاء للفتنة ، ففيهم جهات عديدة الذمّ.

وأما الراسخون في العلم فإنّهم لعلمهم بتأويله ، ومعرفتهم بالعلوم المندرجة في المتشابهات ، يتجاهرون بالإيمان بها ، ويشهدون على رؤوس الأشهاد بأنّها كلام الله كالحكمات.

ولو كان أهل الزيف والعلم مشاركين في الجهل بالتأويل متفاوتين في الإيمان والنفاق لم يحسن توصيف المؤمنين بالعلم ، بل كان الأنسب أن يقال : (وأما الراسخون في الإيمان يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا) مع أنّ التأييد المذكور لا يقاوم البرهان الذي قدّمناه من لزوم اللغو على الحكيم ، وهو محال عند العدليّة ، ومستبعد عند من يجوّز القبيح على الله من الأشاعة.

وأما استدلالهم بما روه بطرقهم ، عن الأعمش ، قال : إنّ في قراءة ابن مسعود (إن تأويله إلّا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به)^(٢) فموهون سندا ودلالة ، لعدم كون ما نقل عنه قرآنا يقينا ، بل هو تفسير له ، ولعلّ مراده أنّ الراسخين لا يؤوّلون المتشابه من قبل أنفسهم وأهوائهم ، بل بتعليم الله إياهم.

فالعلم به أولا عند الله ، ثمّ بإفاضته يعلمه الراسخون ويقولون : آمنا به كلّ من المحكم والمتشابه من عند الله ، كاشفات عن العلوم غير المتناهية الإلهيّة ، وبهذا يجمع بين الرواية السابقة عن ابن عباس ، وما روي عنه من قراءته : (وما يعلم تأويله إلّا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به)^(٣) وما روي عن أبيّ بن كعب أنّه قرأ : (ويقول الراسخون)^(٤) .

ومثله في الوهن استدلالهم بما روي عن أبي مالك الأشعري أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا أخاف على أمّتي إلّا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب

(١) آل عمران ٣ : ٧ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٧ ، والآية من سورة آل عمران : ٣ / ٧ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٦ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٧ .

فيأخذه المؤمن ، يبتغي تأويله وما يعلم تأويله إلا الله » ^(١) . حيث إنّ المراد من الأمة المخوف عليهم التأويل ، غير الراسخين في العلم ، كما أنّ المراد من الذين يخاف عليهم التحاسد والمقاتلة غير المعصومين منهم ، ولا دلالة لعدم ذكر بقية الآية على شيء.

كما أنّ الخطاب فيما روي عنه ﷺ أنّه قال : « إنّ القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعلموا به ، وما تشابه فآمنوا به » ^(٢) متوجّه إلى غير الراسخين في العلم العالمين بتأويله من لدن حكيم عليم ، فإنّهم الذين لا يجوز لهم إلا الإيمان والتعلّم من أهل العلم والذكر.

وكذا ما عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فأحلّوا حلاله ، وحزّموا حرامه ، وأفعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عمّا نهيتهم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعلموا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به كلّ من عند ربّنا » ^(٣) .

فحاصل مدلول هذه الروايات ، أنّ وظيفة غير الراسخين من التّاس السّكوت عن تأويل المتشابهات ، وعدم القول فيه من قبل أنفسهم ، والإيمان بها ، والإقرار بأنّها من عند الله ، كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال : نؤمن بالمحكم وندين به ، ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به - أي لا نعمل به - وهو من عند الله كلّ ^(٤) .

وأعجب من جميع الاستدلالات ، استدلالهم بصنيع عمر بن الخطّاب ، حيث روي أنّ رجلا يقال له عبد الله بن صبيغ ^(٥) قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعدّ له عراجين النّخل ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ ، فأخذ [عمر] عرجونا فضربه حتّى أدمى رأسه ^(٦) .

وفي رواية : فضربه بالجريد حتّى ترك ظهره دبرة ثمّ تركه حتّى برى ، ثمّ عاد [له] ثمّ تركه حتّى برى ، ثمّ دعاه ليعود فقال : إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا ، فأذن له الرجوع إلى أرضه ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : ألا يجالسه أحد من المسلمين ، انتهى ^(٧) .

فإنّ الاستدلال بهذا الخبر على الطّعن في عمر وأنّه أظلم الظالمين ، أولى من الاستدلال به

على

(١ و ٢ و ٣) . الدر المنثور ٢ : ١٤٩ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٨ .

(٥) في النسخة : صنيع (بضيع) ، وما أثبتناه من المصادر .

(٦) تفسير القرطبي ٤ : ١٤ ، الدر المنثور ٢ : ١٥٢ ، الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٨ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٨ .

عدم العلم بتأويل المتشابهات حتّى للرّاسخين ، لأنّ فعله لا يكون حجة إلّا على ظلمه ، ولعلّ ارتكابه له في حقّ هذا السائل المتعلّم ، من جهة أنّ سؤاله هذا كان سببا لاهتدائه إلى باب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وشدّة ظهور فضله على النّاس ، وجهل غيره.

وكأنّ ذهاب أكثر شيعة إلى القول بجهل النبيّ ﷺ بالكتاب الذي أنزل عليه ، لتلازم اعترافهم بعلم النبيّ ﷺ اعترافهم بعلم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام به ، واضطرار الخلق إلى بابه ، لأنّه ﷺ باتّفاق الأئمة مدينة العلم ، وعليّ بابها ، وإليه أشار أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث بيان المتشابه حيث قال : « إنّما فعل [الله] ذلك لئلاّ يدّعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب ما لم يجعله لهم ، وليقودهم الاضطرار إلى الائتمار بمن ولّاه أمرهم فاستكبروا عن طاعته تعزّزا وافتراء على الله عزّوجلّ ... » الخبر ^(١) .

الطّرفة السابعة عشرة

في حكم كون كثير من الآيات متشابهة ،

وعدم كون جميعها محكمات

لا يخفى أنّ فوائد جعل كثير من آيات القرآن متشابهات ، وعدم جعل كلّها محكمات كثيرة وحكمه وفيرة :

منها : ما أشار إليه أمير المؤمنين صلوات الله عليه في الرواية السابقة من اضطرار النّاس إلى الرّجوع إلى الرّاسخين في العلم ، والائتمار بأوامرهم ، فإنّهم إذا حضروا في مجالسهم لاستفادة علم القرآن ، عرفوا شأنهم وعلوّ مقامهم ، وازدادوا [في] موالاتهم ومحبتهم ، واقتدوا بأعمالهم ، واكتسبوا من أخلاقهم.

ومنها : تبين فضل العلماء على سائر النّاس واختلاف مراتبهم.

ومنها : اضطرار أهل الإيمان إلى التدبّر والتّفكّر في القرآن ، فبالّتدبّر فيه تظهر دقائقه ، وتكشف حقائقه ، ويحصل كمال التوحيد ، وتتمام المعرفة ، وقوّة اليقين ، وثبات الإيمان ، ولو كان كلّ محكما لتعلّقوا به لسهولة مأخذه ، وأعرضوا عن الغور في غوامضه.

(١) الاحتجاج : ٢٥٣ .

ومنها : شدّة الاهتمام بحفظه ، وزيادة الحبّ بمضامينه ، إذ الانسان إذا تحمّل المشقّة في تحصيل شيء ، كان له أحبّ وأحفظ.

ومنها : زيادة عظم القرآن في الأنظار ، حيث إنّ العادة قاضية بأنّ كلّ كتاب كان فهم مطالبه أشكل ، كان قدره عند النّاس أعظم.

ومنها : فتنة الخلق وامتحانهم بها ، وتبيّن الصادقين في الإيمان من الكاذبين ، فإنّ الحكمة البالغة مقتضية لأن لا ينسدد على أحد باب الغيّ والضلال في حال من الأحوال ، ولا يكون لأحد إلقاء وقهر على الالتزام بالحقّ وقبول الرّشاد ، وإذا كانت جميع الآيات محكمات لم يكن لأهل الزيغ مجال ابتغاء الفتنة والفساد مع إتمام الحجّة عليهم بالأمر بالرجوع فيها إلى الحجج البالغة ، والرّجوع عن التكلّم فيها ، وابتغاء تأويلها بالأهواء الزائفة.

والحاصل : أنّ الحكيم المتعال جعل كتابه التّدوينيّ مطابقاً لكتابه التّكوينيّ ، وكما أنّه جعل غالب آيات الكتاب التّكويني من موجودات العالم متشابهات ، حيث جعل الطبائع فيها ، والأسباب والمؤثرات لها ، حتّى يبقى للدّوات الخبيثة وذوي الأهواء الفاسدة والعقول المغلوبة الكاسدة مجال للقول بخالفية الطبيعة ، وألوهية الشمس وسائر الأجرام الفلكيّة ، وإنكار الصانع الحكيم لعدم علمهم بتأويلها ، وقصور نظرهم عن رؤية ما وراء طبائعها وأسبابها ، وزيف قلوبهم عن إدراك مسبّب الأسباب وخالفها ، مع إتمام الحجّة عليهم بإرسال العقل ، العالم بتأويل تلك المتشابهات إليهم ، وجعله هادياً لهم ، وتأنيده بالأنبياء المرسلّة والكتب المنزلة.

فالدّوات الخبيثة بزيف قلوبهم يؤوّلون تلك الموجودات المتشابهات التّكوينيّة من قبل أنفسهم ، ويتّبعون ما تشابه ابتغاء الفتنة ، وأمّا الدّوات الطّيبة ، والنفوس الرّكيّة ، فببصيرة قلوبهم يراجعون إلى العقل السليم الذي هو الإمام الراسخ في العلم ، ويتعلّمون منه التأويل ، ويتمسّكون بالبرهان من عدم إمكان كون المخلوق خالقاً ، والمتغيّر واجباً ، فعند ذلك يقولون : آمناً ، كلّ من المحكمات الواضحات الدلالات على خالقها ، والمتشابهات من الموجودات بالأسباب والمؤثرات التي جميعها آيات كتاب التّكوين ، من عند ربّنا.

كذلك جعل كثيراً من آيات كتاب التّدوين وهو القرآن المبين متشابهات ، ليمتاز أهل الزيغ والنفاق من المتظاهرين بالإيمان بالكتاب ، عن أهل الصدق والإخلاص ، فلو لم يكن في موجودات العالم

تشابه ، ولم يكن في كتاب التكوين متشابه ، بل كان كلّها محكمات ، لم يحصل الامتحان والاختيار ، وكان إيمان المؤمن شبه الإلجاء والإجبار ، وكذلك لو لم يكن في القرآن متشابهات لم يحصل للمقرّين به الفتنة والامتحان ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(١) .

الطّرفة الثامنة عشرة

في أنّ الحروف المقطّعة التي تكون في أوائل السور

من أبين مصاديق المتشابه ، وبيان المراد منها

من أبين مصاديق المتشابه في القرآن ، الحروف المقطّعات التي تكون في أوائل السور ، ولا شبهة أنّها رموز وأسرار بين الله تعالى والزّاسخين في العلم ، لا يطّلع عليها غيرهم .
عن الشّعبيّ ، أنّه سئل عن فواتح السور ، فقال : إنّ لكلّ كتاب سرّاً ، وإنّ سرّ هذا القرآن فواتح السور^(٢) .

واختلفت الأخبار في بيان المراد منها ، وأكثرها تدلّ على أنّ كلّ حرف منها رمز من اسم من الأسماء الحسنی ، كما عن السّديّ ، قال : فواتح السور أسماء من أسماء الربّ جلّ جلاله ، فرقت في القرآن^(٣) .

وقال الزّجاج : إنّ العرب كانوا ينطقون بالحرف الواحد ، كناية عن الكلمة التي هو منها^(٤) .
وقال القاضي أبو بكر ابن العربي في الحروف المقطّعات : إنّّه لو لا أنّ العرب كانوا يعرفون أنّ لها مدلولاً متداولاً بينهم ، لكانوا أوّل من أنكر ذلك على النبي ﷺ بل تلا عليهم حم فصّلت وص وغيرهما ، فلم ينكروا عليه ذلك ، بل صرّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوّقهم إلى عثرته ، وحرصهم على زلّته ، فدلّ على أنّه كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار لهم فيه ، انتهى^(٥) .
أقول : كان يكفي تداول التّكنية والإرماع بالحروف المقطّعة في عدم تمكّنهم على الإنكار والاعتراض ، ولا يلزم معرفتهم بخصوص المعنى تفصيلاً ، ولعلّ مراده المعرفة الاجماليّة . وقد تضافرت روايات الخاصّة والعامة على أنّها رموز وكنايات عن أسماء الله تعالى وتعيينها وتبيينها .

(١) العنكبوت : ٢٩ / ٢ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٤ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٧ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٣٠ .

عن (المجمع) : عن الصادق عليه السلام : « أن (ص) اسم من أسماء الله تعالى ، به أقسم الله » ^(١) .
وعن ابن عباس ، قال : (الم) و (طسم) و (ص) وأشباهاها قسم أقسم الله به ، وهو من
أسماء الله تعالى ^(٢) .

وعن أبي العالية في (الم) قال : هذه الأحرف الثلاثة من الأحرف التسعة والعشرين ، دارت
بها الألسن ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه تعالى ^(٣) .

أقول : يدلّ على ذلك ما وراه الصدوق عليه السلام في (أماليه) من تفسير المعصوم : « كلّ حرف
من حروف (أبجد) باسم من أسماء الله تعالى » ^(٤) .

وعن تفسير ابن ماجة ، من طريق نافع ، عن أبي نعيم القارئ ، عن فاطمة بنت عليّ بن أبي
طالب صلوات الله عليه أنّها سمعت عليّ بن أبي طالب يقول : « يا كهيعص اغفر لي » ^(٥) .

وعن (المجمع) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال في دعائه : « [أسألك يا
كهيعص » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام في حديث : « وأما (الم) في [أوّل] آل عمران فمعناه : أنا الله المجيد
» ^(٧) .

وعنه عليه السلام في حديث : « و (المص) معناه : أنا الله المقتدر الصادق » ^(٨) .

ومن طريق العامّة عن الضحاك مثله ^(٩) .

وقيل : معنى (المص) : المصوّر ^(١٠) .

وعن محمد بن كعب القرظي ، قال : (المص) الألف : من الله ، والميم من الرحمن ، والصاد
: من الصّمد ^(١١) .

وعن ابن عباس : معنى (المص) : أنا الله أفصل ^(١٢) .

وعن الصادق عليه السلام في ﴿كهيعص﴾ « معناه أنا الكافي ، الهادي ، الوليّ ، العالم ، الصادق
الوعد » ^(١٣) .

وعنه عليه السلام أيضا : « كاف لشيعتنا ، هاد لهم ، وليّ لهم ، عالم بأهل طاعتنا ، صادق لهم
وعده حتّى يبلغ

(١) مجمع البيان ٨ : ٧٢٦ ، تفسير الصافي ٤ : ٢٩٠ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٧ . (٣) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٣٠ .

(٤) انظر أمالي الصدوق : ٣٩٥ / ٥٠٨ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٨ .

(٦) مجمع البيان ٦ : ٧٧٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٧٣ .

(٧) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ . (٨) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ .

(٩) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٥ . (١٠) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٥ .

(١١) الدر المنثور ٣ : ٤١٣ . (١٢) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٤ .

(١٣) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ .

[بهم] المنزلة التي وعدهم إياها في نصّ (١) القرآن « (٢) .

وعن ابن مسعود وناس من الصحابة ، في قوله تعالى : ﴿كهيعص﴾ (٣) : قالوا هو هجاء مقطّع ؛ الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصوّر (٤) . وفي نقل آخر : والصاد من الصّمد (٥) .

وعن أمّ هاني ، عن رسول الله ﷺ قال : « كاف ، أمين (٦) ، عالم ، صادق » (٧) . أقول : الظاهر أنّه سقط من الرواية تفسير الهاء ، كما أنّ الظاهر سقوط تفسير الياء أو العين ممّا نقل عن ابن مسعود.

وعن ابن عباس في قوله : ﴿كهيعص﴾ قال : الكاف : الكافي ، والهاء : الهادي ، والعين : العالم ، والصاد : الصادق (٨) .

وعن عكرمة في قوله : ﴿كهيعص﴾ قال : يقول : أنا الكبير ، أنا الهادي ، أنا عليّ أمين صادق (٩) .

وعن ابن عباس ، قال : الكاف من كريم ، والهاء من هاد ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق (١٠) .

وعنه أيضا : كاف ، هاد ، أمين ، عزيز ، صادق (١١) .

وعن محمّد بن كعب ، في قوله : ﴿طه﴾ (١٢) ، قال : الطاء من ذي الطّول (١٣) . أقول : وفي عدّة من روايات الخاصّة والعامة ، أنّ (طه) اسم من أسماء النبي ﷺ ، وفي بعضها : معناه : يا طالب الحقّ (١٤) .

وعن محمّد بن كعب ، في قوله : ﴿طسم﴾ (١٥) ، قال : الطاء من ذي الطّول ، والسين من القدّوس ، والميم من الرحمن (١٦) .

(١) في المعاني والصافي : بطن. (٢) معاني الأخبار : ٢٨ / ٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٧٣ .

(٣) مريم : ١٩ / ١ . (٤) و (٥) . الدر المنثور ٥ : ٤٧٨ .

(٦) في الإتقان : كاف ، هاد ، أمين ، وفي الدر : كاف ، هاد .

(٧) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ ، الدر المنثور ٥ : ٤٧٨ .

(٨) الدر المنثور ٥ : ٢٥ .

(٩) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ ، الدر المنثور ٥ : ٤٧٨ .

(١٠) و (١١) . الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٥ .

(١٢) طه : ٢٠ / ١ . (١٣) الدر المنثور ٥ : ٥٥١ .

(١٤) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ ، وزاد فيه : الهادي إليه .

(١٥) الشعراء : ٢٦ / ١ ، القصص : ٢٨ / ١ .

(١٦) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ .

وعن الصادق عليه السلام : « أمّا ﴿حم﴾^(١) فمعناه : الحميد المجيد »^(٢) .

وعن سعيد بن جبير ، في قوله : ﴿حم﴾ قال : الحاء اشتقت من الرحمن ، والميم اشتقت من الرحيم^(٣) .

وعن محمد بن كعب ، في قوله : ﴿حم * عسق﴾^(٤) قال : الحاء والميم من الرحمن ، والعين من العليم ، والسين من القدوس ، والقاف من القاهر^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « أمّا ﴿حم * عسق﴾ فمعناه : الحكيم ، المغيث^(٦) ، العالم ، السميع ، القادر ، القوي^(٧) .

وقال بعض العامة : إنّ القاف هنا اسم الجبل المحيط بالأرض وهو مروي عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله : ﴿ق﴾^(٨) .

وحكي عن الكرماني في قوله : ﴿ق﴾ أنّه حرف من اسمه قادر وقاهر^(٩) .

وقال بعض في قوله : ﴿ن﴾^(١٠) : إنّ مفتاح اسمه تعالى : نور وناصر^(١١) .

وروي عن الصادق عليه السلام : « إنّ اسم النبي ﷺ »^(١٢) .

أقول : يمكن أن يستفاد من مجموع الروايات واختلافها أنّ كلّ حرف من الحروف المقطّعات رمز عن الأسماء الحسنى التي تضمّنت ذلك الحرف ، فالقاف رمز عن اسم القاهر ، والقادر ، والقيوم ، وغير ذلك ، والصاد : رمز عن المصوّر ، والصمد ، والصادق ، وغير ذلك ، والعين : رمز عن العزيز ، والعالم ، والعليم ، وأمثال ذلك.

وفي روايات عديدة : أنّ مجموع الحروف المقطّعات رمز عن اسم الله الأعظم.

عن القمّي ، عن الباقر عليه السلام ، في بيان الحروف المقطّعات : « هو حروف من اسم الله الأعظم المقطوع ،

(١) غافر : ٤٠ / ١ ،

(٢) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ .

(٣) الإنتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ .

(٤) الشورى : ٤٢ / ١ و٢ .

(٥) الإنتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ .

(٦) في المعاني : الحليم الميثيب .

(٧) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ .

(٨) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ ، الإنتقان في علوم القرآن ٣ : ٣٣ ، والآية من سورة ق : ٥٠ / ١ .

(٩) الإنتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ .

(١٠) القلم : ٦٨ / ١ .

(١١) الإنتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٦ .

(١٢) مختصر بصائر الدرجات : ٦٧ ، الخصال : ٤٢٦ / ٢ عن الباقر عليه السلام .

يؤلفه النبي ﷺ والامام عليّ عليه السلام ، فيكون الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب « (١) » .

وعن المعاني : عن الصادق عليه السلام : ﴿الم﴾ هو حرف من حروف اسم الله الأعظم [المقطع في القرآن الذي] يؤلفه النبي والامام ، فإذا دعا به اجيب « (٢) » .

وعن ابن مسعود ، بسند صحيح عند العامة : هو اسم الله الأعظم « (٣) » .

وعن ابن عباس ، قال : ﴿الم﴾ اسم من أسماء الله الأعظم « (٤) » .

ونقل ابن عطية عن بعض القول : بأنها الاسم الأعظم ، إلا أننا لا نعرف تأليفه منها « (٥) » .

ومقتضى بعض الروايات أنّ الراسخين في العلم يستفيدون من تأليفاتها ومن أعدادها بحساب الجمل وعلم الحروف ، علوما كثيرة ، كما عن الباقر عليه السلام : « علم كل شيء في ﴿عسق﴾ » « (٦) » .

وعن (المجمع) عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال : « لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي » « (٧) » .

وعن (المعاني) و (العياشي) : عن الصادق عليه السلام أنه أتاه رجل من بني أمية وكان زنديقا ، فقال له : قول الله عزّ وجلّ في كتابه : ﴿المص﴾ « (٨) » أي شيء أراد بهذا ، وأي شيء فيه من الحلال والحرام ، وأي شيء فيه مما ينتفع به الناس ؟

قال : فاغتاض عليه السلام من ذلك ، فقال : « أمسك ويحك ؛ الألف واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، كم معك ؟ » فقال الرجل : مائة وإحدى وستون . فقال عليه السلام : « إذا انقضت إحدى وستون ومائة ينقضي ملك أصحابك » .

قال : فنظر الرجل فلما انقضت إحدى وستون « (٩) » ومائة يوم عاشوراء دخل المسودة الكوفة ، وذهب ملكهم « (١٠) » .

وفي رواية أبي ليبيد المخزومي ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إنّ لي في حروف القرآن المقطعة لعلماء

(١) تفسير القمي ٢ : ٢٦٧ .

(٢) معاني الأخبار : ٢٣ / ٢ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٢٧ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٢٧ .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٢٧ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٢٦٨ ، والآية من سورة الشورى : ٤٢ / ٢ .

(٧) مجمع البيان ١ : ١١٢ .

(٨) الأعراف : ٧ / ١ .

(٩) كذا في العياشي ، وفي معاني الأخبار : سنة إحدى وثلاثون ، وهو الصحيح الموافق لتاريخ سقوط دولة بني أمية

، وللعلامة المجلسي رحمه الله تأويل للتاريخ المذكور (١٦١) . راجع بحار الأنوار ١٠ : ١٦٣ / ١ .

(١٠) تفسير العياشي ٢ : ١٣٥ / ١٥٤٤ ، معاني الأخبار : ٢٨ / ٥ .

جَمَا ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾^(١) فَقَامَ مُحَمَّدٌ ﷺ حَتَّى ظَهَرَ نُورُهُ ، وَثَبَّتَ كَلِمَتَهُ ، وَوُلِدَ يَوْمَ وَلَدَ ، وَقَدْ مَضَى مِنَ الْآلِفِ السَّابِعِ مِائَةَ سَنَةٍ وَثَلَاثَ سِنِينَ .

ثُمَّ قَالَ : « وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ إِذَا عُدَّتْهَا مِنْ غَيْرِ تَكَرُّارٍ ، وَلَيْسَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ حَرْفٌ تَنْقُضِي أَتَامَهُ إِلَّا وَقَائِمٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ عِنْدَ انْقِضَائِهِ » .

ثُمَّ قَالَ : « الْأَلْفُ وَاحِدٌ ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ ، وَالصَّادُ تِسْعُونَ ، فَذَلِكَ مِائَةٌ وَإِحْدَى وَسِتُّونَ ، ثُمَّ كَانَ بَدْوُ خُرُوجِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿الْم * اللَّهُ﴾^(٢) فَلَمَّا بَلَغَتْ مَدَّتَهُ قَامَ قَائِمٌ وَلَدَ الْعَبَّاسِ عِنْدَ ﴿الْمَص﴾ وَيَقُومُ قَائِمُنَا عِنْدَ انْقِضَائِهَا بِ ﴿الْمَر﴾ فَافْهَمُوا ذَلِكَ وَعَدَّ^(٣) وَاكْتَمَهُ « الْخَبَرُ »^(٤) .

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الرِّوَايَةَ مِنَ الْمَشْكَلَاتِ الَّتِي يَجِبُ رَدُّ عِلْمِهَا إِلَيْهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنْ تَصَدَّى لشرحها جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَعَلَّهُ يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ : « أَنْزَلَ ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فَقَامَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَجْهَ تَقْدِيمِ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى سَائِرِ السُّورِ ، حَيْثُ إِنَّ فِيهَا إِشَارَةً إِلَى قِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَدْوِ بَعَثِهِ .

وَمِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِيَابٍ ، قَالَ : مَرَّ أَبُو يَاسِرٍ بِنَ أَخْطَبَ فِي رَجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَتْلُو فَاتِحَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فَأَتَى أَخَاهُ حَبِيبَ بْنَ أَخْطَبَ فِي رَجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ : تَعْلَمُونَ ! وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فَقَالَ : أَنْتَ سَمِعْتَهُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . فَمَشَى حَبِيبُ فِي أَوْلَئِكَ النَّفَرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : أَلَمْ تَذْكُرْ أَنَّكَ تَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فَقَالَ : « بَلَى » .

فَقَالُوا : لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءَ مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ لَنَبِيِّ مِنْهُمْ مَا مَدَّةَ مُلْكِهِ وَمَا أَجَلَ أَمَّتِهِ غَيْرَكَ ؛ الْأَلْفُ بَوَاحِدٍ ، وَاللَّامُ بِثَلَاثِينَ ، وَالْمِيمُ بِأَرْبَعِينَ ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً ، أَفَنَدْخُلُ فِي دِينِ نَبِيِّ إِمَّا مَدَّةَ مُلْكِهِ وَأَجَلَ أَمَّتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً ؟ !

ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، ﴿الْمَص﴾ قَالَ : هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ ، الْأَلْفُ بَوَاحِدٍ ، وَاللَّامُ بِثَلَاثِينَ ، وَالْمِيمُ بِأَرْبَعِينَ ، وَالصَّادُ بِتِسْعِينَ ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسِتُّونَ وَمِائَةٌ سَنَةً ، هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ ؟ [قَالَ : « نَعَمْ ، الر » ، قَالَ : هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ ، الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ ، هَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَمِائَتَانِ سَنَةً . هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ ؟] قَالَ : « نَعَمْ ، الْمَر » . قَالَ : هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ ، الْأَلْفُ بَوَاحِدٍ ، وَاللَّامُ

(١) الْبَقَرَةُ : ٢ / ١ و ٢ .

(٢) آلِ عِمْرَانَ : ٣ / ١ و ٢ .

(٣) فِي الْعِيَاشِيِّ وَالْبَحَارِ : وَعَه .

(٤) تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ٢ : ١٣٦ / ١٥٤٥ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١ : ٧٧ ، بَحَارُ الْأَنْوَارِ ٩٢ : ٣٨٣ / ٢٣ .

بثلاثين ، والميم بأربعين ، والراء بمائتين ، هذه إحدى وسبعون ومائتا سنة.

ثم قال : لقد لبس علينا أمرك حتى ما ندري أ قليلا اعطيت أم كثيرا. ثم قال : قوموا عنه.

ثم قال أبو ياسر لأخيه ومن معه : ما يدريكم ، لعله قد جمع هذا كله لمحمد ؛ إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة. فقالوا : لقد تشابه علينا أمره. فيزعمون أن [هؤلاء] الآيات نزلت فيهم : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(١).

وعن (الاكمال) عن الحجة القائم عجل الله فرجه في حديث أنه سئل عن تأويل ﴿كهيعص﴾ فقال : « هذه الحروف من أنباء الغيب ، أطلع الله [عليها] عبده زكريا ثم قصها على محمد ﷺ ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه أسماء الخمسة ، فأهبط الله عليه جبرئيل فعلمه إياها ، فكان زكريا إذا ذكر محمدا ﷺ وعليًا وفاطمة والحسن ﷺ سرى عنه همهم وانجلي كربه ، وإذا ذكر الحسين ﷺ خنقته العبرة ، ووقعت عليه البهرة^(٢) .

فقال ذات يوم : الهي ، ما بالي إذا ذكرت أربعا منهم تسليت بأسمائهم من همومي ، وإذا ذكرت الحسين ﷺ تدمع عيني ، وتثور زفرتي ؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته ، فقال : ﴿كهيعص﴾ فالكاف اسم كربلاء ، والهاء هلاك العترة ، والياء يزيد لعنه الله ، وهو ظالم الحسين ﷺ والعين عطشه ، والصاد صبره. فلما سمع ذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ، ومنع فيها الناس من الدخول عليه ، وأقبل على البكاء والنحيب »^(٣) الخبر.

ثم لا يذهب عليك أنه لا منافاة بين الأخبار لإمكان أن تكون ذات الحروف المقطعة كناية ورما عن امور ، وتركيبها عن امور ، وعددها إشارة إلى امور.

ويستفاد بعض أنحاء استفادتهم ﷺ العلوم من الكتاب ، من الرواية الواردة عن الباقر ﷺ في تفسير الصمد حيث سأله عن مسائل وأجابهم ، ثم سأله عن الصمد ، فقال : « تفسيره فيه ، الصمد خمسة أحرف : فالالف دليل على إنشئه وهو قوله عز وجل : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٤) ، وذلك تنبيه

(١) تفسير الطبري ١ : ٧١ ، الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٢٩ ، والآية من سورة آل عمران : ٣ / ٧ .

(٢) البهرة : تنابع النفس وانقطاعه من الأعياء.

(٣) كمال الدين : ٤٦١ / ٢١ .

(٤) آل عمران : ٣ / ١٨ .

وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس ، واللام دليل على إلهيته وأنه هو الله ، والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان ولا يقعان في السمع ، ويظهران في الكتابة ، دليان على أن إلهيته بلطفه خافية لا تدرك بالحواس ، ولا تقع في لسان واصف ، ولا اذن سامع ، لأن تفسير الإله : هو الذي أله الخلق عن درك ماهيته وكيفيته بحس أو بوهم ، لأنه مبدع الأوهام ، وخالق الحواس ، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة دليل على أن الله تعالى أظهر ربوبيته في إبداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة ، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه ، كما أن لام الصمد لا تبين ^(١) ولا تدخل في حاسة من الحواس الخمس ، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف ، فمتى تفكر العبد في ماهية الباري وكيفيته أله فيه وتحير ولم تحظ فكرته بشيء يتصور له ، لأنه عز وجل خالق الصور ، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عز وجل خالقهم ومركب أرواحهم وأجسادهم ^(٢) .

وأما الصاد فدليل على أنه عز وجل صادق ، وقوله صادق ، وكلامه صادق ، ودعا عباده إلى اتباع الصدق [بالصدق و] وعد بالصدق دار الصدق .

وأما الميم فدليل على ملكه وأنه الملك الحق ، لم يزل ولا يزال [ولا يزول] ملكه .
وأما الدال فدليل على دوام ملكه ، وأنه عز وجل دائم متعال عن الكون والزوال ، بل هو عز وجل مكوّن الكائنات ، الذي كان بتكوينه كل كائن .

ثم قال ﷻ : « لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدّين والشرائع من الصمد ، وكيف لي بذلك ولم يجد جدّي أمير المؤمنين ﷺ حملة لعلمه ، حتّى كان يتنفس الصّعداء ويقول على المنبر : سلوني قبل أن تفقدوني ، فإنّ بين الجوانح مّي علما جمّا ، هاه هاه ، ألا لا أحد من يحمله ، ألا وإني عليكم من الله الحجة البالغة » الخبر ^(٣) .

ثم اعلم أنّ ما ذكرناه من الفوائد للحروف المقطّعة مختصّ بالخواصّ ، وهم الراسخون في العلم ، وأما فائدتها لعامة النّاس فهي على ما قيل : إنّ العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه ، فأنزل الله تعالى هذا النظم البديع ليعجبوا منه ، فيكون تعجّبهم منه سببا لاستماعهم ، واستماعهم له سببا لاستماع ما بعده ، فترقّ القلوب وتلين الأفئدة ^(٤) .

(١) في التوحيد : لا تتبين .

(٢) في التوحيد : في أجسادهم .

(٣) التوحيد : ٩٢ / ٦ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٣١ .

وقيل : إنّه ذكرت هذه الحروف المقطّعة إشعاراً بأنّ القرآن مؤلّف من الحروف التي هي (ا) ،
ب ، ت (ليدلّ القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنّه بالحروف التي يعرفونها ويتداولونها في ألسنتهم ،
فيكون ذلك تقرّيعاً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله بعد أن علموا أنّه منزل بالحروف التي
يعرفونها ويننون كلامهم منها ^(١) .

وإلى هذا الوجه أشار العسكري رحمته الله في التفسير المنسوب إليه ^(٢) .

الطّرفة التاسعة عشرة

في بيان معنى التفسير والتأويل ، وعدم كون بيان

المراد من الظاهر تفسيراً منهياً عنه ، واختصاص

العلم بالتأويل بالراسخين في العلم

التفسير : هو كشف القناع عن المعنى ، وتوضيح المقصود من الكلمة أو الكلام.
والتأويل : هو أول الكلام وإرجاعه إلى بعض المعاني البعيدة المحتملة منه. وقيل : هما واحد.
والظاهر أنّ بيان المراد من المحكمات ، نصّاً كان المحكم أو ظاهراً ، ليس من التفسير أو من
المنهي عنه ، لتواتر الأمر بالتمسك بالكتاب والعمل به ، وعرض الأحاديث عليه ، وترجيح
المتعارضات منها به ، وتميّز الشروط الصحيحة عن الفاسدة بموافقتها له ، وسيرة المسلمين
والأصحاب على التمسك بظواهره ، فضلاً عن نصوصه.

وأما غير المحكمات فلا شبهة أنّ العلم به مخصوص بالراسخين في العلم ، وأنّه لا يجوز لغيرهم
التكلّم فيه برأيه ومن قبل نفسه عن جزم وبت ، وعليه تحمل الروايات الناهية عن تفسير القرآن
بالرأي ، أو عليه وعلى القول في المحكمات من دون فحص في الأخبار المعتبرة عن الهداة صلوات الله
عليهم عن ناسخها ومقيدها ومخصّصها ومبيّنها.

في نقل تحقيق بعض العامة في وجه الحاجة إلى تفسير الكتاب بالرجوع إلى الراسخين في العلم
وقال بعض في وجه الحاجة إلى تفسير الكتاب بالرجوع إلى الراسخين في العلم زائداً على ما ذكرنا :
إنّ من المعلوم أنّ الله تعالى خاطب خلقه بما يفهمونه ، ولذلك أرسل كلّ رسول بلسان قومه ، وأنزل
كتابه على لغتهم ، ومع ذلك يحتاج إلى التفسير

(١) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٣١ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري رحمته الله : ٦٢ .

لوجه يظهر بعد تقرير قاعدة ، وهي أنّ كلا من البشر إذا وضع كتابا فإنّما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح ، وإنّما احتيج إلى الشروح لأمور ثلاثة :

أحدها : كمال فضيلة المصنّف ، فإنه لقوّته العلميّة يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز ، فربّما عسر فهم مراده ، فقصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفيّة ، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدلّ على المراد من شرح غيره له.

وثانيها : إغفاله بعض تنمّات المسألة ، أو شرط ^(١) لها اعتمادا على وضوحها ، أو لأنّها من علم آخر فيحتاج إلى الشارح لبيان المحذوف ومراتبه.

وثالثها : احتمال اللفظ لمعان ، كما في المجاز والاشتراك ودلالة الالتزام ، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنّف وترجيحه ، وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو عنه بشر من السّهو والغلط ، أو تكرار الشيء ، أو حذف مبهم وغير ذلك ، فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك.

إذا تقرّر هذا فنقول : إنّ القرآن إنّما نزل بلسان عربيّ في زمان أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أمّا دقائق باطنه فإنّما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم ^(٢) النبيّ ﷺ في الأكثر ، كسؤالهم لما نزل قوله : ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ ^(٣) فقالوا : وأيّنا لم يظلم نفسه ! ففسّره النبيّ ﷺ بالشّرك ، واستدلّ عليه بقوله : ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٤) ، وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير ، فقال : « ذلك العرض » ، وكقصّة عدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود ، وغير ذلك ممّا سألوا عن آحاد منه ، ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه ، وزيادة على ذلك ممّا لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر ، لقصورنا عن مدارك أحكام اللّغة بغير تعلّم ، فنحن أشدّ النّاس احتياجا إلى التفسير ، ومعلوم أنّ تفسير بعضه يكون من قبيل [بسط] الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها ، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض ، انتهى ^(٥) .

وقال بعض آخر : علم التفسير عسير يسير ، أمّا عسره فظاهر من وجوه ، أظهرها أنّه كلام متكلّم لم نصل إلى مراده بالسمع منه ، ولا أمكن الوصول إليه ، بخلاف الأمثال والأشعار ونحوها ، فإنّ الانسان يمكن علمه به إذا تكلم بأن يسمع منه أو ممّن سمع منه ، وأمّا القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يعلم

(١) في الاتقان : أو شروط.

(٢) في النسخة : والسؤال عن ، وما أثبتناه من الإتقان.

(٣) الأنعام : ٦ / ٨٢.

(٤) لقمان : ٣١ / ١٣.

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٩٥.

إلا بأن يسمع من الرسول ﷺ (١) .

أقول : ولذا ورد : « إنما يعرف القرآن من خوطب به » كما عن الباقر عليه السلام في رواية (الكافي) : بإسناده عن زيد الشحام ، قال : دخل قتادة على أبي جعفر عليه السلام فقال : « يا قتادة ، أنت فقيه أهل البصرة ؟ » . فقال : هكذا يزعمون .

فقال أبو جعفر عليه السلام : « بلغني أنك تفسر القرآن ! » قال له قتادة : نعم .

فقال أبو جعفر عليه السلام : « بعلم تفسره أم بجهل ؟ » قال : لا ، بل بعلم .

فقال له أبو جعفر عليه السلام : « فإن كنت تفسره [بعلم] فأنت أنت ، وأنا أسألك » قال قتادة : بسلي .

قال : « أخبرني عن قول الله تعالى في سبأ : ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا ۚ ۝٢٠٠ ﴾ »

آمين ﴿ ٢٠٠ ﴾ ؟ »

فقال قتادة : ذلك : من خرج من بيته بزد وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت ، كان آمنا حتى يرجع إلى أهله .

فقال أبو جعفر عليه السلام : « نشدتك بالله يا قتادة ، هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزد وراحلة وكراء حلال ، يريد هذا البيت ، فيقطع عليه الطريق ، فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه ؟ » قال قتادة : اللهم نعم .

فقال أبو جعفر عليه السلام : « إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك ، وإن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلك .

ويحك يا قتادة ، ذلك من خرج من بيته بزد وراحلة وكراء حلال يؤم (٢) هذا البيت عارفا بحقنا ، فهو (٣) قلبه ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ (٤) ولم يعن البيت فيقول : إليه ، فنحن والله دعوة إبراهيم التي من هوانا قلبه قبلت حجته ، وإلا فلا . يا قتادة ، فإذا كان كذلك كان آمنا من عذاب جهنم يوم القيامة » .

قال قتادة : لا جرم والله ، لا فسرتها إلا هكذا .

فقال أبو جعفر عليه السلام : « ويحك يا قتادة ، إنما يعرف القرآن من خوطب به » (٥) .

وعنه عليه السلام : « ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن ، إن الآية ليكون أولها في شيء ،

شيء ،

(١) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٩٦ .

(٢) سبأ : ٣٤ / ١٨ .

(٣) في المصدر : يروم .

(٤) في المصدر : يهوانا .

(٥) إبراهيم : ١٤ / ٣٧ .

(٦) الكافي ٨ : ٣١١ / ٤٨٥ .

وآخرها في شيء ، وهو كلام متصل ينصرف ^(١) على وجوه ^(٢) .

في أنه لا يجوز العمل بالقرآن إلا بعد الفحص عن تفسير

فتحصّل ممّا ذكرنا أنه لا يجوز تفسير المتشابهات وبيان تأويلها إلا بالنصّ المعتبر عن النبيّ

ﷺ أو أحد من ورّاث علمه من أوصيائه المعصومين ﷺ .

بل قد ظهر ممّا قدّمناه أنّ في القرآن المجيد ناسخا ، ومنسوخا ، وعامّا اريد به الخاص ، ومطلقا اريد به المقيد ، وكذا العكس ، فلا يجوز العمل بمحكماته إلا بعد الرجوع إلى العلماء بها وهم الأئمة المعصومون ﷺ ، فإنّ العلم بجميعها عندهم ، ولا حظّ لأحد غيرهم فيها إلا من قبلهم ، كما روي (الكافي) : بإسناده عن سليم بن قيس ، عن أمير المؤمنين ﷺ - في حديث - قال : « ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها ، وأملاها عليّ ، فكتبتها بخطّي ، وعلمني تأويلها ، وتفسيرها ، وناسخها ، ومنسوخها ، ومحكمها ، ومتشابهها [وخاصّها ، وعامّها] ، ودعا الله أن يعلمني ^(٣) فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله ، ولا علما أملاه عليّ فكتبتّه منذ دعا ، وما ترك شيئا علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي ، كان أو يكون ^(٤) ، من طاعة أو معصية إلا علّمنيه وحفظته ، فلم أنس حرفا واحدا .

ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علما وفهما وحكمة ونورا . فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، مذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئا ، ولم يفتني شيء لم اكتبه ، أو تتخوّف عليّ النسيان فيما بعد ؟ فقال : [لا] لست أتخوّف عليك نسيانا وجهلا ^(٥) .

وفي ذيل رواية اخرى قريبة من هذه : « وقد أخبرني ربّي أنّه قد استجاب لي فيك وفي شركائك الذين يكونون من بعدك . فقلت : يا رسول الله ، ومن شركائي من بعدي ؟ قال : الذين قرّهم الله بنفسه وبّي ، فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ^(٦) .

فقلت : ومن هم ؟ قال : الأوصياء متّي إلى أن يردوا [عليّ] الحوض ، كلّهم هادون مهديون ^(٧) ، لا يضربهم من خذلهم ، هم مع القرآن ، والقرآن معهم ، لا يفارقهم ولا يفارقونه ، بهم تنصر امتي وبهم تمطر ^(٨) ، وبهم يدفع عنهم البلاء ، وبهم يستجاب دعاؤهم .

(١) في العياشي : يتصرّف .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٨٧ / ٣٩ .

(٣) في المصدر : يعطيني .

(٤) زاد في المصدر : ولا كتاب منزل على أحد قبله .

(٥) الكافي ١ : ٥٢ / ١ .

(٦) النساء : ٤ / ٥٩ .

(٧) في العياشي : هاد مهتد .

(٨) في العياشي : يمطرون .

فقلت : يا رسول الله ، سَمِّهم لي . فقال : ابني هذا - ووضع يده على رأس الحسن عليه السلام - ثم ابني هذا - ووضع يده على رأس الحسين عليه السلام - ثم ابن لي ^(١) يقال له عليّ ، وسيولد في حياتك فأقرأه مَيِّ السَّلام ، ثم تكلمة اثني عشر من ولده ^(٢) .

فقلت له : بأبي أنت وأمي ، سَمِّهم لي . فسَمَّاهم رجلا رجلا . فقال : « فيهم والله - يا أخا بني هلال - مهديّ أمّه محمّد ، الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ، والله إني لأعرف من يبائعه بين الركن والمقام ، وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم » ^(٣) .

وفيه ، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ما يستطيع أحد أن يدّعي [أن] عنده جميع القرآن كلّّه ، ظاهره وباطنه غير الأوصياء » ^(٤) .

وبإسناده ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ^(٥) قال : « هم الأئمة عليهم السلام » ^(٦) .

وفي (العلل) بإسناده ، عنه عليه السلام أنّه قال لأبي حنيفة : « أنت فقيه أهل العراق ؟ » قال : نعم . قال : « فبم تفتيهم ؟ » قال : بكتاب الله وسنة نبيّه .

قال : « يا أبا حنيفة ، تعرف كتاب الله حقّ معرفته ، وتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ » . فقال : نعم .

فقال : « يا أبا حنيفة ، لقد ادّعت علما ، ويلك ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الذين أنزله عليهم ، ويلك ولا هو إلّا عند الخاصّ من ذرّيّة نبيّنا ، وما أراك تعرف ^(٧) من كتابه حرفا ، فإن كنت كما تقول ، ولست كما تقول ، فأخبرني عن قول الله تعالى : ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً آمَنِينَ﴾ ^(٨) أين ذلك من الأرض ؟ » قال : أحسبه ما بين مكّة والمدينة .

فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى أصحابه ، فقال : « تعلمون أنّ الناس يقطع عليهم ما بين المدينة ومكّة فتؤخذ أموالهم ، ولا يأمنون على أنفسهم ، ويقتلون ؟ » قالوا : نعم . فسكت أبو حنيفة .

فقال : « يا أبا حنيفة ، أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ ^(٩) أين ذلك من الأرض ؟ » قال : الكعبة . قال : « أفتعلم أنّ الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في

(١) في العياشي : له .

(٢) في العياشي : من ولد محمّد صلى الله عليه وآله .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٩١ / ٥٢ .

(٤) الكافي ١ : ١٧٨ / ٢ . (٥) العنكبوت : ٢٩ / ٤٩ .

(٦) الكافي ١ : ١٦٧ / ٢ .

(٧) في المصدر : ما ورثك الله .

(٨) سبأ : ٣٤ / ١٨ .

(٩) آل عمران : ٣ / ٩٧ .

الكعبة فقتله ، كان آمنا فيها ؟ » فسكت ، الخبر ^(١) .

وروى العامة أنه قال عليّ عليه السلام لقاض ^(٢) : « أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ » قال : لا . قال : « هلك وأهلك » ^(٣) .

إن قلت : يلزم ممّا ذكرت عدم جواز العمل بمحكمات القرآن ، لسقوط جميع نصوص الكتاب وظواهره عن الحجّة ، للعلم الإجمالي بنسخ بعض أحكامها ، وتخصيص بعض عموماتها ، وتقييد بعض مطلقاتها ، وإرادة المجاز من بعض ظواهرها ، مع أنّك ادّعت جواز العمل بالمحكمات للأدلة المتقدمة من الأوامر الواردة بالتمسك بالكتاب وعرض الشروط والأخبار المتعارضة عليه ، وسيرة المسلمين .

قلنا : بعد الفحص في الروايات المروية عن المعصومين عليهم السلام وتحصيل النسخ ، والمخصّص ، والمبيّن ، والمقيّد ، بمقدار ينطبق عليه المعلوم بالإجمال ينحلّ العلم الإجمالي وتبقى أصالة الظهور وأصالة الحقيقة على حجّيتها في البقية بلا إشكال .

الطّرفة العشرون

في تعريف النّسخ وإمكان وقوعه

في أحكام الله تعالى ، وبيان الآيات النّاسخة

النّسخ : هو رفع الحكم الثابت في الزمان السابق وإزالته ، ولا شبهة في حكم العقل بإمكان وقوعه في أحكام الله ، وليس من البداء المحال على الله ، ولا يلزم منه الجهل الممتنع عليه ، ولا التّجهيل القبيح منه .

وقد اتّفقت الشرائع على وقوعه ، إذ لم تكن شريعة إلّا وهي ناسخة لبعض أحكام الشرائع السابقة ، وإنّما المقصود هنا بيان الآيات النّاسخة ، وهي قسمان :

[١] إمّا ناسخة لأحكام الشرائع السابقة ، أو الأحكام الجاهليّة التي لم يردع عنها النبي صلّى الله عليه وآله في بدو بعثته لمداراة الناس ، ولم ينزل فيها قرآن ، وهي كثيرة جدّا .

[٢] وإمّا ناسخة لأحكام نزلت بها آيات قرآنية ، فكانت النّاسخة والمنسوخة في القرآن ،

ففي هذا

(١) علل الشرائع : ٨٩ / ٥ .

(٢) في الإتيان : لقاصّ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٦٦ .

القسم اختلف كثير من الخاصة والعامة ، وأفرده جمع كثير منهم بالتصنيف.

ولا يذهب عليك أنّ المصطلح في النسخ هو إزالة الحكم الذي يكون ظاهر دليله استمراره بحكم آخر ، وعلى هذا يكون عدّ بعض الآيات التي نزلت في الوعد والوعيد خارجة عن المصطلح والحقيقة ، فعّد آية : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(١) ناسخة لقوله : ﴿إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(٢) كما عن بعض ، ليس على حقيقته ، وكذا عدّ الحكم المغاير للحكم السابق المغيّى بغاية معيّنة بعد بلوغ غايته ، كقوله تعالى : ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(٣) فإنّ حكم وجوب الجهاد ليس ناسخاً لحكم وجوب العفو والصفح ، بل هو أمر الله الذي كان غاية له .

والحاصل : أنّه بعد ملاحظة القيود المعتبرة في المعنى الحقيقي للنسخ ، وملاحظة المقصود منه ، من كون الناسخ والمنسوخ كليهما في القرآن ، كان عدد الأحكام المنسوخة فيه قليلاً . منها : أربعة أحكام في سورة البقرة :

أحدها : قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٤) .

عن (التهذيب) و (الخصال) : عن الصادق عليه السلام ، وعن العياشي عن الباقر عليه السلام : « أنّها نزلت في أهل الذمة - أي أهل الكتاب - ثمّ نسخها قوله تعالى :

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٥) .
وعن القمي عليه السلام : أنّها نزلت في اليهود ، ثمّ نسخت بقوله تعالى : ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٦) .

وأورد عليه بأنّ قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ حكاية للحكم الذي أخذ الله الميثاق من بني إسرائيل على العمل به ، لأنّه في ضمن آية : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

(١) هود : ١١ / ١١٨ و ١١٩ .

(٢) مريم : ١٩ / ٧١ .

(٣) البقرة : ٢ / ١٠٩ .

(٤) البقرة : ٢ / ٨٣ .

(٥) التهذيب ٤ : ١١٥ / ٣٣٦ ، الخصال : ٢٧٥ / ١٨ ، تفسير العياشي ٢ : ٢٢٨ / ١٨٠٩ ، والآية من

سورة التوبة : ٩ / ٢٩ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٥١ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٥ .

الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ»^(١) . فليس هذا الحكم من أحكام هذه الأمة حتى يعدّ من المنسوخ.

ويمكن دفعه بأنّ أخذ الميثاق والعهد المؤكّد من بني إسرائيل على هذه الواجبات التي يحكم العقل بحسنها ، دالّ على جريانه في جميع الأعصار على جميع الامم ، ولما كان المراد من الناس في مخاطبة بني إسرائيل خصوص قبيلتهم ، لأنهم كانوا مأمورين بالجهاد مع غيرهم من الكفار ، كانوا مخصوصين في هذه الأمة المرحومة بحسن القول والمخاطبة معهم ، وسيجيء عند تفسير الآية الكريمة بعض الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

وثانيها : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾^(٢) .

عن القمي ، والنعماني رحمهما وكثير من العامة ، أنّها منسوخة بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلى قوله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾^(٣) .

قال القمي رحمهما : وترك قوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾^(٤) ولا يخفى أنّه قد اختلفت رواياتنا في النسخ منهما ، وليس في المقام مجال البسط في الكلام.

وثالثها : قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾^(٥) .

روى العياشي والطبرسي رحمهما عن الصادق عليه السلام : « كان في بدو الإسلام إذا مات الرجل أنفق على امرأته من صلب المال حولا ، ثم اخرجت بلا ميراث ، ثم نسختها آية الربع والثمن »^(٦) . وعنه ، وعن الباقر عليه السلام : « هي منسوخة ، نسختها : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٧) ونسختها آيات الميراث »^(٨) .

أقول : يعني نسخت المدة بآية التبرّص ، والنفقة بآيات الميراث ، وهي وإن كانت متقدمة في

(١) البقرة : ٢ / ٨٣ .

(٢) البقرة : ٢ / ٢٢١ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٧٢ ، تفسير النعماني : ٢٨ ، تفسير الطبري ٢ : ٢٢١ ، والآية من سورة المائدة : ٥ / ٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٧٣ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٢٢١ .

(٥) البقرة : ٢ / ٢٤٠ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٢٤٧ / ٥٣٠ ، مجمع البيان ٢ : ٦٠٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٤٨ .

(٧) البقرة : ٢ / ٢٣٤ .

(٨) تفسير العياشي ١ : ٢٤٧ / ٥٢٩ ، ومجمع البيان ٢ : ٦٠٢ عن الصادق عليه السلام .

الترتيب والتلاوة ، إلا أنّها متأخرة في النزول ، وبأني بعض الكلام فيه عند تفسيرها إن شاء الله.

ورابعها : قوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾

في (الاحتجاج) عن الكاظم ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر مناقب النبي ﷺ قال : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾^(١) فكان فيما أوحى إليه الآية التي في سورة البقرة ، قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) . وقد كانت الآية عرضت على الأنبياء من لدن آدم إلى أن بعث الله تبارك اسمه محمدا ﷺ ، وعرضت على الامم فأبوا أن يقبلوها من ثقلها ، وقبلها رسول الله ﷺ وعرضها على امتة فقبلوها ، فلما رأى الله عز وجل منهم القبول علم أنهم لا يطيقونها ، فلما صار^(٣) إلى ساق العرش كرر عليه الكلام ليفهمه فقال : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾^(٤) .

إلى أن قال الكاظم عليه السلام : « ثم قال الله عز وجل : أمّا إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها ، وقد عرضتها على الامم فأبوا أن يقبلوها وقبلتها أمّتك ، فحقّ عليّ أن أرفعها عن أمّتك ، وقال : ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥) الخبر .

وروى الفخر الرازي في تفسيره ، عن ابن عباس ، أنّه قال : لما نزلت [هذه] الآية جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وناس إلى النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، كلّفنا من العمل ما لا نطيق ، إنّ أحدنا ليحدّث نفسه بما لا يحبّ أن يثبت في قلبه ، وأنّ له الدنيا .

فقال النبي ﷺ : « فلعلّكم تقولون كما قال بنو إسرائيل : ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾! »^(٦) قولوا : سمعنا وأطعنا . واشتدّ ذلك عليهم فمكثوا في ذلك حولا ، فأنزل الله : ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فنسخت هذه الآية ، فقال النبي ﷺ : « إنّ الله تجاوز عن أمّتي ما حدّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا ويتكلّموا به »^(٧) . أقول : قد دلّت هذه الرواية أنّ الرّهط الذين شكوا إلى النبي ﷺ شدّة الآية لم يكونوا داخلين فيمن قبلها ، ولذلك قال لهم النبي ﷺ : « فلعلّكم تقولون كما قال بنو إسرائيل : سمعنا وعصينا ! قولوا : سمعنا

(١) النجم : ٥٣ / ٩ و ١٠ .

(٢) البقرة : ٢ / ٢٨٤ .

(٣) في المصدر : فلما أن سار .

(٤) البقرة : ٢ / ٢٨٥ .

(٥) الاحتجاج : ٢٢٠ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٢٨٦ .

(٦) البقرة : ٢ / ٩٣ .

(٧) تفسير الرازي ٧ : ١٢٥ .

وأطعنا . . وليس في الرواية أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا بعد [أن] أمرهم النبي ﷺ بهذا القول .
ومنها : في سورة آل عمران ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾^(١) .
عن العياشي : عن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها ، فقال : « منسوخة » . قيل : وما نسخها ؟
قال : « قول الله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾^(٢) » .

ومن طرق العامة : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزلت [هذه] الآية ، شق ذلك على المسلمين ، لأنَّ حقَّ تقاته أن يطاع فلا يعصى طرفه عين ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، والعباد لا طاقة لهم بذلك ، فأُنزل الله تعالى بعد هذه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾^(٣) .
ونسخت هذه الآية أولها ، ولم ينسخ آخرها^(٤) .

أقول : المراد من قوله : « والعباد لا طاقة لهم بذلك » هي الطاقة والقدرة العرفية ، وهي عدم العسر والحرج في العمل مع بقاء القدرة العقلية ، فيكون حاصل كلامه أن الله أمر عباده بالتقوى التي فيها العسر والحرج ، ثم خفف عنهم بأن أمرهم بالتقوى التي استطاعوها بالاستطاعة العرفية ، وهي ما لا حرج فيه ، فلم يكن في المنسوخ التكليف بغير المقدور حتى يستدل به على جوازه ، كما ذهب إليه المشهور من أهل السنة .

ومنها : في سورة النساء ، قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾^(٥) .

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية ، قال : « هي منسوخة » . قيل : كيف كانت ؟
قال : « كانت المرأة إذا فحرت فقام عليها أربعة شهود ، ادخلت بيتا ولم تحدث ولم تكلم ولم تجالس ، واوتيت بطعامها وشرابها حتى تموت أو يجعل الله لها سبيلا » ، قال : « جعل السبيل الجلد والرجم »^(٦) .

وعن العياشي : عنه عليه السلام : « هي منسوخة ، والسبيل [هو] الحدود »^(٧) .
وعن القمي رحمه الله فيها وفي الآية التي بعدها : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾^(٨) .

(١) آل عمران : ٣ / ١٠٢ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٣٣ / ٧٦٠ ، والآية من سورة التغابن : ٦٤ / ١٦ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٦١ .

(٤) النساء : ٤ / ١٥ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٧٧ / ٩٠٣ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٣٧٧ / ٩٠٢ .

(٧) النساء : ٤ / ١٦ .

قال : كان في الجاهليّة إذا زنى الرجل يؤذى ، والمرأة تحبس [في بيت] إلى أن تموت ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا﴾^(١) الآية.

أقول : لا يبعد أن يكون إطلاق النسخ بالنسبة إلى الآية الأولى على خلاف المصطلح ، لأنّ الحكم فيها معنيّ بجعل السبيل ، فلا يكون جعل السبيل ، وهو الحدود ، ناسخا.

ومنها : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٢) .

عن العياشي ، عن الباقر والصادق عليهما السلام : « نسختها آية الفرائض »^(٣) .

وعن القمي رحمه الله : هي منسوخة بقوله : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ...﴾^(٤) .

وفي رواية عن الباقر عليه السلام أنه سئل : أمنسوخة هي ؟ قال : « لا ، إذا حضروا^(٥) فأعطهم »

(٦) .

أقول : نسخها بلحاظ حكم الوجوب ، وعدم نسخها باعتبار الاستحباب.

ومنها : في سورة الأنفال ، قوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾^(٧) . فإنه نسخ بقوله تعالى : ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾^(٨) .

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام في حديث ذكر فيه الآية ، فقال : « نسخ الرجلان العشرة »^(٩) . وعن القمي ما يقرب منه^(١٠) .

ومنها : في سورة الأحزاب ، قوله تعالى : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾^(١١) فإنه حكى بعض أصحابنا قولاً بأنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾^(١٢) ولم أظفر على رواية دالة عليه.

ومنها : في سورة الممتحنة ، قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا

بَيْنَ يَدَيْ

(١) تفسير القمي ١ : ١٣٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٨ ، والآية من سورة النور : ٢٤ / ٢ .

(٢) النساء : ٤ / ٨ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٧١ / ٨٧٦ و ٨٧٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٣ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٣٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٣ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ١١ .

(٥) في العياشي : حضرك ، وفي الصافي : حضروك .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٣٧١ / ٨٧٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٣ .

(٧) الأنفال : ٨ / ٦٥ . (٨) الأنفال : ٨ / ٦٦ .

(٩) الكافي ٥ : ٦٩ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٣ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٢٨٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٤ .

(١١) الأحزاب : ٣٣ / ٥٢ .

(١٢) تفسير الصافي ٤ : ١٩٨ ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٣ / ٥١ .

نَجَوَاكُمْ صَدَقَةً^(١) .

عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : « قَدَّمَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بين يدي نجواه صدقة ، ثم نسخها قوله : ﴿أَشْفَقْتُمْ...﴾^(٢) .

وقد استدللَّ الخاصَّة والعامة بهذه الآية على فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام على غيره من الصحابة^(٣) ، وتقريره أنه سبق سائر الصحابة إلى العمل بمضمونها ، وبعد عمله بها نسخت ، فكان نزولها بياناً لأفضليته عليهم ، لمسارعته إلى قبول أوامر الله تعالى والعمل بها قبلهم فكان أفضل منهم . وقال بعض أصحابنا : فيه تكذيب لمن يدَّعي من أهل السنَّة أنَّ أبا بكر ذا مال ، وكان يصرف أمواله في سبيل الله ، حيث إنَّ من بخل بصدقة درهم أو درهمين بين يدي نجوی النبي صلى الله عليه وآله ، ورضي بمفارقتة عشرة أيام وترك مكالمته ، كيف يرضى بإنفاق المال الكثير ؟ ! .

ومنها : في سورة المزمل ، قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ﴾^(٤) .

عن القمِّي ، عن الباقر عليه السلام في هذه الآية : « ففعل ذلك النبي صلى الله عليه وآله ، وبشَّرَ النَّاسَ بِهِ ، واشتد ذلك عليهم [وقوله :] ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ وكان الرجل يقوم ولا يدري متى ينتصف الليل ، ومتى يكون الثلثان ، وكان الرجل يقوم حتَّى يصبح مخافة أن لا يحفظه ، فأُنزل الله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى قوله [:] ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُحْصُوهُ...﴾^(٥) يقول : متى يكون النصف والثلث ، نسخت هذه الآية : ﴿فَاقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(٦) .

وأما ما عدّه العامة من الآيات المنسوخة مضافاً إلى ما ذكر ، فأيات :

منها : قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيحَهُمْ﴾^(٧) قالوا : كان الرجل يعاقد الرجل فيقول : دمي دمك ، وهدمي هدمك^(٨) ، وسلمي سلمك ، وحربي حريك ، وترثني وأرثك ، وتعقل عني وأعقل عنك ، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف ، فنسخ بقوله تعالى : ﴿وَأَوَّلُوا﴾

(١) المجادلة : ٥٨ / ١٢ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٥٧ ، والآية من سورة المجادلة : ٥٨ / ١٣ .

(٣) تفسير الطبري ٢٨ : ١٤ ، الكشاف ٤ : ٤٩٤ ، الدر المنثور ٨ : ٨٤ ، تفسير القمي ٢ : ٣٥٧ .

(٤) المزمل : ٧٣ / ٢٠ .

(٥) المزمل : ٧٣ / ٢٠ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٣٩٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٣ .

(٧) النساء : ٤ : ٣٣ .

(٨) الهدم - بالفتح - : المهدر من الدماء ، يقال : دمه هدم ، أي هدر ، والهدم - بالكسر - : كساء من صوف ، والظاهر أنَّ المراد الأوَّل .

الأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ... ﴿١﴾ .

وعن القمي رحمه الله : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ...﴾ نسخت قوله : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ﴾ ﴿٢﴾ .

وفي (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « إذا والى الرجل الرجل فله ميراثه وعليه معقلته » ﴿٣﴾ .
يعني دية جناية خطأه ، فتدلّ هذه الرواية على أنّها غير منسوخة على الإطلاق ، ويجمع بينها وبين الروايات السابقة بأنّ آية اولوا الأرحام نسخت إطلاق حكمها وقيدتها بصورة فقد اولي الأرحام ، كما عليه الأصحاب .

وقال بعض العامة : معناه أعطوهم نصيبهم من التّصر ، والعقل ، والرّفد ﴿٤﴾ ، ولا ميراث ﴿٥﴾ .
وعلى هذا فلا تكون أيضا منسوخة .

ومنها : قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ﴿٦﴾ فكان يحرم عليهم الجماع في الليل ، مطلقا على قول ، أو بعد صلاة العشاء ، أو بعد النوم ، وهذا حكم صوم أهل الكتاب ، فنسخ بقوله تعالى : ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ﴿٧﴾ وبإلي أنّ به قال النعماني من أصحابنا ﴿٨﴾ .

وفيه : أنّه لا دلالة في قوله تعالى : ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ على حرمة الرّفث في الليل للنّساء ، ولم يرد في أخبار أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ على إرادة هذا الحكم من التشبيه ، بل فيها ما يدلّ على خلافه ، حيث إنّ تفسيره بأنّ الصوم واجب عليكم كوجوبه على سائر الامم أو على خصوص الأنبياء السّلف .

وظاهر هذا التفسير تشبيه الوجوب بالوجوب ، لا تشبيه الواجب بالواجب ، مع أنّه لم يثبت أنّ من أحكام صوم الذين من قبلهم حرمة الجماع عليهم بالليل ، حتّى يدخل في كميّات الصّوم الذي هو في الشّرع الإمساك في التّهار عن الامور المعيّنة .

ومنها : قوله تعالى في تلك السورة : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ ﴿٩﴾ .

قال بعض العامة : كان المسلمون مخيّرين بين الصّوم والفدية في أوّل الأمر ، ثمّ نسخت بقوله

(١) تفسير الطبري ٥ : ٣٤ ، الدر المنثور ٢ : ٥١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٤ ، والآية من سورة الأنفال : ٨ / ٧٥ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٣٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٤ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ٣٣ .

(٣) الكافي ٧ : ١٧١ / ٣ .

(٤) في تفسير الطبري : الرّفادة .

(٥) تفسير الطبري ٥ : ٣٥ .

(٦) البقرة : ٢ / ١٨٣ .

(٧) البقرة : ٢ / ١٨٧ .

(٨) تفسير النعماني : ١٠ .

(٩) البقرة : ٢ / ١٨٤ .

تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(١) .

والمروي عن الصادق عليه السلام « أن المراد بذلك الحامل المقرب ، والمرضعة القليلة اللبن ، والشيخ والشيخة »^(٢) .

وفي رواية : « المرأة التي تخاف على ولدها ، والشيخ الكبير »^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « الشيخ الكبير ، والذي يأخذه العطاش »^(٤) .

أقول : على هذه الروايات ليست الآية منسوخة.

ومنها : قوله تعالى في تلك السورة : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا

الْوَصِيَّةَ لِلْأُولَادِ الَّذِينَ لِلْأَقْرَبِينَ﴾^(٥) .

قال بعض العامة : إنها نسخت بآية الميراث^(٦) .

وأنكر النسخ بعض أصحابنا^(٧) . وقد وردت أخبار كثيرة ببقاء حكمه ، وإن روى العياشي

عن أحدهما عليه السلام أنها منسوخة بآية الميراث^(٨) ، إلا أنها محمولة على التقيّة لموافقتها مذهب العامة^(٩) .

ويحتمل بعيدا حملها على نسخ الوجوب مع بقاء الاستحباب والرجحان.

ومنها : قوله تعالى في تلك السورة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾^(١٠) .

قال بعض العامة : إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(١١) .

وفيه : أن الآية الاولى مخصّصة للثانية لا منسوخة.

وعن (المجمع) : إنها لم تنسخ ، لأنه لا يجوز أن يبتدأ المشركون في الأشهر الحرم بالقتال

^(١٢) .

ومنها : قوله تعالى في المائدة : ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ...﴾^(١٣) .

(١) صحيح البخاري ٦ : ٥٥ / ٣٤ ، سنن أبي داود ٢ : ٢٩٦ / ٢٣١٥ و ٢٣١٦ ، سنن النسائي ٤ : ١٩٠ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ١٨٥ .

(٢) تفسير الصافي ١ : ٢٠١ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٨٤ / ٢٨٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٢ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٨٤ / ٢٨٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٢ .

(٥) البقرة : ٢ / ١٨٠ .

(٦) تفسير الطبري ٢ : ٦٨ ، تفسير الرازي ٥ : ٦١ .

(٧) مجمع البيان ١ : ٤٨٣ .

(٨) تفسير العياشي ١ : ١٨٠ / ٢٧٣ .

(٩) تفسير الصافي ١ : ١٩٨ .

(١٠) البقرة : ٢ / ٢١٧ .

(١١) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٣ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٣٦ .

(١٢) مجمع البيان ١ : ٥٥٢ .

قال بعض العامة : إنّ هذا الحكم منسوخ بآية القتال ^(١) .

وفيه : أنّه روي عن الباقر عليه السلام « أنّه لم ينسخ من سورة المائدة شيء ... » ^(٢) الخبر . مع أنّه لا وجه للقول بالنسخ مع إمكان التخصيص كما ذكرنا في الآية السابقة.

ومنها : قوله تعالى في تلك السورة : ﴿ فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ^(٣) .

قالوا : إنّ الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ... ﴾ ^(٤) .

وفيه : أنّه روي في (التهذيب) عن الباقر عليه السلام : « أنّ الحاكم إذا أتاه أهل التوراة و [أهل] الإنجيل يتحاكمون إليه ، كان ذلك إليه إن شاء حكم بينهم ، وإن شاء تركهم » ^(٥) انتهى ، وعليه لا تكون منسوخة.

ومنها : قوله تعالى في تلك السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُو عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ^(٦) قالوا : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذُوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ^(٧) .

وفيه : أنّ التخصيص أولى من النسخ ، وقد اتفق النّصّ والفتوى على جواز شهادة أهل الكتاب إذا كانوا عدولا في دينهم في خصوص الوصية في السفر إذا لم يجد الموصي مسلما ^(٨) . ومنها : قوله تعالى في سورة البراءة : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ^(٩) .

قالوا : هي منسوخة بآيات العذر ^(١٠) .

وفيه : أنّها مخصصة لا ناسخة ، كما يشهد عليه قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(١١) .

ومنها : قوله تعالى في سورة النور : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١٢) .

(١) تفسير الطبري ٦ : ٣٩ ، الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٤ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٣٩ .

(٣) المائدة : ٥ / ٤٢ .

(٤) الكشف ١ : ٦٣٥ ، الدر المنثور ٣ : ٨٣ ، الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٤ ، والآية من سورة المائدة : ٥ / ٤٩ .

(٥) التهذيب ٦ : ٣٠٠ / ٨٣٩ .

(٦) المائدة : ٥ / ١٠٦ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٥ ، والآية من سورة الطلاق : ٢ / ٦٥ .

(٨) الكافي ٧ : ٣٩٩ / ٨ ، التهذيب ٦ : ٢٥٣ / ٦٥٥ .

(٩) التوبة : ٩ / ٤١ .

(١٠) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٥ .

(١١) النساء : ٤ / ٩٥ .

(١٢) النور : ٢٤ / ٣ .

قالوا : إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾^(١) .

وفيه : أنَّ ظاهر الآية الأولى يدلّ على جواز نكاح الزّاني المسلم للمشرّكة ، وجواز نكاح المشرّك الزّانية المسلمة ، والظاهر أنَّ هذا الحكم لم يكن في وقت من الأوقات ، فلا بدّ من حمل الآية على الزّاني والزّانية الكافرين ، بقرينة قوله : ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

ومن الواضح أنَّ حرمة نكاح الزّاني الكافر والمشرّك للمؤمنة ونكاح الزّانية الكافرة والمشرّكة للمؤمن غير منسوخة ، وروايات أهل البيت وإن كانت متعارضة في جواز نكاح الزّانية قبل التّوبة ، إلّا أنَّ الأخبار المانعة غير معمول بها عند المشهور من أصحابنا ، فلا بدّ من حملها على الكراهية .

والحاصل : أنّه لم يثبت من طريق أهل البيت عليه السلام نسخ لحكم الآية الأولى ، بل الظاهر من الروايات العديدة عدمه ، وتفسيرها بالمشهورات بالزّنا^(٢) .

ومنها : قوله تعالى في تلك السورة : ﴿لَيْسَتْ أَدْنَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾^(٣) .

قال بعضهم : إنها منسوخة ، ولم يذكر الناسخ ، وأنكره بعض آخر^(٤) . ولم أظفر في رواياتنا ما يدلّ على نسخها .

ومنها : قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾^(٥) .

قالوا : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي﴾ الآية^(٦) .
وفيه : أنّه لم أفهم له وجهها ، ولم يرد فيه خبر .

ومنها : قوله تعالى في الممتحنة : ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾^(٧) .

قال بعض منهم : إنها منسوخة بآية السّيف^(٨) ، وبعض آخر : بآية الغنيمة^(٩) .

ومنها : قوله تعالى في سورة المنافقون : ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(١٠) .

(١) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٥ ، والآية من سورة النور : ٢٤ / ٣٢ .

(٢) راجع : الكافي ٥ : ٣٥٥ / ٦ .

(٣) النور : ٢٤ / ٥٨ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٦ .

(٥) الأحزاب : ٣٣ / ٥٢ .

(٦) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٦ ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٣ / ٥٠ .

(٧) الممتحنة : ٦٠ / ١١ .

(٨) هي الآية الخامسة من سورة التوبة : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾

(٩) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧٦ .

(١٠) المنافقون : ٦٣ / ١٠ .

قالوا : منسوخة بآية الرّكاة ^(١) .

ومنها : قوله تعالى في سورة التّين : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ^(٢) .

قالوا : منسوخة بآية السّيف ^(٣) ، وفي هذه الآيات الثلاث ، وإن كان احتمال النسخ قريبا ، إلّا أنّه لم يرد به نصّ من طرق أصحابنا.

الطرفة الحادية والعشرون

في إبطال عدّ نسخ التلاوة من أقسام النسخ

قد عدّ جمع من العامة من أقسام النسخ نسخ التلاوة ، وذكروا لذلك أمثلة من عبارات مروية عن عمر وابنه عبد الله وعائشة وغيرهم من الصحابة ^(٤) ، وهذا من الأغلاط المشهورة بينهم ، والعبارات المنقولة التي قالوا إنّها من الآيات المنسوخة التلاوة لا تشبه كلمات فصحاء العرب فضلا عن آيات القرآن المجيد. والمتأمل النصف يقطع بأنّها ممّا اختلقه المنافقون لتخريب أساس الدّين ، وتوهين الكتاب المبين ، ويؤيد ذلك بل يشهد عليه أنّه لم ينقل عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس والمعتمدين من أصحاب الرّسول رضوان الله عليهم أمثال هذه الروايات ، مع كونهم أعرف بآيات القرآن من غيرهم.

والعجب من بعض العامّة حيث إنّهم أنكروا هذا القسم من النسخ ، ونفوا كون هذه العبارات المنقولة من القرآن ، مستدلّا بأنّ الأخبار الواردة أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها ، مع أنّ العبارات الباردة المنقولة التي أكثرها رواية ما سمّوه آية الرّجم ، من قولهم : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فاجلدوهما البتّة بما قضيا من اللّذة نكالا من الله والله عزيز حكيم) ممّا ينادي عند كلّ ذي مسكة بأنّه ليس من كلام الله المنزل للإعجاز.

بل يستفاد ممّا رواه بعضهم عن عمر أنّه قال : لو لا أن يقول النّاس : زاد عمر في كتاب الله ، لكتبته - يعني آية الرّجم - ^(٥) أنّه لم يكن أحد مطلقا على هذه العبارة التي سمّوها آية ، مع أنّ مقتضى كثير من

(١) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧١ .

(٢) التين : ٩٥ / ٨ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٧١ .

(٤) راجع : الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٨١ - ٨٤ .

(٥) مسند أحمد : ٢٩ ، الاتقان في علوم القرآن ٣ : ٨٥ .

روايتهم أنه كان يكتب آيات القرآن بشهادة شاهدين^(١) .
 فلعلّ عدم اجترائه على كتابتها في القرآن لعلم جميع الناس بأنّ مثل هذه العبارة ليس بكلام
 الله ولا من آيات القرآن ، وأنه ليس إضافتها إلى الكتاب العزيز إلّا فرية وبهتان.

الطرفة الثانية والعشرون

في أنّ للقرآن المجيد ظهرا

وبطنا ، وبيان المراد منهما

قد تضافرت أو تواترت الروايات من طرق الخاصة والعامة في أنّ للقرآن العظيم ظهرا وبطنا.
 عن الباقر عليه السلام أنّه قال في حديث : « يا جابر ، إنّ للقرآن بطنا ، وللبطن بطن وظهر ،
 وللظهر ظهر »^(٢) .

وعنه ، في رواية أخرى : « ما في القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن »^(٣) .
 وعن النبي ﷺ بسند عامي : « إنّ للقرآن ظهرا وبطنا وحداً ومطلعا »^(٤) إلى غير ذلك من
 الروايات.

والظاهر أنّ المراد من ظهر القرآن ظواهر آياته التي يفهمها كلّ أحد من مدلولاتها المطابقة
 والالتزامية الظاهرة ، ومن باطنه دلالاته الالتزامية الخفية وإشاراته الإيهامية ، ولطائفه ودقائقه ، وما
 يستفاد منه بعموم العلة أو أقوائية الملاك^(٥) أو خصوصية الكلمات والحروف ، أو بعلم الحساب
 والأعداد ، فإنّ كلّ واحد من هذه الطرق ممّا يستفاد به من الآيات علوم وفيرة وتكون له بطون كثيرة
 ، كما روي « أنّ للقرآن ظهرا وبطنا ، ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن »^(٦) .

وقد يطلق على ظهره : التنزيل ، وعلى بطنه : التأويل ، كما روي عن الباقر عليه السلام قال : «
 ظهره تنزيله ، وبطنه تأويله »^(٧) . وإلى ما ذكرنا من معنى الظهر والبطن أشار الصادق عليه السلام بقوله
 في رواية : « كتاب الله على أربعة أشياء : العبارة ، والإشارة ، واللطائف ، والحقائق ، فالعبارة للعوام
 ، والإشارة للخواصّ ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء »^(٨) .

(١) الإتقان في علوم القرآن ١ : ٢٠٥ ، كنز العمال ٢ : ٥٧٤ / ٤٧٥٩ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٨٧ / ٣٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٨٦ / ٣٦ .

(٤) إتحاف السادة المتقين / للزبيدي ٤ : ٥٢٧ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨ .

(٥) أي قوة الملاك .

(٦) تفسير الصافي ١ : ٥٢ .

(٧) بصائر الدرجات : ٢١٦ / ٧ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧ .

(٨) الدرة الباهرة : ٣١ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « من ما من آية إلا ولها أربعة معان : ظاهر ، وباطن ، وحدّ ، ومطلّع ، فالظاهر التلاوة ، والباطن الفهم ، والحدّ هو أحكام الحلال والحرام ، والمطلّع هو مراد الله من العبد بما » ^(١) .

والظاهر من قوله : « والباطن الفهم » فهم ما وراء الظاهر من العلوم الكثيرة بالطرق المذكورة المعلومة عندهم.

في بيان أنّ علوم النّبّي والأئمّة عليهم السلام جميعا مستفادة من القرآن بل يستفاد من بعض الأخبار أنّ علوم النّبّي صلى الله عليه وآله وأوصيائه صلوات الله عليهم مستفادة من القرآن العظيم ، والقرآن مظهر للعلوم غير المتناهية الإلهيّة ومجلاه ، ولذا قال الصادق عليه السلام : « لقد تجلّى الله تعالى [خلقه] في كلامه ، ولكنّ الناس لا يبصرون » ^(٢) .

وروي عنه عليه السلام أنّه سئل : هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وآله شيء من الوحي سوى القرآن ؟ قال : « لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا أن يعطى عبد فهمًا في كتابه » ^(٣) .

والظاهر أنّ المراد من إعطاء الفهم إنارة قلب العبد وتقوية عقله ، وجودة ذهنه ، وتكميل قوّته النظريّة ، وتعليمه طرق الاستفادة.

وتوضيح المقام بمقدار يسعه الافهام أنّه لا شبهة أنّ لكلّ موجود وجودات مختلفة في عالم الألفاظ ، وعالم الذهن ، وعالم المثل والصور ، وعالم الحقائق ، على اختلاف مراتبها ودرجاتها قوّة وضعفا وسعة وضيقا ، وقد حقّق في محله أنّ كلّ عالم مرتبط بالعوالم الاخر وقشر لما فيه مستتر ، ولكلّ وجود آثار في عالمه ، ولكلّ أثر ملاك وأثر وحكم ومصالح بلا عدّ ومّر ، فمن زكت نفسه ، وكملت جودته ، ينتقل ذهنه من عالم إلى عالم ، ومن مناسب إلى مناسب ، ومن ملزوم إلى لازم ، ومن مؤثّر إلى أثر ، ومن أثر إلى أثر ما شاء الله ، فمن رزقه الله فهم كتابه ، يصل من ظاهره إلى لبابه ، ومنها إلى دقائقه ، ومنها إلى حقائقه ، حتّى يبلغ إلى درجة لا يخفى عليه خافية ، ويحيط بحقائق الأشياء في عوالمها كما هي .

وقد حكى الفيض رحمته الله عن بعض أهل المعرفة ما ملخصه : إنّ العلم بالشيء إمّا يستفاد من

الحسن

(١) تفسير الصافي ١ : ٢٨ .

(٢) أسرار الصلاة للشهيد الثاني : ١٤٠ .

(٣) تفسير الصافي ١ : ٢٩ .

برؤية أو تجربة أو سماع خبر أو شهادة أو اجتهاد أو نحو ذلك ، ومثل هذا العلم لا يكون إلا فاسدا متغيرا محسورا ^(١) متناهيا غير محيط ، لأنه إنما يتعلّق بالشيء في زمان وجوده علم ، وقبل وجوده علم آخر ، وبعد وجوده علم ثالث وهكذا ، كعلوم أكثر الناس .

وأما ما يستفاد من مبادئه وأسبابه وغاياته كان ^(٢) علما واحدا كليّا بسيطا محيطا ^(٣) على وجه عقلي غير متغير ، فإنه ما من شيء إلا وله سبب ولسببه سبب ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب .

وكلّ ما عرف سببه من حيث يقتضيه ويوجبه فلا بدّ أن يعرف ذلك الشيء علما ضروريا دائما ، فمن عرف الله تعالى بأوصافه الكمالية ونعوته الجلالية ، وعرف أنّه مبدأ كلّ وجود وفاعل كلّ فيض وجود ، وعرف ملائكته وعلم ملائكته ^(٤) المقرّين ، ثمّ ملائكته المدبّرين المسخّرين للأغراض الكلية العقلية بالعبادات الدائمة والنسك المستمرة من غير فتور ولغوب ، الموجبة لأن يترشّح عنها صور الكائنات ، كلّ ذلك على الترتيب السببي والمسببي ، فيحيط علمه بكلّ الامور وأحوالها ولواحقها علما بريئا من التغير والشك والغلط ، فيعلم من الأوائل الثواني ، ومن الكليات الجزئيات المترتبة عليها ومن البسائط المركّبات ، ويعلم حقيقة الانسان وأحواله ، وما يكملها ويزيئها ويسعدها ، ويصعدها إلى عالم القدس وما يدنسها ويرديها ويشقيها ويهويها إلى أسفل سافلين ، علما ثابتا غير قابل للتغيير ، ولا محتمل لتطرّق الرّيب ، فيعلم الامور الجزئية من حيث هي دائمة كلية ومن حيث لا كثرة فيه ولا تغير ، وإن كانت هي كثيرة متغيرة في أنفسها بقياس بعضها إلى بعض .

وهذا كعلم الله سبحانه بالأشياء ، وعلم ملائكته المقرّين ، وعلوم الأنبياء والاصياء بأحوال الموجودات الماضية والمستقبلية ، وعلمهم بما كان وما سيكون إلى يوم القيامة من هذا القبيل ، فإنه علم كليّ ثابت غير متحدّد بتحدّد المعلومات ، ولا متكتّر بتكتّرها ، ومن عرف كيفية هذا العلم ، عرف معنى قوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٥) ويصدّق بأنّ جميع العلوم والمعاني في القرآن الكريم عرفانا حقيقيا وتصديقا يقينيا على بصيرة لا على وجه التقليد والسماع ونحوهما ، إذ ما من أمر من الامور إلا وهو مذكور في القرآن ، إمّا بنفسه أو بمقوماته وأسبابه ومبادئه وغاياته ، ولا

(١) في تفسير الصافي : محسورا .

(٢) (كان) ليس في تفسير الصافي .

(٣) (محيطا) ليس في تفسير الصافي .

(٤) (وعلم ملائكته) ليس في تفسير الصافي .

(٥) النحل : ١٦ / ٨٩ .

يتمكّن من فهم [آيات] القرآن وعجائب أسرارهِ وما يلزمها من الأسرار ^(١) والعلوم التي لا تتناهى
إلا من كان علمه بالأشياء من هذا القبيل ، انتهى ^(٢) .

وعن معلّى بن خنيس ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله
أصل في كتاب الله ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال » ^(٣) .

عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « إنّ الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء ، حتّى والله ما ترك
الله شيئا يحتاج إليه العباد حتّى [لا] يستطيع عبد يقول : لو كان هذا نزل في القرآن ، إلا وقد أنزله
[الله] فيه » ^(٤) .

ولا شبهة أنّ العلم ببطون القرآن بالغاً ما بلغ مختصّ بالأئمة الطاهرة ، وهم بالقرآن يعلمون ،
لما كان وما يكون وما هو كائن ، وما يمكن أن يعلمه البشر .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « إنّ ها هنا - وأشار إلى صدره - لعلمان جَمّا لو وجدت له حملة »
^(٥) .

وروى الغزالي في (الإحياء) والحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن ابن مسعود رضی الله
عنه قال : إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف ، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وإنّ عليّ بن أبي
طالب عنده منه علم الظاهر والباطن ^(٦) .

وروى النّقاش في (تفسيره) عن ابن عباس ما يقرب ممّا قال ابن مسعود ^(٧) .

في نقل كلام الغزالي في فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام ووفور علمه عليه السلام

وعن الغزالي قال : قال : أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « إنّ رسول الله ﷺ أدخل لسانه
في فمي ، فانفتح في قلبي ألف باب من العلم ، مع كلّ باب « ألف باب إلى أن قال الغزالي : وهذه
المرتبة لا تنال بمجرّد التعلّم ^(٨) ، بل يتمكّن المرء في هذه الرتبة بقوة العلم اللدنيّ ^(٩) .

وقال علي عليه السلام لما حكى عهد موسى على نبينا وآله عليه السلام : « إنّ شرح كتابه كان أربعين
جملاً ، لو أذن الله ورسوله لي لا تسرع ^(١٠) في شرح معاني ألف الفاتحة حتّى يبلغ مثل ذلك » يعني
أربعين وقراً أو جملاً ^(١١) .

(١) في تفسير الصافي : من الأحكام.

(٢) تفسير الصافي ١ : ٥٠ .

(٣) المحاسن : ٢٦٥ / ٣٥٥ ، الكافي ١ : ٤٩ / ٦ .

(٤) الكافي ١ : ٤٨ / ١ .

(٥) الخصال : ١٨٦ / ٢٥٧ ، نهج البلاغة : ٤٩٦ / ١٤٧ .

(٦) حلية الأولياء ١ : ٦٥ .

(٧) مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ٤٣ .

(٨) في البحار : العلم . (٩) بحار الأنوار ٩٢ : ١٠٤ .

(١٠) كذا في النسخة والبحار والظاهر : لا شرع .

(١١) بحار الأنوار ٩٢ : ١٠٤ .

وذكر أبو عمر ^(١) الزاهد أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : « يابن عباس إذا صليت العشاء الآخرة فالحقني إلى الجبان » . قال : فصليت ولحقته وكانت ليلة مقمرة .

قال : فقال لي : « ما تفسير الألف من الحمد ؟ » قال : فما علمت حرفا أجيبه . قال : فتكلم في تفسيرها ساعة تامة .

قال : ثم قال لي : « فما تفسير اللام من الحمد ؟ » قال : فقلت : لا أعلم . فتكلم في تفسيرها ساعة تامة .

ثم قال : « فما تفسير الميم من الحمد ؟ » فقلت : لا أعلم . قال : فتكلم في تفسيرها ساعة تامة .

قال : ثم قال : « ما تفسير الدال [من الحمد] ؟ » قال : قلت : لا أدري . قال : فتكلم فيها حتى برق عمود الفجر . قال : فقال لي : « يابن عباس ، قم إلى منزلك وتأهب لفرضك » . قال أبو العباس عبد الله بن عباس : فقمتم وقد وعيت كل ما قال ، ثم تفكرت فإذا علمي بالقرآن في علم علي كالقرارة في المتعنجر ^(٢) ، انتهى ^(٣) .

قالوا : القرارة : الغدير ، والمتعنجر : البحر .

وعن علي عليه السلام قال : « لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حملة ، لنشرت التوحيد والإسلام [والإيمان] والدين والشرائع من الصمد » ^(٥) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إني لأعلم خبر السماء ، وخبر الأرض ، وخبر ما كان وما هو كائن ، كأنه في كفي » .

ثم قال : « من كتاب الله أعلمه ، إن الله يقول : (فيه تبيان كل شيء) » ^(٦) .

وفي رواية عن أبي عبد الله ، عن رسول الله صلوات الله عليه وآله قال : « ليس شيء أبعد عن عقول ^(٧) الرجال من تفسير القرآن ، وفي ذلك تحير الخلائق أجمعون إلا ما شاء الله ، وإنما أراد الله بتعميته في ذلك أن

(١) في النسخة : أبو عمرو ، وهو أبو عمر الزاهد ، محمد بن عبد الواحد اللغوي المشهور بغلام ثعلب ، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ . راجع : فهرست ابن النديم : ١١٣ ، تاريخ بغداد ٢ : ٣٥٦ ، لسان الميزان ٥ : ٢٦٨ ، وفيات الأعيان ٤ : ٣٢٩ .

(٢) المتعنجر : الماء وسط البحر وليس في البحر ماء يشبهه ، والسييل الكثير ، والقراءة : القاع المستدير يجتمع فيه الماء ، يقال : علمي إلى علمه كالقرارة في المتعنجر ، أي مقبسا إلى علمه كالقاع الصغير موضوعا في جنب البحر .

(٣) بحار الأنوار ٩٢ : ١٠٤ .

(٤) إحياء علوم الدين ١ : ٣٣٤ و ٣٤١ ، أسرار الصلاة للشهيد الثاني : ١٣٨ .

(٥) التوحيد : ٩٢ / ٦ .

(٦) تفسير العياشي ٣ : ١٨ / ٢٤١٥ .

(٧) في المحاسن : شيء أبعد من قلوب .

ينتهوا إلى بابه وصراطه ، وأن يعبدوه وينتهوا إلى طاعة القوام بكتابه ، والناطقين عن أمره ، وأن يستنبطوا ما ^(١) احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسهم. ثم قال : **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾** ^(٢) . وأما غيرهم فليس يعلم ذلك أبدا ، ولا يوجد. وقد علمت أنه لا يستقيم أن يكون الخلق كلهم ولاية الأمر ، إذا لا يجدون من يأثمرون عليه ، ولا من يبلغونه أمر الله وحيه ، فجعل [الله] الولاية خواصا ليقتردي بهم [من] لم يخصصهم بذلك. فافهم ذلك إن شاء الله ، وإياك وتأويل القرآن برأيك ، فإن الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور ، ولا قادرين عليه ولا على تأويله ، إلا من حده وبابه الذي جعله الله له ، فافهم إن شاء الله ، واطلب الأمر من مكانه تجده إن شاء الله » ^(٣) .

الطرفة الثالثة والعشرون

في أن جميع القرآن في الأئمة وولايتهم

ووجوب اتباعهم وشؤونهم وشؤون

أوليائهم وأعدائهم ، وتوضيحه

قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم في أن جميع القرآن فيهم ، وفي ولايتهم ، ووجوب اتباعهم ، وشؤونهم وشؤون أوليائهم وأعدائهم. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - في حديث ذكر فيه محامد أهل بيته عليه السلام - قال : « نحن معدن التنزيل ، ومعنى التأويل » ^(٤) . وقريب منه ما روي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث طويل ذكر فيه صفات الإمام ^(٥) .

ولا ينافي ذلك ما رواه الأصمعي بن نباتة عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، قال : « القرآن نزل على أربعة أرباع : ربع فينا ، وربع في عدونا ، وربع سنن وأمثال ، وربع فرائض وأحكام ، ولنا كرائم القرآن » ^(٦) .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : « أنه نزل أثلاثا : ثلثي القرآن فينا وفي شيعتنا ، فما كان من

خير فلنا

(١) في النسخة : يستنبطوا لما ، وفي المحاسن : يستنبطوا ما.

(٢) النساء : ٤ / ٨٣ . (٣) المحاسن : ٢٦٨ / ٣٥٦ ، بحار الأنوار ٩٢ : ١٠٠ / ٧٢ .

(٤) مشارق أنوار اليقين : ٤٠ ، بحار الأنوار ٢٥ : ٢٢ / ٣٨ .

(٥) مشارق أنوار اليقين : ١١٤ .

(٦) تفسير فرات : ٤٦ / ٢ .

ولشيعتنا ، والثالث الباقي اشركنا فيه النَّاس ، فما كان من شرّ فلعدونا » ^(١) .

فإنَّ الاختلاف بين الأخبار راجع إلى اختلاف اللَّحَاط والاعتبار ، فباعتبار يكون جميع ما ذكر فيه من مدح المؤمنين وثوابهم ، وذمَّ الكفَّار وعقابهم راجعا إلى شيعتهم وأعدائهم ، وجميع الفرائض والأحكام مرتبطا بولايتهم ، وجميع ما ذكر فيه من قصص الأنبياء وأممهم جاريا فيهم .

عن الكاظم عليه السلام في قوله : ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ** ﴾ ^(٢) قال : « القرآن له ظهر وبطن ، فجميع ما حرّم الله في الكتاب هو الظاهر ، والباطن من ذلك أئمة الجور ، وجميع ما أحلّ الله في الكتاب هو الظاهر ، والباطن من ذلك أئمة الحق » ^(٣) .

وعن أبي بصير ، قال : قال الصادق عليه السلام : « يا أبا محمد ، ما من آية تقود إلى الجنة ويذكر أهلها بخير إلّا وهي فينا وفي شيعتنا ، وما من آية نزلت تذكر أهلها بشرّ وتسوق إلى النار ، إلّا وهي في عدونا ومن خالفنا » ^(٤) .

وفي (التوحيد) بأسانيده : عنه عليه السلام أنّه قال : « ما من آية تسوق إلى الجنة إلّا وهي في النبي والأئمة عليهم السلام وأشياعهم وأتباعهم ، وما من آية تسوق إلى النار إلّا وهي في أعدائهم ومخالفهم » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام وكثير من الصحابة والتابعين « أنّه ما من آية أولها : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ^(٦) إلّا وعليّ بن أبي طالب أميرها وقائدها وشريفها وأولها » ^(٧) .

وعن (الاحتجاج) عن الباقر عليه السلام قال : « قال النبي صلى الله عليه وآله في خطبة يوم الغدير : معاشر النَّاس ، هذا عليّ ^(٨) أحقكم بي ، وأقربكم إليّ ^(٩) ، والله عزّ وجلّ وأنا عنه راضيان ، وما نزلت آية رضا إلّا فيه ، وما خاطب [الله] الذين آمنوا إلّا بدأ به ، وما نزلت آية مدح في القرآن إلّا فيه ^(١٠) .

معاشر النَّاس ، إنّ فضائل عليّ عند الله عزّ وجلّ ، وقد أنزلها عليّ في القرآن أكثر من أن أحصيها في مكان ^(١١) واحد ، فمن تباكم بها وعرفها فصدّقوه » ^(١٢) .

أقول : لا ريب في أنّ كلّ ما نزل من الآيات في فضائل عليّ عليه السلام فهو جار في أوصيائه

(١) بصائر الدرجات : ١٤١ / ٢ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٨٥ / ١٨ .

(٢) الأعراف : ٧ / ٣٣ .

(٣) الكافي ١ : ٣٠٥ / ١٠ .

(٤) الكافي ٨ : ٣٦ / ٦ .

(٥) إعتقادات الصدوق : ٩٥ .

(٦) تفسير فرات : ٤٨ - ٥١ / ٤ و ٦ - ٩ ، مناقب الخوارزمي : ١٩٨ ، ذخائر العقبى : ٨٩ .

(٧) زاد في المصدر : انصركم لي و .

(٨) زاد في المصدر : وأعزكم عليّ .

(٩) الإحتجاج : ٦١ .

(١٠) في المصدر : مقام .

(١١) الإحتجاج : ٦٦ .

المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أيضا ، كما روي عن الباقر عليه السلام في حديث ، قال : « ظهر القرآن للذين نزل فيهم ، وبطنه للذين ^(١) عملوا بمثل أعمالهم » ^(٢) .

وفي رواية أخرى : عنه عليه السلام قال : « ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ، ثمّ مات أولئك [القوم] ماتت الآية ، لما بقي من القرآن شيء ، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض » ^(٣) .

وعنه عليه السلام في رواية ، قال في قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ^(٤) « عليّ الهادي ، ومن الهادي [اليوم] ؟ » فقلت : أنت جعلت فداك الهادي . قال : « صدقت ، إنّ القرآن حيّ لا يموت ، والآية حيّة لا تموت . فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن ^(٥) ، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام : « إنّ القرآن حيّ لا يموت ، وإنّه يجري كما يجري الليل والنهار ، وكما تجري الشمس والقمر ، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا » ^(٧) .

وبالجملة : الروايات التي تدلّ على أنّ جميع القرآن في شأن الأئمة عليهم السلام وإيجاب ولايتهم كثيرة جدّا ، بل وردت روايات في آيات ظاهرها بيان الأحكام ، وباطنها بيان شأنهم ، كما روي عن عبد الله بن سنان ، قال ذريح المحاربيّ : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ^(٨) فقال : « المراد لقاء الإمام عليه السلام » .

[قال عبد الله بن سنان] : فأتيت أبا عبد الله صلوات الله عليه وقلت له : جعلت فداك ، قول الله عزّ وجلّ : ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال : « أخذ الشارب وقصّ الأظفار وما أشبه ذلك » فحكيت له كلام ذريح ، فقال عليه السلام : « صدق ذريح ، وصدقت [أنت] ، إنّ للقرآن ظاهرا وباطنا ، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح ! » ^(٩) .

قال الفيض : إنّ جماعة من أصحابنا صنفوا كتباً في تأويل القرآن على هذا النحو ، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام في تأويل آية آية ، إمّا بهم أو بشيعتهم أو بعدوهم على ترتيب القرآن ، وقد رأيت منها

(١) في تفسير العياشي : الذين .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٨٦ / ٣٤ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٨٥ / ٣١ ، بحار الأنوار ٩٢ : ١١٥ / ٤ .

(٤) الرعد : ١٣ / ٧ .

(٥) في العياشي : في الأقوام ماتوا فمات القرآن .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٩ / ٢١٨٥ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٩ / ٢١٨٥ .

(٨) الحج : ٢٢ / ٢٩ .

(٩) معاني الأخبار : ٣٤٠ / ١٠ .

كتابا كاد يقرب من عشرين ألف بيت (١) .

وقد ذكر أصحابنا لذلك أسراراً ، أحسنها أنه تعالى لما جعل الأنوار المقدسة في الخلق مظاهر لصفاته الجلالية والجمالية بهم عرف الله وبهم عبد ، فلا يحصل لأحد قرب إلى الله إلا بالقرب إليهم ، ولا الإيمان بالله إلا بالإيمان بهم ، ولا يعرف الله إلا بمعرفتهم ، ولا ينال أحد درجة عند الله إلا بولايتهم .

فكل أمر في القرآن بالإيمان بالله وبعرفانه وبالقرب إليه ، يكون أمراً بالإيمان بهم وبعرفانهم وبالقرب إليهم ، وكل تكليف جعل مقرباً إلى الله ، يكون مقرباً إليهم ، وكل مدح يكون للمؤمنين ، يكون لهم ولشيعتهم ، وكل ذم ووعيد يكون للكفار ولأعداء الله ، يكون في الواقع راجعاً إلى الكافرين بهم وإلى أعدائهم ، وكل ما هو راجع إلى الله ، راجع إليهم ، فهم صلوات الله عليهم مع الله ، والله معهم ، لا يفارقونه في شيء ولا يفارقهم .

ويشهد لما ذكر الأخبار الواردة في أن ولايتهم قرينة ولاية الله وتوحيده ، وأنهم علّة غائية لخلق العالم ، وأن جميع الأنبياء من أول الخلق ، كما كانوا مأمورين بدعوة أممهم إلى التوحيد ، كانوا مأمورين بدعوتهم إلى الإقرار بولايتهم ومعرفة حقوقهم .

في (تفسير الإمام عليّ) أنه قال : « ولاية محمد وآل محمد صلوات الله عليهم هي الغرض الأقصى والمراد الأفضل ، ما خلق الله أحداً من خلقه ، ولا بعث أحداً من رسله إلا ليدعوهم إلى ولاية محمد وعليّ وخلفائه صلوات الله عليهم ، يأخذ عليهم العهد ليقيموا عليه ، وليعلموا به (٢) سائر عوالم الأمم » (٣) .

وعن (أمالي الشيخ) : عن محمد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبي قط إلا بها » (٤) .

وفي (الكافي) : عن عبد الأعلى ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « ما من نبي جاء قط إلا بمعرفة حقنا ، وتفضيلنا على من سوانا » (٥) .

وفيه أيضاً : عن أبي الحسن عليه السلام قال : « ولاية عليّ صلوات الله عليه مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ، ولم يبعث الله رسولا إلا بنبوة محمد ﷺ ووصية عليّ عليه السلام » (٦) .

(١) تفسير الصافي ١ : ٢٣ ، منها تأويل الآيات لشرف الدين النجفي ، وكتاب الهداية القرآنية إلى الولاية الإمامية للسيد هاشم البحراني .

(٢) في التفسير : وليعمل به .

(٣) التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام : ٣٧٩ / ٢٦٤ .

(٤) أمالي الطوسي : ٦٧١ / ١٤١٢ .

(٥) الكافي ١ : ٣٦٢ / ٤ .

(٦) الكافي ١ : ٣٦٣ / ٦ .

وعن (تفسير العياشي) ^(١) : عن الحسن بن عليّ عليه السلام أنه قال : « من دفع فضل أمير المؤمنين صلوات الله عليه [على جميع من بعد النبي صلى الله عليه وآله] فقد كذب بالتوراة والانجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى وسائر كتب الله المنزلة ، فإنه ما نزل شيء [منها] إلّا وأهم ما فيه بعد الإقرار ^(٢) بتوحيد الله عزّ وجلّ والاقرار بالنبوة ، الاعتراف بولاية عليّ والطيبين من آل عليه السلام » ^(٣) .

[وعن (أمالي الشيخ) : عن جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه ، عن جدّه عليه السلام ،] قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما قبض الله نبياً حتّى أمره أن يوصي إلى [أفضل] عشيرته من عصبته ، وأمرني أن أوصي ، فقلت : إلى من يا رب ؟ فقال : إلى ابن عمك عليّ بن أبي طالب ، فإنّي قد أثبتّه في الكتب السالفة ، وكتبت فيها أنّه وصيّك ، وعلى ذلك أخذت ميثاق الخلائق ، وموائق أنبيائي ورسلي ، أخذت موائقهم لي بالزبويّة ، ولك يا محمد بالنبوة ، ولعليّ بالولاية » ^(٤) .

وعن (كتاب سليم بن قيس الهلاليّ) : عن المقداد رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « والذي نفسي بيده ، ما أستوجب آدم أن يخلقه الله وينفخ فيه من روحه ، وأن يتوب عليه ويردّه إلى جنّته إلّا بنبوتي والولاية لعلّي بعدي .

والذي نفسي بيده ، ما رأى ^(٥) إبراهيم ملكوت السماوات ^(٦) ، ولا اتّخذّه الله خليلاً إلّا بنبوتي ومعرفة عليّ بعدي . والذي نفسي بيده ، ما كلّم الله موسى تكليماً ولا أقام عيسى آية للعالمين إلّا بنبوتي والإقرار لعلّي بعدي . والذي نفسي بيده ، ما تنبأ نبيّ قطّ إلّا بمعرفتي ^(٧) والإقرار لنا بالولاية ، ولا استأهل خلق من الله النظر [إليه] إلّا بالعبوديّة له والإقرار لعلّي بعدي » ^(٨) .

وعن جابر الجعفيّ ، عن الباقر عليه السلام - في رواية طويلة - قال : « فنحن أوّل خلق الله ، وأوّل خلق عبد الله وسبّحه ، ونحن سبب خلق الله الخلق ، وسبب تسبيحهم وعبادتهم من الملائكة والآدميين ، فبنا عرف الله ، وبنا عبد الله ، وبنا وحد الله ، وبنا أكرم الله من أكرم من جميع خلقه ، وبنا أثاب الله [من

(١) لم نجده في تفسير العياشي ، والظاهر أنّه وهم ، فقد ورد في التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام وتأويل الآيات .

(٢) في تفسير العسكري وتأويل الآيات : الأمر .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٨٨ / ٤٦ ، تأويل الآيات ١ : ٣٣ / ٤ .

(٤) أمالي الطوسي : ١٠٤ / ١٦٠ ، بحار الأنوار ٣٨ : ١١١ / ٤٤ .

(٥) في المصدر : ما اري .

(٦) زاد في المصدر : والأرض .

(٧) في المصدر : بمعرفته .

(٨) كتاب سليم : ٢٠٦ .

أثاب [، وبنا عاقب من عاقب ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(٢) فرسول الله ﷺ أول من عبد الله ، وأول من أنكر أن يكون له ولد أو شريك ، ثم نحن بعد رسول الله ﷺ « الخبر »^(٣) .

فظهر من جميع ما ذكر أنّ حقيقة الدّين وروح الأحكام ؛ معرفتهم وولايتهم ، وجميع الخلق راجع إليهم ، فجميع آيات الكتاب تكون فيهم وما يتعلّق بهم.

الطرفة الرابعة والعشرون

في دفع توهم استلزام أمر اشتمال القرآن

على البطون استعمال اللفظ في أكثر من معنى

قد يتوهم المتوهم أنّه يلزم من إرادة المعاني الظاهرية ، والبطون الكثيرة من الآيات ، إرادة المعاني الكثيرة من اللفظ الواحد في استعمال واحد ، وقد تقرّر في علم الاصول عدم جوازه ، بل امتناعه ، وبعد الإحاطة بما ذكرنا سابقا من اختلاف جهات الدلالة واستنباط المعاني منها ، يندفع هذا التوهم ، فإنّ الانتقال من اللفظ إلى المعنى ، واستفادة المطلب من الكلام ، ليس منحصرًا في الدلالة بجهة واحدة ووجه فارد ، بل كلّما استعملت الجمل المركبة من المفردات تركيبًا مفيدًا ، فهي تدلّ على معانيها الظاهرية مطابقة ، وعلى أجزائها العقلية والخارجية تضمنًا ، وعلى عللها وأجزاء عللها وشرائطها ، إلى أن ينتهي إلى مبدأ المبادئ ، وعلة العلل ومعلولاتها ، إلى ما شاء الله التزاما . هذا بالنسبة إلى الجملة الواحدة بالنظر إلى الدلالات الثلاث مع قطع النظر عن انضمامها إلى الآيات الاخر ، وعن الدلالات غير الكلامية من كيفية الألفاظ وأعداد حروفها وسائر طرق الاستفادة منها ، التي لا يعلمها إلّا الراسخون في العلم.

فبتلك الوجوه يكون لكلّ آية ظاهر ، وظاهرها ظاهر وباطن وباطن باطن إلى ما شاء الله ، وبها يجمع بين الأخبار المتنافية الواردة في تفسير بعض الآيات كالمختلفات في تفسير قوله تعالى : ﴿وَرَابِطُوا﴾ في آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(٤) ففي بعضها أنّ المراد منه

(١) الصافات : ٣٧ / ١٦٥ و ١٦٦ .

(٢) الزخرف : ٤٣ / ٨١ .

(٣) بحار الأنوار : ٢٥ : ٢٠ / ٣١ .

(٤) آل عمران : ٣ / ٢٠٠ .

التوقف في الثغور ، وربط الخيل للتهيؤ للجهاد ^(١) . وفي بعضها الآخر : أنّ المراد الانتظار للصلاة بعد الصلاة ^(٢) . وثالث : أنّه لقاء الإمام ^(٣) .

فليس التعارض بين الروايات المختلفة الواردة في تفسير آية من قبيل التعارض الذي يجب الرجوع فيه إلى المرجحات المنصوصة أو غير المنصوصة ، وعند فقدانها يلتزم بالتوقف أو التخيير ، فإنّ الجمع الدلاليّ ممكن فيها ، ومقدّم على المرجحات السنّديّة.

وكذا الروايات المختلفة الواردة في شأن نزول الآيات ، فإنّها محمولة على تقارن الوقائع ، وإنّ جميعها كان سببا للنزول ، أو على أنّ النزول كان متكرّرا ، فإنّه ممكن ، بل واقع ، أو على أنّها نزلت عند أوّل واقعة ، ثمّ وقعت وقائع أخرى كلّ واحد منها مناسب لمضمون الآية ، فقرأها النبي ﷺ عنده فتوهم الزاوي نزولها فيه.

نعم ، يكون اختلاف الروايات في كيفية القراءة من التعارض الذي ليس فيه جمع دلاليّ بناء على ما هو الحقّ المحقّق من بطلان القول بتعدّد القراءات التي نزل بها جبرئيل ، وفساد القول بأنّ القراءات السبع متواترة عن النبي ﷺ .

وإنّ الحقّ أنّ القرآن نزل على حرف واحد من عند إله واحد ، كما نطقت به بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليه السلام ^(٤) ، ولكن لا يمكن إثبات كيفية القراءة بخبر الواحد ، كما لا يمكن إثبات الآية به ، نعم يترتب عليه على تقدير استجماعه شرائط الحجّية الحكم الشرعيّ الذي يكون لمؤداه ، إن لم تكن القراءة المشهورة متواترة ، وإلا فلا بدّ من طرح تلك الروايات والقراءة ، والعمل بالقراءة المشهورة ، وعند ذلك لا فائدة في تلك الأخبار خصوصا مع قولهم صلوات الله عليهم « اقرأ كما يقرأ الناس » ^(٥) .

فلا يجوز قراءة السور بالقراءات غير المشهورة في صلاة الفريضة ، ولو كانت مروية عن الأئمة المعصومين عليه السلام بسند صحيح معتبر .

(١) الكشف ١ : ٤٦٠ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٥٧ .

(٢) تفسير الطبري ٤ : ١٤٨ ، مجمع البيان ٢ : ٩١٨ ، تفسير القرطبي ٤ : ٣٢٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٥٧ .

(٣) راجع : الكافي ٢ : ٦٦ / ٣ ، غيبة النعماني : ١٩٩ / ١٣ ، تفسير القمي ١ : ١٢٩ ، مختصر بصائر الدرجات : ٨ .

(٤) راجع : الكافي ٢ : ٤٦١ / ١٢ و ١٣ ، تفسير الصافي ١ : ٥٣ .

(٥) راجع : الكافي ٢ : ٤٦٢ / ٢٣ .

الطرفة الخامسة والعشرون

في عدم حجّة الأمارات الدّالة على تفسير الآيات

غير المرتبطة بالأحكام الشرعية العملية

لا شبهة في عدم حجّة الأمارات الشرعيّة في مورد ليس له بنفسه أو بتوسط اللوازم العقليّة أو العاديّة حكم شرعيّ عمليّ ، حيث إنّ الحجّة إمّا عبارة عن حكم شرعيّ تكليفيّ طريقيّ بترتيب الأحكام العمليّة الواقعيّة على مؤدّى الأمانة الدّالة عليها أو على وجود موضوعها عند جهل المكلف بها أو بموضوعها ، أو حكم وضعيّ وجعل إنشائيّ ممّن له الحكم.

والجعل يكون منشأ لاعتبار عقلائيّ يستتبع الآثار العقليّة من تنجيز الأحكام الشرعيّة الواقعيّة التي تكون مؤدّاها أو العقلائيّة كذلك ولو بالوسائط العقليّة أو العاديّة عند الإصابة والعذر عند الخطأ والموافقة والتجسّي عند المخالفة ، فلا يتصوّر تحقّق مفهوم الحجّة وجعلها إلّا لأمانة كان مؤدّاها حكما عمليا ، أو موضوعا ^(١) ذا حكم ولو بواسطة امور غير شرعيّة ، فلا معنى لحجّة الأخبار غير العمليّة الواردة في بيان شأن نزول الآيات أو تفسيرها أو بطونها وتأويلها إذا لم يترتب عليها حكم شرعيّ ولم يكن لها دخل في فهم الآيات الدّالة على الأحكام التكليفيّة أو الوضعيّة ، ولا يجوز ترتيب أثر العلم على تلك الأمارات المجعولة.

ولو كان العلم مأخوذا فيها على جهة الكشف والطريقيّة ، فعلى المكلف أن يترتب على الأمارات آثار المعلوم ، لا آثار العلم ، فعلى هذا لا يجوز الإخبار بتحقيق مؤدّاها لأنّ جواز الإخبار بالواقع من آثار العلم به لا من آثار نفسه ، فإنّ دليل الحجّة لا يفي بإثبات آثار العلم للأمانة ، وإنّما يثبت لها أثر الكشف عن الواقع الذي للعلم ، إلّا أن يقوم دليل غير دليل الحجّة على جواز ترتيب أثر العلم على الأمانة.

فعلى هذا لا يجوز الارتئاس في الماء للصائم ، ولا يجوز الإخبار بأنّ الارتئاس مبطل للصّوم في حكم الله الواقعي ، لأنّه كذب على الله وعلى رسوله إذا كان الكذب هو الإخبار بشيء لا يعلم به. نعم ، له أن يقول : رأيي ، أو رأي مقلّدي عدم جواز الارتئاس حال الصّوم ، أو يقول : مقتضى الأخبار كذا ، إلّا أن يقال : إنّ أقوى دليل حجّة الروايات هو بناء العقلاء وسيرتهم على العمل بالخبر الموثوق

(١) في النسخة : حكم عمليّ أو موضوع.

به ، وكما أنّ سيرتهم قائمة على جواز العمل ، كذلك قائمة على جواز الإخبار بالواقع الذي يكون مؤداه.

فإذا أخبر أحد بشأن نزول آية ، أو تفسيرها ، أو تأويلها ، أو بحكم من أحكام الله الواقعية ، ثمّ سئل عن مدرك إخباره ، فأجاب بأنّه ورد خبر معتبر به ، لا يلام عند العقلاء على إخباره ، مع عدم علمه به ، وتؤيّد الرواية في جواز الشّهادة على الملك الواقعي بالاستصحاب واليد^(١) .
والحاصل : أنّ في الحجج العقلانيّة من خبر الثقة وظواهر الألفاظ وغيرها سيرتين منهم ، إحداهما : على جواز العمل بمؤداهما على أنّه الواقع. وثانيتهما : على جواز الإخبار بالواقع الذي تكون أمانة عليه.

الطرفة السادسة والعشرون

في دفع توهم التناقض والتعارض

بين الآيات الكريمة

قد توهم الجاهلون التناقض في جملة من آيات الكتاب العزيز ، والتعارض بين كثير منها ، مع بدهاة أنّ كلامه تعالى منزّه عن ذلك ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢) وقد تعرّض جمع من العلماء لذكر الآيات الموهمة لذلك ، وليبيان وجه الجمع بينها ودفع التوهم فيها.

روي عن سعيد بن جبير ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس رضى الله عنه فقال : رأيت أشياء تختلف عليّ من القرآن. فقال ابن عباس : ما هو أشكّ ؟ ! قال : ليس بشكّ ، ولكنه اختلاف ، قال : هات ما اختلف عليك من ذلك.

قال : أسمع الله يقول : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٣) وقال : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(٤) فقد كتموا. وأسمعه يقول : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٥) ثمّ قال : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٦) . وقال : ﴿أَإِنْكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ حتى بلغ ﴿طَائِعِينَ﴾^(٧) ثمّ قال في الآية الاخرى : ﴿أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾^(٨) ثمّ قال : ﴿وَالْأَرْضُ

(١) وسائل الشيعة ٢٧ : ٣٣٦ - باب ١٧ .

(٢) النساء : ٤ / ٨٢ . (٣) الأنعام : ٦ / ٢٣ .

(٤) النساء : ٤ / ٤٢ .

(٥) المؤمنون : ٢٣ / ١٠١ .

(٦) الصافات : ٣٧ / ٢٧ ، الطور : ٥٢ / ٢٥ .

(٧) فصلت : ٤١ / ٩ - ١١ .

(٨) النازعات : ٧٩ / ٢٧ .

بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا^(١) . وأسمعه يقول : ﴿كَانَ اللَّهُ^(٢)﴾ ما شأنه يقول : ﴿كَانَ اللَّهُ^(٣)﴾ .

فقال ابن عباس رضى الله عنه : أما قوله : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإتّهم لما رأوا يوم القيامة أنّ الله يغفر لأهل الإسلام ، ويغفر الذنوب ، ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره ، ولا يغفر شركا ، جحدته المشركون رجاء أن يغفر لهم ، فقالوا : ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فحتم الله على افواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثا .

وأما قوله : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتسألون .

وأما قوله : ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فإن الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دحانا فسوّاهن سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض .

وأما قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يقول : جعل فيها جبلا ، وجعل فيها نهرا ، وجعل فيها شجرا ، وجعل فيها بحورا .

وأما قوله : ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ فإنّ الله كان ولم يزل كذلك وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير لم يزل كذلك

أقول : الظاهر أنّ المراد من الجواب الآخر أنّ الزّمان ليس بداخل في مفهوم الفعل وضعاً ، أو يكون داخلا ، ولكن صار منسلخا من الزّمان هنا بالقرينة القطعية .

ثمّ قال : فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبهه^(٤) ما ذكرت لك . وإنّ الله لم ينزل شيئا إلّا وقد أصاب به الذي أراد ، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون^(٥) .

وعن [ابن] أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عباس رضى الله عنه عن ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ

أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٦) وقوله تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٧) فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابة ، الله أعلم بهما^(٨) .

(١) النازعات : ٧٩ / ٣٠ .

(٢ و ٣) . آل عمران : ٣ / ١٧٩ .

(٤) في النسخة : يشبهها .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٨٨ .

(٦) السجدة : ٣٢ / ٥ .

(٧) المعارج : ٧٠ / ٤ .

(٨) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٩٣ .

وزاد في رواية اخرى : ما أدري ما هما وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم ^(١) .

قال ابن [أبي] مليكة : فضريت البعير حتى دخلت على سعيد بن المسيّب ، فسئل عن ذلك ، فلم يدر ما يقول : فقلت له : ألا أحيرك بما حضرت من ابن عباس ؟ فآخبرته ، فقال ابن المسيّب للسائل : هذا ابن عباس قد اتقى أن يقول فيهما وهو أعلم مني ^(٢) .

وفي رواية اخرى عن ابن عباس : إنّ يوم الألف هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه ، ويوم الألف في سورة الحجّ هو أحد الأيام الستّة التي خلق الله فيها السماوات ، ويوم الخميس ألفا هو يوم القيامة ^(٣) .

وعن عكرمة ، عنه رضى الله عنه أنّ رجلا قال له : حدّثني ما هؤلاء الآيات ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ و﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقال : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ ^(٤) فقال : يوم القيامة حساب خمسين ألف سنة ، وخلق السماوات والأرض في ستّة أيام ، كلّ يوم يكون ألف سنة . و﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : ذلك مقدار السّير ^(٥) ، انتهى .

وقال بعض : إنّ المراد من اليوم في جميع الآيات يوم القيامة ، وأنّ الاختلاف باعتبار اختلاف حال المؤمن والكافر ^(٦) .

وقيل : إنّ المراد من ألف سنة سنين الآخرة ، ومن خمسين ألف سنة سنين الدنيا ^(٧) . ونقل : أنّه سأل رجل بعض العلماء عن قوله : ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ^(٨) فأخبر الله أنّه لا يقسم به ، ثم أقسم به في قوله : ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ^(٩) . فقال : أيّما أحبّ إليك ، اجيبك ثمّ أقطعك ، أو أقطعك ثمّ اجيبك ؟ فقال : بل أقطعني ثمّ أجبي .

فقال : اعلم أنّ هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال وبين ظهري قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزا وعليه مطعنا ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلّقوا به وأسرعوا بالرّدّ عليه ، ولكنّ القوم علموا وجهلت ولم ينكروا ما أنكرت .

ثمّ قال له : إنّ العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها ، وأنشد فيه أبياتا ^(١٠) .

(١) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٩٣ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٩٣ .

(٣) الحج : ٢٢ / ٤٧ . (٤) في الإتيان : المسير .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٩٣ .

(٦) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٩٤ .

(٧) مجمع البيان ٧ : ١٤٢ .

(٨) البلد : ٩٠ / ١ . (٩) التين : ٩٥ / ٣ .

(١٠) الإتيان في علوم القرآن ٣ : ٩٩ .

وعن بعض العلماء : في المقام كلام ملخصه : أنَّ للاختلاف أسباب.

أحدها : وقوع المخبر به على أحوال ^(١) مختلفة وتطويرات شتى ، كقوله في خلق آدم مرّة ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ ^(٢) ومرّة ﴿مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ﴾ ^(٣) ومرّة ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ ^(٤) ومرّة ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ ^(٥) فهذه ألفاظ مختلفة ، ومعانيها في أحوال مختلفة ، إلّا أنَّ كلّها يرجع إلى أصل واحد وهو التراب .
وكقوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ﴾ ^(٦) في موضع و﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ ^(٧) في موضع ، والجَانُّ : الصّغير من الحيات ، والثعبان : الكبير منها ، وذلك الاختلاف بلحاظ أنَّ خلقها خلق الثعبان العظيم ، وحركتها وخفّتها كحركة ^(٨) الجَانِّ وخفّته .
وثانيها : اختلاف الموضع ^(٩) ، كقوله : ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ^(١٠) وقوله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ^(١١) مع قوله : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ^(١٢) . وذلك بلحاظ اختلاف الأماكن ، لأنَّ في القيامة مواقف كثيرة ، ففي موضع يسئلون ، وفي آخر لا يسئلون .

وقيل : إنّ السؤال المثبت سؤال تبكيك وتوبيخ ، والمنفيّ سؤال المَعذرة وبيان الحجة .
وقيل : إنّ السؤال الأوّل عن التوحيد وتصديق الرّسل . والسؤال الثاني عمّا يستلزمه الإقرار بالنبوّات من شرائع الدّين وفروعه .

وكقوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ^(١٣) مع قوله : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ^(١٤) فمن الأولى يفهم إمكان العدل ، ومن الثانية عدم إمكانه ، فالأولى في توفية الحقوق ، والثانية في الميل القلبيّ ، وليس في قدرة الإنسان .
أقول : وقريب من هذا الوجه مروى عن الصادق عليه السلام ^(١٥) .

قال : وكقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ^(١٦) مع قوله : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ^(١٧) فالأولى في الأمر التشريعيّ ، والثانية في الأمر التكوينيّ ، بمعنى القضاء والتقدير .

(١) في الاتقان : أنواع . (٢) آل عمران : ٣ / ٥٩ .

(٣) الحجر : ١٥ / ٢٨ . (٤) الصفات : ٣٧ / ١١ .

(٥) الرحمن : ٥٥ / ١٤ .

(٦) الأعراف : ٧ / ١٠٧ ، الشعراء : ٢٦ / ٣٢ .

(٧) النمل : ٢٧ / ١٠ ، القصص : ٢٨ / ٣١ .

(٨) في الإتقان : كاهتزاز . (٩) في الاتقان : الموضوع .

(١٠) الصفات : ٣٧ / ٢٤ .

(١١) الأعراف : ٧ / ٦ . (١٢) سورة الرحمن : ٥٥ / ٣٩ .

(١٣) النساء : ٤ / ٣ . (١٤) النساء : ٤ / ١٢٩ .

(١٥) راجع : تفسير القمي ١ : ١٥٥ ، تفسير العياشي ١ : ٤٤٨ / ١١٣٠ .

(١٦) الأعراف : ٧ / ٢٨ .

(١٧) الإسراء : ١٧ / ١٦ .

وثالثها : الاختلاف في جهتي الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(١) اضيف القتل إليهم والرمي إلى النبي ﷺ على جهة المباشرة ، ونفاه^(٢) عنهم وعنه ﷺ باعتبار الأسباب^(٣) .

ورابعها : الاختلاف في الحقيقة والمجاز ، كقوله : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أي من الأهوال مجازا ، وقوله : ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾^(٤) أي من المسكر حقيقة .

امسها : اختلاف الوجه والاعتبار ، كقوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾^(٥) مع قوله تعالى : ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾^(٦) فالأول باعتبار زوال المانع ، والثاني باعتبار الخوف .

وكقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(٧) مع قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾^(٨) فيظن أن الوجل خلاف الطمأنينة ، وجوابه أن الطمأنينة بانسراح الصدر بمعرفة الله ، والوجل من خوف الزبغ والدَّهَاب عن الهدى^(٩) .

أقول : وكقوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾^(١٠) مع قوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾^(١١) فإن النسيان في الأولى بمعنى ترك إثابتهم وعدم الأمر لهم بخير ، وفي الثانية بمعنى عدم الذكر .

وكقوله تعالى : ﴿ وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾^(١٢) مع قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾^(١٣) فإن النظر في الأول النظر إلى ثوابه ، أو إلى رَّحْمِ كيف يشبههم .

وكقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾^(١٤) وكقوله : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهْدِينَ ﴾^(١٥) وقوله : ﴿ فَأَنذَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾^(١٦) مع قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾^(١٧) [فإثما يعني بقوله ﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ أي عن ثواب رَّحْمِ يوم القيامة] وإن الدَّهَاب في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ ﴾ بمعنى التوجَّه والعبادة ، وإتيان الله بمعنى إرسال العذاب ، وكذلك إتيانه بنيانهم [في قوله]

(١) الأنفال : ٨ / ١٧ . (٢) في النسخة : ويفنا .

(٣) في الاتقان : باعتبار التأثير .

(٤) الحج : ٢٢ / ٢ . (٥) سورة ق : ٥٠ / ٢٢ .

(٦) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٩٥ ، والآية من سورة الشورى : ٤٢ / ٤٥ .

(٧) الرعد : ١٣ / ٢٨ . (٨) الأنفال : ٨ / ٢ .

(٩) الإتقان في علوم القرآن ٣ : ٩٦ .

(١٠) الأعراف : ٧ / ٥١ . (١١) مريم : ١٩ / ٦٤ .

(١٢) القيامة : ٧٥ / ٢٢ و ٢٣ . (١٣) الأنعام : ٦ / ١٠٣ .

(١٤) المطففين : ٨٣ / ١٥ . (١٥) الصافات : ٣٧ / ٩٩ .

(١٦) الحشر : ٥٩ / ٢ .

(١٧) الحديد : ٥٧ / ٤ .

تعالى : ﴿فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾^(١) [بمعنى إرسال العذاب عليهم .
 وكقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٢) مع قوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣) وقد يسمّى
 الانسان سميعا وبصيرا ، فإتّما عنى بالاولى : هل تعلم أحدا اسمه الله غير الله ؟
 وكقوله : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ
 صَوَابًا﴾^(٤) مع قوله : ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٥) فالاولى في موطن من موطن القيامة ،
 والثانية في موطن آخر .
 روي : أَوَّلَا يَفْرَ بعضهم من بعض ولا يتكلمون ، وفي موطن آخر يستنطقون فيه ، فيقولون :
 ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيحتم على أفواههم وتستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتشهد بكلّ
 معصية كانت منهم ، ثم يرفع عن ألسنتهم الختم ، فيقولون لجلودهم : ﴿لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾^(٦) إلى
 آخر الآية .
 وبإلي أنّ جميع ما ذكرت مروى عن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية طويلة ^(٧) .

الطرفة السابعة والعشرون

في أفضلية الكتاب العزيز

على سائر الكتب السماوية

لا يداني الكتاب العزيز شيء من الأشياء وكتاب من الكتب في الفضيلة والشرف ، فإنّ فضله
 على سائر الكتب كفضل الله على سائر خلقه ، حيث إنّ كلامه الناطق ، ونوره الساطع ، مضافا
 إلى أنّ فضيلة الكتاب بفضيلة ما اشتمل عليه من العلم ، والكتاب المجيد مشتمل على أفضل العلوم
 ، من علم المبدأ والمعاد والمعارف الإلهية ، وبيان حقائق الامور والحكم الكامنة في الأشياء والأحكام
 الشرعية والآداب الدينية .
 عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه : خير الحديث كتاب الله ^(٨) .

(١) النحل : ١٦ / ٢٦ . (٢) مريم : ١٩ / ٦٥ .

(٣) الشورى : ٤٢ / ١١ .

(٤) النبأ : ٧٨ / ٣٨ .

(٥) الأنعام : ٦ / ٢٣ .

(٦) فصلت : ٤١ / ٢١ .

(٧) الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل أجاب فيه عليه السلام الزنديق الذي ادّعى التناقض في بعض آي
 القرآن الكريم بجواب مفصّل يزيل الوهم والشكّ ، رواه الشيخ الصدوق في التوحيد : ٢٥٤ / ٥ والطبرسي في
 الاحتجاج : ٢٤٠ ، وعنهما العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٩٣ : ٩٨ / ١ و : ١٢٧ / ٢ والظاهر أنّ المصنف
 أورد طرفا منها بالمعنى لا باللفظ ، يشهد له قوله (وبإلي) .

(٨) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٢ .

وعن ابن عمر ، مرفوعا : القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض ومن فيهن^(١) .
وعن (تفسير الإمام عليّ) قال : « قال رسول الله ﷺ : إنّ هذا القرآن هو التّور المبين ،
والحبل المتين ، والعروة الوثقى ، والدرجة العليا ، والشّفاء الأشفى والفضيلة الكبرى ، والسّعادة
العظمى ، من استضاء به نور الله ، ومن عقد به اموره عصمه الله ، ومن تمسك به أنقذه الله ، ومن
لم يفارق احكامه رفعه الله ، ومن استشفى به شفاه الله ، ومن آثره على ما سواه هداه الله ، ومن
طلب الهدى في غيره أضله الله ، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله ، ومن جعله إمامه الذي يقتدي
به ومعوّله الذي ينتهي إليه أدّاه الله إلى جنّات النّعيم والعيش السليم »^(٢) .

عن الحارث الأعور ، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه - في رواية - قال : « سمعت رسول
الله ﷺ يقول : أتاني جبرئيل عليّ فقال : يا محمّد ستكون في امتك فتنة. قلت : فما المخرج منها
؟ فقال : كتاب الله ، فيه بيان ما قبلكم من خبر ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل
ليس بالهزل ، من وليه^(٣) من جبار فعمل بغيره قصمة الله ، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله ،
وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصّراط المستقيم ، لا تزيغه الأهوية ، ولا تلبسه
الألسنة ، ولا يخلق على الرّدّ ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الذي لم تلبث^(٤)
الجنّ أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾^(٥) .

من قال به صدق ، ومن عمل به اجر ، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم ، هو
الكتاب العزيز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٦) .
ومن طرق العائمة ، عن الحارث ، عن أمير المؤمنين عليّ ما يقرب منه^(٧) .

وعن أبي عبد الله عليّ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، إذا هم بشخص قد أقبل ، لم ير
قطّ أحسن صورة منه ، فإذا نظر إليه المؤمنون - وهو القرآن - قالوا : هذا منّا ، هذا أحسن شيء
رأيناه. فإذا انتهى إليهم جازهم ، ثمّ ينظر إليه الشّهداء حتّى إذا انتهى إلى آخرهم جازهم ، فيقولون :
هذا القرآن ،

(١) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٢٠ ، كنز العمال ١ : ٥٢٨ / ٢٣٦٣ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليّ : ٤٤٩ / ٢٩٧ .

(٣) في النسخة : ولاه .

(٤) في العياشي والبحار : لم تكنه .

(٥) الجن : ٧٢ / ١ و٢ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٧٥ / ٢ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٢٤ / ٢٥ ، والآية من سورة فصلت : ٤١ / ٤٢ .

(٧) سنن الدارمي ٢ : ٤٣٥ ، سنن الترمذي ٥ : ١٧٢ / ٢٩٠٦ .

فيحوزهم كلّهم ، حتّى إذا انتهى إلى المرسلين ، فيقولون : هذا القرآن ، فيحوزهم ثمّ ينتهي حتّى يقف عن يمين العرش ، فيقول الجبار : وعزّي وجلالي ، وارتفاع مكاني لا كرمّ اليوم من أكرمك ، ولأهينّ من أهانك «^(١) .

أقول : قد وردت أخبار كثيرة في تمثّل القرآن يوم القيامة بأحسن صورة^(٢) .

وقال بعض المحقّقين : إنّ للقرآن وجودا كتيبيا بين الدفّتين ، ووجودا لفظيا للقارئ ممّا ومن المعصومين عليه السلام ، بل يمكن أن يقال : من الملائكة كجبرئيل عليه السلام ، ووجودا علميا في لوح النفس مكتسبا من المرتبتين الاوليين ، ووجودا علميا من إلقاء الروح الذي من عالم الأمر إياه في القلب بأمر الله سبحانه ، كما لعلّه يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾^(٣) أو من انتقاش الألفاظ الغيبية في لوح القلب عند مواجهته لها ومقابلته إياها ، ولعلّه يؤمى إليه قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾^(٤) ، ووجودا عينيا كتيبيا في لوح غيبيّ هو المبدأ لهذه النقوش الواقعة في لوح القلب ، وبه يصير القلب مصحفا لوجه أوراقه ، وتلك النقوش كتابته ، ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾^(٥) ووجودا لفظيا عينيا هو كلام الله سبحانه الذي أوجده وأسمعه من شاء من عبادته من الملك والنبيّ ، ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾^(٦) ووجودا إجماليا قبل التفصيل ، ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ ﴾^(٧) .

وهو الأصل ، والباقي تنزلاته ومراتبه وشؤونه ، كأصل الشجرة بالنسبة إلى ساقها و أغصانها ، ولعلّ إلى هذه المقامات الإشارة بإطلاق الإنزال والتّنزيل على القرآن في مواضع كثيرة.

ثمّ إنّ لنا صعودا أيضا ، فإنّ القرآن اللفظي الصادر ممّا ، يتمثّل بمثال ويتشكّل بصورة جوهري في عالم أرفع من هذا العالم على ما تحقّق وثبت في محله بالآيات والأخبار الكثيرة الواردة في الموارد الكثيرة ، المعتضدة بالاستبصارات العقلية وغيرها من أنّ الأعمال الحسنة والسيئة تتجسّم وتتمثّل وتبقى في عالم البرزخ مع الميت ، وقراءة القرآن منها بل من اولى أفرادها بهذا الحكم ، وكتابة القرآن أيضا عمل يتجسّم كذلك ، فيتحقّق في القرآن قوسان : قوس نزول ينتهي إلى وجوده اللفظي والكتبي

(١) الكافي ٢ : ٤٤٠ / ١٤ .

(٢) راجع الكافي ٢ : ٤٣٩ / ١١ .

(٣) الشعراء : ٢٦ / ١٩٣ و ١٩٤ .

(٤) العنكبوت : ٢٩ / ٤٩ .

(٥) الواقعة : ٥٦ / ٧٧ - ٧٩ .

(٦) الزمر : ٣٩ / ٢٣ .

(٧) هود : ١١ / ١ .

الواقع في هذه النشأة ، وقوس صعود واقع في عالم البرزخ ، كما هو الحال في حقيقة الإنسان .
ثم إنّ حقيقة القرآن ليست مقصورة على عالم الألفاظ والنقوش الواقعة في عالم الملك
والملكوت ، بل مداليل الكلمات القرآنية أولى بالدخول في حقيقة القرآن منها ، ولها وجود في عالمها
، فهي أيضا يصحّ أن تعدّ مقاما آخر له ، ومراتبه المعنوية تنتهي إلى حقيقة الاسم الإلهي الذي هو
المبدأ للقرآن ، ويشبه أن يكون هو حقيقة اسم الهادي والتّور الذي ربّما أطلق اسمه على القرآن في
مواضع .

ثم إنّ عالم القيامة الكبرى لما كان يوم الجمع بين العوالم ، ويوم إبلاء السرائر ، وإظهار
المكنونات ، وإبراز الأمور الغيبية بصور حسية مطابقة لها حتّى تتوافق النشآت والعوالم لينبئهم بما
عملوا ، ولتبلى كلّ نفس ما كسبت ، ويحصّد كلّ زارع ما زرع ، والزرع تابع للبذر ، لزمه أن ^(١) ينزل
القرآن من عالم الغيب إلى ظاهر عالم القيامة مصورا بصورة حسنة حتّى يوافق حسنه المعنوي ، لأنّه
أحسن ما يكون ، وله بهاء وجمال ونور حسيّ ، كما أنّ هذه الصفات اليوم في عالم الغيب على وجه
غيبّي ، فإنّ الدنيا بمنزلة الّام للآخرة .

ثمّ إنّّه لا بدّ وأن يمرّ على صفوف المؤمنين كما يمرّ على قلوبهم ونفوسهم في دار الدنيا ليطابق
الظاهر الباطن ، والقالب الروح ، والصورة المعنى ، مبتدئا المرور من الأدنى إلى الأعلى ، لأنّه سالك
في الاستكمال متوجّه إلى ربّ العزة ، فيلزمه الكون مع التّازل قبل الكون مع الكامل ، وأن يكون مع
كلّ صنف منهم بصورة ذلك الصّنف ، لأنّه عند كلّ منهم واقع في مرتبتهم بزيادة بهاء وجمال ونور ،
لعدم مخالطته بما يضادّ هذه الصفات من ظلمة وكدورة ، ولأنّهم لا يدركون منه إلّا المقدار الذي كان
لهم في الدنيا ، ومنه الشأن المتعلّق بصفاتهم ومقامهم وحالهم ، كما أنّ كلّا منهم حال قراءته للقرآن
يشاهد المعنى الموافق لمقامه من الظاهر والباطن وباطن الباطن .

وإن كان الكامل مشتملا على الناقص فلا بدّ وأن يظنّ كلّ صنف منهم أنّه منكم كما كانوا
يظنّون في الدنيا أنّه بيان طريقتهم وصفة حالهم ، وأن يعرفه كلّ منهم بنعته وصفته عند المواجهة ،
كما كان يعرف ذلك المقدار في دار الدّنيا من القرآن ومعانية ، إذ القدر الظاهر منه في كلّ مقام
يساوي ذلك المقام .

ولو لم يعرف أهل الصّنف ذلك القدر الظاهر ، لم يكونوا من أهل ذلك المقام ، إلى أن
ينتهي إلى

(١) في النسخة : مصوّة .

ربّ العزّة إلى آخر قوسه الصّعوديّ ، فيسجد صورة كما سجد بالخضوع المطلق والفناء معنى ، وقد كان مصير القرآن إليه سبحانه في النّشأة الاولى.

الطرفة الثامنة والعشرون

في أفضلية تعلّم القرآن وتعليمه

على سائر الأعمال والعبادات

قد ظهر ممّا ذكر في فضل القرآن أنّ تعليمه وتعلّمه من أفضل الأعمال مضافا إلى روايات كثيرة دالة على فضلها وكثرة الثّواب عليهما.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : تعلّموا القرآن - إلى أن قال : - ويكسى أبواه خلّتين إن كانا مؤمنين ، ثمّ يقال لهما : هذا لما علّمتماه القرآن » ^(١) .
وفي حديث أبي ذرّ : لأنّ تغدو فتعلّم آية من كتاب الله خير لك من أن تصليّ مائة ركعة ^(٢) .

وعن أبي هريرة : ما من رجل يعلم ولده القرآن إلّا توجّ يوم القيامة بتاج في الجنّة ^(٣) .
وفي رواية عن عثمان : إنّ أفضلكم من تعلّم القرآن وعمل به ^(٤) .
وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام : « من تعلّم منه حرفا ظاهرا كتب الله له عشر حسنات ، ومحاه عنه عشر سيّئات ، ورفع له عشر درجات » .
قال : « لا أقول بكلّ آية ، ولكن بكلّ حرف باء أو ياء أو شبههما » ^(٥) .
وعن ابن عباس رضي الله عنه : من تعلّم كتاب الله ثمّ اتّبع ما فيه ، هداه الله به من الضّلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ^(٦) .

وعن سعد الخفّاف ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : « تعلّموا القرآن ، فإنّ القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق - إلى أن قال : - حتّى ينتهي إلى ربّ العزّة فيخترّ تحت العرش فيناديه تبارك وتعالى : يا حجّتي في الأرض ، وكلامي الصادق النّاطق ، ارفع رأسك ، وسل تعطى ، واشفع تشفع [فيرفع رأسه ، فيقول الله تبارك وتعالى] : كيف رأيت عبّادي ؟ فيقول : يا ربّ منهم من صانني وحافظ عليّ ولم

(١) الكافي ٢ : ٤٤١ / ٣ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٤ .

(٣) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٣ .

(٤) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٣ ، وفيه : القرآن وعلمه .

(٥) الكافي ٢ : ٤٤٨ / ٦ .

(٦) الاتقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٤ .

يَضِيعُ شَيْئًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ ضَيَّعَنِي وَاسْتَحْفَتَ بِي ^(١) وَكَذَّبَ بِي ، وَأَنَا حَجَّتَكَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ. فيقول الله عَزَّجَلَّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعُ مَكَانِي لَا تُبَيِّنُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الثَّوَابِ ، وَلَا عَاقِبَتَ الْيَوْمِ أَلِيمَ الْعِقَابِ « الْخَبَرُ ^(٢) .

قِيلَ : إِنَّ سَجْدَةَ الْقُرْآنِ كُنَايَةً عَنْ فَنَائِهِ فِي اللَّهِ ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ كُنَايَةً عَنْ بَقَائِهِ بِهِ بَعْدَ فَنَائِهِ فِيهِ ، وَكَمَا أَنَّهُ كَانَ فِي الدُّنْيَا مَقْرَّبًا لِلْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ ، وَسَبَبًا لَشُمُولِ رَحْمَتِهِ لَهُمْ وَدَفْعِ عَذَابِهِ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، يَكُونُ شَفِيعًا لَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَوَسِيلَةً وَسَائِلًا لثَوَابِهِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ ، وَدَفْعِ عَذَابِهِ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ. عَنْ الشَّيْخِ ، بِإِسْنَادِهِ : عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خِيَارَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » ^(٣) .

وَعَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَمَّارٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَعْذِّبُ اللَّهُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ » ^(٤) . وَعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدِبَةُ اللَّهِ ، فَتَعَلَّمُوا مَأْدِبَتَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ ، وَهُوَ النَّورُ الْمُبِينُ » ^(٥) .

وَعَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِذَا قَالَ الْمُعَلِّمُ لِلصَّبِيِّ : قُلْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ الصَّبِيُّ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كَتَبَ اللَّهُ بَرَاءَةً لِلصَّبِيِّ ، وَبَرَاءَةً لَوَالِدِيهِ وَبَرَاءَةً لِلْمُعَلِّمِ مِنَ النَّارِ » ^(٦) . وَعَنْ (الْمَجْمَعِ) : عَنْ مُعَاذٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « مَا مِنْ رَجُلٍ عَلَّمَ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ إِلَّا تَوَجَّاهُ اللَّهُ أَبُوهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتَاجِ الْمَلِكِ ، وَكَسِيَا حُلَّتَيْنِ لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُمَا » ^(٧) . وَفِي (نَحْجِ الْبَلَاغَةِ) عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ : « وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ [فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَتَقْهَوُا فِيهِ] فَإِنَّهُ رِبْعُ الْقُلُوبِ » ^(٨) . وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ : عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : « يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَمُوتَ حَتَّى يَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي تَعْلِيمِهِ » ^(٩) .

وَالظَّاهِرُ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ تَعَلَّمَ عِبَارَاتَ آيَاتِهِ وَكَيْفِيَّةَ قِرَاءَتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَحْتَمِلُ شُمُولَ كَثِيرٍ مِنْهَا تَفْسِيرَهَا وَبَطُونَهَا ، وَجَمِيعَ الْعُلُومِ الرَّاجِعَةِ إِلَيْهَا ، فَإِنَّ تَعَلَّمَ جَمِيعَهَا تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ، وَقَدْ صَرَّحَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا بِوَجُوبِ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَتَعْلِيمِهِ كِفَايَةً ، وَهُوَ الْحَقُّ ، لَا أَحْتَمِلُ فِيهِ خِلَافًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

(١) فِي الْكَافِي : وَاسْتَحْفَتَ بِحَقِّي.

(٢) الْكَافِي ٢ : ٤٣٦ / ١ ، بَحَارُ الْأَنْوَارِ ٧ : ٣١٩ / ١٦ .

(٣) أُمَالِي الطُّوسِيِّ : ٣٥٧ / ٧٣٩ ، بَحَارُ الْأَنْوَارِ ٩٢ : ١٨٦ / ٢ .

(٤) أُمَالِي الطُّوسِيِّ : ٦ / ٧ .

(٥) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ١ : ٨٥ ، كَنْزُ الْعَمَالِ ١ : ٥٢٦ / ٢٣٥٦ .

(٦) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ١ : ٩٠ .

(٧) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ١ : ٧٥ .

(٨) نَحْجِ الْبَلَاغَةِ : ١٦٤ الْخُطْبَةُ ١١٠ .

(٩) الْكَافِي ٢ : ٤٤٤ / ٣ ، عُدَّةُ الدَّاعِي ٢٨٧ : ٧ .

الطرفة التاسعة والعشرون

في أنّ حفظ القرآن من أهمّ العبادات

حفظ القرآن من أهمّ العبادات ، وأؤكد المستحبات ، في (الوسائل) : عن عقبة بن عمار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يعدّ الله قلبا وعى القرآن » ^(١) .
وعنه ﷺ : « من قرأ القرآن حتّى يستظهره ويحفظه ، أدخله الله الجنة ، وشقّعه في عشرة من أهل بيته ، كلّهم قد وجبت لهم النار » ^(٢) .
وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن ، اختلط بلحمه ودمه ، وجعله الله مع السّفرة الكرام البررة ، وكان القرآن حجيّزا عنه يوم القيامة » ^(٣) .
أقول : لا يبعد أن يكون المراد من اختلاط القرآن باللّحم والدم حفظه ، كما قال عليه السلام في رواية اخرى : « حافظ القرآن العامل به مع السّفرة الكرام البررة » ^(٤) .
ويحتمل أن يكون المراد حفظ ألفاظه مع حفظ معانيه ، والإيمان به ، والعمل بموجبه ، والتخلّق بما فيه من الأخلاق الإلهية والآداب الشرعية ، فيكون أهل القرآن ، كما في رواية الكليني ، بسنده عن السّكوني ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : إنّ أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النّبيين والمرسلين ، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم ، فإنّ لهم من الله العزيز الجبار مكانا [عليّا] » ^(٥) .
وما رواه الطّبرسيّ : عن النّبيّ قال : « أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته » ^(٦) .
وفي حديث عقبة بن عامر ، عن النّبيّ : « لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النّار » .
قال أبو عبيد ^(٧) : أراد بالإهاب قلب المؤمن وجوفه الذي قد وعى القرآن ^(٨) .
وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام : « من قرأ القرآن واستظهره فأحلّ حلاله ، وحرم حرامه ، أدخله الله الجنّة ، وشقّعه في عشرة من أهل بيته ، كلّهم قد وجبت لهم النار » ^(٩) .
أقول : الظاهر أنّ المراد من قوله : فاستظهره حفظه وجعله في ظهر قلبه ، كما أنّ الظاهر من

حمل

(١) أمالي الطوسي : ٦ / ٧ . (٢) مجمع البيان : ١ : ٨٥ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٤١ / ٤ .

(٤) الكافي ٢ : ٤٤١ / ٢ .

(٥) الكافي ٢ : ٤٤١ / ١ .

(٦) مجمع البيان ١ : ٨٤ .

(٧) في النسخة : أبو عبيدة ، وهو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة ٢٢٤ هـ .

(٨) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢١ .

(٩) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٣ .

القرآن ذلك.

عن الصدوق ، بإسناده : عن النبي ﷺ أنه قال : « أشرف امتي حملة القرآن وأصحاب الليل » ^(١) .

والظاهر أنّ المراد بأصحاب الليل الذين يسهرون الليل بتلاوة القرآن والقيام بالعبادة. وعن (تفسير الإمام عليّ) : عن النبي ﷺ أنه قال : « حملة القرآن المخصوصون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، المقرّبون عند الله ، من والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم فقد عادى الله » الخبر ^(٢) .

أقول : لما كان حفظ القرآن عن معرفة وإيمان مورثا لنورانية القلب وانسراح الصدور وانسباط الروح وتهذيب النفس ، كان أجره مساخا له في القيامة من كون الحافظ مغمورا في نور الله ، مخصصا برحمة الله ، موسوما بكلام الله ، مقربا عند الله.

ثم لا شبهة أنّ حفظه بمشقة وكلفة أعظم أجرا من حفظه بسهولة ، لعموم قوله : « إنّ أفضل الأعمال أحزمها » ^(٣) ولخصوص ما روي عن الصادق عليّ قال : « إنّ الذي يعالج القرآن ويحفظه بمشقة منه ، وقلة حفظ ، له أجران » ^(٤) .

ومن الأسف أنّ هذه العبادة الفاضلة صارت متروكة في زماننا هذا بعد شيوعها في الأزمنة السابقة ، بحيث كان غير الحافظ له موهونا بين المسلمين على ما قيل.

الطرفة الثلاثون

في ثواب تلاوة القرآن العظيم

لتلاوة الكتاب الكريم ثواب عظيم وفضل جسيم.

عن الصادق عليّ في وصية النبي ﷺ لعليّ عليّ قال : « وعليك بتلاوة القرآن على كلّ حال » ^(٥) .

وعنه عليّ في حديث : « ومن قرأ نظرا في غير صلاة ^(٦) كتب الله له بكلّ حرف حسنة ومحام عنه سيئة ، ورفع له درجة - إلى أن قال : - ومن قرأ حرفا وهو جالس في صلاة ، كتب الله له به خمسين حسنة ومحام عنه خمسين سيئة ، ورفع له خمسين درجة. ومن قرأ وهو قائم في صلاته ، كتب الله له مائة

(١) الخصال : ٧ / ٢١ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليّ : ١٣ / ١ .

(٣) النهاية ١ : ٤٤٠ ، وأحزمها : أي أقواها وأشدّها.

(٤) الكافي ٢ : ٤٤٣ / ١ .

(٥) الكافي ٨ : ٧٩ / ٣٣ .

(٦) في الكافي : من غير صوت.

حسنة ومحا عنه مائة سيئة ، ورفع له مائة درجة. ومن ختمه كانت له دعوة مستجابة ، مؤخرة أو معجلة » .

قال : قلت : جعلت فداك ، ختمه كله ؟ قال : ختمه كله ^(١) .

وعنه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في رواية ، قال : « يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل ، شاحب اللون ، فيقول له : أنا القرآن الذي كنت أسهرت ليلك وأظلمات هواجر ، وأجففت ريقك ، وأسبلت دمعك ^(٢) - إلى أن قال : - فأبشر فيؤتى بتاج فيوضع على رأسه ، ويعطى الأمان بيمينه ، والخلد في الجنان بيساره ، ويكسى حلتين ، ثم يقال له : اقرأ وارق ، فكلما قرأ آية صعد درجة » الخبر ^(٣) .

وعن الكليني رحمته الله بسنده : عن حفص ، قال : سمعت موسى بن جعفر عليه السلام يقول في حديث : « إن درجات الجنة على قدر آيات القرآن. يقال له : اقرأ وارق ، فيقرأ ثم يرقى » ^(٤) .
وعن الصادق عليه السلام قال : « عليكم بتلاوة القرآن ، فإن درجات الجنة على عدد آيات القرآن ، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن : اقرأ وارق ، فكلما قرأ آية رقى درجة » ^(٥) إلى غير ذلك.
ولعل السر في ذلك أن في كل آية علما ونورا ومعرفة وهداية ودعوة إلى الله ، فبالتمسك بكل منها ، والمعرفة بها ، والتخلق بموجبها ، والعمل بها ، يحصل للعبد درجة في كمال النفس والقرب إلى الله ، وبالتمسك بجميعها نهاية الكمال ومنتهى القرب إليه سبحانه ، ولما كانت درجات الجنة على حسب مراتب كمال العبد وقربه ، ومطابقا لها ، بل هي معانيها وأرواحها ، والآثار المترتبة عليها ، كانت درجات الجنة بعدد الآيات.
عن الزهري ، قال : قلت لعلي بن الحسين عليه السلام : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الحال المرتحل » .

قلت : وما الحال المرتحل ؟ قال : « فتح القرآن وختمه ، كلما جاء بأوله ارتحل بآخره » ^(٦) .
وعن الصادق عليه السلام قال : « من قرأ مائة آية يصلي بها في ليلة ، كتب الله له بها قنوت ليلة. ومن قرأ مائتي آية في غير صلاة [لم يحاجه القرآن يوم القيامة ، ومن قرأ خمسمائة آية في يوم وليلة في صلاة النهار و] الليل ، كتب الله له في اللوح [المحفوظ] قنطارا من الحسنات ، والقنطار ألف ومائتا أوقية ،

(١) الكافي ٢ : ٤٤٨ / ٦ .

(٢) في الكافي : وأسلت دمعك .

(٣) الكافي ٢ : ٤٤١ / ٣ .

(٤) الكافي ٢ : ٤٤٣ / ١٠ .

(٥) أمالي الصدوق : ٤٤٠ / ٥٨٦ .

(٦) الكافي ٢ : ٤٤٢ / ٧ .

والأوقية أعظم من جبل احد» (١) .

وعن علي بن بابويه ، بسنده ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « من قرأ مائة آية لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائتي آية كتب من القانتين ، ومن قرأ ثلاثمائة آية لم يحاجه القرآن » (٢) .

وعن (المجمع) عن النبي ﷺ : « أفضل العبادة قراءة القرآن » (٣) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه صلوات الله عليهم - في رواية - : « ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقهها في الدين ، كان له من الثواب مثل ما اعطي (٤) الملائكة والأنبياء والمرسلون » (٥) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - قال : « ما من عبد من شيعتنا يتلو القرآن في صلاته قائما ، إلّا وله بكل حرف مائة حسنة ، ولا قرأ في صلاته جالسا ، إلّا وله بكل حرف خمسون حسنة ، ولا في غير صلاة إلّا وله بكل حرف عشر [حسنات] » (٦) . إلى غير ذلك من الروايات.

ولعل اختلاف مراتب الثواب باختلاف مراتب الإيمان والمعرفة والتدبر ، ففي مرتبة يكون ثواب كل حرف حسنة ، وفي مرتبة عشر حسنات ، هذا مضافا إلى أنّ لذة تلاوة كتاب الله للمؤمن العارف المتدبر أعلى وأتمّ من كلّ لذة ، فإنّه يرى نفسه حاضرا في مجلس القرب ، فيخاطبه ربّه ومليكه ويشافهه بأحسن كلام ، وألطف بيان ، ثم إنّ لكلّ سورة من السور ثوابا خاصا وفضيلة مخصوصة ، سنذكره إن شاء الله بعد إتمام تفسير كلّ منها.

الطرفة الحادية والثلاثون

في آداب تلاوة الكتاب الكريم

آداب تلاوة الكتاب العزيز كثيرة :

أحدها : أن يكون التالي متطهرا حال التلاوة ، عن ابن فهد رحمه الله قال : قال عليه السلام : « لقارئ القرآن بكل حرف يقرأه في الصلّاه قائما مائة حسنة ، وقاعدا خمسون [حسنة] ، ومتطهرا في غير الصلّاة خمس وعشرون حسنة وغير متطهر عشر حسنات » الخبر (٧) .

ولعل السرّ أنّ المتطهر أقرب إلى الاستفاضة بأنوار القرآن من المحدث ، كما أنّ طاهر القلب

أقبل

(١) الكافي ٢ : ٤٥٥ / ٩ .

(٢) معاني الأخبار : ٩٦ / ٤١٠ .

(٣) مجمع البيان ١ : ٨٤ .

(٤) في عقاب الأعمال : مثل جميع ما يعطى .

(٥) عقاب الأعمال : ٢٩٣ .

(٦) الكافي ٨ : ٢١٤ / ٢٦٠ .

(٧) عدة الداعي : ٢٨٧ / ٨ .

لفيوضاته.

ثانيها : أن لا يكون عريانا ، لما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه نهي عن قراءة القرآن عريانا .^(١)

ثالثها : الاستعاذة قبلها ، عن (تفسير العياشي) عن الحلبي ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن التَّعوذ من الشَّيطان عند كلِّ سورة يفتتحها ؟ قال : « نعم ، فتعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم »^(٢) .

أقول : مقتضى إطلاق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٣) استحبابه قبل تلاوة آية أو بعض آية.

رابعها : التَّسمية قبل التَّلاوة ، عن الصادق عليه السلام : « أغلقوا أبواب المعصية بالاستعاذة ، وافتحوا أبواب الطَّاعة بالتَّسمية »^(٤) .

خامسها : التلاوة في المصحف ، وإن كان التَّالي حافظا ، عن أبي عبد الله عليه السلام : « من قرأ القرآن في المصحف [نظرا] متَّع ببصره ، وخفَّف على والديه وإن كانا كافرين »^(٥) .

وعن إسحاق بن عمَّار ، عنه عليه السلام قال : جعلت فداك ، إنِّي أحفظ القرآن عن ظهر قلبي ، فأقرأه عن ظهر قلبي أفضل ، أو أنظر في المصحف ؟

قال : فقال عليه السلام لي : « بل اقرأه وانظر في المصحف ، فهو أفضل ، أما علمت أنَّ النَّظر في المصحف عبادة »^(٦) .

وعن أبي ذرٍّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « النَّظر إلى عليٍّ بن أبي طالب عبادة ، والنَّظر إلى الوالدين برأفة ورحمة عبادة ، والنَّظر في الصَّحيفة - يعني صحيفة القرآن - عبادة ، والنَّظر إلى الكعبة عبادة »^(٧) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال : « ليس شيء أشدَّ على الشَّيطان من القراءة في المصحف نظرا »^(٨) . وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قراءة القرآن في المصحف تخفِّف العذاب عن الوالدين وإن كانا كافرين »^(٩) .

ولعلَّ السرَّ في كون النَّظر إليه عبادة ، أنَّ النَّظر إلى كتابته يورث نورانيَّة في القلب ، بل النظر إلى جميع المقدَّسات الإلهية وإلى وجه العالم والمؤمن ، له هذا الأثر ، كما أنَّ النَّظر إلى وجه الكفَّار

(١) بحار الأنوار ٩٢ : ٢١٦ / ١٩ .

(٢) تفسير العياشي ٣ : ٢٣ / ٢٤٢٧ .

(٣) النحل : ١٦ / ٩٨ .

(٤) دعوات الراوندي : ٥٢ / ١٣٠ .

(٥) ثواب الأعمال : ١٠٢ . (٦) عدة الداعي : ٢٩٠ .

(٧) أمالي الطوسي : ٤٥٤ / ١٠١٦ .

(٨) أعلام الدين : ٣٦٨ / ٣٧ .

(٩) الكافي ٢ : ٤٤٩ / ٤ .

والعصاة ، وما هو مبعوض عند الله كالخمر والميسر والأصنام ، بل الزخارف الدنيوية ، يؤثر ظلمة في القلب ، وكدورة في النفس ، كأنه يقتبس الروح من هذه الخبائث خباثة وشقاوة ، كما يقتبس من الطيبات والمقدسات طيبا وقداسة وسعادة ، مع أنّ في النظر الى المصحف زيادة توجه القلب إليه ، وصرف النفس عن شغلها بغيره.

سادسها : ترتيل القرآن وتلاوته بمكث وبطء بلا عجلة وسرعة ، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾^(١) قال : « قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه : بينه تبياناً ولا تمهّد^(٢) هذّ الشعر ، ولا تنثره نثر الرّمل ، ولكن أفرعوا به قلوبكم القاسية ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السّورة »^(٣) .

وعن ابن عباس ، في تفسير الآية : بينه تبياناً^(٤) وأقرأه على هينتك^(٥) ، ثلاث آيات ، وأربعاً ، وخمسة^(٦) .

وقيل : الترتيل هو أن يقرأه على نظمه وتواليه ، ولا يغيّر لفظاً ولا يقدم مؤخراً^(٧) .
سابعها : تحسين الصوت به ، عن الصادق عليه السلام في تفسير الترتيل قال : « هو أن تتمكّث فيه ، وتحسّن به صوتك »^(٨) .

وعنه عليه السلام قال : « قال النبي ﷺ : لكلّ شيء حلية ، وحلية القرآن الصّوت الحسن »^(٩) .
وعن الرضا عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : حسّنوا القرآن بأصواتكم ، فإنّ الصّوت الحسن يزيد القرآن حسناً »^(١٠) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « كان عليّ بن الحسين عليهما السلام أحسن النّاس صوتاً بالقرآن ، وكان السّقاؤون يمزّون فيقفون ببابه يسمعون قراءته »^(١١) .

وعن أبي الحسن عليه السلام قال : ذكر الصّوت عنده ، فقال : « إنّ عليّ بن الحسين كان يقرأ ، فربّما مرّ به المارّ فصعق من حسن صوته »^(١٢) .

ثمّ لا يذهب عليك أنّ حسن الصّوت مغاير للغناء الذي هو من الأصوات الملهمية المطربة المعهودة عند العرف ، ويرجع في تمييزها إليهم ، وهو من الكبائر ، خصوصاً في القرآن.

عن رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن بألحان العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل

(١) المزمل : ٧٣ / ٤ .

(٢) هذّه : قطعه سريعاً ، وهذّ القرآن : أسرع في قراءته ، وهذّ قراءته : إذا أسرع فيها .

(٣) الكافي ٢ : ٤٤٩ / ١ (٤) في الجمع : بياناً . (٥) الهينة : السكينة .

(٦ و ٧ و ٨) . مجمع البيان ١٠ : ٥٦٩ .

(٩) الكافي ٢ : ٤٥٠ / ٩ . (١٠) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٦٩ / ٣٢٢ .

(١١) الكافي ٢ : ٤٥١ / ١١ . (١٢) الكافي ٢ : ٤٥٠ / ٤ .

الكبائر ، فإنه سيحيى من بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانة ، لا يجوز تراقيهم ، قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم » (١) .

ثامنها : القراءة بالحزن ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إنَّ القرآن نزل بالحزن فاقروه بالحزن » (٢) .

تاسعها : التلاوة : كأَنَّ التالي يخاطب إنسانا ، عن حفص : ما رأيت أحدا أشدَّ خوفا على نفسه من موسى بن جعفر عليه السلام - إلى أن قال : - فإذا قرأ فكأنَّه يخاطب إنسانا (٣) .

عاشرها : التَّفَكُّر في معاني القرآن ، والاعتبار والاتعاظ بما يقتضي الاعتبار والاتعاظ والتأثر .
عن (الكافي) عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إنَّ هذا القرآن فيه منار الهدى ، ومصابيح الدجى ، فليحل جال بصره ، ويفتح للضيء نظره ، فإنَّ التَّفَكُّر حياة قلب البصير ، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور » (٤) .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه : ألا اخبركم من الفقيه حقًا - إلى أن قال : - ألا لا خير في علم ليس فيه تفهيم ، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر ، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه » (٥) .

حادي عشرها : ختم سورة شرع فيها ، عن النبي ﷺ أنه قال لبلال رضى الله عنه : « إذا قرأت السورة فأنفدها » (٦) .

ثاني عشرها : عدم خلط بعض سورة ببعض سورة اخرى ، عن سعيد بن المسيب : أن رسول الله ﷺ مرَّ ببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة ، فقال : « يا بلال ، مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة » قال : أحلطت الطيب بالطيب . فقال : « إقرأ السورة على وجهها » - أو قال : « على نحوها » (٧) .

ثالث عشرها : أن يقرأ السورة من أولها مستقيما إلى آخرها ، لا من آخرها منكوسا إلى أولها .
عن ابن مسعود ، أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوسا قال : ذاك منكوس القلب (٨) .

رابع عشرها : حفظ الآداب العرفية ، كترك الضحك ، والعبث ، ومكالمة الناس ، والنظر إلى ما يلهيه .

(١) الكافي ٢ : ٤٥٠ / ٣ .

(٢) الكافي ٢ : ٤٤٩ / ٢ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٤٣ / ١٠ .

(٤) الكافي ٢ : ٤٣٨ / ٥ .

(٥) معاني الأخبار : ٢٢٦ / ١ .

(٦) الإتيقان في علوم القرآن ١ : ٣٧٩ .

(٧ و ٨) . الإتيقان في علوم القرآن ١ : ٣٧٨ .

قال بعض العلماء : يكره قطع القراءة لمكاملة أحد ، لأنّ كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره ^(١) .

خامس عشرها : ترك الإفراط في مقدار القراءة ، على ما يظهر من جملة الأخبار .
عن الكليني رحمه الله بسنده عن محمد بن عبد الله ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أقرأ القرآن في ليلة ؟ قال : « لا يعجبني أن تقرأه في أقل من شهر » ^(٢) .
وعن الحسين بن خالد ، عنه عليه السلام قال : قلت له : في كم أقرأ القرآن ؟ فقال : « إقرأه أخماسا ، إقرأه أسبعا ، أما إن عندي مصحفا مجزى أربعة عشر جزءا » ^(٣) .
عن علي بن أبي حمزة ، قال : سألت أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر ، فقال له : جعلت فداك ، أقرأ القرآن في ليلة ؟ فقال : « لا » . فقال : في ليلتين ؟ فقال : « لا » حتى بلغ ست ليال ، فأشار بيده فقال : « ها » .

ثم قال [أبو عبد الله عليه السلام] : « يا أبا محمد ، إن من كان قبلكم من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله كان يقرأ القرآن في شهر وأقل ، إن القرآن لا يقرأ هزيمة ، ولكن يرتل ترتيلا ، إذا مررت بآية فيها ذكر النار وقفت عندها وتعوّدت بالله من النار » .

فقال له أبو بصير : أقرأ القرآن في رمضان في ليلة ؟ فقال : « لا » . فقال : ففي ليلتين ؟ فقال : « لا » . فقال : « ففي ثلاث ؟ » قال : « ها » وأوماً بيده « نعم ، شهر رمضان لا يشبهه شيء من الشهور ، له حقّ وحرمة ، أكثر من الصلّة ما استطعت » ^(٤) .

سادس عشرها : استشعار الرّقة ، واللّين ، والوجل ، والدمعة ، دون إظهار الغشية .
عن (مصباح الشريعة) عن الصادق عليه السلام ، أنّه قال : « من قرأ القرآن ولم يخضع لله ، ولم يرقّ قلبه ، ولا ينشئ حزنا ووجلا في سرّه ، فقد استهان بعظم شأن الله ، وقد خسر خسرا مبينا ، فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال » ^(٥) .

عن جابر ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : إن قوما إذا ذكروا شيئا من القرآن أو حدّثوا به ، صقع أحدهم حتّى ترى أنّ أحدهم لو قطعت يداه ورجلاه ^(٦) لم يشعر بذلك ؟ فقال عليه السلام : « سبحان الله ! ذلك من الشيطان ، ما بهذا نعتوا ، إنّما هو اللّين ، والرّقة ، [والدمعة] والوجل » ^(٧) .

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٧٧ .

(٢) الكافي ٢ : ٤٥١ / ١ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٥٢ / ٣ . وفي النسخة : أربعة عشر أجزاء .

(٤) الكافي ٢ : ٤٥٢ / ٥ .

(٥) مصباح الشريعة : ٢٨ .

(٦) في الكافي : أو رجلاه .

(٧) الكافي ٢ : ٤٥١ / ١ .

الطرفة الثانية والثلاثون

في بيان ما يستحب أن يقال

بعد تلاوة بعض الآيات الكريمة

يستحب سؤال الجنة بعد تلاوة آية فيها ذكر الجنة ، والتعوذ من النار عند تلاوة آية فيها ذكرها ، والتسبيح عند آية فيها الأمر به ، والسؤال عند آية فيها الأمر به ، والدعاء بعد آية فيها ذكر الدعاء ، وذكر قول كان في الآية الأمر به.

عن عوف بن مالك ، قال : قمت مع النبي ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، وكان لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ^(١) .

وعن حذيفة ، قال : صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها ، ثم النساء فقرأها ، ثم آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلاً ، وكان إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بآية فيها سؤال سأل وإذا مر بآية فيها تعوذ تعوذ ^(٢) .

وعن جابر ، أن النبي ﷺ قرأ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ^(٣) الآية فقال : « اللهم أمرت بالدعاء وتكفّلت بالإجابة ، لبّيك اللهم لبّيك ، لبّيك لا شريك لك لبّيك ، إنّ الحمد والتّعمة لك والملك ، لا شريك لك ، أشهد أنّك فرد أحد صمد ، لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوا أحد ، وأشهد أنّ وعدك حقّ ولقاءك حقّ ، والجنة حقّ ، والنار حقّ ، والسّاعة آتية لا ريب فيها ، وأنّك تبعث من في القبور » ^(٤) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ^(٥) قال : « سبحان ربّي الأعلى » ^(٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا قرأتم من المسبّحات الأخيرة ، فقولوا : سبحان ربّي الأعلى » ^(٧) الخبر ^(٨) .

وعن رجاء بن [أبي] الضّحّاك ، قال : كان الرضا عليه السلام في طريق خراسان يكثّر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن ، فإذا مر بآية فيها ذكر الجنة أو النار بكى وسأل الله الجنة وتعوذ به من النار.

(١) السنن الكبرى ٢ : ٣١٠ ، الإتنان في علوم القرآن ١ : ٣٦٩ .

(٢) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٣٦٩ .

(٣) البقرة : ٢ / ١٨٦ .

(٤) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٣٧٠ .

(٥) الأعلى : ١ / ٨٧ .

(٦) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٣٦٩ .

(٧) في الخصال : الله .

(٨) الخصال : ٦٢٩ / ١٠ .

إلى أن قال : وكان إذا قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال سرّاً : « الله أحد » قال : ولما فرغ منها ، قال : « كذلك الله ربّي ^(١) ثلاثاً » .

وكان إذا قرأ سورة الجحد ، قال في نفسه سرّاً : ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فإذا فرغ منها قال : « ربّي الله ، وديني الإسلام » ثلاثاً.

وكان إذا قرأ ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ قال عند الفراغ منها : « بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .

وكان إذا قرأ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال عند الفراغ منها : « سبحانك اللهم بلى » ^(٢) . وكان يقرأ في سورة الجمعة ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ﴾ للذين اتقوا ^(٣) ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ^(٤) .

وكان إذا فرغ من الفاتحة ، قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾* . وإذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال سرّاً : « سبحان ربّي الأعلى » . وإذا قرأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال : « لبيك اللهم لبيك » سرّاً ^(٥) . أقول : لا يبعد أنه وقع في الرواية سهو من الراوي ، فإنّ قوله : ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾* بعد قوله تعالى : ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾* أنسب من ذكره بعد اللهو والتجارة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال : « سبحان ربّي الأعلى » وهو في الصلاة ، فقليل له : أتريد في القرآن ؟ قال : « لا ، أمرنا بشيء فقلته » ^(٦) . أقول : يستفاد من هذه الرواية أنّ كلّ أمر في القرآن بقول من إقرار بإيمان ، أو تسبيح ، أو تحميد ، أو توكل ، أو تسليم ، أو ذكر أو دعاء ، كقوله تعالى : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ^(٧) أو قوله : ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ^(٨) وقوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾* ^(٩) وقوله : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ ^(١٠) وغير ذلك ، يستحبّ امثاله عند تلاوة آيته بأن يقول القارئ : آمنت بالله وبما انزل إلينا ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وسلام على عبادة الذين اصطفى ، وتوكلت على الله.

(١) في العيون : ربنا.

(٢) (بلى) ليس في عيون أخبار الرضا عليه السلام .

(٣) الظاهر أنّ هذه الزيادة محمولة على التوضيح والبيان لا على أنّها من القرآن ، لثبوت سلامته من الزيادة والنقصان.

(٤) الجمعة : ٦٢ / ١١ . (٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ٢ / ١٨٣ / ٥ .

(٦) الدر المنثور : ٨ / ٤٨٢ ، كنز العمال : ٢ / ٣١٧ / ٤١١٤ .

(٧) النمل : ٢٧ / ٥٩ . (٨) الأحزاب : ٣٣ / ٤١ .

(٩) إبراهيم : ١٤ / ١١ ، التغابن : ٦٤ / ١٣ .

(١٠) البقرة : ٢ / ١٣٦ .

ولا ينحصر مورد استحباب التسبيح بسورة الأعلى ، بل يستحب عند قوله : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١) بل يستحب عند ذكر التسبيح والتحميد كقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾^(٢) ، وقوله : ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٣) للرواية المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام . وكذا يستحب الصلاة على النبي ﷺ عند تلاوة آية فيها الأمر بها ، للرواية المذكورة ، ولما روي عنه عليه السلام في رواية : « وإذا قرأتم ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾^(٤) فصلوا عليه ، في الصلاة كنتم أو في غيرها »^(٥) .

وكذا يستفاد من الروايات أنّ كلّ سؤال يناسب جوابه من التالي أن يجيبه ، كقوله تعالى : ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٦) ، وكقوله تعالى : ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾^(٧) بأن يقول : لا نكفر ، بل نؤمن بألسنتنا وقلوبنا ، أو ما أشبه ذلك من العبارات التي تدلّ على الإيمان واعتقاد الحقّ .

عن جابر ، قال : خرج رسول الله ﷺ على الصحابة فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجنّ فكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلّما أتيت على قوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٨) قالوا : ولا بشيء من نعمتك^(٩) ربّنا نكذب ، فلك الحمد »^(١٠) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية : « وإذا قرأتم (والتين) فقولوا في آخرها : ونحن على ذلك من الشاهدين »^(١١) .

وعن الترمذي [في حديث] : « من قرأ ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فأنتهى إلى آخرها : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾^(١٢) فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين^(١٣) . ومن قرأ : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فأنتهى إلى آخرها : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^(١٤) فليقل : بلى ومن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ إلى قوله^(١٥) : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(١٦) فليقل : آمنا بالله »^(١٧) .

(١) الحجر : ١٥ / ٩٨ . (٢) الإسراء : ١٧ / ١ .

(٣) البقرة : ٢ / ٣٠ . (٤) الأحزاب : ٣٣ / ٥٦ .

(٥) الخصال : ٦٢٩ / ١٠ .

(٦) فصلت : ٤١ / ٩ . (٧) آل عمران : ٣ / ١٠١ .

(٨) الرحمن : ٥٥ / ١٣ ... (٩) في الإتيان : نعمك .

(١٠) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٦٩ .

(١١) الخصال : ٦٢٩ / ١٠ . (١٢) التين : ٩٥ / ٨ .

(١٣) الترمذي ٥ : ٤٤٣ / ٣٣٤٧ .

(١٤) القيامة : ٧٥ / ٤٠ . (١٥) في النسخة : فبلغ بقوله .

(١٦) المرسلات : ٧٧ / ٥٠ . (١٧) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٦٩ .

وكذا يستحب قول (آمين) بعد آية فيها الدعاء للمؤمنين ، عن أبي ميسرة : أن جبرئيل لقن النبي ﷺ عند خاتمة البقرة آمين ^(١) .

وعن معاذ بن جبل ، أنه كان إذا ختم سورة البقرة ، قال : « آمين » ^(٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا هذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ^(٣) وقف ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها [أنت وليها ومولاها وخير من زكاها » ^(٤) .

وعن أبي هريرة سمعت النبي ﷺ يقرأ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال : اللهم آت نفسي تقواها [وزكها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » قال : هو في الصلاة ^(٥) .

أقول : إن هذه الروايات إما عامية أو إمامية ضعيفة لا يمكن أن يعتمد عليها في إثبات حكم شرعي حتى يجوز قصد التعبد والورود بما تضمنته ^(٦) ، خصوصا في الصلاة ، إذا لم يكن من ذكر الله ، أو من الدعاء ، كقول : ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ بعد قوله : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ^(٧) .

نعم ، يمكن الحكم بالاستحباب بضميمة الروايات الدالة على أن من بلغه شيء من الثواب فعمله رجاء ذلك الثواب إلى آخره بناء على إفادتها الاستحباب الشرعي كما هو الظاهر ، فعليه ، لا إشكال في ذكرها في الصلاة بقصد التعبد والورود ، ولو لم يكن من الذكر والدعاء.

الطرفة الثالثة والثلاثون

في كراهة ترك تلاوة القرآن لحافظه

حتى يؤدي إلى النسيان

ذهب بعض العامة إلى أن ترك تلاوة القرآن لحافظه حتى يؤدي إلى نسيانه معصية كبيرة ، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها » . وما روي أنه « من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله يوم القيامة أجدم » ^(٨) . وفي (الصحيحين) : « تعاهدوا القرآن ، فو الذي نفس محمد بيده هو أشدّ تغلّتا من الإبل

في

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٧٠ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٧٠ .

(٣) الشمس : ٩١ / ٧ و ٨ .

(٤) الدر المنثور ٨ : ٥٢٩ .

(٥) الدر المنثور ٨ : ٥٢٩ .

(٦) في النسخة : تضمنتها .

(٧) الكافرون : ١ / ١٠٩ .

(٨) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٦٣ .

عقلها» (١) .

وعن (أمالي الصدوق رضوان الله عليه) في مناهي النبي ﷺ أنه قال : « ألا ومن تعلم القرآن ثم نسيه متعمدا ، لقي الله [يوم القيامة] مغلولا ، يسلط الله عليه بكل آية منه حية تكون قرينه إلى النار ، إلا أن يغفر له » (٢) .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (٣) .

هذا ما يمكن أن يستدل به حرمة النسيان ، ولم يحضرنى في المسألة قول من أصحابنا ، والأظهر كراهة الترك المذكور لضعف سند ما عدا رواية المناهي ، وعدم دلالة بعضها إلا على الكراهة ، كقوله : « لقي الله يوم القيامة أجذم » بل دلالة ما في (الصحيحين) على الارشاد بقرينة ذيله ، وعدم ربط الآية بالمقام ، لأن المراد بالنسيان في قوله : ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ هو ترك الاعتناء بها ، كما أن المراد من قوله : ﴿ تُنْسَى ﴾ ترك الإثابة ، مع معارضة جميعها بما روي عن الهيثم بن عبيد ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألت عن رجل قرأ القرآن ثم نسيه ، - فرددت عليه ثلاثا - : أعليه فيه حرج ؟ قال : « لا » (٤) .

وبما رواه عبد الله بن مسكان ، عن يعقوب الأحمر ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك ، إنه قد أصابني هموم وأشياء لم يبق من الخير إلا [وقد] تفلت مئتي منه طائفة ، حتى القرآن ، لقد تفلت مئتي طائفة منه . قال : ففرع عند ذلك حين ذكرت القرآن ، ثم قال : « إن الرجل لينسى السورة من القرآن فتأتيه يوم القيامة حتى تشرف عليه من درجة من بعض الدرجات فتقول : السلام عليك ، فيقول : وعليك السلام ، من أنت ؟ فتقول : أنا سورة كذا وكذا ، ضيعتني وتركني ، أما لو تمسكت بي بلغت بك هذه الدرجة » الخبر (٥) ، فإن دلالة على عدم الحرمة ، لدلالته على دخول الناسي في الجنة ، وسلام القرآن عليه وحرمانه عن الدرجات العالية واضحة .

وأما رواية المناهي فهي محمولة على تقدير صحة السند أو وثاقته على النسيان المسبب عن الإعراض عن القرآن والتهاون وعدم الاعتناء به والاستخفاف بشأنه ، وهو من أشد المعاصي ، بل هو في معنى الكفر .

(١) الإتنان في علوم القرآن ١ : ٣٦٣ .

(٢) أمالي الصدوق : ٥١٣ / ٧٠٧ .

(٣) طه : ٢٠ / ١٢٤ - ١٢٦ .

(٤) الكافي ٥ : ٤٤٥ / ٥ .

(٥) الكافي ٥ : ٤٤٦ / ٦ .

وعليه يحمل أيضا إن لم يكن ظاهرا فيه ، ما رواه في (البحار) من كتاب (الإمامة والتبصرة) : عن سهل بن أحمد ، عن محمد بن محمد بن الأشعث ، عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عرضت عليّ الذنوب فلم اصب أعظم من ذنب رجل حمل القرآن ثم تركه » ^(١) .

ويؤيده أنه إذا كان حفظ القرآن مستحبًا ، فالظاهر أن يكون كثرة تعاهده وإبقائه في الحفظ مستحبًا ، وبعيد غايته أن يكون واجبا إلا أن يدلّ دليل معتبر عليه من إجماع أو نص ، ولو كان ذلك الدليل لعدّه الفقهاء في الواجبات ، ولم أجد في كتب أصحابنا رضوان الله عليهم من تعرض له .

الطرفة الرابعة والثلاثون

في كراهة ختم القرآن في أقلّ من ثلاثة أيّام

لمنافاته للتدبر والتفكر في آياته

قد مرّ في آداب التلاوة كراهة الإفراط في سرعة التلاوة ، وقال جمع بكراهة ختم القرآن العظيم في أقلّ من ثلاثة أيّام ^(٢) .

عن ابن مسعود ، قال : لا تقرأوا القرآن في أقلّ من ثلاثة أيّام ^(٣) .

وعن معاذ بن جبل ، أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقلّ من ثلاثة أيّام ^(٤) .

وعن النبي ﷺ : « لا يفقه من قرأ القرآن في أقلّ من ثلاثة أيّام » ^(٥) .

أقول : مقتضى هذه الروايات عدم الكراهة في ثلاثة أيّام فما فوقها .

وعن سعيد بن المنذر ، قال : قلت لرسول الله ﷺ : أقرأ القرآن في ثلاث ؟ قال : « نعم ، إن استطعت » ^(٥) .

وعن إبراهيم بن العباس ، قال : كان الرضا عليه السلام يختم القرآن في كلّ ثلاث ، ويقول : « لو أردت أن أختمه في أقلّ من ثلاث لختمته ، ولكن ما مررت بآية قطّ إلا فكّرت فيها ، وفي أيّ شيء نزلت ، وفي أيّ وقت نزلت ، فلذلك صرت أختم في [كلّ] ثلاثة أيّام » ^(٦) .

ثمّ اعلم أنّ الظاهر من الرواية أنّ تطويل المدة لرعاية التدبر والتفكر في الآيات حيث إنّ تلاوتها

(١) جامع الأحاديث : ١٨ ، بحار الأنوار ٩٢ : ١٨٩ / ١٤ ، ولم نعر عليه في كتاب الإمامة والتبصرة .

(٢ و ٣ و ٤) . الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٦١ .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٦١ .

(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٨٠ / ٤ .

من غير تدبّر وتفكّر فيها قليلة النفع ، قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(١) فإنه تعالى جعل التدبّر غاية للإنزال ، وقال تعالى توبيخا : ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات.

عن ابن مسعود رضى الله عنه : أنّ رجلا قال له : إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة. فقال : هذا كهذّ الشّعر ، إنّ قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع^(٣).

وعنه رضى الله عنه قال : لا تنثروه نشر الدّقل^(٤) ، ولا تهدّوه هذّ الشّعر ، ففوا عند عجائبه ، وحركوا [به] القلوب ، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة^(٥) ، وقد مرّ ما يقرب من ذلك^(٦) . ولذا روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « لا يعجبني أن يقرأ القرآن في أقلّ من شهر »^(٧) . فتبيّن من جميع ذلك أنّ مقدار فضيلة تلاوة القرآن على مقدار تدبّر القارئ ، فإنّ تلاوة جزء بتدبّر وتفكّر فيه أفضل من قراءة جزءين أو أكثر في قدر ذلك الزّمان بلا تدبّر وتفكّر وترتيل.

وحينئذ لو فرضنا قدرة القارئ على ختم القرآن في ليلة واحدة مع حقّ التدبّر فيه ، كان فضيلته أزيد من ختمه في ليلتين ، فالأخبار النّاهية عن ختمه في ليلة أو ليلتين ناظرة إلى حال نوع المؤمنين ، فإنّهم عاجزون عن أداء حقّ تلاوته في أقلّ من ثلاث ، وعلى هذا تختلف المدّة باختلاف قدرة التّالي على الختم مع التدبّر ، ولذا اختلفت الأخبار في تقدير المدّة على حسب اختلاف الأشخاص.

عن عبد الله بن عمر ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ القرآن في شهر » . قلت : إني أجِدُ قوّة. قال : « اقرأه في عشر » . قلت : إني أجِدُ قوّة. قال : « اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك »^(٨) .

وفي رواية اخرى : قال : يا رسول الله ، في كم أقرأ القرآن ؟ قال : « في خمسة عشر » . قلت : إني أقوى من ذلك. قال : « اقرأه في جمعة »^(٩) .

قيل : كان للسلف في قدر القراءة عادات مختلفة ، فأكثر ما ورد في كثرة قراءتهم من كان يختم في اليوم واللييلة ثمان ختمات ؛ أربعاً في اللّيل ، وأربعاً في النّهار ، ويليه من كان يختم في اليوم واللييلة

(١) سورة ص : ٣٨ / ٢٩ .

(٢) محمد ﷺ : ٤٧ / ٢٤ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١ : ٣٦٧ .

(٤) الدّقل : رديء التّمر ويابس.

(٥) الإتقان في علوم القرآن ١ : ٣٦٧ .

(٦) تقدّم في الطّرفة الحادية والثلاثين.

(٧) إقبال الأعمال : ١١٠ . (٨) الإتقان في علوم القرآن ١ : ٣٦١ .

(٩) الإتقان في علوم القرآن ١ : ٣٦١ .

أربعاً ، ويليهِ ثلاثاً ، ويليهِ ختمتين ، ويليهِ ختمة ، وقد ذمّت عائشة ذلك.

نقل عن مسلم بن مخرق ، قال : قلت لعائشة : إنّ رجلاً يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثاً ؟ فقالت : قرءوا ولم يقرءوا ، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمرّ بآية فيها استبشار إلّا دعا ورغب ، ولا بآية فيها تخويف إلّا دعا واستعاذ .^(١)

وقال بعض العامة : إنّهُ يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً بلا عذر ، حيث روي أنّ عبد الله بن عمر سأل النبي ﷺ : في كم أختتم القرآن ؟ قال : « في أربعين يوماً »^(٢) .

الطرفة الخامسة والثلاثون

في أنّ لمن ختم القرآن دعوة مستجابة

قد ظهر ممّا سبق من بعض الروايات أنّ لمن ختم القرآن دعوة مستجابة .
كما روي عن النبي ﷺ من طرق العامة : « من ختم القرآن فله دعوة مستجابة »^(٣) .
فعلى المؤمن أن يبالغ في الدعاء بعد الختمة ، وأن يسأل أهم الحوائج وهو غفران الذنوب والنّجاة من النار .

عن أنس بن مالك [مرفوعاً] « من قرأ القرآن وحمد ربّ وصلى على النبي ﷺ واستغفر ربّه ، فقد طلب الخير [مكانه] »^(٤) .

وقد ورد من طرق أصحابنا (رضوان الله عليهم) ادعية كثيرة ، منها :
ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن أدعو عند ختم القرآن : اللهم إنّني أسألك إجابات المخبتين ، وإخلاص الموقنين ، ومرافقة الأبرار ، واستحقاق حقائق الإيمان ، والغنيمة من كلّ برّ ، والسّلامة من كلّ آثم ، ووجوب رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والفوز بالجنّة ، والنّجاة من النار »^(٥) .

روي عن عاصم ، عن زرّ بن حبیش ، قال : قرأت القرآن من أوّله إلى آخره في مسجد جامع الكوفة على أمير المؤمنين عليه السلام - إلى أن قال : - فلما بلغت رأس العشرين من ﴿ حم * عسق ﴾ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴿٦﴾ بكى

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٦٠ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٦٢ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٨٤ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ١ : ٣٨٤ .

(٥) مكارم الأخلاق : ٣٤٢ .

(٦) الشورى : ٤٢ / ٢٢ .

أمير المؤمنين عليه السلام حتى ارتفع نحيبه ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، وقال : « يا زَرَّ ، أَمْنٌ على دعائي »
ثم قال : « اللهم إني أسألك إجابات المختبين .. » إلى آخر الدعاء .

ثم قال : « يا زَرَّ ، إذا ختمت فادع بهذه ، فإن حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني
أن أدعو بهنَّ عند ختم القرآن » ^(١) .

أقول : يستفاد من قوله : « يا زَرَّ ، أَمْنٌ على دعائي » استحباب حضور المؤمنين عند
الدعاء وتأمينهم له ، خصوصا عند ختم القرآن ، ويؤيده ما روي عن أنس : أنه كان إذا ختم القرآن
جمع أهله ودعا ^(٢) .

وعن الحكم بن عتيبة ^(٣) ، قال : أرسل إليَّ مجاهد وعنده ابن أبي أمامة ، وقال : إننا أرسلنا
إليك لأننا أردنا أن نختم القرآن ، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن ^(٤) .

وعن مجاهد ، قال : كانوا يجتمعون عند ختم القرآن ، ويقول : عنده تنزل الرحمة ^(٥) .
ومن الأدعية المأثورة : ما روي عن الصادق عليه السلام : اللهم إني قد قرأت ما قضيت من كتابك
الذي أنزلته على نبيك الصادق عليه السلام فلك الحمد ربنا ، اللهم اجعلني ممن يحلّ حلاله ويحرم حرامه
ويؤمن بحكمه ومتشابهه ، واجعله لي انسا في قبري ، وانسا في حشري ، [وانسا في نشري]
واجعلني ممن ترقيه بكل آية قرأتها درجة في أعلى عليين ، آمين رب العالمين » ^(٦) .

والظاهر أنّ هذا الدعاء ليس مختصا بختم القرآن ، بل يستحبّ عند الفراغ من القراءة ، ولو
كانت قراءة بعضه من سورة أو آيات .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه كان إذا ختم القرآن ، قال : « اللهم اشرح بالقرآن
صدري ، واستعمل بالقرآن بدني ، ونور بالقرآن بصري ، وأطلق بالقرآن لساني ، وأعني عليه ما
أبقيتني ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك . » ^(٧) .

ثم لا يذهب عليك أنه كما ندب إلى الدعاء بعد ختمه ندب إليه حين الشروع في تلاوته .
روي عن الصادق عليه السلام أنه كان إذا قرأ القرآن قال قبل أن يقرأ حين يأخذ المصحف : «
اللهم إني أشهد أنّ هذا كتابك المنزل من عندك على رسولك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله ، وكلامك
الناطق على

(١) بحار الأنوار ٩٢ : ٢٠٦ / ٢ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ١ : ٣٨٢ .

(٣) في النسخة : الحكم بن عيينة ، راجع : تهذيب الكمال ٧ : ١١٤ .

(٤) الإتيقان في علوم القرآن ١ : ٣٨٢ .

(٥) الإتيقان في علوم القرآن ١ : ٣٨٢ .

(٦) الاختصاص : ١٤١ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٢٠٧ / ٢ .

(٧) بحار الأنوار ٩٢ : ٢٠٩ / ٦ .

لسان نبّيك ، جعلته هاديا منك إلى خلقك وحبالا متّصلا فيما بينك وبين عبادك ، اللهم إني نشرت عهدك وكتابتك ، اللهم فاجعل نظري فيه عبادة ، وقراءتي فيه فكرا ، وفكري فيه اعتبارا ، واجعلني ممّن اتّعظ ببيان مواعظك فيه ، واجتنب معاصيك ، ولا تطع عند قراءتي على سمعي ، ولا تجعل على بصري غشاوة ، ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبّر فيها ، بل اجعلني أتدبّر آياته وأحكامه ، آخذا بشرائع دينك ، ولا تجعل نظري فيه غفلة ، ولا قراءتي هذرا [إنك] أنت الرؤوف الرحيم » ^(١) .

الطرفة السادسة والثلاثون :

في أنّ لبعض سور القرآن فضيلة على بعض

مقتضى كثير من الروايات أنّ لبعض سور القرآن الكريم فضيلة على بعض ، وإن أنكرها قوم من العامة.

عن أنس : « أفضل القرآن ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) أي سورة الفاتحة .
وعن [أبي] سعيد ^(٣) بن المعلّى : « أعظم سورة في القرآن ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤) .

وعن أبيّ بن كعب ، مرفوعا : « ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أمّ القرآن ، وهي السّبع المثاني »

وعن ابن عبّاس : « فاتحة الكتاب تعدل بثلاثي القرآن » ^(٥) .
وعن سهل بن سعد : « أنّ لكلّ شيء سناما ، وسنام القرآن سورة البقرة ، من قرأها في بيته نهارا لم يدخله الشّيطان ثلاثة أيّام ، ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخله الشّيطان ثلاث ليال » ^(٦) .
وعن بريدة : « تعلّموا سورة البقرة ، فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة ،
^(٧) تعلّموا سورة البقرة وآل عمران فإنّهما الزّهراوان ، تظللان صاحبهما يوم القيامة كأثهما غمامتان » ^(٨) .

(١) بحار الأنوار ٩٢ : ٢٠٧ / ٢ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٥ .

(٣) في النسخة : سعيد ، تصحيف ، انظر تهذيب الكمال ٣٣ : ٣٤٨ .

(٤) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٥ .

(٥) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٥ وفيه : تعدل ثلثي القرآن ، الدر المنثور ١ : ١٥ .

(٦) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٦ .

(٧) البطلة : السحرة أو الشياطين .

(٨) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٦ .

وفي رواية : « الأنعام من نواجب القرآن » ^(١) .

وعن معقل بن يسار : « يس قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، إقرأوها على موتاكم » ^(٢) .

وعن أنس : « أن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : « إن لكل شيء لبابا ، ولباب القرآن الحواميم » ^(٣) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « الحواميم ديباج القرآن » ^(٤) .

وفي رواية : « في تنزيل السجدة وتبارك الملك فضل ستين درجة على غيرها من سور القرآن » ^(٥) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « لكل شيء عروس ، وعروس القرآن الرحمن » ^(٦) .

وعن أنس : « من قرأ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ عدلت له بنصف القرآن » ^(٧) .

وفي رواية : ﴿ وَالْعَادِيَات ﴾ تعدل نصف القرآن » ^(٨) .

وفي رواية : « ألا أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿ أَلْهَائِكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ^(٩) . والظاهر أن المراد أن سورة ﴿ أَلْهَائِكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ تعدل ألف آية.

وعن أنس : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ربع القرآن » ^(١٠) .

وعن ابن عباس : « أتمها تعدل برقع القرآن » ^(١١) .

وعن أنس : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ربع القرآن » ^(١٢) .

وعن أبي هريرة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن » ^(١٣) .

عن النبي ﷺ قال لعقبة : « ألا أعلمك سورا ما انزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في

(١) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٢٨ ، ونواجب القرآن : أفاضل سوره.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٢٩ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٢٩ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٣٠ .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٢٩ .

(٦) الدر المنثور ٧ : ٦٩٠ .

(٧ و ٨) . الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٣٢ .

(٩ و ١٠) . الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٣٢ .

(١١) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٣٣ .

الفرقان ^(١) مثلها ؟ » قلت : بلى . قال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ^(٢) .

الطرفة السابعة والثلاثون

في أنّ لبعض الآيات فضيلة على بعض

مفاد كثير من الروايات أنّ لبعض الآيات فضيلة على بعض :
عن العياشي عليه السلام في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عن الصادق عليه السلام ، قال : « ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها » ^(٣) .
وفي رواية : « هي الآية التي قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَإِذَا دَكَّرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ » ^(٤) .

وعن الرضا عليه السلام : « إنّها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر ^(٥) العين إلى بياضها » ^(٦) .
لعلّ المراد أنّ الاسم الأعظم هي الأسامي المباركات في هذه الآية ، أو أنّه يستخرج منها .
وعن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وآله - في حديث - : « قال الله تعالى : وأعطيت لك ولأمتك كنزا من كنوز عرشي ؛ فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة » ^(٧) .

وعن أبيّ بن كعب : « أعظم آية في كتاب الله آية الكرسي » ^(٨) .
وعن أبي هريرة : « أنّ سيّدة أي القرآن آية الكرسي » ^(٩) .
وفي رواية مرسلّة : « أفضل القرآن سورة البقرة ، وأعظم آية فيها آية الكرسي » ^(١٠) .
وفي حديث أنس : « آية الكرسي ربع القرآن » ^(١١) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله : « أنّ فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين من آل عمران : ﴿شَهِدَ اللَّهُ

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) في النسخة : القرآن.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٣٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٠٣ / ٨٩ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٠٠ / ٧٩ ، والآية من سورة الإسراء : ١٧ / ٤٦ .

(٥) في تفسير العياشي : سواد .

(٦) تفسير العياشي ١ : ١٠٢ / ٨٦ .

(٧) علل الشرائع ١ : ١٢٨ / ٣ ، الخصال : ٤٢٥ / ١ ، معاني الأخبار : ٥٠ / ١ .

(٨) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٧ .

(٩) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٧ .

(١٠ و ١١) . الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٧ .

إِلَّا هُوَ» إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١) و﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢) معلّقات ، ما بينهما وبين الله حجاب ، قلن : يا ربّ أتهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك ؟ قال الله عزّ وجلّ : إنيّ حلّفت لا يقرؤنّ أحد دبر كلّ صلاة إلّا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه ، وأسكنته في حظيرة القدس ، ونظرت إليه بعيني كلّ يوم سبعين مرّة ، وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وأعدته من كلّ عدوّ وحاسد ، ونصرتّه عليهم «^(٣) .

وفي حديث معاذ بن أنس : « من قرأ أوّل سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه إلى رأسه »^(٤) .

وفي رواية : من قرأ في ليلة : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾^(٥) . الآية ، كان له نور من عدن إلى مكة حشوه الملائكة «^(٦) .

وفي رواية عن النبي ﷺ في المسبّحات يقول : « فيهن آية خير من ألف آية »^(٧) .

قال بعض العلماء : هي قوله تعالى : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٨) .

وفي حديث : « من قرأ حين يصبح ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكلّ الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة »^(٩) .

وفي حديث : « من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار فمات في يومه أو ليلته ، فقد أوجب الله له الجنة »^(١٠) .

أقول : لا ريب أنّ فضيلة الآيات بفضيلة ما تضمّنته من العلوم والمعارف الإلهيّة ، وعلى هذا فكلّ آية يكون فيها بيان التّوحيد والصفات الجلاليّة والجماليّة وعلم المبدأ والمعاد تكون أفضل من غيرها ، وعظمة آية الكرسيّ لكونها أشمل ، وبهذا الملاك يمكن إلحاق بعض الآيات التي تقاربها في المضمون بها ، والله العالم.

(١) آل عمران : ٣ / ١٨ و ١٩ .

(٢) آل عمران : ٣ / ٢٦ و ٢٧ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٧٢٤ .

(٤) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٨ .

(٥) الكهف : ١٨ / ١١٠ .

(٦) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٢٩ .

(٧) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٣٠ .

(٨) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٣٠ ، تفسير ابن كثير ٤ : ٣٢٤ ، والآية من سورة الحديد : ٥٧ / ٣ .

(٩) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٣٠ .

(١٠) الإتيقان في علوم القرآن ٤ : ١٣١ .

الطرفة الثامنة والثلاثون

في أنّ للقرآن العظيم خواصا وآثارا دنيوية

مضافا إلى الآثار الاخرية

مضافا إلى أنّ للقرآن العظيم فضائل وآثارا كثيرة اخروية ، له خواصّ وآثار دنيوية.
عن ابن مسعود رضی الله عنه : « عليكم بالشفاءين : العسل ، والقرآن » ^(١) .
وعن واثلة بن أسقع : أنّ رجلا شكّا إلى النبي ﷺ وجع حلقه. قال : « عليك بقراءة القرآن » ^(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إنّني اشتكي صدري قال :
« اقرأ القرآن ، يقول الله تعالى : ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ » ^(٣) .
وعن النبي ﷺ : « القرآن مأدبة الله ، فتعلّموا من مأدبة الله ما استطعتم ، فإنّه النور المبين ،
والشفاء النافع ، تعلّموه فإنّ الله يشرفكم بتعلّمه » ^(٤) .

عن عليّ بن خلف ، قال : شكّا رجل إلى محمد بن حميد الرّازي الرّمد ، فقال له : أدم النّظر
في المصحف ، فإنّه كان بي رمد فشكوت ذلك إلى جرير بن عبد الحميد فقال لي : أدم النّظر في
المصحف ، فإنّه كان بي رمد فشكوت ذلك إلى الأعمش ، فقال لي : أدم النّظر في المصحف ، فإنّه
كان بي رمد فشكوت ذلك إلى عبد الله بن مسعود رضی الله عنه فقال لي : أدم النّظر في المصحف
، فإنّه كان بي رمد ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لي : « أدم النّظر في المصحف ، فإنّه
كان بي رمد فشكوت ذلك إلى جبرئيل ، فقال لي : أدم النّظر في المصحف » ^(٥) .

ومرّ في بعض الروايات ، في فضائل القرآن « أنّه الشفاء الأشفى » ^(٦) ، ومقتضى إطلاقه أنّه
شفاء لجميع الأمراض الظاهرية والباطنية ، بل كما أنّه لا يكون أشفى منه في الأمراض القلبية ، لا
يكون شيئا أشفى منه في الأمراض الجسمانية.

عن الزّهرى ، قال : قال عليّ بن الحسين عليه السلام : « لو مات من بين المشرق والمغرب لما
استوحشت بعد أن يكون القرآن معي » ^(٧) .

(١) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٥٨ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٥٨ .

(٣) الدر المنثور ٤ : ٣٦٦ والآية من سورة يونس : ١٠ / ٥٧ .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٠ / ٣١ .

(٥) المسلسلات : ١٠٩ .

(٦) تقدّم في الطريقة (٢٧) ص ٢١٢ .

(٧) الكافي ٢ : ٤٤٠ / ١٣ .

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام : « ثلاثة يزدن في الحفظ ، ويذهبن بالبلغم : قراءة القرآن ، والعسل ، واللبان » ^(١) .

وعنه صلوات الله عليه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله قال : « اجعلوا لبيوتكم نصيبا من القرآن ، فإن البيت إذا قرئ فيه القرآن يسر على أهله ، وكثر خيرته ، وكان سكّانه في زيادة ، وإذا لم يقرأ فيه ضيق على أهله ، وقلّ خيرته ، وكان سكّانه في نقصان » ^(٢) .

وعن معاوية بن عمّار ، عن أبي عبد الله عليه السلام : « من قرأ القرآن فهو غنيّ ، ولا فقر بعده ، وإلا ما به غنيّ » ^(٣) .

وفي رواية ما يقرب من هذا المضمون : « من أوتي القرآن فظنّ أنّ أحدا أوتي خيرا منه ، فقد حقّر عظيما ، وعظّم حقيرا » ^(٤) .

أقول : لأنّ القرآن جامع لجميع الخيرات الدنيويّة والاخرويّة.

عن ابن عباس ، قال : إذا فقدنا عقالتنا كنّا نجده بالقرآن ^(٥) .

الطرفة التاسعة والثلاثون

في أنّ لبعض سور القرآن خواصا مخصوصة

قد رويت خواصّ خاصّة لبعض سور القرآن :

عن العالم عليه السلام : « من نالته علّة فليقرأ في جيبه أمّ الكتاب سبع مرّات ، فإن سكنت وإلا فليقرأها سبعين مرّة ، فإنّها تسكن » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه دخل عليه رجل من مواليه وقد وعك ، فقال له : « ما لي أراك متغيّر اللون ؟ » فقال : جعلت فداك ، وعكت وعكا شديدا منذ شهر ، ثمّ لم تنقلع الحمى عنيّ ، وقد عاجلت بكلّ ما وصفه لي المترفعون فلم أنتفع بشيء من ذلك.

فقال له الصادق عليه السلام : « حلّ أزرار قميصك ، وأدخل رأسك في قميصك ، وأذن وأقم

وأقرأ سورة

(١) مكارم الأخلاق : ١٦٥ .

(٢) عدة الداعي : ٢٨٧ / ٦ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٤٣ / ٨ .

(٤) معاني الأخبار : ٢٧٩ « نحوه » .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ٣٠ « نحوه » .

(٦) مكارم الأخلاق : ٣٦٣ .

الحمد سبع مرّات » . قال : ففعلت ذلك فكأنما نشطت من عقال ^(١) .

وفي رواية جابر ، عن النبي ﷺ : « أُنْهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ » يعني الموت ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « كان رسول الله ﷺ إذا كسل أو أصابته عين أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوذتين ، ثم يمسح بهما وجهه ، فيذهب عنه ما كان يجد » ^(٣) .

وعن سلمة بن محرز ، قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : « من لم تبرئه سورة الحمد و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لن يبرئه شيء ، وكلّ علّة يبرئها هاتان السورتان » ^(٤) .

عن معاوية بن عمّار ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « لو قرئت الحمد على ميّت سبعين مرّة ثم رُدّت فيه الرّوح ما كان ذلك عجباً » ^(٥) .

وعنه عليه السلام : « من نالته علّة فليقرأ في جيبه الحمد سبع مرّات ، فإن ذهبت العلّة وإلا فليقرأها سبعين مرّة ، وأنا الضّامن له العافية » ^(٦) .

وعنه عليه السلام قال : « من لم تبرئه الحمد لم يبرئه شيء » ^(٧) .

وعن أبي بكر الحضرمي ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إذا كانت لك حاجة فاقراً المثاني وسورة اخرى ، وصل ركعتين ، وادع الله » . قلت : أصلحك الله ، وما المثاني ؟ قال : « فاتحة الكتاب » ^(٨) .

وعن العالم عليه السلام أنّه قال : « إذا بدت بك علّة تخوّفت على نفسك منها فاقراً الأنعام ، فإنّه لا ينالك من تلك العلّة ما تكره » ^(٩) .

وعن سلامة بن عمرو الهمداني ، قال : دخلت المدينة فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت له : يابن رسول الله ، اعتللت على أهل بيتي بالحجّ ، وأتيتك مستنجراً مستسراً من أهل بيتي من علّة أصابتنى ، وهي الداء الخبيثة ، قال : « أقم في جوار رسول الله ﷺ وفي حرمة وأمنه ، واكتب سورة الأنعام بالعسل واشربه ، فإنّه يذهب عنك » ^(١٠) .

(١) طب الأئمة عليهم السلام : ٥٢ ، يقال : كأنما أنشط من عقال ، أي حلّ ، ويقال ذلك للآخذ بسرعة في أيّ عمل كان ، وللمريض إذا برئ.

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٠١ / ٨٢ .

(٣) طب الأئمة عليهم السلام : ٣٩ .

(٤) طب الأئمة عليهم السلام : ٣٩ .

(٥) الكافي ٢ : ٤٥٦ / ١٦ .

(٦) أمالي الطوسي : ٢٨٤ / ٥٥٣ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ١٠١ / ٨٣ .

(٨) تفسير العياشي ١ : ١٠١ / ٨٤ .

(٩) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام : ٣٤٢ .

(١٠) طب الأئمة عليهم السلام : ١٠٥ .

وعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام يقول : « من قرأ سورة يوسف في كل ليلة بعثه الله يوم القيامة وجماله على جمال يوسف » إلى أن قال : « وأومن في الدنيا أن يكون زانيا [أو] فحاشا » (١) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « من أكثر قراءة سورة الرعد لم يصبه الله بصاعقة أبدا ولو كان ناصبيا » (٢) .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : « من قرأ سورة النحل في كل شهر كفي المغرم في الدنيا وسبعين نوعا من أنواع البلاء ، أهونها الجنون والجذام والبرص » (٣) .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : « من قرأ سورة المائدة في كل خميس ، لم يلبس إيمانه بظلم ، ولم يشرك به أبدا » (٤) .

وعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من قرأ سورة الأنفال وسورة براءة [في] كل شهر ، لم يدخله نفاق [أبدا] ، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام » (٥) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة ، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين » (٦) الخبر .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة ، لم يمت حتى يدرك القائم عجل الله فرجه فيكون من أصحابه » (٧) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « من قرأ سورة الكهف كل ليلة جمعة لم يمت إلا شهيدا » (٨) .
وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من أدام قراءة سورة مريم ، لم يمت حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه وماله وولده » (٩) .

وعنه عليه السلام قال : « من قرأ سورة الأنبياء حبّا لها كان ممن يرافق (١٠) النبيين أجمعين في جنّات النعيم ، وكان مهيبا في أعين الناس في الحياة الدنيا » (١١) .

وعنه عليه السلام : « من قرأ سورة الحج في كل ثلاثة أيام ، لم تخرج سنة حتى يخرج إلى بيت الله الحرام » (١٢) الخبر .

وعن ابن مسكان (١٣) ، عنه عليه السلام : « من قرأ سورة المؤمنون ختم الله له بالسعادة ، إذا كان يدام قراءتها »

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٣١ / ٢٠٧٣ .

(٢) ثواب الأعمال : ١٠٦ . (٣) ثواب الأعمال : ١٠٧ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٠٥ . (٥) ٦ و . ثواب الأعمال : ١٠٦ .

(٧ و ٨) . ثواب الأعمال : ١٠٧ .

(٩) ثواب الأعمال : ١٠٨ . (١٠) في ثواب الأعمال : كمن رافق .

(١١ و ١٢) . ثواب الأعمال : ١٠٨ .

(١٣) في ثواب الأعمال : الحسين بن أبي العلاء .

في كلِّ جمعة «^(١) الخبر.

وعنه عليه السلام قال : « حصّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور ، وحصّنوا بها نساءكم ، فإنّ من أدمن قراءتها في كلِّ يوم أو في كلِّ ليلة لم يزن أحد من أهل بيته أبدا حتّى يموت »^(٢) .

وعنه عليه السلام قال : « من قرأ الطواسين الثلاثة في ليلة الجمعة ، كان من أولياء الله ، وفي جوار الله وكنفه ، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبدا »^(٣) .

وعنه عليه السلام قال : « من قرأ الحمددين : حمد سبأ وحمد فاطر في ليلة واحدة ، لم يزل في ليلته في حفظ الله وكلاءته ، ومن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه ، وأعطى من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ مناه »^(٤) .

وعنه عليه السلام قال : « لكلِّ شيء قلب وقلب القرآن يس ، من قرأها قبل منامه ، أو في نهاره قبل أن يمسي ، كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتّى يمسي ، ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكلّ الله به ألف ملك يحفظونه من شرِّ كلِّ شيطان رجيم ومن كلِّ آفة »^(٥) الخبر.

وعن أبي جعفر عليه السلام في رواية ذكر ثواب تلاوة يس إلى أن قال : « ولم يصبه فقر ولا غرم ولا نصب ولا جنون ولا جذام ولا وسواس ولا داء يضربه » إلى أن قال : « وكان ممّن يضمن الله له السّعة في معيشته والفرج عند لقاءه »^(٦) .

وروي « أنّ يس تقرأ للدنيا والآخرة ، وللحفظ من كلِّ آفة وبليّة في النفس والأهل والمال ، وإنّه من كان مغلوبا على عقله قرئ عليه ، أو كتبه وسقاه ، وإن كتبه بماء الزعفران على إناء من زجاج فهو خير فإنّه مبرئ »^(٧) .

وفي رواية عن النبي صلى الله عليه وآله : « يا عليّ ، اقرأ يس فإنّ في يس عشر بركات : ما قرأها جائع إلّا شبع ، ولا ظمآن إلّا روي ، ولا عار إلّا كسي ، ولا عزب إلّا تزوّج ، ولا خائف إلّا أمن ، ولا مريض إلّا برئ ، ولا محبوس إلّا أخرج ، ولا مسافر إلّا أعين على سفر ، ولا يقرأون عند ميّت إلّا خفّ الله عنه ، ولا قرأها رجل له ضالة إلّا وجدها »^(٨) .

(١) ثواب الأعمال : ١٠٨ .

(٢) ثواب الأعمال : ١٠٩ .

(٣) ثواب الأعمال : ١٠٩ .

(٤) ثواب الأعمال : ١١٠ ، مجمع البيان ٨ : ٥٨٨ .

(٥ و٦) . ثواب الأعمال : ١١١ .

(٧) مكارم الأخلاق : ٣٦٤ .

(٨) جامع الأخبار : ١٢٦ / ٢٤٥ ، وفيه : إلّا وجد طريقها .

وفي رواية عن النبي ﷺ في سورة يس ، قال : « وتدفع عن صاحبها كل سوء ، وتقضي له كل حاجة » إلى أن قال : « ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء ، وألف نور ، وألف يقين ، وألف بركة ، وألف رحمة ، ونزعت عنه كل غلّ وداء » ^(١) .

وعن عطاء بن أبي رباح ^(٢) ، قال : بلغني أنّ رسول الله ﷺ قال : « من قرأ يس في صدر النهار قضيت حوائجه » ^(٣) .

وفي رواية عامية ، قال : « ما من ميت يقرأ عنده سورة (يس) إلا هون الله عليه » ^(٤) .
وعن أبي قلابة ، قال : من قرأ يس غفر له ، ومن قرأها وهو جائع شبع ، ومن قرأها وهو ضالّ هدي ، ومن قرأها وله ضالة وجدها ، ومن قرأها عند طعام خاف قلته بورك فيه ، ومن قرأها عند ميت هون عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها الوضع ، سهل عليها ^(٥) ، الخبر .
وعن ابن عباس رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس والصفات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤله » ^(٦) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من قرأ سورة الصفات في كل يوم جمعة ، لم يزل محفوظا من كل آفة ، مدفوعا عنه كل بلية في الحياة الدنيا ، مرزوقا في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق ، ولم يصبه الله في ماله ولا ولده ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم ولا [من] جبار عنيد » ^(٧) الخبر .

وفي رواية : « أتمها تقرأ للشرف والجاه في الدنيا والآخرة » ^(٨) .
وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من قرأ سورة الزمر استحقها » ^(٩) من لسانه ، أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة ، وأعزّه بلا مال ولا عشيرة حتى يها به من يراه » الخبر ^(١٠) .
عن أبي عبد الله عليه السلام : « من قرأ سورة حم السجدة ، كانت له نورا يوم القيامة مدّ بصره وسرورا ، وعاش في الدنيا محمودا مغبوطا » ^(١١) .

(١) الدر المنثور ٧ : ٣٨ .

(٢) في النسخة : عطاء بن أبي رباح ، انظر : تهذيب الكمال ٢٠ : ٦٩ .

(٣) سنن الدارمي ٢ : ٤٥٧ ، الدر المنثور ٧ : ٣٨ .

(٤) الدر المنثور ٧ : ٣٨ .

(٥) بحار الأنوار ٩٢ : ٢٩٢ / ٦ .

(٦) الدر المنثور ٧ : ٧٧ .

(٧) ثواب الأعمال : ١١٢ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٢٩٦ / ١ .

(٨) مكارم الأخلاق : ٣٦٤ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٢٩٦ / ٢ .

(٩) في البحار : استحقها .

(١٠) ثواب الأعمال : ١١٢ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٢٩٧ / ١ .

(١١) ثواب الأعمال : ١١٣ .

وروي في حم الدخان ما يقرب من خواصّ سورة يس ^(١) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من قرأ سورة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ^(٢) لم يذنب ^(٣) أبدا ولم يدخله شك في دينه [أبدا] ولم يبتليه الله بفقر أبدا ، ولا خوف من سلطان أبدا ، ولم يزل محفوظا من الشكّ والكفر أبدا حتّى يموت » ^(٤) الخبر.

وعنه عليه السلام : « حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التّلف بقراءة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ ^(٥) الخبر.

وعنه عليه السلام قال : « من أدام في فرائضه ونوافله قراءة سورة (ق) وسّع الله عليه رزقه » ^(٦) الخبر.

وعن الصادق عليه السلام قال : « من قرأ سورة ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ في يومه أو في ليلته ، أصلح الله له معيشته ، وأتاه برزق واسع » ^(٧) الخبر.

وعن الباقر عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿وَالطُّورِ﴾ جمع الله له خير الدنيا والآخرة » ^(٨) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « من كان يدمن قراءة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ في كلّ يوم أو في كلّ ليلة ، عاش محمودا بين النّاس » ^(٩) الخبر.

وعنه عليه السلام : « من قرأ في كلّ ليلة جمعة الواقعة أحبه الله ، وأحبه إلى النّاس ، ولم ير في الدنيا بؤسا أبدا ولا فقرا ولا فاقة ولا آفة من آفات الدنيا » ^(١٠) الخبر.

وفي رواية أخرى : « من قرأ الواقعة في كلّ جمعة لم ير [في الدنيا] بؤسا » ^(١١) الخبر.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة فريضة ^(١٢) لم يعذبه الله حتّى يموت أبدا ، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءا أبدا ، ولا خصاصة في بدنه » ^(١٣) .

وعن الثّماليّ ، عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : « من قرأ سورة الممتحنة في فرائضه ونوافله

(١) الدر المنثور ٧ : ٣٩٧ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٠ / ٣ .

(٢) أي سورة محمد صلّى الله عليه وآله .

(٣) في ثواب الأعمال : يرتب .

(٤) ثواب الأعمال : ١١٤ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٣ / ١ .

(٥) ثواب الأعمال : ١١٥ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٣ / ١ .

(٦) ثواب الأعمال : ١١٥ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٤ / ١ .

(٧) ثواب الأعمال : ١١٥ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٤ / ١ .

(٨) ثواب الأعمال : ١١٦ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٤ / ١ .

(٩) ثواب الأعمال : ١١٦ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٥ / ١ .

(١٠) ثواب الأعمال : ١١٧ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٧ / ١ .

(١١) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام : ٣٤٣ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٧ / ١ .

(١٢) زاد في ثواب الأعمال والبحار : أدامها .

(١٣) ثواب الأعمال : ١١٧ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٠٧ / ١ .

امتنح الله قلبه للإيمان ، ونور له بصره ، ولا يصيبه فقر أبدا ولا جنون في بدنه ولا في ولده » ^(١) .

وفي رواية أخرى : « يكون محمودا عند الناس » ^(٢) .

وعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من قرأ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ في المكتوبة قبل أن ينام ، لم يزل في أمان الله حتى يصبح ، وفي أمانه يوم القيامة حتى يدخل الجنة » ^(٣) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله في فضائل تلك السورة المباركة وقراءتها عند التَّوَم ، قال : « وبعث الله إليه ملكا من الملائكة ييسط عليه جناحه ويحفظه من كل سوء حتى يستيقظ » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ في فريضة أو نافلة آمنه الله عز وجل [من] أن يصيبه فقر أبدا ، وأعاده الله إذا مات من ضمة القبر » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « أكثروا من قراءة الحاقة ، فإن قراءتها في الفرائض والنوافل من الإيمان بالله ورسوله ، لأنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية لعنه الله ، ولم يسلب قارئها دينه حتى يلقي الله عز وجل » ^(٦) .

وعنه عليه السلام : « من أكثر من قراءة ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ﴾ لم يصبه في الحياة الدنيا شيء من أعين الجن ولا نفثهم ، ولا من سحرهم ولا من كيدهم » ^(٧) الخبر .

وعنه عليه السلام في رواية في فضل تلاوة سورة المزمل في العشاء الآخرة وفي آخر الليل ، قال : « وأحياء [الله] حياة طيبة ، وأماته ميتة طيبة » ^(٨) .

وعن الباقر عليه السلام في فضل قراءة سورة المدثر في الفريضة ، قال في جملته : « ولا يدركه » ^(٩) شقاء أبدا إن شاء الله » ^(١٠) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام في تلاوة سورة (عم) في كل يوم ، قال : « لم تخرج سنته » ^(١١) حتى يزور البيت » وفي تلاوة سورة ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ قال : « لم يمِتْ إِلَّا رَيَّانَا » ^(١٢) .

(١) ثواب الأعمال : ١١٨ ، مكارم الأخلاق : ٣٦٥ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣١٠ / ٢ .

(٢) مكارم الأخلاق : ٣٦٥ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣١٠ / ٢ .

(٣) ثواب الأعمال : ١١٩ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣١٣ / ١ .

(٤) الدر المنثور ٨ : ٢٣٣ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣١٦ / ٤ .

(٥) ثواب الأعمال : ١١٩ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣١٦ / ١ .

(٦) ثواب الأعمال : ١١٩ .

(٧) ثواب الأعمال : ١٢٠ ، مكارم الأخلاق : ٣٦٥ .

(٨) ثواب الأعمال : ١٢٠ .

(٩) زاد في ثواب الأعمال : في الحياة الدنيا .

(١٠) ثواب الأعمال : ١٢٠ .

(١١) زاد في المصدر : إذا كان يدمنها كل يوم .

(١٢) ثواب الأعمال : ١٢١ .

وفي رواية أخرى ، قال : « لا يدركه ^(١) شقاء أبدا » ^(٢) .

وعنه عليه السلام في قراءة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ « من قرأهما وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة لم يحجبه الله من حاجة » ^(٣) .

وفي رواية : « من سقى سما ، أو لدغته ذو حمة ^(٤) من ذوات السموم يقرأ على الماء ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ويسقى فإنه لا يضره إن شاء الله » ^(٥) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه أوصى أصحابه وأولياءه : « من كان به علة فليأخذ قلّة ^(٦) جديدة ، وليجعل فيها الماء وليسق الماء بنفسه ، وليقرأ على الماء ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ على الترتيل ثلاثين مرة ، ثم ليشرب من ذلك الماء ، وليتوضأ ، وليمسح به ، وكلما نقص زاد فيه ، فإنه لا يظهر ذلك ثلاثة أيام إلا ويعافيه الله تعالى من ذلك الداء » ^(٧) .

وعن إسماعيل بن سهل ، قال : كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام : إني قد لزميني دين فادح ؟ فكتب : « أكثر [من] الاستغفار ، ورطب لسانك بقراءة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ ^(٨) .

وروي أنه : « من أخذ قدحا وجعل فيه ماء وقرأ فيه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ خمسا وثلاثين مرة ، ورش ذلك الماء على ثوبه ، لم يزل في سعة حتى يبلى ذلك الثوب » ^(٩) .

وفي رواية : « من قرأها حَبَّ إلى الناس ، فلو طلب من رجل أن يخرج من ماله بعد قراءتها حين يقابله لفعل ، ومن خاف سلطانا فقرأها حين ينظر إلى وجهه غلب له ، ومن قرأها [حين] يريد الخصومة اعطي الظفر ، ومن يشفع بها إلى الله شفّعه وأعطاه سؤله » ^(١٠) .

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « رحم الله من قرأ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ إلى أن قال : « لكلّ شيء عون وعون الضعفاء ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ ، ولكلّ شيء يسر ويسر المعسرين ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ ، ولكلّ شيء عصمة وعصمة المؤمنين ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ ، ولكلّ شيء هدى وهدى الصالحين ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ ^(١١) الخبر .

(١) زاد في مكارم الأخلاق : في الدنيا.

(٢) مكارم الأخلاق : ٣٦٥.

(٣) ثواب الأعمال : ١٢١.

(٤) الحمة : الإبرة التي تضرب بها العقرب والزنبور ونحوهما.

(٥) مكارم الأخلاق : ٣٦٥ « نحوه » ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٢١ / ٢.

(٦) القلّة : إناء من الفخار يشرب منه.

(٧) طب الأئمة عليهم السلام : ١٢٣.

(٨) الكافي ٥ : ٣١٦ / ٥١.

(٩) مكارم الأخلاق : ١٠٢.

(١٠) مصباح الكفعمي : ٥٨٧ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٣٠ / ١٠.

(١١) مصباح الكفعمي : ٥٨٨ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٣١ / ١٠.

وعنه صلوات الله عليه في رواية اخرى : « هي نعم رفيق المرء ، بها يقضى دينه ، ويعظم دينه ، ويظهر فلجه ، ويطول عمره ، ويحسن حاله » (١) الخبر .

وفي رواية : « أبى الله أن يسخط على قارئها ويسخطه » . قيل : فما معنى يسخطه ؟ قال : « لا يسخطه بمنعه حاجته » . إلى أن قال : « وأبى الله أن ينام قارئها حتى يحفّه بألف ملك يحفظونه حتى يصبح ، وبألف ملك حتى يمسي » (٢) الخبر .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « لا تملوا [من] قراءة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ فإن من كانت قراءته في نوافله ، لم يصبه الله عجز بزلزلة أبدا ، ولم يمت بها ولا بصاعقة ولا بأفة من آفات الدنيا » (٣) الخبر .

وعنه عليه السلام : « من قرأ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ في فرائضه نفت عنه الفقر ، وجلبت عليه الرزق ، وتدفع عنه ميتة السوء » (٤) .

ونقل عن خطّ الشهيد رضوان الله عليه : عن الصادق صلوات الله عليه أنه قال : « يقرأ في وجه العدو سورة الفيل » (٥) .

ونقل عن الراوندي رضى الله عنه في (أخبار المعمرين) أنه ذكر بعضهم أن والده كان لا يعيش له ولد . قال : ثم ولدت له على كبره ، ففرح بي ثم مضى ولي سبع سنين ، فكفّلني عمّي ، فدخل بي يوما على النبي ﷺ وقال له : يا رسول الله ، إنّ هذا ابن أخي ، وقد مضى لسبيله ، فعلمني عوذة أعيده بها . فقال : « أين أنت عن ذات القلائل ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وفي رواية : ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾

قال المعمر : وأنا إلى اليوم أتعوذ بها ، ما أصبت بولد ولا مال ، ولا مرضت ، ولا افتقرت . وقد انتهى بي السن ما ترون (٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي ، فلما فرغ . قال : لعن الله العقرب لا تدع مصليا ولا غيره ، ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾

(١) مصباح الكفعمي : ٥٨٨ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٣١ / ١٠ .

(٢) مصباح الكفعمي : ٥٨٨ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٣٢ / ١٠ .

(٣) ثواب الأعمال : ١٢٤ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٦ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٣٧ / ١ .

(٥) بحار الأنوار ٩٢ : ٣٣٨ / ٣ .

(٦) دعوات الراوندي : ٨٥ / ٢١٦ .

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١) .

وعن جبير بن مطعم ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أتحب يا جبير إذا خرجت سفرا أن تكون أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زادا ؟ » فقلت : نعم ، بأبي أنت وأمي قال : « فأقرأ هذه السور الخمس ﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، ﴿ وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وافتتح كل سورة ب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾* واختتم قراءتك ب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ »

قال جبير بن مطعم : وكنت غنيا كثير المال ، فكنت أخرج في سفر فأكون من أبدهم^(٢) هيئة ، وأقلهم زادا ، فما زلت منذ علمنيهن رسول الله ﷺ وقرأت بهن ، أكون من أحسنهم هيئة ، وأكثرهم زادا ، حتى أرجع من سفري^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « من قرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في نافلة أو فريضة ، نصره الله على جميع أعدائه » إلى أن قال « ويتفتح له في الدنيا من أسباب الخير ما لم يتمن ولم يخطر على قلبه »^(٤) .

وفي رواية أخرى : « نصره الله على جميع أعدائه ، وكفاه المهمة »^(٥) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من أوى إلى فراشه فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إحدى عشرة مرة حفظ في داره ، وفي دويرات حوله » .

وعنه عليه السلام قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع [أن يقرأ] في دبر الفريضة ب ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنه من قرأها جمع [الله] له خير الدنيا والآخرة » .
وعنه عليه السلام قال : « من مضت له جمعة ولم يقرأ فيها ب ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم مات مات على دين أبي لهب »^(٦) .

وعن رجل سمع أبا الحسن عليه السلام يقول : « من قدم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بينه وبين جبار منعه الله عنه ، يقرأها بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فإذا فعل ذلك رزقه الله خيره ، ومنعه شره »^(٧) .

وعن مفضل بن عمر ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « يا مفضل ، احتجز من الناس كلهم ب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾* و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أقرأها عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك

(١) الدر المنثور ٨ : ٦٥٨ . (٢) بدّ يبدّ بدذا ، وبذاذة : ساءت حاله ، ورئت هيئته .

(٣) الدر المنثور ٨ : ٦٥٨ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٣٤٢ / ٧ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٧ .

(٥) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام : ٣٤٤ .

(٦) ثواب الأعمال : ١٢٨ .

(٧) ثواب الأعمال : ١٢٩ .

ومن فوقك ومن تحتك ، فإذا دخلت على سلطان جائر فاقرأها حين تنظر إليه ثلاث مرّات ، واعقد بيدك اليسرى ، ثم لا تفارقها حتّى تخرج من عنده » (١) .

وعنه عائشة رضي الله عنها أنه قال : « من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفث عنه الفقر ، واشتدّت أساس دورة ، ونفعت جيرانه » (٢) .

وعن أبي جعفر رضي الله عنه : « من لم يبرأه سورة الحمد و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لم يبرأه شيء ، وكلّ علة تبرأها هاتان السورتان » (٣) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾ نظر الله إليه ألف نظرة بالآية الأولى ، وبالآية الثانية استحباب الله له ألف دعوة ، وبالآية الثالثة أعطاه الله ألف مسألة ، وبالآية الرابعة قضى الله له ألف حاجة ، كلّ حاجة خير من الدنيا والآخرة » (٤) .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « من أراد سفرا فأخذ بعضادتي منزله فقرأ إحدى عشرة مرّة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان الله تعالى له حارسا حتّى يرجع » (٥) .

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله : « من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّة بورك عليه [ومن قرأها مرتين بورك عليه] وعلى أهل بيته ، ومن قرأها ثلاث مرّات بورك عليه وعلى أهل بيته وجيرانه » (٦) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « من أتى منزله وقرأ ﴿الْحَمْدُ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفى الله عنه الفقر ، وكثر خير بيته حتّى يفيض على جيرانه » (٧) .

وعن أبي عبد الله رضي الله عنه قال : « كان سبب [نزول] المعوذتين أنّه وعك رسول الله صلى الله عليه وآله فنزل عليه جبرئيل رضي الله عنه بهاتين السورتين ، فعوّذه بهما » (٨) .

وعن الرضا رضي الله عنه أنّه رأى مصروعا ، فدعا له بقدر فيه ماء ، ثمّ قرأ عليه (الحمد) و (المعوذتين) ونفث في القدر ، ثمّ أمر بصبّ الماء على وجهه ورأسه فأفاق ، وقال [له] : « لا يعود إليك أبدا » (٩) .

الطرفة الأربعون

في أنّ لبعض الآيات خواصا وآثارا دنيوية

قد نطقت الروايات ببيان خواص وآثار لكثير من الآيات.

(١) الكافي ٢ : ٤٥٧ / ٢٠ . (٢) المحاسن : ٦٢٣ / ٧٣ .

(٣) طب الأئمة رضي الله عنهم : ٣٩ . (٤) جامع الأخبار : ١٢٣ / ٢٣٣ .

(٥) الدر المنثور ٨ : ٦٧٥ . (٦) الدر المنثور ٨ : ٦٧٦ .

(٧) الدر المنثور ٨ : ٦٧٧ . (٨) تفسير القمي ٢ : ٤٥٠ .

(٩) طب الأئمة رضي الله عنهم : ١١١ .

عن النبي ﷺ : « من حزنه أمر تعاطاه ، فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾* وهو مخلص لله ويقبل بقلبه [إليه] ، لم ينفك من إحدى اثنتين : إما بلوغ حاجته في الدنيا ، وإما يعد له عند ربه ويدخر لديه ، وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين » (١) .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن النبي ﷺ عن الله عز وجل : « كل [أمر] ذي بال لم يذكر فيه بسم الله فهو أتر » (٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « إنَّ العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يبارك له فيه » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام في رواية : « ولربما ترك بعض شيعة في افتتاح أمره بسم الله الرحمن الرحيم فيمتحنه الله بمكروه لينبئه على شكر الله » (٤) الخبر .

وروي أنه سئل النبي ﷺ : هل يأكل الشيطان مع الانسان ؟ قال : « نعم ، كل مائدة لم يذكر بسم الله عليها ، يأكل الشيطان معهم ، ويرفع الله البركة عنها » (٥) .

وعن أبي بن كعب ، قال : كنت عند النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال : يا نبي الله ، إن لي أخا وبه وجع قال : « وما وجعه ؟ » قال : به لم . قال : « فأتني به » فوضعه بين يديه فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة ، وهاتين الآيتين : ﴿ وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (٦) وآية الكرسي ، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة ، وآية من آل عمران : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٧) وآية من الأعراف : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ﴾ (٨) وآخر سورة المؤمنون : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ (٩) وآية من سورة الجن : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ (١٠) وعشر آيات من أول الصافات ، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (والمعوذتين) فقام الرجل كأنه لم يشك قط (١١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا : « من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة ، وآية الكرسي ، وآيتين بعد آية الكرسي ، وثلاثا من آخر سورة البقرة ، لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يقرآن

(١) التوحيد : ٢٣٢ / ٥ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٥ / ٧ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٥ / ٧ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٢٤٢ .

(٤) التوحيد : ٢٣١ / ٥ .

(٥) جامع الأخبار : ١٢٠ / ٢٢٠ .

(٦) البقرة : ٢ / ١٦٣ . (٧) آل عمران : ٣ / ١٨ .

(٨) الأعراف : ٧ / ٥٤ .

(٩) المؤمنون : ٢٣ / ١١٦ .

(١٠) الجن : ٧٢ / ٣ .

(١١) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٥٩ .

على مجنون إلا آفاق» (١) .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، علّمني شيئاً ينفعني الله به . قال : « اقرأ آية الكرسي ، فإنه ينفعك » (٢) وذريتك ، ويحفظ دارك ، حتى الدويرات حول دارك » (٣) .
وروي أنه « من قرأ عشر آيات من البقرة عند منامه لم ينس القرآن ، أربع من أولها ، وآية الكرسي وآيتان بعدها ، وثلاث من آخرها » (٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « من قرأ آية الكرسي مرّة ، صرف [الله] عنه ألف مكروه من مكروه الدنيا ، وألف مكروه من مكروه الآخرة ، أيسر مكروه الدنيا الفقر ، وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر » (٥) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : من قرأ أربع آيات من أول البقرة ، وآية الكرسي ، وآيتين بعدها ، وثلاث آيات من آخرها ، لم ير في نفسه [وأهله] وماله شيئاً يكرهه ، ولا يقربه شيطان ولا ينسى القرآن » (٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « ليقرأ أحدكم إذا خرج من بيته الآيات من [آخر] آل عمران ، وآية الكرسي ، و﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، وآم الكتاب ، فإن فيها قضاء حوائج الدنيا والآخرة » (٧) .
وعن الرضا عليه السلام يقول : « من قرأ آية الكرسي عند منامه لم يخف الفالج ، ومن قرأ دبر كل صلاة لم يضره ذو حمة » (٨) أي ذو سم .

وفي حديث ، قال النبي ﷺ : « يا عليّ ، من كان في بطنه ماء أصفر فكتب آية الكرسي ، وشرب ذلك الماء ، يبرأ بإذن الله » (٩) .

وعن الصادق عليه السلام في رواية : « إذا عاينت الذي تخافه ، فاقرأ آية الكرسي » (١٠) .
وعنه عليه السلام قال : « في سمك (١١) البيت إذا رفع فوق ثمانية أذرع صار مسكوناً ، فإذا زاد على ثمانية أذرع فليكتب على رأس الثمانية أذرع آية الكرسي » (١٢) .
وعن أبي جعفر عليه السلام : « أنّ العفاريت من أولاد الأبالسة تتخلّل وتدخل بين محامل المؤمنين ، فتتفرّق ،

(١) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦٠ .

(٢) في الإتيان : يحفظك . (٣) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦٠ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦١ .

(٥) أمالي الصدوق : ١٥٨ / ١٥٥ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ١٠٨ / ١٠٤ .

(٧) الخصال : ٦٢٣ / ١٠ . (٨) ثواب الأعمال : ١٠٥ .

(٩) دعوات الراوندي : ١٦٠ / ٤٤٣ .

(١٠) المحاسن : ٦٠٩ / ١١ .

(١١) السمك : السقف .

(١٢) المحاسن : ٦٠٩ / ١١ .

عليهم إبلهم ، فتعاهدوا ذلك بآية الكرسي » (١) .

ونقل من خطّ الشهيد رضوان الله عليه رواية عن الحسن عليه السلام : « أنا ضامن لمن قرأ عشرين آية أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم ، ومن كلّ شيطان مارد ، ومن كلّ لصّ عاد ، ومن كلّ سبع ضار ، وهي : آية الكرسي ، وثلاث آيات من الأعراف : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ إلى ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) وعشر من أول الصّافات ، وثلاث من الرحمن : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ إلى ﴿تَنْتَصِرَانِ﴾ (٣) وثلاث من آخر الحشر : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي﴾ (٤) إلى آخرها » (٥) .

وفي رواية : « و﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) .

وأخرج ابن السني عن فاطمة صلوات الله عليها : « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما دنا ولادها أمر أم سلمة وزينب بنت جحش أن تأتيها فتقرأ عندها آية الكرسي و﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ (٧) الآية ، ويعوذها بالمعوذتين » (٨) .

وعن أحدهما عليه السلام قال : « أيّما دابة استصعب على صاحبها من لجام ونفار فليقرأ في اذنها أو عليها : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٩) .

وروي أنّ زين العابدين صلوات الله عليه مرّ برجل وهو قاعد على باب رجل فقال له : « ما يقعدك على باب هذا الرجل المتترف الجبار ؟ » فقال : البلاء . فقال : « قم ، فأرشدك إلى باب خير من بابه ، وإلى ربّ خير لك منه » فأخذ بيده حتّى انتهى إلى المسجد ، مسجد النبي صلى الله عليه وآله [ثم] قال : « استقبل القبلة وصلّ ركعتين ، ثم ارفع يديك إلى الله عزّ وجلّ فأثن عليه ، وصلّ على رسوله صلى الله عليه وآله ثم ادع بآخر الحشر ، وستّ آيات من أول الحديد ، وبالايتين في آل عمران ، ثم سل الله فإنّك لا تسأل [شيئاً] إلّا أعطاك » (١٠) .

أقول : الظاهر أنّ المراد بالايتين في آل عمران ، آية ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ (١١) وآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ (١٢)

(١) المحاسن : ٣٨٠ / ١٥٩ . (٢) الأعراف : ٥٤ / ٧ - ٥٦ .

(٣) الرحمن : ٥٥ / ٣٣ - ٣٥ . (٤) الحشر : ٥٩ / ٢٢ .

(٥) بحار الأنوار ٩٢ : ٢٧١ / ٢١ .

(٦) دعوات الراوندي : ١٣٢ / ٣٢٨ ، بحار الأنوار ٩٢ : ٢٧١ / ٢٢ ، والآيات من سورة الصافات : ٣٧ /

١٨٠ - ١٨٢ .

(٧) الأعراف : ٥٤ / ٧ .

(٨) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٦١ .

(٩) الكافي ٦ : ٥٣٩ / ١٤ ، والآية من سورة آل عمران : ٨٣ / ٣ .

(١٠) دعوات الراوندي : ٥٥ / ١٣٨ . (١١) آل عمران : ٣ / ١٨ .

(١٢) آل عمران : ٣ / ٢٦ .

وعن النبي ﷺ : « يا علي ، أمان لأمتي من السرقة ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(١) إلى آخرها و﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾^(٢) إلى آخرها »^(٣) .

وفي رواية : « من قرأ هاتين الآيتين حين يأخذ مضجعه ، لم يزل في حفظ الله من كل شيطان مرید وجبار عنيد إلى أن يصبح »^(٤) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « إذا دخلت مدخلا تخافه ، فاقرا هذه الآية : ﴿رَبِّ ادْخُلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾^(٥) .

وعن الرضا صلوات الله عليه قال : دخل أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي على أبي عبد الله عليه السلام فقال : « أنت الذي تفسر القرآن ؟ » قال : نعم .

قال : أخبرني عن قول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٦) ما ذلك القرآن الذي كان إذا قرأه رسول الله ﷺ حجب عنهم ؟ قال : لا أدري .

قال : « فكيف قلت إنك تفسر القرآن ! » قال : يابن رسول الله ، إن رأيت أن تنعم علي ، وتعلمنيهن ؟

قال عليه السلام : « آية في الكهف ، وآية في النحل ، وآية في الجاثية ، وهي : ﴿فَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَفَلَهُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَمْ فَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٧) وفي النحل : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾^(٨) وفي الكهف : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾^(٩) .

قال الكسروي : فعلمتها رجلا من أهل همدان وكانت الدليل أسرته ، فمكث فيهم عشر سنين ، ثم ذكر الثلاث آيات . قال : فجعلت أمر على محالهم وعلى مرادهم فلا يروني ، ولا يقولون شيئا حتى خرجت إلى أرض الإسلام .

قال أبو المنذر : وعلمتها قوما خرجوا في سفينة من الكوفة إلى بغداد ، وخرج معهم سبع سفن

(١) الإسراء : ١٧ / ١١٠ .

(٢) التوبة : ٩ / ١٢٨ .

(٣) دعوات الراوندي : ١٦٠ / ٤٤٣ .

(٤) عدة الداعي : ٢٩٣ / ٣ .

(٥) المحاسن : ٣٦٧ / ١١٨ ، والآية من سورة الإسراء : ١٧ / ٨٠ .

(٦) الإسراء : ١٧ / ٤٥ . (٧) الجاثية : ٤٥ / ٢٣ .

(٨) النحل : ١٦ / ١٠٨ .

(٩) الكهف : ١٨ / ٥٧ .

فقطع على ستّ وسلمت السفينة التي قرئ فيها هذه الآيات ^(١) .

وعن الحسين بن عليّ عليه السلام عن النبي ﷺ - في حديث - : « أمان لامتي من الغرق [إذا ركبوا] أن يقرءوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٢) و﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية » ^(٣) .

وعن الليث ، قال : بلغني أنّ هؤلاء الآيات شفاء من السحر ، تقرأ على إناء فيه ماء ثم يصبّ على رأس المسحور الآية التي في سورة يونس : ﴿فَلَمَّا أُلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُظِلُّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ* وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿فَوْقَ الْحَقِّ وَيُطَلِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٥) إلى [آخر] أربع آيات. وقوله : ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاجِرًا وَلَا يَفْلَحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ^(٦) .

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « ما لزمني ^(٧) أمر إلا تمثّل لي جبرئيل ، فقال : يا محمد ، قل : توكلت على الحيّ الذي لا يموت ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ ^(٨) .

وعن ابن عباس رضی الله عنه : هذه الآية أمان من السرقة : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا* وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ ^(٩) .

وعن زرّ بن حبیش [قال] : من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقومها من الليل قامها : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ^(١٠) .

قال عبدة : فجزّناه فوجدناه كذلك ^(١١) .

وعن سعد بن أبي وقاص : « دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحَانَكَ

(١) عدة الداعي : ٢٩٥ / ٩ . (٢) هود : ١١ / ٤١ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦١ ، والآية من سورة الأنعام : ٦ / ٩١ .

(٤) يونس : ١٠ / ٨١ و٨٢ .

(٥) الأعراف : ٧ / ١١٨ .

(٦) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦٢ ، والآية من سورة طه : ٢٠ / ٦٩ .

(٧) في الإتيان : كربني .

(٨) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦٢ ، والآية من سورة الاسراء : ١٧ / ١١١ .

(٩) الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦٢ ، والآيتان من سورة الإسراء : ١٧ / ١١٠ و١١١ .

(١٠) الكهف : ١٨ / ١١٠ .

(١١) سنن الدارمي ٢ : ٤٥٤ ، الإتيان في علوم القرآن ٤ : ١٦٢ .

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»^(١) لم يدع بها رجل مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له «^(٢) .
وفي رواية عن النبي ﷺ : « إِنِّي لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرّج عنه ، كلمة أحيي
يونس : ﴿فَادْأَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) .
وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنّه قرأ في اذن مبتلى فأفاق . فقال رسول الله ﷺ : « ما
قرأت في اذنه ؟ » قال : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فتعالى الله المليك
الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ* وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ^(٤) . فقال : « لو أنّ رجلاً
مؤمناً قرأ بها على جبل لزال »^(٥) .

عن الصادق عليه السلام : « من دخل على سلطان يخافه ، فقرأ عند ما يقابله : (كهيعص)
ويضمّ يده اليمنى ، كلّما قرأ حرفاً ضمّ أصبعاً ، ثمّ يقرأ (حمعسق) ويضمّ أصابع يده اليسرى كذلك
، ثمّ يقرأ : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾^(٦) ويفتحها في وجهه كفي
شرّه »^(٧) .

وعن النبي ﷺ : « من اشتكى ضرره فليضع إصبعه عليه وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرّات :
﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْذَعٌ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾^(٨)
و﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(٩) فَإِنَّهُ يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ
«^(١٠) .

وعن ابن عباس موقوفاً في المرأة تعسر عليها ولادتها ، قال : « يكتب في قرطاس [ثمّ تسقى
: بسم الله الذي لا إله إلا هو الحليم الكريم ، سبحان الله وتعالى ربُّ العرش العظيم ، الحمد لله
ربِّ العالمين ﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا^(١١) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ
لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ^(١٢)
وعنه رضى الله عنه : إذا وجدت في نفسك شيئاً - يعني الوسوسة - فقل : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ

(١) الأنبياء : ٢١ / ٨٧ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٦٣ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٦٣ ، والآية من سورة الأنبياء : ٢١ / ٨٧ .

(٤) المؤمنون : ٢٣ / ١١٥ - ١١٨ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٦٣ .

(٦) طه : ٢٠ / ١١١ . (٧) عدة الداعي : ٢٩٤ / ٧ .

(٨) الأنعام : ٦ / ٩٨ . (٩) الملك : ٦٧ / ٢٣ .

(١٠) مكارم الأخلاق : ٦ - ٤ « نحوه » .

(١١) النازعات : ٧٩ / ٤٦ .

(١٢) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٦٤ ، والآية من سورة الاحقاف : ٤٦ / ٣٥ .

وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾ .

وعن أنس بن مالك : ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال ولا ولد ، فيقول : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٢) فيرى فيه آفة دون الموت^(٣) .

ولا يذهب عليك أنّ تأثير القرآن العظيم وسوره وآياته في الآثار والخواصّ المروية ، ليس على نحو العليّة التامة بحيث لا يمكن تخلفها عنها ، بل هو على نحو الاقتضاء الذي يعتبر فيه وجود الشرائط وعدم الموانع ، كالدعاء الذي اتفقت الآيات والروايات بل العقل على أنّه مؤثر في قضاء الحوائج وحصول المطلوب ، وكالأدوية المجربة المسطورة في كتب الطبّ ، وكغالب مؤثرات العالم ، ولا شبهة في أنّ من شرائطه الإيمان بالله وبرسوله ، واليقين بأنّ القرآن نازل من قبل الله ، وأنّه كلامه . ومن الموانع عن التأثير القضاء الحتميّ وعصيان العبد وغير ذلك ، فلا ينبغي للمؤمن أن يضعف اعتقاده بتلك التأثيرات عند مشاهدته التخلف ، والله العاصم .

خاتمة

[في مصادر هذا التفسير]

كلّ ما أودعته من الروايات في كتابي هذا طرائفه وتفسيره فمأخوذ من الكتب التي في غاية الاشتهار ، كالشمس في رائعة^(٤) النهار .

[١] منها : كتاب (جوامع الجامع) في التفسير ، للشيخ الأجل البارع المؤمن أمين الإسلام ، الفضل بن الحسن الطبرسيّ .

[٢] ومنها : كتاب (بحار الأنوار) للعلامة المتبحر المولى محمد المدعو بالباقر المجلسيّ .

[٣] ومنها : (حواشي على كتاب أسرار التنزيل)^(٥) للشيخ الجليل الكبير ، والفاضل القليل النظير ، المؤيد المسدد ، محمد بن حسين بن عبد الصمد ، المدعوّ ببهاء الدين .

[٤] ومنها : كتاب (الصافي) للمحدث المتقن ، المولى محمد ، المدعوّ بالمحسن ، المعروف بالفيز ، والمحدث الكاشاني قدس الله أسرارهم وأدام في العالمين آثارهم .

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٦٤ ، والآية من سورة الحديد : ٥٧ / ٣ .

(٢) الكهف : ١٨ / ٣٩ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٤ : ١٦٢ .

(٤) في النسخة : رابعة .

(٥) يريد أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) وسيأتي لا حقا ضمن مصادر المؤلف .

- [٥] ومنها : كتاب (مفاتيح الغيب) للبحر القمقام المعروف بين العامة بالإمام محمد الرازي ، الملقب بفخر الدين .
- [٦] ومنها : كتاب (الإتيقان) للقاضي جلال الدين السيوطي .
- [٧] ومنها : كتاب (التفسير) للعلامة أبي السعود .
- [٨] ومنها : كتاب (أسرار التنزيل) للقاضي ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن عليّ الفارسيّ البضاوي .
- [٩] ومنها : كتاب (روح البيان) للشيخ إسماعيل المدعوّ بحقي أفندي .
- [١٠] ومنها : كتاب (تفصيل وسائل الشيعة) للشيخ الأجد ، والمحدث المعتمد ، محمد بن الحسن بن عليّ بن محمد ، الحرّ العامليّ رضوان الله عليه .

في تفسير الاستعاذة

فها أنا أشرع في المقصود ، مستمداً من الله الودود ، مبتدئاً بالاستعاذة وتفسيرها ، امثالاً
لأمر الله الأكيد عند الشروع في كلّ أمر ، سيّما القرآن المجيد.
فأقول وأنا العبد الأثيم محمد بن المحقق النحرير عبد الرحيم التهاندي عاملهما الله بلطفه
العميم ، وإحسانه القديم :

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « (أعوذ بالله) أمتنع بالله (السميع) لمقال الأخيار
والأشرار ، ولكلّ المسموعات من الإعلان والإسرار (العليم) بأفعال الأبرار والفجّار ، وبكلّ شيء
مما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون (من الشيطان الرجيم) البعيد من كلّ
خير المرجوم باللّعن والمطروود من بقاع الخير » ^(١)

أقول : الظاهر أنّ تفسير كلمة (أعوذ) بأمتنع تفسير باللائم ، حيث إنّ صيغة أعوذ مشتقة
من العوذ ، وله في اللغة معنيان : الالتجاء ، والالتصاق ، وعليه يكون المعنى : ألتجىء بالله ، وألوذ
بخصنه وعصمته ، أو ألتصق بفضل الله ورحمته ، فيحصل بهذا الالتجاء والالتصاق التحفظ والامتناع
من وساوس الشيطان المانع من كلّ خير ، المطروود من بقاعه ومحالّه ؛ من الجنّة ، ومقام القرب ،
وساحة الفضل والرحمة. وذكر اسم الجلالة هنا لاقتضاء المقام إظهار عظمة المستعاذ به وقدرته
وسطوته ، وتوصيفه باسم السميع العليم بلحاظ أنّ للمستعيز إلتجاء قوليّ وقلبيّ ، إذ حقيقة
الاستعاذة والالتجاء لا تحصل للعبد إلّا بعد أن يرى العدو - وهو الشيطان - قويا قادرا على إضراره
، ونفسه في غاية العجز عن دفع شرّه ، ويعلم أنّ الله قادر على دفع كلّ شرّ ، مانع من كلّ ضرّ ،
مجير لمن استجار به ، مأوى لمن التجأ اليه ، مجيب لمن دعاه ، رحيم بمن ناداه ، كريم لمن قصده وسأله
، جواد لمن رجاه وأملّه ، عند ذلك

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ١٦ / ٣.

يُحصل له اليقين بأنّه لا حيلة له في التخلّص من كيد الشّيطان وحيله ، والنّجاة من أيدي ذلك العدوّ وحبائله ، مع شدّة بطشه وكثرة خيله ورجله ، إلّا التّحصّن بحصن الله الحصين والاستجارة بركنه الرّكين ، فعند حصول الالتجاء بجنابه ، يتضرّع إليه بلسانه ، ويقول : يا إلهي السّميع لمقالي ، العليم بضريّ وعجزّي واستئصالي وضعف قوّتي وسوء حالي ، احفظني وامنعني من بأس الشّيطان وضربه ، واحرسني من كيده وشرّه ، فعند ذلك تشمله العناية فيحصل له الامتناع من وساوسه ، والسّلامة من دسائسه .

ثمّ اعلم أنّ للشّيطان في القرآن أسماء مشؤومة ، وألقابا مذمومة ، وإتّما وصف هنا بالترّجيم لكونه أجمع لمساوئه ، فإنّه جامع لجميع ما يقع عليه من العقوبات ، لأنّ المطروديّة من مقام الرّحمة من أشدّها ، ومستتبع لجميع الدّركات .

وأما عداوته للإنسان ، فمع أنّها معلومة بدلالة كثير من الآيات ، والمتواتر من الروايات ، يظهر تفصيلها مما روي عن ابن عبّاس ، قال : خرج النّبي ﷺ ذات يوم من المسجد ، فإذا هو بإبليس ، فقال له النّبيّ ﷺ : « ما الذي جاء بك إلى باب مسجدي ؟ » قال : يا محمّد ، جاء بي الله . قال : « فلم ذا ؟ » قال : لتسألني عمّا شئت .

فقال ابن عبّاس رضی الله عنه : [فكان] أوّل شيء سأله الصلاة . فقال [له] : « يا ملعون لم تمنع أمّتي عن الصلاة بالجماعة ؟ » قال : يا محمّد ، إذا خرجت أمتك إلى الصلوات تأخذني الحمى الحارّة ، فلا تندفع حتّى يتفرّقوا .

قال ﷺ : « لم تمنع أمّتي عن الدعاء ؟ » قال : عند دعائهم يأخذني الصّمم والعمى ، فلا يندفع حتّى يتفرّقوا .

قال ﷺ : « لم تمنع أمّتي عن القرآن ؟ » قال عند قراءتهم أذوب كالزّصاص .

قال ﷺ : « لم تمنع أمّتي عن الجهاد » قال : إذا خرجوا إلى الجهاد يوضع على قدمي قيد حتّى يرجعوا ، وإذا خرجوا إلى الحجّ اسلسل وأغلل حتّى يرجعوا ، وإذا همّوا بالصدّقة توضع على رأسي المناشير فتتشربني كما ينشر الخشب ^(١) .

أقول : الظاهر أنّ الحمى والصّمم والعمى ، والدّوب ، والقيد ، والتّغليل ، والتّششير ، جميعها كُنَايَات

(١) تفسير روح البيان ١ : ٥ .

عن حالات سيئة وآلام شديدة تعرض للشيطان عند اشتغال العبد بهذه العبادات لكمال اشتغاله عنها.

ونقل أنه من استعاذ بالله على وجه الحقيقة وعن صميم القلب ، جعل الله بينه وبين الشيطان ثلاثمائة حجاب ، كل حجاب كما بين السماء والأرض ^(١) .

وقيل : إنَّ التَّعوذ بالله رجوع من الخلق إلى الخالق ، ومن الحاجة التامة التي تكون للنفس إلى الغنى التام بالحق ، ومن العجز إلى القدرة في كل الخيرات ، واكتساب البركات ، ودفع جميع الشرور والآفات ، ففيه سرُّ قوله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

ومن الواضح أنَّ لكثرة فوائد الاستعاذة كثرت الروايات في الترغيب إليها عند الشروع في كل أمر من الامور الدينية والأعمال الخيرية التي من أهمها تلاوة القرآن العظيم والكتاب الكريم.

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ^(٣) فإنَّ التأدب بأدب الله مؤدَّ إلى الفلاح الدائم والسعادة اللازمة ، ثمَّ إنَّه بعد ما التجأ العبد إلى الله تعالى بالحنان واللسان ، وتمكَّن في حصن الرحمن ، وامتنع من مكائد الشيطان ، وحصل له الأمان ، ينبغي أن يستمدَّ من ربِّه ، ويقتبس نورا لقلبه ، حتَّى يقوى على العمل ، ويفوز بما رجاه وأمل من غير ملل ولا فتور ولا كسل ، بل بحضور القلب والانبساط ، وكمال الشوق والنشاط ، وطمأنينة النفس وانسراح الصدر ، وليس ذلك إلَّا بذكر الله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(٤) فإنَّ بالذكر بعد الاستعاذة تحصل نورانية معنوية للروح ، كما أنَّ به تحصل طهارة ظاهرية جسمانية للحيوان المدكِّي ، وترتَّب الذكر على الاستعاذة من جهة تأخُّر رتبة التحلية على التَّحلية ، والإقبال على الله على الانقطاع عمَّا سواه ، إذ إنَّه ليس للمؤمن حالَّ يكون فيه أقرب إلى الله من حال يكون ذاكرة.

(١) تفسير روح البيان ١ : ٥ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٥ ، والآية من سورة الذاريات : ٥١ / ٥٠ .

(٣) النحل : ١٦ / ٩٨ .

(٤) الرعد : ١٣ / ٢٨ .

في تفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام « أنه مكتوب في التوراة التي لم تغير : أن موسى سأل ربه ، فقال : يا رب أقرب أنت مني فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ فأوحى الله عز وجل [إليه] : يا موسى أنا جليس من ذكرني ^(١) .

ولما كان الكفار والمشركون يبدؤون بأسماء آلهتهم ، فيقولون : باسم اللات والعزى ، فعلم الله الموحدين أن يقولوا عند شروعهم في أمر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^{*} قيل : إن الله تعالى افتتح كتابه الكريم بأول ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ ، وأول ما نزل على آدم عليه السلام ^(٢) .

وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام : « أول كل كتاب نزل من السماء ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ^(٣) .

وعن الرضا عليه السلام : في تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾^{*} قال : « يعني أسم [على] نفسي بسمة من سمات الله ، وهي العبادة » قيل له : ما السمة ؟ قال : « العلامة » ^(٤) .
تحقيق بالتفكر فيه حقيق

أقول : توضيح ذلك أن حقيقة العبودية وهي الفناء والعجز والحاجة والتبعية والانقياد ، وهي علامة الربوبية التي هي كمال الوجود والوجوب والغنى والجود والسلطنة والمولوية ، فإذا حصل في العبد نور العبودية ، ظهرت فيه آية الربوبية ، فمن وسم نفسه بسمة العبودية - وهي حالة العجز والحاجة والرجاء والفقر والعدم والفناء - فقد وسم نفسه بسمة الله ، حيث إن المخلوق ليس من جهة نفسه وذاته إلا العدم والقابلية لقبول فيض الحقّ وفعله وعطائه وإنعامه ، ويعبر عن هذه الحيثية بالذات والماهية ، وما سواها ليس إلا فيض الوجود وهي آية الحقّ وتجليه.

وكما أن جهة ذاته جهة الأنانية ، ومناط الاحتجاب ، ومبدأ كل شرّ ، يكون فيض الوجود - وهو جهة الربوبية - مبدأ كل خير ، فكلما اشتدت فيه هذه الجهة كملت الذات وكثرت منها الخيرات ، لأن كل خير من آثار الوجود الذي هو بإفاضة الله وجوده ، فعلى العبد أن يسأل حين إرادة القيام بوظائف

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٢٧ / ٢٢ « نحوه » ، الكافي ٢ : ٣٦٠ / ٤ عن الباقر عليه السلام .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٦ .

(٣) الكافي ٣ : ٣١٣ / ٣ .

(٤) معاني الأخبار ٣ : ١ / ١ .

العبودية من التلاوة وسائر الطاعات ، كمال وجوده وقوة نفسه ، بقوله بقصد الإنشاء والدعاء : «
أسم نفسي بسم الله » أي اللهم أعلم نفسي بعلامتك ، وأكمل فيض الوجود في مجودك
وقياضيتك.

وهذا السؤال والطلب ملازم للاستعانة ومساو لها ، كما أنّ إفاضة الفيض عليه إجابة منه
وإعانة ، فتكون الاستعانة باسم الله مدلولاً التزامياً لقوله : أسم نفسي بسم الله.

ولعلّه لكون مفهوم الاستعانة أقرب إلى أفهام العامة ، فسّر ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في بعض الروايات
بقوله : أستعين بالله ^(١) ، ثمّ يمكن على هذا التفسير أن يكون وجه تعليق الاستعانة بالاسم مع أنّها
في الواقع بالمسمّى ، وهو ذاته سبحانه وتعالى ، أنّ فيه نوع تأدّب في التعبير ، أو الإشارة إلى أنّ
أسماء الله تعالى من جهة حكايتها عن الذات المقدّسة واتّحادها معها اتّحاد الكاشف مع المكشوف ،
لها قوّة نورانيّة وكمال وجوديّ به تكون مؤثّرات في الوجود ، ويكفي العبد أن يستعين بها ويطلب
القوّة على العمل بذكرها.

وعن (التوحيد) : عن الباقر عليه السلام في تفسير لفظ الجلالة ، قال : « الله معناه المعبود الذي
أله الخلق عن درك ماهيّته والإحاطة بكيفيّته ، ويقول العرب : أله الرجل ، إذا تحيّر في الشيء فلم
يحط به علماً. ووله : إذا فزع إلى شيء ممّا يحذره ويخافه » ^(٢) .

وروي أنّ رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ما معناه ؟ فقال : « إنّ قولك : الله أعظم [اسم] من أسماء الله عزّ وجلّ ، وهو
الاسم الذي لا ينبغي أن يسمّى به غير الله ، ولم يتسم به مخلوق » .
فقال الرجل : بما يفسر قوله : الله ؟ قال عليه السلام : « هو الذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد
كلّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من [هو] دونه » ^(٣) الخبر.

في أنّ اسم الجلالة علم لذاته تعالى أقول : وإن كان الظاهر من الروايتين أنّ معنى اللفظ
المبارك معنى اشتقاقياً إلا أنّ الحقّ أنّه علم للذات المقدّسة ، لعدم استعماله وصفاً ، بل هو في جميع
الاستعمالات يكون موصوفاً ، ولعدم صراحة دلالة كلمة الإخلاص - وهي : لا إله إلا الله - على
التوحيد إلا إذا كان لفظ الجلالة علماً ، ولبعد أن يكون للذات المقدّسة في سائر اللغات علم
مخصوص دون اللغة العربيّة التي هي أوسع من سائر اللغات وأكملها وأشرفها.

وعلى هذا فلا بدّ من حمل الروايات على بيان وجه مناسبة المعاني الاشتقاقية لوضعه العلميّ ،

وإنّ

(١) راجع : التوحيد ٢٣٠ / ٥ .

(٢) التوحيد : ٨٩ / ٢ .

(٣) التوحيد : ٢٣١ / ٥ .

الواضع كان هو الله تعالى أو غيره لاحظ حين الوضع العلمي هذه المناسبات ، وإنَّ كلَّ واحد من المعاني الاشتقاقية الكلية حقيقتها ومصادقها منحصر في الذات المقدسة ، حيث إنَّ المعبودية المطلقة والمفرعية لجميع الموجودات حتَّى الجمادات لا يكون إلَّا له تبارك وتعالى ، ولا يتصوّر لمشارك أن يدعي هذه المرتبة من المعبودية والالوهية لما اتَّخذ معبودا وإلها.

والحاصل : إنَّ العبادة عبارة عن الخضوع التام ، والقول بأنَّ الصنم أو الكواكب أو غيرها معبود لجميع الموجودات حتَّى الجمادات غير متصور من ذي مسكة وشعور ، وأمّا الواجب تعالى فجميع ما سواه خاضع له ، فازع إليه ، ضارع لديه ، سائل منه.

وتوضيحه أنّه قد حقّق في محله أنّ الوجود ملازم للشعور ، وكلّ ماله حظّ من الوجود ، له بمقدار حظّه حظّ من الشعور ، وكلّ ما كان حظّه من الوجود أكثر كان حظّه من الشعور أوفر ، ويشهد لذلك ما يشاهد من أثر الإدراك في كثير من النباتات فضلا عن الحيوانات.

وأقلّ مراتب الشعور أنّ الموجود يدرك أنّه معلول للعلّة ، وموجود بالغير ، وإدراك هذه الجهة مقتضى لنهاية الخضوع لعلّته وموجده ، والآيات والروايات توافقتنا على أنّ للجمادات تسبيحا وخوفا وتضرّعا إلى الله ، بل لها معرفة وطاعة للنبي والوليّ.

فعلى هذا ، فجميع الموجودات متوجهون إلى خالقهم ، خاضعون له ، سائلون فيضه ودوامه ، خائفون من انقطاعه ، فهو المعبود المطلق ، والمفرع لجميع الموجودات ، والمألوه لجميع المخلوقات عند الشدائد والحاجات ، وهو المحجوب عن إدراك الممكنات ، المستور عن العقول بحقيقة الذات وكنه الصفات.

ويؤيد ما ذكرنا من حمل الروايات أنّه لولاه يلزم استعمال المشترك اللفظي في أكثر من معنى ، أو إرادة بيان أنّ لمستعمل لفظ الجلالة أن يريد منه كلّ واحد من المعاني المختلفة ، والأوّل محال ، والثاني بعيد غايته.

وفي رواية (التوحيد) المتقدّم صدرها في تفسير ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال عايش : « الذي يرحم ببسط الرزق علينا ، الرحيم بنا في أدياننا ودياننا وآخرتنا ، خفّف علينا الدين ، وجعله سهلا خفيفا ، وهو يرحمنا بتمييزنا عن أعدائه » (١) .

وفي رواية اخرى : « الرحمن بجميع خلقه ، والرحيم بالمؤمنين خاصة » (٢) .

أقول : لا ريب أنّ هذين الاسمين المباركين بحسب اللغة صفتان مشبّهتان من الرحم : وهو

التعطف

(١) التوحيد : ٢٣٢ / ٥ ، وفيه : بتمييزنا من أعدائه.

(٢) الكافي ١ : ٨٩ / ١ .

إلى الغير بالإحسان إليه ، ودفع المضار عنه ، الناشيء عن مبدأ في الذات ، كان هو الرقة أو الحكمة ، والظاهر أنه لا وجه لتخصيصه برقة القلب حتى يكون معناه الحقيقي مختصاً بالخلق ، ويكون إطلاقهما على الله مجازاً.

ولعلّه لدلالة (الرحمن) بهيئته على المبالغة والشدة دلّ على الرحمة العامة الشاملة لجميع الموجودات من الخلق والرزق وسائر الإنعامات ، فجميع الموجودات في جميع العوالم من الملك والملوك والبرزخ والآخرة ، وجودها وبقاؤها بشمول الرحمة الرحمانية.

وأما (الرحيم) فلعلّه لعدم دلالة على المبالغة والشدة ، اختصّ بالرحمة الخاصة بالمؤمنين من الهداية إلى الحق والتوفيق للإيمان والأعمال الصالحة وحسن العاقبة والجنة والنعم الآخروية الدائمة ، ولتقدّم الرحمة العامة على الرحمة الخاصة قدّم اسم الرحمن على الرحيم ، وإن اقتضت إفادة الشدة تأخره عنه لتأخر مرتبة الشدة عن الضعف.

في نكتة الاختصار في البسملة بذكر الأسماء الثلاثة

ولعلّ وجه الاختصار في المقام على ذكر الأسماء الثلاثة المباركات جامعيتها لجميع الخيرات والبركات ، حيث إنّ اسم الجلالة مبدأ فيض الخلق والإيجاد ، واسم الرحمن مبدأ فيض الترتيبية والنعم الدنيوية ، واسم الرحيم مبدأ فيض الهداية والتوفيق وسائر التفضلات الآخروية على المؤمنين.

قيل : إنّ الله تعالى ثلاثة آلاف اسم ، ألف منها عرفها الملائكة لا غير ، وألف منها عرفها الأنبياء لا غير ، وثلاثمائة في التوراة ، وثلاثمائة في الإنجيل ، وثلاثمائة في الزبور ، وتسعة وتسعون في القرآن ، وواحد استأثر الله به نفسه ، ومعنى هذه الثلاثة آلاف منطوية في هذه الأسماء الثلاثة ، فمن علمها وقالها فكأنما ذكر الله تعالى بكلّ أسمائه ^(١) .

وروي عن النبي ﷺ في فضيلة هذه الآية المباركة ، أنّه قال : « ليلة اسري بي إلى السماء عرض عليّ جميع الجنان ، فرأيت فيها أربعة أنهار : نهر من ماء ، ونهر من لبن ، ونهر من خمر ، ونهر من عسل . فقلت : يا جبرئيل ، من أين تجيء هذه الأنهار وإلى أين تذهب ؟ قال : تذهب إلى حوض الكوثر ، ولا أدري من أين تجيء ، فادع الله تعالى ليعلمك ، أو يريك . فدعا ربّه ، فجاء ملك فسلم على النبي ﷺ ثمّ قال : يا محمد ، غمض عينيك . قال : فغمضت عيني ، ثمّ قال : افتح عينيك ، ففتحت فإذا أنا عند

(١) تفسير روح البيان ١ : ٩ .

شجرة ورأيت قبة من درة بيضاء ، ولها باب من ذهب أحمر وقفل ، لو أنّ جميع ما في الدنيا من الجن والإنس وضعوا على تلك القبة لكانوا مثل طائر جالس على جبل ، فرأيت هذه الأنهار الأربعة تخرج من تحت القبة.

فلما أردت أن أرجع قال لي ذلك الملك : لم لا تدخل القبة ؟ قلت : كيف أدخل وعلى بابها قفل لا مفتاح له عندي. قال : مفتاحه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فلما دنوت من القفل وقلت : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ انفتح القفل ، فدخلت في القبة ، فرأيت هذه الأنهار تجري من أربعة أركان القبة ، ورأيت مكتوبا على أربعة أركان القبة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ورأيت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله ، ورأيت نهر اللبن يخرج من هاء الله ، ونهر الخمر يخرج من ميم الرحمن ، ونهر العسل يخرج من ميم الرحمن ، فعلمت أنّ أصل هذه الأنهار الأربعة من البسملة. فقال الله عزّ وجلّ : يا محمد ، من ذكرني بهذه الأسماء من امتك بقلب خالص من رياء ، وقال ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ سقيته من هذه الأنهار « (١) .

في بيان فضيلة البسملة

وروي عن النبي ﷺ عن جبرئيل ، عن ميكائيل ، عن إسرئيل عليه السلام : قال الله تعالى : « يا إسرئيل ، بعزّي وجلالي ، وجودي وكرمي ، من قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة ، فاشهدوا عليّ أنّي قد غفرت له ، وقبلت منه الحسنات ، وتجاوزت له عن السيئات ، ولا احرق لسانه بالنار ، واجيره من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب يوم القيامة ، والفرع الأكبر « (٢) .

نقل عن عارف أنّه كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأوصى أن يجعل في كفه ، فقبل له في ذلك ، فقال : أقول يوم القيامة : إلهي ، أنزلت كتابا وجعلت عنوانه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فعاملني بعنوان كتابك « (٣) .

ففي البسملة مثار صفات الحبّ والحياء والرّجاء والخوف التي هي اصول التّقوى والعبودية ، ولا ينفكّ العابد من أحد هذه الأحوال.

وقيل : إنّ البسملة تسعة عشر حرفا ، والزبانية تسعة عشر ، فالمرجوّ من الله أن يدفع بليّتها بهذه الحروف التسعة عشر « (٤) .

روي أنّه لا يردّ دعاء أوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الخبر « (٥) .

(١) و (٢) . تفسير روح البيان ١ : ٩ .

(٣) تفسير الرازي ١ : ١٧٢ .

(٤) تفسير الرازي ١ : ١٧٢ « نحوه » .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٩ .

في تفسير فاتحة الكتاب

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾

ثم شرع في الكتاب بقوله : ﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الجميل - بجنسه أو بجميع أفرادهِ ، وتام مراتبه وأنواعه من القولي والقلبي ، والحالي والأفعالي - خاصّ وملك ﴿لِلَّهِ﴾ لا شريك له فيه ، لاختصاصه بحسن الفعل من جميع الجهات ، ليس فيها شائبة القبح والنقص ، فالقولي منه : هو إظهاره باللسان ، والقلبي : هو استشعار القلب به ، والحالي : هو الرضا بجميع ما يصدر منه تعالى ، والأفعالي : هو القيام بطاعته وعبادته عن محبة وشوق ونشاط .

وأيضاً في تخصيص الحمد به تعالى إشعار بأنّ حسن أفعال من سواه راجع إليه تعالى ، وحمد غيره على فعله يكون حمده ، بل لا يجوز حمد غيره إلّا بإذنه لأنّه هو مستحقّه ومالكه ، ثمّ لا يمكن لأحد حقّ حمده لعدم إمكان إحصاء نعمائه والإحاطة بحقيقة حسن أفعاله ، ولذا قال النبي ﷺ ليلة المعراج ، لما أمره الله بالثناء عليه : « لا احصي ثناء عليك » ^(١) .

في بيان فضيلة حمده تعالى

وفي افتتاحه تعالى كتابه المجيد بالبسملة والتحميد إشعار بأنّه لا ينبغي الشروع في أمر إلّا بعد البسملة والحمد .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّ رسول الله ﷺ حدّثني عن الله عزوجل أنّه قال : كلّ ذي بال لم يذكر فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر » ^(٢) .
وفي رواية : « كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع » ^(٣) .

(١) تفسير روح البيان ١ : ١١ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٥ / ٧ .

(٣) كنز العمال ١ : ٥٥٨ / ٢٥٠٩ .

وعن تفسير الإمام عليه السلام : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه سئل عن تفسيره ، فقال : « هو أن الله عزَّ عباده بعض نعمه عليهم جملاً إذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل لأنَّه أكثر من أن تحصى أو تعرف ، فقال [لهم] : قولوا : الحمد لله على ما أنعم به علينا » ^(١) .
وعدم ذكر ما يحمد عليه في الآية ، لعدم الاحتياج في المقام ، ثمَّ وصف ذاته المقدَّسة بقوله : **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** للإشعار بعلَّة استحقاقه الحمد واختصاصه به ، وهو كونه مربِّي جميع الكائنات والموجودات .

وفي (العيون) و(تفسير الإمام عليه السلام) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « يعني مالك الجماعات من كلِّ مخلوق وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون ، يقلِّب الحيوانات في قدرته ، ويغذوها من رزقه ، ويحوطها بكنفه ، ويدبِّر كلا منها بمصلحته ، ويمسك الجمادات بقدرته ، [و] يمسك ما اتَّصل منها من التهافت ، والمتهافت من التلاصق والسَّماء أن تقع على الأرض إلَّا بإذنه ، والأرض أن تنخسف إلَّا بأمره » ^(٢) .

قيل : إنَّ الرَّبَّ هنا بمعنى المالك . وقيل : إنَّ المراد بالعالمين عالم الملك ، وعالم الإنس وعالم الجنِّ ، وعالم الأفلاك ، وعالم النَّبات ، وعالم الحيوان ، وقد اختلفت الأخبار في عدد العوالم .
في ذكر عدد العوالم

عن الصَّدوق في (الخصال) أنه روي عن الباقر عليه السلام أنه ذكر في قوله تعالى : **﴿بَلْ هُمْ فِي لِسْنٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** ^(٣) : « إنَّ الله قد خلق ألف ألف عالم ، وألف ألف آدم ، ونحن في آخر العوالم وآخر الأدميين » ^(٤) .

نقل عن الهيئة الجديدة التي أسَّسها أهل الإفرنج أنَّ كلَّ كوكب من الكواكب السَّيَّارة ، غير القمر والشمس ، أرض كأرضنا تدور حول الشمس ، والشمس كالمركز لها ، وزادوا على السَّيَّارات المعروفة سَيَّارتين كبيرتين تسمَّى إحداهما أورانوس والآخرى نبتون .
ونقل أنَّهم وجدوا سَيَّارات صغارا كثيرة يمتنع إدراكها إلَّا بالآلات المعدَّة لهذا الشأن ، واعتقدوا [أن] لكلِّ واحد من السَّيَّارات الأوَّل ثمانية أقمار وأقلَّ إلى واحد ، تدور تلك الأقمار على تلك

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٠ / ١١ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٨٢ / ٣٠ ، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري : ٣٠ / ١١ ، تفسير الصافي ١ : ٧١ .

(٣) سورة ق : ٥٠ / ١٥ .

(٤) الخصال : ٦٥٢ / ٥٤ .

الأراضي ، كما أنّ لأرضنا هذه قمرا يخصّها ، وأنّ لكلّ كوكب من الكواكب الثابتة شمسا كشمسنا هذه في فضاء غير متناه مع اختلافها في القرب من شمسنا والبعد منها ، وكلّما كان أبعد كان جرمه في أبصارنا أصغر ، فاستظهروا من ذلك أنّ لكلّ كوكب منها أراضي كالأراضي التي لشمسنا هذه ، وحينئذ تكون الأراضي خارجة عن حدّ الإحصاء ، والله تعالى ربّ جميعها.

فظهر أنّ معنى هذه الكلمة وحقيقتها شامل لجميع الموجودات ، محيط بها ، معط لكماها ، ولكون مرتبة هذا الاسم المبارك تحت مرتبة اسم الجلالة ، لكونه مظهر الآثار الإلهيّة ، قرنه به في الآية وأخره عنه في الذكر ، ولدلالته على أنّ كلّ خير منه تعالى ، ودفع كلّ شرّ إليه ، كان فيه غاية التأثير في تهيج حبّ العارفين ، وتحريك رجاء الرّاجين ، ولهذا السرّ كان ثناؤه تعالى في الأدعية بهذا الاسم المبارك أكثر من ثنائه بسائر الأسماء ، ومن عرفه بالرّبوبيّة وعرف نفسه بالمربوبيّة المطلقة من كلّ وجه واعتبار ، عرف ما يناسب شأنه من الذلّة والاستكانة ، وقام بوظائفه من الطاعة والعبادة.

ثمّ لما كان مجال توهم القاصرين أن يكون تربيته للممكنات كترية الأجرام الفلكيّة والمؤثرات الكونيّة بغير إرادة واختيار وحكمة ولحاظ صلاح ، أشار بتوصيف ذاته المقدّسة بقوله : ﴿الرَّحْمَنُ﴾ إلى أنّ تربيته العامّة بمبدأ صفة الرّحمانيّة. وبقوله : ﴿الرَّحِيمُ﴾ إلى أنّ تربيته الخاصّة للنفوس القابلة وتكميلها بمبدأ صفة الرّحيمة ، ومن الواضح أنّ هاتين الصفتين ملازمتان للعلم والاختيار والارادة والحكمة.

وقيل : إنّ نكتة تكرار هذين الاسمين هي كمال مدخليّتهما في استحقاق الحمد ، أو شدّة الاهتمام ببسط رجاء العباد إلى رحمته.

وفي حديث معراج النبيّ ﷺ في عالم الملكوت : « ثمّ قال له : احمدي . قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فقال النبيّ ﷺ : [في نفسه] شكرا ، فقال الله تعالى يا محمّد ، قطعت حمدي فسمّ باسمي ، فمن أجل ذلك جعل في الحمد ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ مرتين » ^(١) .

أقول : لعلّ وجه كون الشكر قاطعا للحمد أنّ في الشكر التوجّه إلى النعم ، وهو ملازم للتوجّه إلى النّفس ، وليس في الحمد إلّا التوجّه إلى مقام الإلهيّة والرّبوبيّة ، فلزم تكرار اسم الحقّ سبحانه ، وحصر التوجّه فيه ، وإفناء ملاحظة النّفس.

(١) الكافي ٣ : ٤٨٥ / ١ .

ثم وصف ذاته المقدسة بقوله : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لتكميل النفوس بعد إيقاظها بالرجاء بإعاشها بالخوف بتنبيهها بالسلطنة المطلقة في يوم الحساب والجزاء ، وأنه الحاكم فيه ليس لغيره فيه حكم وسلطان كما كان لغيره في الدنيا بظاهر الأنظار .

عن (تفسير الامام علي عليه السلام) : « يعني القادر على إقامته ، والقاضي فيه بالحق والدين والحساب » (١) .

وقيل : إن في هذه الآية إشعار بأن الحمد علة نيل الرحمة في الدنيا والآخرة ، ويؤيده ما روي من أن آدم لما نفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله ، واجيب : يرحمك ربك ، ولذلك خلقتك (٢) .

فدلّت الآيات الثلاث على أنه سبحانه منبع الخلق ومبدأ الوجود ، وبفيضه وإرادته تربية الكائنات ، وتكميل الموجودات ، وأن رجوع جميع الخلق إلى حكمه وأمره وسلطانه في الآخرة . فإذا تذكر العبد هذه الصفات ، وتأمل في أن وجوده وتربيته وبقائه وتعيشه في الدنيا به تعالى ، وارتقاءه من حضيض الحيوانية إلى أعلى مدارج القرب وكمال الانسانية بلطفه سبحانه ، وتفكر في أن مرجعه ومعاذه في الآخرة إلى حكمه تعالى وسلطانه ، علم أن من كان إحسانه إليه في زمان بعده عنه واحتباسه في عالم الطبيعة وانغماره في ظلمات الجهل والغفلة بمقدار لا يمكن عدّه ولا يدرك حدّه ، لا يمكن منع فيضه ولطفه وإحسانه وإنعامه حين وروده عليه ووفوده لديه .

فعند ذلك تتكامل معرفته ، وتحيط بالقلب محبته ، فيرتفع حجاب غفلته ، وتنور عين بصيرته ، وتتجلى أنوار جمال مليكه في ضميره ، ويرى نفسه شاخصة بحضرته ، فيعترف بالاخلاص في عبوديته ، ويقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولك خاصة نخضع وننقاد ونتذلّل .

عن (تفسير الإمام علي عليه السلام) : « قال الله تعالى : قولوا يا أيها الخلق المنعم عليهم : إِيَّاكَ نَعْبُدُ أيها المنعم علينا ، نطيعك مخلصين موحدّين ، مع التذلّل والخضوع ، بلا رياء ولا سمعة » (٣) . وعن ابن عباس : أن جبرئيل قال للنبي ﷺ : قل يا محمد : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي إِيَّاكَ نامل ونرجو لا غيرك (٤) .

وفي رواية عامية عن الصادق عليه السلام : « يعني لا نريد منك غيرك ، ولا نعبدك بالعوض والبدل

كما

(١) التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام : ٣٨ / ١٤ ، تفسير الصافي ١ : ٧١ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ١٤ « نحوه » .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٩ / ١٥ ، تفسير الصافي ١ : ٧١ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٧ .

يعبدك الجاهلون بك المغيّبون عنك» (١) .

أقول : الظاهر أنّ المراد من قوله : « لا نريد منك غيرك » ، أنّه لا نريد بعبادتك نيل مطلوب من نعم الدنيا أو ثواب الآخرة ، ولا دفع مكروه صوريّ أو معنوي ، دنيويّ أو اخرويّ ، بل نريد بها أداء حقك حيث إنك مستحق لها بوجوب الذات وكمال الصفات والنعم السابغات ، وهذه هي العبادة الحقيقيّة ، وغيرها من سائر الغايات المنظورة هي عبادة غيره ، والتعبير بصيغة مع الغير لإدراج عبادته في عبادة الحفظة أو حاضري صلاة الجماعة أو سائر العباد الموحّدين المخلصين ، استحقاقا لعبادة نفسه وإشعارا بأنّ عبادته غير قابلة بأن تذكر أو ينظر إليها إلّا بتبع عبادة المخلصين .

ثمّ لما كان العبد مخلوقا من الضّعف ، فلا قوّة له على العمل إلّا بحوله تعالى ، ولا حول له إلّا بعونه ، ولا يرجى منه خير إلّا بتسديده وتوفيقه ، وكان في إسناد العبادة إلى نفسه إيهام العجب بقدرته واستقلاله في فعله وعمله ، أمر بأن يسأل الإعانة من الله عليها ، بقوله : ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعبادتك والعمل بمَرْضَاتِكَ ، وعلى دفع شرور أعدائك وردّ مكائدهم ، وتخصيص الاستعانة به نتيجة التوحيد ومعرفة ربوبيّته تعالى ومربوبيّة نفسه ، حيث إنّ فيه إشارة إلى أنّه القادر المطلق ، وأنّ قدرة غيره منتهية إليه ، وأنّه الكافي لجميع ما سواه ، ولا كافي غيره ، وفي إدخال استعانتهم في ضمن استعانة الموحّدين استيجاب ببركتهم .

ثمّ لما كان أهمّ المقاصد وأعظمها هو الهداية إلى عبادات موصلة إلى رضوانه ، محصّلة للسعادات الأبدية من قربه وجنانه ، خصّ طلب الإعانة بها ، فكأنّه قال تعالى : كيف اعينك فيقول : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ودلّنا على التّهج الحقّ القويم .

في ذكر معنى الصراط والجمع بين الأخبار

عن (تفسير الإمام) : عن الصادق صلوات الله عليه : « يعني أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّي إلى محبّتك ، والمبلغ إلى جنتك ، والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب ، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك » (٢) .

وعن (المعاني) عنه عليه السلام : « هي الطّريق إلى معرفة الله ، وهما صرطان : صراط في الدنيا ، وصرّاط في الآخرة ، فأما الصّراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطّاعة ، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على

(١) تفسير الصافي ١ : ٧٢ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٤٤ / ٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٧٢ .

الصَّراط - الذي هو جسر جهنم - في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زَلَّت قدمه عن الصَّراط في الآخرة فتردى في نار جهنم » (١) .

وفي رواية أخرى : « نحن (٢) الصَّراط المستقيم » (٣) .

وفي أخرى : « الصَّراط المستقيم : هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته » (٤) الخبر .

أقول : لعل وجه الجمع ، أنَّ حقيقة الصَّراط والطريق المؤدِّي إلى رضوان الله هي الشريعة المقررة المركبة من العقائد الحقَّة ، والمعارف الإلهيَّة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق المرضيَّة ، والهداية إليها في هذا العالم لها أنحاء ، أظهرها وأجلها بحسب العادة هو الهداية إليها بوسيلة هاد من جنس بني آدم وهو النبي والإمام ، بل الهداية إليهما هي الهداية إليها ، إذ لو كان للشريعة المطهرة صورة مجسَّمة لكانت هي الإنسان الكامل ، وهو الإمام والحجَّة ، إذ هم المبيِّنون بكلامهم وأخلاقهم وأعمالهم حقيقة الدين والشرع المتين بهداية العبد إلى الدين [و] تعريفه إيَّاهم ، فمن كان بهم أعرف كان إلى الصَّراط أهدى ، فمعرفتهم عين معرفة الصَّراط ، والمقتدي بهم مارٌّ عليه في الدنيا والآخرة ومنته إلى رضوان الله ، واصل إلى الجنَّة ونعيم دار القرار ، والمتخلِّف عنهم زال عن الصَّراط ، وهاو في النَّار ، ومن الواضح أنَّ هذه الهداية من أظهر شؤون الرِّبويَّة ، وأجلى آثار صفة الرِّحيميَّة .

ثمَّ اعلم أنَّ الهداية الحقيقية إليهم لست بالاطلاع على الأدلَّة الدالَّة على إمامتهم ووجوب اتِّباعهم وطاعتهم ، بل تكون بالتَّور الذي يقذفه الله في القلب بحيث يؤثر في ملازمتهم والاقتداء بهم وبتقوية القوَّة العاقلة بخدِّ يورث قطع التعلُّقات الجسمانيَّة ، وقمع الشَّهوات النفسانيَّة ، والاستغراق في ملاحظة أسرار الكمال ومطالعة أنوار الجلال .

روي عن النبي ﷺ : « أنَّ الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثمَّ رشَّ عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك التَّور فقد اهتدى ، ومن أخطأه فقد ضلَّ » (٥) . والظاهر أنَّ المراد من الظلمة ظلمة الجهل ، ومن التَّور نور العلم والعقل .

ثمَّ لا يذهب عليك أنَّ في الآية دلالة ظاهرة على نفي الجبر والتفويض ، وإثبات الأمر بين الأمرين ،

(١) معاني الأخبار : ٣٢ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٧٢ .

(٢) في النسخة : عن .

(٣) معاني الأخبار : ٣٥ / ٥ ، ينابيع المودة : ٤٧٧ ، تفسير الصافي ١ : ٧٣ .

(٤) معاني الأخبار : ٣٢ / ٣ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٢٣ .

حيث إنّ الظاهر من قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أنّ الإرادة والعمل والقدرة من العبد ، ومن قوله : ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنّ الإعانة بالهداية والتوفيق من الله.

ثمّ أنّه لما كان لإظهار فائدة المطلوب والمسؤول وتذكّر مضارّ فواته تأثير عظيم في شدّة حرص الطالب على الطلب ، وتحييج رحمة المطلوب منه في الإعطاء والإجابة ، وصف الصّراط وبَيّنه بقوله : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وطريقة جماعة خصصتهم بكمال اللطف وتمام الفضل عليهم من العصمة عن الخطأ والزّلل ، والمعرفة بحقائق الامور واليقين بالمبدأ والمعاد لنورانيّة طينتهم ، وقوّة عقولهم ، وانسراح صدورهم ، وهم التّبيّن ، ثمّ الأوصياء ، ثمّ الأولياء.

ثمّ وصف المهدّيّين المنعم عليهم بقوله : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب خبث طينتهم وفساد عقائدهم وأعمالهم ، للتّعريض على أنّ الجاحدين للحقّ المعاندين له من اليهود والنّصاب وأضرابهم في غضب الله ، وبقوله : ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم الذين أعرضوا عن الحقّ لتقصيرهم وجهلهم من غير عناد كالتنصاريّ الذين قال الله فيهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾^(١) وكالشاكّيّ الذين لم يجهدوا في تحصيل معرفة الحقّ للتّعريض على أنهم في ضلال.

عن الصادق ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عزّ وجلّ : قسّمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي ، فنصفها لي ونصفها لعبدي [ولعبدي] ما سأل ، فإذا قال العبد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله جلّ جلاله : بدأ عبدي باسمي ، وحقّ عليّ أن أتمّم له اموره ، وأبارك له في أحواله.

وإذا قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال جلّ جلاله : حمدي عبدي ، وعلم أنّ النعم التي له من عندي ، وأنّ البلايا التي اندفعت^(٢) عنه فبتطوّلي ، اشهدكم أنّي اضيف له إلى نعم الدّنيا نعم الآخرة ، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدّنيا.

وإذا قال : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله جلّ جلاله : شهد لي بأنّي الرحمن الرحيم ، اشهدكم لاوقرنّ من نعمتي^(٣) حظّه ، ولا جزلنّ من عطائي نصيبه.

فإذا قال : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله تعالى : اشهدكم كما اعترف بأنّي أنا الملك يوم

الدّين ،

(١) المائدة : ٥ / ٨٢.

(٢) في عيون أخبار الرضا عليه السلام : دفعت.

(٣) في عيون أخبار الرضا عليه السلام : رحمتي.

لاسهلّ يوم الحساب حسابه ، ولا قبلنّ حسناته ، ولأتجاوزنّ عن سيئاته .
 فإذا قال العبد : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال الله عزّ وجلّ : صدق عبدي ، إيتاي يعبد ، اشهدكم لاثبنته
 على عبادته ثوابا يغبطه كلّ من خالفه في عبادته لي .
 فإذا قال : ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى : بي استعان ، وإليّ التجأ ، اشهدكم لاعينته
 على أمره ، ولاغيثته في شدائده ، ولاخذنّ بيده يوم نوائبه . فإذا قال : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
 إلى آخر السورة ، قال الله جلّ جلاله : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل ، فقد استجبت لعبدي
 وأعطيته ما أمّل ، وآمنته ممّا منه وجل « (١) .
 عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إبليس رنّ رنيناً لما بعث الله نبيّه محمداً ﷺ على حين فترة
 من الرسل ، وحين نزلت أمّ الكتاب » (٢) .
 قيل : إنّها أوّل سورة نزلت بمكّة ، وسورة البقرة أوّل سورة نزلت في المدينة وهي :

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٣٠٠ / ٥٩ ، تفسير الصافي ١ : ٧٥ .

(٢) الخصال : ٢٦٣ / ١٤١ .

في تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قد مرّ تفسيره في أول الفاتحة ، وتفسير :

﴿الم﴾ في طرفة بيان أظهر مصاديق المتشابهات ^(١) .

ثم إنّ وجه التّظّم بين هذه السورة وسورة الفاتحة ، أنّ في تلك السورة سؤال الهداية ، وفي هذه السورة إجابته بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ القرآن المجيد هو ﴿الْكِتَابُ﴾ المعهود الذي بشر الأنبياء به امهم ، ووعدك الله يا محمد أنّه منزله عليك.

عن (تفسير الإمام عليّ) : « يعني القرآن الذي افتتح ب ﴿الم﴾ هو ذلك الكتاب الذي أخبرت به موسى ومن بعده من الأنبياء ، وأخبروا بني إسرائيل أنّي سأنزله عليك يا محمد كتابا عربيا ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ^(٢) الخبر .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا مجال لشكّ يعترّيه ، إنّهُ منزل من الله تعالى لظهور آيات الصّدق فيه ، فالشّاكّ فيه كالشّاكّ في ضوء الشّمس إذا كانت في رابعة ^(٣) التّهار ، ويكون الشكّ في قلبه لا في الكتاب.

روي عن الصادق عليه السلام : « كتاب عليّ لا ريب فيه » ^(٤) فإنّ صدره الشّريف مرآة اللّوح المحفوظ.

ثمّ وصف الله الكتاب بأنّه ﴿هُدًى﴾ ودليل إلى الرّشاد ، وبيان من الضّلالة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهم المحترزون ^(٥) عن العقائد الفاسدة والأعمال القبيحة العقليّة ، الطالبون ^(٦) لمدارج التقوى.

(١) راجع : الطرفة (١٨) .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٢ / ٣٢ ، والآية من سورة فصلت : ٤١ / ٤٢ .

(٣) في النسخة : رابعة.

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٠٨ / ١٠٥ .

(٥) في النسخة : المحترزين.

(٦) في النسخة : الطالبين.

عن (تفسیر الإمام عليّ) : « الذين يتقون الموبقات ويتقون تسليط السّفه على أنفسهم ، حتّى إذا علموا ما يجب عليهم عمله ، عملوا بما يوجب لهم رضا ربّهم » (١) .

وعنه عليّ أيضا ، قال : ﴿ هُدًى ﴾ بيان وشفاء للمتّقين من شيعة محمّد وعليّ عليهما وألهما السّلام أنّهم اتّقوا أنواع الكفر فتركوها ، واتّقوا الذنوب الموبقات فرفضوها ، واتّقوا إظهار أسرار رسول الله ﷺ وأسرار أزكياء عباده الأوصياء بعد محمّد ﷺ فكنموها ، واتّقوا ستر العلوم عن أهلها المستحقّين لها ، وفيهم نشرها » (٢) .

في بيان مراتب الهداية

أقول : هذا التفسير موافق لما قيل من أنّ المراد بالمتّقين الكاملون في التّقوى ، فإنّهم المنتفعون به حقّ الانتفاع ويتوصّلون به إلى أعلى درجاته الذي يتلو مرتبة العصمة ، فلا يرد عليه أنّ هداية الكاملين في التّقوى تحصيل الحاصل ، وتوضيح الدّفع أنّ الهداية لها مراتب ثلاثة : هداية عامّة ، وهي الهداية إلى الإسلام لجميع النّاس ، وهداية خاصّة لأهل الإيمان إلى مرتبة التّقوى ، وهداية أخصّ للكاملين في الإيمان والتّقوى إلى مقام المقرّبين.

عن الصادق عليّ : « المتّقون شيعتنا » (٣) .

أقول : لأنّهم عليهم الصّول شجرة التّقوى ، والدّعاة إليه ، وشيعتهم فروع تلك الشجرة ، والمجيبون للدّعوة.

ثمّ عزّفهم الله بأنّهم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ويصدّقون بما لا تدركه الحواسّ الظاهرة من التّوحيد والبعث والحساب وجزاء الأعمال وقيام القائم المنتظر.

عن جابر بن عبد الله رضی الله عنه - في حديث - قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للصّابرين في غيبته ، طوبى للمقيمين على محبّته (٤) ، أولئك من وصفهم الله في كتابه ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (٥) الخبر .

في بيان اختلاف مراتب اليقين واختلاف الأعمال باختلافها ثمّ اعلم أنّ الإيمان الظاهريّ هو الإقرار باللسان ، والحقيقيّ منه هو الاعتقاد القلبيّ واليقين الذي لا يشوبه قلق واضطراب وشكّ ، فإنّّه مقابل الرّيب الذي هو الاضطراب في القلب ، ولا ريب أنّ للمتّقين مراتب كثيرة ضعفا وشدّة ، وأعلى مراتبه ما لو كشف

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليّ : ٦٢ / ٣٢ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليّ : ٦٧ / ٣٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٠٨ / ١٠٥ .

(٤) في كفاية الأثر : للمتّقين على محبتهم .

(٥) كفاية الأثر : ٦٠ ، بحار الأنوار ٥٢ : ١٤٣ / ٦٠ .

الغطاء عن الموقن ما ازداد يقينا.

ولا شبهة أنّ العمل يختلف باختلاف مراتب اليقين ، حيث إنّ نور ساطع في القلب ، سار شعاعه إلى الجوارح ، فبحسب انبثاث شعاعه ينفذ روح الايمان في الأعضاء وتتقوى وتتحرك للقيام بوظائفه ، فبنفوذ نور الإيمان وروحه في كلّ جارحة يظهر أثره فيه ، فأثر إيمان القلب المعرفة والانقياد والخضوع ، وأثر إيمان الدماغ التفكير والتدبر في آيات الله ودلائل المبدأ والمعاد ، وأثر إيمان العين الغض عن المحرمات ، والنظر إلى الآيات ، وأثره في سائر الجوارح أداء كلّ جارحة وظيفتها.

نعم ، بعض الأعمال يشترك فيه جميع الجوارح كالصلاة ، ولذا سمّاها الله بالإيمان في قوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١) وأراد به الصلاة ، ولذا خصّها بالذكر بعد الإيمان بقوله : ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ويتمرنون لأدائها وحفظ أوقاتها وتعديل أركانها ورعاية فرائضها وسننها وأدائها.

ويمكن أن تكون الصلاة لكونها أهمّ الفرائض البدنية كناية عن جميع فرائضها في مقابل الفرائض المالية ، أو تكون كناية عن جميع الأعمال التي يرجع صلاحها إلى عاملها من غير تعدّد إلى غيره ، ويكون قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ومتّعناهم به في الدنيا ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويذلون ، كناية عن جميع الفرائض المالية ، أو جميع الأعمال التي فيها صلاح الغير من بذل المال ، وتعليم العلم ، وإعانة الغير بالقوى البدنية والجاه ، وغير ذلك ممّا يحتاج إليه غيره وينتفع به.

عن الصادق عليه السلام : « وَمِمَّا عَلَّمْنَاهُمْ يَتُونَ »^(٢) .

وفي رواية : « وَمِمَّا عَلَّمْنَاهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ يَتْلُونَ »^(٣) .

والظاهر أنّ المراد أنّهم يتلون لغيرهم حتّى يتعلّموا ، وقد جمعت الآيتان جميع الوظائف القلبية والجوارحية والمالية ، فإنّ كلّها من لوازم التقوى.

قيل : إنّ هذه الآية نزلت في مؤمني العرب^(٤) .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾

(١) البقرة : ٢ / ١٤٣ .

(٢) مجمع البيان ١ : ١٢٢ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٠ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٤٠ .

ثمّ بالغ في توصيفهم ومدحهم بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ويصدّقون تصديقاً حقيقياً لسانياً وجناتياً ﴿بِمَا أُنْزِلَ﴾ من السّماء متدرّجاً ﴿إِلَيْكَ﴾ من القرآن وجميع أحكام شريعتك ، أنّه كلام الله ، ودينه المرضيّ عنده ، وهذا الإيمان مستلزم للإيمان بالرسالة ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ من الكتب على سائر الأنبياء ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أنّ جميعها كانت حجّة من الله على أممهم وإن نسخت.

ولعلّ ذكر الإيمان بالكتب بعد الإيمان بالغيب ، لتنزيله منزلة الإيمان بالمحسوس لوفور دلائل صدقها وحقانيّتها ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ والمعاد لجزء الأعمال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لا يدخل في قلوبهم شك ولا ريب.

قيل : نزلت في مؤمني أهل الكتاب ^(١) ، وتخصيص اليقين بالآخرة بالذكر مع كونه داخلاً في الإيمان بالغيب لكمال مدخلتيته في تكميل النفس واستقامة العمل ، فإنّ ثمرة اليقين بالآخرة الاستعداد لها.

في أن المغرورين عشرة

قيل : عشرة من المغرورين : من أيقن أنّ الله خالقه ولا يعبدّه ، ومن أيقن أنّ الله رازقه ولا يطمئنّ به ، ومن أيقن أنّ الدنيا زائلة ويعتمد عليها ، ومن أيقن أنّ الورثة أعداؤه ويجمع لهم ، ومن أيقن أنّ الموت آت ولا يستعدّ له ، ومن أيقن أنّ القبر منزله ولا يعمره ، ومن أيقن أنّ الدّيان يحاسبه ولا يصحّح حجّته ، ومن أيقن أنّ الصّراط ممّره ولا يخفّف ثقله ، ومن أيقن أنّ النّار دار الفجّار ولا يهرب منها ، ومن أيقن أنّ الجنّة دار الأبرار ولا يعمل لها ^(٢) .

قال بعض : إنّ اليقين بالآخرة داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النّظر في العواقب ^(٣) .

وفي الآية تعريض على أهل الكتاب حيث إنهم يثبتون أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وإنّ قولهم به ليس عن إيقان ، وإنّ اليقين ما عليه المتّقون من المؤمنين بخاتم النبيّين ﷺ .

ويبالي فإنّ في رواية : « ما قسّم بين العباد شيء أقلّ من اليقين » ^(٤) .

في بيان الملازمة بين الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد

ثمّ لا يذهب عليك أنّ اليقين بالمعاد مستلزم لليقين بالمبدأ ، كما أنّ اليقين بالمبدأ مستلزم لليقين بالمعاد ، لأنّ اليقين بالصانع يلازم اليقين بحكمته ، والحكمة مقتضية لأن يكون بعد هذا العالم عالم آخر يثاب فيه المؤمن ، ويعاقب فيه العاصي ، وإلّا يلزم

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٠ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤٢ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٤٢ .

(٤) الكافي ٢ : ٤٣ / ٦ .

العبث في الخلق ، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١) ، وقال : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾^(٢) إلى غير ذلك.

ثم بيّن سبحانه ثمة تقواهم وصفاتهم الكريمة ، بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الكريمة مختصّون بالركوب ﴿عَلَى﴾ طريق ﴿هُدًى﴾ كامل ، وبيان^(٣) مقام المقرّبين بتفضّل كائن ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّهِمْ﴾ حيث إنّهم أرشدتهم إلى الحقّ ، ووفّقهم للطاعة ، وأعانهم على تحصيل مرضاته ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الكاملون في المكارم ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ المختصّون بالنّجاة والتّجّاح ، الفائزون بالبغية والدّرجات.

ولمّا أشار إليهم بما يشار إلى البعيد ، للإشعار بعلوّ منزلتهم ورفعة مقامهم ، وبعدهم عن غيرهم في الأخلاق.

في معنى الفلاح

وفي رواية ، في ترجمة الأذان : « فأما قوله : حيّ على الفلاح ، فإنّه يقول : أقبلوا إلى بقاء لا فناء معه ، ونجاة لا هلاك معها ، وتعالوا إلى حياة لا ممات معها ، وإلى نعيم لا نفاذ له ، وإلى ملك لا زوال معه ، وإلى سرور لا حزن معه ، وإلى انس لا وحشة معه ، وإلى نور لا ظلمة معه ، وإلى سعة لا ضيق فيها ، وإلى بهجة لا انقطاع لها ، وإلى غنى لا فاقة معه ، وإلى صحّة لا سقم معها ، وإلى عزّ لا ذلّ معه ، وإلى قوّة لا ضعف معها ، وإلى كرامة يالها من كرامة ، وعجلّوا إلى سرور الدنيا والعقبى ، ونجاة الآخرة والاولى.

وفي المرّة الثانية : حيّ على الفلاح ، فإنّه يقول : سابقوا إلى ما دعوتكم إليه ، وإلى جزيل الكرامة ، وعظيم المنّة ، وسنيّ النعمة ، والفوز العظيم ، ونعيم الأبد في جوار محمّد ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر »^(٤) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾

(١) المؤمنون : ٢٣ / ١١٥ .

(٢) سورة ص : ٣٨ / ٢٧ .

(٣) كذا ، وتقرأ أيضا : وتبيان .

(٤) معاني الأخبار : ٤٠ / ١ ، التوحيد : ٢٤٠ / ١ .

ثم أنه لما كان من دأب الله تعالى في الكتاب العزيز أنه كلما ذكر المؤمنين والمتقين بخير ذكر الكافرين والفاستقين بسوء ، وكلما وعد المؤمنين بالثواب والرحمة أوعد الكفار بالعذاب والنقمة ، أردف هنا ذكر المتقين وتوصيفهم بأحسن صفاتهم ، ووعدهم بالفلاح والنجاح بذكر الكفار الجاحدين للحق ، المصرين على الكفر ، وتوبيخهم بأخلاقهم ، وتوعيدهم بالعذاب والتكال ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله كأبي جهل وأبي لهب وأضربهما من رؤساء الضلال الذين كانوا في ذلك العصر مصرين على التمرد واللجاج والعناد للحق.

ويحتمل أن يكون المراد من الموصول كل من صمم على الكفر تصميمًا لا يزعوي بعده ، دون غيرهم من الذين لم يبلغوا ذلك الحال ، بقرينة قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولا يتفاوت حالهم ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ وخوفتهم من عذاب الله ودعوتهم إلى الإيمان ووعظتهم ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ فإن قلوبهم في أعلى مرتبة القساوة ، خارجة عن قابلية التأثر ، ولذا سبق في علم الله أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبكتابك ، فلا تتعب نفسك في دعوتهم ، ولا تطمع في إيمانهم حيث إنه ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ وطبع ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخل فيها شيء من المواعظ ، ولا ينفذ فيها نور الهداية كما كانوا يقولون : ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾^(١).

﴿و﴾ ختم ﴿عَلَى سَمْعِهِمْ﴾ لا يدخل فيه كلمات الوعد والوعيد والإنذار والتهديد كما كانوا يقولون : ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾^(٢) ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ كأنه ﴿غِشَاوَةٌ﴾ وغطاء لا يخرج منها نور يرون به آيات الحق.

روي عن الرضا عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ قال : « الختم هو الطبع على قلوب الكفار ، عقوبة على كفرهم ، كما قال الله عز وجل : ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣) .

وعن العسكري عليه السلام : في تفسير ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أنه قال : « وسمها بسمة يعرفها من شاء من ملائكته وأوليائه إذا نظروا إليها ، بأنهم الذين لا يؤمنون »^(٤).

(١) فصلت : ٤١ / ٥ .

(٢) فصلت : ٤١ / ٥ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١ / ١٢٣ / ١٦ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ١٥٥ .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٩٨ / ٥٣ .

ولعلّ المراد من الختم والسمة الظلمة المحيطة بقلوبهم بسبب تماديهم في الكفر وإصرارهم على العصيان ، يراها كلّ من له بصيرة نافذة ، وإسناده إلى الله لكونها بخذلانه إيتاهم ، وهو من أشدّ العقوبات ، فإذا انتهى حال قلوبهم إلى أعلى مرتبة القساوة والظلمة فلا يمكن إيمانهم إلّا بالفسر والإلجاء المنافين للتكليف ، وفي تنكير الغشاوة إشعار بأنّها ليست من الغشاوات العادية.

في بيان معنى الاختيار وحقيقته

إن قيل : على هذا كان تكليفهم بالإيمان بعد الختم تكليفا بغير مقدور وهو محال . قلنا : مع ذلك كونهم مكلفين بالإيمان قادرين عليه مختارين فيه ، من أوضح الواضحات ، وأبده البديهيّات .

وتوضيحه أنّ القدرة عبارة عن قوّة في الجوارح ، وخصوصيّات فيها ، لو أراد صاحبها عملا تمكّن بها من إيجاد ذلك العمل ، ولذا لا تضاف إلّا إلى الأفعال الجوارحيّة الإراديّة بالبدهة . فكلّ عمل يكون من مبادئ وجوده الإرادة ، يكون من مبادئ وجوده الإرادي القدرة ، وكلّ ما لا يكون من مبادئ وجوده الإرادة ، لا يكون مقدورا ، فالقدرة بوجودها العلمي أو الاحتمالي من شرائط تحقّق الإرادة ، وصدور الفعل عن الاختيار .

وعلى هذا لا تكون نفس الإرادة ومبادئها من العزم والجزم ممّا يضاف إليها القدرة ، لعدم كونها إراديّة ، لوضوح أنّ الإرادة لا توجد بأعمال الجوارح ، بل هي معلولة للداعي ، وهو علم الفاعل بصلاح الفعل ، وهذا يختلف باختلاف الأنظار الناشئ من اختلاف مراتب العقول والشّهوات ، ومن البديهيّ أنّه لا يعتبر في صحّة التكليف أن يكون عقل المكلف في أعلى مرتبة الكمال ، بحيث لا يصير مغلوبا للشّهوة أبدا ، فإنّ هذه مرتبة العصمة .

والحاصل : إنّ الداعي المؤثّر في الإرادة تابع لقوّة العقل وضعفه ، والعلم بالصّلاح في المراد يكون بنظر الفاعل ، فالدّواعي الحسنة معلولة لقوّة العقل وطيب الطّينة وجودة النّظر وكمال البصيرة ، والدّواعي السيئة منبعثة من ضعف العقل وخبث الطّينة وغلبة الشّهوة وقصور النّظر وعدم البصيرة .

فإذا كان الطبع مجبولا على رذائل الأخلاق والصفّات ، والنّفس معيوبة ومغمورة في الظلمات ، والعقل ضعيفا مغلوبا للشّهوات ؛ فلا محالة يصير القلب مغلوبا لا يستقرّ فيه جواهر الحكم ، والبصر محجوبا لا يميز النور من الظلم ، فعند ذلك يتيه من هذا حاله في وادي الجهل والغواية ، ولا يرجى منه الرّشد والهداية ، ولا ينقذ في قلبه إرادة الخير والصّلاح ، ولا يصدر منه خيرة الفوز والفلاح ، ويكون

أضلّ من الأنعام ، ويتأثّف من الانقياد للملك العلام ، ويفتخر بعبادة الأصنام ، وتكون لذّته في الشرّ والفساد ، وشوقه إلى الظلم على العباد.

ومن الواضح أنّ جميع ذلك بقدرته وإرادته ، إذ القدرة كما قلنا ليست إلّا التمكّن من إيجاد ما أراد فعله أو ترك ما أراد تركه ، وتناسب جوارحه لصدروه من غير ضعف وقصور ، والإرادة هي انبعاث النّفس إلى إيجاد ما فيه صلاح بنظره ، وإن كان الانبعاث ناشئا من الدّواعي الشهوانية وخبث الدّات والطّينة ، أو بإيجاد الله تلك الدّواعي في قلبه.

إن قيل : على هذا يلزم الجبر ، وينتفي الاختيار.

في أنّ تعلّق الإرادة التكوينية بأفعال العباد لا يستلزم الجبر ولا ينافي الاختيار

قلنا : لا شبهة أنّ الاختيار في اللّغة هو طلب الخير ، كالاكتساب والاختيار ، وإنّما اطلق على الإرادة بلحاظ أنّها معلولة من العلم بالخير والصّلاح في الفعل المراد ، ومؤثّرة في إيجادها ، إذ ليس وجودها الخارجيّ ومصادقها الحقيقي إلّا توجّه النّفس إلى فعل لاحظ الفاعل فيه خيره ، أو ترك شيء لاحظ في فعله شرّه ، فإذا وجد الفعل وكان الجزء الأخير من علّته تلك الإرادة فهو اختياريّ ، أي منسوب إلى الاختيار ومعلول له ، ولا معنى لاختيارية الفعل غير كونه موجودا بالإرادة ، ولا يعتبر فيها أن تكون إرادته موجودة بإرادة أخرى ، بل يستحيل أن تكون الإرادة للتّالي إرادية ، للزوم التسلسل ، وإن أمكن أحيانا وعلى حسب الاتفاق كون بعض مبادئها إراديا إلّا أنّه لا بدّ من انتهائه إلى ما لا يكون بالإرادة.

وبالجملة لا يعتبر في اختيارية الفعل إلّا إرادة واحدة معلولة للعلم بالصّلاح في المراد ، وإن كان ذلك العلم حاصلًا من غير المبادئ الاختيارية أو بإرادة الغير ، فإنّ جميع التسببيات يكون بإيجاد الدّاعي في ذهن المباشر. مثلا إذا أراد أحد تحريك غيره وبعثه إلى قتل نفس محترمة بالإرادة التكوينية ، لا بدّ له من إيجاد الدّاعي لمن يريد بعثه ، وهو يكون بوعدده بما يشاق إليه ، ويجعل بوعدده الملازمة بين ذلك الفعل ونيل مطلوبه من مال أو جاه ، فإنّ الوعد في الحقيقة جعل الملازمة بين الموعود والموعود عليه ، فإذا علم من اشتاق إلى مال أو جاه بأنّه يكون في قتل النّفس الوصول إلى ذلك المال أو الجاه ، فعند ذلك يؤثّر ذلك العلم في تعلّق إرادته بالقتل ، فإذا انقذ في قلبه إرادته تحرّكت جوارحه نحو القتل ، ولكون فعله معلوما عنده بعنوانه وموجودا بإرادته وقدرته ، يستحقّ اللّوم والعقاب ، وإن لم يكن وجود الدّاعي المؤثر في إرادته بفعله وإرادته ، بل بفعل غيره والوعد

الحاصل من محرّكه.

وبالجملة لا شبهة أنّه يكفي في كون الفعل اختياريّا تحقّق إرادة واحدة متعلّقة به ، معلولة لداع موجود بالأسباب الاتّفاقية ، ولا يحتاج إلى إرادات طويلة.

ومّا يوضح ما ذكرنا أنّ أفعال الله عزّ وجلّ اختياريّة بالضرورة من العقل ، وليس إلّا لكونها صادرة عن إرادته التي هي عين علمه بالصّلاح التّام ، وهذا العلم هو عين ذاته ، ليس موجودا بعلم آخر متعلّق بصلاح ذلك العلم.

فتحصّل ممّا ذكرنا أنّه لا يخرج الفعل إذا كان الدّاعي إليه باقتضاء الدّات ، أو بإيجاد الغير ، أو بإفاضة الله ، عن كونه اختياريّا ، ولا يكون فاعله بالإرادة مجبورا ، لبداية التّضادّ بين كون الفاعل مريدا وكونه مجبورا ، إذ من الواضح قبح السؤال عمّن أخبر أنّه فعل فعلا بإرادته : أكنت مجبورا أم مختارا فيه ؟ ولوضوح أنّه ليس الفارق بين حركة المختار والمرتعش إلّا أنّ المرتعش لا تكون حركته بالإرادة ، بخلاف المختار فإنّها بالإرادة والدّاعي.

في أنّ ختم القلب وصدور الكفر والمعاصي بخذلان الله وإرادته التكوينية لا ينافي صحة العقوبة عقلا عليها

وليس تعريف الفعل الاختياري وحقيقته عند الوجدان إلّا أنّه لو شاء فعل ، ولو لم يشأ لم يفعل ، وليس في تعريفه وحقيقته أنّه لو شاء شاء ، ولا شبهة أنّه إذا كان شخص بهذه الصفة صحّ تكليفه وعقوبته.

ثمّ لا مجال للإشكال على صحّة العقوبة بأنّه مع حصول الختم في القلب واستناد الكفر والعصيان إلى الإرادة المستندة إلى الدّاعي غير الاختياري يكون العقاب عليهما عقابا على ما لا بالاختيار ، وهو ظلم وقبيح.

إذ بعد ثبوت كون الكفر والعصيان بالإرادة ، وتأثير قدرة الكافر والعاصي في كفره وعصيانه ، يحكم العقل بحسن العقوبة والدّم عليهما ، إذ لا مدخل لغير الالتفات إلى عنوان الفعل ووجه كونه قبيحا وصدوره عن الإرادة في استحقاق العقوبة وحسنها ، وقد تحقّق أنّ العقل هو الحاكم بالاستقلال في الحسن والقبح في المقام.

وبعبارة أخرى أنّ حسن العقوبة والمثوبة ليس إلّا ملاءمتها لمذاق العقل ، والعقل يجد الملائمة بين العقوبة وصدور القبيح إذا كان منتهيا إلى مبدأ الإرادة ولو لم تكن الإرادة بالإرادة ، ولا اعتراض عليه ، ولا يستلّ عمّا يحكم وهم يسألون ، والظلم هو العقوبة التي لا يحكم العقل بحسنها ، ولا يجد لها

موضعا.

فظهر من جميع ذلك أن كلّ فعل صدر من العبد بقوّة جوارحه وإرادته المنقذحة في ذهنه يكون فعله اختياريًا ^(١) وتحسن عقوبته عليه ، إذا كان عنوانه الذي يكون به قبيحا ملتفتا إليه ، وإن كان مبادئ إرادته بإيجاد الله ومشيتته ، بل هو سبحانه وتعالى علّة علل جميع الأفعال الاختيارية ، حيث إن وجود جميع الموجودات من الجواهر والأعراض والغرضيات من الفعل والانفعال والوضع والإضافات والكيفيات وغير ذلك في جميع العوالم ، لا بدّ أن تكون بالإرادة التكوينية الإلهية لأنّه السلطان المطلق والمالك الحقّ ، وجميع عوالم الوجود مملكته ، وناصية كلّ شيء بيده ، ليس لغيره من مخلوقاته تصرّف وسلطان في ملكه وسلطانه ، فلا يتحرّك متحرّك ولا يسكن ساكن ولا يؤثّر مؤثّر ولا يتصرّف متصرّف إلّا بأمره وإذنه. ولا يمكن أن يوجد أحد ما لم يرد الله وجوده ، أو يعدم ما لم يرد الله عدمه ، أو يتحرّك أو يسكن إذا لم يرد الله حركته أو سكونه.

فعلى هذا يكون إيمان المؤمن وكفر الكافر وطاعة المطيع ومعصية العاصي منتهيا إلى مشيئته وأمره ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(٢) .

في دفع توهم الفخر الرازي لزوم الجبر إذا كانت الأفعال معلولة للإرادة وللإرادة للدواعي والدواعي معلولة للإرادة التكوينية الإلهية وقد غلط من توهم أنّ الفعل إذا كان بالإرادة والإرادة بتأثير الداعي والداعي بإيجاد الله لزم الجبر ، لما ذكرنا من أنّ الجبر حمل الغير على فعل لا يريده ، لا إيجاد علل إرادته ، وأنّ الإرادة والجبر ضدّان لا يجتمعان في فعل واحد ، فإذا كان فعل مرادا امتنع أن يكون مجبورا عليه.

وأما نفس الإرادة فحيث إنّها ليست إرادية ، لا يعقل أن يضاف إليها الجبر بأنّ يقال : إنّ المرید كان مجبورا في إرادته ، فإذا زین أحد معصيته في نظر أحد بحيث صار تزيينه لها داعيا ، وعلة لارادتها لا يعدّ المزین فاعلا لها ولا مجبرا عليها ، بل يعدّ سببا ، والفاعل المرید مباشرة للمعصية ، مستحقّا للذمّ عليها بسبب إرادته واختياره.

إن قيل : لا ريب أنّ السبب في صدور فعل القبيح من الغير وتحريكه إليه بإيجاد الداعي له ، قبيح كمباشرة ، فكيف يجوز نسبة وجود الداعي إلى الكفر والمعاصي وتسبب أسبابه إلى الله الحكيم ، مع

(١) في النسخة : الاختياري.

(٢) يونس : ١٠ / ١٠٠ .

امتناع صدور القبيح منه سبحانه ؟

قلنا : هو كذلك إذا لم يكن في صدور الفعل القبيح من الغير أو في إيجاد مقتضيات صدوره جهة حسن وصلاح بالنسبة إلى السبب ، غالبية على جهة القبح والمفسدة في الفعل . وأما إذا كان في الفعل أو وجود الدّاعي إليه في نفس الغير جهة حسن وصلاح غالبية بالنسبة إلى السبب المحرك ، فليس قبيحا ، بل هو في غاية الحسن بالنسبة إليه ، وإن كان في نهاية القبح بالنسبة إلى المباشر ، إذ من الواضح أنّه يختلف الفعل الواحد صلاحا وفسادا باختلاف الأشخاص ، وحسنا وقبحا باختلاف الجهات .

وحيث نقول : مضافا إلى أنّ إفاضة الوجود الذي هو بالبدئية من العقل والعقلاء خير محض على الممكنات القابلة والذوات المستعدّة [و] جود وإحسان وتعليق من حضيض النقص إلى الكمال ، وهما من الحسن بمكان ، كما أنّ منع الفيض من الله قبيح ومحال .

إنّ لكلّ ماله حظ من الوجود سواء كان من الجواهر والأعراض كالخطرات القلبية ، والصّور الخيالية ، والوجودات العلمية ، وحركات الجوارح وغيرها ، حتّى حركة الطّرف ، ومشى التّملة ، وحركة ورق الشجر ، وانتقال الرّمل والحجر ، وغير ذلك ، صلاحا في نظام العالم ، لأنّ جميع العوالم كالشّخص الواحد ، وأجزاؤها كأعضائه ، يتوقف صلاحها بصلاح جميع أجزائها ، وصلاح كلّ جزء يتوقّف على صلاح بقية أجزائها ، فجميع أجزاء العالم مرتبطات ببعضها ببعض ، والإرادة التكوينية علمه تعالى بحسن الإيجاد وصلاح الموجودات ، وبهذه الإرادة توجد جميع الموجودات من المؤثر والأثر ، والصادر والمصدر ، والفاعل والفعل ، والدّواعي ومقتضياتها ، وتتسق أمور الموجودات ويتمّ نظامها . في بيان حقيقة الإرادة التكوينية والتشريعية والفرق بينهما وعدم تنافيهما فإذا كانت الأفعال الإرادية من الماهيات القابلة لفيض الوجود ، ممّا يتوقّف به حسن النظام ، متعلّق بإيجادها ، والإرادة التكوينية بتوسط عللها الطولية من الإرادة ومبادئها ، مثلا إذا أراد الله أن يصل مقدار من المال من زيد بإرادته إلى عمرو ، يذكر زيدا سوء حال عمرو وفقره ، ويحدث الدّاعي إلى الإعطاء في قلب زيد ، ويسهّل عليه إعطاءه ، فيقوم زيد بالإرادة ، ويذهب بالمال إلى باب عمرو فيعطيه ، فيكون هذا الإعطاء من الله تعالى بالتّسبيب ، ومن زيد بقدرته وإرادته ومباشرة . وكذا إذا أراد الله أن يأكل أحد طعاما ، يوجد فيه الاشتهااء ، ويخلق الطّعام ، ويمكّنه من أكله ، ويرفع الموانع عنه ، ويسلّطه عليه فيأكله المشتهي بإرادته

وقدّرتّه وميله وشهوته ، بلا قسر ولا قهر ولا جبر ، مع أنّه قد يكون أكل ذلك الطعام قبيحا بالنسبة إلى الأكل لكونه غصبا ، وإيجاده بالمقدّمات الإرادية حسنا من الله تعالى لكونه مرتبطا بالنظام الأتمّ. ثمّ اعلم أنّ من العناوين القابلة للوجود المرتبطة بالنظام ، عنوان الطاعة والعبوديّة ، وعنوان الطغيان والمعصية ، حيث كان الغرض من إيجاد الموجودات معرفته تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته الجماليّة والجلاليّة ، فلو لم توجد الطاعة والعبوديّة ، لم تظهر صفة لطفه ورحمته ورأفته ، ولو لم يوجد عنوان الطغيان والكفر ، لم تظهر صفة قهّارته ، ولو لم يوجد عنوان المعصية لم تظهر صفة عفوه وغفوريّته ، فعلى هذا تتعلّق الإرادة التكوينيّة بإيجادها بتوسّط إيجاد أسبابها ومقدّماتها.

ومن الواضح أنّ من جملة مقدّماتها جعل الأحكام التّكليفيّة والوضعيّة ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، والوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب ، فتنشأ الأحكام طبقا للإرادات التشريعيّة التي هي عين العلم بحسن بعض الأفعال وصلاحه بالنسبة إلى المكلف ، وقبح بعضها وفساده ، بالإضافة إليه على اختلاف مراتبهما من الحسن والقبح الملزمين وغير الملزمين ، وعلى اختلاف درجات الصلاح والفساد من المهمّ وغيره ، فبالإنشاء البعْثيّ والتّجريّ الناشئ من تلك الإرادة التشريعيّة يحدث الوجوب والاستحباب ، والحُرمة والكراهة.

فظهر من ذلك الفرق بين الإرادة التكوينيّة والتّشريعيّة ، وأنّ الأولى : هي العلم بحسن الإيجاد ، وارتباط الموجود بصلاح النّظام الأتمّ. وأنّ الثانية : هي العلم بحسن صدور الفعل من فاعله وقبحه ، وصلاحه أو فسادِه بالنسبة إليه ، وأنّه لا تنافي بين قبح صدوره من مباشره وحسن التسبّب إليه من سببه ، وإنّه لا تنافي بين كونه اختياريا بالنسبة إلى المباشرة واستحقاقه الثواب أو العقاب عليه ، وبين انتهاء وجوده بعلة الطوليّة إلى إرادة الله ، وإنّه لا تنافي بين كون إيجاده وصدوره متعلّقا بالإرادة التشريعيّة ، وتركه متعلّقا للإرادة التكوينيّة ، لما ذكرنا من أنّ الإرادة التشريعيّة في طول الإرادة التكوينيّة ، ومن مبادئ إنفاذها ، حيث إنّّه لو لم تكن الإرادة التشريعيّة ، لم توجد الطاعة والمعصية اللتان تكونان متعلّقتين للإرادة التكوينيّة.

في وجه الحاجة إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب وأنّ الأحكام التّكليفيّة ألطاف من الله تعالى وتّضح أيضا وجه الحاجة إلى إرسال الرّسل وإنزال الكتب وإظهار المعجزات وفوائدها. ثمّ لما كانت الأحكام التّكليفيّة مقرّبات إلى المحسّنات العقليّة ، ومبعدات عن

قبائحها ، لكونها دواعي الى إتيان ما يأمر به العقل لحسنه أو صلاحه ، وإلى ترك ما ينهى عنه العقل لقبحه وفساده ، كانت جميعها ألطافا من الله ، والتوفيق للقيام بها رحمة وعطوفة منه ^(١) ؛ لأنّ العمل بها مؤثّر في كمال النّفس ، ونورانيّة القلب ، والطّهارة من الأخلاق الرّذيلة السيّئة ، والتّحلّي بالملكات الجميلة الحسنة ، ويكون الانسان بها كاملا في الجهات الانسانيّة ، ومظهرا للصفات الإلهيّة ، وهذا الكمال والمظهرية هو حقيقة القرب إلى ساحة الربوبية ، والفوز بالمقصد الأعلى من التمحّض في العبوديّة ، والاستغراق في بحار الأنوار ، والإرتقاء إلى درجة لا ترقى إليها العقول والأفكار.

ثمّ إنّّه تعالى بعد بيان تعذيب الكفّار بالطبع والخذلان ، هدّدهم بقوله ﴿وَلَهُمْ﴾ خاصّة في الآخرة أو في الدّنيا والآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يدرك شدّته وعظمته إلّا الله ، أمّا في الدّنيا فبالآلام الواردة عليهم من الأخلاق السيّئة والدّلة والمسكنة والطّرد والشّرد والقتل وسائر البليّات ، وأمّا في الآخرة فبنار سجّرها القهّار بغضبه ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفّف عنهم ساعة وهم فيها خالدون.

في أنّ وجه صحّة تعذيب العصاة وإثابة المطيعين هو الاستحقاق العقلي وحسنهما في حكمه.

ثمّ لا يخفى أنّ علّة تعذيب الكفّار والعصاة لا تكون إلّا استحقاقهم الذي يحكم به العقل عند عصيان العبيد مواليهم الذين تجب طاعتهم ، فإذا تحقّق الاستحقاق يجب على الحكيم العمل بمقتضاه ، إذ الحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، وإعطاء الشيء ما يستحقّه. إن قيل : لا شبهة في أنّ العفو عن عقوبة من يستحقّها حسن في حكم العقل ، فيجب على الله بمقتضى حكمته وكرمه.

قلنا : قد تكون المعصية من القبح بمرتبة لا يحسن العفو عن عقوبتها ، ويكون العفو عنها مخالفا للحكمة ، حيث إنّّه كما يعتبر في الإحسان قابليّة المحلّ ، كذلك يعتبر في العفو ، مثلا إذا رأى كريم أجنبيا مع زوجته أو بعض محارمه ونواميسه كامّة وبنته قبح العفو عنه ، إذ العفو في المقام كاشف عن عدم الغيرة. ولذا أمر رسول الله ﷺ عليّا بقتل جريح القبطيّ بمجرد سماع رمية بمراودة مارية عن نفسها ، وكان ﷺ يقول : « كان أبي إبراهيم غيورا ، وأنا أغير منه » ^(٢) .

ولنوضح المقام ببيان مقدّمة ، وهي أنّ فعل القبيح عند العقل والعقلاء مقتض لا استحقاق اللّوم ، والعصيان من العبد مقتض لا استحقاق العقوبة من المولى ، والمراد من الاستحقاق حسن اللّوم

(١) كذا ، والمصدر من عطف : عطفًا وعطوفًا.

(٢) مكارم الأخلاق : ٢٣٩.

والعقوبة في الموضوعين ، وحقيقة الحسن والقبح هي الموافقة لمذاق العقل والمنافرة له ، ولا شبهة أنّ لكلّ منهما مراتب في الشدّة والضعف باعتبار قوّة منشأهما وضعفه ، فقد يكون الحسن في فعل بمرتبة لا يزاحمه حسن آخر إذا دار الأمر بينهما ، ولا قبيح إذا استلزمه فيحسن ارتكابه ، وإنّ لزم منه وجود قبيح آخر أو فوت حسن آخر ، وقد تساوي جهة حسنة جهة حسن ضدّه الذي لا يجامعه في الوجود ، أو جهة قبح لازمه ، فتخيّر الفاعل بين الضدّين في الأوّل وبين التقيضين من الفعل والتّرك في الثاني ، وقد تترجّح إحدى الجهتين على الأخرى رجحانا غير لازم الرّعاية ، فتكون رعايتها أحسن وأفضل.

إذا تمّهد ذلك نقول : لا شبهة في أنّ المعصية منشأ لانتزاع حسن اللّوم والعقوبة من حيث إنّها كاشفة عن خبث النفس وسوء السّريّة ، ثمّ إنّّه قد يتدارك بالتّوبة أو بطاعة مقبولة فينتفي بوجود أحدهما منشأ انتزاع حسن العقوبة.

وبعبارة أخرى التّوبة أو الطاعة المقبولة في حكم العقل مزاحمان لمقتضى الاستحقاق ومزيلان له ، ومع عدمهما قد يكون حسن العفو مساويا لحسن العقوبة ، وقد يترجّح عليه برجحان غير ملزم فيما لم يكن مقتضى العقوبة في غاية القوّة ، مثلا الكفر والشرك يكونان في اقتضاء العقوبة بدرجة يخرجان صاحبهما عن قابليّة العفو ، حيث إنّهما يورثان ظلّمة محيطّة بالقلب ، بحيث لا تبقى فيه شائبة النور ، ويخرج عن مسانحة عالم الأنوار ، ويصير مناسبا لعالم الظلمات ، ويكون كالشّجر اليابس لا يليق إلّا للإحراق بالنّار ، وكالشّيطان لا ينبغي إلّا أن يكون قرينا للشّياطين في دار البوار ، وليس إسكانه في الجنان إلّا كإسكان الكلب الأجرب العقور على سرير السّلطان.

في بيان أنّ العفو عن الكافر خلاف الحكمة ووضع الشيء في غير موضعه والحاصل : إنّ العفو عنه ، والرّحمة عليه ، والإحسان إليه ، خلاف الحكمة ، ومن قبيل وضع الشيء في غير موضعه ، وقد ورد في الدعاء المأثور : « وأيقنت أنّك أنت أرحم الرّاحمين في موضع العفو والرّحمة ، وأشدّ المعاقبين في موضع النّكال والنّقمة » ^(١) .

فإنّ من الواضح أنّ الشّقاوة ملازمة للبعد والهلاك ، وإنّما الوعد بالعذاب في الحقيقة إخبار بوجود الملاك.

(١) إقبال الأعمال : ٥٨ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ

اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾

ثم إنَّه تعالى بعد ذكر المتقين ومدحهم بالصفات الحسنة ووعدهم بالهدى والفلاح ، وذكر الكفار وذمهم بالأخلاق السيئة وتويعيدهم بالعذاب العظيم ، شرع في بيان حال القسم الثالث من الناس ، وهم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويطنون الكفر ، بقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ بلسانه ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والحال أنَّهم كاذبون فيما يقولون ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولا معدودين في زمرة من لدن دخول الإيمان في قلوبهم.

عن القمّي رحمه الله : أمَّا نزلت في قوم منافقين أظهرها لرسول الله ﷺ الإسلام ، وكانوا إذا رأوا الكفار قالوا : إنَّا معكم . وإذا لقوا المؤمنين قالوا : نحن مؤمنون (١) .

وعن الصادق عليه السلام أنه قال : « إِنَّ الْحَكَمَ بِنِ عَتِيْبَةَ مَنَّ قَالَ اللَّهُ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فَلْيَشْرِقْ الْحَكَمَ وَلْيَغْرِبْ ، أَمَا وَاللَّهِ لَا يَصِيبُ الْعِلْمَ إِلَّا مَنْ أَهْلَ بَيْتِ نَزَلَ عَلَيْهِمْ جِبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ » (٢) .

وعن (تفسير الإمام عليه السلام) : عن موسى بن جعفر صلوات الله عليهما - في رواية طويلة ذكر فيها قضية يوم الغدير ، ونصب رسول الله ﷺ عليا عليه السلام للخلافة ، وأمره الصحابة ببيعته بإمرة المؤمنين - إلى أن قال : ثم إنَّ قوما من متمردِي جبابرتهم تواطؤوا بينهم إن كانت لمحمد كائنة لنُدفعن هذا الأمر عن علي ، ولا يتركونه [له] ، فعرف الله ذلك في قلوبهم . وكانوا يأتون رسول الله ﷺ ويقولون له : لقد أقمت عليا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا ، كفيتنا به مؤنة الظلمة والجبابرة ، وسياستنا (٣) .

وعلم الله في (٤) قلوبهم خلاف ذلك ومواطأة (٥) بعضهم لبعض أمم على العداوة مقيمون ، ولدفع الأمر عن مؤثره (٦) مؤثرون ، فأخبر الله تعالى محمدا ﷺ عنهم ، فقال : يا محمد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الذي أمرك بنصب علي إماما وسائسا لامتك ومدبرا ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك ولكنهم موافقون على هلاكك وهلاكه » (٧) الخبر .

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤ .

(٢) الكافي ١ : ٣٢٩ / ٤ .

(٣) في المصدر : والجائرين في سياستنا .

(٤) في المصدر : من .

(٥) في المصدر : ومن موافقة .

(٦) في المصدر : مستحقه .

(٧) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ١١٢ / ٥٨ . وفيه : ولكنهم يتواطؤون على إهلاكك وإهلاكه .

أقول : الظاهر - بالنظر إلى الروايات - أنَّ شأن نزول الآية جماعة المنافقين الذين كانوا من أصحابه ﷺ ولكنها جارية على سائر المنافقين في سائر الأزمنة إلى يوم القيامة ، وفيها دلالة على أنه لا ينبغي الوثوق بإيمان كل من كان داخلا في الصحابة وعمله وقوله حسنا في الظاهر ، كما هو مبنى مذهب العامة ، وفيها إشعار أيضا بأنَّ أهم أركان الإيمان هو الإيمان بالمبدأ والمعاد.

ثم قرعهم الله بقوله : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ بمعاملتهم مع رسوله معاملة المخادع ، ولكونه ﷺ خليفة الله ومظهر صفاته وعينه الناظرة ويده الباسطة واذنه الواعية نزل مخادعته منزلة مخادعة الله.

عن ابن بابويه : عن الصادق عليه السلام عن أبيه « [أنَّ رسول الله ﷺ] سئل : فيما التجارة غدا ؟ فقال : إنما التجارة في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم ، فإنه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان ، ونفسه يخدع لو يشعر . ف قيل له : وكيف يخادع الله ؟ فقال : يعمل بما أمره الله عز وجل به ثم يريد به غيره ، فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فإنه شرك بالله عز وجل ، إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء : يا كافر ، يا فاجر ، يا غادر ، يا خاسر » (١) الخبر .

وفيه دلالة على أنَّ مخادعة الله لا تختص بالمنافق المعروف ، بل تعم كل من يظهر شأنا ومقاما من الدِّين وهو ليس بواحد له ، وكل من يظهر حقًا لا يوافق ظاهره باطنه ﴿و﴾ يخادعون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأنَّ ضرر مخادعتهم راجع إلى أنفسهم لا إلى المؤمنين ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يخديعتهم ونفاقهم يضرون على أنفسهم ، بل يحسبون أنهم يجلبون النفع ، أو لا يشعرون أنه لا يمكنهم الخديعة بالنسبة إلى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ، فإنَّ الخدعة فعل ما هو مضر على الغير مع إخفاء ضرره وإظهار صلاحه ، والله مطلع على خفايا أمورهم ، وكفر باطنهم ، وهو يطلع نبيه والمؤمنين ، ويأمرهم بلعنهم ، فيكون الأمر بخلاف ما تحيلوا ، حيث إنَّ نفاقهم مضر عليهم مع خفاء ضرره عنهم ، وفي سلب الحواس الحيوانية عنهم دلالة على انخطاطهم عن مرتبة البهائم.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
 الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾

(١) أمالي الصدوق : ٦٧٧ / ٩٢١ .

ثم كأنه يقال : ما سبب نفاقهم مع وضوح الحق ؟ فقال تعالى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ عظيم من الحسد والكبر وحب الجاه والعناد للحق ، فأورث فساد أوراخهم وهلاكهم الأبدي ، وأين هذا المرض من الأمراض الجسمائية التي غاية شدتها أن تنتهي إلى الموت وفساد الجسد !
وفي الحديث : « القلوب أربعة : قلب فيه نفاق وإيمان ، إذا أدرك الموت صاحبه على نفاقه هلك ، وإن أدركه على إيمانه نجا ، وقلب منكوس وهو قلب المشرك ، وقلب مطبوع وهو قلب المنافق ، وقلب أزهر أجرد وهو قلب المؤمن ، فيه كهيفة السراج ، إن أعطاه الله شكر ، وإن ابتلاه صبر »
(١) الخبر .

﴿ **فَزَادَهُمُ اللَّهُ** ﴾ بسبب ظهور الآيات ، وتوافر المعجزات ، وزيادة حشمة النبي ﷺ ، وقوة الإسلام ﴿ **مَرَضًا** ﴾ وحسدا زائدا على حسدهم ، وبغضا وعنادا أشد من بغضهم وعنادهم السابق ، فإن الأمراض القلبية تتزايد ، والصفات الدميمة تشتد إذا لم تعالج عند الأطباء الروحانيين وهم الأنبياء والأولياء .

ثم هددهم الله بقوله : ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ بالغ ألمه غايته ﴿ **بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ في قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر ، أو قولهم : إننا على البيعة والعهد مقيمون .
ثم بالغ سبحانه في بيان غاية خبثهم وقساوتهم ببيان عدم قبولهم النصيح ، بقوله : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** ﴾ نصحا ووعظا ، والظاهر أنّ القائل بعض المؤمنين المطلعين على فساد نيتهم وإفسادهم ﴿ **لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾

قيل : كان فسادهم فيها أنهم كانوا يميلون الكفار على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم ، وإغرائهم عليهم ، وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم .
وقيل : هو مداراتهم الكفار ومخالطتهم إياهم ، حيث يوهم ذلك مع تظاهروهم بالإيمان ، ضعف أمر النبي وأصحابه ، فيصير سببا لطمع الكفار فيهم فتهيج الفتن والحروب بينهم .
وقيل : كانوا يدعون في السر إلى تكذيب النبي ﷺ ، ويلقون الشبه في قلوب المؤمنين .
وعن ابن عباس : أنّ المراد بالإفساد إظهار معصية الله (٢) . فإنّ الشرائع سنن موضوعة بين العباد ، فإذا تمسك الخلق بها زال العدوان ولزم كل شأنه ، فحققت الدماء ، وضبطت الأموال ، وحفظت الفروج ، فكان ذلك صلاح الأرض وأهلها ، أما إذا أهملت الشريعة وأقدم كل أحد على ما يهواه ، اشتعلت نواثر

(١) الكافي ٢ : ٣٠٩ / ٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢ : ٦٦ .

الفتن من كلِّ جانب ، وحدثت المفاسد.

وعن العالم موسى بن جعفر عليه السلام : « أنه إذا قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة في يوم الغدير : لا تفسدوا في الأرض بإظهار نكث البيعة لعباد الله المستضعفين فتشوشوا عليهم دينهم وتحيروهم في دينهم ومذاهبهم » ^(١) . الخبر .

أقول : الظاهر إرادة جميع أنحاء الفساد للإطلاق ، وعدم ما يدلّ على إرادة فساد خاصّ ، بل الظاهر من حالهم أنّهم كانوا لا يتركون شيئا مما يوجب الفساد في الدّين وأمر نبوة خاتم النبيّين ، وكذا في أمر خلافة أمير المؤمنين عليه السلام عند قدرتهم عليه ، وتيسّره لهم .

ومع ذلك **﴿قَالُوا﴾** جوابا للناصحين من المؤمنين ، وردّا عليهم : لسنا مفسدين ، بل **﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** بين المشركين والمسلمين بالمداراة معهم ، أو المراد أنّهم قالوا لمن كان على طريقتهم وعقيدتهم من الكفر : إنّ نقافتنا وإلقاء الفتنة بين المشركين والمسلمين وإلقاء الشبهات في قلوب المؤمنين محض الصلاح والإصلاح ، حيث إنّنا بتلك الأعمال نحفظ ديننا من اليهوديّة والنسيّة ، ودماءنا وأعراضنا وأموالنا بإظهار الإسلام .

وعن موسى بن جعفر عليه السلام : « قالوا - يعني الناكثين لبيعة أمير المؤمنين عليه السلام - إنّما نحن مصلحون لأنّنا لا نعتقد دين محمد صلى الله عليه وآله ولا غير دين محمد ، ونحن في الدّين متحيّرون ، فنحن نرضي في الظاهر محمدا بإظهار قبول دينه وشريعته ، ونقضي في الباطن على شهواتنا ، فنتمتع ونترقه ونعتق أنفسنا من دين محمد ونكفها من طاعة عليّ لكيلا نذلّ في الدنيا » ^(٢) . الخبر .

فردّ الله عليهم بقوله : **﴿أَلَا﴾** تنبّهوا أيّها المؤمنون **﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾** في الأرض ، لا مفسد أفسد منهم ، لأنّ عملهم عين الفساد ومحضه ، حيث إنّّه تشييد للباطل ، وتضعيف للحقّ ، وإثارة للفتن ، وسبب لكثرة الحروب وإراقة الدّماء ، مع غلبة المسلمين .

أو المراد « أنّهم مفسدون امور أنفسهم بما يفعلون ، حيث إنّ الله تعالى يعرف نبيّه صلى الله عليه وآله نفاقهم ، فهو يلعنهم ويأمر المسلمين بلعنهم أيضا ، ولا يثق بهم أعداء المؤمنين لأنّهم يظنون أنّهم ينافقونهم أيضا

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ١١٨ / ٦١ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ١١٨ / ٦١ .

كما ينافقون أصحاب محمد ﷺ فلا ترتفع لهم عندهم منزلة ، ولا يحلون عندهم بمحل الثقة « (١) »
هكذا مروى عن المعصوم.

ثم استدرك الله تعالى ، بقوله ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون ، للإيدان بأن تمحضهم في
الإفساد من المحسوسات ، لكن لا حس لهم حتى يدركوه ، أو المراد أنهم لا يشعرون بعدم انتفاعهم
بالنفاق ، بل يتضررون به أشد الضرر ، أو المراد أنهم لا يشعرون أن صلاح أمرهم في العاجل والآجل
في الإيمان والتسليم والوفاء ببيعة أمير المؤمنين علياً .

قيل : في الآية إشعار بشرف المؤمنين ، حيث تولى الله عنهم جواب المنافقين (٢) .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْ نُؤْمِنَ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى
شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتْ
تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾

ثم أكد الله بيان خصلتهم السيئة بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ من طرف المؤمنين ، بطريق الأمر
بالمعروف عقيب نهيهم عن المنكر ، إتماماً للتصح وإكمالا للإرشاد : ﴿آمِنُوا﴾ بالله واليوم الآخر
ونبوة محمد ﷺ وما جاء به إيماناً حقيقياً لا يشوبه شك ولا نفاق ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ المخلصون
من أصحاب الرسول ﷺ الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، كسلمان وأبي ذر والمقداد وأضرابهم
﴿قَالُوا﴾ لأصحابهم المطلعين على سرهم ، الموافقين لهم في كفرهم ، إنكاراً وتعجيباً : ﴿أَنْ نُؤْمِنَ﴾
بمحمد ﷺ ودينه ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الذين هم لضعف عقولهم رفضوا دين آبائهم ، وأعرضوا
عن أرحامهم وأقربائهم ، وتركوا جاههم وثروتهم ، ورضوا بالذلّة والمسكنة لأنفسهم ، واتبعوا هذا
الرجل الضعيف ، وعن قريب يتهاجم عليهم العرب ويقتلونهم عن آخرهم ، فينقطع خبرهم ،
وينمحي أثرهم.

فردّ الله عليهم بقوله : ﴿أَلَا﴾ تنبّهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ القاصرون عن معرفة
النبي ﷺ بأنه مؤيد منصور ، وأنّ دينه يقوى ويدوم مرّ الليالي والدهور ، وأنه نبي الرحمة ، وأنّ الذين

(٢١) تفسير روح البيان ١ : ٥٨.

اتَّبِعُوهُ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّهُ يَضْرِبُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ الدَّلَّ وَالْهَوَانَ ، وَأَنَّهُ بَابُ اللَّهِ الْجَارِي مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ ، وَذَلِكَ وَاضِحٌ لِمَنْ عَلِمَ تَارِيخَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقَةِ ، وَالْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿وَلَكِنْ﴾ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَحْوَالُ الْأَنْبِيَاءِ وَتَأْيِيدَاتُهُمُ الْغَيْبِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ وَلَا يَطَّلِعُونَ عَلَى تَوَارِيخِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ.

أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمُ السَّفَهَاءُ ، وَلَا يَحِيطُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِإِيمَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ يَبْعُدُونَ عَنِ السَّفَهَةِ وَالْجَهَالَةِ رَاغِبِينَ ^(١) فِي الْعِلْمِ وَطَلَبِ الْحَقِّ.

ثُمَّ أَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ نِفَاقِهِمْ ، بِقَوْلِهِ : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَصَادَفُوهُمْ ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا ﴿آمَنَّا﴾ بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ وَاجْتَمَعُوا فِي الْخُلُوعِ مَعَ سَائِرِ الْمُنَافِقِينَ الْمَغْوِينَ لَهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ وَتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ وَخِدَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ﴾ بِتَصْدِيقِ النَّبِيِّ وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ ، سَاخِرُونَ مِنْهُمْ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْطُرَ بِيَالِنَا الْإِيمَانُ ، وَإِنَّمَا نَظْهَرُ مُوَافَقَتَهُمْ لِنَأْمَنَ مِنْ شَرِّهِمْ ، وَنَطَّلَعَ عَلَى سَرِّهِمْ وَنَنْكَحَ بَنَاتِهِمْ ، وَنُشَارِكُهُمْ فِي غَنَائِهِمْ وَصَدَقَاتِهِمْ.

مِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوا ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لِأَصْحَابِهِ : انْظُرُوا كَيْفَ أَرَدَ ^(٢) ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ، وَسَيِّدُ بَنِي هَاشِمٍ خَلَا ^(٣) رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَنَافِقْ ، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ شَرُّ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَسَنِ ، وَاللَّهِ إِنَّ إِيْمَانَنَا كِإِيْمَانِكُمْ ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لِأَصْحَابِهِ : كَيْفَ رَأَيْتُمْ مَا فَعَلْتُ ؟ فَأَتَيْنَا عَلَيْهِ خَيْرًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الْآيَةُ ^(٤)

قَالَ مَوْقِفُ بْنُ أَحْمَدَ رَاوِي التَّوَايَةِ : فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى إِيْمَانِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَعَلَى قَطْعِهِ مَوَالَاةِ الْمُنَافِقِينَ ، وَإِظْهَارِ عِدَاوَتِهِمْ ^(٥) .

وَعَنْ ابْنِ شَهْرٍ أَشُوبَ : عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَتَاهَا نَزَلَتْ فِي ثَلَاثَةِ لِمَا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْوِلَايَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَظْهَرُوا الْإِيْمَانَ وَالتَّضَامُنَ بِذَلِكَ ، فَلَمَّا خَلَوْا بِأَعْدَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ **إِنَّمَا**

(١) فِي النِّسْخَةِ : رَاغِبُونَ.

(٢) فِي الْمَنَاقِبِ : أَرَادَ.

(٣) فِي الْمَنَاقِبِ : حَتَّنَ.

(٤) مَنَاقِبُ الْخَوَارِزْمِيِّ : ١٩٦.

(٥) مَنَاقِبُ الْخَوَارِزْمِيِّ : ١٩٦.

نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ ﴿١﴾ .

وعن تفسير الهذيل ، ومقاتل : عن محمد بن الحنفية - في خبر طويل - ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ بعلي بن أبي طالب فقال الله تعالى شأنه : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يعني يجازيهم في الآخرة جزاء استهزائهم بأمر المؤمنين ﷺ (٢) .

وقيل : إنّ المراد أن الله يعامل معهم في الدنيا والآخرة معاملة المستهزئ ، أمّا في الدنيا فبأن جعل لهم أحكام الاسلام في الظاهر ، فيحسبون أنّ لهم عند الله كرامة ، وهم في غاية الهوان لكفرهم.

وأما في الآخرة : فقد روي عن محمد بن الحنفية ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله الخلق بالجواز على الصراط ، فيجوز المؤمنون إلى الجنة ، ويسقط المنافقون في جهنم [فيقول الله : يا مالك استهزئ بالمنافقين في جهنم] فيفتح مالك بابا من جهنم إلى الجنة ، ويناديه : معاشر المنافقين ، هاهنا هاهنا ، اصعدوا إلى الجنة فيسبح المنافقون في بحار (٣) جهنم سبعين خريفا حتى إذا بلغوا إلى باب الجنة وهموا بالخروج أغلقه دونهم ، وفتح له بابا من الجنة من موضع آخر ، فيناديهم : اخرجوا إلى الجنة ، فيسبحون مثل الأول ، فإذا وصلوا إليه أغلق دونهم ويفتح من موضع آخر ، وهكذا أبد الآبدين (٤) .

وفي حديث : يؤمر بنفر من الناس يوم القيامة إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ، ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعدّ الله تعالى لأهلها نودوا أن انصرفوا (٥) عنها لا نصيب لكم فيها . فيرجعون بحسرة وندامة ما رجع الأولون والآخرين بمثلها ، فيقولون : يا ربنا ، لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثواب ما أعددت لأولئلك ! فيقول : ذلك أردت بكم ، كنتم إذا خلوتكم بي بارزقوني بالعظام ، فإذا لقيتم الناس لقيتموهم محبتين (٦) ، تراؤن الناس ، وتظهرون خلاف ما انطوت قلوبكم عليه ، هبتم الدنيا ولم تحابوني ، وأجللتهم الناس ولم تحلّوني ، وتركتم للناس ولم تتركوا لي ، فاليوم اذيقكم أليم عذابي مع ما حرمتكم .

قيل : في الآية إشعار بكرامة المؤمن على الله ، حيث تدلّ على أنّه سبحانه يستهزئ بمن استهزأ

(١) تفسير البرهان ١ : ١٤٥ / ٣٣٧ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٩٤ .

(٣) في المناقب : في نار .

(٤) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٩٤ ، بحار الأنوار ٨ : ٣٠١ / ٥٦ .

(٥) في النسخة : اصرفوا .

(٦) أي خاشعين متواضعين .

بالمؤمن ، كأنَّه ينوب عن المؤمن في الاستهزاء بالمستهزئ به ، ويجازيهم بالهوان والخيبة في الدنيا ، وبتعذيب يضحك به المؤمن في الآخرة.

ثم أكَّد الله تعالى تهديدهم ، بقوله : ﴿وَيُمَدِّدُهُمْ﴾ ويزيدهم ويقوِّيهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ ويتجاوزهم عن الحدِّ في العناد والإصرار على الكفر والعصيان ، وإنَّما إمداده تعالى لهم يكون بالإمهال والخذلان في الدنيا بسبب منع الألفاف عنهم ، حتَّى يتزايد في المدة الطويلة من أعمارهم الرِّين والظلمة في قلوبهم ، فيستحقُّون زيادة العذاب والتَّكال في الآخرة.

ولذا فسَّر القمي رحمته الله : المدِّ ، بالدَّعة ، حيث قال : أي يدعهم ^(١) ، حال كونهم في مدَّة تعيَّشهم في الدنيا ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتردَّدون في الضَّلالة عمي القلوب ، حيارى ، لا يدرون أين يتوجَّهون ، وفي أيِّ طريق يسلكون ، إذ لا يمكنهم الجمع بين الإسلام والكفر ، وصحبة الأبرار والفجَّار ، فهم ﴿مُذْبَذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ ^(٢) بل هذا حال كلِّ من أراد الجمع بين الدنيا والآخرة مع أنَّهما ضرتَّان.

ثم بيَّن الله تعالى غاية سفاهتهم ، وضعف عقولهم ، بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المنافقون المتميِّزون عن سائر النَّاس بأقبح الصفات ، البعيدون من رحمة الله ، هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوْا﴾ وبادلوا ﴿الصَّلَاةَ بِالْهَدْيِ﴾ واختاروا لأنفسهم الكفر بعوض الإيمان ، والباطل بعوض الحقِّ الذي جاءهم من قبل الله ، وكأَنَّهُمْ تملَّكوه ثم رفعوا اليد عنه ، وأخذوا الكفر بدله فكأَنَّهُمْ عاوضوه به ، فأَيُّ صفقة أخسر من هذه؟

ثم كأنَّه يقال : فما يكون حال المشتريين ؟ فيقال : إذا اشتروا ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ بل خسرت خسارنا مبينا ، حيث فاتهم نعيم الأبد ، ولازمهم العذاب المخلَّد ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النَّجاة وما كانوا عالمين بصلاح المعاملة ، ولذا ابتلوا بغاية الخسارة حيث إنَّ المقصود من التجارة سلامة رأس المال مع حصول الرِّبح ، وهم لجهلهم وغباوتهم أتلَّفوا رأس المال من الفطرة السَّليمة والعقل المستقيم ، والعمر الطويل في متجر الدنيا وسوقها المعدَّ لتحصيل الرِّبح الدائم والثَّواب العظيم ، بهذا المتاع الذي أعطاهم الله إيَّاه.

عن العالم عليه السلام : « وما كانوا مهتدين إلى الحقِّ والصواب » ^(٣) .

وعن القمي رحمته الله في تفسير الضَّلالة والهدى ، قال : الضَّلالة هاهنا : الحيرة ، والهدى : البيان.

فاختاروا

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤ .

(٢) النساء : ٤ / ١٤٣ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ١٢٦ .

الحيرة والضلالة على الهدى والبيان (١) .

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ
مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾

ثم إنه تعالى بعد بيان حقيقة حال المنافقين ، عقبها بضرب مثل لها ، زيادة في التوضيح
والتقرير - حيث إنَّ التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل
الغبي حقائق الأمور. قيل : إنَّ أمثال القرآن العزيز من أعظم علومه ، والناس في غفلة عنه - فقال :
﴿مَثَلُهُمْ﴾ وحالهم العجيبة ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ مثل حال من طلب إيقادها وارتفاع لهبها
حتى ينتفع بضوئها وسائر منافعها ﴿فَلَمَّا﴾ توقدت و﴿أَضَاءَتْ﴾ تلك النار الموقدة أطراف المستوقد
و﴿مَا حَوْلَهُ﴾ من الأشياء خمدت وذهب نورها وضياؤها بريح أو مطر ، فحرم المستوقد من نفعها ،
وبقي عليه التعب.

وهذا الجواب المقدر للمّا يعلم من بيان حال المشبه ، وهم المنافقون في قوله تعالى : ﴿ذَهَبَ
اللَّهُ﴾ وأخذ ﴿بِنُورِهِمْ﴾ وهو الإسلام الصّوري الظاهري بتفضيحهم على لسان رسوله أو بإمامتهم ،
فحرموا من منفعه في الدنيا من شركتهم في الغنائم والصدقات والمناكحة وسائر أحكام الاسلام
﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ الله ، وطرحهم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ متراكمة شديدة غاية الشدة ، من ظلمة الكفر والطغيان
والحسد والعصيان ، كما أنّهم في الآخرة في ظلمة القيامة ، وظلمة الغي ، وظلمة سخط الله ، فلا
يبقى لهم من النور في الدارين شيء أبداً.

فإذن حالهم أنّهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ طريق الحقّ وشيئا من آياته ، ولا يرون سبيل الخلاص من
ضرر المسلمين في الدنيا ، كما أنّهم لا يجدون المناص من أهوال القيامة وعذابها في الآخرة.

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ﴾ وما بعده جوابا للمّا ، وإفراد ضمير ﴿حَوْلَهُ﴾ العائد

إلى

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤ .

المستوقد باعتبار لفظه ، وجمع سائر الضمائر الراجعة إليه باعتبار معناه ، حيث إنه جنس صادق على كثيرين .

عن ابن بابويه عليه السلام : بإسناده ، عن إبراهيم بن أبي محمود ، قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى : ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يوصف بالترك كما يوصف خلقه ، ولكنّه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلال ، منعهم المعاونة واللطف ، وخلق بينهم وبين اختيارهم » ^(١) .

أقول : لعلّ المراد أنّ الترك بمعنى العدم لا ينسب إلى الله تعالى ، فهو هنا بمعنى الكفّ والمنع الذي هو فعل وجودي قابل لأن يتّصف الله به .

ثمّ بالغ سبحانه في تبين غاية ضلالة المنافقين ، بقوله : ﴿صُمُّوا﴾ منسدّو المسامع ، لا يسمعون المواعظ وآيات القرآن وبراهين الحقّ ﴿بُكِّمُوا﴾ خرس الألسن ، لا ينطقون بالحق ، ولا يقرّون به ﴿عُمِّيُوا﴾ فاقدو الأبصار ، لا ينظرون إلى المعجزات والعبر التي تؤدّ بهم إلى الهداية ، ولا بصيرة لهم حتّى يميّزوا الحقّ من الباطل ، ولذا يحشرون في الآخرة عمياً [وبكماً وصمّاً] كما قال تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ ^(٢) .

﴿فَهُمْ﴾ لا تصافهم بهذه الصفات ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا ينصرفون من طريق الضلالة إلى سبيل الهداية ، مع كونهم بحسب الخلقة والفتنة قادرين على الرجوع ، ولكن لما ضيّعوا فطرتهم وأفسدوا عقولهم صار في حقّهم ممتنعاً بالاختيار في الدنيا ، وإن كانوا لا محالة يرجعون إليه في الآخرة ولا ينفعهم .

قال بعض العارفين : العجب كلّ العجب ممّن يهرب ممّا لا انفكاك عنه ، وهو مولاه الذي منّ عليه بكلّ خير وأولاه ، ويطلب ما لا بقاء له معه ، وهو ما يوافق النفس من شهوته وهواه ^(٣) ، ويعرض عن الآخرة وهي الدار الباقية .

ثمّ بالغ سبحانه وتعالى في توضيح حال المنافقين وشدة إعراضهم عن الحقّ بضرب مثل آخر أبلغ

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤ .

(٢) في النسخة : يحشرون في الآخرة أعمى كما قال تعالى : ونحشرهم يوم القيامة أعمى ، والآية من سورة الإسراء : ٩٧ / ١٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٦٨ .

بقوله : ﴿أَوْ﴾ مثل حال المنافقين بعد نزول القرآن الذي به حياة القلوب وتنور الأبصار ﴿كَصَيِّبٍ﴾ قيل : إنَّ المراد مثل حال ذي صَيِّب وصاحب مطر شديد ، نافع للحيوانات ونبات الأرض ، بل جميع الموجودات الجسمانيّة ، نازل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو السَّقْفُ المَطْلُ ، أو جهة العلوّ ، وذكر هذا القيد بناء على إرادة السَّمَاءِ المعروفة ، لعلّه للإشعار بأنَّ أصل جميع الأمطار نازل منها ، كما في كثير من الأخبار خلافاً لمن يقول بأنّها تتكوّن من الأبخرة ^(١) ، وأمّا بناء على إرادة جهة العلوّ فلعلّه لإظهار إحاطته بجميع الأرض ، سهلها وجبلها حال كونه مستقراً ، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ ثلاث : ظلمة السحاب ، وظلمة الشدّة والتكاثف ، وظلمة الليل ، ﴿وَوَ﴾ فيه ﴿رَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ .

ثمّ كأنّه يقال : ما يكون عمل أصحاب الصَّيِّب في هذه الحال ؟ فيقال : إنَّهم ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾ جميعها ويدخلونها ﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ من شدّة الدهشة والوحشة ، ولا يكتفون بجعل الأنامل ، كما هو المعتاد والممكن ، وفيه غاية المبالغة في حرصهم على سدّ مسامعهم خوفاً ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ قيل : هي رعود هائلة تنقضّ منها شعلة نار محرقة ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وتحزّزا من الهلاك بسبب انشقاق قلوبهم ، وطلباً للسلامة منه ﴿وَاللَّهُ﴾ العظيم القادر العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء ﴿مُحِيطٌ﴾ ومحدق بقدرته وعلمه ﴿بِالْكَافِرِينَ﴾ المنافقين وغيرهم ، عالم بأسرارهم ، قادر على عقوبتهم . ثمّ كأنّه قيل : كيف يكون حال أصحاب المطر حين لمعان البرق ؟ فقال تعالى ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ الالامع من السحاب ﴿يَخْطِفُ﴾ ويستلب بسبب شدّة ضوئه ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ ونور ناظرهم .

ثمّ كأنّه قيل : فما يكون عملهم في هذا الحال ؟ فقال تعالى : ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ البرق ﴿لَهُمْ﴾ في تلك الظلمات ، وأثار طريقهم ومسلكهم ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ وخطوا خطوات يسيرة . قيل : عبّر عن سيرهم بالمشي دون السعي والعدو اللذين فوق المشي للإشعار بشدّة دهشتهم ، بحيث لا يقدرّون عليها ﴿وَإِذَا﴾ خفي البرق و﴿أَظْلَمَ﴾ الطريق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصار مسلكهم مظلماً ﴿فَاقَامُوا﴾ ووقفوا في أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة ، متحيّرين مترصّدين لحظة أخرى ، عسى أن يتيسّر لهم الوصول إلى المقصد ، أو الالتجاء إلى ملجأ عاصم لهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وأراد ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فيبقوا في تلك الأهوال والشدائد مأخوذاً عنهم أسباب التخلّص ، إذ المبدأ للخلاص هو الإدراك ،

(١) قوله تعالى : ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إشارة إلى جهة نزول المطر ، أي يأتي من جهة السماء ، وليس فيه إشارة إلى أن السماء مبدأ تكوّنه ، بل الثابت علمياً أن مبدأ تكون المطر من الأبخرة .

والعمدة في أسبابه هو السمع والبصر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممكن قابل لتعلق الإرادة بوجوده ﴿قَدِيرٌ﴾ بذاته لا يحتاج إلى معاونة غيره ، ولا يزاخه شيء في أمره.

كذلك حال المنافقين ، حيث نزل عليهم القرآن ، وأشتدّ نور الآيات البيّنات في أنظارهم ، بحيث لم يبق لهم مجال للشكّ والريب ، وهو بشدّة حبّهم الدّنيا ، كلّما كان في الاقرار بالآيات وإظهار تبعيّةها نفع لهم من العزّة والشركة في الغنائم وسائر أحكام الإسلام النافعة لهم في دنياهم ، أفترّوا بها ، وأظهروا اتّباعها والانقياد لها. وإذا كان فيها ضرر عليهم من التكاليف الشاقّة ، كوجوب الجهاد ، والإنفاق في سبيل الله ، وخفض الجناح للمؤمنين وترك موادّة الأرحام والأقارب ، تركوا اتّباعها وأعرضوا عن موافقتها.

وحاصل الآيتين أنّه تعالى شبّه القرآن وما فيه من المعارف والحكم التي هي مدار الحياة الأبديّة بالصيّب الذي هو سبب الحياة الأرضيّة ، وما عرض لهم بنزولها من الشّكوك والشبهات والغموم والأحزان وانكشاف الحال بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرّعد والبرق ، وتصاممهم عمّا يقرع أسماعهم من الوعيد والتهديد بحال من يهوله الرّعد والبرق ، فيخاف صواعقه فيسدّ أذنه ، واهتزّاهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رقد يحرزونه بمشيهم في مطرح ضوء البرق ، وتحيرهم في أمرهم حين عنّ بهم معصية أو رأوا في التكاليف ما يشقّ عليهم أو يخالف هواهم بوقوفهم إذا أظلم عليهم.

في أن المنافق أسوء حالا من الكافر

وفي الاقتصار في ذمّ الكفّار وتهديدهم بآيتين ، والإكثار في ذمّ المنافقين وتهديدهم بثلاث عشرة آية ، إشعار بأنّ المنافق أسوء حالا من الكافر ، والاعتبار يساعده لكونهم أشدّ ضررا على الإسلام والمسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ

مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾

ثمّ إنّّه تعالى بعد ما بيّن أنّ القرآن العظيم هاد إلى الصّراط المستقيم ، وأنّ المتّقين هم المنتفعون به الموقّقون بسلوكه ، وأنّ الكفّار والمنافقين هم المنحرفون منه ، شرع بلطفه ورحمته في دعوة جميع

المكلفين إلى السلوك في طريق الهداية والقيام بوظائف العبودية.

ولما كان مهمًّا في الغاية وشفافًا على نفوس العامة باشر بذاته المقدسة مخاطبتهم بطريق المشافهة لتنجير المشقة بلذة المحاطبة ، وترتفع بحلاوة النداء مرارة الصبر على التعب والعناء ، وتوجه القلوب نحو التلقّي والإصغاء ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾ وأطيعوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ واخضعوا له.

وفي ذكر صفة الربوبية دلالة على أنّها مقتضية لنهاية العبودية ، وأنّ نعمه غير المتناهية موجبة لغاية الشكر ، ومؤثرة في كمال المحبوبة ، ولذا عدّ بعد توصيف نفسه بها وإضافتها إليهم جملة من نعمه الفائقة ، أسبقها وأتمّها وأعلاها نعمة إيجاد العبد ، ولذا قدّمها في الذكر بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وقدركم وأنعم عليكم نعمة الوجود التي هي أصل النعم ، ومن الواضح أنّ هذه النعمة أعظم العلل الموجبة للعبادة الخالصة ، ولو مع قطع النظر عن كونها نعمة.

ثم أردفها بذكر نعمة خلق الاصول التي هي دون الاولى وفوق سائر النعم ، بقوله : ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الآباء والأمهات ، حيث إنّ خلقهم من مقدّمات خلق المخاطبين ، مع أنّ النعمة على الآباء والأمهات من موجبات الشكر على الأبناء والأولاد ، كما قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾^(١) مع أنّ في ذكر هذا الوصف دلالة على تفريده تعالى بخلق المخاطبين ، إذ لو لم يكن خالقًا لاصولهم ، بل كان خالقًا لاصولهم غيره ، لم تنحصر شؤون الخلق - وهي العبادة - به تعالى ، بل شاركه من هو خالق الاصول ، أو من كان له في خلقهم نصيب.

ويحتمل أن يكون المراد بالموصول جميع السابقين ، لكون خلقهم من مقدّمات وجود اللاحقين ، ولكونه في الدلالة على كمال القدرة أتمّ.

ثم بيّن الله تعالى فائدة العبارة المأمور بها ، بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سخط الله وعذابه ، وتحتزون منه بسبب عبادته ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة بيانًا لغرض خلق الناس ، كما قال تعالى : ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) .

عن (تفسير الإمام عليّ) في هذه الآية ، أنّه قال : « لها وجهان :

أحدهما : [خلقكم] وخلق الذين من قبلكم لعلكم كلّكم تتقون ، أي لتتقوا ، كما قال الله

عزّ وجلّ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(١) النمل : ٢٧ / ١٩ ، الأحقاف : ٤٦ / ١٥ .

(٢) الذاريات : ٥١ / ٥٦ .

والوجه الآخر : اعبدوا الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أي اعبدوه لعلكم تتقون النار ، و (لعل) من الله واجب ، لأنه أكرم من أن يعنى عبده بلا منفعة ، ويطمعه في فضله ثم يخيبه ، ألا ترى كيف قبح من عبد من عباده إذا قال لرجل : اخدمني لعلك تنتفع بي ، ولعلي أنفعك. فيخدمه ثم يخيبه ولا ينفعه ؟ فالله عز وجل أكرم في أفعاله ، وأبعد من القبيح في أعماله من عباده .

في بيان أن كلمة لعل في كلام الله مستعملة في معناها الحقيقي أقول : لا يبعد أن تكون كلمة لعل موضوعة للدلالة على صلاحية متعلقة وشأنية ، لأن يرغب فيه ويتقرب وقوعه ، وعلى هذا يكون استعماله من الله حقيقة ، حيث إن الرجاء الذي هو ملازم التردد والشك ، يكون من اللوازم الغالبة^(١) في النفوس البشرية ، ثم فيه تنبيه على أن التقوى منتهى درجة الكمال ، وتخصيص الموجودين بالخطاب مع محبوبية التقوى من كل أحد إلى الأبد لأجل التغليب.

ثم بعد ذكر النعم الداخلية من الخلق والتربية ، ذكر مهمات النعم الخارجية التي كل واحدة منها كافية في وجوب العبادة ، بقوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وبساطا.

عن ابن بابويه : عن العسكري ، عن آبائه ، عن السجّاد عليه السلام في تفسير الآية : « جعلها ملائمة لطباعكم ، موافقة لأجسادكم ، ولم يجعلها شديدة الحمي والحرارة فتحرقكم ، ولا شديدة البرودة فتجمدكم ، ولا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم ، ولا شديدة التّن فتعطبكم ، ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم ، ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وأبنيتكم وقبور موتاكم ، ولكنه عز وجل جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به وتتماسكون ، وتتماسك عليها أبدانكم وبنيانكم ، وجعل فيها ما ينقاد به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم ، فلذلك جعل الأرض فراشا لكم. ثم قال عز وجل : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ وسقفا من فوقكم محفوظا يدير فيها شمسها وقمرها ونجومها لمنافعكم.

ثم قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ، ينزله من علا ليلبلغ قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم وأوهادكم ، ثم فرقه رذاذا ووابلا وهطلا وطلا ، لتنشفه أرضوكم ، ولم يجعل ذلك المطر نازلا عليكم قطعة واحدة فيفسد أراضيكم ، وأشجاركم وزروعكم وأثماركم. ثم قال عز وجل : ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني مما يخرج من الأرض رزقا لكم «(٢)».

(١) كذا ، ولعله تصحيف الغالبة.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٣٧ / ٣٦.

ومعاشا مأكولا وملبوسا.

فانظر إلى حسن ترتيب استدلاله سبحانه على استحقاقه العبادة ووجوبها ، فإنه استدلل أولاً بأقرب نعمه إلى العبد ، وهو إيجاد وتربيته ، ثم الأقرب وهو خلق الأصول من الآباء والأمهات ، ثم الأقرب وهو نعمة المقرّ والمسكن وهو الأرض ، ثم بعدها بنعمة السماء التي تكون سقفا ومدارا للكواكب ، ومبدءا لنزول الخيرات ، ثم بنعمة الثمرات الحاصلة من بركات السماء والأرض لتكون معاشا لهم.

ومن الواضح أنّ كلّ واحد من هذه النعم [هي] آيات وحدانيته وقدرته وعظمته وحكمته ، ولذا رتب عليها النهي عن التشريك ، بقوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ ولا تتخذوا ﴿لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ وشركاء في الخلق والرزق والعبادة ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها العقلاء ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأجسام التي اتخذوها آلهة لا يقدرّون على شيء ، والقول الباطل من العالم ببطلانه أقبح وأفضح.

قيل : من تأمل في هذا العالم وجده كالبيت المعدّ ، فيه كلّ ما يحتاج إليه ساكنه ، الأرض بساطه ، والسماء سقفه ، والنجوم مصابيحها ، والإنسان ساكنه ، وضروب النباتات والحيوانات والمعادن مهيّآت لمنافعه ، مصروفة في مصالحه ، فتدلّ هذه الجملة على أنّ هذا العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل ، وقدرة غير متناهية ، وحكمة بالغة.

ومن لطائف ما قيل : إنّ الله تعالى لما خلق السماء والأرض ، أوقع بينهما شبه عقد النكاح ، فالسماء مطلّة على الأرض ، فينزل الماء من المطلّة على المطلّة المفترشة ، فيخرج من بطنها الحيوانات شبه النسل ، ثمّ تربّيها في حجرها كالأمّ ، وتطعمها ، وتلبسها من ثمارها ، وتحفظها من الحرّ والبرد ، فهي رؤوفة بنا حين نعيش في حجرها ونربّي بتربيتها ، فاذا انتقلنا من حجرها إلى بطنها تكون أراف بنا بشرط أن ندخل في بطنها كما خرجنا من بطن أمنا طاهرين من الذنوب ، مهذّبين من الرذائل والعيوب.

في أنّ للشرك مراتب كثيرة وقلّما يخلو الإنسان منه.

ثمّ اعلم أنّ للشرك مراتب كثيرة ، وقلّما يكون الانسان بريئا منه ، روي : « أنّه أخفى في أمّي من ديب التّملة على الصّخرة الصّماء » ^(١).

وفي حديث طويل ، عن معاذ : « ويصعد الحفظة بعمل عبد من زكاة وصوم وصلاة وحجّ وعمرة وخلق حسن ، وذكر لله ، ويشيعه ملائكة السماوات حتّى يقطعوا الحجب كلّها إلى الله

(١) تفسير القمي ١ : ٢١٣ « نحوه » .

عَزَّجَلْ فيقفوا بين يديه ليشهدوا له بالعمل الصالح المخلص لله. فيقول الله عَزَّجَلْ : أنتم الحفظة على عمل عبدي ، وأنا الرقيب على قلبه ، إنَّه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي. فتقول الملائكة : عليه لعنتك ولعنتنا ، فتلعنه السماوات السبع ومن فيهنَّ ^(١) .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

في إثبات رسالة خاتم النبيين ﷺ بكتابه الذي هو من أعظم معجزاته وتحديده به. ثم إنَّه تعالى بعد الدعوة إلى توحيده واستحقاقه العبادة واقامة البرهان عليهما ، شرع في الدعوة إلى الايمان بكتابه الذي هو من أعظم الأدلة على النبوة بقوله : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ نجوما وتدرجيا من القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ مع أنَّه لا مجال للريب في أنَّه حق ونازل من قبل الله ، لكونه في أعلى درجة الإعجاز ﴿فَأْتُوا﴾ وهاتوا أيها الماهرون في الفصاحة والبلاغة ﴿بِسُورَةٍ﴾ ولو كانت قصيرة ، وقطعة كلام ولو كانت مختصرة كائنة ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ وعلى صفة ما نزلناه من الفصاحة والبلاغة ، أو من مثل محمد ﷺ الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلَّم من أحد في مدَّة عمره ، وكلِّكم مطلَّعون على أمره ﴿وَادْعُوا﴾ معاشر المشركين ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ وأصنامكم الذين تعبدونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وتسمية الأصنام شهداء بملاحظة أنَّ مشركي العرب كانوا يعتقدون أنَّ أصنامهم يشهدون عند الله بعبادتهم ، ويشفعون لهم ، ويعيثنوهم عند الشدائد ، وينجوهم من البلايا والشدائد.

ويحتمل أن يكون الخطاب شاملا لجميع أهل الكتاب أيضا ، ويكون شهداؤهم شياطينهم الذين كانوا يعتقدون أنَّهم أنصارهم ، وعلى هذا يكون حاصل المعنى : ادعوا - أيها المشركون ، ومعاشر أهل الكتاب - أصنامكم وشياطينكم الذين هم أنصاركم ليعينوكم على إتيان مثله ، ويشهدوا لكم أنَّكم أتيتم بعدله في حسن النظم وفصاحة البيان والاسلوب البديع ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم : إنَّ ما أتى به محمد قول البشر وليس من الله الأكبر ، وإنَّه تقوَّل في ما أتى به وبهتة على الله وافتراه ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتكم به من المعارضة ، ولم تأتوا بمثله بعد التظاهر والسعي والجد والتفكر ﴿وَلَنْ﴾

(١) تفسير روح البيان ١ : ٧٧.

تَفْعَلُوا ﴿﴾ أبداً ، ولا يكون ميسوركم ومقدورك ولو جئناكم بالإنس والجنّ مدداً ﴿فَاتَّقُوا﴾ بالإيمان برسالة محمد ﷺ وتصديق كتابه أنّه كلام الله المنزل عليه ﴿النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا﴾ وما به اشتعالها ﴿النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل : هي حجارة الكبريت لأنها أشدّ حرّاً ، وبه رواية (١) . وقيل : حجارة الأصنام المنحوتة ، لأنهم أحبّوها في الدنيا ، وقد روي : « من أحبّ حجراً حشرة الله معه » (٢) .

قيل : إنهم لما قرنوا أنفسهم في الدنيا بما وظنّوا أنّ بها نجاتهم في الآخرة ، كان اقترانهم بها في العذاب موجبا لزيادة الحسرة عليهم ، كما قال تعالى : ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ (٣) .

وهذه النار ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهيئت في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بالله ورسله والذين مرضي عنده .

ثمّ اعلم أنّ التحدّي من مدّعي النبوة بما يعجز الناس عن الإتيان بمثله دليل صدقه ، وقد جاء في القرآن على وجوه من البيان .

أحدها : قوله : ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٤) .

وثانيها : وهو أقرع من الأوّل ، قوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٥) .

وثالثها : وهو أشدّ تقرّيعاً وتبكيّة ، هذه الآية المباركة ، فترتيب هذه الأنحاء من التحدّي نظير تحدّي مصنّف كتاب بقوله : ائتوني بمثل هذا الكتاب ، فإن لم تقدروا فبنصفه ، وإن لم تقدروا فبباب أو مسألة منه .

ثمّ اعلم أنّ الله تعالى كما جعل معجز موسى في إلقاء العصا لبلوغ علم السحر في زمانه كماله ، ومعجز عيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لبلوغ علم الطبّ في زمانه نهايته ، جعل معجز خاتم النبيين ﷺ في فصاحة الكتاب العزيز وبلاغته وحسن أسلوبه لبلوغ علم البيان في عصره أعلى درجته .

فلما عجز العرب وفرسان ميدان البيان بعد هذه التقريعات عن المعارضة بالكلمات والحروف ، وبادروا إلى المبارزة بالأسنة والسيوف ، وحملهم العناد والعصبية على شرب كأس الختوف ، أو

(١) مجمع البيان ١ : ١٥٩ .

(٢) أمالي الصدوق : ٢٧٨ / ٣٠٨ .

(٣) البقرة : ٢ / ١٦٧ .

(٤) الاسراء : ١٧ / ٨٨ .

(٥) هود : ١١ / ١٣ .

مفارقة العشيرة والوطن المألوف ، ولو قدروا على إتيان سورة تماثله في الفصاحة والبلاغة لأتوا بها ، مع شدة عداوتهم وحرصهم على معارضته وإبطال أمره ، وكمال جدّهم في إطفاء نوره ، وهم مهرة فنّ المحاوراة والكلام ، ولم يداغم أحد من الفصحاء مدّ الدهور والأيام ، علمنا أنّ الإتيان بمثله فوق طاقة البشر ، وأنّ كلّ سورة من الكتاب العزيز معجزة قاهرة ، وتصديق دعواه من الله الأكبر .

في إثبات كون القرآن معجزا وبيان وجوه إعجازه

والحاصل : أنّه لا شبهة في أنّ النبيّ ﷺ تحدّى العرب ، بل العالمين بالقرآن في هذه الآية المتضمنة لتهكمهم بأهتكم بقوله : ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وتقرّيعهم بقوله : ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ وتوعيدهم بالعذاب الشديد بقوله : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ ونسبتهم إلى الكفر بقوله : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

ولا شبهة أنّ أهل ذلك العصر مع بلوغهم في علم الفصاحة غايته ، وفي فنّ الكلام نهايته ، بحيث لم يأت الزمان بمثلهم ، ولم يتيسر للدّهر تربيته عدلهم ، وفاقوا الأوّل والآخر ، وفضلوا على الماضي والغابر ، لم يعارضوه بالمثّل في شدة عداوتهم للرّسول ، ونهاية تأنّفهم عن تلقّي قوله بالقبول ، حتّى هاجروا الأوطان ، وفارقوا الأولاد والإخوان ، وهجروا العشائر ، وأسلموا النفوس والمهجّج للأسنة والبواتر ، ولو كان في وسعهم إتيان مماثل لأقصر سورة من القرآن ، أو مقارب له في حسن النظم وملاحة البيان ، لأتوا به ولم يتحمّلوا الشدّة والعتب ^(١) ، وأفحموه وفضحوه بلا نصب ، وأبطلوا أمره ، وأطفأوا نوره ، وأخذوا بنفسه ، واستراحوا من بأسه ، فعند ذلك لم يمكن أن يخضّر له عود ، وأن يقوم لدينه عمود .

فلما رأينا أنّه قد غلب نوره الظلام ، علمنا بعجز جميع فصحاء عصره عن معارضته بالكلام ، كما أنّا لما علمنا بعجز سحرة موسى عن معارضته وإتيان مماثل لما أتى به مع تحدّي موسى بإلقاء عصاه وصيرورتها ثعبانا ، علمنا بكونه صادقا في دعواه ، مع أنّه لو عارضوه بسورة تماثله لوصلت إلينا بالنقل المتواتر ، واثبتت في الزبر والدفاتر ، لتوفّر الدّواعي في نقله كما توفّرت في نقل القرآن .

على أنّه قد تواتر اعترافهم بالعجز ، ودلّ عليه كثير من الآيات ، كقوله تعالى : عن قولهم : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ^(٢) و﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ^(٣) و﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

(١) كذا ، ولعلّها تصحيف التعب .

(٢) المائدة : ٥ / ١١٠ ، الأنعام : ٦ / ٧ .

(٣) المدّثر : ٧٤ / ٢٤ .

حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(١) ولا مجال لاحتمال كذب نسبة هذه الأقوال إليهم ، لاشتهار هذه الآيات بين جميع الطوائف والطبقات ، فلو كانت كذبا كفاه في إبطال دعوته ووضوح فضيخته وانفصام عروته .

ثم اعلم أنّ وجه إعجاز القرآن لعامة الناس هو فصاحته وبلاغته وحسن أسلوبه ونظمه ، وهذا الوجه يعلم من وجوه :

منها : نهاية فصاحة كلّ آية وسورة في نفسها ، مع قطع النظر عن غيرها .

ومنها : بالنظر إلى سائر الآيات والسور ، وهذا أيضا من وجوه :

منها : أنّا قد استقرأنا كلمات فصحاء العرب فرأيناهم مختلفين في صناعة الفصاحة ، وأنّ كلّ واحد منهم له مهارة في فنّ الكلام دون فنّ آخر ، منهم فصيح في الحماسة ، ومنهم فصيح في المدح ، ومنهم فصيح في الهجاء ، ومنهم فصيح في التّطريب والتعشّق ، إلى غير ذلك ، والقرآن العظيم في غاية الفصاحة في جميع الفنون من الكلام .

ومنها : أنّ مضامين القرآن كلّها في المعارف ، وعلم الأخلاق ، والحثّ على الزّهد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، وبيان أحكام العبادات والمعاملات والسياسات ، ومن الواضح أنّ في هذه الأمور ليس مجال الفصاحة وميدان البلاغة ، والقرآن العظيم في أعلى درجتها في جميعها .

ومنها : أنّ حسن الكلام وملاححة البيان موقوف على الكذب والاغراق والمبالغات ، والقرآن العظيم مع عرائه وتنزّهه عن جميعها في غاية الحسن والملاححة .

ومنها : أنّه ما رئي فصيح من الفصحاء أتى بكلام طويل إلّا كان بعض قضاياه أو بعض كلماته خارجا عن حدّ الفصاحة ، أو كان بعضها أفصح من بعض ، والقرآن العظيم مع أنّه كتاب مطوّل لم تنتزل آية منه من أعلى مرتبة الفصاحة فضلا عن خروجها عن حدّها ، وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى : **﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾** ^(٢) .

وأما وجه إعجازه من غير جهة الفصاحة والبلاغة ، فأمور :

منها : أنّه لا شبهة أنّ النبيّ ﷺ كان أميّا ، لم يتعلّم من أحد ، ولم يقرأ كتابا ، وهذا الكتاب العزيز الذي جاء به جامع لجميع العلوم ، ما من علم إلّا وفيه أصله بالمعنى الذي مرّ في الطرف الثالثة ، مثل علم

(١) الأنفال : ٨ / ٣٢ .

(٢) النساء : ٤ / ٨٢ .

المعارف الإلهية ، فإنّ من نظر في سائر الكتب السماوية ، وزير العرفاء الربانية ، عرف أنّ ما في جميعها من المعارف بالنسبة إلى ما في القرآن المجيد كالقطرة بالإضافة إلى البحر المحيط ، ومثل علم الحكمة والكلام ، وكعلم الأخلاق ، وعلم الزهد في الدنيا ، وتفصيل الآخرة ، ومثل علم الفقه من العبادات والمعاملات والسياسات.

ومنها : اشتماله على الإخبار بالمعيات عن جزم ويقين ، كقوله تعالى في الآية السابقة : ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ وقوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^(٤) وقوله تعالى : ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُفَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾^(٥) . إلى غير ذلك ، فإنّ هذه الآيات ونظائرها إخبار بأمور قبل وقوعها ، ثم وقعت مطابقة لها.

ومنها : شدة تأثير القرآن العظيم في النفوس ، فإنّه ما من كتاب سماوي أو معجزة من معجزات الأنبياء السلف له تأثير في القلوب كتأثيره.

ثمّ أنّه تعالى بعد ما استدلّ على وجوده وكماله ووجوب عبادته بمخلوقاته ، وعظيم نعمائه ، وعلى رسالة عبده وإعجاز كتابه ، بعجز جميع الخلق عن إتيان سورة مثله ، شرع بقوله : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية ، في ذكر المعاد وبيان عقاب الكفار في الآخرة.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

ثمّ أردفه بذكر ثواب المؤمنين بقوله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالسنتهم وقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بالاستحقاق والتفضل ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين عديدة ، إذ في التعدّد حظّ ليس في الانفراد.

(١) آل عمران : ٣ / ١٢ .

(٢) البقرة : ٢ / ١٣٧ .

(٣) الروم : ٣٠ / ٢ و٣ .

(٤) الفتح : ٤٨ / ٢٧ .

(٥) آل عمران : ٣ / ١١١ .

قيل : عددها ثمان : دار الجلال كلّها من نور ، ودار القرار كلّها من مرجان ، ودار السلام كلّها من الياقوت الأحمر ، وجنة عدن كلّها من زبرجد وهي مشرفة على الجنان كلّها ، وجنة المأوى كلّها من الذهب الأحمر ، وجنة الخلد كلّها من الفضّة ، وجنة الفردوس كلّها من اللؤلؤ ، وجنة النعيم كلّها من زمرد.

وروي أنّ المؤمن إذا دخل الجنة رأى سبعين ألف حديقة في كلّ حديقة سبعون ألف شجرة ، على كلّ شجرة سبعون ألف ورقة ، وعلى كلّ ورقة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أمة مذبذبة وربّ غفور ، كلّ ورقة عرضها ما بين المشرق والمغرب ^(١) .

ثمّ وصف الجنّان وأشجارها ، بأنّها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لازدياد صفائها وطراوتها وحسنها بها.

قيل : إنّ المراد بالأنهار جنسها.

وقيل : إنّ المراد الأنهار الأربعة : نهر من ماء غير آسن ، ونهر من لبن لم يتغيّر طعمه ، ونهر من خمر لذّة للشاربين ، ونهر من عسل مصقّى.

ثمّ بعد ذكر مسكنهم وشراهم ، ذكر طعامهم بقوله : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ واطعموا ﴿مِنْهُ﴾ نوع ﴿ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ وطعاما ﴿قَالُوا هَذَا﴾ الثمر من جنس الثمر ﴿الَّذِي رَزَقْنَا﴾ وطعمنا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا.

في بيان حكم جعل ثمرات الجنة من نوع ثمرات الدنيا.

قيل : إنّ الله جعل ثمرات الجنة من نوع ثمرات الدنيا لزيادة شوق المؤمنين إليها بعد معرفة جنسها وطعمها ، حيث إنّهم إذا لم يعرفوا طعمها وخاصيّتها ، ولم يشتاقوا إليها في الدنيا ، لم يبادروا في الجنة إلى تناولها ، ولم يفرحوا بها في بدو رؤيتها ، وأمّا إذا كانوا مطّلعين على طعمها وفرحوا برؤيتها ، وعلموا أنّها ممّا رزقوا في الدنيا وإن كان التفاوت بينها وبين ما رزقوا في الدنيا كتفاوت الدنيا والآخرة ، ولا يستحيل أحدها إلى ما يستحيل به ثمرات الدنيا.

روي أنّه جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم ، تزعم أنّ أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ فقال : « نعم ، والذي نفس محمد بيده ، إنّ أحدهم ليعطى قوّة مائة رجل في الأكل والشرب

(١) تفسير روح البيان ١ : ٨٢.

والجماع » .

قال : فإنّ الذي يأكل له حاجة ، والجنة طيبة ليس فيها أذى ؟ قال ﷺ : « حاجة أحدهم عرق ريحه كريح المسك » ^(١) .

ثمّ قال تعالى في وصف رزق الجنة : ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ وحيثوا بذلك الرزق ﴿مُتَشَابِهًا﴾ ومتماثلاً في الحسن والكمال واللذة والتّضح والطّيب ، ليس فيها غير منضوج ولا فاسد ولا قليل اللّذة ، بل كلّها في الصفات الكمالية في أعلى درجة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ طهّرهنّ الله من الأدناس والأرجاس الجسمانيّة ، من الحيض والنفاس والاستحاضة ، ومن الأخلاق الرّذيلة والصفات الخسيسة.

قيل : فيه إشارة إلى نهاية كرامة المؤمنين ، حيث إنّ الله تعالى بذاته المقدّسة باشر تزيين أزواجهم.

عن ابن عبّاس : خلق الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر ، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب - أي الأبيض - ومن عنقها إلى رأسها من الكافور ، إذا أقبلت يتألأ نور وجهها كما تتألأ الشمس لإهل الدنيا ^(٢) .

قيل : إنّ بعد ملاحظة قوله تعالى : ﴿الطّيّباتِ للطّيّين﴾ ^(٣) يعلم أنّ لا يكتفّ إلاّ للمطهّرين من المعاصي والأخلاق السيّئة والصفات الذّميّة وحبّ الدنيا الدنيّة ، المزيّنين بالملكات الحسنة والصفات الكريمة.

ثمّ أنّه قد وردت روايات بأنّ زوجة المؤمن في الدنيا إذا كانت مؤمنة صالحة ، تختصّ بزواجها في الجنة ، وتفوق على حور العين في الحسن والجمال والنور والبهاء.

ثمّ اعلم أنّه لما كان اصول النعم في الدنيا المسكن الطيّب ، والشّراب الهنيء ، والطعام اللّذيذ ، والزوجة الجميلة المحبوبة ، بشرّ الله المؤمن بأنّ له هذه النعم في الآخرة.

ثمّ لما كان خوف زوال النعمة من منغصات العيش ، بشرّ الله تعالى المؤمنين بدوام النعمة وبقائهم في الجنة ، بقوله : ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبداً ، لا يخرجون منها ولا يموتون ، فلا يخطر ببالهم احتمال زوال النعمة وعود البلايا والحنّ الدنيويّة.

(١) تفسير روح البيان ١ : ٨٤ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٨٤ .

(٣) النور : ٢٤ / ٢٦ .

عن عكرمة ، أنه قال : أهل الجنة ولد ثلاث وثلاثين سنة رجالهم ونساؤهم ، وقامتهم سبعون^(١) ذراعاً على قامة أبيهم آدم ، جرد^(٢) مكحلون ، عليهم سبعون حلة ، لكل حلة في كل ساعة سبعون لونا ، لا ييزقون ولا يتمخّطون ، وما كان فوق ذلك من أذى فهو أبعد ، يزدادون كل ساعة حسناً وجمالاً كما يزداد أهل الدنيا هرماً وضعفاً ، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم^(٣) .

في إثبات المعاد

ثم اعلم أنّ المعاد الجسماني من ضروريات دين الاسلام ، بل وسائر الأديان ، والعقل القاطع والنقل الساطع حاكمان على إمكانه ووقوعه ، أمّا إمكانه عقلاً فلوضوح أنّ إيجاد عالم آخر ، وإعادة الناس ، ليس من الممتنعات الذاتية كشريك الباري ، ولا من المحالات العرضية لعدم استلزامه لقبيح أو محال ، والقول بأنّ الزائل لا يمكن أن يعود - على فرض تسليمه - فإنّما هو العود بعينه وبجميع مشخصاته الزمانية والمكانية وغيرهما.

وأما تصوير مادته بصورة مماثلة لصورتها السابقة ، بحيث يقال : هذا هو ، فليس من الإعادة التي قالوا بامتناعها ، وهذه نظير لبنة سوّيت أولاً بتراب مخصوص وقالب خاص ، ثم كسرت وفتّت ، ثم سوّيت ثانياً بذلك التراب وذلك القالب ، بحيث كلّ من رأى اللبنة الثانية قال : هي اللبنة الأولى^(٤) .

وأما قدرته تعالى فلا يتصوّر ولا يعقل فيها قصور عن الإعادة ، وقد استدلّ في مواضع من كتابه العزيز على قدرته على الإعادة بقدرته على الإبداء ، قال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^(٥) وقال : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٦) .

بل لا شبهة أنّ الإعادة أهون من الإبداء لكونه بلا مثال سابق كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^(٧) فلينظر العاقل إلى بدو خلقه ، فإنّ مادّة نطفته كانت ذرّات متفرّقة في أطراف العالم ، فجمعها الله تعالى في لقمة واحدة ، ثم فرّق فضلة الهضم الرابع منها كالذرّات في جميع أعضاء بدن الرجل ، ثم جمعها الله تعالى بالقوّة الشهويّة في وعاء المنيّ ، ولذا تلتدّ جميع الأعضاء بالوقاع ، لحصول انحلال ذرّات المنيّ عنها ، ثم أخرجها الله ماء دافقاً إلى قرار الرحم ، فمن هو قادر

(١) في تفسير روح البيان : ستون.

(٢) في تفسير روح البيان : آدم ، شباب جرد مرد.

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٨٤ .

(٤) وقد ورد حديث عن الامام الصادق عليه السلام في هذا المضمون راجع : الاحتجاج : ٣٥٤ .

(٥) الاحقاف : ٤٦ / ٣٣ .

(٦) يس : ٣٦ / ٧٩ .

(٧) الروم : ٣٠ / ٢٧ .

على جمع الذرات المتفرقة في اللقمة الواحدة ، ثم تفريق ذرات فضلتها في جميع أعضاء الجسد ، ثم جمعها من تلك الأعضاء في وعاء واحد ، ثم خلقها شخصا عاقلا بصيرا سميعا ، كيف يعجز عن جمع أجزاء ترابه المتفرقة بالموت وخلقها مرة أخرى بصورتها الأولى ؟ ! بل هو سبحانه بالقدرة على هذا الجمع والخلق أخرى وأولى ، وقد نطق الكتاب العزيز بهذه الحجة في مواضع :

منها : في سورة الحج قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ إلى قوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(١) .

ومنها : قوله في الواقعة : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ* أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات.

ثم تفكر في قدرة الله في خلق الأشجار والزرع كما نبه الله عليه بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾^(٣) حيث إن للأشجار نواة ، وللزرع حبوبا ، ولكل من النواة والحبوب أقسام وأشكال ، منها مطوّل مشقوق كنواة التمر وحب الخنطة والشعير ، ومنها غير مشقوق كالأرز ، ومنها مثلث ، ومنها مربع ، ومنها مدور إلى غير ذلك من الأشكال.

فإذا وقع الحب في الأرض واستولت عليه الرطوبة ، مع أن مقتضى الطبيعة أن يتعفن ويفسد ، ومع ذلك يحفظه الله ويربّه بين المفسدات ، ثم إذا ازدادت الرطوبة يظهر في رأس الحب الطويل ثقب تخرج منه ورقة طويلة كزرع الخنطة والشعير وأمثالهما ، وأمّا الحب غير الطويل فينفلق فلقين فيخرج منه ورقتان ، وأمّا النواة فمع ما فيها من الصلابة التي يعجز عن فلقها أغلب الناس فتتفلق بإذن الله ، فيخرج منها شجران : أحدهما صاعد إلى السماء ، له أوراق وغصون وثمار ، لكل جزء منه لون وطعم وطبيعة ، مغاير لسائر الأجزاء ، و الشجر الآخر هابط غائص في أعماق الأرض ، مع اتحاد طبيعة النواة وعنصرها الماء والهواء والتراب.

ثم انظر كيف أودعت القدرة في تينك الشجرتين الأجزاء النارية التي تباين ما استقرت فيه من جميع الجهات ، فإنّ الشجرتين هابطتان كثيفتان رطبتان باردتان ظلماتيتان ، والنار صاعدة لطيفة

(١) الحج : ٢٢ / ٥ - ٧ .

(٢) الواقعة : ٥٦ / ٥ - ٧ .

(٣) الواقعة : ٥٦ / ٥٨ و ٥٩ .

يابسة حارة نورايتية ، وإليه أشار سبحانه بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾^(١) .

والحاصل : أنّ من أذعن بإمكان الإعادة ذاتا ووقوعا ، وأيقن بقدره الله التامة ، لا يبقى له ريب وإشكال ، وإنما اكتفى سبحانه وتعالى في مقام الاستدلال على الإمكان بالمقدمة الأخيرة ، وهي كمال سعة قدرته وشمول حكمته الظاهران في خلق السماوات والأرض ، وإرسال الرياح ، وإنشاء السحاب ، وإنزال الأمطار ، وخلق الأشجار وجعلها بيوت النار ، وإخراج الثمار ، وخلق النطف وغير ذلك.

ولم يتعرّض للمقدمة الاولى لعدم ريب لمنكر الحشر فيها ، نعم أضاف إليه سبحانه الاستدلال بوقوع نظائر الحشر في الدنيا ، كإحياء الأرض بعد موتها بإنزال الأمطار ، وإحياء القتيل من بني إسرائيل بضربه بجزء من البقرة ، وإحياء الالوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت ، وجمع الأعضاء المتفرقة من الطيور الأربعة وإحيائها لإبراهيم ، وإحياء النبي الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها فقال : أتى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، وإحياء حمارة إلى غير ذلك.

ثم أعلم أنّه تبارك وتعالى أكثر في كتابة العزيز من الاستدلال على التوحيد والنبوة وإمكان المعاد ، لوضوح عدم إمكان التبعّد فيها ، ووضوح حكم العقل بما بالبراهين التي أقامها سبحانه ، وإنما اكتفى في وقوع المعاد بصرف الدعوى لكفاية إمكانه وثبوت النبوة وإخبار الله ورسوله بوقوعه في ثبوته ، واليقين به ، فإنّ اليقين بصدق النبي ﷺ في إخباره بوقوعه مستلزم لليقين به ، مع أنّ العقل حاكم بوجوب وقوعه لوجوه :

[١] منها : أنّ حكمة خلق الإنسان الذي خلق له غيره من عالم الأجسام لا يتمّ إلّا بالمعاد ، بل لو لا المعاد لكان خلقه وخلق العالم عبثا لا يليق صدوره من الحكيم تعالى شأنه .
أما قولنا : إنّ غير الإنسان من الموجودات الجسمانية خلق له ، فالأّن موجودات عالم الأجسام بل جميع العوالم مرتبطات ببعضها ببعض كأعضاء شخص واحد ، وجميعها محصّلات لغرض واحد ومقدمات لنتيجة واحدة ، كشجرة غرست لتحصيل ثمرتها .
ومن الواضح أنّ النتيجة متأخرة عن المقدمات ، والثمرة متأخرة وجودا عن الشجرة ، لأنّ
العلّة

(١) الواقعة : ٥٦ / ٧١ - ٧٢ .

الغائية وإن كانت بوجودها العلمي بتقدمة على معلولها ولكن بوجودها الخارجي متأخرة عنه.

فعلى هذا ، لما علمنا أنّ وجود السماوات بما فيها من الكواكب والأرض وما فيها من الجبال والبحار ، سابق على وجود الإنسان ، علمنا أنّ جميعها مقدمات لوجوده ومخلوقات له ، وأمّا النباتات وسائر الحيوانات فلما رأينا أنّ الإنسان قاهر على جميعها ، منتفع بأغلبها ، أكمل من كلّها ، علمنا أنّه علّة غائية لجميعها ، لأنّ الأشرف الأكمل لا يمكن أن يكون مقدّمة للأخسّ الأنقص ، ولا يعقل أن يكون الأخسّ علّة غائية لوجود الأشرف ، فثبت أنّ غير الإنسان من الموجودات الجسمانيّة مخلوق له ، وهو علّة غائية لإيجاد غيره.

وأما قولنا : إنّّه لو لا المعاد لكان خلق الإنسان عبثا ، فلائّه لا بدّ أن يكون لخلق الإنسان الذي هو اعجوبة الكون ، وآية عالم الملك والملوك من غرض مهمّ لائق بالحكيم ، وصلاح ملزم في نظر العقل السليم ، ولا يمكن أن يكون الغرض والمصلحة في خلقه هو التعيش في هذا العالم مدّة قليلة ، والتمتّع بامتعتها الخسيسة الرذيلة ، مع شوبها بالآلام الكثيرة والأسقام الوفيرة ، والبلايا والمنايا ، والهموم والغمو ، والمضارّ والمشاقّ ، أضعاف ما يصيب من اللذّة والتمتّع ، ثمّ يكون موت وانعدام ، لبداة عدم صلاحيّته لأن يكون غرضا للحكيم في هذا الخلق القويم الذي أمر ملائكة بالسجود له ^(١) الذي هو أعلى مراتب التعظيم.

فإذن لا يتصوّر غرض آخر في خلقه إلّا تحصيله الكمالات النفسانيّة ، واكتسابه الملكات الجميلة الروحانيّة وارتقاؤه إلى درجات القرب والعبوديّة بالمعارف الإلهية والأعمال الصالحة ، ولا يتمّ إلّا بجعل التكاليف والأحكام المولويّة وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فلو لم يكن عالم آخر يجزى ويثاب فيه المطيع ، ويجزى ويعاقب فيه العاصي ، لزم كونهما متساويين ، وعدم المزيّة في البين ، بل كون العاصي أحسن حالا من المطيع لتلذّذه بالمشتبهات النفسانيّة واستفادته بالأمتعة الدنيويّة أزيد من المؤمن المطيع ، لكونه مدّة عمره في تعب الطّاعة ومشقّة الزهد والرياضة.

فثبت أنّه لا بدّ من عالم آخر يجد المطيع فيه ثواب طاعته ، والعاصي تبعات معصيته ، قال تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ^(٢) .

[٢] ومنها : أنّه لا شبهة أنّ الإنسان خلق مدنيّا بالطبع ، بمعنى أنّه لا يمكن لكلّ فرد منه

التعيش إلّا

(١) في النسخة : بسجوده.

(٢) النجم : ٥٣ / ٣١.

بالاجتماع مع غيره والاستعانة بسائر بني نوعه لكثرة حوائجه وعدم إمكان قيام كل واحد بجميعها ، ثم أنه من البديهي أن طباع بني آدم باقتضاء الجهة الحيوانية مجبولة على الظلم والعدوان ، ولذا نرى الغالب منهم بين ظالم ومظلوم ، وشاتم ومشتوم ، وقاتل ومقتول ، وغار ومغرور ، وحاصر ومحصور ، وكثيرا ما لا يقدر المظلوم في هذه الدنيا على الانتصار من ظالمه ، ويبقى الظلم في هذا العالم بلا مكافاة ومجازاة ، ومقتضى العدل والحكمة انتصاره تعالى من الظالم للمظلوم ، فلو لم يكن عالم آخر يؤخذ الظالم فيه بظلمه ، ويجزى المظلوم على صبره وكظمه ، لزم خلاف العدل وعدم قيامه تعالى في عباده بالقسط ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

[٣] ومنها : أن من الواجب في النظام الأتم بعث الرسل وجعل التكاليف على العباد ، لأتقما من اللطف الواجب على الله تعالى ، ومن الواضح أنه لو لا جعل المجازاة على موافقة التكاليف ومخالفتها ، والوعد بالثواب والوعيد بالعقاب على طاعتها وعصيانها ، لكان البعث والتكليف لغوا ، لعدم إمكان اتباع الامم رسلهم ، وتحمل الناس مشقة الطاعة والتزامهم بالقوانين الإلهية ، لعدم الداعي في النفوس إلا الخوف والطمع ، فلا بد في الحكمة والنظام الأتم من جعل الثواب والعقاب على الطاعة والمعصية ، إما في هذا العالم ، أو في عالم آخر ، ولما لم يكن في الدنيا ، فلا بد من الحشر في عالم آخر حتى ينال فيه المستحق ما استحقه من الجزاء ، ولذا لم يبعث رسول إلا وأخبر بالحشر والنشر بعد الموت ، والثواب والعقاب في عالم الآخرة.

في إثبات وجوب كون المعاد جسمانيا بالأدلة العقلية

ثم اعلم أن هذه الوجوه وإن كانت لا تفني بإثبات أزيد من المعاد في الجملة ، والمتيقن منه المعاد الروحاني ، ولذا قال جمع بأنه لا طريق للعقل إلى الجسماني منه ، بل طريق إثباته منحصر بالنقل ، إلا أن الحق أنه أيضا مما يحكم به العقل لوجوه :

[١] منها : أنه لا شبهة أن حد استحقاق الثواب والعقاب لا بد أن يكون في حكم العقل على حد حسن العمل وقبحه ، ولا ريب أن منشأهما قد يكون في نفس العمل مع قطع النظر عن الجهات الخارجية الطارئة ، كحسن العدل والإحسان ، وقبح الظلم والعدوان ، وقد يكون بالنظر إلى الجهة الخارجية الطارئة ، وقد يكون للجهتين معا كصيرورة عمل قبيح متعلقا لنهي المولى ، لبداهة أن حق المولى على العبد إطاعة أوامره ونواهيه ، فإذا خالف حكمه كان ظالما عليه.

ثم لا شبهة أنه تتفاوت الجهات الأولية في منشئيتها لانتزاع الحسن والقبح شدة وضعفا ،

لبداهة

إِقْوَائِيَّة منشأ قبح الزنا منشأ قبح النظر والقبلة ، ومنشأ حسن العدل منشأ حسن الإحسان ، وكذلك تتفاوت الجهات الخارجيّة الطارئة على العمل لوضوح تفاوت مراتب عظمة المولى ومقدار حقوقه ونعمه ، ودرجات تأكّد طلبه وأهميّة غرضه ، وتفاوت قبح معصيته وحسن طاعته بذلك التفاوت ، فإنّ في ارتكاب مخالفة المولى هتك حرمة والجرأة عليه وتضييع حقّ مولويّته وكفران نعمته ، وفي طاعته تعظيمه وحفظ حدوده وأداء حقّه وشكر نعمته ، فكلّما ازداد المولى عظمة ونعمة ازداد عصيانه قبحا وطاعته حسنا.

إذا تمهّد ذلك نقول : لا شبهة أنّ عظمته سبحانه وتعالى بلا نهاية ، ونعمته غير معدودة ، فلا بدّ أن يكون شدّة قبح مخالفته وحسن طاعته وكذا استحقاق العبد العقوبة على الأولى والمثوبة على الثانية غير متناهيين ، ثمّ لما كان الثّواب والعقاب غير المتناهيين شدّة وكيفيّة غير ممكن الوجود ، فلا بدّ من أن يكون الواقع محدودا وإن كان الاستحقاق فوّقه.

ولا شبهة أنّ العذاب الجسمانيّ زائدا على الآلام الروحانية ممكن الوجود فلا بدّ من الحكم باستحقاقه ، وكذلك الثّواب ، فإذا ثبت الاستحقاق فلا بدّ أن تكسى الروح كسوة الجسد ليصير قابلا لذوق العذاب الأشدّ.

إن قيل : إعادة الجسم واجبة إذا كان العذاب الجسمانيّ واجبا ، وأمّا مع حسن العفو فلا. قلنا : مصداق العفو عن العذاب الجسمانيّ لا يتحقّق إلّا مع إمكان العذاب وهو موقوف على وجود الجسم.

إنّ قيل : سلّمنا وجوب إيجاد جسم تتعلّق به الرّوح لإمكان العذاب الجسمانيّ أو العفو عنه ، إلّا أنّه لا نسلم وجوب إعادة الجسم الذي كان الرّوح متعلّقا به في الدنيا.

قلنا : لا بدّ من القول بوجود مرجّح في الخلق الأوّل لعروض الصورة المخصوصة على مادّتها الخاصّة ، ولحلّول الرّوح الخاصّ في الجسد المخصوص لئلا يلزم التّرجيح بلا مرجّح ، وليس إلّا التّناسب والسنخية بين العارض والحال ، وبين المعارض والمحلّ المخصوصين وعدمهما مع غيرهما ، وهذا المرجّح والمقتضى موجود في الخلق الثاني ، وعلى هذا لا يمكن تعلّق الرّوح المخصوص إلّا بذلك الجسد الذي كان متعلّقا به ، فيجب إعادته.

[٢] ومنها : أنّه لا شبهة في أنّ مقتضى لزوم سنخية الرّوح مع جسده الخاصّ به ، لزوم تعلّق

الرّوح

الخبث بالجسد المخلوق من الطينة الخبيثة ، وحينئذ لا بدّ من تأثير كلّ منهما بعلاقة المجاورة في ازدياد خبثة الآخر ، فإذا كانا شريكين في التلذذ بالمشتبهات والخبثات ودخيلين في ازديادها ، لا بدّ في حكم العقل من اشتراكهما في لوازم الخبثة والمعصية وهي العذاب في الآخرة ، وأن يعاد الجسد لا زدياد عذاب الروح.

[٣] ومنها : أنّه بعد ما عرفت أنّ الوعد بالثواب والعقاب من متممات حكمة التكليف ، ومن الواجبات في النظام الأتمّ ، لا بدّ من القول بوجوب الوعد بالثواب والعقاب الجسمائيتين ، لقصور فهم عموم الناس عن درك الروحانيتين منهما ، فوجب على الله إعادة الجسم حتّى يمكن إنجاز الوعد ، أو يصحّ العفو.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾

ثمّ اعلم أنّه لما ضرب الله الأمثال العديدة للمنافقين في الآيات السابقة ، تعرّض لدفع شبهات الكفار في ضربه الأمثال في القرآن.

روي أنّه لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه ، وضرب للمشرّكين المثل بهما ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ^(١) ، وكأثّم اعترضوا على الكتاب المجيد باشتماله على هذه الأمثال التي لا تليق بعظمة الربوبية لتوهمهم أنّ هذه الحيوانات الدنيّة الصغيرة لا تناسب أن يذكرها العظيم المتعال

(١) تفسير روح البيان ١ : ٨٥.

في كلامه.

وقيل : إنهم قالوا : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؟ ! فردّ الله عليهم بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ في نهاية عظمته وكبريائه ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ ولا يرى على ذاته المقدسة عيباً من ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ من الأمثال ، وأي مثل كان ، كان الممثل به ﴿بِغُوضَةٍ﴾ قيل : هي أصغر من البق ، وفيها من ظهور قدرة الله ما لا يكون في الفيل ؛ لأنها مع صغر حجمها لها جميع أعضاء الفيل مع زيادة جناحيها ، وخرطومها مع كونه مجوّفاً وفي غاية الصغر يغوص في جلد الفيل والجاموس على ثخانتها كما يغوص إصبع الرجل في الخبيص ، وذلك لما ركّب الله في رأس خرطومها من السمّ.

وقيل : إنها تحيا ما جاعت ، وتموت إذا شبع (١) .

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ وما هو الأكبر منها كالذباب والعنكبوت وغيرها ، فإنّ المنظور من التمثيل توضيح المقصود وكشف المستور بالتّظهير المحسوس ، ولا ينظر إلى حقارة الممثل به وجلالته وصغره وكبره ، ولا إلى دناءته وشرفه ، بل ينظر إلى مطابقة المثل للممثل له ، وهو حاصل في أمثال القرآن على التّحو الأتم الأكمل.

وقيل : إنّ كلمة (فوق) من الأضداد ، تطلق على الأعلى والأدنى وعلى هذا يحتمل أن يكون (ما فوقها) بمعنى : ما دونها ، وما هو أصغر منها.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وكتابه ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ بسبب سلامة عقولهم ، وبصيرة قلوبهم ، وطهارة نفوسهم من الحسد والعناد وحب الدنيا حين يسمعون المثل ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الثابت ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لا مجال لإنكاره والاعتراض عليه ، لكونه في غاية الحسن والبلاغة ، وكشفه عن العلوم والحكم الكثيرة ، ونظير هذه الأمثال جاء في الكتب السماوية كالأنجيل وغيره.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وعاندوا محمداً ﷺ وجحدوا كتابه ﴿فَيَقُولُونَ﴾ عند سماع المثل ، استحقاقاً له ، لقصور عقولهم ، وقلة أفهامهم ، وعمى قلوبهم ، وفساد أخلاقهم : ﴿مَا ذَا﴾ وأي شيء ﴿أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ المثل من حيث كونه ﴿مَثَلًا﴾ فإن كان له نفع فضره يساوي نفعه ، لأنّه سبحانه ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ من الناس لجهلهم بموقعية الأمثال ﴿وَوَ﴾ إن كان ﴿يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ لاعتقادهم كمال حسنه وكثرة فوائده ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن حدود

(١) تفسير روح البيان ١ : ٨٥ .

العقل وشؤون الانسانية وطريق الحق والصواب.

ثم كآته قيل : من الفاسقون ؟ فعرفهم أولا بفساد العقائد بقوله : ﴿الَّذِينَ يَنْفُضُونَ﴾
ويخالفون ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ الذي أخذ منهم على توحيدهم ورسالة رسوله وولاية عليّ والمعصومين من ذريته
عليه السلام ، ووجوب طاعتهم ، ومحبة المؤمنين ومودتهم في عالم الذر ، بقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) وفي
هذا العالم بإقامة الحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي هي في حكم العهد ﴿مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ﴾
وإحكامه ، وإتقانه.

ثم ذمهم ثانيا بالإساءة إلى الأقارب بقوله : ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من
الأرحام والقربات النسبية الجسمانية بترك تعاهدهم ومنع حقوقهم ، ومن القربات الروحانية وهم
الأنبياء والأوصياء الذين هم آباء امهم وأشياهم لتوليدهم روح الإيمان في قلوبهم ، ولكون طينتهم
من سحالة^(٢) طينتهم الطيبة ، والمؤمنون الذين هم إخوة حقيقة في الدنيا والآخرة ، لكونهم بجهة
إيمانهم أولاد آب واحد وهو نبيهم ، وفي تربية مرب واحد هو الإمام والوصي ، وكون جميعهم مخلوقين
من أصل واحد وطينة واحدة ، ولذا جعل الله بينهم حقوق الإخوة.

في الحديث : « إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل به ، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب
، وتقاطعوا الأرحام ، لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم »^(٣) .

ثم ذمهم ثالثا بفساد الأعمال بقوله : ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بقبض الحقوق ، وتشديد
الكفر ، وتضعيف الإسلام ، والصّد عن سبيل الحق ، وإلقاء الشبه في قلوب المؤمنين ﴿أُولَئِكَ﴾
الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم ، المغبونون في معاملتهم ، كآته
لغاية خسارتهم لا يكون خاسر سواهم ، حيث إنهم حرموا الجنّات والنّعيم الأبدي ، ولزمهم النيران
والعذاب المخلّد.

ثم لما حكى الله تعالى مقالة الكفار وتحكمهم بالقرآن ، وشدة كفرهم ، ونهاية طغيانهم
وعصيانهم ، وجّه الخطاب إليهم بالتوبيخ والتقريع بقوله : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته ، ﴿وَوُ﴾
الحال أنكم ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ لا حياة لكم ، ونطفا في أصلاب آبائكم وأرحام امهاتكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾
بخلق الأرواح ونفخها في أجسادكم بلا مزاج ، فبدأ الله بتذكيرهم ما هو الأصل لجميع النعم ، وهو
نعمة الحياة ، لأنّه

(١) الأعراف : ٧ / ١٧٢ .

(٢) السحالة : برادة الشيء أو ما يسقط منه أو قشره .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٨٨ .

كلّما عظمت نعمة المولى على العبد عظمت معصيته إِيَّاه.

ثمّ ذكّروهم زوال هذه النعمة التي صارت سببا لغرورهم بقوله : ﴿ثُمَّ﴾ بعد مدّة طويلة من الإحياء وتعميركم في الدنيا ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ﴾ بعد مدّة من الإمامة التي فيها تجهّزون وتقبرون ﴿يُخَيِّكُمْ﴾ في القبور للسؤال ولتنعم المطيع ولتعذيب العاصي ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإمامة في القبر ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى سلطانه وحكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وتحيون ثالثا للنشور.

وقيل : أي ترجعون إلى ما وعدكم من الثواب والعقاب على حسب أعمالكم ، لا إليه في مكان كما توهمه الجسّمة.

إن قيل : كيف استدلّ عليهم بالاحياء والإمامة في القبر ، ثمّ بالاحياء في المحشر مع عدم علمهم بذلك ؟

قلنا : تمكّنهم من تحصيل العلم جعلهم بمنزلة العالمين.

ثمّ أردف سبحانه وتعالى نعمة الحياة بذكر سائر النعم الجسيمة التي خلق لهم في الأرض بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ بقدرته ورحمته ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من الأشياء كي تنتفعوا بها في دنياكم ودينكم ، بأن تستدلّوا بها على خالقكم ، وتعتبروا بها وتتوصّلوا إلى رضوانه ، وتتّقوا عن نيرانه ، وتصلحوا بها أبدانكم ، وتتّقوا بها على طاعة ربّكم ، وتقبروا فيها إلى يوم بعثكم ، وفيه دلالة على أنّ خلق عالم الاجسام لأجل الإنسان وتبيعه.

عن ابن عباس رضى الله عنه : أوّل ما خلق الله جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة في مسيرة عشرة آلاف سنة ، فنظر اليها بالهيبة فذابت واضطربت ، ثمّ ثار منها دخان ، فارتفع واجتمع زيد فقام فوق الماء ، فجعل الزيد أرضا والدخان سماء ^(١) .

﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ وتوجّه سبحانه وتعالى بالإرادة والايجاد ، وقصد قصدا سويا لا يلويه عنه شيء ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ وخلقهنّ معتدلات ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ طباقا ليس فيها خلل ولا فطور ولا اعوجاج.

عن سلمان : اسم الأولى رفيع ^(٢) وهي [من] زمردة خضراء ، واسم الثانية أرفلون وهي من

فضة

(١) تفسير روح البيان ١ : ٩١ .

(٢) في تفسير روح البيان : رفيع .

بيضاء ، والثالثة قيدون ^(١) وهي من ياقوتة حمراء ، والرابعة ماعون وهي من درّة بيضاء ، والخامسة ديفاء ^(٢) وهي من ذهب أحمر ، والسادسة وفناء وهي من ياقوتة صفراء ، والسابعة عروباء وهي نور يتلأأ ^(٣) .

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من حقائق الموجودات واستعداداتها ومنافعها ومصالحها الراجعة إلى العالم محيط ، لا يعزب عنه مثقال ذرة .
وفي التذييل به دلالة على أنّ علّة خلق الأشياء على هذا النمط الأكمل ، علمه بكنهها ومصالحها ، كما أنّ هذا النّسق العجيب ، والترتيب الأنيق في الخلق دال على كمال علمه تعالى وحكمته .

في بيان أنّ خلق الأرض قبل السّماء
ثمّ اعلم أنّ المستفاد من هذه الآية وغيرها أن خلق الأرض وما فيها كان قبل خلق السّماوات ، ومقتضى قوله تعالى في (النازعات) : ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ^(٤) أنّ خلق الأرض كان بعد خلق السّماء .

وقيل في الجمع بينها : إنّ ﴿ثُمَّ﴾ في تلك الآيات ليس للترتيب ، بل إنّما هو على جهة تعديد النعم ، كما يقول الرجل لغيره : أليس قد أعطيتك النعم العظيمة ، ثمّ رفعت قدرك ، ثمّ دفعت الخصومة عنك ؟ ولعلّ بعض ما أخر ذكره قد تقدّم ^(٥) .

وقيل : إنّ كلمة ﴿بَعْدَ﴾ في قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بمعنى (مع) مثل كلمة (بعد) في قوله ﴿حَتَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ نَبِإٌ﴾ ^(٦) .

وقيل : إنّها على أصلها ، وإنّ خلق الأرض كان قبل خلق السّماوات ، ودحوها بعده ، لما روي عن ابن عباس قال : خلق الله الأرض قبل السّماء ، فقدّر فيها أقواتها ولم يدحها ، ثمّ خلق السّماء ، ثمّ دحا الأرض من بعدها ^(٧) .

في اعتراض الفخر الرازي على قول ابن عباس وجوابه
وردّ هذا القول بوجهين :

الأول : أنّ الأرض جسم عظيم لا يمكن انفكاك خلقها عن التّدحية ، فإذا كانت التّدحية متأخّرة ، كان خلقها متأخّرا .

(١) في تفسير روح البيان : قيدوم .

(٢) في تفسير روح البيان : دبقاء .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٩١ .

(٤) النازعات : ٧٩ / ٢٧ - ٣٠ .

(٥) تفسير الرازي ٢ : ١٥٥ .

(٦) القلم : ٦٨ / ١٣ .

(٧) الدر المنثور ٨ : ٤١٢ .

وفيه : أنَّ التَّدْحِيَةَ تسوية سطحها لا توسّعها.

والثاني : أنَّ آية ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ دالّة على أنَّ خلق ما في الأرض قبل خلق السَّماء ، وخلق ما في الأرض لا بدّ أن يتكوّن بعد التَّدْحِيَةِ (١) .

وفيه : أنَّ خلق ما فيها من الجبال والمعادن والأشجار وغيرها ، وإن كان لا يستلزم تسطيح وجه الأرض ، إلّا أنَّ الانتفاع بها متوقّف عليه ، والله العالم.

إن قيل : مقتضى الآية أنَّ السماوات سبع ، وأهل الرّصد قائلون بها تسعة.

قلنا : إن صحّ قول الرّصديّين ، يحمل السبع على ما سوى العرش والكرسيّ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر نعمة الحياة ونعمة خلق ما في الأرض ونعمة خلق السَّماءات ، ذكر النعمة الرابعة وهي خلق آدم وتعظيمه إيّاه ، وتشريفه بالعلم على الملائكة ، وكلّها من النعم الجارية في ذرّيّته ، ويمكن أن يكون وجه التّظنّ أنّه لما ذكر الله تعالى في الآية السابقة علمه وإحاطته بكلّ شيء ، وكان في قضيّة خلق آدم شهادة على كمال علمه وإحاطته بحقائق الموجودات وحكمها قبل إيجادها ، شرع في بيانها بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وتذكّر حين أوحى ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ جميعهم ، أو للذين كانوا في الأرض بعد طرد بني الجانّ منها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ بالخلق أو النّصب ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبدلاً منكم وممن كان قبلكم فيها ، ورافعكم إلى السَّماء ، هكذا قيل (٢) .

والأظهر أنّ المراد بالخليفة هو الحجّة على الخلق من الله ، إذ جعل أظهر في النّصب من الخلق ، كما قال تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (٣) وقال مخاطباً لداود عَلَيْهِ السَّلَام : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي

(١) تفسير الرازي ٢ : ١٥٥ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٩٣ .

(٣) البقرة : ٢ / ١٢٤ .

الأرض ^(١) وعلى هذا التفسير جمع من العامة. وقال بعضهم : إنّ الله يحفظ العالم بالخليفة كما يحفظ الخزائن بالختم ^(٢) .

قيل : إنّ حكمة إظهار هذه الإرادة للملائكة تعليم العباد المشاورة في الامور ، أو سؤال الملائكة عن حكمة الجعل حتى يظهر لهم شرف آدم وفضله عليهم ، فلما سمعت الملائكة ذلك الخطاب **﴿قَالُوا﴾** استفهما حكمة جعل الخليفة ، لا اعتراضا على الله : **﴿أَتَجْعَلُ﴾** يا رب ، وتنصب للخلافة **﴿فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾** بالعصيان والطغيان شأننا واستعدادا **﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾** المحترمة ، كما كان بنو الجانّ يفعلون فيها **﴿وَنَحْنُ﴾** أولى وأحقّ بالخلافة ، لأنّه ليس فينا شأنيّة الفساد والظلم ، بل نحن مجبولون على عبادتك ، وشغلنا أنا **﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾** وننزهك عمّا لا يليق بك ، مقرونًا بشنائك الجميل على نعمتك **﴿وَنُقَدِّسُ﴾** الأرض ونظهرها **﴿لَكَ﴾** قيل : الفرق بين التسبيح والتقدّيس ، أنّ التسبيح : تنزيهه تعالى عمّا لا يليق به. والتقدّيس : إثبات ما يليق ^(٣) .

فاستحققوا آدم وذريته ، ولم يعلموا أنّه أحقّ بخلافة الله منهم ، لأنّه مجمع عوالم النفوس والعقول والأجسام ، وفيه انطوى العالم الأكبر ، ولعلّه لكون سؤالهم عن حكمة الجعل بصورة الاعتراض - إذ كان حقّ السؤال أن يقولوا : ربّنا علّمنا حكمة هذا الجعل - طردهم الله عن حول العرش ، وجعل البيت المعمور توبة لهم على ما روي عن المعصومين عليه السلام ^(٤) . ولا يخفى أنّ هذه الروايات تنافي كون المراد من الملائكة الملائكة الذين ^(٥) كانوا سكّان الأرض. وعلى أيّ تقدير ، **﴿قَالَ﴾** الله في جوابهم : **﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾** من الحكم والمصالح في هذا الخلق **﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**

وفي رواية ، قال : « إنّني أخلق خلقا بيدي ، وأجعل في ذريته الأنبياء والمرسلين ، وعبادي الصّالحين ، وأئمّة مهديّين ، أجعلهم خلفائي في أرضي ، على خلقي يهدونهم إلى طاعتي ، وينهونهم عن معصيتي ، وأجعلهم حجّة لي عليهم » ^(٦) .

أقول : في خلق هذا النوع كمال قدرته وكمال رحمته وفضله وبعضاتهم ظهور صفة عفوه

(١) سورة ص : ٣٨ / ٢٦ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٩٣ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٩٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٧ ، تفسير العياشي ١ : ١١٤ / ١١٠ .

(٥) في النسخة : التي.

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٧ .

وقهاريته.

ثم خلق ﴿وَعَلَّمَ﴾ بإفاضته ﴿آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾

عن السجّاد عليه السلام : « علّمه أسماء كل شيء ، وفيه أيضا أسماء أنبياء الله وأوليائه وعتاة أعدائه » (١) .

وعن القمي عليه السلام قال : أسماء الجبال والبحار والأودية والنبات والحيوان (٢) .

في بيان المراد من الاسماء التي علّمها الله آدم

وقيل : إنّ المراد بالأسماء حقائق الأشياء ، لكون العلم بها أنسب بمقام التفضيل على الملائكة من العلم باللغات. ولعلّ هذا المعنى هو الظاهر ممّا روي عن الصادق عليه السلام حيث سئل : ماذا علّمه ؟ قال : « الأرضين ، والجبال ، والشّعاب ، والأودية » ثمّ نظر إلى بساط تحته ، فقال : « وهذا البساط ممّا علّمه » (٣) .

وعلى هذا ، لا بدّ من التقدير في الآية بأن يكون التقدير مسمّيات الأسماء ، أو القول بأنّ الاسم عبارة عمّا هو الدالّ على الذات ، وكما أنّ الأعلام اللفظيّة دالّة على الدّوات ، كذلك جميع الموجودات دالّة وكاشف عن ذاته المقدّسة دلالة المعلول على علّته.

فجميع الموجودات بهذا الاعتبار أسماء الله تعالى ، أو القول بأنّ المراد من الأسماء علل الموجودات وأسبابها وأرباب أنواعها ، وإطلاق الأسماء عليها في الأدعية وكلمات المعصومين غير عزيز. والأقرب أنّ يقال : إنّ المراد من الأسماء هو الألفاظ الدالّة على المسمّيات واللغات الموضوعة للمعاني ، كما هو ظاهر الآية المباركة والروايتين المتقدّمتين ، وظاهر ما ببالي من عبارات التوراة في سفر التكوين ، وعليه جلّ مفسّري العائمة لو لا الكلّ (٤) .

ولا ريب أنّ معرفة أسامي الموجودات بحيث لو رأى موجودا عرف اسمه مستلزم لمعرفة جميع المسمّيات بخصوصيّاتها ومشخصّاتها إلى يوم القيامة ، كما أنّ من عرف أسامي الأدوية ، بحيث لو احضر دواء أو معجون عنده ، قال : هذا اسمه كذا ، لا بدّ له من معرفة مشخصّاتها من طعمها ولونها وأجزائها ، فعلى هذا يكون الاطلاع على أسامي الموجودات ملازما لمعرفتها بماهيّاتها وحقائقها

(١) تفسير الصافي ١ : ٩٦ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٤٥ ، تفسير الصافي ١ : ٩٦ .

(٣) مجمع البيان ١ : ١٨٠ ، تفسير الصافي ١ : ٩٦ .

(٤) الكتاب المقدس : ٥ - الاصحاح الثاني من سفر التكوين ، وراجع : روح البيان ١ : ١٠١ ، تفسير أبي السعود ١ : ٨٤ ، تفسير الرازي ١ : ١٧٥ .

ومشخصات أفرادها إلى يوم القيامة ، وللاطلاع على جميع المصنوعات والمخترعات التي تحدث إلى آخر الدهر كما قال الصادق عليه السلام : « وهذا البساط مما علمه » .

فتعليم الأسماء يدل على تعليم المسميات بالدلالة الالتزامية ، ويدل عليه ما روي من أنه لما نفخ فيه من روحه علمه أسماء المسميات - أي ألهمه - فوق في قلبه ، فجرى على لسانه ما في قلبه بتسمية الأشياء ، فعلمه جميع أسماء المسميات بجميع اللغات بأن أراه الأجناس التي خلقها ، وعلمه أنّ هذا اسمه فرس ، وهذا اسمه بعير ، وهذا اسمه كذا ، وعلمه أحوالها وما يتعلّق بها من المنافع الدينية والدينية ، وعلمه أسماء الملائكة وأسماء ذريته كلّهم ، وأسماء الحيوانات والجمادات ، وصنعة كلّ شيء ، وأسماء المدن والقرى ، وأسماء الطير والشجر وما يكون ، وكلّ نسمة يخلقها إلى يوم القيامة ، وأسماء المطعومات والمشروبات ، وكلّ نعيم في الجنة ، وأسماء كلّ شيء حتّى القصعة والقصعة ، وحتّى الجنة والمحلب (١) .

وفي الخبر : لما خلق الله آدم بثّ فيه أسرار الأحرف ، ولم يبتّ في أحد من الملائكة ، فخرجت الأحرف على لسان آدم بفنون اللغات ، فجعلها الله صورا له ، ومثلت له بأنواع الأشكال (٢) .

وفي خبر آخر : علمه سبعمائة ألف لغة ، فلمّا وقع في أكل الشجرة سلب اللغات إلّا العربية ، فلمّا اصطفاها بالنبوة ردّ الله عليه جميع اللغات (٣) .

أقول : هذا كمال علمي وإحاطة بالمغيبات لا يليق بها الملائكة ، حيث إنّّه متوقّف على استعداد تامّ وكمال وجودي كان لآدم والطّيّين من ذريته.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي أشباح الموجودات ، وفي الحديث « أنّه عرضهم أمثال الدّر » (٤) ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وإرجاع ضمير ذوي العقول إليهم ، إمّا لأنّ أشباح الموجودات في عالم الملكوت جميعها ذوو الأرواح والعقول ، وإمّا لتغليب جانب ذوي العقول منهم.

فقال الله تعجيزا لهم : ﴿أَنْبِئُونِي﴾ وأخبروني أيّها الملائكة ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ الأشباح والصور المثالية للموجودات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أفضليّتكم على ما أردت خلقه ، وأولوئيّتكم بخلافتي منه ، حيث كان الدعوى مستفادا من قولهم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٠٠ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ١٠٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ١٠٠ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٠١ .

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿﴾ ولما كان مطابقا لاعتقادهم ، وإن كان مخالفا للواقع ، لم يكن كذبا منافيا لعصمتهم .

﴿قَالُوا﴾ تنزيها له عن فعل مناف للحكمة أو تعجيبا من أمره بما هو خارج عن وسعهم من إنبائهم بالأسماء مع علمه بجهلهم بها : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بشيء ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ بإفاضتك علينا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ المحيط بجميع المصالح والمفاسد وخفيات الأمور ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعالك ، لا يصدر منك إلا ما فيه الصّلاح الأتم .
قيل : إنَّ المؤمن بعد اطلاعه على قول الملائكة : ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ لا ينبغي أن يتأفف عن قول لا أدري ولا أعلم ^(١) .

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾
ثمَّ ﴿قَالَ﴾ الله : ﴿يَا آدَمُ﴾ أظهر سعة علمك للملائكة و﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي أسماء الأشباح .

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ وأخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ الله تعالى تقريرا لهم : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخفيات أسرارها وحكم جميع ما خلقته فيها قبل خلقه ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من قولكم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ ^(٢) إلى آخره ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وتخفون في ضمائرهم من هذا القول ، أو اعتقاد أنه لم يخلق الله خلقا أكرم عليه منا .
وقيل : إنَّ المراد ما كنتم إبليس من تمرده لأمر الله بالسجود لآدم .

وفي الآية دلالة على أفضلية العلم من جميع الكمالات النفسانية ، حيث احتج سبحانه وتعالى على كمال حكمته بظهور علم آدم ، ولو كانت صفة أخرى أفضل منه لاحتج بها .
في حديث أبي ذر رضي الله عنه : « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعبادة ألف مريض ، وشهود ألف جنازة » ف قيل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ قال : « وهل ينفع القرآن إلا بعلم » ^(٣) .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٠١ .

(٢) البقرة : ٣٠ / ٢ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ١٠٢ .

الكافرين (٣٤)

ثم لما ذكر سبحانه وتعالى سعة علمه وحكمة خلق آدم وتشريفه بالعلم وتبنيه الملائكة بفضله عليهم ، ناسب أن يذكر جملة من قضايا بدو خلقه ، حيث إنّ منها فوائد عظيمة من وجوب تعظيم العالم وذمّ الكبر والحسد ، ووخامة معصية الله وآثار التوبة وغير ذلك فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بعد خلق آدم وتشريفه بالعلم ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ كافة وفيهم إبليس : ﴿اسْجُدُوا﴾ تعظيما وإكراما ﴿لِآدَمَ﴾ أو طاعة له وتعظيما للأنوار الطيبة المودعة في صلبه.

قال عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما : « حدّثني أبي ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ قال : يا عباد الله ، إنّ آدم لما رأى النور ساطعا من صلبه - إذ كان الله

تعالى [قد] نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره - رأى النور ولم يتبيّن الأشباح ، فقال : يا ربّ ما هذه الأنوار ؟ فقال عزّجّل : أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشي إلى ظهرك ، ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح.

فقال آدم : يا ربّ لو بيّنتها لي . فقال الله عزّجّل : انظر يا آدم إلى ذروة العرش ، فنظر آدم ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم على ذروة العرش ، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره ، كما ينطبع وجه الإنسان في المرآة الصافية ، فرأى أشباحنا ، فقال : ما هذه الأشباح يا ربّ ؟

قال الله : يا آدم ، هذه أشباح أفضل خلائقي وبرّياتي ، هذا محمّد وأنا الحميد المحمود في فعالِي ، شققت له اسما من اسمي ، وهذا عليّ وأنا العليّ العظيم ، شقت له اسما من اسمي ، وهذه فاطمة وأنا فاطر السماوات والأرض ، فاطم أعدائي عن رحمتي يوم فصل قضائي ، وفاطم أوليائي عمّا يعرفونهم ، وهذا الحسن وهذا الحسين ، وأنا المحسن المجمل ، شققت اسميهما من اسمي ، هؤلاء خيار خليقتي ، وكرام برّتي ، بهم آخذ وبهم اعطي ، وبهم اعاقب ، وبهم أثيب ، فتوسّل بهم إليّ.

يا آدم ، وإذا دهتك داهية فاجعلهم إليّ شفعاك ، [فإني] آليت على نفسي قسما حقّا أن لا اخيّب بهم آملا ، ولا أردّ بهم سائلا ، فلذلك حين زلّت منه الخطيئة ، دعا الله عزّجّل بهم فتاب عليه ، وغفرت له « (١) .

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢١٩ / ١٠٢ .

﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم من غير ريث لكونهم مخلوقين من النور ، واقتضاء النور الطاعة والانقياد ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإنه كان من الجن مخلوقا من النار .

قيل : اسمه حارث ، واستثناؤه من الملائكة باعتبار أنه كان معهم يعبد الله حتى ظنوا أنه منهم ، فشمله الأمر بالسجود ، فلمّا عصى الله تعالى وتمرد ، علموا أنه لم يكن منهم .
وإنما سمي إبليس لكونه مبلسا من رحمة الله ، فلذلك ﴿أَبَى﴾ وامتنع من السجود حسدا
﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ على آدم .

عن القمي ، عنه عليه السلام : « الاستكبار أول معصية عصى الله بها » . قال عليه السلام : « فقال إبليس : رب اعفني عن السجود لآدم ، وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرب ولا نبي مرسل . فقال جلّ جلاله : لا حاجة لي في عبادتك ، إنّما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تريد » ^(١) .
﴿وَكَانَ﴾ من أجل تمرده عن طاعة أمر الله وتكبره على آدم معدودا ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بالله ، ومن زمرة الطّاغين عليه .

في (العيون) : عن أمير المؤمنين عليه السلام : « إنّ أول من كفر وأنشأ الكفر » ^(٢) .

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)﴾

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ واستقر ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ حواء ﴿الْجَنَّةَ﴾ قيل : إنّها جنة عدن .
وعن (الكافي) و (العلل) و (القمي) : عن الصادق عليه السلام : « أنّها كانت من جنّات الدنيا ، تطلع فيها الشمس والقمر ، ولو كانت من جنّات الخلد ما خرج منها أبدا » ^(٣) .
وزاد (القمي) عليه السلام : ولم يدخلها إبليس ^(٤) .

﴿وَكَلا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً بلا تقتير ولا تضيق ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ بلا تعب ولا نصب ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾

(١) تفسير القمي ١ : ٤٢ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٤٤ / ١ .

(٣) الكافي ٣ : ٢٤٧ / ٢ ، علل الشرائع : ٦٠٠ / ٥٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٤٣ .

هَذِهِ الشَّجَرَةُ كي تناولوا من ثمرها.

قيل : إنّها شجرة البرّ. وقيل : شجرة التّين. وقيل : شجرة الكرم. وقيل : شجرة الكافور ^(١) .
وفي رواية : أنّها شجرة الحسد.

وفي تفسير الامام عليّ عليه السلام : « أنّها شجرة علم محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم آثرهم الله تعالى بها دون سائر خلقه » ^(٢) .

في بيان حكم تسليط الشيطان على آدم

وعن (العيون) عن عبد السلام بن صالح الهروي ، قال : قلت للرّضا عليه السلام : يا بن رسول الله ، أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحوّاء ما كانت فقد اختلف النّاس فيها ، فمنهم من يروي أنّها الخنطة ، ومنهم من يروي أنّها العنب. ومنهم من يروي أنّها شجرة الحسد ؟ فقال عليه السلام : « كلّ ذلك حقّ » .

قلت : فما معنى هذه الوجوه على اختلافها ؟ فقال : « يا أبا الصّلت ، إنّ شجرة الجنّة تحمل أنواعا ، وكانت شجرة الخنطة وفيها عنب ليست كشجرة الدنيا ، وإنّ آدم عليه السلام لما أكرمه الله تعالى بإسجاده ملائكته له وإدخاله الجنّة ، قال في نفسه : هل في خلق الله بشر أفضل منّي ؟ فعلم الله ما وقع في قلبه ، فناداه : ارفع رأسك يا آدم ، وانظر إلى ساق عرشي ، فرفع رأسه فنظر الى ساق العرش ، فوجد [عليه] مكتوبا : لا إله إلّا الله ، محمّد رسول الله ، عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين ، وزوجته فاطمة سيّدة نساء العالمين ، والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة. فقال آدم : يا ربّ ، من هؤلاء ؟ فقال عزّ وجلّ : هؤلاء من ذريّتك ، وهم خير منك ومن جميع خلقي ، ولولاهم ما خلقتك ولما خلقت الجنّة والنّار ، ولا السّماء ولا الأرض ، فإنّك أن تنظر إليهم بعين الحسد [فأخرجك عن جوارى ، فنظر إليهم بعين الحسد] وتمنّى منزلتهم ، فتسلّط عليه الشّيطان حتّى أكل من الشّجرة التي نهي عنها ، وتسلّط على حوّاء لنظرها إلى فاطمة عليها السلام بعين الحسد حتّى أكلت من الشّجرة كما أكل آدم ، فأخرجهما الله تعالى من جنّته ، وأهبطهما من جواره إلى الأرض » ^(٣) .

أقول : المراد من الحسد هنا : الغبطة اللاتقة بمقام الأنبياء ، ولما كان في اغتباط آدم بمقام آل

(١) مجمع البيان ١ : ١٩٥ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٢١ / ١٠٣ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٣٠٦ / ٦٧ .

مُحَمَّد ﷺ - مع كونه بعيدا عنه بمراحل - ظهور نقصه وقلة معرفته بنفسه وبمقامهم ، حيث إن استدعاء من كان رتبته في باب السلطان خدمة الحضور أن يجعله السلطان رئيس وزرائه ، كاشف عن نقص إدراكه وعدم معرفته بشأن نفسه وشأن رئاسة الوزراء ، فاقتضت الحكمة تسليط الشيطان عليه حتى يعرف أنّ من يغتره الشيطان لا يليق أن يتمي المقام الشامخ الذي لمحمد وآله صلوات الله عليهم ، ولعلّ هذا هو المراد من القرب إلى شجرة علم آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، وتسليط الشيطان عليهما إيكالهما إلى نفسيهما وعقلهما والتخليّة بينهما وبين الشيطان ، وترك حفظهما عن كيد ، فصارت الزّلة سببا لعلمه بنقصه وباعثا له إلى تكميل نفسه الشّريفة.

ثمّ إنّّه تعالى لم يقتصر على نهيهما عن الأكل من الشجرة ، بل أكّده ببيان سوء عاقبة عصيانه تميما للطف بقوله : ﴿فَتَكُونَا﴾ بعصيان ومخالفة نهي ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسكم حيث إنكم تحرمون من النعم وتبعدون عن جوار الله وتبتلون بمشاق المعيشة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ بوسوسته ، وأوقعهما في الخط عن الجنة بخديعته.

روي « أنّ إبليس دخل بين الحي الحية فأدخلته الجنة ، وكان آدم يظنّ أنّ الحية هي التي تخاطبه ، وبدأ بآدم ، فقال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إن تناولتما منها تعلمان الغيب وتقدران على ما يقدر عليه من خصّه الله بالقدرة ، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ لا تموتان أبدا ، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ وحلف لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(١) فرد آدم على الحية ، فقال : أيتها الحية ، هذا من غرور إبليس ، كيف يخوننا ربنا ، أم كيف تعظمين الله بالقسم به وأنت تسبينه إلى الخيانة وسوء النظر ، وهو أكرم الأكرمين ؟ أم كيف أروم التوصل إلى ما منعي منه ربّي وأتعاطاه بغير حكمه ؟ !

فلما أيس إبليس من قبول آدم منه ، عاد ثانية بين الحي الحية ، فخاطب حواء من حيث يوهما أنّ الحية هي التي تخاطبها ، وقال : يا حواء ، أرايت هذه الشجرة التي كان الله عزّ وجلّ حرّمها عليكما ! لقد أحلّها لكما بعد تحريمها لما عرف من حسن طاعتكما له ، وتوقيركما إياه ، وذلك أنّ الملائكة - الموكّلين بالشجرة - التي معها الحراب ، يدفعون عنها سائر حيوانات الجنة ، ولا تدفعك عنها إن رمتها ، فاعلمي بذلك أنّه قد احلّ لك ، وأبشري بأنك إن تناولتها قبل آدم كنت أنت المسلّطة عليه الأمرة النّاهية فوقه.

(١) سورة الأعراف : ٢٠ / ٢١ - ٢١.

فقلت [حواء] : سوف اجرب هذا ، فرامت الشجرة ، فأرادت الملائكة أن تدفعها عنها بجراهما ، فأوحى الله إليها : إنما تدفعون بحرابكم من لا عقل له يزجره ، فأما من جعلته متمكنا مميزا مختارا ، فكلوه إلى عقله الذي جعلته حجة عليه ، فإن أطاع استحق ثوابي ، وإن عصى وخالف أمري استحق عقابي وجزائي. فتركوها ولم يتعرضوا لها بعد ما همّوا بمنعها بجراهم. فظننت أنّ الله نهاهم عن منعها لأنّه قد أحلّها بعد ما حرّمها. فقلت : صدقت الحيّة ، وظننت أنّ المخاطب لها هي الحيّة ، فتناولت منها ولم تنكر من نفسها شيئا ؛ فقلت لآدم : ألم تعلم أنّ الشجرة الحرمة علينا قد ابيحت لنا ، فتناولت منها ولم يمنعني أملاكها ، ولم انكر شيئا من حالي ؟ ! فلذلك اغترّ آدم وغلط وتناول «^(١) . الخبر .

إن قيل : كيف دخل الشيطان الجنة ولم تمنعه الخزنة ، مع أنّه اخرج منها وكان منهيّا عن الدخول فيها ؟ .

قلت : لعلّه كان منه عصيان آخر ، وإنما لم يمنعه الخزنة لأنّ الله أراد ابتلاء الحيّة وآدم. وما قيل في ردّه من أنّه كان منهيّا عن الدخول بارزا لا مختفيا ، ففيه : أنّ الظاهر من الأمر بالخروج هو حرمة الدخول عليه مطلقا ، بارزا ومستترا ، والظاهر أنّ وجه اختفائه بين لحيي الحيّة التحرّز - بزعمه - عن اطلاع الخزنة عليه ، وعن معرفة آدم وحواء إيّاه ، حيث إنّهما مع علمهما بكونه عدوا لهما ؛ لم يكونا معتنيين بقوله.

إن قيل : إذا كان الشيطان قادرا على أن يدخل بين لحيي الحيّة ، كان قادرا على أن يتصوّر بصورتها.

قلت : لعلّ وجه دخوله بين لحييها قصّد إغوائها وإيقاعها في الخطيئة وتبعيدها عن ساحة الرحمة ، حيث كان همّه ذلك بالنسبة إلى جميع الخلق.

إن قيل : إذا لم يكن للحيّة عقل ، ولم يكن لها تكليف ، فكيف يتصوّر وقوعها في الخطيئة ؟ قلت : لعلّه كان لها في ذلك الوقت وذاك العالم مرتبة من العقل يصحّ معها تكليفها ببعض الامور ، فكانت إعانتها لإبليس على دخوله في الجنة وموادّتها له خطيئة ومعصية.

إن قيل : إذا كان أكل آدم وحواء من الشجرة لاعتقاد إباحتها لهما ونسخ النهي والتّحريم أو الكراهة والتنزيه ، كانا معذورين في المخالفة ، فكيف عوتبا وعوقبا عليها ؟

قلت : لعلّه كان اعتقادهما مستندا إلى التّقصير ، حيث إنّ الله تعالى باشر بذاته المقدّسة مخاطبتهم

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٢٢ / ١٠٤ .

بالنهي عن قرب الشجرة ، وأخبرهما بأن الشيطان لهما عدو مبین ، فإذا كان عليهم التثبت وانتظار الإذن الصريح من الله تعالى ، ولم يكن لهما الاعتماد بقول الحية والأمارات الطنّية ، فلما اعتمدا بقول من لا حجة في قوله ، وعملا بالظنّ الناشئ عن الطمع والهوى كان ذلك خلاف العزم والحزم ، ولذا قال تعالى في حق آدم : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١) فقول الفخر الرازي : إنّ هذه الرواية ممّا لا يلتفت إليها^(٢) ، لتوهّمه ورود بعض هذه الاشكالات عليها ، ممّا لا يلتفت إليه.

وعن (العيون) عن الرضا عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لهُمَا : ﴿لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وأشار لهما إلى شجرة الحنطة ، ولم يقل لهما : لا تأكلا من هذه الشجرة ولا ممّا كان من جنسها ، فلم يقربا تلك الشجرة ، فأكلا من غيرهما لما أن وسوس الشيطان إليهما »^(٣) الخبر . وفيه إشعار بأنّه كان الأولى أن يراجع آدم عليه السلام ربه في إباحة ما كان من جنسها أو يحتاط ، فوسوس إليه الشيطان وأوهمه نسخ حرمة تلك الشجرة الخاصّة لترتفع جهة الاحتياط ، وعليه كان جهة القبح في أكله أضعف ، ومخالفته أهون . ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ الشيطان ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الجنة ونعيمها ﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وحواء والحية وإبليس : ﴿اهْبِطُوا﴾ وتنزلوا من الجنة إلى الأرض في حال ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مع نسله ﴿لِبَعْضٍ﴾ آخر ولذاريه ﴿عَدُوٌّ﴾ ومبغض.

قيل : كان إهباط الشيطان بعد إخراجه من الجنة إهباطا من حوالها . ثمّ اعلم أنّ ظاهر غير واحد من الأخبار أنّ الجنة التي كان آدم فيها كانت في السماء ، ومقتضى ما مرّ^(٤) من قول الصادق عليه السلام « إنّها كانت من جنّات الدنيا تطلع عليها الشمس والقمر » أنّها كانت في الأرض ، وعلى هذا يكون المراد من الإهباط الانتقال من أرض الجنة الأرضية إلى أرض غيرها ، كقوله تعالى : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾^(٥) .

في بيان حكمة إسكان آدم الجنة مع أنّه خلق للخلافة في الأرض ، وحكمة ابتلائه بالخطيئة وتبعيده

إن قيل : مقتضى قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٦) أنّ خلق آدم كان للسكونة^(٧) في الأرض ، فلم أسكنه في الجنة ؟ قلت : لعلّه لإظهار أنّ من لا ذنب له يستحقّ الجنة .

(١) طه : ٢٠ / ١١٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣ : ١٥ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٦ / ١ .

(٤) تقدّم في أول تفسير الآيتين (٣٥ و ٣٦) من هذه السورة .

(٥) البقرة : ٢ / ٦١ .

(٦) البقرة : ٢ / ٣٠ .

(٧) كذا ومقتضى الاشتقاق أن يكون للسكن أو السكنى .

إن قيل : لأيِّ حكمة ابتلاه الله بالدَّنب ؟

قلت : كان ابتلاؤه بالدَّنب لطفًا عليه ، حيث إنَّ فيه تنبيهه على نقصه ، وبعثه إلى تكميل نفسه ، حيث إنَّ من لا يطَّلِع على مرضه لا يهتم بعلاجه ، فكان في تبعيده تكميله وتقريبه .
﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ ومحل إقامة وموضع تعيَّش ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وانتفاع بها وبما فيها من الأمتعة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ الموت . وعن القمِّي : إلى يوم القيامة ^(١) . وهذا إمَّا بالنظر إلى ما روي من أنَّ من مات فقد قامت قيامته ^(٢) . وإمَّا إلى أنَّ أهل البرزخ أيضا متمتعون في أرض الدنيا ، فإذا كانت القيامة تبدِّل الأرض غير الأرض .

عن العياشي : عن الصادق عليه السلام « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفَخَ فِي آدَمَ رُوحَهُ بَعْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، ثُمَّ بَرَأَ زَوْجَتَهُ مِنْ أَسْفَلِ أَضْلَاعِهِ [ثُمَّ اسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ] وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ ، فَمَا اسْتَقَرَّ فِيهَا إِلَّا سِتُّ سَاعَاتٍ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ حَتَّى عَصَى اللَّهَ ، فَأَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، وَصَيَّرَا بَفَنَاءِ الْجَنَّةِ حَتَّى أَصْبَحَا ، وَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاقُهُمَا ، فَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَهْكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ؟ فَاسْتَحْيَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ وَخَضَعَ ، وَقَالَ : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَاعْفُ رُبَّنَا . قَالَ اللَّهُ لَهُمَا : اهْبِطَا مِنْ سَمَاوَاتِي إِلَى الْأَرْضِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجَاوِرُنِي فِي جَنَّتِي عَاصٍ وَلَا فِي سَمَاوَاتِي » .
ثم قال عليه السلام : « إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ذَكَرَ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهَا فَندَمَ ، فَذَهَبَ لِيَتَنَحَّى عَنْ الشَّجَرَةِ ، فَأَخَذَتْ الشَّجَرَةُ بِرَأْسِهِ فَجَرَّتْهُ إِلَيْهَا ، وَقَالَتْ لَهُ : أَفَلَا كَانَ فِرَارُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْكُلَ مِنِّي ؟ » ^(٣) .

والقمِّي عن الصادق عليه السلام : « إِنَّ آدَمَ هَبَطَ عَلَى الصَّفَا ، وَحَوَّاءُ عَلَى الْمِرْوَةِ ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا سَاجِدًا ، يَبْكِي عَلَى خَطِيئَتِهِ وَفِرَاقِهِ لِلْجَنَّةِ » ^(٤) .
قيل : وقع آدم بأرض الهند على جبل سرنديب ، ولذا طابت رائحة أشجار تلك الأودية ، لما معه من ريح الجنة ، ووقعت حواء بجدة وبينهما سبعمئة فرسخ ، والطاووس بمرج الهند ، والحية بسجستان أو بأصفهان ، وإبليس بسدّ يأجوج ومأجوج ^(٥) .
وعن ابن عباس : بكى آدم حواء مائتي سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوما ، ولم يقرب آدم

(١) تفسير القمي ١ : ٤٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٨ : ٣٨٧ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٣٩ / ١٥٥٣ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٤٣ ، تفسير الصافي ١ : ١٠٧ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ١١١ .

وحواء مائة سنة (١) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « نزل جبرئيل على آدم فقال : يا آدم ألم يخلقك الله بيديه ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ؟ قال : بلى . قال : وأمرك أن لا تأكل من تلك الشجرة ، فلم عصيته ؟

قال : يا جبرئيل ، إن إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح ، وما ظننت أن أحدا خلقه الله يحلف بالله عجزاً كاذباً . فقال له جبرئيل : يا آدم تب إلى الله » (٢) .

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ في (الكافي) : عن أحدهما عليه السلام : « إن الكلمات : لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي ، فاغفر لي وأنت خير الغافرين ، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي ، فاغفر لي وارحمي إنك أنت أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي ، فتب عليّ إنك أنت التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

وفي رواية : « بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين » (٣) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « أن آدم عليه السلام قال : بحق محمد أن تغفر لي » (٤) .

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ بالتائبين ، وفي ذكر الوصفين وعد بليغ بالاحسان مع العفو والغفران .

في بيان عصمة الأنبياء بدلالة العقل والنقل والضرورة

ثم اعلم أن من ضروريات مذهب الإمامية الاثني عشرية عصمة الأنبياء والأئمة والأوصياء ، من بدو تولد لهم في الدنيا إلى خروجهم منها ، بمعنى امتناع صدور المعاصي الكبيرة أو الصغيرة والقبائح العقلية عنهم عليه السلام عمداً أو خطأ أو سهواً أو نسياناً ، والدليل عليه مضافاً إلى الضرورة حكم العقل وتواتر النقل .

أمّا حكم العقل فتقريره : أنه لا شبهة في أن اللطف على الناس بتقريبهم إلى الطاعة والمحسنات العقلية وتبعيدهم عن المعصية واجب على الله ، لكونه حسناً غير مزاحم بجهة قبح ، وكما أن من

(١) تفسير روح البيان ١ : ١١٤ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٤٣ ، تفسير الصافي ١ : ١٠٧ .

(٣) الكافي ٨ : ٣٠٤ / ٤٧٢ ، تفسير الصافي ١ : ١٠٥ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١١٣ .

اللطيف نصب الخليفة والسائس والمربي والأمر والتأهي لهم ، كذلك من كمال اللطف تزيينه بالصفات الحسنة والمكارم الجميلة ، وتنزيهه عن الأخلاق السيئة وما يوجب نفرة الطباع واشتمزاز القلوب عن تبعيته وانقياده ، حيث إنّه لا ريب أنّ صدور القبائح والمعاصي - ولو كان عن سهو ونسيان - موجب لانحطاط قدره وسقوطه عن الأنظار ، والاستنكاف عن تبعيته وقبول طاعته ، وعدم تأثير نصحه وموعظته ، بخلاف ما إذا كان من بدو أمره وأوّل عمره منزّها عن الرذائل ، مزيّناً بالأخلاق الحميدة والفضائل ، محترزاً عن قبائح الأعمال مكترثاً عن ذمائم^(١) الخصال ، فإنّ له وقعا في القلوب ، وعظمة في الأنظار ، ومهابة في الصدور ، ولكلامه أثر في النفوس ، فيكون الناس إلى أتباعه أرغب ، ولأوامره ونواهيه أطوع.

ولما لم يكن في قدرته تعالى قصور عن إيجاد من هو واجد لهذه الخصال ، فالحكمة البالغة والرّحمة الشاملة مقتضية لاجتاده واصطفائه للهداية والرّسالة ، وإلّا فهو مناقض لحكمته ، مخالف لشؤون لطفه ورحمته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وأما التّقل فلتراكم الآيات وتواتر الروايات على اعتبار العصمة بالدلالة المطابقة أو الالتزامية ، حتّى إنّ الأشاعرة المنكرين لوجوب اللطف ، والجاحدين للحسن والقبح ، ملتزمون بوجوب عصمة الأنبياء للأدلة النقلية.

في بيان حقيقة العصمة وملاكها

ثمّ لا يذهب عليك أنّه ليس المراد من امتناع صدور المعاصي والقبائح عنهم عدم قدرتهم عليها ، أو عدم وجود مقتضياتها من الشهوة والغضب فيهم ، بل المراد وجود المانع عن إرادتها فيهم ، وهو كمال عقلهم ، وشدّة يقينهم بعظمة الله ، ووفور علمهم بحقائق المعاصي وقباحتها وسوء آثارها ، كما يمتنع من العاقل الكامل العالم بحقيقة النّار ومضراتها إلقاء نفسه فيها ، أو من الملتفت بشدّة قذارة بعض الأقدار أكله منها ، بل لا يخطر بخاطره ، بل يتغيّر حاله من تصوّره.

فالعصمة من آثار قوّة العقل وكمال المعرفة واليقين ونورانية القلب والطّينة المأخوذة من أعلى عليّين ، إذا عرفت ذلك فكلّ ما يكون في الآيات والروايات العامية والإمامية من ظهور نسبة الخطأ والعصيان إلى الأنبياء والمرسلين والهداة المعصومين ، محمول على ما لا ينافي عصمتهم من فعل ما يكون تركه أولى وترك ما يكون فعله أحسن ، كما أنّ ما ظاهره نسبة العصيان إلى الملائكة الذين هم

(١) كذا والصحيح غير مكترث بزمائم.

معصومون باتّفاق الأئمة وإجماع المسلمين ، محمول على ذلك للقرينة العقلية القطعية.

مضافا إلى ما ورد من الروايات الكثيرة عن أئمتنا صلوات الله عليهم في تأويل عصيان آدم ، وخطيئة داود ، وظهور قول ابراهيم عليه السلام : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾^(١) في الشرك ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾^(٢) في الكذب ، وقوله : ﴿ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾^(٣) في الشك في المعاد ، وسؤال موسى عليه السلام رؤيته تعالى في اعتقاده بالتحسّم ، وظهور قوله تعالى في حق يوسف : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾^(٤) في قصده عليه السلام الفاحشة ، وأمثال ذلك.

وأما ما في رواية (العيون) عن الرضا عليه السلام من « أنّ الله تعالى قال لهما : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾* إلى أن قال : « وكان ذلك من آدم قبل النبوة ، ولم يكن ذلك بذنب كبير استحقّ به دخول النار ، وإلّا كان من الصّغائر التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي إليهم. فلمّا اجتباه الله تعالى وجعله نبيا كان معصوما لا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾^(٥) فمحمول على التقية لأنّه قول العامة ، أو مطروح.

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨)

ثم أنّه تعالى لما أمرهم أولا بالهبوط اجمالا ، كرّر الأمر ثانيا به لبيان كيفيته بقوله : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ لا يتقدّم بعضكم بعضا أو لبيان تحتم مقتضاه.

وقيل : إنّ الأمر الأوّل بالهبوط لبيان أنّ الغرض المعاداة والبلية ، والأمر الثاني لبيان غرض التكليف والامتحان ، ويؤيده قوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ وجاءكم من قبلي رشد وشرعية ﴿ فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ ﴾ وأقتدى بشريعتي ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في الدنيا ممّا ينزل من البلايا والحن بالتوكل على الله والتفويض إليه وبذكر الله تطمئنّ قلوب المؤمنين ، وفي الآخرة من العذاب ، ببيشارة الملائكة لهم : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٦) .

﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الدنيا على ما فاتهم من الفوائد الدنيوية لحقارتها في نظرهم ، وفي

الآخرة

(١) الأنعام : ٦ / ٧٧ .

(٢) الأنبياء : ٢١ / ٦٣ .

(٣) البقرة : ٢ / ٢٦٠ .

(٤) يوسف : ١٢ / ٢٤ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٦ / ١ ، والآيتان من سورة طه : ٢٠ / ١٢١ و ١٢٢ .

(٦) فصلت : ٤٢ / ٣٠ .

على انحطاط درجتهم عمّن هو أعلى منهم ، لكمال سرورهم بما آتاهم الله من فضله.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾

ثم أنّه تعالى لما وعد متّبعي الهدى بالأمن بما يخاف من العذاب والفراغ من الحزن ، عقّبه بذكر من أعدّ له العذاب الدائم بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسّلنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة عليهم من الإنس والجنّ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها غير منفكّين عنها و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ

بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون (٤٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ما دعا عموم النّاس إلى الاعتراف بتوحيده وعبادته والالتقاء من سخطه وعذابه مستدلا بخلق نعمه العظام من السّماء والأرض والأمطار والثّمار وخلق الاصول ونعمة الحياة وغير ذلك ، حيث إنّ كلّ واحد منها دالّ على وجوده ووحدانيّته واستحقاقه العبادة وقدرته على الإعادة والتّعذيب على الشّرك والعصيان ، خصّ خصوص طائفة بني إسرائيل منهم بالخطاب والدّعوة إلى الإيمان بتوحيده ورسالة رسوله وتصديق كتابه ، لكونهم في ذلك العصر متخصّصين باللّحاج مع النبيّ ﷺ وشدّة المعاندة للحقّ ، مستدلا بنعمه الخاصّة بهم وبآبائهم ، حيث إنّ فيها مع ذلك استمالة قلوبهم ، وكسر لجاحهم وعنادهم ، فبدأ سبحانه بتذكيرهم النعم الخاصّة بهم إجمالا بقوله : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم اليهود الذين كانوا في ذلك العصر في المدينة وحولها.

روي أنّ إسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه في العريّة : عبد الله ، لأنّ اسرا : هو العبد. وثيل : هو الله ^(١) . وقيل : اسرا : هو الإنسان ، فالمعنى : رجل الله ^(٢) . وفي رواية اخرى : اسرا : هو القوّة ^(٣) .

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهي نعمة هجرة النبيّ ﷺ إلى مدينتهم ووضوح علامات نبوّته ودلائل صدقه ، أو هي مع سائر النّعم التي أنعم الله على آبائهم ، فإنّها انعام على أبنائهم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أخذه أنبياءكم من أسلافكم وأمروهم أن يؤدّوه إليكم وإلى أخلافكم ، وهو أن تؤمنوا بمحمّد العربيّ القرشيّ الموصوف في كتبهم.

(١) تفسير الرازي ٣ : ٢٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣ : ٢٩ .

(٣) علل الشرائع : ٤٣ / ٢ .

روي عن ابن عباس أنّ الله تعالى كان عهد إلى بني إسرائيل في التّوراة : أئنيّ باعث من بني إسماعيل نبيا امّيا ، فمن تبعه وصدّق [بالنور] الذي يأتي به - أي بالقرآن - غفرت له ^(١) ، إلى آخره.

إن قلت : لو كان هذا العهد ثابتا ، فكيف يمكن جحدّه من جماعتهم ؟
قلت : يمكن أن يكون العلم بذلك كان حاصلا عند علمائهم فأخفوه عن العوامّ حفظا لرئاستهم ، أو أولوا عبارة العهد كما أول العامة نصّ الولاية.

﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ من التّعيم الأبدي ، وأعطاكم الذي وعدتكم جزاء لإيمانكم به ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ في مخالفة محمد ﷺ والخروج عن طاعته.

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾

ثمّ بعد تذكيرهم النّعمة ومطالبة الوفاء بالعهد وبيان جزائه ، فسّر العهد بقوله : ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ من القرآن ، حيث إنكم ترونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التّوراة ، فإنّ التّوراة تشهد بأنّه حقّ ، لأنّها مبشّرة ببعثة محمد ﷺ وبكتابه ، فالإيمان بالتّوراة مستلزم لتصديق محمد ﷺ وكتابه ، وتكذيب القرآن تكذيب التّوراة ، وفي نسبة التصديق إلى القرآن إظهار لشرفه وفضيلته على التّوراة ، وتوصيفه بكونه مصدّقا إقامة الحجة عليهم في وجوب الإيمان بمحمد ﷺ ، لوضوح أنّ شهادة الكتب السّماوية لا تكون إلّا حقّا مضافا إلى أنّ إخبار النبيّ ﷺ بكون القرآن مصدّقا لما في التّوراة من الإخبار بالمعيبات لتسالم الكلّ على عدم اطلاعه بما في التّوراة بالقراءة والتّعلّم.

ثمّ أردف الأمر بالإيمان الذي هو من المعروف ، بالتهني عن المنكر ، بقوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيّها اليهود ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ مع أنّ اللائق بكم أن تكونوا أوّل مؤمن به ، فيتبعكم سائر اليهود وغيرهم من أهل الكتاب ، لما ترون من صفات محمد ﷺ وصفات أصحابه وصفات كتابه مطابقا لما في التّوراة ، وأنتم مع ذلك علمون بشأنه وأهل النّظر في معجزاته والمستفتحون به.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ ولا تأخذوا بدلا منها ﴿ثَمَنًا﴾ وعوضا ﴿قَلِيلًا﴾ من الحطام الدنيويّة ،

ولا

(١) تفسير الرازي ٣ : ٣٥ .

تَحَرَّفُوا الْآيَاتِ بِعَوَضِ الْأَمْتَعَةِ الدَّنيَةِ وَالْهِدَايَا الْقَلِيلَةِ ، وَفِي التَّوْصِيفِ بِالْقَلَّةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا يَأْخُذُونَ مِنَ الْأَثْمَانِ وَلَوْ كَانَ كَثِيرًا فِي جَنْبِ النِّعَمِ الْآخِرِيَّةِ قَلِيلٌ غَايَتُهُ .

عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنَّ حَيَّيْ بْنَ أَخْطَبٍ ، وَكَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ وَآخَرِينَ مِنَ الْيَهُودِ كَانَ لَهُمْ مَأْكَلَةٌ عَلَى الْيَهُودِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، فَكْرَهُوا بَطْلَانَهَا ، فَحَرَّفُوا لَذَلِكَ آيَاتَ مِنَ التَّوْرَةِ فِيهَا صِفَتُهُ وَذَكَرَهُ ، فَذَلِكَ الثَّمَنُ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ فِي الْآيَةِ » (١) .

﴿وَأَيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ فِي كِتْمَانِ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَوَصِيَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قِيلَ : الْفَرْقُ بَيْنَ الرَّهْبَةِ وَالْإِتْقَاءِ ، أَنَّ الرَّهْبَةَ : الْخَوْفُ فِي مَعْرِضِ الضَّرَرِّ وَعِنْدَ إِمْكَانِ وَقُوعِهِ ، وَالْإِتْقَاءُ : فِي مَوْرَدِ تَبَيُّنِ الضَّرَرِّ .

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾ الْمَنْزِلَ فِي التَّوْرَةِ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الَّذِي تَخْتَرَعُونَهُ ، أَوْ الْمُرَادُ : لَا تَلْبِسُوا نَبْوَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدَلَالَتَهَا بِالشَّبَهَاتِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَلْقَوْنَهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَوَ﴾ لَا ﴿تَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ بِالسَّعْيِ فِي أَنْ لَا يَطَّلِعَ أَحَدٌ عَلَى دَلَالَتِهِ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بِأَنَّ مَا تَفْعَلُونَهُ كِتْمَانٌ لِلْحَقِّ وَمُكَابَرَةٌ لِعَقُولِكُمْ ، أَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِي إِضْلَالِ الْخَلْقِ مِنَ الضَّرَرِّ الْعَظِيمِ ، وَفَعَلَ الْقَبِيحَ مَعَ الْعِلْمِ بِقُبْحِهِ أَقْبَحُ .

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِهِ وَلَا يَمْنَعُهُ التَّقِيَّةُ ، الْجَمُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ » (٢) .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)

ثُمَّ بَعْدَ مَا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ دَعَاهُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الْمَكْتُوبَةَ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ زَكَاةَ الْمَالِ وَالنَّفْسِ وَالْفِطْرَةِ ﴿وَارْكَعُوا﴾ وَتَوَاضَعُوا لِعِظْمَةِ اللَّهِ ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ الْمُتَوَاضِعِينَ لَهُ . وَالْمُرَادُ : صَلُّوا مَعَ الْمُصَلِّينَ جَمَاعَةً وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الصَّلَاةِ بِالرُّكُوعِ لِاخْتِصَاصِهِ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ دُونَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

﴿اتَّامِرُوا النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤)

(١) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ١ : ٢١٠ .

(٢) بَحَارُ الْأَنْوَارِ ٧ : ٢١٧ / ١٢٠ .

ثم لما كان دأب علمائهم أن يأمرُوا بالبرِّ والعبادات والصدقات ، مع تركهم للعمل بها ، ويحّمهم الله تعالى وقرّعهم بقوله : ﴿ **تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ** ﴾ والصدقات والعبادات ﴿ **وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ تغفلون عن حقّها ، كأنتكم نسيتموها ﴿ **وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ** ﴾ وتقرءون ﴿ **الْكِتَابَ** ﴾ وهو التّوراة الآمرة بالخيرات والصدقات ، الناهية عن المنكرات ﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ أن أنفسكم أحقّ بالأمر والنّهي ، وعقابكم مع علمكم أشدّ من عقاب الجهّال !

روي عن أنس ، قال : قال النّبيّ ﷺ : « مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من النّار ، فقلت : يا أخي جبرئيل ، من هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء خطباء من أهل الدنيا ، كانوا يأمرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وينسون أنفسهم » (١) .

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على جميع الناس . وروي عن الصادق عليه السلام قال : « من لم ينسلخ عن هواجسه ولم يتخلّص من آفات نفسه وشهواتها ولم يهزم الشيطان ولم يدخل في كنف الله وأمان عصمته لا يصلح للأمر (٢) بالمعروف والنّهي عن المنكر ، لأنّه إذا لم يكن بهذه الصّفة ، فكُلّ ما أظهر [أمرا] يكون حجة عليه ، ولا ينتفع النَّاسُ به ، قال الله تعالى : ﴿ **تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ ويقال له : يا خائن ، أتطالب خلقي بما خنت به نفسك وأرخيت عنه عنانك » (٣) .

ولا يذهب عليك أنّ هذه الرّواية لا تكون مقيّدة لوجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، لأنّهما واجبان مطلقان على جميع الخلق .

كما روي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به ، وانحوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه » (٤) .

بل يجب عليه تحصيل هذه الصّفات ، فلو ترك الأمر بالمعروف لعدم وجود هذه الصفات فيه ، لكان معاقبا على ترك العمل وترك الأمر ، كما أنّ من ترك العمل بالواجبات لعدم الإيمان الذي هو شرط في صحّة العمل ، كان معاقبا على ترك الإيمان والعمل .

(١) تفسير الرازي ٣ : ٤٧ .

(٢) في مصباح الشريعة : له الأمر .

(٣) مصباح الشريعة : ١٨ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٢٣ .

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾

ثم إن اليهود لما كانوا مبتلين بمرض حب الدنيا ، والغفلة عن الله والدار الآخرة - ولذا كان تحمّل تكاليف الإسلام ، وترك الرئاسات ، والإعراض عن الجاه والمال شاقاً عليهم - بين الله دواء مرضهم بقوله : ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ على تحمّل مشاقّ التكاليف ، ومخالفة الهوى ﴿بِالصَّبْرِ﴾ وكفّ النفس عنها ، أو بالصّوم الذي هو كاسر للشّهوات ومصفّ للنفس ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ التي هي ناهية عن الفحشاء ، ومعراج المؤمن ، فإنّها موجبة لتوجّه القلب إلى الله وعظمته وجلاله ، وحقوق نعمه وقهره ورحمته ، فتسهّل طاعته وترك معاصيه ، لأنّه كلّما أقبل القلب إلى الله تعالى والدار الآخرة أعرض عن الدنيا ولذاتها ، وكلّما استنار القلب بذكر الله خرج من ظلمات هوى النفس وشهواتها ، وكلّما تفكّر في خروجه من الدنيا هانت عليه شدائدها ومصيبتها.

روي عن الصادق عليه السلام : « ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل مسجده فيركع ركعتين فيدعو الله فيهما ؟ أما سمعت الله يقول : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ .. (١) » .

روي عن النبي ﷺ إذا حزبه (٢) أمر فزع إلى الصلّاة (٣) .

وعن ابن عباس ، أنّه نعي له بنت وهو في سفر فاسترجع ، وقال : عورة سترها الله ، ومؤنة كفاهها الله ، وأجر ساقه الله. ثمّ تنحّى عن الطريق وصلى ، ثمّ انصرف إلى راحلته وهو يقرأ : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (٤) .

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الاستعانة بهما ، أو أنّ الصلّاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ وثقيلة شاقّة على النفوس ﴿إِلَّا عَلَى﴾ نفوس ﴿الْخَاشِعِينَ﴾ الخائفين من عقاب الله وسطواته ، فإنّ خوف العقاب يهوّن على العبد مشقّة التكاليف.

ثمّ وصف الخاشعين بأنّهم ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ ويعتقدون ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ محضرون في محضر عدله وحكومته ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ﴿رَاجِعُونَ﴾ بعد الموت أو بعد الحشر ، لا يملك أمرهم غيره ، والتعبير بالرجوع إليه مع أنّ الانسان لا يخرج في آن من الآفات عن حكم الله حتّى

(١) تفسير العياشي ١ : ١٣٣ / ١٤٣ ، مجمع البيان ١ : ٢١٧ .

(٢) حزبه الأمر : نابه واشتدّ عليه .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ١٢٤ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٢٤ .

يرجع إليه ، لأنه كان قبل ولادته تحت سلطنة الله في الظاهر والواقع ، فلما تولّد دخل في تربية والديه وغيرهما ، وكان لهما ولغيرهما ولنفسه سلطنة عليه في الظاهر ، ثمّ يرجع بعد الموت إلى سلطنة الله وحكمه كما كان قبل ولادته.

وقيل : إنّ الظنّ هنا بمعناه ، والمراد أنّهم يظنون ملاقة رحمة الله والرجوع إلى رضوانه حيث إنّ المؤمن لا يعلم الوصول إلى رحمة الله إلّا حين الموت ولا يزال خائفا من سوء العاقبة حتّى يأتيه اليقين.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾

ثمّ كرّر الله تذكير النعم تأكيدا للحجّة وتحذيرا من ترك اتباع النبي ﷺ بقوله : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾ واشكروا ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قيل : هي النعمة التي أنعمها على أسلافهم من بعث موسى وهارون فيهم وهدايتهم إلى نبوة محمد ﷺ ووصاية عليّ ؑ وإمامة عزّته الطيّبين صلوات الله عليهم فإنّها فوق النعم وأولى بالامتنان عليهم ، ثمّ بعدها ما أشار إليه بقوله : ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ بسبب تفضيل آبائكم الأقدمين ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وجميع أهل زمانهم بقبول ولاية محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين وبتظليلهم الغمام ، وإنزال المنّ والسّلوى ، وتخصيصهم بسائر النعم العظام ^(١) ، حيث إنّ الإنعام على الآباء وتشريفهم بالنعماء موجب للشكر على الأبناء وتشريفهم ، ثمّ قرّب الله تعالى الدّعوة بالوعيد.

وقيل : إنّ اليهود كانوا يقولون : نحن أولاد إبراهيم الخليل وإسحاق الذبيح ، وهما يشفّعوننا في القيامة عند الله ، فردّهم الله بقوله : ﴿وَاتَّقُوا﴾ يا بني إسرائيل واحترزوا ﴿يَوْمًا﴾ فيه حشركم وحسابكم وجزاؤكم ، فإنّه يوم لا ﴿تَجْزِي﴾ ولا تكفي ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة كانت أم كافرة ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْئًا﴾ يسيرا من الإجزاء كما قال الله : ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ ^(٢) بل قال : ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ^(٣) الآية.

(١) تفسير الصافي ١ : ١١٢ .

(٢) الممتحنة : ٦٠ / ٣ .

(٣) عبس : ٨٠ / ٣٤ .

روي أنّ الوالد يتعلّق بولده يوم القيامة فيقول : يا بنيّ ، أيّ أنا أبوك في الدنيا ، وقد احتجت إلى مثقال حبة من حسناتك لعلّي أنجو بها ممّا ترى. فيقول له ولده : إيّ أتخوّف مثل الذي تخوّفت أنت ، فلا اطيق أن اعطيك شيئاً. ثمّ يتعلّق بزوجه فيقول لها : يا فلانة ، إيّ زوج لك في الدنيا ^(١) ، الخير ، وحاصل السؤال والجواب قريب ممّا بينه وبين ولده.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ وفي موردها إذا كانت كافرة ﴿شَفَاعَةٌ﴾ من الشفعاء ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَذْلٌ﴾ وفداء من مال ومتاع لو فرض إمكانه ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ولا يعاونون في دفع العذاب ولا يحامون.

والحاصل : أنّ جميع وجوه التخلّص من المكارة الدنيويّة. منقطع عنهم ، حيث إنّها منحصرة في أربع :

أحدها : نيابة الغير عنه في تحمّلها.

وثانيها : التّفدية بالمال.

وثالثها : شفاعة الشفعاء.

ورابعها : نصرة الأنصار ودفاع الأحبة ، فلا يبقى للعاصي طمع النّجاة في الآخرة.

إن قيل : مقتضى هذه الآية أنّه لا تنفع شفاعة شفيع للعصاة يوم القيامة ، مع أنّ ضرورة المسلمين ؛ أنّ النبيّ ﷺ يشفع للعصاة من أمته ، وأنّه الشّافع المشفّع ، وضرورة الإماميّة أنّ فاطمة عليها السلام والأئمّة يشفعون لعصاة شيعتهم ، بل مقتضى كثير من الروايات أنّ العلماء أيضا يشفعون لمن استفاد علمهم ، بل المؤمنين يشفعون بعضهم لبعض.

قلنا : لا بدّ من تخصيص هذه الآية وأمثالها بالكفّار ومن في حكمهم من منكري الولاية وأهل البدع.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية : « هذا يوم الموت فإنّ الشّفاعة والفداء لا يغني عنه ، فأما في القيامة فإنّا وأهلنا نجزي [عن] شيعتنا كلّ جزاء ، ليكوننّ على الأعراف بين الجنّة والنّار محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والطّيّبون من آلهم ، فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات ، فمن كان منهم مقصّراً ، وفي بعض شدائدّها ، فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبي ذرّ وعمرار

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٢٧ .

ونظرائهم في العصر الذي يليهم ، ثمّ في كلّ عصر إلى يوم القيامة ، فيقعون ^(١) عليهم كالبزاة والصّبور ، ويتناولوهم كما تتناول البزاة والصّبور صيدها ، فيزقّوهم إلى الجنة زقا ، وإنّا لنبعث على الآخرين من محبّينا خيار شيعتنا كالحمام فيلقطوهم من العرصات كما يلقط الطّير الحبّ ، وينقلوهم إلى الجنان بحضرتنا.

وسيؤتى بالواحد من مقصّري شيعتنا في أعماله بعد أن حاز الولاية والتقّيّة وحقوق إخوانه ، ويوقف بازائه ما بين مائة وأكثر من ذلك ، إلى مائة ألف من النّصاب ، فيقال له : هؤلاء فداؤك من النّار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة ، واولئك النّصاب النّار ، وذلك ما قال الله عزّ وجلّ : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بالولاية ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ^(٢) يعني في الدنيا منقادين للإمام ^(٣) ، ليجعل مخالفوهم فداءهم من النّار « ^(٤) .

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾

ثمّ شرع الله تعالى في تعديد نعمه العظام عليهم وعلى آبائهم مفصّلا بقوله : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ واذكروا حين خلّصنا أسلافكم ﴿مِنْ﴾ تعدّيات ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وظلم أشراف قومه . قيل : كان فرعون لقب ملك العمالقة ، كما أنّ كسرى لقب ملك الفرس ، وقیصر لقب ملك الروم ، وخاقان لقب ملك التّرك ، والتّجاشي لقب ملك الحبشة ^(٥) .

وقيل : اسم فرعون [موسى : هو] الوليد بن مصعب بن ریان ، وكان من القبط ، وعمّر أكثر من أربعمئة سنة ^(٦) ، وكان اسم فرعون يوسف ریان ، وبينهما أربعمئة سنة ^(٧) .

ثمّ بيّن سبحانه أوّلا شدّة ظلم فرعون وآله إجمالا ، بقوله : ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويعذبونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وشديدة ، ثمّ فضّله ثانيا بقوله : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ويكثرون القتل فيكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾

(١) في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : فينقضّون.

(٢) الحجر : ١٥ / ٢.

(٣) في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : للإمامة.

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٤١ / ١١٩.

(٥) تفسير روح البيان ١ : ١٢٨.

(٦) تفسير روح البيان ١ : ١٢٨.

(٧) تفسير روح البيان ١ : ١٢٨.

ويَقُون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ لخدمتهم وليكنَّ إماء لهم ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ القتل واستحياء النساء ﴿بَلَاءٌ﴾ ومحنة شديدة كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وكبير عليكم.

وقيل : إنّ المراد من البلاء هنا العطاء والنعمة ، والمعنى أنّ في ذلكم الإنحاء نعمة عظيمة عليكم من ربكم ^(١) .

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٥٠) وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢)

ثمّ ذكر النعمة الثانية بقوله : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ وشققنا ﴿بِكُمْ﴾ ولأجل عبوركهم ﴿الْبَحْرَ﴾ الذي يقال له القلزم ، أو اساف ، وفصلنا فيه اثني عشر مسلكا جافا ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من القتل والغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه في البحر ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى غرقهم وهلاكهم .
ثمّ ذكر النعمة الثالثة بقوله : ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ وأمرناه أن يأتي الميقات ويقف فيه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بأيامها .

في نكتة تعيين عدد الأربعين للميقات

قيل : وجه تعيين عدد الأربعين ، اختصاصه بالكمال ، لأنّ مراتب الأعداد أربع : الآحاد ، والعشرات ، والمئات ، والالوف ، وعدد العشرة في نفسها عدد كامل ، كما قال الله تعالى : ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ^(٢) وإذا ضُعفت العشرة أربع مرّات يكون أربعين ، ففيه كمال فوق كمال ^(٣) .

فذهب عليه السلام بأمر ربّه إلى الميعاد واستخلف هارون ، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذهابه من بينكم يا بني إسرائيل ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ وفي غيبته ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ على أنفسكم حيث اعتقدتم أنّ ربكم حلّ في العجل ، وصار العجل حاويا له ، مع أنّه متعال عن أن تسعه السّماوات والأرض ، بل هو على كلّ شيء محيط .

وفي هذه الحكاية تسلية للنبي صلّى الله عليه وآله ممّا كان يشاهد من مشركي العرب واليهود والنصارى من

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٣٠ .

(٢) البقرة : ٢ / ١٩٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ١٣٦ ، وفيه : وإذا ضُعفت العشرة أربع مرات وهو كمال مراتب الأعداد تكون أربعين وهو كمال الكمال .

الخلاف ، ومّا كان يعلم من أمر الخلافة بعده ، فإنّ إعراض الأُمّة عن وصيّيه وخليفته بعد استخلافه إيّاه وتنصيبه على رؤوس الأشهاد بولايته وإمامته ووصايته ، ثمّ إقبالهم وتبعيّتهم لمن لم يكن له حظّ من العلم والنّسب والحسب ، ليس بأعجب وأفضع من اتّخاذ قوم موسى العجل إلها مع مشاهدة الآيات والمعجزات الظاهرات.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي عن أسلافكم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الفعل الشّنيع ، وهو عبادة العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لنعمة العفو التي أنعمنا بها على آبائكم ، فإنّها كانت نعمة عليكم ، إذ لو عجل في عقوبتهم لم يبق لهم نسل.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣)

ثمّ ذكر النعمة الرابعة بقوله ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التّوراة ﴿و﴾ أعطيناه ﴿الْفُرْقَانَ﴾

روي أنّه عهد الإيمان بمحمّد ﷺ وأوصيائه صلوات الله عليهم أجمعين ، فمن آمن بهم بقلبه ظهر نور في جبهته ^(١) .

وقيل : الفرقان : هي المعجزات الباهرات الفارقة بين الحقّ والمبطل ^(٢) .

وقيل : الكتاب والفرقان واحد ، فإنّ التّوراة جامعة بين [كونها كتابا] وبين الحجّيّة والتّفريق بين الحقّ والباطل ^(٣) .

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ بالنّظر في الآيات والتدبّر في الكتاب.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا

إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٤)

ثمّ ذكر النعمة الخامسة بقوله : ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الذين عبدوا العجل ، شفقة عليهم : ﴿يَا قَوْمِ﴾ اعلّموا ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ﴾ وأضررتم ﴿أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾

(١ و ٢) . تفسير الصافي ١ : ١١٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ١٣٤ .

إلها ، إذ حَقَّتْ عليكم كلمة العذاب.

ثمَّ كَأْتَهُمْ قَالُوا : فما نصنع إذن ؟ قال : إن اردتم العلاج ﴿فَتَوُوبُوا﴾ وارجعوا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ وخالفكم الذي برأكم من العيب والتفاوت.

ثمَّ كَأْتَهُمْ قَالُوا : كيف نتوب ؟ فقال : إن عزمتم على التوبة ﴿فَأَقْضُوا﴾ أيها العابدون للعجل ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بعضكم بعضا ، أو غير العابدين العابدين ، فإن خالفكم وموجدكم ومبرئكم من العيوب في الخلق أمركم بالقتل ، ورضي بإعدامكم لتبرؤوا من الذنب العظيم ، فإن ﴿ذَلِكُمْ﴾ القتل وإن كان فيه ذهاب الحياة وزوال النعم الدنيوية ، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ من ابتلائكم بالعذابات (١) الاخروية الأبدية.

ثمَّ من نعم الله عليكم أنّه وفّقكم حتّى فعلتم ما امرتم به ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل فناء جميع أسلافكم ، وإلا لم يبق والد ولا ولد ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ وسريع القبول للإنبابة ، وهو ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده ، لا يرضى بضررهم وقتلهم إلا أن يكون لهم خيرا ولا بعدا لهم إلا إذا لم يكونوا للعفو والرحمة أهلا.

قيل : كان عدّة بني إسرائيل ستمائة ألفا. وقيل : ستمائة وعشرون ألف مقاتل ، لا يعدّون منهم ابن العشرين لصغره ، ولا ابن الستين لكبره (٢) . وكان عدد عابدي العجل سبعين ألفا. وقيل : كان عدد غير العابدين اثني عشر ألفا (٣) .

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾

ثمَّ ذكّرهم النعمة السادسة ، بقوله : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ ولن نصدّقك في دعوى النبوة وفي أن التّوراة كتاب الله ، وأنّ الله يكلمك ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ﴾ رؤية ﴿جَهْرَةً﴾ وظاهرة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ وأصابكم النار المحرقة النازلة مع الصّوت الهائل ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى نزولها إليكم.

قيل : كان القائلون [غير] السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ لأن يذهبوا إلى الطّور للاعتذار عن

(١) في النسخة : بالعذاب.

(٢) تفسير روح البيان ١ : ١٣١.

(٣) تفسير الرازي ٣ : ٨٢.

عبادة العجل (١) .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ وأحييناكم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وهلاككم (٢) بالصّاعقة ، وفي هذه الآية دلالة صريحة على إمكان الرجعة إلى الدنيا بعد الموت ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بإقراركم بالتوحيد ، وقيامكم بالطّاعة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الحياة بعد الموت.

قيل : ماتوا يوما وليلة ثمّ بعثهم الله (٣) ، وفيها ردّ على من يقول إنّ نعوت محمد ﷺ لو كان مخبرا [عنها] في التّوراة ، لم يمكن إنكارها من أهل الكتاب ، فإنّ أسلافهم مع مشاهدة المعجزات الباهرات قالوا : يا موسى لن نؤمن لك .. إلى آخره.

وفيها أيضا دلالة على امتناع الرّؤية ، وكفر المحسّمة.

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾

ثمّ ذكرهم النعمة السابعة بقوله : ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وجعلناه يظلكم من الشّمس ، وذلك في التّيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾ قيل : هو التّرنجيب ، كان ينزل عليهم بالليل ، أو من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس ، فيأكلونه ﴿وَالسَّلْوى﴾ وهو السّمانيّ. قيل : هو أطيب طير ، فيصطادونه ، أو كان يقع على موائدهم مشويّا ، فاذا أكلوا وشبعوا طار عنهم.

فقلنا لهم : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولا تدّخروا منها شيئا ، فكفروا وظلموا وما أدّوا حقّ النّعم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم وادّخارهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث ابتلوا بضرر سيّئاتهم ، من استيحاب العذاب ، وسلب النعم ، حيث قطع عنهم الرّزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا ، ولا حساب في الآخرة ، ولم يضرّوا الله شيئا.

عن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ قال : « إنّ الله أعظم وأعزّ [وأجلّ] وأمنع من أن يظلم ، ولكنّه خلطنا بنفسه ، فجعل ظلمنا ظلمه ، وولايتنا ولايته ، حيث يقول : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٤) يعني الأئمّة » (٥) . الخبر . وتوضيحه : أنّ الله قرن ولاية المؤمنين -

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٣٩ .

(٢) في النسخة : وهلاكهم .

(٣) بحار الأنوار ١٣ : ٢٤٧ .

(٤) المائدة : ٥ / ٥٥ .

(٥) الكافي ١ : ١١٣ / ١١ .

وهم الأئمة - الكاملين في الإيمان بولايته بشهادة الآية.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾

ثم ذكرهم النعمة الثامنة ، بقوله : ﴿وَوَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ بتوسط يوشع بن نون وصي موسى ، لأسلافكم من بني إسرائيل حين خروجهم من التيه : ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قيل : هي مدينة بيت المقدس : وقيل : قرية أريحا ^(١) من بلاد الشام قريبة من تلك المدينة ، فإذا دخلتم القرية ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا تعب ﴿رَغَدًا﴾ واسعا هنيئا ﴿وَاَدْخُلُوا الْبَابَ﴾ الذي للقرية.

قيل : كان لمدينة بيت المقدس سبعة أبواب ، وقد امروا أن يدخلوا من الثاني المعروف الآن بباب حطة حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ لله ، شكرا على نجاتهم من التيه. وقيل : إن المراد الدخول راكعين متواضعين لله.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ولعل المعنى أنّ مسألتنا من الله أن يحطّ ذنوبنا ، فإن دخلتم بهيئة الركوع أو السجود ، وقلتم هذا القول ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ونستر عليكم ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ السّالفة ﴿وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثوبا. قيل : هم الذين لم يفارقوا الذنوب.

﴿فَبَدَّلَ﴾ وغيّر ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعصوا أمر الله ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فلم يسجدوا ولم يركعوا ، بل رفعوا أستاذهم ، أو لم يقولوا : حطة ، وقالوا : حنطة حمراء ، سخرية واستهزاء. قال الفخر في تفسيره : ذكره نعمة قبول التوبة في مقام الامتنان مناف لكونه واجبا على الله عقلا ، لأنّه لا امتنان في الواجبات العقلية ^(٢) .

وفيه : أنّ وجوب التفضّل والاحسان عليه لكونه جوادا لا يجوز عليه البخل ، ومنع التفضّل غير مناف للامتنان عقلا.

﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ عقيب ذلك التبديل ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بتبديل كلام الله ، أو بفعلهم

خلاف

(١) تفسير أبي السعود ١ : ١٠٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣ : ٩٠ .

أمر الله ﴿رَجْزاً﴾ وعذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وبسبب خروجهم عن طاعة الله. قيل : مات بالطّاعون مائة وعشرون ألفاً في بعض اليوم ، وهم الذين كانوا في علم الله أنّهم لا يؤمنون ، ولا يتوبون ^(١) .

عن (العياشي) : عن الباقر عليه السلام قال : « نزل جبرئيل بهذه الآية : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ آل محمد حقهم ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ آل محمد حقهم ﴿رَجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ » ^(٢) .

والمراد بإنزال جبرئيل هذه الآية هكذا ، بيان تأويلها حين نزولها على النبي صلى الله عليه وآله وانطباقها على ظلمي حق آل محمد ، لا أنّه كان جزءاً للآية ، فيكون مؤداها كما في الرواية السابقة : إنّ الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمة.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٦٠)

ثم ذكرهم النعمة التاسعة ، بقوله : ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ حين عطشوا في التّيه وضجّوا إليه بالبكاء ﴿فَقُلْنَا﴾ له بالوحي ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ المعهود الذي جاء به جبرئيل من الجنّة ، وكان قر بعير ، على ما في الرواية ^(٣) .

قيل : كان عصا من آس الجنّة ، طولها عشرة أذرع على طول موسى ، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نورا ، حملها آدم ، فتوارثها الأنبياء حتّى وصلت إلى شعيب ، فأعطاه موسى ^(٤) ، فضربه بها داعياً بمحمد وآله الطّيبين ، كما في الرواية ^(٥) .

﴿فَإِنْفَجَرَتْ﴾ وانشقت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قيل : كانت الحجر مريّعا ، وانفجر من كلّ طرف منه ثلاثة عيون ، لكلّ سبط عين ^(٦) .

(١) تفسير الصافي ١ : ١٢١ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٣٥ / ١٥٣ .

(٣) الكافي ١ : ١٨٠ / ٣ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٤٦ .

(٥) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٦١ / ١٢٩ .

(٦) تفسير الرازي ٣ : ٩٥ .

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ وسبط ﴿مَشْرَبُهُمْ﴾ لا يزاحم الآخرين ، وقال الله : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ الذي آتاكموه من المنّ والسلوى ، والماء العذب ﴿وَلَا تَعْتَوُوا﴾ ولا تعتدوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ عاصين لأوامر الله ، أو مفسدين بالمبالغة في التنازع على قسمة الماء ، فإنّ لكلّ سبط يخرج بقدر حاجتهم من الماء ثمّ ينقطع.

وكان من معجزات نبينا ﷺ أيضا أنّه استسقى لقومه ، روي أنّ أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ يوم الجمعة ، وقال : يا رسول الله ، هلكت الكراع والمواشي ، وأجدبت الأرض ، فادع الله أن يسقينا. فرفع يديه ودعا ، قال أنس : والسماء كأنّها زجاجة ليس بها قرعة ، فنشأت سحابة ومطرت إلى الجمعة القابلة (١) .

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾

ثمّ نبّههم على كمال لطفه به بإجابة مسؤولهم مع ما هم عليه من غاية السّفه ، بقوله : ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل كفرانكم لنعمة الله ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ أي قال أسلافكم : ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ﴾ وغذاء ﴿وَاحِدٍ﴾ بالتنوع من المنّ والسلوى ، بل لا بدّ لنا من خلط معه ، أو تبديل. ولعلّه لملاّلة طباعهم من الطّعام الواحد بسبب مداومتهم عليه ، أو لتوهّم أنّ البقاء على النّهج الواحد موجب لاختلال مزاجهم. والظاهر من قولهم : لن نصبر ، هو الوجه الأوّل.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ كالكراث وغيره ، ﴿وَ﴾ من ﴿قِثَّائِهَا﴾ قيل : هو أخضر (٢) شبه الخيار ﴿وَ﴾ من ﴿فُومِهَا﴾ عن (المجمع) : عن الباقر عليه السلام : « هو الحنطة » (٣) .

وقيل : هو الثّوم ، بقرينة قوله بعده : ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ حيث إنّ العدس يطبخ بالثّوم والبصل.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى تعجّبا واستنكارا منهم : ﴿أَ تَسْتَبْدِلُونَ﴾ وتعاوضون الطّعام ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٤٨ .

(٢) في النسخة : خضر .

(٣) مجمع البيان ١ : ٢٥٢ .

وأدون ، ولعلّه من حيث المجموع ، وإن كانت الحنطة أشرف ﴿بِاللَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع في الدنيا والدين ، لأنّ ما اختاره الله لهم من الطّعام لا بدّ أن يكون أصلح من جميع الجهات ، وعدم رضاهم بما رزقهم الله ، واتباعهم شهوة أنفسهم ، كان من مذام أخلاقهم.

ومع ذلك أجاب الله برحمته مسألتهم وقال : إن كنتم تريدون هذه الأشياء ﴿اهْبِطُوا﴾ وانزلوا ﴿مِصْرًا﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فيه ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ من البقول وغيرها ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ بعد هذه الألفاظ ﴿الدَّلَّةُ وَ﴾ الهوان بالزامهم بالجزية ، وشمّلتهم ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ ولازمهم الفقر والفاقة. قيل : إنهم ولو كانوا أغنياء ، يعيشون عيش الفقراء.

﴿وَبَاؤُ﴾ ورجعوا أو التجأوا ﴿بِعُصْبٍ﴾ عظيم ، ولعنة دائمة كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ ثم بيّن سبحانه سبب ذلك العذاب واللّعة وهو أمران ، أعظمهما ما فعلوه في حقّ الله ، ولذا بدأ بذكره بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ النّكال والغضب معلّل ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ دائماً ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الباهرة ، وينكرون معجزات موسى ، وقرآن محمد ﷺ ، ثمّ بعده ما فعلوه في حقّ الأنبياء ، ولذا ثناه بقوله : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كشعيب وكرّياً ويحيى وغيرهم ، وهم يعلمون أنّ قتلهم يكون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الموجب له.

عن ابن عبّاس : أنّه لم يقتل قطّ من الأنبياء إلّا من لم يؤمر بقتال ، ومن امر بقتال نصر ^(١). ثمّ ذكر سبب وجود الكفر والطغيان منهم ، بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر والقتل ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ الله في أفعالهم الراجعة إلى أنفسهم ﴿و﴾ بما ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ في حقوق غيرهم ، ويظلمون النّاس ، فإنّ عصيانهم أحكام الله واعتداءهم على عباده جرّهم إلى الكفر بآيات الله وقتل النّبیین لوضوح أنّ صغار الذنوب تؤدّي إلى كبارها.

عن (الكافي) و(العياشي) : عن الصادق عليه السلام أنّه تلا هذه الآية ، فقال : « والله ما ضربوهم بأيديهم ، ولا قتلوهم بأسياهم ، ولكن سمعوا أحاديثهم فأضاعوها ، فآخذوا عليها فقتلوا ، فصار قتلا واعتداء ومعصية » ^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٥١.

(٢) الكافي ٢ : ٢٧٥ / ٦ ، تفسير العياشي ١ : ١٣٥ / ١٥٥.

الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

ثمّ إنّه لما ذكر الله تعالى ما حلّ بكفرة أهل الكتاب من النكال والغضب والعقوبة ، أردفه بذكر ما للمؤمنين من الأجر والثواب العظيم ، على عادته الجارية في الكتاب العزيز بأن كلّما ذكر العقوبة للكفار ، ذكر المثوبة للمؤمنين حتّى يعلم أنّه كما يجزي المسيء بإساءته ، يجزي المحسن بحسانه ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبالنبيّ ﷺ وبما جاء به ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ واتّخذوا دين اليهوديّة.

قيل : سمّوا بذلك لأنّهم بعد عبادة العجل وتوبتهم منها ، قالوا : إنّنا هدنا ، أو لنسبتهم إلى يهوذا ^(١) .

﴿وَالنَّصَارَى﴾ قيل : لقبوا بذلك لأنّهم كانوا يزعمون أنّهم يتناصرون في الله.

وعن (العيون) عن الرضا عليه السلام : « أنّهم من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام نزلتها مريم وعيسى بعد رجوعهما من مصر » ^(٢) .

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ القمي رحمه الله : إنّهم ليسوا من أهل الكتاب ، ولكنّهم يعبدون الكواكب والنجوم ^(٣) .

قيل : إنّهم سمّوا بالصائبين لأنّهم زعموا أنّهم صباؤا وخرجوا إلى دين الحقّ.

روي أنّه جاء أعرابيّ إلى النبيّ ﷺ فقال : لم سمّي الصائبون صابئين ؟ فقال ﷺ : « لأنّهم إذا جاءهم نبيّ أو رسول أخذوه وعمدوا إلى قدر عظيم فأغلوه حتّى إذا كان محمّيّ صبوه على رأسه حتّى يتفسّخ » ^(٤) ، الخبر.

فخصوص ﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ﴾ عملا ﴿صَالِحًا﴾ مرضيا ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة حين يخاف الفاسقون ، ويحزن المخالفون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

(١) تفسير الرازي ٣ : ١٠٥ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٧٩ / ١٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٤٨ ، تفسير الصافي ١ : ١٢٣ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٥٣ .

ثمّ ذمّهم سبحانه بغاية العصيان والتمرد بقوله : ﴿وَوَاسِعُوا﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ والعهد الوثيق منكم أن تعملوا بالتّوراة التي أعطيتها موسى عليه السلام فأبستم قبول ذلك ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ قيل : أمر الله جبرئيل أن يقلع قطعة من جبل فلسطين ، فرسخا في فرسخ على قدر عسكر بني إسرائيل ، فقطعها وجاء بها فرفعها فوق رؤسهم .

وقيل : الطّور : هو الجبل المعروف الذي ناجى موسى عليه السلام عليه ربّه ، فقال لهم موسى : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التّوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وبجدّ وعزيمة .

عن (المحاسن) : عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية ، بقوّة في الأبدان أم بقوّة القلوب ؟ فقال : « فيهما جميعا » (١) .

ونقل أنّه قال لهم موسى عليه السلام : إمّا أن تأخذوا بما امرتم به فيه ، وإمّا أن القي عليكم هذا الجبل . فألجئوا إلى قبوله كارهين إلّا من عصمه الله عن العناد ، فإنّه قبله طائعا مختارا ، ثمّ لما قبلوه سجدوا وعقروا ، وكثير منهم عقّر خديّه لا لإرادة الخضوع لله ، ولكن ينظر إلى الجبل هل يقع أم لا (٢) .

قيل : إنّ موسى جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الأخبار (٣) والتكاليف الشّاقة ، فكبرت عليهم وأبوا قبولها ، وكان ذلك بعد النّجاة من الغرق وقبل التّيه ، فأمر جبرئيل فقطع الطّور من أصله ورفعها وظلّله فوقهم ، وقال لهم موسى : إن قبلتم وإلّا القي عليكم ، فلمّا رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا وسجدوا ، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجدون لئلا ينزل عليهم ، فصارت عادة [في] اليهود لا يسجدون إلّا على أنصاف وجوههم (٤) .

وقد منّ الله على امّة محمد ﷺ أن حمل عليهم فرضا بعد فرض ، ولم يفرض عليهم جملة ، فإذا استقرّ في قلوبهم فرض عليهم الفرض الآخر ، وأمّا بنو إسرائيل فقد فرض الفرائض عليهم دفعة واحدة ، فشقّ عليهم فلم يقبلوا .

قال بعض : إنّ هذا غير جائز ، لأنّه يجري مجرى الإلجاء بالإيمان ، وهو ينافي التّكليف .

قلنا : الإلجاء الذي يوجب سلب الإرادة والاختيار ينافي التّكليف ، وهذا الإلجاء غير موجب

لسلب

(١) المحاسن : ٢٦١ / ٣١٩ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٦٦ / ١٣٤ ، تفسير الصافي ١ : ١٢٤ .

(٣) في تفسير روح البيان : الآصار .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٥٤ .

الاختيار ، بل هو تخويف ، كالتخويف بالعذاب الدنيوي والآخرى ، بل هذا الانقياد كإيمان قوم يونس عليه السلام لما رأوا العذاب.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ عن (المجمع) : عن الصادق عليه السلام : « واذكروا ما في تركه من العقوبة »

(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المخالفة ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني تولّى أسلافكم وأعرضوا عمّا في التّورة وعن الميثاق ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد الوثيق ، بأن كانوا يخالفون موسى عليه السلام ويعترضون عليه ويلقونه بكلّ أذى ، حتّى عوقب بعضهم بالخسف ، وبعضهم بالطّاعون ، وبعضهم بالنّار ، مع مشاهدتهم المعجزات الباهرات.

ثمّ فعل متأخروهم ما فعلوا من تحريف التّورة ، وقتل الأنبياء ، وعبادة الأصنام ، فلا عجب في إنكارهم ما جاء به محمد صلّى الله عليه وآله من الكتاب والمعجزات ، وجحودهم لحقّه.

﴿فَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أيّها الحاضرون في هذا العصر ، يأمهالكم للتوبة ، وعدم أخذكم بالعذاب بغتة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين المغبونين البائعين أنفسهم بنار جهنّم. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾

ثمّ لمزيد تنبّههم بفضل الله عليهم ، نبّههم بقصّة بعض الخاسرين الذين لم يمهلهم الله ، بقوله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ حال ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ وعصوا ﴿مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ لما اصطادوا السمّوك فيه ، حيث أخذتهم بغتة ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ وكونوا ﴿خَاسِئِينَ﴾ صاغرين مطرودين ، وهذا الأمر أمر تكوين لا تكليف ، وقد يعبر عن الإرادة التكوينية في مقام الحكاية بالأمر.

نقل أنّه لما أبى المجرمون قبول النصّح ، قال النّاهون : والله لا نساكنكم في قرية واحدة. فقسّموا القرية بجدار وصيّروها بذلك ثنتين ، فلعنهم داود وغضب الله عليهم [لإصرارهم على المعصية] ، فمسحوا ليلاً. فلمّا أصبح النّاهون أتوا أبوابها فإذا هي مغلقة لا يسمع منها صوت ، ولا يعلو منها دخان ، فتسوّروا الحيّطان ودخلوا فراوهم قد صار الشّبّان قردة ، والشّيوخ خنازير لها أذنان ، يتعاونون (٢) .

(١) مجمع البيان ١ : ٢٦٢.

(٢) تفسير روح البيان ١ : ١٥٦.

ثم أشار سبحانه إلى حكمة تلك المسحة بقوله : ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسحة ﴿نَكَالاً﴾ وعقوبة ﴿لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَّهَا﴾ من ذنوبهم الموبقات ، أو عبرة للآمة المسوخة عبرة للسالفة ، حيث أخبر بها أنبياءهم ، وجعلناها رادعة ﴿وَمَا خَلَفَهَا﴾ من الذين شاهدوهم بعد مسخهم ، ومن الذين يسمعون القضية والمسحة من بعدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهذه العقوبة كانت لهذه المصالح لا للتشفي .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْع لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّاتِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾

ثم ذكّرهم بنعمة عظيمة أخرى على أسلافهم ، وهي أنه قتل قتيل فيهم ولم يعلموا قاتله ، ولما كانت هذه الواقعة عظيمة عندهم ، وعارا وعزما على أكثرهم ، سألوا موسى عليه السلام أن يدعو الله فيكشف عن القاتل ، فدعا الله عز وجل ، ثم أخبرهم بما حكاه الله تعالى ، بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ وتضربوا ببعضها المقتول بين أظهرهم ليقوم حيّا ويخبركم بقاتله ﴿قَالُوا﴾ إنكارا وتعجيبا : ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وتسخر منا ؟ كيف يمكن أن يحيا ميت بضرب ميت به ؟

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام : ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ وأستجير به من ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ زمرة ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ فإن السخرية من السفه والجهل ، والافتراء على الله من عمل الجاهل بعظمته وسطوته . فلما علموا أنهم قد أخطأوا فيما توهموا من الهزء ﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ﴾ ويوضح ﴿لَنَا﴾ أن البقرة التي أمرنا بذبحها ﴿مَا هِيَ﴾ وما صفتها حتى تتبين لنا ؟ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ،

بعد ما سئل ، وراجع ربه وجاءه الوحي من الله : ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا﴾ هي ﴿فَارِضٌ﴾ كبيرة قاطعة عمرها ﴿وَلَا بَكْرٌ﴾ صغيرة ، بل ﴿عَوَانٌ﴾ ووسط ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الكبيرة والصغيرة ، وهو أكمل أحوالها. وتذكير الإشارة وإفرادها مع تأنيث المرجع وتعدده ، لكونه إشارة إلى المذكور.

ثم قال : إذا علمتم صفتها ﴿فَافْعَلُوا﴾ وامثلوا ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به. فلما عرفوا السن سألوا عن اللون ، و﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا﴾ من الألوان ، وما كيفية لونها ؟ ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ لهم : ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ هذا أصل اللون ، وأما كيفية فأنه ﴿فَافْعُ لُونُهَا﴾ شديدة صفرتها ﴿تَسُرُّ النََّاظِرِينَ﴾ إليها لبهجتها وحسنها.

قيل في كيفية لونها : إنها كانت إذا نظر أحد إليها خيل إليه أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

ثم سألوا موسى زيادة توصيف للبقرة حتى يكونوا أهدى إليها ، و﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ ويزيد لنا في صفتها ، حيث ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا﴾ ولم يتضح عندنا كمال الوضوح ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بعد التبيين ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليه.

وفي [الحديث] النبوي : « لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد » (١).

﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ بعد مراجعة ربه : ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ للكراب كي ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ وتقلبها للزراعة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ والبستان بالدوالي والتواعير ، وصفتها الاخرى أنها بقرة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من جميع العيوب ، والاخرى أنها ﴿لَا شِيَةَ﴾ ولا لون غير الصفرة ﴿فِيهَا﴾ روي أنها كانت صفراء الأظلاف والقرون (٢).

فاقتصروا بهذا التعريف ، و﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ وحقيقته ، وتبينت البقرة.

عن (العياشي) عن الرضا ﷺ : « لو عمدوا إلى أي بقرة أجزأهم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم » (٣).

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ بعد اشترائها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها ، ولخوف الفضيحة بالقتل ، ولكن اللجاج وحرصهم على اتهمهم موسى ﷺ حملهم على فعله.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ قيل : كان شيخا موسرا ، قتله بنو عمه طمعا في ميراثه - وفي رواية :

حسدا (٤) ، كما

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٦٨ ، تفسير الصافي ١ : ١٢٧.

(٢) تفسير الرازي ٣ : ١٢١ ، وفيه : صفراء القرون.

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٣٧ / ١٦١ ، تفسير الصافي ١ : ١٢٧.

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ : ٢٧٤.

يأتي - فطرحوه على باب المدينة ، أو حملوه إلى قرية أخرى وألقوه بفنائها ، ثم جاءوا يطالبون بديته ، كذا قالوا. وتأخير ذكر القتل والتنازع فيه مع كونه مقدّما على الأمر بذبح البقرة ، لكونه المقصود المهم من الحكاية.

﴿فَادَارَأْتُمْ﴾ وتنازعتم ﴿فيها﴾ وأردتم أن تدفعوا القتل عن أنفسكم ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ ومظهر لكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وتسترون من أمر قاتله لترتفع الفتنة والفساد.

قيل : إنّ الأمر بذبح البقرة مع قدرة الله على إحياء الموتى بغير الأسباب ، كان لمصالح ، منها : امتحان بني إسرائيل ببذل مال كثير. حيث روي أنّ البقرة لم توجد إلّا عند شابّ من بني إسرائيل ، فقالوا له : بكم تباع بقرتك ؟ قال : بدینارين ، والخيار لأمتي. قالوا : رضينا بدینار. فسألها ، فقالت : بأربعة. فأخبرهم ، فقالوا : نعطيك دینارين. فأخبر أمّه ، فقالت : ثمانية. فما زالوا يطلبون [على النصف] ممّا تقول أمّه ، ويرجع إلى أمّه فتضعف الثمن ، حتّى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكثر ما يكون ملؤه ^(١) دنانير ، فأوجبت لهم البيع ثمّ ذبحوها ^(٢) .

ومنها : وصول مال كثير إلى الشاب المطيع لوالده أو والدته.

ومنها : أنّ الحجّة على بني إسرائيل بهذا النّحو من الإحياء تكون أوكد.

في إحياء القتل بضربه ببعض البقرة ، والاستدلال بتلك القضية على صحّة الحشر في الآخرة. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي الميت ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي ببعض البقرة ، فضربوه بها ، فقام الميت سوياً سالماً ، وقال : يا نبيّ الله قتلني ابنا عمّي ، حسداني على بنت عمّي ، فقتلاني والقياني في محلة هؤلاء ليأخذوا ديني ، فأخذ موسى عليه السلام الرجلين فقتلهما ، هكذا روي ^(٣) .

وقال بعض في قوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ تنبيه على أنّ من أراد إحياء قلبه لم يتأتّ له إلّا بإيمانه نفسه ، فمن أماتها بأنواع الرياضات ، أحيا الله قلبه بأنوار المشاهدات ^(٤) .

عن (العياشي) : عن الرضا عليه السلام : « أنّ الله أمرهم بذبح بقرة ، وإنّما كانوا يحتاجون لذنبها [فشددوا] فشدد الله عليهم » ^(٥) .

(١) في النسخة : ملاء ، وما أثبتناه من تفسير العسكري عليه السلام .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٧٨ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٧٨ ، تفسير الصافي ١ : ١٢٩ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٦٣ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٣٨ / ١٦٢ .

﴿كَذَلِكَ﴾ الإحياء الذي علم به المنكرون للحشر في هذا الميت في الدنيا ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ في الآخرة ، وهذا من أتمّ الدلائل على صحّة الحشر والإعادة بعد الموت ، حيث إنّهُ بضرب الميت بالميت ، إذا حيي الميت ^(١) ، فيأنزل مطر يكون طبعه طبع النطفة على تراب الأجساد كانت الحياة أولى كما حيي في بدو الخلقة.

فإن قيل : هذا الاستدلال لا يتمّ على المشركين المنكرين للبعث إلّا إذا ثبتت عندهم هذه الواقعة.

قيل : يتمّ بكونها متواترة ، وكونها مدلولة لهذه الآيات الباهرات ، فلا مجال لهم لإنكار وقوعها ، فكان عليهم أن يعترفوا بإحياء جمع كثير من الأولين والآخرين بعد علمهم بوقوع إحياء ميت واحد بقدرة الله سبحانه ، ويحتمل أن بعد إحياء الميت قال الله لبني إسرائيل : ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فاستدلّ به على ما حكمت به العقول ، وأخبر به الرسول من إمكانه ووقوعه ، كما وقع نظير ذلك لإبراهيم عليه السلام بعد سؤاله ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ^(٢) .

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة ، من هذه الآية وغيرها ، على التوحيد والنبوة والمعاد ، بل هذه الآية بمنزلة الآيات المتعدّدة لدلالاتها على جميع ما ذكر ، أمّا بالنسبة إلى بني إسرائيل ونبوة موسى عليه السلام فواضح ، وأمّا بالنسبة إلى نبيّنا محمد ﷺ فلكون إخباره بهذه الواقعة إخبارا بالغيب ، لوضوح كونه أمّيا غير مطلع على الكتب إلّا بالوحي.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتتفكّرون أنّ من هو قادر على إحياء نفس واحدة ، قادر على إحياء الأنفس الكثيرة ، أو لكي يكمل عقلكم فتعلموا ذلك.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ

لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا

يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ وغلظت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ أيها اليهود ، حتّى خرجت عن قابليّة التأثّر بمطالعة الآيات والدلائل ، بسبب شدّة العناد واللّجاج ، وغاية التوعّل في الكفر والفساد ، بعد أن كانت قابلة لقبول كلّ

(١) كذا ، ولعل في العبارة تقدّما وتأخيرا ، هكذا : حيث إنه إذا حيي الميت بضرب الميت بالميت ،

(٢) البقرة : ٢ / ٢٦٠ .

حق ، والانقياد لكل خير .

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ المذكور من إحياء الميّت ، ومسح القردة ، ورفع الجبل ، وغيرها من الآيات في زمن موسى عليه السلام والمرثي من المعجزات الباهرات من محمد صلى الله عليه وآله .

﴿فَهِيَ﴾ في الغلظة واليبوسة ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ لا يرحى منها خير ، ولا يترشح منها نفع ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وغلظة ، ولعل الإبهام على السامعين لاختلاف قلوبهم في القساوة ، أو لأن الحكم بعد التردد والتبين بهذا الإبهام أشد تأثيرا في قبول السامع ، فكأنه قال : أحكم بأن قلوبهم أشد قسوة . قيل : هذا التعبير أدل على فرط القسوة من التعبير بأن قلوبهم أقسى ^(١) .

ثم أنه سبحانه علل حكمه بكون قلوبهم أشد قساوة وأصلب ، بأن للحجارة منافع متعددة بخلاف قلوبهم ، وذكر أولها بقوله : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ ويفتح منه الماء الكثير الذي فيه كل خير من حياة الحيوان والنبات .

وذكر ثانيها بقوله : ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ القليل ، ولا يرحى من قلوبكم الخير الكثير ولا القليل .

﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ أي من الحجارة ، إذا قسم عليها باسم الله ﴿لَمَا يَهْبِطُ﴾ وينزل من العالي إلى السافل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وخوفه ، وقلب الكفار مع شعور الانسانية لا يتأثر بالخوف من الله وعقابه ، مع الإبلاغ في الإنذار والوعظ والتوعيد والتهديد من الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ^(٢) .

في أن الوجود ملازم للشعور ، ولكل موجود شعور وخشية وتسبيح وتحميد والظاهر من هذه الآية وعدة آيات آخر ، وكثير من الروايات ، كرواية تسبيح الحصى في كف النبي صلى الله عليه وآله وتسليم الجمادات عليه ^(٣) ، وحنين الجذع ، أن للجمادات مرتبة من الشعور والإدراك والخوف من الله وعقابه ، بل لكل خضوع وتسبيح وانقياد لله ، ومعرفة واعتراف به وبأوليائه ، وقد مر أنه لا يبعد عند العقل أن يكون الوجود ملازما للإدراك ، كما نرى في كثير من النباتات .
والحاصل : أن مراتب الإدراك تختلف باختلاف مراتب الوجود ، كلما قوي قوي ، وكلما

ضعف

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٦٤ .

(٢) الحشر : ٥٩ / ٢١ .

(٣) الخرائج والجرائح ١ : ٤٦ - ٤٧ / ٥٨ و ٥٩ و ٦٠ ، البداية والنهاية ٦ : ١٣٨ .

ضعف ، وأول المراتب ما يدرك به صانعه ومفرعه والمهيمن عليه ، فيحصل له خضوع وانقياد وخشية من سلب النعمة وانقطاع الفيض عنه ، ويمكن أن يستفاد من الآية أنّ كلّ حجر يسقط من مكان بلا سبب ظاهر ، يكون سقوطه بتأثير خشية الله فيه .

عن النبي ﷺ في رواية ، قال : « إنّ أبعد الناس من الله القلب القاسي » ^(١) .
وحاصل مدلول الآية ، أنّ الحجر تحرّكه الخشية ، والقلب القاسي لا يتحرّك بالإنذار والتخويف .

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة من أعمالكم يا معاشر أهل الكتاب ، ويجازيكم عليها ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ

مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾

ثمّ لما كان النبي ﷺ وأصحابه حريصين على إيمان النّاس خصوصا اليهود ، وهم كانوا في غاية اللّجاج مع تلك الحجج الباهرة ، قال الله تعالى تسليّة لقلب حبيبه ﷺ ، وقطعا لطمع المؤمنين في إيمانهم : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ هؤلاء اليهود ﴿لَكُمْ﴾ وينقادوا لدعوتكم ، ويصدّقوكم بقلوبهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ في زمان موسى عليه السلام ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ في طور سيناء ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ ويغيّرونه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وفهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه كلام الله ، وأنهم كاذبون في تقوّلهم ، مع أنّ هؤلاء كانوا خيارهم ، فكيف حال بقيّتهم ! مع أنّهم في اللّجاج والعناد لا يقصرون منهم ، بل يزيدون عليهم ، فلا تحزنوا من إصرارهم على الكفر .

روي أنّ فريقا من السّبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام لميقات ربّه ، سمعوا كلام الله حين كلّم موسى عليه السلام بالطّور ، وما امر به موسى عليه السلام ، وما نهي عنه ، ثمّ قالوا : سمعنا الله يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس ^(٢) .

فإذا كان أسلافهم بهذه المرتبة من الخبائة والأخلاق الذميمة ، فأخلافهم ماثلون لهم ، ولا يتأتّى منهم إلّا ما أتى من أسلافهم ، فلا يرجى منهم الإيمان بما أنزل الله لدعوتكم .

(١) سنن الترمذي ٤ : ٦٠٧ / ٢٤١١ ، تفسير روح البيان ١ : ١٦٥ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ١٦٦ .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْطِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ
بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾

ثم أكد سبحانه غاية حقهم ولجاجهم بقوله : ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ وصادفوا هؤلاء المنافقون
المطلعون على التوراة الأشخاص ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ عن صميم القلب ، كسلمان وأضرابه
﴿قَالُوا﴾ نفاقا ﴿آمَنَّا﴾ بنبوّة محمد ﷺ كيما يمانكم ، لما اطلعنا على نعوته في كتبنا.

﴿وَإِذَا خَلَا بِغُسْطِهِمْ﴾ بعد ما نافق المؤمنين بإخبارهم بما في التوراة من علائم محمد ﷺ
ونعوته ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾ لم يعترف بذلك ، وكتّم نعوته فيها ، اعترض الساكتون على المنافقين
و﴿قَالُوا﴾ إنكارا عليهم : ﴿أَ تَحَدِّثُونَهُمْ﴾ وتخبروهم ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ﴾ وكشفه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من
صفات محمد ﷺ وعلائمه في التوراة ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ يوم القيامة ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ويقولوا : إن
علمتم بدلائل صدقه ، فلم لم تؤمنوا به ؟ ﴿أَ فَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ ما في التوراة من أوصاف محمد
ﷺ حجة عليكم ؟

ثم ردّ الله عليهم بقوله : ﴿أَ﴾ يلوموهم على التحديث ﴿وَلَا يَعْلَمُونَ﴾ اللائمون لمخافة
الحاجة ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الكفر وعداوة محمد ﷺ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الإيمان به ،
فلا ينفعهم اللوم والعتاب والسّر والكتمان.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ الذين لا يعرفون الكتابة والقراءة ، ولأجل أمّيتهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾
من التوراة وغيرها ﴿إِلَّا أَمَانِيًّ﴾ وما يسمعون من مفتريات علمائهم.

في جواز تقليد العالم الصائن لدينه في الفروع دون الأصول
﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ كونه حقّا بتقليد علمائهم المحرّفين لكلمات الله ، المغيّرين لأحكامه ،
ومع عدم يقينهم يتدبّتون به ، مع أنّ التقليد محرّم عليهم في اصول العقائد ، لأنّه لا يفيد إلا الظنّ ،
والظنّ لا يغني عن الحقّ شيئا ، مع أنّهم كانوا يعرفون علماءهم بالتحريف والتغيير والكذب ، فيكون
إيمان علمائهم وعوامهم بالحقّ في غاية البعد ، أمّا علماءهم فلا نغمارهم في محبة الرئاسة والمال ، وأمّا
عوامهم فلا التزامهم بتقليد هؤلاء.

روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال ، له رجل : فإذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون
الكتاب إلا بما يسمعون من علمائهم ، لا سبيل لهم إلى غيره ، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من
علمائهم ؟ وهل

عوام اليهود إلا كعوامنا يقلدون علماءهم ؟ فإن لم يجوز لاولئك القبول من علمائهم ، لم يجوز لهؤلاء القبول من علمائهم.

فقال عليه السلام : « بين عوامنا وعلمائنا ، وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة ، وتسوية من جهة. أما من حيث استوتوا فإن الله قد ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذم عوامهم ، وأما من حيث افترقوا ، فلا » .

قال : بين لي ذلك يا بن رسول الله.

قال عليه السلام : « إن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وبأكل الحرام والرّشا وتغيير الأحكام عن واجبها بالشّفاعات والعنايات والمصانعات ، وعرفوهم بالتعصّب الشديد الذي يفارقون به إيمانهم ^(١) ، وإنهم إذا تعصّبوا أزالوا حقوق من تعصّبوا عليه ، وأعطوا ما لا يستحقّه من تعصّبوا له من أموال غيرهم ، وظلموهم من أجلهم ، وعرفوهم [بأنهم] يقارفون المحرّمات ، واضطّروا بمعارف قلوبهم إلى أنّ من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يصدّق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله.

فكذلك ذمهم لما قلّدوا من قد عرفوا ومن قد علموا أنّه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه في حكايته ولا العمل بما يؤدّيه إليهم عمّن لم يشاهدوه ، ووجب عليهم النّظر بأنفسهم في [أمر] رسول الله ﷺ إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى وأشهر من أن لا تظهر لهم ^(٢) » إلى آخره.

فإن قيل : كيف أمر الله أهل الكتاب في مقام المحاجة عليهم بالسؤال عن علمائهم بقوله في غير موضع من كتابه : ﴿ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) مع كون علمائهم معاندين للحقّ ، مخرفين للكتاب ؟

قلت : لم يكن جميعهم بهذه الأوصاف ، بل أغلبهم كانوا كذلك ، وأما الأمر بالسؤال في الاحتجاج ، فإنما هو عن المأمونين عن الكذب ، المعروفين عندهم بالصّلاح والسّداد.

إن قيل : إنّ السؤال منهم ليس إلا التّقليد المفيد للظنّ الذي لا يغني في الاصول ، بل هو محرّم إجماعاً ؟

قلت : إنّما السؤال المأمور به هو ما يكون مقدّمة لحصول العلم واليقين ، فإنّه لا شبهة أنّ

إخبار

(١) في تفسير العسكري عليه السلام : أديانهم.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٩٩ / ١٤٣.

(٣) الأنبياء : ٢١ / ٧.

جماعة من أهل العلم المأونين عن الكذب بأمر ، سيّما مع انضمامه بأمارات آخر مورث للعلم به ، واليقين بتحقيقه. وهذا في الحقيقة من الاجتهاد اللازم في الاصول.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ

ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾

ثمّ شرع الله تعالى في تهديد المخرفين للتّوراة بقوله : ﴿فَوَيْلٌ﴾ وهو واد في جهنّم - كما عن النبي ﷺ ، وعذاب أليم كما عن ابن عباس ^(١) - معدّ ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المخرف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ وبما شرّتهم بحيث لا يمكنهم إنكاره ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لعوامهم ﴿هَذَا﴾ المكتوب من جملة التّوراة النازلة ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

روي أنّ أبحار اليهود خافوا ذهاب مأكلمهم وزوال رئاستهم حين قدم النبي ﷺ المدينة ، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الايمان ، فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ صلى الله عليه وآله في التّوراة ، وكانت فيها : حسن الوجه ، جعد ^(٢) الشعر ، أكحل العينين ، ربة - أي متوسّط القامة - فغيروها ، وكتبوا مكانها : طوال ، أزرق ، سبط الشعر ، فإذا سألمهم سفلتهم قرءوا عليهم ما كتبوا ^(٣) . وقالوا : إنّ صفات النبي الموعود مغايرة لصفات محمّد .

وفي رواية : قالوا : إنّ ^(٤) عظيم الجثّة والبطن ، أصهب الشعر ، ومحمّد بخلافه ، وإنّه يجيئ بعد خمسمائة سنة ^(٥) .

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من المال والرئاسة على الضعفاء ، ولأن لا يتحمّلوا مؤنة خدمة النبي ﷺ ، وهذا من نهاية شقاوتهم ، وغاية دناءتهم حيث رضوا بتحمّل العذاب الشديد الدائم الأجل ، لأجل حبّ المال القليل الزائل ، والجاه الويل العاجل.

ثمّ أنّه تعالى بعد ما ذكر استحقاقهم الويل لكتابة الكتاب وتحريفه ، وافترائهم على الله ، وأخذهم الأموال ، وكان مجال توهم أنّ الاستحقاق يكون بسبب مجموع الامور ، أعاد ذكر الويل لكل واحد

(١) تفسير الرازي ٣ : ١٤٠ .

(٢) في تفسير أبي السعود : حسن.

(٣) تفسير أبي السعود ١ : ١٢٠ .

(٤) زاد في تفسير العسكري ﷺ : طويل.

(٥) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ : ٣٠٢ / ١٤٥ .

منها ، وبين أن كلا منها سبب مستقل لاستحقاقه ، بقوله : ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث إنَّه سبب لإضلال النَّاس ، باق في الدنيا ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ به من المال الحرام والرئاسة الباطلة ، والمعاصي العظيمة.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ
اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ
خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾

ثم أشار سبحانه إلى بعض مغترياتهم الذي صار سببا لجرأتهم على الله بقوله : ﴿وَقَالُوا لَنْ
تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ قليلة.

قيل : المراد بما الأيام التي عبد فيها العجل ، وهي سبعة أيام على قول (١) ، أو أربعون على
آخر (٢) .

وقالوا : ثم نصير بعدها في النعمة الدائمة ، فلا ينبغي أن نتحمل مكروه تبعية محمد وذلها في
الدنيا للاحتراز عن العذاب في الأيام القليلة التي تفي وتنقضي.

فردَّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد توبيخا لهم وإنكارا عليهم ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾
أنَّ عذابكم على الكفر منقطع غير دائم ، فإن اتَّخَذْتُمْ هذا العهد ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ أبدا ،
لأنَّ خلف العهد والوعد قبيح لا يصدر من الحكيم إلَّا مع الحاجة والضرورة أو الجهل بقبحه ، وكلها
نقص وعيب ، والذات القادرة المحيطة بجميع الكائنات مبررة من جميع النقائص ومستجمع لجميع
الكمالات بلا شك وريب ، فإن ادَّعَيْتُمْ أَنَّ الله تعالى عهد إليكم بهذا فأنتم كاذبون.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ مغترين ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله.

روي أنَّهم إذا مضت المدَّة عليهم في النار ، يقول لهم خزنة جهنم : يا أعداء الله ، ذهب
الأجل ، وبقي الأبد (٣) ، فأيقنوا بالخلود.

﴿بَلَى﴾ العذاب الدائم ثابت لكم ، حيث إنَّ : ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وخطيئة ﴿وَأَحَاطَتْ
بِهِ﴾ واشتملت عليه ﴿خَطِيئَتُهُ﴾ بظلمتها ونكبتها ، واستولت على قلبه ولسانه وجميع جوارحه حتَّى

(١) تفسير الرازي ٣ : ١٤١ .

(٢) جوامع الجامع : ١٨ ، الدر المنثور ١ : ٢٠٧ .

(٣) أسباب النزول الواحدي : ١٨ .

أخرجته من دين الله ، ونزعته عن ولايته تعالى ، وأبعدته من رحمته سبحانه ، وأوقعته في خذلانه ، وهو الشُّرك بالله ، والكفر بنبوة محمد ﷺ وولاية أوصيائه المعصومين ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المحاطون بتلك السيئة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا خلاص لهم منها أبداً ، ولا يجدون عنها مصرفاً ، فإن ملازمة الكفر مستلزمة لملازمة العذاب .

عن (التوحيد) : عن الكاظم عليه السلام : « لا يخلد الله في النار إلا أهل الكفر والجحود ، وأهل الضلال والشرك » (١) .

وعن (الكافي) عن أحدهما عليه السلام ، قال : « إذا جحدوا إمامة أمير المؤمنين عليه السلام فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) .

في أنّ تعذيب الكافر أبداً لكفره في المدة القليلة جائز وليس بظلم
فإن قيل : كيف يجوز تعذيب الكافر بالعذاب الدائم لكفره مدة قليلة من العمر ، بل ساعة ، وهل هذا إلا ظلم ، تعالى عن ذلك ؟

قلت : قد مرّ سابقاً أنّ عظمة المعصية بمقدار عظمة المعصية وكثرة حقوقه ونعمه ، فإذا كانت عظمة المعصية ونعمه بلا نهاية ، فعظم معصيته ولو كان بغير الكفر بلا نهاية ، ومقدار العذاب واستحقاقه بمقدار عظمة المعصية .

فلو عذبنا الله تعالى لأصغر معاصيه بالعذاب الدائم ما ظلم وما تعدّى عن حدّ استحقاقنا ، فكلّما خفف أو عفا فيفضله ورحمته ، وأمّا حسن العفو فيعتبر فيه قابليّة المحلّ ، فإذا أخبر الله بخلود الكافر ، علمنا بخروجه عن قابليّة العفو ، فلذا يعدّب بالعذاب الدائم ، بخلاف سائر المعاصي فإنّه يبقى معها قابليّة العفو إمّا ابتداءً أو بعد التوبة ، أو مع الشفاعة ، أو بعد بعض الأعمال الصالحة . وفي بعض الروايات : أنّ الخلود في النار بسبب نيّة الكافر أن لو خلّد في الدنيا أبداً لعصى الله ، فالكفار بنيّاتهم خلّدوا .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢)

(١) التوحيد : ٤٠٧ / ٦ .

(٢) الكافي ١ : ٣٥٥ / ٨٢ .

ثم أنه سبحانه لما بين حال الكفار في الآخرة بأثم أصحاب النار ، أردفه بذكر حال أهل الإيمان ، بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من التجنب عن المعاصي وارتكاب (١) العبادات والواجبات ، حيث إن الإيمان الواقعي غير منفك عن العمل في الجملة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ متنعّمون لا يخافون زوال النعمة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣)

ثم أنه تعالى بعد ذكر نعمة أخذ الميثاق من بني إسرائيل على العمل بالتوراة إجمالاً ، ذكر نعمة أخذ الميثاق على العمل بتمام ما لا بد منه في الدين تفصيلاً ، بقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ والعهد المؤكّد الذي وجب أن يكون جارياً في أخلافهم قرناً بعد قرن ، وفي الأمة المرحومة إلى يوم القيامة ، وهو أمور ، أهمّها وأعظمها أنه ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بقلوبكم وجوارحكم ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تجعلون له شركاء من الأصنام والشيطان وهوى النفس وسائر الخلق.

عن الصادق عليه السلام : « ما أنعم الله عزّ وجلّ على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله تعالى غيره » (٢).

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « من شغلته عبادة الله عن مسألته ، أعطاه أفضل ما يعطى السائلون » (٣).

في وجوب الاحسان بالوالدين الروحانيين والجسمانيين وحكمته

﴿وَوَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ تحسنون ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ مكافأة عن إنعامهما وإحسانهما ، فإنّ حقّهما بعد حقوق الله ، وحقّ الأنبياء والأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين أعظم من حقّ كلّ ذي حقّ ، لأنّهما أصلان في وجود الولد في هذا العالم ، منعمان عليه بالتغذية والتربية والحفظ عن المحبة والمودة ، بلا طمع في أجر وعوض ولا ملال ولا كلال ، ولا يقطعان عنه الإحسان وإن كان مسيئاً بهما وعاقاً لهما ، ويؤثرانه على أنفسهما ولو كانت بهما خصاصة ، فحقّ لهما أن يعظّمهما ويطلب رضاها ، ولا يؤذيها وإن كانا كافرين.

عن (الكافي) : سئل الصادق عليه السلام : ما هذا الإحسان ؟ قال : « أن تحسن صحبتها ، وأن لا تكلفها أن

(١) كذا والظاهر وأداء.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٢٨ / ١٨٢.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٢٧ / ١٧٥.

يسألك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين. أليس الله يقول : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَ﴾^(١)

ثم إذا كان حقّ الوالدين الجسمانيّين بهذه الدّرجة من العظم ، فما أعظم حقّ الوالدين الروحانيّين من النّبيّ والوصيّ ! فإنّ إحسانهما وإنعامهما بأولادهما المؤمنين لا يقاس بالوالدين الظاهريّين الجسمانيّين ، فإذا كانا أفضل وأحقّ بمراتب لا تحصى ، كانا بالشّكر أحقّ وأولى .
عن (تفسير الإمام عليّ عليه السلام) : قال رسول الله ﷺ : « أفضل والديكم وأحقّهما بشكركم محمّد وعليّ »^(٢) .

وعن عليّ عليه السلام قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا وعليّ أبوا هذه الامة ، ولحقنا عليهم أعظم من حقّ أبوي ولادتهم ، فإنّا ننقذهم إن أطاعونا من التّار إلى دار القرار ، ونلحقهم من العبوديّة بخيار الأحرار »^(٣) .

ثم أمر بالإحسان بذوي القرى بقوله : ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ وهم الذين يعدّون في العرف أرحاما وأقرباء للشّخص ، وإنّما أردف الأمر بالإحسان إليهم بإحسان الوالدين لأنّ حقّهم تابع لحقّهما ، حيث إنّ الإنسان متّصل بهما .

أمّا السبب الأعظم في التأكيد في رعاية هذا الحقّ ، أنّ الارتباط النّسبيّ مقتضٍ للاتّحاد والالفة ، ومنشأ لزيادة حسن الرّعاية والنصرة ، فلو لم يحصل لكان أشقّ على القلب وأبلغ في الإيلام ، وكلّما كان موجب التّألم أقوى كان دفعه أوجب .

عن رسول الله ﷺ : « من راعى حقّ قرابات أبويه ، اعطي في الجنّة ألف ألف درجة »^(٤)
ثم فسّر الدّرجات ، ثمّ قال : « من راعى حقّ قربي محمّد وعليّ اوتي من فضائل الدّرجات وزيادة الثواب على قدر زيادة فضل محمّد وعليّ على أبوي نسبه »^(٥) .

﴿وَالْيَتَامَى﴾ : وهم الصّغار المنقطعون عن آبائهم الكافلين لامورهم . ووجه إرداف الإحسان بهم للإحسان بالأقارب ، أنّ في حفظ الصّغار وتدبير امورهم وصحبته مع كمال الرعاية لهم مشقّة

(١) الكافي ٢ : ١٢٦ / ١ ، والآية من سورة آل عمران : ٣ / ٩٢ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٣٠ / ١٨٩ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٣٠ / ١٩٠ .

(٤) في تفسير العسكري عليه السلام : ألف درجة .

(٥) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٣٣ / ٢٠٢ .

عظيمة ورياضة ثقيلة على النفس ، ولذا وعد الله عليه الأجر العظيم ، وأنهم لضعفهم وقصورهم أولى بالرعاية من غيرهم بعد الأقارب .

ثم لا ريب أن الإحسان والتكفل ليتامى آل محمد ﷺ وهم المنقطعون عن إمامهم ، الجاهلون بشرائعهم وتكاليفهم ، أعظم أجرا منه ، كما روي عن العسكري عليه السلام : « أن من هداه [وأرشده] وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيع ^(١) الأعلى » ^(٢) .

ثم الأولى بعدهم بالرعاية والإحسان الفقراء ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ الذين أسكنهم الفقر عن الحركة .
روي : « أن من وساهم بحواشي ماله ، وسع الله عليه جنانه ، وأناله غفرانه ورضوانه » ^(٣) .
ثم قال : « إن من محبي محمد ﷺ مساكين مواساتهم أفضل من مواساة مساكين الفقر ، وهم الذين سكنت جوارحهم وضعفت قواهم عن مقابلة أعداء الله الذين يعيرونهم بدينهم ويسقونهم أحلامهم ، ألا فمن قواهم بفقهه وعلمه حتى أزال مسكنتهم ، ثم سلطهم على الأعداء الظاهرين من النواصب ، وعلى الأعداء الباطنين إبليس ومردته حتى يهزمهم عن دين الله ويردوهم عن أولياء آل رسول الله ﷺ ، حول الله تعالى تلك المسكنة إلى شياطينهم وأعجزهم عن إضلالهم ، وقضى الله بذلك قضاء حقا على لسان رسول الله ﷺ » ^(٤) .

ثم بعد ذكر الطوائف الأربع الذين تجب رعايتهم مالا وعشرة ، بين وجوب الإحسان إلى غيرهم بقوله : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ الذين لا مؤنة لهم عليكم ، سواء كانوا من المؤمنين أو من مخالفينهم من اليهود وغيرهم ﴿حُسْنًا﴾ وعاملوهم وواجهوهم بالبشر وخلق جميل .

عن الباقر عليه السلام : « قولوا للناس [أحسن] ما تحبون أن يقال لكم » ^(٥) .

وفي رواية : « أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم » ^(٦) .

عن الصادق عليه السلام : « قولوا للناس كلهم حسنا مؤمنهم ومخالفهم ، أما المؤمنون فييسر لهم

وجهه

(١) في تفسير العسكري عليه السلام : الرفيق .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٣٩ / ٢١٤ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٤٥ / ٢٢٦ .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٤٦ / ٢٢٧ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٣٩ / ١٦٧ ، الكافي ٢ : ١٣٢ / ١٠ ، مجمع البيان ١ : ٢٩٨ .

(٦) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٨١ / ٨٣٥ .

وبشره ، وأما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان ، فإن يئس من ذلك يكفّ شرورهم عن نفسه و [عن] إخوانه المؤمنين » ^(١) .

ثمّ قال عليّ : « إنّ مداراة أعداء الله من أفضل صدقة المرء على نفسه وإخوانه ، كان رسول الله ﷺ في منزله إذ استأذن عليه عبد الله بن أبي سلول ،

فقال رسول الله ﷺ : يئس أخو العشيرة ، ائذنوا له ، [فأذنوا له] فلمّا دخل ، أجلسه وبشر في وجهه ، فلمّا خرج قالت له عائشة : يا رسول الله ، قلت فيه ما قلت ، وفعلت فيه [من البشر] ما فعلت !

فقال رسول الله ﷺ : يا عويش ، يا حميراء ، إنّ شرّ الناس عند الله يوم القيامة من يكرم اتقاء شرّه » ^(٢) .

في أنّ قوله تعالى : ﴿ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ هل هو منسوخ أم لا ؟

وفي رواية عن الباقر عليّ : « أنّها نزلت في أهل الذمّة ، ثمّ نسخها قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(٣) ... » إلى آخر الآية ^(٤) .

القميّ رحمه الله قال : نزلت في اليهود ، ثمّ نسخت بقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ... ﴾ ^(٥) . وقال الفيض رحمه الله : التوفيق بأن يقال : نسخت في حقّ اليهود وأهل الذمّة المأمور بقتالهم ، وبقي حكمها في حقّ سائر الناس ^(٦) .

أقول : ما نسخت في حقّ أهل الذمّة أيضا مطلقا ، بل في موقع اقتضت المصلحة الجهاد معهم ، وأما في موقع الهدنة وموقع يمكن دعوتهم واجتلابهم إلى الإيمان بالمجادلة الحسنة ، فحكم الآية باق في حقّهم أيضا ، وأما قوله : نزلت في أهل الذمّة أو في اليهود ، معناه أنّهم المورد فلا ينافي عموم الحكم لغيرهم.

فإن قيل : الروايتان متعارضتان ، حيث إنّ في إحداها قال : نسخت ب اقتلوا ﴿ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وفي الاخرى ب ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

قلت : يمكن الجمع بأنّ كلتي الآيتين بمضمونهما ، ناسختان لعمومها. حيث إنّ اليهود من المشركين بقولهم عزير ابن الله ، والتّصارى بقولهم : إنّ الله ثالث ثلاثة ، أو قولهم : المسيح ابن الله ، وكلا الفريقين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر حقّ الإيمان.

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليّ : ٣٥٣ / ٢٤٠ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليّ : ٣٥٤ / ٢٤١ .

(٣) التوبة : ٩ / ٢٩ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٤٠ / ١٧٠ ، عن الصادق عليّ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٥١ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٥ .

(٦) تفسير الصافي ١ : ١٣٧ .

ثمَّ أنّه بعد ما بيّن كَيْفِيَّةَ حفظ رابطة الوداد بين خلقه ، وهو ببذل المال وحسن الكلام والأخلاق ، بيّن ما به يحفظ الرّبط بين العبد وذاته المقدّسة ، وهو بالعبادات البدنيّة والماليّة :
أما البدنيّة ، فلمّا كان أهمّها الصّلاة ، قال : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بحفظ مواقيتها وإتمام ركوعها وسجودها وأداء حقوقها وشرائطها.

وأما الماليّة ، فلمّا كان أهمّها الزّكاة الواجبة ، قال : ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ وفيه دلالة على أنّ المراد من الإحسان بذّي القربى واليتامى والمساكين ، غير الزّكاة.

ثمّ لما كان بيان هذه التكاليف التي هي من المحسّنات العقليّة وأخذ الميثاق على العمل بها نعمة من الله عليهم حيث إنّه تربية وهداية ، ذمّهم بأنّهم أساءوا على أنفسهم بجهلهم وعدم تلقّيهم هذه النعمة العظيمة بالقبول بقوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أيّها اليهود عن الوفاء بالعهد الذي أدّاه إليكم أسلافكم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن العهد غير معتنين به.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾

ثمّ بعد المنة عليهم بنعمة هدايتهم إلى الأعمال الحسنة ، بيّن منته عليهم بنعمة نهيهم عن الأعمال القبيحة التي أقبحها الإضرار بالمرتبطين إليهم بالنسب والدين ، فإنّ جميع المنتسبين بالنسبتين ، بمنزلة شخص واحد ، والإضرار عليهم أقبح من الإضرار على النفس ، بقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ والعهد الأكيد منكم حيث حكمنا عليكم بالتزمت بآيمانكم بالعمل به ، وهو أنّه ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ ولا تهرقون ، ظلما ﴿دِمَاءَكُمْ﴾ ولا تقتلون بعضكم بعضا ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي بعضكم بعضا.

﴿مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ فإنّ سفك الدماء وإخراج المؤمنين من ديارهم من أشدّ الظلم وأقبح الفساد. ﴿ثُمَّ﴾ بعد الميثاق ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ والتزمت به عند أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلك الالتزام

والعهد

على رؤوس الأشهاد.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أيها اليهود الحاضرون ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الملتزمون بميثاق الله وعهده المؤكد ، المقرّون به ، الشاهدون عليه ، والآن نقضتموه لخبثكم وطغيانكم ، حيث إنكم ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتُحرقون دماء بعضكم في الحروب مع أئمة كدمائكم ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ قهرا عليهم و﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أنتم وأعداؤهم من المشركين ، أو أنتم أنفسكم تتعاونون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متلبسين ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ من القتل والإخراج ، وفيه دلالة على حرمة الإعانة على الظلم والعصيان.

﴿وَإِنْ﴾ كان الفريق المخرجون ﴿يَأْتُونَكُمْ﴾ بأن جاء بهم الأعداء إليكم ، حال كونهم ﴿أَسَارَى﴾ ومشدودين بقيد الأعداء ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ وتعطوا العوض عنهم من أموالكم لتخلصوهم من الأسر ﴿وَهُوَ﴾ أي الشأن أو الإخراج ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ تبين لمرجع ضمير الشأن والقصة ، أو تأكيد له.

ثم أنكر عليهم بقوله : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ أيها اليهود ﴿بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ من وجوب التقديّة ، وتعملون به ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ آخر من حرمة القتل والإخراج ، مع أنّ قضيّة الإيمان بالكتاب ، الإيمان بكلمه ، لأنّ كلمه من عند الله ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ﴾ التبعيض في الإيمان والكفر بالكتاب ﴿مِنْكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ وذللّ مع الفضيحة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من القتل والأسر والإجلاء [عن] الوطن وضرب الجزية عليهم.

نقل أنّ الله أخذ على بني إسرائيل في التّوراة أ ، لا يقتل بعضهم بعضا ، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، وأبما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه وأعتقوه ، وكانت قريظة والتّضير أخوين ، وكذا الأوس والخزرج ، وهم أهل شرك يعبدون الأصنام ولا يعرفون القيامة والجنّة والنّار والحلال والحرام ، فافترقوا في حرب شمر ، ووقعت بينهم عداوة ، فكانت بنو قريظة معينة للأوس وحلفائهم ، والتّضير معينة للخزرج وحلفائهم ، فكانوا إذا خرجت الأوس والخزرج للقتال خرجت بنو قريظة مع أوس ، والتّضير مع خزرج ، فظاهروا حلفاءهم. وإذا غلبوا خربوا ديارهم ، فإذا انقضت الحرب افتدت قريظة ما كان في أيدي خزرج منهم ، وافتدت التّضير ما كان في أيدي الأوس منهم من الاسارى. فعيرتهم العرب بذلك ، فقالوا : كيف تقتلونهم وتفادوهم ؟ ! قالوا : امرنا أن نفديهم ، وحرّم

علينا قتالهم. قالوا : فلم تقاتلوهم ؟ قالوا : إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ نَسْتَدِلَّ حُلَفَاءَنَا ^(١) .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لأن عصيانهم - وهو الكفر - أشد المعاصي ، ولا ينافي ذلك كون عذاب من هو أكفر منهم ^(٢) كالدهرية أشد من عذابهم ، لتفاوت مراتب الأشدية ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأن الغفلة ممتنعة عليه ، فبقدرته الكاملة واستحقاقكم الكامل يجازيكم على أعمالكم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

ثم أعرض سبحانه عن مخاطبتهم ، وأعلن في الناس بدمهم بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ الجماعة المذمومون بغاية الذم ، هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوْا﴾ واستبدلوا ، واختاروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها الدنية الزائلة ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وبعوض نعمها الدائمة ، وآثروا اللذات الفانية على الجنة وحفظها الباقية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ إذن ﴿عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لا كيفية ولا مدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من أحد ، ولا يعاونون على دفعه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

ثم ذكّرهم الله نعمة اخرى وكفراهم لها بقوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ جملة واحدة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وأتبعناه ﴿مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يتبع بعضهم بعضا ، والشرعة واحدة إلى زمان

(١) تفسير أبي السعود ١ : ١٢٥ ، تفسير روح البيان ١ : ١٧٥ .

(٢) كذا ، والقياس : أشد كفرا منهم .

عيسى عليه السلام ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ الآيات ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ، وإفراد عيسى عليه السلام بالذكر بعد الرسل ؛ لاستقلاله بالشرعة ، فإنَّ شريعته ناسخة لشرعة موسى عليه السلام .

في وجه تسمية جبرئيل عليه السلام بروح القدس

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ وأعناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قيل : هو جبرئيل عليه السلام ^(١) . حيث إنَّه خلق بنفحه وربِّي بتربيته ورفع إلى السماء معه .

واطلاق الروح على جبرئيل عليه السلام لأنَّه واسطة إفاضة العلم الذي به حياة القلوب ، ولذلك سمي القرآن من بين الكتب السماوية بالروح ؛ لاشتماله على المعارف الإلهية بمقدار لا يتحمل فوقه البشر ، وعلى علوم يحتاج إليها الخلائق إلى يوم القيامة .

قيل : إنَّ إضافة الروح إلى القدس اضافة الموصوف إلى الصفة ^(٢) ، والمعنى : الروح المقدسة من الذنب .

ثم بعد ذكر النعم العظيمة عليهم ذمهم بكفرانها ، وقال تقرِّبنا وتوبيخنا لهم : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ وأتاكم بعهود وأحكام تخالف ميل خاطركم من وجوب اتباع الكاملين وبذل الأنفس والأموال لنصرة الدين ، والإيمان برسالة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ واستثقلتم ما جاءكم به أو أخذكم الكبر ﴿فَفَرِقْنَا﴾ من الرسل ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى ﴿وَفَرِقْنَا﴾ آخر منهم كنتم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ تكرِّبنا ويحیی ، كما أنكم كذبتُم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأردتم قتله . قيل : سمّوه في خير .

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال عند موته : « ما زالت أكلة خير تعاودني » ^(٣) .

﴿وَقَالُوا﴾ كناية عن نهاية تأييدهم عن الإيمان ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ومغشاة بأغشية مانعة من دخول ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيها ، فلا نفهم ما يقول . فردَّ الله عليهم بأنَّ قلوبهم لم تخلق كذلك ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وخذلهم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بالله ورسوله ، فأبطل استعدادهم .

أو المراد : أنَّ قلوبنا أوعية العلم ، ومع ذلك لا نرى لك خبراً في الكتب السماوية ، ولا على لسان أحد . فردَّ الله عليهم بقوله : ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم عن رحمته بسبب كفرانهم النعمة ﴿فَقَلِيلًا مَا﴾ أي إيماننا قليلاً ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أو ببعض قليل في غاية القلة من أحكام الله يصدقون ويلتزمون . قيل : أراد

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٧١ / ٢٦٠ .

(٢) تفسير الجلالين ١ : ١٣ .

(٣) تفسير الرازي ٣ : ١٧٨ ، تفسير أبي السعود ١ : ١٢٧ .

بالقلة العدم ^(١) .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ونزل على هؤلاء الحاضرين ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن ، وهو القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بشهادة أنه ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة التي بين فيها أوصاف محمد ﷺ من أنه نبي أمي من ولد إسماعيل ، حتى كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

﴿وَكُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ أن يظهر محمد ﷺ بالرسالة ﴿يُسْتَفْتَحُونَ﴾ من الله ويسألونه الفتح والظفر به ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكان الله يجيبهم ويفتح لهم ، أو المراد أنهم يعرفون المشركين أن الله يبعث منهم نبيا وقد قرب زمانه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد ﷺ وهو ﴿مَا عَرَفُوا﴾ بنعوته وعلائمه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وجحدوا نبوته حسدا ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ به .

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ

مُهِينٌ (٩٠)﴾

ثم بالغ في ذمهم وتعييبهم على فعلهم من الكفر بنبوة محمد ﷺ بقوله : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ﴾ من الهدايا والرئاسة الباطلة ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ وأعرضوا عن النفع الدائم ، ورضوا بالعذاب الدائم لها بعوض متاع الدنيا الفانية .

وقيل : إنهم لما تملكوا أنفسهم وخلصوها من تبعية النبي ﷺ بعوض كفرهم بنبوته ﷺ فكأنهم اشتروا أنفسهم .

ثم إنه تعالى فسر ما اشتروا به بقوله : ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن المستلزم للكفر بنبوة محمد ﷺ ، كما أن الإقرار بأنه من الله إقرار بنبوة محمد ﷺ .

ثم بين أن كفرهم لم يكن جهلا وقصورا ، بل كان ﴿بَغْيًا﴾ وحسدا على ﴿أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ﴾ نصيبا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو النبوة والكتاب ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ويختار من بريته وهو محمد ﷺ الذي أبان بالقرآن نبوته ، وأظهر به آيته .

وعن (الكافي) و (العياشي) : عن الباقر عليه السلام قال : « بما أنزل الله في عليّ بغيا » ^(٢)

الحديث ، وهذا تاويل

(١) تفسير أبي السعود ١ : ١٢٨ .

(٢) الكافي ١ : ٣٤٥ / ٢٥ ، تفسير العياشي ١ : ١٤٣ / ١٧٥ .

وبطن.

﴿فَبَاؤُ﴾ ورجعوا ملتبسين ﴿بِعُصَبٍ﴾ من الله عليهم حين جحدوا نبوة محمد ﷺ كائن
﴿على غُصَبٍ﴾ من الله عليهم قبله حين أنكروا نبوة عيسى ﷺ فصاروا مستحقين لعنة مرادفة
العنة حيث اقترفوا كفرا إثر كفر.

﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ بالله ورسله ، كانوا يهودا أو غيرهم بسبب كفرهم ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حيث
أهانوا الله بمعارضته ورسله بالتكذيب ، فناسب أن يشتمل عذابهم على نهاية الإهانة زائدا على ما
يلازم مطلق العذاب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمُنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ
وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (٩١)﴾

ثم بالغ سبحانه في توبيخ اليهود بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نصحا وموعظة ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ﴾ على محمد ﷺ من القرآن ﴿قَالُوا نُوْمُنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ من التوراة وهم ﴿يَكْفُرُونَ بِمَا
وَرَاءَهُ﴾ وما سواه من الكتب السماوية التي أشرفها القرآن ، ولا يؤمنون به ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ هُوَ
الْحَقُّ﴾ النازل من الله ، والناسخ للتوراة ، حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة التي بشرت
بمجيء محمد ﷺ بالرسالة والكتاب.

ولما كانوا كاذبين في دعوى الإيمان بها ، ردّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ردّا
لدعواهم الإيمان بالتوراة ﴿فَلِمَ﴾ كنتم ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة ، فإنّ
التوراة حرّمت قتل الأنبياء ، ولا بدّ أن يكون قول المؤمن وفعله موافقا.

عن العياشي : عن الصادق عليه السلام : « إنّما نزل هذا في قوم [من اليهود] كانوا على عهد
رسول الله ﷺ لم يقتلوا الأنبياء بأيديهم ، ولا كانوا في زمانهم ، وإنّما قتل أوائلهم الذين كانوا من
قبلهم ^(١) ، فجعلهم الله منهم ، وأضاف إليهم فعل أوائلهم بما تبعوهم وتولّوهم » ^(٢) .

(١) زاد في المصدر : فنزلوا بهم أولئك القتلة.

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٤٣ / ١٧٧ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِنَسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
 إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾

ثمَّ أنه لما كانت عبادتهم العجل واتخاذهم إلهًا من أقبح أعمالهم ، وفيها نهاية فضيحتهم وظهور
 كمال حماقتهم كرَّر الله ذكره بقوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
 وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾

ويمكن أن يكون تكراره وتكرار أخذ الميثاق ورفع الطور والأمر بأخذ ما في التَّوراة من الأحكام
 بقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ ويد ﴿وَاسْمَعُوا﴾ سماع
 قبول وطاعة ؛ توطئة لحكاية قولهم الشَّنيع بقوله : ﴿قَالُوا﴾ جوابا : ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾
 أمرك ، وليبيان رسوخ حبِّ العجل في قلوبهم بقوله : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قيل :
 إنَّهم بسبب كفرهم أمرُوا بشرب الماء الذي ذَرَبَتْ فيه سحالة ^(١) العجل حتَّى وصل ما شربوه إلى
 قلوبهم ، حتَّى تداخلها حبُّه ، ورسخ فيها صورته لفرط شغفهم به .

نقل أنَّ موسى ﷺ لما خرج إلى قومه امر أن يرد العجل بالمبرد ثم يذري في النَّهر ، فلم يبق
 نهر يومئذ إلَّا وقع فيه منه شيء ثمَّ قال لهم : اشربوا منه ، فمن بقي في قلبه شيء من حبِّ العجل
 ظهرت سحالة العجل على شاربه ^(٢) .

وروي عن الباقر ﷺ قال : « لما ناجى موسى ﷺ ربَّه ، أوحى الله إليه : يا موسى ، قد
 فتنت قومك . قال : بماذا يا رب ؟ قال : بالسَّامريِّ . قال : وما [فعل] السَّامريِّ ؟ قال : قد صاغ
 لهم من حلْيهم عجلا .

قال : يا ربِّ ، إنَّ حلْيهم لا يحتمل أن يصاغ منه غزال أو تمثال أو عجل ، فكيف فتنتهم ؟
 قال : إنَّه صاغ لهم عجلا ، فخار .

قال : يا ربِّ ومن أخاره ؟ قال : أنا . فقال عندها موسى ﷺ : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ
 بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ ^(٣) .

(١) سحالة الشيء : برادته ، وهو ما يتساقط من الحديد أو نحوه في أثناء برده .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ١٨٣ .

(٣) الأعراف : ٧ / ١٥٥ .

قال : فلمّا انتهى موسى ﷺ إلى قومه ورآهم يعبدون العجل ، ألقى الألواح من يده فكسّرت .

قال أبو جعفر ﷺ : « كان ينبغي أن يكون ذلك عند إخبار الله تعالى إياه . قال : فعمد موسى ﷺ فبرد العجل من أنفه الى طرف ذنبه ، ثم أحرقه بالنار فذره في اليم . قال : فكان أحدهم ليقع في الماء وما به [إليه] من حاجة ، فيتعرّض بذلك للرماد ^(١) ويشربه ، وهو قول الله تعالى : **﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾** ^(٢) .

أقول : ظاهر الرواية أنّ حبّهم للعجل صار سببا لشربهم من الماء ، ويمكن كون حبّ العجل سببا للشرب ، ثم صار الشرب سببا لرسوخ حبّه وثباته في قلوبهم .

ثم لما كان ارتكابهم هذه القبائح مبطلا لادّعائهم الإيمان بالتّوراة وموسى وشريعته ؛ أمر الله نبيّه بتقريعهم ، بقوله : **﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾** وساء ما يبعثكم إليه **﴿إِيمَانُكُمْ﴾** بالتّوراة من فعل هذه القبائح ، ومن الكفر بالله واليوم الآخر ورسالتي **﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** بها .

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾
﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ (٩٥)

ثم لما كان من عقائدهم السّخيفة ودعائهم الباطلة أنّ الجنّة ونعيمها في الآخرة خالصة لهم ومختصة بهم لادّعائهم أنّهم أولياء الله المخلصون وعباده الصّالحون ، ولذا قالوا : **﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾** ^(٣) فردّ الله عليهم بقوله : **﴿قُلْ﴾** لهم يا محمّد : **﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾** من جنّتها ونعيمها **﴿عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾** ومختصة **﴿مِنْ دُونِ﴾** سائر **﴿النَّاسِ﴾** قيل : المراد من الناس محمّد ﷺ وأهل بيته وأصحابه ^(٤) .

﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ الذي به تصلون إليها لقلّة نعم الدنيا بالنّسبة إلى نعم الآخرة ، مع كون نعم الدنيا منعّصة مشوبة بالآلام والمكاره بخلاف نعم الآخرة ، فكلّ من أيقن بفلاحه ونجاحه ، لا بدّ له من أن يشقّاق إلى الموت ويتمنّاه ، كما قال أمير المؤمنين ﷺ : « والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطّفل

(١) في النسخة : بذلك إليها .

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٤٤ / ١٧٨ .

(٣) البقرة : ٢ / ١١١ .

(٤) تفسير الصّافي ١ : ١٤٨ .

بندي أمه « (١) .

وقال عمار يوم صفين :

اليوم ألقى الأحمدي محمدا وحزبه (٢)
عن الصادق عليه السلام : « سئل أمير المؤمنين عليه السلام : بماذا أحببت لقاء ربك ؟ قال : لما رأيته قد
اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه ، علمت بأن الذي أكرمني بهذا ليس ينساني ، فأحببت لقاءه
» (٣) .

فمن كان صادقا في الحب لا محالة يتمي لقاء الحبيب ، ولذا قال تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ في دعوى حبكم لله وتوليكم إياه واختصاصكم بالجنة ونعيمها. ثم الظاهر أن المراد بالتممي
، التمي القولي ، كقول : ربنا أمتنا أو عجل في وفاتنا وأمثال ذلك ، دون التمي القلي الذي لا يطلع
عليه أحد.

روي عن النبي ﷺ [أنه] قال لهم بعد ما عرض هذا عليهم : « لا يقوله أحد منكم إلا
غص بريقه فمات مكانه » وكانت اليهود علماء بأهم كاذبون ، وأن محمدا ﷺ وأصحابه هم
الصادقون ، فلم يجترئوا أن يدعوا به (٤) .

شبهة ورفعها

إن قلت : ما الدليل على أنه ما وجد منهم هذا القول ؟
قلت : لو قالوا ذلك لنقل إلينا نقلا متواترا ، لأنه أمر عظيم ، لأنه بقولهم ما يشعر بالتممي ،
كان النبي محجوجا ، وكان يبطل دعواه ونبوته ، وبعدمه يثبت صحة نبوته ، وما كان كذلك كان من
الوقائع العظيمة ، فوجب أن ينقل نقلا متواترا.
وأیضا لا يمكن أن يتحدى النبي ﷺ الذي كان أعقل من جميع أهل العالم بالإخبار بعدم
وقوع أمر جزما إلا بإخبار الله بعدم وقوعه ، ولا يجوز أن يخبر بأمر لا يأمن ولا يثق بتحقيق ما أخبر
به ، مع أنه وردت روايات كثيرة متظافرة بأهم ما قالوا ، ولو قالوه لماتوا مقاعدهم ورأوا مقاعدهم من
النار ، بل قيل إن هذا الإخبار بلغ مبلغ التواتر.

وهذا من الأدلة الواضحة على النبوة ، حيث أخبر عن جزم بأهم لا يقولون كلمة دالة على
تمي الموت مع سهولتها عليهم ، بل أخبر بأهم لا يقولونها أبد الدهر ، بقوله : ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي.

(١) نهج البلاغة : ٥٢ / ٥ .

(٢) وقعة صفين : ٣٤١ ، تفسير أبي السعود ١ : ١٣٢ .

(٣) الخصال : ٣٣ / ١ .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٤٤٣ / ٢٩٤ .

وروي عن (تفسير الإمام) وعن ابن عباس : أنَّ المراد بتمتّي الموت أن يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما فيكون نظير المباهلة ^(١) . وهذا خلاف المشهور بين المفسرين .

روي عن نافع أنَّه جلس إلينا يهودي يخاصمنا ، فقال : إنَّ في كتابكم ﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ﴾ وأنا أتمنى ، فما لي لا أموت ؟ فسمع ابن عمر هذا فدخل بيته وأخذ السيف ثم خرج ، ففرّ اليهودي حين رآه . فقال ابن عمر : أما والله لو أدركته لضربت عنقه ، توهم هذا الجاهل أنَّه لليهود في كل وقت ، إنَّما هو لاولئك الذين يعاندونه ويحجدون نبوتَه بعد أن عرفوه ^(٢) .

إن قيل : إن المؤمنين أجمعوا على أنَّ الجنة للمؤمنين دون غيرهم ، ثم ليس أحد منهم يتمتّي الموت ، فكيف وجه الاحتجاج على اليهود ؟ قلت : إنَّ المؤمنين لم يدعوا أنَّهم أبناء الله وأحبَّؤه ، وأنَّ الجنة خالصة لكل واحد منهم كما أدعاهم اليهود .

ثم بعد الحاجة عليهم وتبكيتهم ، هددهم بقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والطغيان ، لا يخفى عليه سوء حالهم وشناعة أعمالهم ، فيجازيهم بأسوأ مجازاة .

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ

أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

ثم أخبر الله بأنَّهم مأيسون عن نعيم الآخرة بقوله : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ طويلة في الدنيا ، بل ﴿وَوَ﴾ أحرص عليها ﴿مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله ولم يؤمنوا بالمعاد ، فإنَّهم لزعم أنَّ الدنيا جنة لهم ، يكونون أكثر حبا للحياة وأشدَّ حرصا على التعيش فيها .

وهؤلاء اليهود مع اعتقادهم بالمعاد والجنة ، وادعائهم أنَّها خالصة لهم ، لعلمهم بأنَّهم محرمون عن الجنة ونعيمها وصائرون إلى التار وأشدَّ العذاب بسبب وضوح كفرهم عندهم وعنادهم للحق ، يكونون أحرص على التعيش في الدنيا من المشركين بحيث : ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ ويتمتّي ﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾ فيها ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قيل : تخصيص ألف سنة بالذكر لأنَّ عادة الجوس القائلين بالنور والظلمة أنَّهم

(١) تفسير الرازي ٣ : ١٩١ ، تفسير ابن كثير ١ : ١٣٢ ، التفسير المنسوب إلى الامام العسكري : ٤٤٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ١٨٤ .

عند العطاس يقولون : عش ألف سنة ، أو ألف نوروز ^(١) .

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي التعمير الطويل ﴿بِمُرْخَازِهِ﴾ ومباعدة ﴿مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ لأنَّ العمر الطويل بعد انقضائه كطرفة عين ، ثمَّ بعده يكون العذاب الدائم.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في أعمارهم فيشدّد عليهم العذاب ، فيكون طول العمر شرًّا لهم ، حيث لا ينالون فيه إلا زيادة الكفر والطغيان والإثم والعدوان فيزداد عذابهم ، بخلاف أهل الإيمان فإنَّهم في كلِّ ساعة من العمر يكتسبون خيرا كثيرا لا يعلمه إلا الله.

عن النبي ﷺ قال : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » ^(٢) .

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ

وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾

ثمَّ أنّه لما كان من العقائد الفاسدة الزائغة لليهود ومن مساوئ أقوالهم اعتقادهم وقولهم : بأنَّ جبرئيل عدو لنا ؛ لأنَّه أنزل القرآن على محمد ﷺ ونحن نعاديّه ، أبان الله سبحانه سخافة هذا الاعتقاد وشناعة هذا القول بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ ومبغضا له ، فإنَّه مبطل إذ لا وجه لعدوانه.

فإن قالوا : إنَّ العداوة بسبب أنّه أنزل القرآن عليك ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ متدرّجا ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ الذي هو موضع فهمك ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وبأمره ، لا من قبل نفسه ، فهو مأمور ومحسن إليهم بتبليغه الكتاب المبين الذي يكون ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقا ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَى﴾ بنبوة محمد ﷺ وبرحمة الله وفضله ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيجب أن يكون جبرئيل محبوبا مشكورا لا مبغوضا منفورا.

عن القمي رحمه الله : أنّها نزلت في اليهود الذين قالوا لرسول الله ﷺ : لو كان الملك الذي يأتيك ميكائيل لأمنا بك ، فإنَّه ملك الرحمة وصديقنا ، وجبرئيل ملك العذاب وهو عدونا ^(٣) .

(١) تفسير روح البيان ١ : ١٨٦ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٨٣ / ٨٤٢ ، تفسير روح البيان ١ : ١٨٦ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٥٤ .

أقول : الأخبار الدالة على أنّ اليهود كانوا يظهرون العداوة لجبرئيل كثيرة من الخاصة والعامة ، ولا بعد فيه لكثرة جهالتهم ، حيث إنهم الذين قالوا لموسى عليه السلام بعد ما رأوا الآيات البينات : **﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾** ^(١) ثمّ تمادوا في الجهل والغواية حتّى انتهوا إلى عبادة العجل ، وكادوا أن يقتلوا هارون.

وما قيل من أنّ اليهود في الأعصار المتأخّرة منكرون معاندة أسلافهم لجبرئيل ، فهو باطل مردود ؛ لأنّ القرآن كان بمنظر ومسمع من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولم يبارزه أحد منهم بالردّ والتكذيب في هذه التّسبة ، وإلا لنقل إلينا. اعتراض ورد

فإن قيل : نزل القرآن بالاتّفاق على ظاهر النبيّ صلى الله عليه وآله فكيف قال : **﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾** قلنا : نزل القرآن على ظاهره وباطنه ، ولما كان نزوله على باطنه أشرف وأنفع لعموم الخلق ؛ لأنّه يحفظ قلبه حفظ وبقي بين الناس ، خصّه بالذكر كما قال في الشعراء : **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾** ^(٢)

ثمّ بعد بيان أنّه لا جهة لعداوة جبرئيل حيث إنّّه عامل بأمر الله ومطيع لحكمه ، بل على الناس أن يحبّوه ويشكروه حيث إنّّه واسطة لتبليغ الهداية والبشارة ، هدّد الله المعاندين له ، بل معاند جميع المقدّسات بقوله : **﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾** بأن سبّ الله عدوانا ، أو خالفه ، أو عاند أوليائه ، **﴿و﴾** عدوّ **﴿مَلَائِكَتِهِ﴾** المبعوثين لنصرتهم **﴿و﴾** عدوّ **﴿رُسُلِهِ﴾** المبلّغين عنه ، المخبرين بما فيه خير العامة وصلاح الخلق في الدنيا والآخرة ، **﴿و﴾** عدوّ **﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾**

عن عكرمة : أن جبروميك وإسراف هي العبد بالسريانيّة ، وثيل : هو الله ^(٣) ، وتخصيصهما بالذكر بعد ذكر عموم الملائكة لفضلهما ، ولجريان ذكرهما بين الرّسول واليهود. **﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾** بعلّة كفرهم ، وعداوة هؤلاء الكفرة لا تضرّ الله وملائكته ورسله وأوليائه ، وعداوة الله لهم تضرّهم أشدّ الضرر.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا

(١) الأعراف : ٧ / ١٣٨ .

(٢) الشعراء : ٢٦ / ١٩٣ و ١٩٤ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ١٨٨ .

عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ دَالَات على صدقك في نبوتك وفي جميع ما تخبر به ، موضّحات عن كفر من شكّ فيها ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾ وما يجحدها ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله وولايته ، والمتجاوزون عن كلّ حدّ مستحسن في العقل والشرع ، فإنّ من يكون بصفة التمرّد مجترئ على الكفر بالآيات.

عن ابن عباس رضي الله عنه : أنّ اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلّى الله عليه وآله قبل مبعثه ، فلمّا بعث من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل : يا معشر اليهود اتّقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمّد صلّى الله عليه وآله ونحن أهل الشّرك ، وتخبروننا أنّه مبعوث ، وتصفون لنا صفته. فقال بعضهم : ما جاء لنا بشيء من البَيِّنَات ، وما هو بالذي كنّا نذكر لكم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (١).

ولعلّ المراد من الآيات القرآن وسائر المعجزات ، مثل امتناعهم عن المباهلة ، وعن تمّي الموت ، وإشباع الخلق الكثير من الطّعام القليل ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وانشقاق القمر ، وغير ذلك. ثمّ أنكر عليهم كفرهم بالآيات إعظاما له ، وعطف عليه توبيخهم على نقض عهد الأيمان بمحمّد صلّى الله عليه وآله إذا ظهر ، وتعاهدهم على إخراج المشركين من ديارهم إذا هاجر إليهم ، وأن لا يعينوا عليه أحدا بقوله : ﴿أَوْكَلِّمُوا عَاهِدُوا عَهْدًا﴾ من العهود المزبورة ﴿نَبَذَهُ﴾ ونقضه ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ حيث كفروا بمحمّد صلّى الله عليه وآله ولم يؤمنوا به ، وأعانوا قريشا عليه يوم الخندق ، وليس هذا الفريق قليلا منهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بنبوته أبدا بغيا وحسدا.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابِ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

ثمّ أنّه تعالى بعد توبيخهم على الكفر بالمعجزات ونقض العهود ، وتّجهّم على كفرهم بالتّوراة وسائر الكتب السّماوية بقوله : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو محمّد صلّى الله عليه وآله الذي هو ﴿مُصَدِّقٌ﴾ ومطابق [في] صفاته ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التّوراة وسائر الكتب السّماوية ﴿نَبَذَ﴾ ورمى

(١) تفسير الرازي ٣ : ١٩٩ .

﴿فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ من التّوراة وغيرها ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأعرضوا وتركوا العمل به ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الكتاب كتاب الله ، وأنّ ما فيه حقّ. فكما أنّ الجاهل بأنّ التّوراة كتاب الله ، لا يرى ترك العمل به قبيحا لا يرى هؤلاء العالمون بأنّ التّوراة كتاب الله ترك العمل بها قبيحا وشينها ^(١) على أنفسهم ، وهذا من غاية كفرهم وخبائثهم فمثلهم ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ ^(٢) .

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾

ثمّ ذكر الله تعالى نوعا آخر من قبائح أعمالهم ، وهو إقبالهم إلى السّحر وعملهم به بقوله : ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ بعد ترك اتّباع كتب الله ﴿مَا تَتْلُوا﴾ وتقرأه ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ وكفرة الجنّ من كتب السّحر ﴿عَلَى﴾ عهد ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ وسلطنته ، أو افتروا على ملكه بأن ألقوا لما لبني إسرائيل أن سليمان بن داود عليه السلام إنّما وجد ذلك الملك بسبب هذا العلم.

ثمّ لما كان السّحر بمنزلة الكفر في القباحة والمعصية نزه الله سبحانه سليمان عنه بقوله : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ بعمل السّحر ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ حيث عملوا بالسّحر وعلموه النّاس . ولعلّ اليهود في زمان سليمان أنكروا نبوّته ، ونسبوا جميع ما كان له من خوارق العادة وتسخير الرياح وعلمه بمنطق الطّير وسائر معجزاته إلى السّحر ، كما أنكر يهود عصر النّبي ﷺ نبوّته ، ونسبوا الآيات والمعجزات من القرآن المجيد ، وشقّ القمر ، وطاعة الجمادات له ، وتسبيح الحصاة في كفّه وغير ذلك إلى السّحر. وقالوا : نحن أيضا نظهر العجائب بالسّحر ، ونستغني عن الانقياد لمحمّد ، ولذا

(١) كذا ، والظاهر وشينه ، أي شينى الترك.

(٢) سورة الجمعة : ٦٢ / ٥ .

كفروا بالآيات ونبدوا العهود وراء ظهورهم ، فردّ الله عليهم بأنه ﴿مَا كَفَرُوا﴾ وما سحر سليمان ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ إذ ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَ﴾ يعلمونهم ﴿مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ اللذين نزلا ﴿بَابِلَ﴾ وهو بلد بالعراق. وقيل : جبل دماوند. وقيل غير ذلك ^(١) ، وكان اسم أحدهما ﴿هَارُوتَ وَ﴾ اسم الآخر ﴿مَارُوتَ﴾

قصة هاروت وماروت

عن الصادق عليه السلام أنه قال : « كان بعد نوح عليه السلام قد كثرت السحرة والمموهون ^(٢) ، فبعث الله تعالى ملكين إلى نبي ذلك الزمان بذكر ما يسحر به السحرة وذكر ما يبطل به سحرهم ويردّ به كيدهم. فتلقاه النبي عن الملكين وأداه إلى عباد الله بأمر الله عزّ وجلّ ، وأمرهم أن يقفوا به على السحر ، وأن يبطلوه ، ونهاهم أن يسحروا به الناس. وهذا كما يدلّ على السّم ما هو ، وعلى ما يدفع به غائلة السّم ، ثم يقول للمتعلّم : ذلك السّم ، فمن رأيت سَمّ فادفع غائلته بكذا ، وإياك أن تقتل بالسّم أحدا. قال : وذلك النبي أمر الملكين أن يظهر للناس بصورة بشرين ويعلماهم ما علّمهما الله تعالى من ذلك ويعظاهم » ^(٣) .

عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « اتقوا الدنيا ، فوالذي نفسي بيده إنّها لأسحر من هاروت وماروت » ^(٤) .

روي عن أبي محمد عليه السلام أنّ رجلا قال : إنّ قوما عندنا يزعمون أنّ هاروت وماروت ملكان اختارتهما الملائكة ، فلمّا كثرت عصيان بني آدم أنزلهما الله مع ثالث لهما إلى الدنيا ، وأتّهما افتتنا بالزّهرة وأرادا الزّنا بها ، وشربا الخمر ، وقتلا النفس المحرّمة ، وأن الله يعدّ بهما ببابل ، وأنّ السحرة منهما يتعلّمون السحر ، وأنّ الله تعالى مسح تلك المرأة بالكوكب الذي هو الزّهرة.

فقال الإمام عليه السلام : « معاذ الله عن ذلك ، إنّ ملائكة الله معصومون محفوظون عن الكفر والقبائح بالطفاف الله تعالى ، قال الله عزّ وجلّ فيهم : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ^(٦) وقال في الملائكة : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ ﴿إِلَى قَوْلِهِ : ﴿مُشْفِقُونَ﴾ ^(٧) .

(١) تفسير أبي السعود ١ : ١٣٨ ، مجمع البيان ١ : ٣٣٨ .

(٢) في النسخة : والمموهون .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٤٧٣ .

(٤) كنز العمال ٣ : ١٨٢ / ٦٠٦٣ .

(٥) التحريم : ٦٦ / ٦ .

(٦) الأنبياء : ٢١ / ١٩ و ٢٠ .

(٧) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٤٧٥ ، والآيات من سورة الأنبياء : ٢١ / ٢٦ - ٢٨ .

وفي رواية عن الرضا عليه السلام أنه سئل عما يرويه الناس من أمر الزهرة ، وأنها امرأة فتن بها هاروت وماروت ، وما يروونه من أمر سهيل وأنه كان عشارا باليمن ؟ ! فقال عليه السلام : « كذبوا في قولهم إنهما كوكبان ، إنهما كانتا دابتين من دواب البحر ، فغلط الناس وظنوا أنهما الكوكبان ، وما كان الله عز وجل ليمسح أعداءه أنوارا مضئية ثم يبقها ما بقيت السماوات والأرض ، وأن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام حتى ماتت ، وما تناسل منها شيء ، وما على وجه الأرض اليوم مسح ، وإن الذي وقع عليه اسم المسوخية مثل القرد والخنزير والدب وأشباهاها إنما هي مثل ما مسح الله عز وجل على صورها قوما غضب الله عليهم ولعنهم بإنكارهم توحيد الله وتكذيبهم رسله .

وأما هاروت وماروت ، فكانا ملكين علما الناس السحر ليحتزوا به عن سحر السحرة ويطلقوا به كيدهم » (١) الحديث.

ولا يخفى أن الروايات التي تكون موافقة لما اشتهر بين العامة ، لا بد من حملها على التقية لمخالفتها الكتاب والعقل.

وقال بعض العامة : إن مدارها مروتة اليهود (٢) . وأما توجيهها بالذي تكلفه الفيض عليه السلام (٣) وبعض العامة ، ففي غاية البعد (٤) . وحملها على كونها أسرا لا يناسب روايتها كعطاء (٥) وابن الكواء (٦) لبداية عدم كونها من أهل السر والفهم.

والحاصل : أن الروايات الدالة على عصيان الملكين بالشرك والزنا وشرب الخمر وقتل النفس ومسح الزهرة ، مما يجب ردها أو رد علمها إليهم عليه السلام لو لم يمكن حمل جميعها على التقية.

﴿وَمَا يُعْلِمَانِ السَّحَرِ وَإِبْطَالَهُ مِنْ أَحَدٍ﴾ من الناس ﴿حَتَّى يَقُولَا﴾ للمتعلّم : إعلم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وامتحان من الله للعباد ، ليعلم من يطيعه فيما يتعلّم بإعماله في إبطال السحر ممن يعصيه

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٧١ / ٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ١٣٨ ، تفسير روح البيان ١ : ١٩١ .

(٣) قال الفيض عليه السلام : وأما ما كذبوه من أمر هاروت وماروت ومسح زهرة وقصصهم المشتهرة بين الناس فقد ورد عنهم عليه السلام في صحتها أيضا روايات ، والوجه في الجمع والتوفيق أن تحمل روايات الصحة على كونها من مرموزات الأوائل وإشاراتهم وإنهم لما رأوا أن حكاياتهم كانوا يحملونها على ظاهرها كذبوها ولا بأس بإيرادها وحلها فان هاهنا محلها . الصافي ١ : ١٥٦ و ١٦٠ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٩١ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٤٥ / ١٨٠ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ١٤٩ / ١٨١ .

باستعماله في إضرار الناس ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باستعماله للإضرار.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ الناس ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من الملكين ، أو من الصّنفين ؛ من السّحر ما تتلوا الشّياطين وما انزل على الملكين ؛ الأقسام المضرة أظهرها وأشيعها ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ من الحيل والتّمويهات.

﴿و﴾ الحال أنّه ﴿مَا هُمْ﴾ أي السّحرة ﴿بِضَارِّينَ بِهِ﴾ أي بالسّحر ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من العالمين ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتعليمه أو بسبب تخليته بين السّاحر وإرادته الناشئة من خبث ذاته وعمله القبيح ، ولو شاء أن لا يصدر منه لأعجزه عنه وحال بينه وبين قلبه وإرادته.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ هؤلاء اليهود من السّحر ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ حيث إنّ ضرره على أنفسهم من العقوبة الاخرية أشدّ بمراتب من الضرر الذي يصل إلى المسحور ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ ولا يفيد لهم فائدة يعتدّ بها العقلاء.

﴿و﴾ الحال أنّهم ﴿لَقَدْ عَلِمُوا﴾ سبب تلاوتهم التّوراة المكتوب فيها : أنّه والله ﴿لَمَنْ اشْتَرَاهُ﴾ وعامض بكتب السّحر وتعلّمه والعمل به كتاب الله وأحكامه ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ونصيب من رحمة الله ، أو خلاص من عقابه ﴿و﴾ بالله ﴿لَيْسَ مَا شَرَوْا﴾ هؤلاء اليهود من العمل بالسّحر ، واستبدلوا ﴿بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث عرضوها للهلاك الأبد.

وهؤلاء اليهود ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علم اليقين أنّ في هذا الاستبدال خسرانا ووبالا ما فعلوه. ثمّ أرشدهم إلى التجارة المربحة بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بالنّبي وانقادوا له ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله في أعمالهم بالله ﴿لَمْثُوبَةً﴾ وأجر واصل إليهم ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولو كان أقلّ قليل في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ لهم وأنفع من الدنيا وما فيها ، لبقائه وزواله ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ويدركون حقائق الامور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾ ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (١٠٥)﴾

ثم ذكر الله تعالى في عداد قبائح أعمال اليهود إساءتهم الأدب بساحة النبي ﷺ حيث كانوا يخاطبونه بقولهم : راعنا.

قيل : كانت هذه اللفظة في اصطلاحهم بمعنى اسمع غير مسمع ^(١) .

وقيل : كانت مستعملة عندهم في الهزء والسخرية ^(٢) .

روي أنّ سعد بن عبادة سمعها منهم ، فقال : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه. قالوا : أو لستم تقولونها ؟ فنزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ - للنبي ﷺ - ﴿رَاعِنَا﴾ ^(٣) .

قيل : إنّ المؤمنين كانوا إذا سمعوا من النبي ﷺ شيئا من العلم ، قالوا : راعنا يا رسول الله ، أي أنظرنا وتأنّ بنا حتّى نفهم ، فلما سمع اليهود ذلك من المؤمنين اتّخذوه ذريعة لسبّ النبي ﷺ فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة تعريضا على اليهود ^(٤) ، بقوله : ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي انظر إلينا.

ثمّ وعظهم بقوله : ﴿وَاسْمَعُوا﴾ لما يحكم به الله ويأمرهم به الرسول ﷺ سماع طاعة وقبول ، ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا : ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ^(٥) .

ثمّ هدّدهم بقوله : ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يسلكون معه مسلك الإعظام والتحليل ، بل أهانوه بتعريضه للسبّ والاستهزاء كاليهود ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

روي عن ابن عباس : أنّ الله كان يخاطب في التّوراة بقوله : يا أيّها المساكين ^(٦) .

قيل : كرامة هذه الأمة اقتضت مخاطبتهم بأشرف الأوصاف وهو الإيمان ، ولما خاطب بني إسرائيل أولا بقوله : يا أيّها المساكين ؛ أثبت عليهم آخرا المسكنة بقوله : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ ^(٧) ولما خاطب أمة محمد ﷺ أولا بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يرجى أن يختم لهم بالإيمان والأمان من العذاب والهوان ^(٨) .

ثمّ نبّه الله الرسول والمؤمنين بغاية حسد أهل الكتاب والمشرّكين عليهم ، وشدّة عداوتهم لهم بقوله : ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ وما يحبّون،

(١) تفسير الطبري ١ : ٣٧٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣ : ٢٢٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ١ : ١٤١ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ١٩٧ .

(٥) البقرة : ٢ / ٩٣ .

(٦) تفسير الرازي ٣ : ٢٢٣ .

(٧) البقرة : ٢ / ٦١ .

(٨) تفسير الرازي ٣ : ٢٢٣ « نحوه » .

بل ييغضون ﴿أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من الوحي والنبوة والآيات والنصرة على الأعداء.

أما أهل الكتاب فلا دعائهم أنهم أبناء الأنبياء والناشئون في مهابط الوحي ، فهم أولى بتلك الفضائل من المسلمين الذين هم أميون ، وأما المشركون فلغورورهم بالجاه والمال ، وظنهم أن من له الرئاسة الدنيوية أولى بالرئاسة الإلهية. ومن البديهي أن الحسد لا أثر له.

﴿وَاللَّهُ﴾ الذي بيده كل خير ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ وفضله وإحسانه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده على حسب قابليته واستعداده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على نبيه وعلى المؤمنين ، ولا يمنعه حسد الحاسدين.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦)

ثم أنه لما كان من عقائدهم الفاسدة امتناع وقوع النسخ في النبوات والأحكام الإلهية ، وبهذا المبني طعنوا في دين الاسلام وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويقول اليوم قولا وفي الغد يرجع عنه ^(١) ؛ رد الله عليهم بقوله : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ برفع حكمها ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ برفع رسمها واستلاب ذكرها وحفظها عن القلوب ^(٢) ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وأصلح ﴿مِنْهَا أَوْ﴾ نأت بآية ﴿مِثْلَهَا﴾ في الصلاح والنفع والحكمة ؛ لظهور أن الوظائف الشرعية والأحكام الإلهية بالإضافة إلى الأمراض القلبية والروحانية ، كالأدوية بالنسبة إلى الأمراض الجسمانية. فكما أن نفع الأدوية يختلف باختلاف الأزمنة والأوقات ، كذلك الأعمال والوظائف الشرعية ، لبداية اختلاف مصالحها باختلاف القرون والأزمنة وتغيير الجهات.

في بيان جواز النسخ

إن قيل : كيف يصح التسيان في الآيات ومحو رسمها بالكلية مع قوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(٣) ؟

قلنا : صدق القضية الشرطية لا يلزم صدق طرفيها ، وهذا كقولنا إن عدت هذه الشمس يأت الله

(١) تفسير الرازي ٣ : ٢٢٦ .

(٢) في النسخة : واستلاب عن القلوب ذكرها وحفظها .

(٣) الحجر : ٩ / ١٥ .

بشمس اخرى ، مع أنه معارض بقوله : ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(١) .
وروي أنّ قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرأوا سورة فلم يذكروا منها إلا البسملة ، فغعدوا إلى النبي ﷺ وأخبروه ، فقال ﷺ : « تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها »^(٢) .
وأما الآية فيتمكن أن يكون المراد منها أنّ الله حافظ له من تغيير الخلق لا من تغيير نفسه إذا اقتضته الحكمة والمصلحة.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على تصريف المكلف تحت مشيئته وحكمته وحكمه ، لا دافع لما أراد ، ولا مانع لما يختار ، وينزل الخير ، ويختص به من يشاء ، وينسخ الحكم ويبدل الآيات ، ولا يسئل عما يفعل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾

ثم قرّر سعة قدرته وأنه مراعى لصالح المؤمنين وخيرهم ما هو أنفع بحالهم بقوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ بنورانية قلبك وكمال معرفتك ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالملكية الحقيقية الإشرافية ، له التصرف فيهما وفيما خلق بينهما تصرف السلطان المطلق في مملكته ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومن ما سواه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ وقيم بالامور ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومعين فهو يقلبكم بمشيئته ويتصرف فيكم بإرادته ، فلا ناصر لكم غيره ، ولا قادر في الوجود إلا ذاته.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾

ثم إنه قيل : لما اقترح اليهود على النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، كما حكى الله عنهم في سورة النساء بقوله : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾^(٣) الآية ، واقترح عليه المشركون وقالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾

(١) الأعلى : ٨٧ / ٦ و ٧.

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٠١.

(٣) النساء : ٤ / ١٥٣.

يَنْبُوعاً^(١) إلى آخرها ؛ وجه الله الخطاب إلى جميعهم بنحو الإضراب عن ذكر سائر قبائح أعمالهم إلى الإنكار عليهم هذه الاقتراحات بقوله : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ وهل تعزمون أيها اليهود والمشركون ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ وتقترحوا عليه ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى﴾ واقترح عليه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بقولهم ﴿أَرَأَى اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾^(٢) وقولهم : ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٣) فإن هذه الاقتراحات لا تكون إلا من الإصرار على الكفر والإعراض عن الإيمان.

﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ ويختاره لنفسه عوضا عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ووسط الطريق الذي يوصله إلى كل خير في الدنيا وإلى رحمة الله ونعيم الأبد في الآخرة ، وأخذ في الطريق المؤدي إلى نقمة الله والعذاب الدائم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾

ثم إنه روي أنّ فنحاص^(٤) بن عازوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر رضي الله عنهما بعد وقعة أحد : أ لم تروا ما أصابكم ؟ ولو كنتم على الحق ما هزمت ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ، ونحن أهدي منكم سبيلا.

فقال عمّار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا : شديد. قال : فإني عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت. فقالت اليهود : أمّا هذا فقد صبا.

وقال حذيفة : أمّا أنا فقد رضيت بالله ربّا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، وبالإسلام ديننا ، وبالقرآن إماما ، وبالكعبة قبلّة ، وبالمؤمنين اخوانا.

ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه ، فقال : « أصبتما خيرا وأفلحتما »^(٥) . فنزلت : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وتمنّوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ ويصيّرونكم بشبهاتهم وحيلهم وتسويلاهم ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ بالرسول ومعرفتكم الحق ووضوح آياته ﴿كُفَّارًا﴾ بنبوّة محمد ﷺ وكتابه مرتدين عن دين الإسلام

(١) الإسراء : ١٧ / ٩٠.

(٢) النساء : ٤ / ١٥٣.

(٣) الأعراف : ٧ / ١٣٨.

(٤) في النسخة : فيحاص.

(٥) تفسير الرازي ٣ : ٢٣٦ ، تفسير أبي السعود ١ : ١٤٥.

مع علمكم بنهاية شناعة الكفر بعد الإيمان الراسخ.

ومن البديهي أن هذا الودّ والتمني ليس لأجل تديّنهم ومعرفتهم بحقائيق مذهبهم ونصحهم لكم ، بل كان ﴿حَسَدًا﴾ عليكم وتشهيا ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ ومن خبث ذاتهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمُ الْحَقُّ﴾ من نبوة محمد ﷺ وحقائيق دينه وكتابه بدلالة المعجزات الساطعة والآيات الباهرة ، ولما عاينوا من إخبار التوراة بظهوره وأوصافه وعلائمه المنطبقة عليه.

روي أن جماعة استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يقتلوا هؤلاء اليهود الذين كفروا بانفسهم ، ودعوا المسلمين إلى الكفر ^(١) ، فنزل : ﴿فَاعْزُوا﴾ من عقابهم ﴿وَأَصْفَحُوا﴾ عن تزييرهم وعتابهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيهم من القتل والتعذيب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ في كل وقت ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجز عن الانتقام إذا حان حينه وأن أوانه ، فلا تعجل عليهم.

روي عن ابن عباس : أنه منسوخ بآية السيف ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : أنه لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتال حتى نزل جبرئيل عليه السلام بقوله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا﴾ ^(٣) وقلده سيفاً ، فكان أول قتال قتال أصحاب عبد الله بن جحش بطن نخل ، وبعده غزوة بدر ^(٤) .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾

ثم إنه بعد تكليف المؤمنين بالعفو والصفح لصالح حالهم وسلامة أنفسهم من رحمة الكفار ، كلّفهم في حال الفراغ بالعبادات البدنية التي أهمّها الصلاة بقوله : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ، ثم بالعبادات المالية التي أهمّها الزكاة بقوله : ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة ، لصالح حالهم وسلامة أنفسهم من نعمة الله . ثم بسائر العبادات بقوله : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمل صالح من التواقل والزكاة المستحبة وسائر أنواع البرّ ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إما بصورته وحقيقته المثالية ، بناء على تجسّم

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٠٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ١٤٦ .

(٣) الحج : ٢٢ / ٣٩ .

(٤) تفسير الرازي ٣ : ٢٤٥ .

الأعمال كما هو مدلول كثير من الأخبار ^(١) ، أو بثوابه وجزائه.

ثم لزيادة التّغيب على العمل أكّد ذلك بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مّطلع ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، فيجازيكم على القليل كما يجازي على الكثير.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾

ثمّ نقل أنّ وفد نجران لما قدموا المدينة اجتمعوا في مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود ، فكذب بعضهم بعضا ، فقالت اليهود لبني نجران : لن يدخل الجنة إلّا اليهود. وقال بنو نجران [لليهود] : لن يدخلها إلّا النّصارى ^(٢) . فحكى الله عنهم الدّعى بقوله : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وإتيان (كان) مفردا باعتبار لفظ الموصول وخبره وهو هود ، والنّصارى جمعا باعتبار معنى الموصول وهو جمع ، و (أو) التّرديدية بلحاظ اختلاف القائلين ، كما روي في شأن النّزول ^(٣) .

ولما كان دعوى كلّ طائفة مبنية ^(٤) على حقّانية دينهم ، ردّ الله عليهم بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ المقالة التي يدّعونها ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ وأهواؤهم الباطلة ، ومن جملة مشتبهاتهم الزائغة التي لا حجة لهم عليها.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد : ﴿هَاتُوا﴾ وأحضروا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ وحجّتكم على دعواكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدّعون.

في عدم صحّة التمسك بالاستصحاب لإثبات بقاء الشريعة ونبوة النّبيّ السابق إن قيل : برهانكم على اختصاص الجنّة بهم ثبوت حقّانية دينهم ، وعدم ثبوت نسخه. قلت : لا يكفيهم هذا ، بل يجب عليهم إقامة البرهان على بقاء دينهم ، فكما أنّ الشريعة الجديدة محتاجة إلى البرهان القاطع ، كذلك بقاء الشّرع السابق محتاج إلى الحجّة والدليل الساطع ، ولا يكفي استصحاب بقاء نبوة النّبيّ السابق وشريعته ، لأنّ الاستصحاب إن كان حجة في الشّرع السابق فبقاؤه أوّل الكلام ، وإن كانت حجّيته في الشّرع اللاحق ، فالمفروض أنّ التمسك به لا يعترف بالشّرع اللاحق ، مع أنّه على فرض حجّيته في الشّريعتين فإنّما

(١) راجع : بحار الأنوار ٧٤ : ٤٤ / ٤ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٠٦ .

(٣) راجع تفسير الرازي ٤ : ٣ .

(٤) في النسخة : مبنيا .

هو في الفروع والأحكام العملية لا في اصول الدين ؛ لأنه لا بدّ فيها من القطع واليقين ، ولا يفيد الظنّ والتّخمين كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^(١) .

في إبطال القول بامتناع النسخ في الأحكام

فإن قيل : هذا مبنيّ على إمكان النسخ ، واليهود قائلون بامتناعه لأنّه يؤول إلى البداء ، وهو محال على الله .

قلنا : أولاً : ليس في الحقيقة والواقع نسخ في الأحكام والشّرائع بل الشّرع السّابق مقيد بقاؤه بعدم بعث النّبيّ اللاحق المبشّر به ، فإذا بعث انقضت مدّته مع أنّه منقوض بنسخ شرع إبراهيم عليه السلام بشرع موسى عليه السلام ، مضافاً إلى أنّ من البديهي اختلاف مصالح الأحكام باختلاف الأشخاص والقرون والأزمان ، فقد يكون لحكم مصلحة في زمان ، أو لطائفة دون زمان آخر وطائفة أخرى .

نعم ، إذا أخبر النّبيّ ﷺ ببقاء أحكامه واستمرارها إلى يوم القيامة ، كما أخبر نبينا ﷺ بذلك ، كشف عن جامعية أحكامه لمصالح عموم البشر إلى يوم القيامة بخلاف ما إذا لم يخبر بأبدية دينه ، بل كان بيانه مطلقاً ، فإنّه يحتمل وقوع التّغيير والنسخ وإن ظنّ من جهة الإطلاق عموم حكمه للأزمنة المتأخّرة ، وحينئذ فإذا دلّ دليل معتبر على النسخ كشف عن خطأ العرف في فهم الاستمرار ، ودلّ على كونه مغيّياً .

وأما ما نقله اليهود من قول موسى عليه السلام : تَمَسَّكُوا بِالسَّبْتِ أبداً فغير ثابت ، مع أنّه يمكن أن يراد منه دوامه ما دام بقاء شريعته ، فيرجع إلى الإخبار بأنّ السبّات لا يتغيّر ولا ينسخ ما دام بقاء دينه ، مع أنّه معارض بإخباره في عدّة مواضع من التّوراة بمجيئ نبيّ آخر بعده .

فقول اليهود بأنّ الحقّ منحصر في اليهوديّة ، وقول النصارى بمثل ذلك ، ودعوى كلّ طائفة منهم أنّه لا يدخل الجنّة غيرهم ، بقول بلا برهان ، بل البرهان على خلافه ، حيث قال الله تعالى : ﴿بَلَى﴾ يدخل الجنّة غيرهم بل هم لا يفوزون بها .

ثمّ كأنّ قائلًا يقول : فمن يدخل الجنّة ؟ فقال : ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وبذل نفسه ﴿لِلَّهِ﴾ بالانقياد والخضوع والتذللّ في طاعته ، والتجنّب عن اللّجاج والعناد والمعاصي خالصاً لله بلا شوب شرك وهوى ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لا يكون خضوعه بالأعمال القبيحة ، كما نقل عن بعض المرتاضين في الهند

(١) يونس : ١٠ / ٣٦ .

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ وثوابه العظيم الذي أدناه الدّخول في الجنّة حال كونه ثابتا ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ اللّطيف به ، المالك لأمره.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من انقطاع الثّواب وزوال النّعم ومّا يشاهدون من عقاب الكفّار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت عند الموت ، حيث يبشّرونهم ربّهم برحمة منه ورضوان وهم يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(١) وهذه نهاية السّعادة وغاية الاسترباح والاستفادة. وإفراد الضّمير أوّلا باعتبار لفظ الموصول وجمعه^(٢) آخرًا باعتبار المعنى.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾

ثمّ أنّه حكى الله تعالى دعوى اليهود والنّصارى صحّة دينهم ، وكونهم على الحقّ ، واختصاص الجنّة بهم ، وتوافقهم على أنّ المسلمين على الباطل حكى الله تعالى اختلافهم فيما بينهم ، وأنّ كلّ واحد من الفريقين ينسب الآخر إلى الكفر والضّلال من غير تأمّل في كتاب الله الذي بينهم حتّى يرشداهم إلى الحقّ بقوله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ من دين الحقّ ، بل ما اعتقدوه باطل وكفر. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من دين الحقّ ، بل هم على كفر وضلال ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الذي أنزله الله لرفع الاختلاف من التّوراة والإنجيل ، ولا يتأمّلون فيهما حقّ التأمل حتّى يعرفوا الحقّ ويعلموا دين الله بدلالته ، بل ما يقولونه ليس إلا عن تقليد وعصبيّة.

﴿كَذَلِكَ﴾ القول الباطل ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدّين والكتاب من المشركين ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ إذ هم أيضا يكفّر بعضهم بعضا ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الذي هو يوم فصل القضاء ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدّنيا بأنّ يدخل جميعهم في النّار ويريههم أنّ الحقّ مع غيرهم ، ويبين لهم

(١) فاطر : ٣٥ / ٣٤.

(٢) في النسخة : وجميعته.

ضلالهم وفسقهم.

في تحاكم اليهود والنصارى إلى النبي ﷺ

عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام : « إنما نزلت لأنّ قوما من اليهود وقوما من النصارى جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، اقض بيننا . فقال ﷺ : قصوا عليّ قصّتكم . فقالت اليهود : نحن المؤمنون بالله الواحد الحكيم ، وأولياؤه ، وليست النصارى على شيء من الدين والحق . وقالت النصارى : بل نحن المؤمنون بالله الواحد الحكيم ، وأولياؤه ، وليست هؤلاء اليهود على شيء من الحق والدين .

فقال رسول الله ﷺ : كلكم مخطئون ، مبطلون ، فاسقون عن دين الله وأمره ، فقالت اليهود : وكيف نكون كافرين وفيينا كتاب الله التوراة نقرأه ؟ وقالت النصارى : كيف نكون كافرين وفيينا كتاب الله الإنجيل نقرأه ؟ فقال رسول الله : إنكم خالفتم أيّها اليهود والنصارى كتاب الله فلم تعملوا به ، فلو كنتم عاملين بالكتابين لما كفر بعضكم بعضا بغير حجة ؛ لأنّ كتب الله أنزلها شفاء من العمى ، وبياناً من الضلالة ، يهدي العاملين بها إلى صراط مستقيم ، وكتاب الله إذا لم تعملوا به كان وبالا عليكم ، وحجة الله إذا لم تنقادوا لها كنتم لله عاصين ولسخطه متعرضين .

ثم أقبل رسول الله ﷺ على اليهود ، فقال : احذروا أن ينالكم لخلاف أمر الله وخلاف كتابه ما أصاب أوائلكم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الخبر (١) .

والظاهر أنّهم لما تنازعوا واكتفوا بالدعوى بغير إقامة حجة وبرهان ، أجابهم ﷺ بأنّ كتاب الله انزل لرفع الاختلاف ، فلو تأملتُم فيه حق التأمل ، وتركتُم العصبية والتقليد ، وأعطيتُم النظر فيه حقّه ، لارتفع الخلاف من بينكم وهديتُم جميعاً إلى الحق .

ونقل أنّ وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتّى ارتفعت أصواتهم ، فقالت اليهود : ما أنتم على شيء من الدين ، وكفروا بعميسى عليه السلام والإنجيل . وقالت النصارى لهم نخوه ، وكفروا بموسى عليه السلام والتوراة (٢) .

ثم أنّه تعالى لما حكى عن اليهود والنصارى والمشرّكين دعوى كلّ واحد أنّه على الحق وأنهم

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٥٤٤ / ٣٢٥ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٥٩ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٧ .

أولياء الله وأحبّاه ، ردّهم بأنّهم أظلم النّاس ، بقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وهي مساجد خيار المؤمنين ، أو بلدة مكّة ، أو المسجد الحرام ، أو جميع وجه الأرض لقول النّبي ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجدا » (١) .

﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بالمنع من عبادة الله فيها ، حيث إنّ تعمير المساجد بكثرة العبادة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المانعون عن ذكر الله السّاعون في تخريب بيوت الله ﴿مَا كَانَ﴾ يحقّ ﴿لَهُمْ﴾ بعدل الله وحكمته ﴿أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ إنّ كان المراد بلدة مكّة والمسجد الحرام ، أو يسكنوها ان كان المراد جميع وجه الأرض ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ من سيوف المؤمنين وسياطهم ، فهو وعد للمؤمنين بالنّصرة واستخلاص المساجد من سلطة الكفّار.

وقيل : إنّ المراد ما كان لهم أن يدخلوها إلّا بخشية وخضوع ، فضلا عن الاجترار على تخريبها . (٢)

ومع ذلك ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ فضيع بطردهم عن الحرم ، ومنعهم أن يعودوا إليه ، أو بضرب الجزية في حقّ أهل الدّمة منهم ، وبالقتل في حقّ أهل الحرب ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النّار بما ارتكبوا من الظلم العظيم ، وهو أشدّ من خزي الدنيا ومن كلّ عذاب . روي أن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة.

عن عليّ بن الحسين عليه السلام : « ولقد كان من المنافقين والضعفاء وأشبه المنافقين قصدوا إلى تخريب المساجد بالمدينة وتخريب مساجد الدنيا كلّها بما همّوا [به] من قتل عليّ عليه السلام بالمدينة وقتل رسول الله ﷺ في طريقهم إلى العقبة » يعني [في] غزوة تبوك.

وقيل : إنّ سبب نزول الآية أنّ طيطوس (٣) الرّوميّ ملك النّصارى وأصحابه غزوا بني إسرائيل ، فقتلوا مقاتلتهم ، وسبوا ذراريهم ، وأحرقوا التّوراة ، وأخربوا بيت المقدس ، وقذفوا فيه الجيف ، وذبحوا فيه الخنازير ، ولم يزل خرابا حتّى بناه أهل الإسلام في أيّام عمر بن الخطّاب (٤) .

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥)

ثمّ أنّه تعالى لما ذكر المساجد وتخريبها ، أشار إلى أنّه لا ينبغي أن يصير تخريب المساجد أو

المنع

(١) مجمع البيان ١ : ٣٦١ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ١٤٩ ، تفسير روح البيان ١ : ٢٠٩ .

(٣) في تفسير أبي السعود : طيطيوس .

(٤) تفسير أبي السعود ١ : ١٤٩ .

من دخول الحرم أو المسجد الحرام صارفاً للمؤمن عن الصلّاة والاشتغال بذكر الله بقوله : ﴿وَلِلَّهِ﴾ بالملكيّة الإيحادية ﴿الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وجميع الجهات ، لا تختصّ به جهة ومكان ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ في أيّ مكان ، وتوجّهوا بقلوبكم ، وتستقبلوا بوجوهكم إلى الله بالدعاء والصلّاة التّوافل ﴿فَنَمَّ وَجْهُهُ﴾ ذاتة المقدّسة ، إذ لا يخلو منه مكان. أو المراد : فثمّ مرضاته ، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ ذاتا وقدره وفضلا ورحمة على عباده ، يبيّن لهم ما فيه صلاحهم كي يصلوا إلى رضوانه ﴿عَلَيْمٌ﴾ بحقائق الامور وما يصدر عن العباد من القيام بوظائف العبوديّة والتّفريط فيها.

في بيان معنى وجه الله

عن (التوحيد) عن سلمان الفارسيّ ، في حديث الجاثليق الذي سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل فأجابها عنها ، أنّ فيما سأله أن قال : أخبرني عن وجه الرّبّ تبارك وتعالى ؟ فدعا عليّ عليه السلام بنار وحطب فأضرمه ، فلمّا اشتعلت ، قال [عليّ عليه السلام] : « أين وجه هذه النّار » ؟ قال النّصراي : هي وجه من جميع حدودها.

قال عليّ عليه السلام : « هذه النّار مدبّرة مصنوعة لا يعرف وجهها ، وخالقها لا يشبهها ﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُهُ اللَّهُ لا يخفى على ربّنا خافية » (١) .
عن القمي عليه السلام : أنّها نزلت في صلاة النافلة ، تصلّيها حيث توجّهت إذا كنت في السّفر ، وأمّا الفرائض فقلوه تعالى : ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٢) يعني الفرائض لا تصلّيها إلّا إلى القبلة (٣) .

عن (الفقيه) عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الرجل يقوم في الصلّاة ثمّ ينظر بعد ما فرغ ، فيرى أنّه قد انحرف عن القبلة يمينا أو شمالا ؟ فقال : « قد مضت صلاته ، وما بين المشرق والمغرب قبلة ، ونزلت هذه الآية في قبلة المتحرّير ﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ الخبر (٤) .

في وجه رفع اليد والنظر إلى السّماء عند الدعاء
قيل : لما نزل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٥) قالوا : أين ندعوه ؟ فأنزل الله : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ الآية (٦) .

إن قيل : فما معنى رفع اليد والنظر إلى السّماء عند الدعاء مع أنّ الله منزّه عن الجهة ؟

(١) التوحيد : ١٨٢ / ١٦ .

(٢) البقرة : ٢ / ١٤٤ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٥٩ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ١ : ١٧٩ / ٨٤٦ .

(٥) غافر : ٤٠ / ٦٠ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٢١١ .

قلنا : ليس رفع اليد لأنَّ الله في جهة العلوّ ، بل لأنَّ في السَّماء خزائن رحمته ، والعرش مظهر استواء صفة رحمانيّته.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ

قَانِتُونَ (١١٦)﴾

ثمَّ أنّه بعد ما حكى الله تعالى تنازع كلّ فريق من اليهود والنصارى ومشركي العرب في الحقّ والدّين ووعد الحكومة بينهم في القيامة ، حكم على بطلان دعوى جميعهم في الدنيا لقول كلّ طائفة ، بما يحكم على خلافه بديهية العقل بقوله : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ إذ قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت مشركو العرب : الملائكة بنات الله.

ثمَّ ردّ عليهم بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ إنّ منزه عن التجسّم والماهيّة والسّنخيّة ^(١) مع خلقه ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلّ ملكه وتحت قدرته.

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون مقرّون بعبوديّته طبعاً وجبلةً ، لا يجانسونه ولا يسانخونه. والحال أنّه لا بدّ من السّنخيّة بين الوالد والولد ، ولما كان القنوت في أصل اللّغة بمعنى الدّوام ، كان فيه إشعار بأنّ جميع ما في السماوات والأرض بقاؤه به سبحانه لا تنقطع حاجته عنه ، والتعبير بلفظ ﴿ما في السماوات﴾ مع أنّ كثيراً منها عقلاء للتحقير بشأنها.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾

ثمَّ أنّه بعد بيان أنّ كلّ ما في السماوات والأرض ملكه ومخلوقه ، بيّن أنّه أيضاً ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومنشئهما من غير مثال.

عن الباقر عليه السلام في تفسير البديع : « ابتدع الأشياء كلّها بعلمه على غير مثال كان قبله ، فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون. أما تسمع لقوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ الخبر ^(٢) .

ثمَّ بيّن كيفية الإبداع بقوله : ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ وأراد شيء ، كائناً ما كان ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ

كُنْ﴾ لا

(١) السنخ : الأصل من كلّ شيء.

(٢) الكافي ١ : ٢٠٠ / ٢ ، والآية من سورة هود : ١١ / ٧.

بصوت يقرع ، ولا بنداء يسمع ، بل بصرف إرادته ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجد بمجرد نفاذ قدرته ، ولا يحتاج في خلقه إلى فكر ، واستعانة بشيء ، وتحقق مادة ، ومضي مدة ، فتم البرهان القاطع على امتناع أن يكون شيء مما سواه ولدا له ، حيث إن لازم الولادة هو الحدوث والمسبوقية بالعدم ، وكل مسبق بالعدم مخلوق بإفاضة الوجود عليه من الواجب ، والمخلوق لا يعقل أن يكون ولدا لخالقه ، والوالد لا يمكن أن يكون موجدا ومالكا. ولذا احتج في مواضع من الكتاب العزيز على القائلين بأن الله ولدا بأن من في السماوات والأرض عبيد له ، وأنه إذا قضى أمرا يقول له : كن فيكون.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾

ثم إنه تعالى لما بين شركهم واتخاذهم الولد لله ، عقبة بذكر شبهاتهم السخيفة في النبوة ، وإنكارهم لها عن تعنت وعناد بقوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من جهلة قريش والمشركين وسفهاء أهل الكتاب ﴿لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ كما تدعي أنه كلم موسى في الطور وكلمك في معراجك ﴿أَوْ تَأْتِينَا﴾ من السماء. ﴿آيَةٌ﴾ من كتاب وصحيفة ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾^(١) وقال : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢) .

وتقرير الشبهة أن الله حكيم ، والحكيم إذا أراد الوصول إلى غرض لا بد أن يختار أقرب طرق الوصول إليه ، فإذا أراد الله تعالى هدايتنا ، فأقرب الطرق إليها أن يكلمنا بنفسه مشافهة ، كما كلم الملائكة والأنبياء فإنه أقرب إلى التصديق وأبعد من الشكوك والشبهات ، أو ينزل عليها كتابا يصرح فيه بنبوتك ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ القول السخيف ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ كابروا أنبياءهم ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ من التعنتات والاقتراحات ، بل فاقوا عليهم بقولهم : ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَاءَكُمْ مِنْهُ آيَةٌ﴾ وقالوا لعيسى : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٣) فهؤلاء والسابقون عليهم من المصرين على الكفر ﴿تَشَابَهَتْ﴾ وتماثلت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ في العمى والعناد وعدم التفقه ، لأن المكذابين للرسول طينتهم واحدة وأقوالهم وأفعالهم متماثلة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ الباهرات ، وأوضحنا صدقك بهذا القرآن الذي هو من أعظم المعجزات،

(١) المدثر : ٧٤ / ٥٢ .

(٢) النساء : ٤ / ١٥٣ .

(٣) النساء : ٤ / ١٥٣ .

(٤) المائدة : ٥ / ١١٢ .

ومجيء الشجر بأمرك ، وتسبيح الحصاة في كفك ، وتكلم الذئب معك ، وإشباع الخلق الكثير بالطعام القليل ﴿لَقَوْمٌ يُوفُّونَ﴾ بالحقائق.

فحاصل الجواب : أننا قد أيدنا محمداً ﷺ بالآيات الباهرات والمعجزات الظاهرات ، فإن كنتم طالبين لليقين فقد جاءكم بأزيد مما تحتاجون إليه من الدلالات والبراهين ، وإن كنتم تعتنون فلا يحسن إجابتكم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩)

ثم لما كثر إصرارهم على الكفر والعناد ، وأغتم قلب النبي ﷺ لذلك ، سأل سبحانه وتعالى قلب حبيبه حباً له ، ورحمة عليه ، بقوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إليهم إرسالاً مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أو مصاحباً للكتاب المشتمل على حقائق المعارف ودقائق العلوم ، لتكون أو حال كونك ﴿بَشِيرًا﴾ بالثواب لمن أطاعك ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب لمن كفر وعصى ، فليس عليك إتعاب نفسك في ازدياد الدعوة والمبالغة في التبليغ ، فإنه لا مزيد على ما فعلت ، فلا يكثر همك من إصرارهم على الكفر ، ومكابرتهم للحق ، لأنه ليس عليك تبعة سيئاتهم.

﴿وَلَا تُسْئَلُ﴾ يوم القيامة ﴿عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ولا تؤاخذ بعصيانهم وكفرهم ، فإن ضررهما راجع إلى أنفسهم لا إليك.

عن الباقر عليه السلام : « أنه على النبي » (١) .

أقول : قرأ به نافع أيضاً (٢) ، وعلى هذا يكون نهي النبي ﷺ عن السؤال لأجل الإشعار بأن شدة عذابهم وسوء حالهم مما لا يسعه البيان.

في تغليط مآروته العامة في كفر والدي النبي ﷺ والاستدلال على براءة آبائه وامهاته من

الشرك

ثم اعلم أن من أغلاط كثير من العامة أن النهي كان عن سؤال النبي ﷺ عن حال أبويه حيث رووا أن النبي ﷺ قال : « ليت شعري ما فعل أبوي » فنزلت (٣) .

أقول : ليت شعري ، كيف يمكن خفاء كذب هذه الرواية على من له أدنى مرتبة [من] الشعور والدراية ، لبدهة أن النبي ﷺ كان أعلم الخلق بأن الكفار معذبون بالنار ، وكان أعرف الناس بعقائد أبوية ، فمع اطلاعه بكفرهما - تعالياً عن ذلك - كيف يجوز

(١ و ٢) . مجمع البيان ١ : ٣٧١ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ٣٠ ، تفسير روح البيان ١ : ٢١٦ .

عليه إظهار الشك والترديد في حالهما في الآخرة بقوله : « ليت شعري ما فعل أبوي ؟ » مع أنّ الأنبياء خصوصاً خاتمهم لا بدّ من كونهم منزّهين من كلّ شين ، وأيّ شين أعظم من كفر الأبوين ! مع أنّ الله تعالى أمر خليله إبراهيم عليه السلام بتطهير بيته الخاصّ بعبادته من لوث المشركين وأرجاس الأوثان للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وكيف يمكن أن لا يطهر بيتا خصّه بأنوار أنبيائه ونطف أصفياه من أصلاب الآباء وأرحام الامهات من دنس الشرك ورجس الوثنيّة لهم عليه السلام مع كونهم أفضل الراكعين والساجدين ^(١) والعاكفين !

فآية ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ ^(٢) دالّة بالفحوى على طهارة آباء الأنبياء وأمّهاتهم من الشرك ، ونزاهتهم من الكفر ، هذا مضافاً إلى دلالة أخبار كثيرة على أنّهم عليه السلام لم يتولّدوا إلّا من الأصلاب الشامخة الطاهرة ، والأرحام المقدّسة المطهّرة ، لم تنجسهم الجاهليّة بأنجاسها ^(٣) .

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعَتِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾

ثمّ أنّه لما أراد الله راحة قلب حبيبه عن كثرة التدبير لهداية اليهود والسّعي في دعوتهم إلى الحقّ ، ولم يمكن أن يحصل له الانصراف ما دام له رجاء فيهم ، بالغ سبحانه في إقناط رسوله عن إيمانهم وقطع رجائه في اتّباعهم لدين الحقّ ، بقوله : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ بشيء من

(١) في النسخة : الركعين والساجدين.

(٢) الحج : ٢٢ / ٢٦ .

(٣) ونضيف هنا ما أورده الشيخ ابن شهر آشوب في (متشابه القرآن ٢ : ٦٤) حول هذه المسألة حيث قال في تفسير قوله تعالى : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ* وَتَقَبَّلُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء : ٢٦ / ٢١٨ و ٢١٩] التعليق والواحد ي ابن بطة في كتبهم عن عطاء وعكرمة ، عن ابن عباس : يعنى نذيرك من أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتّى أخرجك في هذه الامة ، وما زال يتقلب في أصلاب الأنبياء والصالحين حتّى ولدته امه ، وقد جاء في الخبر : فما زال يتقلبه من الآباء الأخايير والامهات الطواهر ، وقد من الله عليه بالآباء الطاهرة الساجدة ، ولو عني شيئاً من الأصنام لما منّ عليه ، لأنّ المنّ بالكفر قبيح .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة : ٩ / ٨٤] يدل على أن آمنة بنت وهب كانت مؤمنة ، لأنّه روى مسلم في صحيحه في حديث بريدة : أن النبي صلى الله عليه وآله أتى إلى رسم قبر وجلس ، وجلس الناس معه حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ، ثم بكى فقليل : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : هذا قبر آمنة بنت وهب ، وقد استأذنت ربي في زيارة قبر امي فأذن فزوروا القبور تذكركم الموت .

المدارة معهم والإحسان إليهم ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ اليهودية وتوافقهم في العقائد الفاسدة ، ومع ذلك كيف تتوقع أن يتبعوا ملتك الحق ؟

فإن سألوا منك الدخول في دينهم ﴿قُلْ﴾ ردّا عليهم : ليست اليهودية دين الله وهداه ، بل ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ ودينه الذي رضي به وهو الإسلام ﴿هُوَ﴾ حقيق بأن يقال له : ﴿الْهُدَى﴾ وطريق مؤدّ إلى رضوان الله ورحمته ، وأمّا اليهودية فإنّ أتباعها أتباع الهوى وعين الضلال ، والله منها بريء . ثمّ هدّد الله على اتّباعها بقوله : ﴿وَلَنْ اتَّبِعَتْ﴾ وأنت أحبّ الخلق إليّ ، وأشرف الممكنات لديّ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ النفسانية وعقائدهم الناشئة عن القوى الشهوانية التي سمّوها دين اليهودية ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بدين الحقّ على الفرض المحال ، يعاقبك الله عليه ، و﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ وبأسه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ وصديق يشفع لك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومعين يدفع العقاب عنك . وفيه نهاية التهديد على اتّباع الهوى بعد وضوح الهدى وقيام الحجّة ، كما أنّ في قوله ﷺ : « لئن عصيت لهويت » (١) . غاية الوعيد للعصاة .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾
﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

ثمّ إنّّه لما كان محال أن يقال : إنّ ملّة اليهودية هي الهدى لأنّها ممّا جاء به موسى عليه السلام ، ودلّت عليه التّوراة ، فاليهود آخذون ملتهم من نبيّ الله وكتابه ، فلا بدّ أن يكون هدى الله ، دفع الله هذا التّوهم بقوله : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ المعهود الذي نزل على موسى ، وهم ﴿يَتْلُونَهُ﴾ متدبّراً فيه ويقرأونه متفكّراً في معانيه وحقائقه ، وذلك يكون ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ علموا بدلالته أنّ دين موسى وكتابه منسوخان ، وعرفوا أنّ محمداً ﷺ نبيّ ، وكتابه حقّ ، فالإيمان بالتّوراة ملازم للإيمان بمحمّد ﷺ .

فالذين يؤمنون من أهل الكتاب بمحمّد ﷺ ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين يصدّقون بكتاب التّوراة و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ويختصّون من بين اليهود باتّباعه ، كبعد الله بن سلام وأضرابه . وأمّا من كفر بمحمّد ﷺ وبكتابه مع دلالة التّوراة على صدقهما ، فهو كافر بكتاب التّوراة ، ومكذّب له ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ ولا يتّبع ما فيه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في صفقتهم ، المغبونون في تجارتهم ،

(١) الارشاد / للشيخ المفيد ١ : ١٨٢ ، بحار الأنوار ٢٢ : ٤٦٧ .

إذ لا دين لهم ولا إيمان ، لا بموسى ولا بمحمد ﷺ ، وهذا جار في هذه الأمة الذين أوتوا القرآن ، حيث إن المؤمنين به هم الذين يتلونهم حق تلاوته ، ويتدبرون فيه ، ويتبعون أحكامه.

عن (المجمع) و(العياشي) عن الصادق عليه السلام : « يتلونهم حق تلاوته بالوقوف عند ذكر الجنة والنار ^(١) ؛ يسأل في الأولى ، ويستعيد من الاخرى » ^(٢) .

وعن (الكافي) و(العياشي) : « هم الأئمة عليهم السلام » ^(٣) .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾

ثم أنه تعالى لما بدأ عند محاجة اليهود بتذكيرهم نعمته التي أنعم بها عليهم إجمالاً ، ختم محاجتهم به لتأكيد الحجّة ، وإبلاغ النصّح ، والدعوة إلى اتباع الحق ، والتسليم لدينه وأحكامه ، وتصديق نبيه ﷺ وكتابه المجيد بقوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

ثم أرفده بالتهديد بما هدّدهم به أولاً من قوله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وقد مرّ تفسيرهما ^(٤) .

قيل : نكتة تقدم عدم قبول الفدية في الذكر هنا على عدم قبول الشفاعة وتأخيره عليه في الآية السابقة ، هي الإشارة إلى اختلاف الناس في حب المال وعلو النفس ، فمن كان حبه للمال أكثر ، يقدم الاستشفاع على بذل المال ، ومن كان بالعكس كان عمله بالعكس.

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾

ثم لما كان مشركو قريش ويهود المدينة من ولد إبراهيم عليه السلام وكان هو عليه السلام عظيماً عندهم ،

بل عند

(١) تفسير العياشي ١ : ١٥٢ / ١٨٩ .

(٢) مجمع البيان ١ : ٣٧٥ .

(٣) الكافي ١ : ١٦٨ / ٤ ، تفسير العياشي ١ : ١٥٢ / ١٨٨ .

(٤) تقدم في تفسير الآية (٤٨) .

جميع الامم أشار سبحانه وتعالى إلى أنه ﷺ لم ينل هذه الكرامة إلا بالتوحيد والطاعة ، وأنه مع علوّ مقامه سأل الله تعالى كرامته لذريّته ، فما اجيب في حقّ الظالمين والعاصين منهم لعدم قابليّة الظالم والعاصي نيلها ، بقوله : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ وامتحن ﴿إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ برأفة ربوبيّته له ، وكمال عنايته به ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾

في ابتلاء إبراهيم ﷺ بكلمات ، والمراد منها

قليل : المراد بها التكاليف الشاقّة ، والمصائب العظيمة ، كإلقائه في النار ، والختان وهو ابن مائة وعشرين سنة ، والهجرة من الوطن المألوف ، وبناء البيت ، وذبح الولد ^(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الإسلام ^(٢) ؛ عشر منها في سورة براءة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾ ^(٣) إلى آخره ، وعشر في الأحزاب : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ ^(٤) إلى آخره ، وعشر في سورة المؤمنون : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ^(٥) .

وما عن القمي رحمه الله : - هو ما ابتلاه به ممّا أراه في نومه من ذبح ولده فأتمّها إبراهيم ﷺ وعزم عليها وسلّم ^(٦) - فمحمول على بيان أحد أفراد الكلمات.

وعن (الخصال) عن الصادق ﷺ : « هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه ، وهو أنّه قال : يا ربّ أسألك بمحمّد ^(٧) وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ ، فتاب [الله عليه] أنّه هو التّوّاب الرحيم » ^(٨) الخبر .

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إبراهيم ﷺ وامتثلهنّ وقام بهنّ حقّ القيام.

عن الصادق ﷺ قال : « يعني أتمهنّ إلى القائم ﷺ اثني عشر إماما ، تسعة من ولد الحسين » ^(٩) .

وعن (العياشي) قال : « أتمهنّ بمحمّد ﷺ وعليّ والأئمّة من ولد عليّ صلوات الله عليهم » ^(١٠) .

أقول : الظاهر أنّ المراد من ابتلاء إبراهيم ﷺ بالأسماء المباركات تكليفه بمعرفة ذواتهم المقدّسة والتّصديق بفضلهم عليه وعلى سائر الخلق ، فلمّا امتثله وكمّلت معرفته بهم إلى قائمهم ، صار قلبه

(١) تفسير الرازي ٤ : ٣٧ و ٣٨ « نحوه » .

(٢) في مجمع البيان : من شرائع الإسلام.

(٣) التوبة : ٩ / ١١٢ . (٤) الأحزاب : ٣٣ / ٣٥ .

(٥) مجمع البيان ١ : ٣٧٨ ، والآيات من سورة المؤمنون : ٢٣ / ١ - ١٠ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٥٩ . (٧) في المصدر : بحق محمّد.

(٨) الخصال : ٣٠٥ / ٨٤ ، معاني الأخبار : ١٢٦ / ١ .

(٩) الخصال : ٣٠٥ / ٨٤ ، معاني الأخبار : ١٢٦ / ١ .

(١٠) تفسير العياشي ١ : ١٥٣ / ١٩٣ .

مخزن معرفة الله ووعاء علمه ، فاستغرق في بحار أنوار رحمته ، فعند ذلك أكرمه الله بغاية الكرامة ، وشرفه بمنصب الإمامة ، و﴿قَالَ﴾ له ثوبا على القيام بالطاعة والصبر عليها : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وناصبك ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة إلى قيام الساعة ﴿إِمَامًا﴾ ومقتدى يأتون بك ، ويهتدون بهداك ، فلذلك اجتمع أهل الأديان كلهم على تعظيمه وأمر النبي ﷺ باتّباع ملته كما قال الله : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(١) .

عن الصادق عليه السلام قال : « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ إِمَامًا ، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الْأَشْيَاءُ قَالَ : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فَمِنْ عَظَمَتِهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^(٢) .

وفي رواية عن الرضا عليه السلام : « فَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُرُورًا بِمَا ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^(٣) . ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَا يَبَالُ﴾ وَلَا يَصِلُ ﴿عَهْدِي﴾ وَالْإِمَامَةُ الَّتِي أَمْرُهَا بِيَدِي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ ، وَالْعَصَاةُ مِنْ نَسْلِكَ ، فَإِنَّ الْإِمَامَ مَانِعٌ عَنِ الظُّلْمِ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ظَالِمًا . قَالَ الرضا عليه السلام : « فَأَبْطَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِمَامَةَ كُلِّ ظَالِمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَصَارَتْ فِي الصَّفْوَةِ »^(٤) .

وفي رواية : « مِنْ عَبْدِ صَنَمًا أَوْ وَثَنًا لَا يَكُونُ إِمَامًا »^(٥) .
وفي أخرى ، قال عليه السلام : « لَا يَكُونُ السَّفِيهَ إِمَامًا تَقِيًّا »^(٦) .
وفي هذه الروايات من التعريض ما لا يخفى .
وفي رواية القمي رحمه الله : « ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْحَنَيفِيَّةَ ، وَهِيَ الطَّهَّارَةُ ، وَهِيَ عَشْرَةُ أَشْيَاءَ ؛ خَمْسَةٌ فِي الرَّأْسِ ، وَخَمْسَةٌ فِي الْبَدَنِ ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الرَّأْسِ : فَأَحْذُ الشَّارِبِ ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيِ ، وَطَمُّ الشَّعْرِ ، وَالسَّوَاكِ ، وَالْحَلَالِ .
وَأَمَّا الَّتِي فِي الْبَدَنِ : فَحَلْقُ الشَّعْرِ مِنَ الْبَدَنِ ، وَالْحَتَّانِ ، وَقَلَمُ الْأَظْفَارِ ، وَالغَسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ ، وَالطَّهُّورِ

(١) النحل : ١٦ / ١٢٣ .

(٢) الكافي ١ : ١٣٣ / ٢ ، الاختصاص : ٢٢ .

(٣) الكافي ١ : ١٥٤ / ١ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢١٧ / ١ .

(٤) الكافي ١ : ١٥٤ / ١ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢١٧ / ١ .

(٥) الكافي ١ : ١٣٣ / ١ ، الاختصاص : ٢٣ .

(٦) الكافي ١ : ١٣٣ / ٢ ، الاختصاص : ٢٢ .

بالماء. فهذه الحنيفيّة الطاهرة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة» (١).
 في أن الإمامة لا بد أن تكون بنصّه تعالى وليس للخلق فيها نصيب
 ثم لا يذهب عليك أنّ هذه الآية أقوى الأدلّة على أن الإمامة وهي الولاية العامّة والمطاعيّة
 المطلقة لا بدّ أن تكون بجعل الله ونصبه ، ليس للناس نصيب للتّصريح فيها ، على أنّها عهد الله ،
 فلا يعقل أن يكون جاعله غيره ، ولدلالتها على أنّها مرتبة شامخة فلا يليق أن يكون جاعلها غير الله
 ، مع أنّه لو أمكن جعلها من قبل الناس لما سأل إبراهيم عليه السلام ربّه أن يجعلها لذريّته ، لإمكان أن
 يوصي لامته أن يجعلوها فيهم.

في الاستدلال على وجوب عصمة الأئمة عن العصية والخطأ والسهو والنسيان ، وكونه عالماً
 بالأحكام ومصالح الناس

ثم اعلم أنّ في الآية دلالة واضحة على لزوم كون الإمام معصوماً من المعاصي والزّلل لوجهين:
 الأول : أنّ معنى لفظ الإمام هو من يجب الائتمام به في جميع أقواله وأفعاله ، وأتباعه في جميع
 أوامره وحركاته وسكناته ، ومن البديهيّ أنّ من يمكن صدور المعصية منه لا يمكن وجوب اتّباعه على
 الإطلاق ، للزوم إمكان اجتماع الأمر والنهي ، وهو بديهيّ البطلان كوقوعه.
 والثاني : قوله : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ حيث إنّ الظالم صادق على من تلبّس بمعصيته
 ولو كانت صغيرة ، فصدق عنوان الظالم والعاصي على أحد في زمان ملازم لحرماته عن نيل هذا
 المقام الشامخ أبداً.

ثم اعلم أنّها كما تدلّ على لزوم كونه معصوماً عن المعاصي ، تدلّ على لزوم كونه معصوماً
 عن الخطأ والسهو والنسيان لعدم إمكان وجوب اتّباع من أمكن في حقّه ذلك على الإطلاق لما ذكر.
 ثم لا بدّ أن يكون الإمام عالماً بجميع الأحكام حتّى لا يأمر بخلاف ما أمر الله ولا يحكم بغير
 حكمه ، بل لا بدّ أن يكون عالماً بجميع مصالح الخلق ومفاسدهم ، حتّى لا يأمر أحداً بما فيه فساد
 ، ولا ينهيه عمّا فيه صلاحه ، وأن يكون أعلم الناس ، وإلا لا يكون إماماً لجميعهم ، بل يكون
 مأموماً لمن يكون هو أعلم منه.

إذا تمّ هذا فاعلم أنّه لم تكن هذه الصّفات بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا في عليّ عليه السلام وأحد عشر
 من ولده ، ولم يدّعها أحد لغيرهم ، بل ثبت بالضرورة واتّفاق الأئمة أنّ غيرهم كانوا فاقدين لها ،
 فوجب أن تكون

(١) تفسير القمي ١ : ٥٩.

الإمامة مختصة بهم ، وعدم صلاحية غيرهم لها .
 في أنّ الشيخين لم يكونا صالحين للخلافة الإلهية
 والحاصل : أنّ الآية الكريمة ظاهرة الدلالة باتّفاق أصحابنا الإمامية رضوان الله عليهم على
 عدم صلاحية أبي بكر وعمر للإمامة لوجوه :

منها : أنّهما كانا مشركين باتّفاق الأمة ، والشرك ظلم لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) فوجب عدم صلاحيتهما للإمامة بهذه الآية .

إن قيل : إنّهما لم يكونا مشركين في زمان الإمامة ؟

قلنا : صدق مفهوم الظالم عليهما في زمان مخرج لهما عن صلاحيتهما أبدا ، كما أنّ صدق السارق على أحد في زمان موجب لقطع يده أبدا ، وليس الحكم دائرا مدار صدق العنوان ، لأنّه علّة محدثة لا مبقية حتّى يبقى ببقائه وينتفي بانقضائه ، والشاهد على ذلك حكم العقل بعدم تناسب الدّوات التي فيها شائبة الخبائث والدّناءة مع هذه المرتبة الشائخة الإلهية .

ومنها : أنّ من كان مذنبا في الباطن والسرّ ، كان ظالما في الواقع وإن لم يطّلع عليه أحد ، وإذا لم تعرف طهارة باطنة لا يجوز أن يحكم بإمامته ، فوجب أن يكون معصوما حتّى يعلم عدم كونه ظالما في الباطن ، ولا تعلم العصمة إلّا بنصّ الله ورسوله ﷺ ، ولما لم يعرف أنّ أبا بكر وعمر ما كانا ظالمين في الظاهر والباطن لاتّفاق الأمة على أنّهما لم يكونا معصومين ، لم يجز أن ينصبّا للإمامة ، ووجب أن لا تتحقّق إمامتهما .

قال الفخر الرازي : استدللّ الشيعة بهذه الآية على وجوب عصمة الإمام عن المعصية ظاهرا وباطنا ، وأمّا نحن فنقول : مقتضى الآية ذلك ، إلّا أنّنا تركنا اعتبار الباطن ، فبقى العدالة الظاهرة معتبرة^(٢) .

أقول : في هذا الجواب ما لا يخفى من الوهن .

في أنّ الآيات الدالة على عصيان الأنبياء مؤوّلّة

إنّ قيل : إنّ الله تعالى حكى عن يونس عليه السلام أنّه قال : ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ

الظَّالِمِينَ﴾^(٣) وعن آدم عليه السلام أنّه قال : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾^(٤) وعن موسى عليه السلام أنّه قال : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾^(٥) فلا يكون الظلم منافيا للنبوّة .

قلنا : إنّ إطلاق الظلم وإن كان منصرفا إلى ارتكاب المنهيات التّحرّميّة ، إلّا أنّه لا بدّ من

تأويله في

(١) لقمان : ٣١ / ١٣ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٤٢ .

(٣) الأنبياء : ٢١ / ٨٧ .

(٤) الأعراف : ٧ / ٢٣ .

(٥) النمل : ٢٧ / ٤٤ .

موردتهم إلى ارتكاب التواهي التنزيهية بالقرينة القطعية ، وهو ثبوت عصمتهم ﷺ .

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى
وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ (١٢٥)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى لما وهب لإبراهيم ﷺ منصب الإمامة وأكرمه به ، شرفه بتشريفات لم يشرف بها أحدا من أنبيائه ، منها : أنَّه جعل البيت الذي بناه بيده والحجر الذي قام عليه شرفا عظيما وفضلا جسيما ، فلذا تَبَّه سبحانه بشرفهما بعد تشريفه ﷺ بالإمامة ، بقوله : ﴿وَأَذْكُرُ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الذي بناه إبراهيم ﷺ وهي الكعبة المعظمة ﴿مَثَابَةً﴾ ومرجعا ومعادا ، أو معبدا ﴿لِّلنَّاسِ﴾ كافة من الموحدين والمشركون إلى يوم القيامة.

عن ابن عباس : أنَّه لا ينصرف [عنه] أحد إلَّا و [هو] يتمنى العود إليه ^(١) .

وقيل : إنَّ المثابة هي ^(٢) محلَّ التَّوَاب ، حيث إنَّ النَّاسَ يحجُّون إليه فيثابون به ^(٣) .

﴿وَجَعَلْنَاهُ أَمْنًا﴾ ومأمنا ، عن (الكافي) : عن الصادق ﷺ : « من دخل الحرم من النَّاس مستنجرا [به] فهو آمن من سخط الله عَزَّجَلَّ ، ومن دخله من الوحش والطَّير كان آمنا من أن يهاج حتى يخرج من الحرم » ^(٤) .

ونقل أنَّ أهل الجاهليَّة كانوا متمسكين بتحريمه لا يهيجون على أحد التجأ إليه ، وقد أخذوه من دين إسماعيل ^(٥) .

ونقل أنَّ كلب الصَّيد كان يهَمُّ بالضَّيِّ فيفِرُّ الضَّيِّ منه فيتبعه حتَّى إذا دخل الضَّيِّ الحرم لم يتبعه الكلب ^(٦) .

والروايات في تحريم مكَّة كثيرة جدًّا ، روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّ الله حرَّم مكَّة ، وإيَّها لم تحلَّ لأحد قبلي ، ولا لأحد بعدي ، وإيَّما حلَّت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها كما كانت » ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٤ : ٤٦ .

(٢) في النسخة : مثابة هو .

(٣) مجمع البيان ١ : ٣٨٣ .

(٤) الكافي ٤ : ٢٢٦ / ١ .

(٥) تفسير الرازي ٤ : ٤٧ .

(٦) تفسير الرازي ٤ : ٤٧ .

(٧) تفسير الرازي ٤ : ٤٧ .

وقيل : إنّه موضع آمن من القحط والجذب ^(١) لقوله تعالى : ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٢).

﴿و﴾ قلنا : ﴿اتَّخِذُوا﴾ يا عبادي ، واختاروا ﴿مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي عليه أثر قدمه ﴿مُصَلَّى﴾

شرح مقام إبراهيم عليه السلام

عن الباقر عليه السلام في رواية : « ولقد وضع عبد من عباد الله قدمه على صخرة ، فأمرنا الله تبارك وتعالى أن نتخذها مصلى » ^(٣).

وعن الصادق عليه السلام : « يعني بذلك ركعتي طواف الفريضة » ^(٤).

روي أنّه لما أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر ، ووضعهما بمكة وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون ، وتزوج إسماعيل منهم امرأة وماتت هاجر ، إستأذن إبراهيم عليه السلام سارة في أن يأتي هاجر ، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل.

فقدم إبراهيم عليه السلام وقد ماتت هاجر ، فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد ، وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيد. فقال لها إبراهيم عليه السلام : هل عندك ضيافة ؟ قالت : ليس عندي. سألها عن عيشهم فشكت إليه ، فقال لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له : فليغير عتبة بابه.

وذهب إبراهيم عليه السلام ، فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ قالت : جاءني شيخ صفته كذا وكذا - كالمستحققة بشأنه - قال : فما قال لك ؟ قالت : قال : اقرئي زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه. قال : ذلك أبي ، وقد أمرني أن افارقك ، الحقني بأهلك. فطلّقها وتزوج منهم أخرى.

فلبث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله أن يلبث ، ثمّ استأذن سارة في أن يزور إسماعيل ، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل. فجاء إبراهيم عليه السلام حتّى انتهى إلى باب إسماعيل عليه السلام فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد وهو يجيئ الآن إن شاء الله ، فانزل رحمك الله.

قال : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم. فجاءت باللبن واللحم ، وسألها عن عيشهم. قالت : نحن في خير وسعة. فدعا لهما بالبركة ، ولو جاءت يومئذ بجبن [أو بر] أو شعير أو تمر ، لكانت أكثر أرض الله برّا أو شعيرا أو تمرا ، وقالت له : انزل حتّى أغسل رأسك. فلم ينزل ، فجاءت بالمقام فوضعت على

(١) مجمع البيان ١ : ٣٨٧.

(٢) القصص : ٥٧ / ٢٨.

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٥٥ / ١٩٩.

(٤) التهذيب ٥ : ١٣٨ / ٤٥٤.

شقَّه الأيمن فوضع قدمه عليه وهو راكب ، فغسلت شقَّ رأسه الأيمن ، ثمَّ حَوَّلَتْ إلى شقِّ رأسه الأيسر فبقي (١) أثر قدميه (٢) عليه (٣) .

وروي أنَّ إبراهيم عليه السلام قام على هذا الحجر وأذَّن بالحجَّ (٤) .

وفي رواية : أنَّ الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ، ولو لا مماسَّه أيدي المشركين لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب (٥) .

وروي أنَّه نزلت ثلاثة أحجار من الجنة : مقام إبراهيم عليه السلام ، وحجر بني إسرائيل ، والحجر الأسود (٦) .

ثمَّ من تشريفاته عليه السلام ما ذكره الله ثانيا بقوله : ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وأمرناهما أمرا أكيدا وألزمنا عليهما إلزاما شديدا ﴿أَنْ طَهَّرَا﴾ ونزَّها ﴿بَيْتِي﴾ من الأصنام والأوثان.

عن الصادق عليه السلام : « نَحْيَا عَنْهُ الْمُشْرِكِينَ » (٧) .

وقيل : إنَّ المراد نَزَّهَاهُ عَنْ جَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ (٨) .

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ وهم الذين يطوفون به ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ وهم الذين يقيمون فيه للعبادة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وهم المصلِّون فيه.

عن الصادق عليه السلام أنَّه سئل : أَيْغْتَسِلُنَ النِّسَاءُ إِذَا أَتَيْنَ الْبَيْتَ ؟ قال : « نَعَمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقُولُ : ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَدْخُلَ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ قَدْ غَسَلَ عَنْهُ الْعِرْقَ وَالْأَذَى وَتَطَهَّرَ » (٩) .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾

ومن تشريفاته عليه السلام أنَّه استجاب دعوته في حقِّ ساكني مكَّة وأهلها ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ

قَالَ

(١) زاد في النسخة : فيها .

(٢) في مجمع البيان : قدمه .

(٣) مجمع البيان ١ : ٣٨٣ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٢٢٦ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٢٢٦ .

(٦) مجمع البيان ١ : ٣٨٣ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٥٩ .

(٨) تفسير الرازي ٤ : ٥١ .

(٩) تفسير العياشي ١ : ١٥٥ / ٢٠٠ ، علل الشرائع : ٤١١ / ١ .

إِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ قيل : أي مأمونا من الحسف والمسخ والقتل ^(١) .
﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾ وساكنيه ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ والمأكولات التي تخرج من الأرض والشجر ، من
الأطعمة والفواكة ، فجمع في دعائه لأهله بين الأمن والسعة وطيب العيش .
ثم أنه ﷺ لما رأى احتجاج دعائه بالإمامة لذريته في حق الظالمين منهم ، كأنه احتمل
احتجاب هذا الدعاء أيضا في حقهم ، فخصّه بالمؤمنين بقوله : ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾

وأخرج الظالمين عن مسألة درّ الرزق عليهم ، فدفع الله هذا التوهم ، وكأنه ﴿قَالَ﴾ لا أحصّ
الرزق بالمؤمنين منهم ، بل أرزق من آمن منهم ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ حيث إنّ النعم الدنيوية ليست كالإمامة
، بل تعمّ الكافر والمؤمن ، إلّا أنّ المؤمن تتصل نعمه الدنيوية بالنعم الأخروية ، وأمّا الكافر
﴿فَأَمْتَعُهُ﴾ تمتعاً ﴿قَلِيلًا﴾ من النعم الدنيوية التي لا قدر لها في المدّة القليلة من عمره ، ثمّ أقطعها
عنه بموته ﴿ثُمَّ أَصْطَرُّهُ﴾ واجتهه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ الذي لا انقطاع له ﴿وَيَنْسُ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع
ذلك العذاب الشديد الدائم .

عن (العلل) : عن الرضا ﷺ : « لما دعا إبراهيم ﷺ أن يرزق أهله من الثمرات ، أمر
بقطعة من الأردنّ فسارت بشمارها حتّى طافت بالبيت ، ثمّ أمرها أن تنصرف إلى هذا الموضع الذي
سمّي بالطائف ، ولذلك سمّي طائفا » ^(٢) .

قال بعض : الأردنّ ، بضمّتين : كورة بالشّام ^(٣) .

قيل : إنّ وجه اختلاف هذه الآية مع ما في سورة إبراهيم ^(٤) - حيث قال هنا : ﴿اجْعَلْ
هَذَا بَلَدًا﴾ بغير اللّام ، وهناك مع اللّام - أنّ دعوته هنا كانت قبل بناء البلد ، وهناك بعد بنائه ^(٥) .

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٢٧ .

(٢) علل الشرائع : ٤٤٢ / ٢ .

(٣) معجم البلدان ١ : ١٧٦ ، لسان العرب ١٣ : ١٧٨ .

(٤) في قوله تعالى : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إبراهيم : ١٤ / ٣٥ .

(٥) تفسير الرازي ٤ : ٥٥ .

الْحَكِيمُ (١٢٩)

في شرح بناء الكعبة وفضلها

ومن تشريفاته ﷺ أنه أمر ببناء الكعبة ، فذكر الله نبيه ﷺ به بقوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ والأساس من الكعبة ، وكان أساسه من زمان آدم ﷺ ثم حرب بنيانه ، فرفع إبراهيم ﷺ البنيان على ذلك الأساس.

روي أن آدم ﷺ اهبط بالهند فقال : يا رب ، مالي لا أسمع صوت الملائكة كما كنت أسمعها في الجنة ؟ قال : بخطيئتك ، فانطلق إلى مكة فابن بها بيتا تطوف به كما رأيتهم يطوفون ^(١) . أقول : يعني كما رأيتهم يطوفون حول العرش ، أو بيت المعمور . قال : فانطلق إلى مكة فبنى البيت ، فكان موضع قدمي آدم قرى وأنهارا وعمارة ، وما بين خطاه مفاوز ، فحج آدم البيت من الهند أربعين سنة.

ونقل أنه سأل عمر كعبا ، فقال : أخبرني عن هذا البيت . فقال : إنّ هذا البيت أنزله الله تعالى من السماء ياقوته مجوفة مع آدم ﷺ ، فقال : يا آدم ، إنّ هذا بيتي ، فطف حوله ، وصلّ حوله كما رأيت ملائكتي يطوفون حول عرشي ويصلّون . ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة فوضع البيت على القواعد ، فلما أغرق الله قوم نوح ، رفعه الله وبقيت قوعده ^(٢) .

وروي أنّ أمير المؤمنين ﷺ قال : « البيت المعمور بيت في السماء يقال له الصّراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض ، يصلّي فيه كلّ يوم سبعون ألفا من الملائكة ، لا يعودون فيه أبدا » ^(٣) .

وروي عنه ﷺ قال : « مرّ عليه الدّهر بعد بناء إبراهيم ﷺ فأنّهم فبنته العمالقة ، ومرّ عليه الدّهر فأنّهم فبنته جرهم ، ومرّ عليه الدّهر فأنّهم فبنته قريش ، ورسول الله ﷺ يومئذ شاب . فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ، فقالوا : يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكّة ، وكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم ، فقضى بينهم أن يجعلوا الحجر في مرط ثم ترفعه جميع القبائل ، فرفعوا كلّهم فأخذه رسول الله ﷺ فوضعه » ^(٤) .

في وجه تسمية البيت بالحرام والكعبة

وروي : أنّ الكعبة إنّما سمّيت بيت [الله] الحرام ، لأنّه حرّم على المشركين ^(٥) . وسمّي

(١) تفسير الرازي ٤ : ٥٠ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٥٠ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ٥١ .

(٤) تفسير الرازي ٤ : ٥١ .

(٥) علل الشرائع : ٣٩٨ / ١ .

الكعبة لأَتمَّا مَرَبَّةً ، وصارت مَرَبَّةً لأَتمَّا بجِذاء البيت المعمور وهو مَرَبَع ، وصار البيت المعمور مَرَبَعاً لأَنَّهُ بجِذاء العرش وهو مَرَبَع ، وصار العرش مَرَبَعاً لأنَّ الكلمات التي بني عليها الإسلام أربع ، وهي : سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ^(١) .

وعن الزَّهْرِيِّ أَنَّهُ قال : بلغني أَنَّهُم وجدوا في مقام إبراهيم ﷺ ثلاث صفوح في كلِّ صفح منها كتاب ، في الصَّفْح الأوَّل : أنا الله ذو بَكَّة ، صنعتها يوم صنعت [الشمس] والقمر ، ^(٢) الخبز .

في وجه تسمية البيت بالعتيق

عن الصادق ﷺ قال : « لما بلغ إسماعيل مبلغ الرِّجال ، أمر الله إبراهيم ﷺ أن يبني البيت ، فقال : يا ربِّ ، في أيِّ بقعة ؟ قال : في البقعة التي انزلت بها على آدم القَبَّة فأضاء لها الحرم ، ولم يدر إبراهيم ﷺ في أيِّ موضع يبني ، فإنَّ القَبَّة التي أنزلها الله على آدم كانت قائمة إلى أيَّام الطوفان أيَّام نوح ﷺ .

فلَمَّا غرقت الدنيا رفع الله تلك القَبَّة وبقي موضعها لم يغرق ، ولهذا سَمِيَ البيت العتيق لأَنَّهُ اعتق من الغرق . فبعث الله جبرئيل فخطَّ له موضع البيت ، فأنزل عليه القواعد من الجنة ، وكان الحجر لما أنزل الله على آدم ﷺ أشدَّ بياضا من الثلج ، فلَمَّا مسَّته أيدي الكفار اسودَّ ، فبني إبراهيم ﷺ البيت « ^(٣) الخبز .

﴿وإِسْمَاعِيلُ﴾ يعاونه ، أو يرفعها معه . عن (الكافي) في رواية : « فلَمَّا أذن الله له في البناء قدم إبراهيم ﷺ فقال : يا بَنِي ، قد أمرنا الله ببناء الكعبة . وكشفا عنها ، فإذا هو حجر واحد أحمر ، فأوحى الله تعالى إليه أن ضع ^(٤) بناءها عليه . وأنزل الله عَزَّجَلَّ أربعة أملاك يجمعون إليه الحجارة ، فكان إبراهيم وإسماعيل ﷺ يضعان الحجارة ، والملائكة تناولهما حتَّى تَمَّت اثنا عشر ذراعا » ^(٥) . وفي رواية : بنى إبراهيم وإسماعيل البيت كلَّ يوم سافا حتَّى انتهى إلى موضع الحجر الأسود ^(٦) .

قال أبو جعفر ﷺ : « فنأدى أبو قبيس [إبراهيم ﷺ] : إنَّ لك عندي وديعة ، فأعطاه الحجر فوضعه موضعه » ^(٧) .

وعن (العلل) و (العياشي) : عن الصادق ﷺ قال : « إنَّ الله عَزَّجَلَّ أنزل الحجر [الأسود] لآدم ﷺ

(١) علل الشرائع : ٣٩٨ / ٢ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٥١ . (٣) تفسير القمي ١ : ٦١ .

(٤) في النسخة : إليه أصنع .

(٥) الكافي ٤ : ٢٠٣ / ٣ .

(٦) الكافي ٤ : ٢٠٥ / ٤ .

(٧) الكافي ٤ : ٢٠٥ / ٤ .

من الجنة إلى البيت درّة بيضاء ، رفعه الله إلى السماء ، وبقي اسمه . فهو بحيال هذا البيت ، يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، لا يرجعون إليه أبدا ، فأمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببنين البيت على القواعد ^(١) .

في أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا شريكين في رفع القواعد ، وأن إسماعيل أول من نطق بالعربية

واعلم أنّ ظاهر الآية المباركة والروايات شركة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في رفع القواعد وبناء البيت .

وفي عدّة روايات آخر : أنّ إبراهيم كان متفرّدا في بناء البيت ، وإسماعيل كان يناوله الأحجار ^(٢) ، كما عن (المجمع) عن الباقر عليه السلام : « أنّ إسماعيل أول من شقّ لسانه بالعربية ، وكان أبوه يقول وهما بينان : هاي ابني ^(٣) ، أي أعطني حجرا ، فيقول له إسماعيل بالعربية : يا أبه ، هاك حجرا ، فإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله » ^(٤) .

ولعلّ وجه الجمع أنّ إبراهيم عليه السلام كان شغله منحصر برفع البناء ، وإسماعيل يشاركه في الرفع ويناوله الحجر أيضا ، والملائكة كانوا يعاونونهما بإعطاء الحجر .

وهما في هذا الحال يدعوان ويقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ عمل بناء بيتك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ومسألتنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتنا والمشقة التي نتحمّلها خالصا لك ، وتقربا إليك . وفي تخصيص الوصفين به تعالى إشعار بالتوحيد الصّفاي ، كأثما قالا : إنّ سمع كلّ سمع وعلم كلّ عليم منك وراجع إليك ، وصفات غيرك مندكة في صفاتك .

وأما الدّعوة الثانية ، فقولهما : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا﴾ بتوفيقك وتأييدك ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين ﴿لَكَ﴾ مسلمين لأوامرك وحكمك ، راضين بقضائك وقدرك ، خالصين لوجهك ، لا نعبد سواك ولا نتوجّه إلى غيرك ﴿وَوَجْعَلْ بَعْضًا مِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ ونسلنا ﴿أُمَّةً﴾ وجماعة ﴿مُسْلِمَةً لَكَ﴾ وإثما حصّا الدعاء ببعض ذريّتهم لعلمهم من قوله : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ^(٥) بأنّه لا بدّ أن يكون بعضهم ظالما ، ولم يعلموا أنّ فيهم أهل التّسليم والتّفويض ، ولذا سألا أن يجعل الله بعضهم مسلما مخلصا منقادا كي يكون صالحا للإمامة .

(١) تفسير العياشي ١ : ١٥٦ / ٢٠٣ ، علل الشرائع : ٣٩٨ / ١ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٤٨ .

(٣) في مجمع البيان : يا إسماعيل هات ابن .

(٤) مجمع البيان ١ : ٣٨٩ .

(٥) البقرة : ٢ / ١٢٤ .

وإنما خصّما ذرّيتهما بالدعاء لزيادة شفقتهم بهم ، وكثرة ثوابهما بعبادتهم ، ولأنّ في صلاح أولادهم وكوّنهم أنبياء صلاح عامّة الخلق.

عن (العياشي) : عن الصادق عليه السلام : « أراد بالأمّة بني هاشم خاصّة » ^(١) .
وعنه عليه السلام : « هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، ولم يزل في ذرّيتهم الأنبياء والرسل والأئمّة والهداة » ^(٢) .

وأما الدّعوة الثالثة فقولهما : ﴿وَأَرْنَا﴾ وعرفنا ﴿مَنَاسِكُنَا﴾ وعباداتنا التي تلزمننا في هذا المقام.
في وجه تسمية عرفات وحكمة رمي الجمرات

نقل أنّ جبرئيل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام المناسك كلّها حتّى بلغ عرفات ، فقال : يا إبراهيم ، أعرفت ما أريتك من المناسك ؟ قال : نعم ، فسوّيت عرفات ، فلمّا كان يوم النحر أراد أن يزور البيت ، عرض له إبليس فسدّ عليه الطريق ، فأمره جبرئيل عليه السلام أن يرميه بسبع حصيّات ، ففعل ، فذهب الشيطان ، ثمّ عرض له في اليوم الثاني والثالث والرابع ، كلّ ذلك يأمره جبرئيل عليه السلام برمي حصيّات ^(٣) .

وأما الدّعوة الرابعة فقولهما : ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾ ممّا فرط ممّا من ترك الأولى ، والتّوجّه إلى غيرك فإنّ توبة الأنبياء لا تكون من ذنب بل من أحد الأمرين.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إنّ ليغان ^(٤) على قلبي ، وإني لأستغفر » ^(٥) إلى آخره.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب إليك ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن استرحمك.

ثمّ ختما دعاءهما بقولهما : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي في ولد إسماعيل ، أو في الأمّة المسلمة ﴿رُسُلًا﴾ كائننا ﴿مِنْهُمْ﴾ روي أنّه لم يبعث فيهم غير نبينا محمد صلى الله عليه وآله ^(٦) .

وروي أنّه صلى الله عليه وآله قال : « أنا دعوة [أبي] إبراهيم » ^(٧) وإنّما سألنا أن يكون الرّسول في مكة من ذرّيتهم ليكون بسبب التّسبب أرفق وأشفق بهم ، وأحرص على دعوتهم وهدايتهم وتربيتهم ، وليكون له عزّا وشرفا فوق الشّرف ، فيقوم بدعوتهم وهدايتهم.

﴿يَتْلُوا﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ ودلائل توحيدك وكمال صفاتك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾

المنزل

(١) تفسير العياشي ١ : ١٥٧ / ٢٠٦ ، مجمع البيان ١ : ٣٩٣ .

(٢) تفسير الصافي ١ : ١٧٣ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ٦٢ .

(٤) الغين : الغيم ، وقيل : الغين شجر ملتفت .

(٥) صحيح مسلم ٤ : ٢٠٧٥ / ٢٧٠٢ .

(٦) تفسير الصافي ١ : ١٧٣ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٦٢ ، مجمع البيان ١ : ٣٩٥ .

من عندك بمعانيه وحقائقه بعد التلاوة عليهم ﴿و﴾ يعلمهم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ وما تكمل به نفوسهم من المعارف والأخلاق وتمييز الحق من الباطل ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الرذائل والعيوب وسيئات الأخلاق حتى يقوموا بطاعتك وعبوديتك.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القادر الغالب الذي لا يغلب على ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يجهل شيئا ، ولا يفعل على غير صلاح.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ

فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾

ثم أنه تعالى بعد ما وصف إبراهيم عليه السلام بكونه إماما ومتبعا للعالمين ومشرفا بتشريفات لم يشرف بها أحد من النبيين ، وكونه أكمل الموحدين ، وأسلم المسلمين ، وكان اللازم أن يحكم العقل بوجوب اتباع مثل هذا النبي الكريم والشخص العظيم ، مع أن العقل حاكم بمختاره من التوحيد والتسليم ، نبه سبحانه على أنه لا ينبغي لأحد أن يعرض عن اتباعه ، بل ينبغي أن يعدّ المعرض في زمرة السفهاء والجانين ، بقوله في مقام التعجب لمن كان أهله : ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾ ويعرض ﴿عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو التوحيد والتسليم ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ﴾ واستخفّ وأمتن ﴿نَفْسَهُ﴾ إذ كل من أعرض عن طريق يرغب فيه العقلاء ويوصل الساعي فيه إلى عزّ الدنيا وشرف الآخرة ، لا ينبغي أن يحسب في زمرة العقلاء ، بل هو أسفه الناس.

ثم العجب من قريش واليهود الذين أعظم مفاخرهم بالانتساب إلى إبراهيم عليه السلام الذي قال سبحانه في حقّه : ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ واجتبيناه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ إذ جعلناه أمة قانتا ، ومفخرا ، ومطاعا للأمم العظيمة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾^(١).

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين هم أكرم الناس منزلة ، وأرفعهم درجة ، إنهم كيف تركوا ملته ولم يسلموا لرسول استجاب الله به وبعثته دعوته !

في الاستدلال على النبوة

ثم اعلم أنّ في هذه الآيات وما بعدها حجّة بالغة على اليهود وغيرهم على نبوته ﷺ وصدق دعواه ، وأتاه المبعوث من الله للرسالة ، حيث إنّ دعوة إبراهيم عليه السلام بأن يبعث

(١) مريم : ١٩ / ٥٠.

الله رسولا في مكة كان من المسلّمات ، ولم يظهر فيها مدّع للنبوّة إلا وجوده المقدّس ، وكانت هذه الآيات بفصاحتها واشتمالها على الأخبار الغيبيّة معجزة ظاهرة له ، إذ لم يكن عليّاً قارئاً للكتب ومجالسا لعلماء أهل الكتاب ، فثبت أنّه ﷺ هو مسؤول إبراهيم عليّاً .

إن قيل : كيف يمكن القطع بأنّ جميع ما أخبر به من قصّة إبراهيم ، من إتمامه الكلمات ، وبناء البيت ، وسائر الدعوات ، كان مسلّما بين أهل الكتاب ، ومسطورا في الكتب ؟ قلنا : لو لم يكن بينهم من الوضوح بمكان ، لتسارعوا إلى تكذيبه مع شدّة عداوتهم وحرصهم على إطفاء نوره ، ولو كذبوه في هذه الامور لنقل إلينا ، ولو بأخبار الآحاد .
عن (المجمع) : عن السجاد عليّاً (١) : « ما أحد على ملّة إبراهيم إلّا نحن وشيعتنا ، وسائر النّاس منها براء » (٢) .

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)﴾

ثمّ ذكر الله علّة اصطفائه بقوله : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ حين خرج من الغار على ما قيل ، بالإلهام في قلبه ، وتقوية عقله ، وتنفيذ بصيرته ، وإرادة الآيات الباهرات ﴿أَسْلِمَ﴾ وأخلص وجهه لله ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليّاً مبادرا إلى الطاعة والانقياد باستعداده الكامل : ﴿أَسْلَمْتُ﴾ وجهي وأخلصت قلبي ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالتّوحيد الكامل ، والعرفان التّام .
والظاهر أنّه كان إقراره بلسان حاله ورسوخ المعرفة في شراشر وجوده ، لا بلسان قاله ، فلمّا كملت نفسه بمعرفة الله بادر إلى الدّعوة إلى ملّة التّوحيد والإسلام .

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ قبل سائر النّاس شفقة بهم ، قيل : كانوا أربعا وقيل : ثمان (٣) .
﴿وَيَعْقُوبُ﴾ : وصّى بها بنيه أيضا كجدّه إبراهيم عليّاً وكانت وصيّته أن قال : ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ

الله

(١) في المحاسن : الحسين بن علي عليهما السلام .

(٢) المحاسن ١ : ١٤٧ / ٥٤ ، تفسير الصّافي ١ : ١٧٣ ، ولم نعر عليه في مجمع البيان .

(٣) تفسير أبي السعود ١ : ١٦٣ .

اصْطَفَى واستخلص **لَكُمْ الدِّينَ** المرضي له ، وصفوة الأديان الذي اختاره الملائكة والخلصون من عباده ، بأن نصب الدلائل الظاهرة عليه ، ودعاكم إليه .

ثم عيّن ذلك الدّين صريحا ، وأكّد في وجوب الالتزام به بقوله : **﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾** في حال من الأحوال **﴿إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** لله ، موحدون له . والمعنى : لا تفارقوا دين الإسلام في آن ، كي لا يبادركم الموت وأنتم على غيره فيدرككم غاية الخسران .

قيل : في هذه الحكاية دلالة قويّة على أنّ الالتزام بدين الإسلام أهمّ الأمور ، حيث أمر إبراهيم عليه السلام بعنوان الوصيّة ، وهو أكّد من الأمر ، وخصّ بها بنيه الذين كان أشفق عليهم من جميع الخلق ، وما مزج بهذه الوصيّة وصية أخرى ، وعبر عن حقانيته بأنّ الله اصطفاه لكم ، وعمّم بتلك الوصيّة ، وما قيدها بزمان دون زمان وحال دون حال ، وزجرهم عن أن يموتوا غير مسلمين ^(١) .

ثم لما كان عليه السلام مشهورا بالفضل والعقل والصّلاح وحسن الطّريقة ومتانة السّيرة ، ومع ذلك اهتمّ بلزوم هذا الدّين نهاية الاهتمام ، عرف أنّه أولى الأمور وأحقّها به .

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾
﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ﴾
لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾

ثم أنّه تعالى بعد بيان وصيّة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ، بيّن أنّ يعقوب عليه السلام ما اكتفى بالوصيّة ، بل أخذ من أولاده الإقرار والعهد على الالتزام به بقوله : **﴿أَمْ كُنْتُمْ﴾** قيل : إنّ المراد بل أكنتم أيّها اليهود الحاضرون ، أو معاشر المسلمين **﴿شُهَدَاءَ﴾** حضّارا **﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾** وحين احتضر وقرب وفاته ؟ ! والاستفهام على الإنكار ، والمعنى - والله العالم - ما كنتم حاضرين عند يعقوب حين حضرته الوفاة ، بل إن علمتم به فبالوحي .

﴿إِذْ قَالَ﴾ حينئذ شفقة **﴿لِبَنِيهِ﴾** وهم كانوا اثني عشر : **﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾** وأي شيء تتخذونه إلها بعد مفارقتي إياكم بالموت ؟ **﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾** قيل : عدّ اسماعيل في الآباء لأنّ العمّ صنو الأب ، وبمنزلته في التّعظيم ^(٢) .

(١) تفسير الرازي ٤ : ٧٢ .

(٢) تفسير الصافي ١ : ١٧٤ .

ثمّ بعد هذا الإقرار الإجمالي صرّحوا بالتّوحيد لاطمئنان قلب يعقوب ، بقولهم : ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لا شريك له ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون.

قيل : إنّ اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : أ لست تعلم أنّ يعقوب أوصى بنيه باليهوديّة يوم مات ؟ فنزلت ^(١) . وعلى هذا يمكن أن تكون كلمة (أم) وصليّة . والتّقدير : أتدعون هذا أم كنتم شهداء ؟ يعني أكان أوائلكم شاهدين وأنتم علمتم ذلك ، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه براء ؟

وعن بعض التفاسير : أنّ يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى أهلها يعبدون النيران والأوثان خاف على بنيه الشّرك بعد وفاته ، فوصّاهم بهذه الوصيّة ، وأخذ منهم الإقرار تحريضا لهم على التمسك بعبادة الله ^(٢) .

﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤)

ثمّ لما كان اليهود يفتخرون بأبائهم إبراهيم وإسحاق ، ويرون أنّهم لصلاح آبائهم لا يعدّون ؛ ردّهم الله تعالى بقوله : ﴿تِلْكَ أُمّةٌ﴾ وجماعة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ، حال كونه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وعملت ، لا يرجع إليكم نفع أعمالهم ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من أعمالكم ، لا يرجع إليهم ثوابها ونفعها ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون به. فلا تفخروا بأوائلكم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليه السلام اذ لا ينفعكم حسناتكم ، ولا يضرّكم سيئاتهم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥)

ثمّ أنّه تعالى بعد إقامة البراهين على ضلالة اليهود والنّصارى ، بيّن أنّهم مع تلك الحجج القاطعة مصرّون على كفرهم وضلالهم واتّباع المسلمين لهم بقوله : ﴿وَقَالُوا﴾ للمسلمين ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ يعني قالت اليهود : كونوا هودا ، وقالت النّصارى : كونوا نصارى ، حتّى ﴿تَهْتَدُوا﴾ وتصيبوا طريق الحقّ.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ردّا عليهم : لا نتّبع اليهوديّة والنّصرانيّة ﴿بَلْ﴾ نتّبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ حيث

كان

(١) تفسير الصافي ١ : ١٧٤.

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٧٦.

﴿حَنِيفًا﴾ ومائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق.

وفي قوله : ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض عليهم وعلى غيرهم من أهل الشرك ، لأنّ كلا منهم كانوا يدعون ملّة إبراهيم عليه السلام والحال أنّهم كاذبون ، لأنّه ثبت أنّ إبراهيم عليه السلام كان على التّوحيد ، واليهود كانوا مشركين بقولهم : عزير ابن الله ، والنّصارى بقولهم بالتّثليث ، أو إنّ المسيح ابن الله.

عن (العياشي) : عن الصادق عليه السلام قال : « [ان] الحنيفيّة هي الإسلام » ^(١) .
وعن الباقر عليه السلام ، قال : « ما أبقت الحنيفيّة شيئا حتّى إنّ منها قصّ الشّارب ، وقلم الأظفار ، والختان » ^(٢) .

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦)

ثمّ أنّه تعالى لما ردّ قول اليهود والنّصارى بأنّهم متّبعون دين اليهوديّة والنّصرانيّة عن تقليد وبغير دليل ، وأنّه لو كان بناء الدّين على التّقليد كان تقليد إبراهيم عليه السلام الذي عرف بالاستقامة أولى وأقرب إلى السّلامة ، بيّن بطلان دينهم بالبرهان ، بقوله : ﴿قُولُوا﴾ أيّها المؤمنون.

عن (الكافي) و(العياشي) : عن الباقر عليه السلام [قال] : « إنّما عني بذلك عليّا وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام وجرت بعدهم في الأئمّة عليهم السلام » ^(٣) .

﴿آمَنَّا بِاللّهِ﴾ وهو أول الواجبات العقليّة ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من الله ، وهو القرآن بدلالة المعجزات الباهرات ، وفيه الايمان بنبوّة من جاء به ، وهو محمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ من الله ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم أحفاد يعقوب من أولاده الاثني عشر ، وكان منهم كثير من الأنبياء.

عن (العياشي) : عن الباقر عليه السلام أنّه سئل : هل كان ولد يعقوب أنبياء ؟ قال : « لا ، ولكنّهم كانوا أسباطا أولاد الأنبياء ، ولم يكونوا فارقوا الدنيا إلّا سعداء » ^(٤) .
والظاهر أنّ المراد أنّه لم يكن جميعهم أنبياء.

(١) تفسير العياشي ١ : ١٥٨ / ٢٠٨ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٥٨ / ٢٠٩ .

(٣) الكافي ١ : ٣٤٤ / ١٩ ، تفسير العياشي ١ : ١٥٩ / ٢١٢ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٥٩ / ٢١١ .

﴿وَمَا أُوتِيَ﴾ من قبل الله ﴿مُوسَى﴾ بن عمران من التَّوراة ﴿وَعِيسَى﴾ بن مريم من الإنجيل ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ من الصِّحَف والمعجزات حال كون جميعها منزلاً ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ونحن ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ، كما أنتم تفرّقون بينهم بالإيمان والتكذيب ، مع أنّهم سواء في الحجج والآيات الدالة على صدقهم لو أنتم تقولون : إنّهم متفرّقون في أصول الديانات ، ونحن نقول : إنّهم مجتمعون على أصول الإسلام.

﴿وَنَحْنُ﴾ بالله مؤمنون ، و﴿لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون ، نتبع ما أمرنا ربنا ، ولا نتبع هوى أنفسنا ، فكلّ من ظهرت دلائل صدقه في دعوى النبوة نصّدقه ونؤمن به ، فلذا نؤمن بمحمّد ﷺ حيث أظهر المعجزات وأقام الدلائل على صدقه كسائر الأنبياء.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾

ثمّ أنّه تعالى لما بيّن حقيقة الهدى التي تحكم العقول السليمة بها ، وهو الإيمان بجميع الكتب السماوية وسائر الأنبياء الذين أتوا بالمعجزات الباهرات ، عارض قولهم : ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾^(١) بقوله : ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ اليهود والنصارى وسائر الكفار ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ من دين الإسلام وما يشابهه في الصّحة والاستقامة والسداد ، وأنّى لهم بتحصيل مثل هذا الدين القويم ! وقيل معنى مثل ﴿مَا آمَنْتُمْ﴾ ، هو ما آمنتم.

﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ إلى طريق الفلاح والنجاح ، وإن لم يتمكّنوا من تحصيل دين مثله ، فلا بدّ لهم من الإيمان به والانقياد له.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن هذا الدين ، فأعرض عنهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ﴾ ثابتون مستقرّون ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ وعناد وكفر ومشاقّة مع الله ورسوله.

ثمّ لما كان الشقاق ممّا يؤدي إلى الجدال والقتال لا محالة ، أردف ذلك بتسليّة الرسول ﷺ وتقوية قلوب المؤمنين بوعده النصر والغلبة بقوله : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ ويدفعهم عنك.

قيل : معنى السّين أنّ ذلك كائن لا محالة ، وإن تأخّر إلى حين^(٢) . وفيه دلالة على صحّة النبوة لإنجاز

(١) البقرة : ٢ / ١٣٥ .

(٢) جوامع الجامع : ٢٧ .

الله وعده ، فوافق المخبر الخبر .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما ينطقون به وما تدعوهم إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يضمرونه ، فيعاقبهم على ذلك ، المحيط بما في نيتك وإرادتك من إظهار الدين ، وهو مستجيب لك . وفي هذا التذييل تأكيد لما سبق من وعد الرسول ﷺ بالنصرة والغلبة ، ووعد الكفار بالقتل والحزى .

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾

ثم لما كان دأب النصارى تغسيل أولادهم بماء أصفر ، ويسمونه المعمودية ، ولعله المشهور بغسل التعميد ، وكان دأب اليهود على ما قيل صبغ أولادهم بالصفرة ، وكان كل طائفة يعدون ويحسبون ذلك الغسل والصبغ طهارة لأولادهم ، وصف سبحانه دين الإسلام الذي حقيقته الإيمان بالأمور المفصلة في الآية السابقة بقوله : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قيل : إنَّ المعنى : قولوا : صبغنا الله صبغته ^(١) . وفسرها الصادق عليه السلام بالإسلام كما عن (الكافي) ^(٢) . وقيل : هي فطرة التوحيد التي فطر الناس عليها ^(٣) .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : « هي صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق » ^(٤) .

قيل : إنَّ الله تعالى أمر المؤمنين أن يقولوا : آمنا ، وصبغنا الله بصبغة الإيمان ، وأنتم صبغتم أنفسكم بصبغ الصفرة ، وصبغنا تطهير دون صبغكم ، حيث طهرنا من دناسة الشرك والكفر والعقائد الفاسدة ، بنور التوحيد والتسليم والولاية .

قال بعض المفسرين : إنَّ إطلاق الصبغة على العقائد الحقّة من جهة ظهور أثرها عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ وتداخلها قلوبهم تداخل الصبغ الثوب ^(٥) .

وقيل : إنَّه من باب مجاز المشاكلة والازدواج ، لزعم أهل الكتاب أنَّ الصبغ بالصفرة طهارة ^(٦) كما مرّ .

في أنَّ إطلاق الصبغة على الإسلام والإيمان على الحقيقة

ويمكن أن يقال إنَّ إطلاق الصبغ في الآية حقيقي بجميع تفاسيره ، حيث إنَّ للعقائد الحقّة من الإسلام والإيمان والولاية نورا في القلب وضياء في النفس . وكلّما اشتدّ اليقين بها ، اشتدّ ذلك النور حتّى يحيط بجميع الجوارح ، كما أنَّ للكفر والعقائد الفاسدة ظلمة محيطية . ومن الواضح أنَّ لون النور في الأنظار هو البياض ، ولون الظلمة

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٩٠ .

(٢) الكافي ٢ : ١٢ / ٢ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ٩٠ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٥٩ / ٢١٤ ، تفسير الصافي ١ : ١٧٦ .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ٩٠ ، تفسير الصافي ١ : ١٧٦ .

(٦) تفسير أبي السعود ١ : ١٦٨ .

هو السّود ، ولذا قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾^(١) .

وروي : أنّ المؤمنين في القيامة غرّ محجلون^(٢) .

وفي رواية : إن عمل خيرا ظهر في قلبه نقطة بيضاء ، ثمّ تزداد حتّى تحيط به ، ومن عمل سوءا ظهر فيه نقطة سوداء^(٣) .

ومن الواضح أنّ المراد من السّود والبياض في الآية والروايات هو التّور والظلمة ، وعلى هذا فالمؤمنون بيض الوجوه في الدنيا والآخرة ، وسيماهم ذلك البياض ، كما أنّ سيماء الكفّار أنّهم سود الوجوه فيهما ، ويعرفان في الآخرة بسيماهما ، وأمّا في الدنيا فلا يرى سيماهما إلّا من له عين البصيرة. ثمّ لما كان التّور من قبل كمال الوجود الذي هو بإفاضة الله تعالى وجوده يضاف البياض والصّبغ الحاصل منه إليه ، وصحّ أن يقال : لذلك البياض : صبغة الله ، كما أنّ ظلمة الكفر والمعاصي من قبل النّفس والماهیة ، ويصحّ أن يقال : إنّها صبغة النّفس والطبيعة ، حيث إنّ النّفس مبدأ الاحتجاب عن عالم الأنوار ومنشأ الانغمار في الشّهوات والضّلال.

ثمّ إنّّه لما كان صبغ البياض أحسن الأصباغ ، سيّما إذا كان حاصلًا من التّور الذي هو أشرف الموجودات ، خصوصا إذا كان حاصلًا من الإيمان والولاية ، أنكر الله سبحانه كون صبغ أحسن منه ، بقوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾

ثمّ لما كان الإيمان ملازما للقيام بوظائف العبوديّة ، كان قوله : ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ بمنزلة الاستدلال على تحقّق صبغ الإيمان فيهم لدلالة التلبّس بشعار العبادة على تنوّر القلب بنور الإيمان ، وصبغ النّفس بأحسن الأصباغ ، فلا يبقى لأحد مجال إنكاره. وكان أصحاب النّبي ﷺ متمخّضين بالعبادة كما قال الله تعالى : ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾^(٤) فكان دليل صدق دعواهم معهم.

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾

(١) آل عمران : ٣ / ١٠٦ .

(٢) سعد السعود : ١٠٩ « نحوه » .

(٣) الكافي ٢ : ٢٠٩ / ٢٠ « نحوه » .

(٤) الفتح : ٤٨ / ٢٩ .

ثم نقل أنّ اليهود والنصارى كانوا يدعون أنّهم أحقّ بكرامة الله ومنصب النبوة لادّعاءهم أنّهم أهل الدين والكتاب ، وأنّ العرب عبدة الأصنام ، فعلم الله نبيّه ردّه بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي﴾ أمر ﴿اللَّهِ﴾ ونبوته التي اصطفانا بها ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ سواء إليه نسبتنا ونسبتكم ، لا قرابة ولا رحميّة بين أحد وبينه ، ولا كرامة لأحد عنده إلّا بالعبوديّة والأعمال الصالحة . ﴿وَلَنَا﴾ كما ترون ﴿أَعْمَالُنَا﴾ الحسنة الصالحة ﴿وَلَكُمْ﴾ كما تعلمون ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ السيئة الشنيعة ، والله مطلع على جميعها ، هذا مع أنّ فضل الأعمال وكرامة العامل بخلوص النية .

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ في العبادة ، وأنتم به مشركون فيها ، فليس لكم أن تستبعدوا أن تكون أكرم عنده منكم ، وأحقّ بالتشريف بمنصب النبوة ، وأولى بالتفضيل بمرتبة الرسالة ، فلم يبق لكم حجّة على وجوب تخصيصكم بهما ، بل لنا الحجّة البالغة على أولويّتنا منكم .

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾

ثمّ من شبهاتهم ما أشار إليه بقوله : ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ وتدعون أنّ دينكم يا أهل الكتاب دين الله لادّعاءكم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وأنتم مقتدون بهم في دينهم .

﴿قُلْ﴾ يا محمد ردّا عليهم ، واسألهم تقريراً منهم : ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمْ اللَّهُ﴾ أعلم ؟ فإنّ تقرّروا أنّه تعالى أعلم فإنّه شهد في التّوراة والإنجيل وسائر الكتب السّماويّة بأنّهم كانوا على الملة الحنيفيّة ودين الإسلام ، وإنّ ملة اليهوديّة والنّصرانيّة حدّثنا بأهواء أهل الرّيغ بعدهم ، وأنتم مطلعون على تلك الكتب ، والعالمون بتلك الشّهادة ، وتكتمونها لحبّ الجاه والرئاسة والحطام الدنيويّة .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه وعلى سائر النّاس ﴿مِمَّنْ كَتَمَ﴾ وستر وأخفى من العوامّ ﴿شَهَادَةً﴾ ثابتة ﴿عِنْدَهُ﴾ صادرة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وأظهر خلافها بين الخلق ؟

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل مطلع عليه ، وحافظ لجميع سيئاتكم ، من إنكار الحقّ ،

وادّعاء

الأباطيل ، وكنمان شهادته ، فيعاقبكم عليها أشدّ العقاب ، فكونوا منه على حذر ووجل في جميع الآنات ^(١) والحالات ، ولا تغتروا بصالح أعمال آبائكم الأنبياء وحسن سيرتهم ، فإنّ ﴿تِلْكَ﴾ الآباء الكرام ﴿أُمَّةٌ﴾ وجماعة صلحاء ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت من الدنيا ، يكون ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من نفع أعمالها والثواب الموعود عليها ﴿وَوَ﴾ يكون ﴿لَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ من منافع أعمالكم وأجرها وتبعاتها ، فلا نصيب لكم من ثواب أعمالهم بشيء ، كما لا ضرر عليكم من سيئاتهم إن كانت لهم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ﴾ في القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في مدّة أعمارهم في الدنيا.

وحاصل الاحتجاج أنكم يا أهل الكتاب بأيّ حجة تتمسكون على دعوى أولويّتكم بفضل الله وكرامته منّا ! فإنّ تتمسكوا بأنكم موحدون فقد كذبتهم ، لبداهة أنّنا موحدون دونكم ، وإنّ تتمسكوا بأنكم أتباع دين إبراهيم ؑ وسائر الأنبياء والصلحاء بعده فنحن المتبعون لهم دونكم ، وإنّ تتمسكوا بانتسابكم إليهم فليس النسب موجبا للكرامة عند الله ، ونافعا في القيامة ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ ^(٢) .

حكاية هارون وبهلول

حكى أنّ هارون الرّشيد لما انصرف من الحجّ ، أقام بالكوفة أيّاما ، فلما خرج وقف بهلول على طريقه وناداه بأعلى صوته : يا هارون - ثلاثا - فقال هارون تعجّبا : من الذي يناديني ؟ فقيل له : بهلول المجنون. فوقف هارون وأمر برفع السّتر - وكان يكلم الناس من وراء السّتر - فقال له : ألم تعرفني ؟ قال : بلى أعرفك. فقال : من أنا ؟ قال : أنت الذي لو ظلم أحد في المشرق وأنت في المغرب سألك الله عن ذلك في القيامة. فبكى هارون وقال : كيف ترى حالي ؟ قال : اعرضه على كتاب الله ، وهي : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ^(٣) . قال : وأين أعمالنا ؟ قال : ﴿إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ^(٤) قال : وأين قرابتنا من رسول الله ﷺ ؟ قال : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ ^(٥) .

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢)

(١) كذا ، والظاهر الآناء.

(٢) المؤمنون : ٢٣ / ١٠١ .

(٣) الانفطار : ٨٢ / ١٣ و ١٤ .

(٤) المائدة : ٥ / ٢٧ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٢٤٥ .

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان اعتراضات اليهود على النبوة وردّها ، أخبر بأنهم سيعترضون على دين الإسلام بوقوع النسخ فيه بتغيير القبلة من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة المعظمة ، بقوله : **﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾** والخفاف العقول **﴿مِنَ النَّاسِ﴾** الراغبين عن ملّة إبراهيم **﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾** كاليهود.

في اعتراض اليهود على دين الإسلام بوقوع النسخ فيه ، وعلى النبي **﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾** بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

قيل : إنهم ابتدعوا بالاعتراض لأنهم كانوا يأنسون بموافقة الرسول **﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾** معهم في القبلة ، وكانوا يظنون أنّ هذه الموافقة ربّما تدعوه إلى موافقتهم بالكليّة ، ولما تحوّل عنها اغتمّوا واعترضوا عليه. ثمّ وافقهم المشركون من العرب لأنهم كانوا متأذّنين من توجّهه إلى بيت المقدس ، وقالوا : رغب عن ملّة آبائهم ، ثمّ رجع إليها. ثمّ تبعهم المنافقون لحرصهم على الاستهزاء بالدين ، فعابوا جميعهم على الرسول والمؤمنين بقولهم : **﴿مَا وَلَاهُمْ﴾** وأيّ صارف صرفهم **﴿عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا﴾** مواظبين **﴿عَلَيْهَا﴾** متوجّهين في صلاتهم إليها ، وهي بيت المقدس.

عن (الاحتجاج) و(تفسير الإمام **﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾**) : أنه قال : « لما كان رسول الله **﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾** بمكة أمره الله عزّ وجلّ أن يتوجّه نحو بيت المقدس في صلاته ، ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن ، وإذا لم يمكن استقبل بيت المقدس كيف كان.

وكان رسول الله **﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾** يفعل ذلك طول مقامه بها ثلاث عشرة سنة ، فلمّا كان بالمدينة وكان متعبدا باستقبال بيت المقدس استقبله وانحرف عن الكعبة سبعة عشر شهرا. وجعل قوم من مردّة اليهود يقولون : والله لا يدري كيف يصليّ حتّى صار يتوجّه إلى قبلتنا ، يأخذ في صلاته بهدينا ونسكننا » ^(١).

وروي من طرق العامّة : أن النبي **﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾** صلى إلى نحو بيت المقدس بعد مقدمه المدينة نحواً من سبعة عشر شهرا ، تأليفا لقلوب اليهود ثمّ صارت الكعبة قبلة المسلمين إلى نفخ الصّور ^(٢).

وحاصل اعتراض اليهود : أنّ البدء محال على الله بالاتّفاق لأنّه مستلزم لجهله بالمصالح ، وأمّا النسخ فإن كان واقعا حقيقيا فهو عين البداء ، وإن كان صوريا ظاهريا ، بمعنى أنّ الحكم الواقعيّ وصلاحه كان في الواقع مقيّدا بوقت محدود ، فعدم إظهار الحدّ وإطلاق الحكم في ظاهر اللفظ بحيث يفهم العرف أبديته ، مستلزم للتّجهيل ، وهذا قبيح ومحال على الله ، فردّهم الله بقوله : **﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ﴾**

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري **﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾** : ٤٩٢ / ٣١٢ ، الاحتجاج : ٤٠.

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٤٧.

وَالْمَغْرِبُ وبه تختصّ جميع الجهات ، ليس أحدها أقرب إليه وأخصّ به من الأخرى ، وهو **يَهْدِي** بأمره **مَنْ يَشَاءُ** هدايته من أهل العالم **إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** والطريق الموصل إلى قربه ورضوانه ، وهو التوجّه إلى الجهة التي فيها الحكمة ومصلحة العباد ، فتارة تكون بيت المقدس ، واخرى الكعبة ، وإثما كان التوجّه إلى الكعبة صراطا مستقيما لأنّه غير مائل إلى قبلة اليهود وهو بيت المقدس ، وإلى قبلة النَّصارى وهو المشرق ، فإنّ المشرق والمغرب مضلّة حيث إنّ في التوجّه إليهما مظنة التوجّه إلى الشّمس وعبادتها.

وقيل : وجه تقديم هذه الآية على آية : **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ** ^(١) والإتيان فيها بفعل المضارع ، تقدّم نزولها على تحويل القبلة وحصول الاعتراض ، حيث إنّ قبل الرّمي يراش السهم ، وقبل توجّه الاعتراض يعلم المؤمنون بيان ردّه ، وفيها دلالة على إمكان النسخ ووقوعه. وحاصل تقرير الجواب : أنّ جميع الأرض ملك لله ، ونسبتها إليه تعالى سواء ، ليس مكان أقرب إليه وأخصّ به من مكان آخر ، وإثما المصلحة في جعل جهة القبلة متفاوتة في الأزمنة ، فقد تكون المصلحة في الأمر بالتوجّه إلى بيت المقدس في برهة من الزمان ، ثمّ تتغيّر وتكون في الأمر بالتوجّه إلى الكعبة ، فتغيير الحكم ليس من جهة انكشاف الخطأ في تشخيص المصلحة حتّى يلزم البداء المحال.

وأما شبهة التجهيل فواضحة البطلان ، فإنّ عدم الإعلام ليس تجهيلا قبيحا لبداهة عدم وجوب الإعلام بالتكليف بقيوده وغايته قبل وقت الحاجة.

في بيان حكمة جعل القبلة

ثمّ اعلم أنّه ذكر بعض لتعيين القبلة حكما عديدة :

إحداها : أنّ الله تعالى خلق في الإنسان قوّة عاقلة مدركة للمجرّدات والمعقولات ، وقوّة خياليّة متصرّفة في عالم الأجسام والحسوسات ، وكلّما تنفكّ القوّة العاقلة عن مقارنة القوّة الخياليّة ومصاحبتها والاستعانة بها.

فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقليّ مجرّد ، وجب أن يضع له صورة خياليّة حتّى تكون تلك الصورة الخياليّة معينة على إدراك ذلك المعنى العقليّ ، ولذلك يضع المهندس - إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير - صورة معيّنة وشكلا معيّنا ، ليصير الحسّ والخيال معينين على إدراك ذلك

(١) البقرة : ٢ / ١٤٤.

الحكم الكلّي.

ولما كان العبد الضّعيف إذا دخل في مجلس الملك العظيم لا بدّ له من أن يستقبله بوجهه ولا يكون معرضاً عنه ، وأن يبالغ في الثناء عليه والتضرّع له والقيام بخدمته ؛ كان استقبال القبلة في الصّلاة جارياً مجرى كونه مستقبلاً للملك ، غير معرض عنه ، والقراءة والتّسبيحات جارية مجرى الثناء عليه ، والرّكوع والسّجود جاريان مجرى خدمته.

ثانيها : أنّ المقصود من الصّلاة حضور القلب ، ولا يحصل إلّا مع السّكون وترك الالتفات والحركة ، وهذا لا يتأتّى إلّا إذا بقي في جميع صلواته مستقبلاً لجهة واحدة على التّعيين ، فإذا اختصّ بعض الجهات بشرف كان الاستقبال إليها أولى.

ونقل عن زردشت أنّه قيل له : اجعل لنا قبلة إذا أردنا أن نتوجّه إلى الله نتوجّه إليها ؟ قال : أشرف الموجودات الجسمانيّة هو النّور ، فتوجّهوا له ، فبنوا بيوت النّار فتوجّهوا إليها بعنوان أنّها قبلة.

ثالثها : أنّ الله تعالى يحبّ الموافقة والألفة بين المؤمنين ، وقد ذكر المنة بما عليهم ، حيث قال : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١) . ولو توجّه كلّ واحد في صلواته إلى ناحية أخرى ، لكان ذلك يوهّم اختلافاً ظاهراً ، فعين الله لهم جهة واحدة ، وأمرهم جميعاً بالتّوجه إليها ، ليحصل لهم الموافقة بسبب ذلك. وفيه إشارة إلى أنّ الله تعالى يحبّ الموافقة بين عباده في أعمال الخير^(٢) .

في حكمة جعل الكعبة قبلة

ثمّ ذكروا لتعيين جهة الكعبة حكماً :

أحدها : أنّ الله تعالى خصّ الكعبة بإضافتها إلى نفسه بقوله : ﴿طَهَّرَ بَيْتِي﴾^(٣) وخصّ المؤمنين بإضافتهم بصفة العبوديّة إليه ، وكلّنا الإضافتين للتّكريم ، فكأنّه تعالى قال : يا مؤمن ، أنت عبدي ، والكعبة بيتي ، والصّلاة خدمتي ، فأقبل بوجهك إلى بيتي في خدمتي ، وقبلبك إلى عظمتي. ثانيها : أنّه قيل : إنّ بعض اليهود استقبلوا إلى المغرب لأنّ النّداء جاء إلى موسى عليه السلام منه ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا﴾^(٤) والنّصارى استقبلوا المشرق لأنّ جبرئيل ذهب إلى مريم من جانب المشرق ، كما قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا

(١) آل عمران : ٣ / ١٠٣.

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٩٤.

(٣) الحج : ٢٢ / ٢٦.

(٤) القصص : ٢٨ / ٤٤.

شَرْقِيًّا ^(١) فأمر الله المؤمنين بالتوجه إلى الكعبة لأتھا قبله خلیلة.

وقیل : إنّ التّصارى استقبلوا مطلع الأنوار ، والمؤمنون استقبلوا مطلع سیّد الأنوار وهو محمّد ﷺ الذي خلق من نوره جمیع الأنوار.

ثالثها : أنّ الكعبة سرّة الأرض ووسطها ، وفي الأمر بالتوجه إليها إشارة إلى أنّه یجب على المؤمن التوسط والعدالة فی جمیع أمورہ ^(٢) .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى لما منّ على هذه الامة بجعل الكعبة التي هي الوسط قبله لهم ، وبهدايتهم إلى الصّراط المستقيم ، منّ عليهم أيضا بقوله : **﴿وَكَذَلِكَ﴾** المذكور من جعلكم مهتدين **﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾** ونصبتناكم **﴿أُمَّةً﴾** وجماعة **﴿وَسَطًا﴾** وخيارا ، أو متوسطين بين الإفراط والتّفريط لا يتجاوزون عن الحقّ ، ولا يميلون إلى الباطل.

في أن المراد من الأمة الوسط خصوص الائمة المعصومين ﷺ

وهم خصوص الائمة المعصومين ﷺ لشهادة الوجدان واتّفاق الامة على عدم اتّصاف جميع أفراد المسلمين بهذه الصّفة لظهور كون أكثرهم فسّاقا ، فلا بدّ من أن يكون المراد من الامة بعضهم ، نظير قول موسى لبني إسرائيل : **﴿يَا قَوْمِ ادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾** ^(٣) مع وضوح أنّه لم يكن كلّ فرد منهم ملكا. عن القمّي رحمه الله : يعني الائمة ^(٤) .

وعن (الكافي) و (العياشي) : عن الباقر عليه السلام : « نحن الامة الوسط » ^(٥) .

وعن (المناقب) : عنه عليه السلام : « فينا أنزل الله **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** الخبر ^(٦) .

(١) مريم : ١٩ / ١٦ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٩٥ .

(٣) المائدة : ٥ / ٢٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٦٣ .

(٥) الكافي ١ : ١٤٧ / ٤ ، تفسير العياشي ١ : ١٦٠ / ٢١٥ .

(٦) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ١٧٩ .

فلا دلالة في الآية على حجّية الإجماع كما ادّعاها بعض العامة ، إلّا من جهة اشتماله على قول المعصوم أو كشفه بالحدس القطعي عن موافقة قول المجمعين لقول رئيسهم ، ووافقنا الفخر الرازي وبعض آخر من العامة في القول بعدم حجّية الإجماع إلّا من جهة اشتماله على قول من هو الوسط في الأمة ، وقالوا : إنّما لما لا نعرف من يكون بهذه الصّفة ، نحتاج إلى الاتفاق ، إلّا أنّهم فارقونا في أنّهم لا يعرفونه بوجه ، ونحن بحمد الله ومنّته نعرفه باسمه ونسبه عليه السلام .

ومّا يدلّ على أنّ المراد من الأمة الوسط خصوص الهداة المعصومين قوله تعالى : ﴿لَتَكُونُوا﴾ يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ من سائر الامم بأنّ الرسل بلّغهم في الدنيا ويبيّنوا لهم الحقّ والدّين.

في رواية (المناقب) قال : « ولا يكون الشهداء على النّاس إلّا الأئمّة والرّسل ، فأما الأئمّة فإنّه غير جائز أن يستشهدها الله تعالى وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل » ^(١) .
روي أنّ الامم يححدون يوم القيامة تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله تعالى الأنبياء بالبيّنة على أنّهم قد بلّغوا ، وهو أعلم ، فيؤتى بأئمّة محمّد صلّى الله عليه وآله فيشهدون لهم ، وهو صلوات الله عليه يركّهم ^(٢) ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾

وقيل : إنّ المراد : لتكونوا شهداء في الدنيا على النّاس ^(٣) - أي حججا عليهم - تبيّنون لهم الحقّ والدّين ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ومؤدّيا للشرع ومبيّنا لكم أحكام دينه.

ثمّ بيّن الله تعالى حكمة جعل بيت المقدس قبلة للمسلمين بقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ القبلة للصّلاة ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ﴾ مستقرا ﴿عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس لشيء من الأشياء ووجه من الوجه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ﴾ من المسلمين ﴿الرَّسُولَ﴾ وتميّزه ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ ويرتدّ عن دينه الحقّ ، ويرجع القهقري إلى كفره السابق.

عن (تفسير الإمام) و (الاحتجاج) : عنه عليه السلام : « يعني إلّا لنعلم ذلك منه موجودا بعد أن علمناه سيوجده . قال : وذلك أنّ هوى أهل مكّة كان في الكعبة ، فأراد [الله] أن يبيّن متبع ^(٤) محمّد صلّى الله عليه وآله ممّن

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ١٧٩ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ١٠٠ .

(٣) تفسير أبي السعود ١ : ١٧٣ .

(٤) في الاحتجاج : متبعي .

خالفه ^(١) باتباع القبلة التي كرهها ومحمد ﷺ يأمره ^(٢) بها. ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها والتوجه إلى الكعبة ، ليتبين من يوافق محمدا ﷺ فيما يكرهه وهو مصدقه وموافقه ^(٣) .

وروى بعض العامة أنّ النبي ﷺ قبل الهجرة يصلي إلى الكعبة ، ثمّ بعد الهجرة - لكون غالب أهل المدينة اليهود - حوّل القبلة إلى بيت المقدس تأليفا لهم ، ثمّ رجع إلى القبلة التي كان عليها وهي الكعبة ^(٤) .

وعلى هذا حصل الامتحان المذكور في الآية بمجموع التحويلين ، حيث إنّ العرب بتحويل القبلة إلى بيت المقدس ، واليهود بتحويلها عنه إلى الكعبة ، صاروا منجزين عن النبي ﷺ ودينه. ونقل أنّه رجع جمع عن الإسلام وقالوا : لو كان محمد على يقين من أمره لما تغيّر رأيه. وكانوا يقولون : مرّة هاهنا ومرّة هاهنا ! وقال المشركون : تحيّر محمد في دينه. وقال اليهود : اشتاق إلى بلد أبيه ومولده ^(٥) ! ولذا قال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ التولية من قبله إلى قبله ، أو القبلة المحولة أو الصلاة إلى بيت المقدس ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ وثقيلة مستنكرة على طباع جميع الناس ﴿إِلَّا عَلَى﴾ طباع ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ قلوبهم ، وعرفهم بقوة عقولهم وتنوّر بصائرهم أنّ المصالح تتغيّر بتغيّر الأوقات والأشخاص وسائر الجهات ، وأنّه تعالى يتعبّد العبيد بخلاف ما يريدونه ليبتلّي طاعتهم في مخالفة هوى أنفسهم.

ثمّ وعد المؤمنين الثابتين على الإيمان والمطيعين للرسول ﷺ في الصلاة إلى بيت المقدس بقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ وليس من شأنه ﴿لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وثباتكم على تصديق الحقّ أو صلاتكم التي صليتم إلى الصخرة.

عن الصادق عليه السلام في رواية : « ولما أن صرف نبيّه ﷺ إلى الكعبة عن بيت المقدس ، قال المسلمون للنبي ﷺ : أ رأيت صلواتنا التي كنّا نصلي إلى بيت المقدس ، ما حالنا فيها وحال من مضى من أمواتنا وهم يصلّون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ فسَمِيَ الصلاة إيمانا. فمن لقي الله حافظا لجوارحه ، موفيا كلّ جارحة من جوارحه ما فرض الله عليه ، لقي الله مستكملا لإيمانه

(١) في تفسير العسكري عليه السلام : من مخالفه.

(٢) في تفسير العسكري عليه السلام والاحتجاج : يأمر.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٤٩٥ / ٣١٢ ، الاحتجاج : ٤٢.

(٤) تفسير الكشاف ١ : ٢٠٠ ، تفسير الرازي ٤ : ١٠٣.

(٥) تفسير الرازي ٤ : ١٠٤.

وهو من أهل الجنة ، ومن خان في شيء منها ، أو تعدّى ما أمر الله فيها ، لقي الله ناقص الإيمان »^(١) .

ونقل أنّ جماعة من المسلمين كأبي أمامة ، وسعد بن زرارة ، وبراء بن عازب ، وبراء بن معرور وغيرهم ، ماتوا على القبلة الاولى ، فتوهم عشائريهم أنّ الصلاة التي أتوا بها على القبلة الاولى كانت ضائعة ، لتوهم أنّ الحكم الأول كان باطلا . فقالوا : يا رسول الله ، توفي إخواننا على القبلة الاولى ، فكيف حالهم وحال صلواتهم ؟ فنزلت^(٢) .

فحاصل مفاد الآية والله أعلم : أنّ التكليف الأول كالتكليف الثاني ، كلاهما عن مصلحة تامة في وقتها ، والمتمسك بكلّ تكليف في وقته متمسك بدين الله فيوقيه أجره ، إنّه لا يضيع أجر المحسنين .

ثم علّل سبحانه تغيير القبلة وعدم الإضاعة بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ﴾ فلا يرضى بضاياع أعمالهم ﴿رَحِيمٌ﴾ مفضلّ عليهم بنقلهم من صلاح إلى ما هو أصلح ، ومن نافع إلى ما هو أنفع لهم في الدّين والدنيا . والمراد أنّه تعالى يعطيهم زيادة على أجر أعمالهم من رحمته وفضله ما لا يتصوّر ولا يحصى .

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾

ثم أنّه روي عن العسكري عليه السلام « أنّه بعد حكاية مقالات اليهود في اتّباع النبي ﷺ قبلتهم ، قال : فاشتدّ ذلك على رسول الله ﷺ لما اتّصل به منهم ، وكره قبلتهم ، وأحبّ الكعبة فجاءه جبرئيل ، فقال له رسول الله ﷺ : يا جبرئيل ، لوددت لو صرفني الله عزّ وجلّ عن بيت المقدس إلى الكعبة ، فلقد تأذيت بما اتّصل بي من قبل اليهود . فقال جبرئيل عليه السلام : فسل ربك أن يحولك إليها ، فإنّه لا يردك عن طلبتك ، ولا يخيّبك عن بغيتك . فلما استتمّ دعاءه صعد جبرئيل عليه السلام ثمّ عاد من ساعته ، فقال : اقرأ يا محمد ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾^(٣) ونشاهد تردّده في جهتها إلحاحا في الدّعاء وتطلّعا

(١) تفسير العياشي ١ : ١٦١ / ٢٢٠ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ١٠٦ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٤٩٢ / ٣١٢ .

للوحي .

وروي من طرق العامة أنه صلوات الله عليه وآله كان يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة ، لأنها قبله أبيه إبراهيم عليه السلام وأقدم القبلتين . وأدعى للعرب إلى الإيمان من حيث إنها كانت مفخرة لهم وأمنا ومزارا ومطافا ، ولمخالفة اليهود ، فإنهم كانوا يقولون إنه يخالفنا في ديننا ، ثم إنه يتبع قبلتنا ، ولو لا نحن لم يدر أين يستقبل . فعند ذلك كره أن يتوجه إلى قبلتهم - إلى أن قال - إنه جعل يدسم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبرئيل بالذي سأله ربه ، فأنزل الله هذه الآية (١) . ثم أعلم أن توضيح معنى كراهة النبي صلى الله عليه وآله التوجه إلى الصخرة بعد ما اتصلت به مقالات اليهود ، أنه لا اتصال نفسه المقدسة باللوح المحفوظ ، وإطلاعه على انقضاء عدة الصلاح العارضي الذي كان في التوجه إلى الصخرة ، وتحقيق الصلاح المزمع في التوجه إلى الكعبة ، كره التوجه إلى الأول ، وأحب التوجه إلى الثاني ، فكان ينتظر الوحي وصدور الأمر من الله .

ثم لما كان تمام الصلاح في حكمه تعالى متوقفا على أن يقع التحويل باستدعائه وإظهار رضاه به ، وكراهته عن التوجه إلى قبله اليهود ، وكان ذلك مصادفا لمقالاتهم الشنيعة ، أظهر عليه السلام تلك الكراهة وذلك الرضا ، وسأل ودعا ، فأبان الله عظمة شأن حبيبه عنده بإجابة دعائه وموافقة رضاه بقوله : ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ﴾ ولنعطينك ﴿قَبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ولنجعلنك متمكنا من استقبال جهة تحبها لمصالح دينية من غير [دواعي] الهوى النفسانية .

قيل : إنه تعالى قال : ﴿قَبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ولم يقل قبله أرضاها للإشارة إلى أن جميع الكائنات يطلب رضاي وأنا أطلب رضاك في الدارين ، أما في الدنيا فتحويل القبلة ، وأما في الآخرة فبالعفو عن أمتك حتى ترضى (٢) .

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ وحول ﴿وَجْهَكَ﴾ مع جميع مقادير بدنك في حال صلاتك ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ونحوه ، وفي ذكر الشطر إشعار بكفاية مراعاة الجهة وعدم لزوم الاستقبال الحقيقي لعين الكعبة بحيث إذا خط مستقيما انتهى إليها .

وقيل : إن فيه إشعارا بوجوب التوجه إلى العين لوقوع الكعبة في شطر المسجد وهو نصفه ، والحق هو الأول .

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٥١ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٩٥ .

في تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

عن (الفقيه) في رواية : « تَمَّ عِيْرَتَهُ الْيَهُودُ فَقَالُوا : إِنَّكَ تَابِعَ لِقِبْلَتِنَا . فَاغْتَمَّ لَذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ خَرَجَ يَقْلُبُ وَجْهَهُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ صَلَّى الْغَدَاةَ ، فَلَمَّا صَلَّى مِنَ الظُّهْرِ رَكَعَتَيْنِ جَاءَهُ جِبْرِئِيلُ ، فَقَالَ لَهُ : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ الْآيَةَ . ثُمَّ أَخَذَ يَبْدُو النَّبِيَّ ﷺ فَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَحَوَّلَ مِنْ خَلْفِهِ وَجُوهَهُمْ حَتَّى قَامَ الرِّجَالُ مَقَامَ النِّسَاءِ ، وَالنِّسَاءُ مَقَامَ الرِّجَالِ . فَكَانَ أَوَّلُ صَلَاتِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَآخِرُهَا إِلَى الْكَعْبَةِ . وَبَلَغَ الْخَبْرَ مَسْجِدًا بِالْمَدِينَةِ وَ[قَدْ] صَلَّى أَهْلُهُ مِنَ الْعَصْرِ رَكَعَتَيْنِ فَحَوَّلُوا نَحْوَ الْكَعْبَةِ ، فَكَانَتْ أَوَّلُ صَلَاتِهِمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَآخِرُهَا إِلَى الْكَعْبَةِ ، فَسَمِيَ ذَلِكَ الْمَسْجِدُ : مَسْجِدَ الْقِبْلَتَيْنِ » (١) .

وقيل : كَانَ تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ فِي رَجَبٍ بَعْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ قَبْلَ قِتَالِ بَدْرَ بِشَهْرَيْنِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَسْجِدِ بَنِي سُلَيْمَةَ . فَسَمِيَ الْمَسْجِدُ مَسْجِدَ الْقِبْلَتَيْنِ (٢) .

ثُمَّ لَمَّا لَا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ أَنَّ وَجُوبَ التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ مَخْتَصٌّ بِبَلَدِ الْمَدِينَةِ وَبِشَخْصِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْحَاضِرِينَ عِنْدَهُ ، عَمَّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْخُطَابُ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ صَلَّيْتُمْ ﴿ فَوَلُّوا ﴾ وَحَوَّلُوا ﴿ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ وَنَحْوَهُ .

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَا طَمَئِنَّانَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هَذَا التَّحْوِيلَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ، أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي الْكُتُبِ السَّمَاءِيَّةِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ بِقِرَاءَتِهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ [يَعْلَمُونَ] أَنَّ مِنْ عِلَالِمِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ أَنَّهُ يَصَلِّي إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ ، وَاللَّهُ ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ النَّازِلُ ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ حَالَهُمْ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَخْتَلِجَ الشُّبْهَةُ فِي قُلُوبِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، مَعَ عِلْمِكُمْ بِصَدَقِ نَبِيِّكُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ .

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ مِنْ اتِّبَاعِكُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَسْلِيمِكُمْ لِأَمْرِهِ ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ أَحْسَنَ جَزَاءِ الْعَامِلِينَ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾

(١) مِنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ : ١٧٨ / ٨٤٣ .

(٢) تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُود ١ : ١٧٤ .

ثمَّ أنّه تعالى بعد ما ذكر أنّ أهل الكتاب عالمون بأنّ تحويل القبلة حقّ ، بيّن أنّ إصرارهم على المخالفة من جهة العناد واللّجاج بقوله : ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنّصارى ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ باهرة وبرهان قاطع على أنّ التوجّه إلى الكعبة حقّ ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأنّ مخالفتهم ليست عن شبهة حتّى يزيلها البرهان ، بل عن عناد ولجاج ومكابرة ، لعلمهم بكونها حقّاً ، والمكابرة لا تنفعه الدلائل ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ فليس لهم أن يطمعوا في رجوعك إليها. نقل أنّهم كانوا يتناحون في ذلك ويقولون : لو ثبت محمّد على قبلتنا ، لكنّا نرجو أن يكون صاحبنا الذي نتظره. وكانوا يطمعون في رجوعه إلى قبلتهم (١) .

ثمَّ وبخّهم الله في قوله : ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ بأنّهم مع اتّفاقهم على مخالفة النبيّ ﷺ في قبلته ليسوا متّفقين على قبلة واحدة ، حيث إنّ اليهود كانوا يستقبلون إلى الصّخرة ، والنّصارى إلى المشرق ، بل كلّ معرض عن قبلة الآخر ، لتصلّب كلّ في التي يهواها بهواه. ثمَّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ دينهم وثباتهم على قبلتهم صرف متابعة الهوى ، وأنّها من أشدّ المعاصي ، بالغ في تهديدهم بالكناية التي هي أبلغ من التّصريح ، حيث وجّه الخطاب إلى نبيّه ﷺ بقوله : ﴿وَلَيْنَ﴾ وافقت أهل الكتاب و﴿اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ومشتبهات نفوسهم في أمر القبلة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾ بفضل الله ورحمته ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنّ قبلة الله هي الكعبة ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على نفسك بتعريضها للهلاك وأشدّ العذاب ، مع أنّك أشرف الكائنات عند الله ، وأحبّ الخلق إليه ، فكيف بهؤلاء الكفرة وهم أبغض الخلق عنده !

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ

الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾

ثمَّ أكّد سبحانه أنّ مخالفتهم للنبيّ ﷺ في دينه مطلقاً ، قبلة كان أو غيرها ، ليست إلّا عن عناد وعصبيّة وهوى ، لا للشبهة في نبوّته وصدقته ، بقوله : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وكان لهم فهم دراسته ، كالأحبار والرّهبان ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ بالرسالة لمعرفتهم بعلائمه المذكورة في الكتب السماويّة

(١) تفسير الرازي ٤ : ١٢٦ .

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ لا يشتبهونهم ^(١) بغيرهم. والتكنية عن الرسول ﷺ بالضمير من غير سبق ذكره لتعظيمه وتفخيمه وللايدان بشهرته غاية الاشتهار ومعروفيته بغاية المعرفة.

قيل : وجه تخصيص الأبناء بالذكر دون البنات ، أنهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق. وإنما لم يقل : كما يعرفون أنفسهم ، لأنّ الانسان لا يعرف نفسه إلّا بعد انقضاء برهة من الزّمان من ولادته ، ولكن يعرف ولده حين ولادته ^(٢) .

نقل أنّه سئل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال : أنا أعلم به منّي بابني ، لأني لست أشكّ في محمّد ﷺ أنّه نبيّ ، وأمّا ولدي فلعلّ والدته خانت ^(٣) .

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ وهم المصرون على اللّجاج دون فريق آخر كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿يَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ عنادا وتحفظا لرئاستهم الباطلة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمّدا نبيّ ، وأنّ الكعبة قبلّة الله ، وأنّ كتمان الحقّ من أقبح المعاصي.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾

ثمّ لما كان تغيير القبلة غريبا في الأنظار ، ومجالا لشبهات الكفار ومقالاتهم ، وكانت قلوب ضعفاء المؤمنين معرضا للتزلزل والشكّ في دينهم ، أكّد الله أمر القبلة بقوله : ﴿الْحَقُّ﴾ الذي أنت يا محمّد عليه من أمر القبلة نازل ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ اللطيف ، بل المتفضّل عليك ، فإذا كان ذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ فيه ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ والشاكّين. والمقصود من نهيه نهي امته عن الامتراء ، من باب (إِيَّاكَ أعني واسمعي يا جارة) ومرجع نهيهم عنه أمرهم بضدّه الذي هو اليقين وطمأنينة القلب. قيل : إنّ الحقّ مفعول ليعلمون ، ومنصوب به.

إن قيل : كيف يمكن أن يكون النبيّ ﷺ أعرف من أبنائهم عندهم إلّا إذا كان في التّوراة والإنجيل بيان جميع مشخصاته ؛ من صفاته ، وصورته ، وشمائله ، واسمه ، واسم أبيه ، وأمه ، ونسبه ، وقبيلته ، وزمان ظهوره. وإذا كان ذلك كان هو ﷺ معروفا بين المشرق والمغرب لمعروفية الكتابين في أطراف العالم. فإذا لم يمكن لأحد من اليهود والنصارى إنكاره.

(١) كذا ، وفي روح البيان ١ : ٢٥٢ لا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبنائهم.

(٢) روح البيان ١ : ٢٥٢.

(٣) تفسير الرازي ٤ : ١٢٨.

قلت : يكفي في تعريفه ﷺ بيان جملة من صفاته في الكتابين منضمّة إلى معجزاته الباهرات المشهورات في المدينة ونواحيها ، فلم يكن لأهل الكتاب الساكنين فيها مجال للريب في أنّه هو النبي الموعود ، خصوصا مع التصريح باسمه محمد ﷺ في التوراة واسمه أحمد في الإنجيل ، مع إخبار جمع من الكهنة بقرب زمان ظهوره ، أو ظهوره ^(١) .

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)

ثمّ أنّه تعالى قرّب أمر تحويل القبلة إلى الأذهان ، ورفع استبعاد تخصيص المسلمين بوجوب التوجّه إلى الكعبة المعظمة بقوله : ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الامم ، ولأيّ ملة من الملل ﴿وِجْهَةٌ﴾ معيّنة ، وقبلة مختصة مقرّرة من قبل الله ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ إيتاهم ، وأمر بالتوجّه والاستقبال إليها كلّهم . بل قال بعض : إنّ لكلّ طائفة من الملائكة أيضا قبلة خاصّة بهم : العرش قبلة الحملة ، والكرسيّ قبله البرّة ، والبيت المعمور قبلة السّفرة ^(٢) .

وقال آخر : العرش قبلة المقرّبين ، والكرسيّ قبلة الرّوحانيّين ، والبيت المعمور قبلة الكروبيّين ، والحقّ قبلة المتحيّزين ، حيث قال : اينما ﴿تَوَلَّوْا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وبيت المقدس قبلة الأنبياء والمرسلين ، والكعبة قبلة إبراهيم ﷺ وخاتم النبيّين ﷺ ^(٣) . فأمر القبلة راجع إلى الله ، والعبادة والانقياد راجع إلى العباد .

إذا تبين ذلك ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ وتسارعوا أيّها المؤمنون إلى ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ والطّاعات وموجبات المثوبات التي منها التزام التوجّه إلى الكعبة والصّلاة إليها .

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ وفي أيّ مكان من أطراف العالم تصلّون ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ ويجمع صلواتكم إلى جهة واحدة وهي الكعبة ، على ما قيل ^(٤) . أو أينما متّم من البلاد يأت بكم الله إلى المحشر فيجازيكم على أعمالكم .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من جمعكم في المحشر ، وجمع أعمالكم وتأدية ما تستحقّون من

(١) كذا ، والظاهر أو بظهوره .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٩٥ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ١٣١ .

(٤) تفسير أبي السعود ١ : ١٧٧ .

الثواب ﴿قَدِيرٌ﴾

عن (الاكمال) و(العياشي) : عن الصادق عليه السلام : « لقد نزلت هذه الآية في أصحاب القائم عليه السلام وإتّهم المفتقدون من فرشهم ليلا ، فيصبحون بمكة ، وبعضهم يسير في السحاب نهارا ، نعرف اسمه واسم أبيه واسم حليته ونسبه » (١) .

وقريب منها روايات محمولة على بيان التأويل والبطن (٢) .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠)

ثم أتت تعالى لتأكيد أمر القبلة وبيان أنه لا يوجب اختلاف مكان المصلي تغييرا فيه ، وأنه أبدي لا يطرؤه النسخ ، كرّر الحكم بقوله : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يا نبي الرحمة ، وإلى أي مكان سافرت ﴿فَوَلِّ﴾ واصرف ﴿وَجْهَكَ﴾ حال صلاتك ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وجانبه ، واعلم في هذا التولي ﴿وَإِنَّهُ﴾ بالله ﴿لِلْحَقِّ﴾ الموافق للحكمة والمصلحة ، الثابت ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكَ﴾ لا يطرؤه التغيير والنسخ أبدا.

ثم أردف الله التأكيد بالوعد والوعيد على الطاعة والمخالفة بقوله : ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من التزامكم بامتثال أمره ، وتجزيكم عليه بعصيانه ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

ثم كرّر سبحانه وتعالى قوله : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أيها الرسول ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾
قيل : في تكرار الحكم في الآيات الثلاث فوائد :

(١) اكمال الدين : ٦٧٢ / ٢٤ ، تفسير العياشي ٢ : ١٦٦ / ٢٢٤ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٣ .

(٢) راجع البرهان في تفسير القرآن ٢ : ٢٠ - ٣١ .

منها : أنّ في الآية الاولى - وهي قوله : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾^(١) - بيان حكم أهل المسجد ، وفي الآية الثانية بيان حكم أهل المدينة ، وفي الثالثة بيان حكم من كان في خارج المدينة وأقطار العالم.

ومنها : أنّ المرّة الاولى توطئة لبيان أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ أمر نبوة محمد ﷺ وأمر القبله حقّ. والمرّة الثانية لبيان أنّ الله يعلم أنّه الحقّ ، والمرّة الثالثة لبيان ذكر علله ، فلاختلاف الفوائد حسن التكرار.

ومنها : أنّ في المرّة الاولى بيان حكم القبله ، وفي الثانية التنبيه على أنّه ليس لمحض رضاك بغير ملاحظة صلاح فيه ، بل لعلم الله بأنّه الحقّ وذو صلاح تامّ. وفي الثالثة بيان دوام هذا الحكم ، بحيث لا يتطرّق إليه التّسخ.

وقيل : إنّ في المرّة الاولى إشارة إلى أنّ أحد علل التّحويل حبّ النبي ﷺ إيّاها من حيث إنّها قبله إبراهيم عليه السلام وأشرف بقاع الأرض ، ومورد توجّه العرب.

وفي الثانية إشعار بأنّ لكلّ صاحب دعوة وشريعة قبله مخصوصة ، فاختار الله لهذه الأمة التي هي أفضل الامم أشرف البقاع والجهات.

وفي الثالثة دلالة على أنّ فيه قطع حجج اليهود والمشركين^(٢) حيث قال : ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ﴾ من المشركين واليهود ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ واعتراض ، حيث إنّ مشركي العرب كانوا يقولون إنّ محمداً ليس على ملّة إبراهيم عليه السلام إذ قبله إبراهيم عليه السلام بيت الكعبة وقبله محمد بيت المقدس ، وإنّ اليهود كانوا يقولون : إنّ النبي الموعود من صفاته أنّه يصلّي إلى الكعبة بعد أن كان يصلّي إلى الصّخرة ، فلو دتم على الصّلاة إلى بيت المقدس صرتم ملزمين بحجّة الفريقين. وكان يقع الطعن في نبوة محمد ﷺ ودينه ، فبتغيير القبله انقطعت مقالات النّاس^(٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفسهم وعاندوا الدّين الحقّ من مشركي العرب الذين يقولون : بدا محمّد فرجع إلى قبله آبائه ، فيوشك أن يرجع إلى دينهم. ومن اليهود الذين يقولون : إنّ محمداً ما ترك قبلتنا إلّا حبّاً لبلده ، وميلاً إلى دين قومه ، ولو كان على الحقّ للزم قبله الأنبياء ولم يعرض عنها. ومن الواضح أنّ هذه الأباطيل غير لائقة للجواب ، وإطلاق الحجّة عليها تهكّم أو جري على اعتقادهم حيث إنّهم يسوقونها مساقها.

(١) البقرة : ٢ / ١٤٤.

(٢) تفسير الرازي ٤ : ١٣٧.

(٣) تفسير الرازي ٤ : ١٣٩.

وعن القمي عليه السلام : إنّ (إلا) هاهنا بمعنى ولا ^(١) .

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخافوا من طعنهم عليكم ، فإنّه لا يضرّكم شيئا ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ في مخالفة امري ، واحذروا عقابي في عدو لكم عمّا ألزمتكم عليه من التّوجه إلى بيتي .
ثمّ ذكر لتحويل القبلة علّة ثانية بقوله : ﴿وَلَا تُتِمَّ﴾ بالتّحويل ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ حيث وجهتكم إلى القبلة الوسط بعد ما أنعمت عليكم بنبيّ وسط ، وجعلتكم أمة وسطا .
عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « تمام النعمة دخول الجنة » ^(٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « تمام النعمة الموت على الإسلام » ^(٣) .
أقول : أتمّ النعم نعمة الولاية ، حيث قال الله تعالى : ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ^(٤) والتلازم بين دخول الجنة والاسلام الحقيقي والولاية واضح ، وأمر القبلة بعض متمّمات النعم .
قيل : إنّ المسلمين كانوا يفتخرون باتّباع إبراهيم عليه السلام اصولا وفروعا ، فلمّا امروا بالتّوجه إلى بيت المقدس حصل الإنكسار والضعف فيهم والتكدر في قلوبهم ، ولذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله يحبّ التحوّل إلى الكعبة ، فبالتّحويل تمّت النعمة بالنسبة والإضافة ^(٥) .
ثمّ ذكر الله تعالى العلّة الثالثة بقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ بالاهتداء إلى التّوجه إلى الكعبة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما فيه خيركم وصلاحكم وحسن عاقبتكم .

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون (١٥٢)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ما ذكر أنّ في تغيير القبلة إتمام النعمة ، بيّن أنّه في التماميّة كإرسال الرّسول بقوله : ﴿كَمَا﴾ أتمنّا عليكم النعمة حيث ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ عظيم الشأن كائنا ﴿مِنْكُمْ﴾ جنسا ونسبا حتّى يكون لكم شرفا ، وهو ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ الدالّة على نبوّته التي هي مبدأ جميع الخيرات الدنيويّة والأخرويّة .

(١) تفسير القمي ١ : ٦٣ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٤ .

(٢) كنز العمال ٢ : ١٧ / ٢٩٦٥ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٤ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ١٤١ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٤ .

(٤) المائدة : ٥ / ٣ .

(٥) تفسير الرازي ٤ : ١٤١ .

﴿وَيُزَكِّكُمُ﴾ بتربيته ويطهر نفوسكم من رذائل الأخلاق بتقوية عقولكم وتضعيف شهواتكم الحيوانية ، وتزهدكم عن الدنيا وزينتها ، وقطع علائقكم عنها ، حتى تكونوا باتباعه مهذبين من النواقص الأخلاقية ، مبرئين عن الأهواء النفسانية ؟ ؟ ؟

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ المجيد والقرآن الحميد. وفيه إشارة إلى أن تعليم حقائقه ودقائقه بعد تلاوته نعمة فوق نعمة ، وفي تقديم التزكية هنا على التعليم إشعار بتقديم التحلية على التجلية ، وبأها العلة الغائية ، وهي مقدم في القصد واللحاظ ومؤخر في الوجود والفعل ، ولذا اُخترت في دعوة إبراهيم عليه السلام .

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ يعلمكم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ قيل : هو العلم بأحكام الشريعة ^(١) ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ بطريق الوحي ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من العلوم بغيره ، ولا سبيل لكم إلى إدراكه واستكشافه .

وقيل : إن التشبيه راجع إلى قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ فعلى هذا يكون المعنى على ما قيل : كما ذكرتم بإرسال الرسول فاذكروني بالطاعة والانقياد ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب. أو فاذكروني بقلوبكم اذكركم برحمتي. أو اذكروني بالدعاء اذكركم بالاجابة. أو اذكروني في الخلوات اذكركم في الفلوات. أو اذكروني بمجاهدتي اذكركم بمهاديتي. أو اذكروني بالصدق والإخلاص اذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص. أو اذكروني بالزبونية اذكركم بالرحمة والعبودية.

عن الصادق عليه السلام في حديث : « يا عيسى ، اذكروني في نفسك اذكرك في نفسي ، واذكروني في ملكك اذكرك في ملاء خير من ملاء الآدميين » ^(٢) .

وعن (العياشي) عن الباقر عليه السلام قال : « قال النبي ﷺ : إن الملك ينزل الصحيفة من أول النهار وأول الليل يكتب فيها عملكم ، فاملوا في أولها خيرا وفي آخرها خيرا ، فإن الله يغفر لكم [ما بين ذلك إن شاء الله ، فإنه يقول : اذكروني ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾] ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « ذكر الله لأهل الطاعة أكثر ^(٤) من ذكرهم إياه ، ألا ترى إنه يقول : اذكروني ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ » ^(٥) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « اذكروا الله في كل مكان فإنه معكم » ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ٤ : ١٤٣ .

(٢) الكافي ٢ : ٣٦٤ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٤ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٦٧ / ٢٢٥ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٤ .

(٤) في تفسير القمي : لأهل الصلاة أكبر ، وفي تفسير الصافي : لأهل الطاعة أكبر .

(٥) تفسير القمي ٢ : ١٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٤ .

(٦) الخصال : ٦١٣ / ١٠ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٤ .

قال لقمان لابنه : يا بنيّ ، إذا رأيت قوما يذكرون الله تعالى فاجلس معهم ، فإنّك إن تك عالما ينفعك علمك. وإن تك جاهلا علّموك. ولعلّ الله يطلّع عليهم برحمته فيصيبك معهم ^(١) .
في أقسام ذكر الله وأنواعه

قيل : الذكر قد يكون باللسان ، وقد يكون بالقلب ، وقد يكون بالجوارح. فالذكر باللسان : أن يحمده ويسبحه ويمجّده ويقرأوا كتابه. والذكر بالقلب على ثلاثة أنواع : أحدها : أن يتفكّروا في الدلائل الدالّة على ذاته وصفاته ، ويتفكّروا في الجواب عن الشبه العارضة في ملك الله ^(٢) .

وثانيها : أن يتفكّروا في الدلائل الدالّة على كَيْفِيَّةِ تكاليفه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ووعدده ووعيدة ، فإذا عرفوا كَيْفِيَّةَ التّكليف وعرفوا ما في الطاعة من الوعد وفي تركها من الوعيد سهلت عليهم.

وثالثها : أن يتفكّروا في أسرار مخلوقات الله تعالى حتّى تصير كلّ ذرّة من ذرّات المخلوقات كالمرآة المجلّوة المحاذية لعالم القدس ، فإذا نظر [العبد] إليها انعكس شعاع بصره منها إلى عالم الجلال ، وهذا المقام مقام لا نهاية له.

وأما الذكر بالجوارح فهو أن تكون جوارحهم مستغرقة في الأعمال التي امرؤ بها ، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها. وعلى هذا الوجه سمّى الله تعالى الصّلاة ذكرا ، بقوله : ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ^(٣) فالأمر في قوله : اذكروني متضمّن لجميع الطّاعات.

كما نقل عن سعيد بن جبير ، أنّه قال في تفسيره : اذكروني بطاعتي ^(٤) . ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بالذكر الذي هو بأحد الوجوه أهمّ العبادات وروحها ، أمر بالشّكر بقوله : ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ على جميع نعمي ، ظاهرة كالصّحة والأمنيّة وغيرها. وباطنيّة : كإرسال الرّسول والهداية إلى الدّين القويم والطريق المستقيم الذي منها تحويل القبلة.

وهذا أمر بجميع الطاعات ، فإنّ من الشكر القيام بالواجبات ، والاهتمام بترك المحرّمات ، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام : « شكر كلّ نعمة الورد عن محارم ^(٥) الله ^(٦) » . وأقلّ مراتب الشّكر ثناؤه تعالى

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٥٧ .

(٢) في تفسير الرازي : الشبهة القادحة في تلك الدلائل.

(٣) الجمعة : ٦٢ / ٩ .

(٤) تفسير الرازي ٤ : ١٤٣ ، تفسير روح البيان ١ : ٢٥٦ .

(٥) في الخصال وتفسير الصافي : عمّا حرّم.

(٦) الخصال : ١٤ / ٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٥ .

وحمده.

كما عن (العياشي) : عن الصادق عليه السلام أنه سئل : هل للشكر حدّ إذا فعله الرجل كان شاكرًا ؟ قال : « نعم » .

قيل : وما هو ؟ قال : « الحمد لله على كلّ نعمة أنعمها عليّ ، وإن كان له فيما أنعم به عليه حقّ أدّاه ، ومنه قول الله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ^(١) .
وعنه عليه السلام في رواية : « عند النعمة الشكر فريضة » ^(٢) الخبر .

وإنما لم يقل : اشكروني ، لما في قوله : ﴿اشْكُرُوا لِي﴾ إشعار باختصاص الشكر به تعالى ، وعدم استحقاق غيره له ، لأنّ جميع النعم بفضلها ومنتهية إليها .
ثمّ لتأكيد ذلك الأمر نهي عن ضده بقوله : ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ نعمي بجلّها ، وعصيان أمري ، بل عليه يكون ترك الشكر كفرًا .

وقيل : إنّ المراد لا تكفرون بي ، ولا تجحدون وحدانيّتي والوحيّتي ، وإنّما حصّ الكفر به تعالى بالنهي عنه ، للتنبية على أنّه أعظم قباحة بالنسبة إلى كفر نعمه ^(٣) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾

ثمّ لما كان حقيقة شكره وهو تذكّر نعمه والقيام بجميع أوامره وترك ارتكاب جميع منهيات شاقّة على النفوس وثقيلًا على الطّباع ، أمر بالصّبر والتوجّه إلى عظمتها وسعة رحمته بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ على طاعة الله والتورّع عن محارمه وأداء حقّ شكره ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على تحمّل مشاقّ الأمور وبكفّ النفس عن مخالفة أحكام الله واتباع الشّهوات ، فإنّ قوّة تحمّل المشاقّ من غير جزع واضطراب ذريعة إلى فعل كلّ خير ، ومبدأ كلّ فضل .

عن النبي ﷺ : « الصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » ^(٤) .

وقال : « الصّبر خير كلّ ، فمن تحلّى بحلية الصّبر سهل عليه القيام بالطّاعات ، والاجتناب

عن

(١) تفسير العياشي ١ : ١٦٧ / ٢٢٦ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٥ ، والآية من سورة الزخرف : ٤٣ / ١٣ .

(٢) الخصال : ٨٦ / ١٧ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٢٥٦ .

(٤) الكافي ٢ : ٧٢ / ٣ ، تفسير روح البيان ١ : ٢٥٧ .

المنكرات ، وتحمل البلايا والمصيبات » (١) .

عن النبي ﷺ في حديث : « ثم ينادي مناد : أين أهل الصبر ؟ فيقوم ناس يسرون سراعاً إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون : إنّا نراكم سراعاً إلى الجنة ، فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر . فيقولون : ما كان صبركم ؟ قالوا : كنّا نصبر على طاعة الله ، ونصبر عن معاصي الله . فيقال لهم : أدخلوا الجنة » (٢) .

وعن الصادق عليه السلام (٣) في رواية : « عند البلاء من الله الصبر فريضة » (٤) .

وقيل : إنّ المراد بالصبر هنا ، الصبر على الصّوم (٥) .

ثم لما كان التوجّه إلى الله وحضور القلب عنده في الصلّاة أكمل وأتمّ ، أمر بالاستعانة بها بقوله : ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ التي روي أنّها معراج المؤمن (٦) ، وقربان كلّ تقي (٧) ، وأنّها الناهية عن الفحشاء والمنكر (٨) .

وعنه عليه السلام : كان إذا حزبه (٩) أمر فرع إلى الصلّاة ، وتلا هذه الآية (١٠) .

ثم لما كان الصبر على الطّاعة متضمّناً للاهتمام بالصلّاة والقيام بسائر العبادات أكّد الأمر بالاستعانة به بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالتّوفيق واجابة الدّعوة والنّصرة على الأعداء .

وقيل : إنّ المراد بالصبر في الآية الصبر على الجهاد بشهادة إردافه بقوله : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وجهاد أعدائه ونصرة دينه وإعلاء كلمته ، أنّهم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ منقطعوا الأثر في الدّنيا ، فإنّ الميّت من لا يبقى منه أثر ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءُ﴾ حيث إنّهم أحيوا دين الاسلام وسنّة الجهاد ، فما دام الاسلام باقياً في الدّنيا ، آثارهم باقية وثواب عملهم غير منقطع عنهم ، لأنّ من سنّ سنّة حسنة ، كان له أجر من عمل بها .

﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بالحواسّ الظاهرة هذا التّحو من الحياة ، حيث إنّها أمر معنوي لا يدرك إلّا بالعقل السّليم أو بالوحي من الله وإخبار أنبيائه .

في عدد قتلى بدر وأسمائهم

روي عن ابن عباس أنّها نزلت في قتلى بدر من المسلمين ، وهم يومئذ أربعة عشر رجلاً ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، فمن المهاجرين : عبيدة بن الحارث

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٥٧ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٥٨ .

(٣) في الخصال وتفسير الصافي : الباقر عليه السلام .

(٤) الخصال : ٨٦ / ١٧ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٥ .

(٥) تفسير الرازي ٤ : ١٤٤ . (٦) بحار الأنوار ٨٢ : ٣٠٣ .

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٦ / ٧ .

(٨) كما ورد في سورة العنكبوت : ٢٩ / ٤٥ .

(٩) حزيه الأمر : نابه واشتدّ عليه .

(١٠) تفسير الرازي ٤ : ١٤٥ .

بن عبد المطلب ، وعمر بن أبي وقاص ، وذو الشمالين ، وعمرو بن نفيلة ، وعامر بن بكر ، ومهجع بن عبد الله. ومن الأنصار سعيد بن خثيمة ^(١) ، وقيس بن عبد المنذر ، وزيد بن الحارث ، وتميم بن الهمام ، ورافع بن المعلّى ، وحارثة بن سراقة ، ومعوذ بن العفراء وعوف بن العفراء وكانوا يقولون : مات فلان ، ومات فلان ، فنهى الله تعالى أن يقال فيهم أمّ ماتوا. وقيل : إنّ الكفار والمنافقين قالوا : إنّ الناس يقتلون أنفسهم طلبا لمرضاة محمد من غير فائدة ، فنزلت هذه الآية ^(٢) .

وعن (الكافي) و(التهذيب) : عن يونس بن ظبيان ، عن الصادق عليه السلام أنّه قال له : « ما يقول الناس في أرواح المؤمنين ؟ » قال : يقولون في حواصل طيور خضر في قناديل تحت العرش. فقال عليه السلام : « سبحان الله ! المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير ! يا يونس ، إذا كان ذلك أتاه محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والملائكة المقربون ، فإذا قبضه الله تعالى صير تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت له في الدنيا » ^(٣) .

وعن (التهذيب) : عنه عليه السلام أنّه سئل عن أرواح المؤمنين فقال : « في الجنة على صور أبدانهم ، لو رأيته لقلت : فلان » ^(٤) .

في بيان حال المؤمن في البرزخ

أقول : ظهر أنّ المراد من الحياة في الآية هي الحياة البرزخية ، التي عبارة عن تعلق الروح بالجسد المثالي الذي هو جوهر هذا الجسد الدنيوي ، في عالم البرزخ الذي هو عالم بين العالمين ، كما دلّت عليه الأخبار المتواترة ، وضرورة المذهب أو الدين.

ولمّا اختصّ هذه الحياة بالشهداء والمؤمنين مع كونها للكفار والعصاة أيضا ؛ لأنّ حياة الشهداء مقرونة باللذة والتّعة والبهجة والكرامة دون حياة غيرهم ، حيث إنّها مقرونة بالعذاب والنّقمة ، فكأنّها ^(٥) ليس بحياة ، كما قال تعالى في حقّ أهل النار : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ^(٦).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

(١) في النسخة : سعيد بن خثيمة ، وما أثبتناه من تفسير الرازي.

(٢) تفسير الرازي ٤ : ١٤٥ .

(٣) الكافي ٣ : ٢٤٥ / ٦ ، التهذيب ١ : ٤٦٦ / ١٥٢٦ .

(٤) التهذيب ١ : ٤٦٦ / ١٥٢٧ .

(٥) في النسخة : فكأنّها.

(٦) طه : ٢٠ / ٧٤ .

وَالثَّمَرَاتِ وَيَشْرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)

ثمَّ أنَّه تعالى لتوطيئ العباد نفوسهم على الصَّبْرِ في المكارِه بعد أمرهم بالاستعانة به ، نبههم على أنَّ جميع البَلايا من جانب الله لطف بهم وامتحان لهم بقوله : ﴿وَاللَّيْلُ نَوْمُكُمْ﴾ ولنختبرنَّ كمال نفوسكم وقوَّة إيمانكم ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل ﴿مِنَ الْخَوْفِ﴾ من أعدائكم ﴿وَمِنَ الْجُوعِ﴾ العارض لكم بسبب الفقر والقحط ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ بالتلف بالسرقة والغارة وغير ذلك ﴿وَمِنَ الْأَنْفُسِ﴾ بالقتل والمرض والموت وغير ذلك من الآفات الجسمانيَّة ﴿وَمِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وحاصل الأشجار والزَّرع بالجذب وسائر الآفات.

قيل : في توصيفها بالقلة إشعار بأنَّها وإن كثرت فقليلة بالنسبة إلى ما فوقها ^(١) .

وقيل : إنَّ المراد من الخوف خوف الله ، ومن الجوع الصَّيام ، ومن نقص الأموال الزكاة والصدقات ، ومن نقص الأنفس الجهاد ^(٢) ، وإنَّما صارت البَلايا امتحانا لأنَّ الإخلاص حال البلاء للمؤمن أكثر من الإخلاص حال الرِّفاه والرِّخاء.

ثمَّ أنَّه تعالى لازدياد رغبة المؤمنين بالتزام الصَّبْرِ ، وعدهم بالثَّواب العظيم إجمالا بقوله : ﴿وَيَشْرِ﴾ يا رسول الله ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على البَلايا والمصائب طلبا لمرضاة الله بالرحمة الواسعة والنعم الدائمة والفضل الذي لا يسعه البيان.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيَّة لمحمد بن الحنفية ، قال : « ألق عنك الهموم بعزائم الصَّبْرِ ، وعود نفسك الصَّبْر ، فنعم الخلق الصَّبْر ، واحملها على ما أصابك من أهوال الدنيا وهمومها » ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام ، عن أبيه ، قال : قال الفضل بن العباس ^(٤) في حديث : قال رسول الله ﷺ : « إن استطعت أن تجمل ^(٥) بالصَّبْرِ مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر فإنَّ في الصَّبْرِ على ما تكره خيرا كثيرا » الخير ^(٦) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « يا حفص ، إنَّ من صبر صبرا قليلا ، وإنَّ من جزع جزع قليلا » ثمَّ قال :

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٠ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٠ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٧٦ / ٨٣٠ .

(٤) في المشكاة والبحار : عبد الله بن العباس .

(٥) في المشكاة والبحار : تعمل .

(٦) مشكاة الأنوار : ٢٠ ، بحار الأنوار ٧٠ : ١٨٣ / ٥٢ .

« عليك بالصبر في جميع أمورك ، فإن الله عزَّ وجلَّ بعث محمدا ﷺ فأمره بالصبر والرفق » الخبر (١) .
وعنه عليه السلام في رواية : « فمن صبر كرها ولم يشك إلى الخلق ولم يجزع بحتك ستره فهو من العام ، ونصيبه ما قال الله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الخبر (٢) .

في أنّ البلاء والمصيبة من ألطف الله بالمؤمن
ثم أعلم أنّ الآية صريحة في أنّ البلاء والرخاء والنعمة والشدة كلّها من الله ، وأنّ البلاء والمصيبة من ألطافه تعالى بالمؤمن ؛ لأنّه مقدّمة للصبر الذي هو من أفاضل الصفات وأكمل الخصال والملكات للنفس.

روي عن النبي ﷺ أنّه قال : « الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ، فإذا صبر المؤمن عند نزول الشدائد كان له درجات » الخبر (٣) .

نعم ، قد يكون كفارة للسيئات كما روي عن (النهج) « أنّ الله يتلى عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات ، وحبس البركات ، وإغلاق خزائن الخيرات ؛ ليتوب تائب ، ويقلع مقلع ، ويتذكر متذكر ، ويزدجر مزدجر » (٤) .

في بيان وجه أفضلية الصبر على الطاعة من الصبر على البلاء
ثم أنّه روي : « أنّ الصبر على الطاعة من عمل الواجبات وترك المحرمات أفضل من الصبر على البلاء » (٥) ، لوضوح أنّه متوقّف على قوّة الإيمان وشدة اليقين ، حيث إنّ الانسان العاقل البالغ المكلف له قوّة شهويّة تدعوه إلى اللذات النفسانيّة العاجلة والاشتغال بها ، وقوّة عاقلية تدعوه إلى اللذات الروحانيّة الباقية ، ولو كانت آجلة ، والتجنّب عمّا يصدّ عنها ، فإذا عرف العقل أنّ الاشتغال بطلب اللذات الفانيّة يمنعه عن الوصول إلى اللذات الباقية تكون هذه المعرفة صادّة وممانعة لداعية الشهوة ، فيسمّى ذلك المنع والصدّ صبرا.

نقل كلام الفخر الرازي وتزييفه

ثمّ من العجائب ، أنّ قال الفخر الرازي في (تفسيره) : إنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الغداء لا يفيد الشّبع ، وشرب الماء لا يفيد الريّ ، بل كلّ ذلك يحصل بما أجرى الله العادة به عند هذه الأسباب ؛ لأنّ قوله : ﴿وَلْيَبْلُغْكُمْ﴾ صريح في إضافة هذه الامور إلى الله ، انتهى (٦) .

(١) الكافي ٢ : ٧١ / ٣ ، بحار الأنوار ٩ : ٢٠٢ / ٦٦ .

(٢) مصباح الشريعة : ١٨٦ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٥ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ١٤٩ ، إلى قوله : شكر .

(٤) نهج البلاغة : ١٩٩ الخطبة ١٤٣ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٦ .

(٥) بحار الأنوار ٧٦ : ١٦ .

(٦) تفسير الرازي ٤ : ١٥٣ .

وفيه من الوهن ما لا يخفى ، إذ يكفي في إضافة هذه الامور إليه تعالى على وجه الحقيقة ، إضافة إيجاد أسبابها إليه. وأمّا قوله : إنّ إضافتها بواسطة الأسباب إليه مجاز لا يصار إليه إلا بعد تعذّر الحقيقة ، فممنوع أشد المنع ، لوضوح كون إسناد الكتابة التي تحصل بتوسط القلم إلى الكاتب الشاعر المختار حقيقة عند العرف. نعم ، لو كان الوسطة فاعلا عاقلا مختارا ، أمكن أن يكون الإسناد إلى غير المباشر مجازا ، كإسناد فتح البلد إلى الأمير.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦)

ثمّ أنّه تعالى وصف الصّابرين بأنّهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ﴾ ووصلت إليهم ﴿مُصِيبَةٌ﴾ وبلية وكربة ﴿قَالُوا﴾ تسكننا لقلوبهم ، وتسهيلا لتحملها على أنفسهم ﴿إِنَّا﴾ مملوكون ﴿لِلَّهِ﴾ مخلوقون بقدرته ، مهوورون تحت إرادته ، متقلّبون في قبضته بمشيئته ﴿وَإِنَّا﴾ بعد الموت والخروج من هذه الدنيا الفانية ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ورحمته وقدرته وسلطانه ﴿رَاجِعُونَ﴾ كما كنّا قبل ولادتنا ودخولنا في تكفّل الآباء تحت قدرته وسلطنته ، لم يكن لأحد علينا في العوالم السابقة من أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات تصرّف وتدبير وإرادة وتقدير ، بل كنّا نتقلّب وتعيش فيها بالعيش المناسب لها بمشيئته وحكمته وقضائه وقدره.

ففي الجملة الأولى إقرار بالمبدأ ، وفي الثانية : بالمعاد. ولا ريب أنّ معرفتهما من أكمل المسكّنات للقلب عند نزول ما يشقّ عليه تحمّله ، ورؤية ما لا يلائم طبعه ، حيث إنّ العبد إذا عرف أنّه لا وجود له إلا بإفاضة الله ، ولا إرادة له عند إرادته ، ولا تصرّف له في شيء من أموره ، ولا معرفة له بمصالحه ومفاسده ، وأنّ هذه الحياة الدنيا منقطعة ، ونعمها زائلة ، وأنّه منتقل منها إلى دار الجزاء وعالم البقاء ، رضي برضا الله ، وسلّم الأمر إليه ، وهان عليه جميع ما يرد عليه من البلايا والمكاره.

عن ابن مسعود رضى الله عنه : لئن أحرّ من السّماء أحبّ إليّ من أن أقول في شيء قضاء الله : ليتّه لم يكن ^(١) .

وروي أنّه كلّما اشتدّ الأمر على الحسين بن عليّ عليه السلام في يوم الطّفّ أشرق وجهه سرورا ^(٢) . وأنّ حبيب بن مظاهر كان يضحك في ذلك اليوم. ف قيل له في ذلك ، فقال : أيّ موضع أحقّ بالسّرور من

(١) تفسير الرازي ٤ : ١٥٥ .

(٢) بحار الأنوار ٤٤ : ٢٩٧ / ٢ .

هذا الموضع ! والله ما هو إلا أن يقبل علينا هؤلاء القوم بأسيا فهم ، ثم نعانق الحور العين ^(١) .
وعن سعيد بن جبير ، قال : ما اعطى أحد في المصيبة ما اعطيت هذه الأمة - يعني
الاسترجاع - ولو اعطيه أحد لاعطي يعقوب ، ألا تسمع إلى قوله في قصة فقد يوسف ﴿يَا أَسْفَى
عَلَى يُوسُفَ﴾ ^(٢) ؟

عن النبي ﷺ أنه طفئ سراجَه فقال : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ف قيل : أمصيبة [هي]
؟ قال : « نعم ، ما ^(٣) يؤذي المؤمن فهو له مصيبة » ^(٤) .

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)

ثم بيّن الله تعالى ما يشتر به الصابرون تفضيلاً بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ الصابرون المسترجعون
﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ كثيرة وعطوفات خاصة متتالية كائنة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ومليكمهم اللطيف بهم
﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة دائمة غير منقطعة ، وهي شاملة لإيصال جميع المسارّ إليهم ، ودفع جميع المضارّ
عنهم في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المكرمون عند الله ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿الْمُهْتَدُونَ﴾ إلى كلّ حقّ
وصواب وخير وفلاح ، المرشدون إلى مقام القرب وطريق الجنة والنعم الدائمة.

عن ابن عباس ، قال : أخبر الله تعالى أنّ المؤمن إذا سلّم لأمر الله ورجع واسترجع عند
مصيبته كتب الله تعالى له ثلاث خصال : الصلّاة من الله ، والرحمة ، وتحقيق سبيل الهدى ^(٥) .

عن (الخصال) و (العياشي) عن الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ : « أربع خصال من كنّ
فيه ، كان في نور الله الأعظم : من كان عصمة امره شهادة أن لا اله إلا الله وأني رسول الله ، ومن
[إذا] أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ومن إذا أصاب خيراً قال : الحمد لله ^(٦) ،
ومن إذا أصاب خطيئة قال : أستغفر الله وأتوب إليه » ^(٧) .

وعن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام : « ما من عبد يصاب بمصيبة فيسترجع عند ذكره المصيبة
ويصبر حين يفجع إلا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وكلما ذكر مصيبته فاسترجع عند ذكر المصيبة
غفر الله له

(١) رجال الكشي : ٧٩ / ١٣٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٦١ ، والآية من سورة يوسف : ١٢ / ٨٤ .

(٣) في تفسير الرازي : نعم كل شيء .

(٤) تفسير الرازي ٤ : ١٥٥ .

(٥) تفسير الرازي ٤ : ١٥٥ .

(٦) زاد في الخصال : رب العالمين .

(٧) الخصال : ٢٢٢ / ٤٩ ، تفسير العياشي ١ : ١٦٩ / ٢٣٤ .

كُلِّ ذَنْبٍ [اِكْتَسَبَ] فِيمَا بَيْنَهُمَا »^(١) .

وعن (الخصال) و(العياشي) : عن النبي ﷺ : قال الله تعالى : « إِنِّي جَعَلْتُ^(٢) الدُّنْيَا بَيْنَ عِبَادِي قَرْضًا ، فَمَنْ أَقْرَضَنِي مِنْهَا [قَرْضًا] أُعْطِيَتْهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَمَا شِئْتُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنْ لَمْ يَقْرَضْنِي [مِنْهَا قَرْضًا] فَأَخَذْتُ مِنْهُ قَسْرًا أُعْطِيَتْهُ ثَلَاثُ خِصَالٍ ، لَوْ أُعْطِيتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ مَلَائِكَتِي لَرَضُوا : الصَّلَاةُ ، وَالْهَدَايَةُ ، وَالرَّحْمَةُ . إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي كُنَّا نَعْتَدُ ﴾^(٣) .

وفي رواية عن النبي ﷺ : « أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الْبُلُو ، يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا يَنْشُرُ لَهُمْ دِيْوَانٌ ، وَلَا يَنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ ، يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا ، ثُمَّ قُرَأَ ﴿ إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٤) .

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي صَلَاتِهِمْ ، وَاتِّبَاعَ مَلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قِبْلَتِهِ ، أَمْرُهُمْ بِاتِّبَاعِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ الْآخَرَى بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ﴾ وهما جبلان بمكة . قيل : سَمِيَ أَحَدُهُمَا بِالصَّفَا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَيْهِ آدَمُ صَفِيَّ اللَّهِ ، وَالْآخَرَى بِالْمَرْوَةِ لِأَنَّهُ جَلَسَتْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ حَوَاءُ^(٥) .

﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ وأعلام مناسكه وطاعته . قيل : ما بينهما قبر سبعين ألف نبي^(٦) . ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ ﴾ وقصده ﴿ أَوْ اعْتَمَرَ ﴾ وزاره للنسكين المعروفين . روي أَنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ علمان كالنجم والبيت في الأعيان^(٧) .

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ ولا إثم له في ﴿ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ وأن يدور ويسعى بينهما .

(١) الكافي ٣ : ٢٢٤ / ٥ .

(٢) في الخصال والعياشي : أعطيت .

(٣) الخصال : ١٣٠ / ١٣٥ ، تفسير العياشي ١ : ١٦٩ / ٢٣٢ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٢٦١ ، والآية من سورة الزمر : ٣٩ / ١٠ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٢ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٣ .

(٧) جوامع الجامع : ٣٠ .

في وجوب السعي بين الصفا والمروة ، ونكتة التعبير عنه بنفي الجناح
عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام أنه سئل أنّ السعي بين الصفا والمروة فريضة أم سنة ؟
فقال : « فريضة » .

قيل : أو ليس قال [الله] عز وجل : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قال : « كان ذلك
في عمرة القضاء ، إنّ رسول الله ﷺ شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة ، وتشاغل
رجل عن السعي حتى انقضت الأيام ، واعدت الأصنام ، فجاءوا إليه فقالوا : يا رسول الله ، إنّ
فلانا لم يسع بين الصفا والمروة ، وقد اعيدت الأصنام ! فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ ﴾ إلى
قوله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [أي] وعليهما الأصنام » ^(١) .

وعن القمي : « أنّ قريشا كانت وضعت أصنامهم بين الصفا والمروة و [كانوا] يتمسحون
بها إذا سعوا ، فلما كان من أمر رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية ما كان ، وصدّوه عن البيت ،
وشرطوا له أن يخلوا له البيت في العام القابل حتى يقضي عمرته ثلاثة أيام ، ثم يخرج منها ، فلما
كانت عمرة القضاء في سنة سبع من الهجرة دخل مكة ، وقال لقريش : ارفعوا أصنامكم [من بين
الصفا والمروة] حتى أسعى فرفعوها » الحديث ^(٢) . كما [رواه] في (الكافي) بأدنى تفاوت ^(٣) .
وفي (الكافي) : عنه عليه السلام : « أنّ المسلمين كانوا يظنون [أنّ] السعي ما بين الصفا والمروة
شيء صنعته المشركون ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية » ^(٤) .

قيل : إنّ كان على الصفا صنم يقال له إساف ، وعلى المروة صنم يقال له نائلة ، وإتّهما
كانا رجلا وامرأة زنيا في الكعبة فمسحوا حجّين ، فوضعا عليهما ليعتبر بهما ، فلما طالبت المدّة عبدا
من دون الله ، فكان أهل الجاهليّة إذا سعوا بين الصفا والمروة مسحوا تعظيما لهما ، فلما جاء
الإسلام وكسّرت الأوثان كره المسلمون الطّواف بينهما لأنّه فعل أهل الجاهليّة ، فأذن الله تعالى في
الطّواف بينهما ، وأخبر أنّهما من شعائر الله ^(٥) .
وروي أنّ الصفا والمروة بابان من الجنّة ، وموضعان من مواضع الإجابة ، وسعيهما يعدل
سبعين رقبة ^(٦) .

(١) الكافي ٤ : ٤٣٥ / ٨ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٦٤ .

(٣) راجع الكافي ٤ : ٤٣٥ / ٨ .

(٤) الكافي ٤ : ٢٤٥ / ٤ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٢ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٣ .

في حكمة تشريع السعي

قيل في حكمة تشريع السعي : أنه لما اشتدَّ العطش على هاجر وابنها إسماعيل ، سعت بين الصفا والمروة لطلب الماء ، فأغاثها الله بالماء الذي أنبعه من زمزم ، فأمر الله الخلق بالسعي بين الصفا والمروة ليتذكروا هذه القصة ، ويعلموا أن الله وإن كان لا يخلّي أوليائه في دار الدنيا عن المحن والبلايا ، إلا أن فرجه قريب ممّن دعاه ، فإنه غياث المستغيثين. فانظر إلى حال هاجر وإسماعيل كيف أغاثهما الله ، ثم جعل أفعالهما طاعة لجميع المكلفين إلى يوم القيامة ليعلموا أن الله لا يضيع أجر المحسنين. وقيل : إنّ ذلك تحقيق لما أخبر الله تعالى به قبل ذلك من أنه يبتلي عباده بشيء من الخوف والجوع إلى آخره ، فمن صبر على ذلك نال السعادة في الدارين ، وفاز بالمقصد الأعلى في المنزلة (١).

عن الصادق عليه السلام : « جعل السعي بين الصفا والمروة مذلةً للجبارين » (٢) .

قيل : في إيراد التطوّف الذي هو من باب التفعّل إشعار بأنّ من حقّ الساعي أن يتحمّل الكلفة في السعي ويبدل جهده فيه (٣) .

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ وتبرّع بفعل المستحبات أو أتى بالطّوع والرغبة عملاً ﴿خَيْرًا﴾ من الخيرات من السعي الزائد على القدر الواجب ، أو غيره من سائر الصالحات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ له ، مجاز على عمله. وفي التعبير عن الجزاء بالشكر اشعار بكمال اللطف بعبده ﴿عَلِيمٌ﴾ بعمله وحسن نيّته ومقدار جزائه ، فلا يمكن أن يبخس منه شيئاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ما بيّن عدّة من الأحكام ، حذّر الناس عن كتمانها وكتمان كلّ حقّ بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ ويخفون عن تعمد وعناد ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ﴾ الآيات ﴿الْبَيِّنَاتِ وَ﴾ البراهين الموضّحات لأمر محمد ﷺ وصحّة دينه ، ومن ﴿الْهُدَى﴾ والرّشاد إلى كلّ حقّ وصواب.

(١) تفسير الرازي ٤ : ١٥٨ .

(٢) الكافي ٤ : ٤٣٤ / ٥ .

(٣) تفسير أبي السعود ١ : ١٨١ ، تفسير روح البيان ١ : ٢٦٣ .

﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ وأوضحناه وفصلناه ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة ، الكاتمين وغيرهم ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ السَّمَاوِيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وغيرهما ، بحيث يتلقاه ويفهمه كلُّ أحد من غير أن يكون فيه شبهة وريب .

﴿أُولَئِكَ﴾ الكاتمون ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ ويعددهم من رحمته وفضله في الدارين ﴿وَيَلْعَنُهُمُ الْأَعْنُونَ﴾ من الملائكة والجنّ والإنس ، بل كلُّ ما يتأتى منه اللعن من سائر الحيوانات والنباتات والجمادات بلسان حالهم وقدر شعورهم ، بل حتّى نفس الكاتم حيث إنّه يقول : لعن الله الكاتمين .
عن العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله : ﴿الْأَعْنُونَ﴾ قال : « نحن هم ، وقد قالوا : هوامّ الأرض » (١) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه : ما تلاعن اثنان إلّا ارتفعت اللعنة بينهما ، فإن استحقّها أحدهما وإلّا رجعت على اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ (٢) .

عن (الاحتجاج) و (تفسير الإمام) عن أبي محمد عليه السلام قال : « قيل لأمر المؤمنين صلوات الله عليه : من خير خلق الله بعد أئمة الهدى ومصابيح الدجى ؟ قال : العلماء إذا صلحوا . قيل : ومن شرّ خلق الله بعد إبليس وفرعون وثمود (٣) ، وبعد المتسمّين بأسمائكم والمتلقّبين بألقابكم والآخذين لأمكنّكم والمتأمرين في ممالككم ؟ قال : العلماء إذا فسدوا ، المظهرون للأباطيل ، الكاتمون للحقائق ، فهم الذين قال الله عزّ وجلّ : ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْأَعْنُونَ﴾ (٤) .

في حرمة كتمان العلم عن المحتاج الأمين
عن القمي مرفوعا : عن النبي ﷺ : « إذا ظهرت البدع في امتي فليظهر العالم علمه ، ومن لم يفعل فعليه لعنة الله » (٥) .

وعن النبي أنّه قال : « من سئل عن علم يعلمه فكتمه ، الجم يوم القيامة بلجام من نار » (٦) .

وعن العياشي عن الباقر عليه السلام : « إنّ رجلا أتى سلمان الفارسيّ ، فقال : حدّثني فسكت ، ثمّ عاد فسكت ، ثمّ عاد فسكت ، فأدبر الرجل وهو يتلو هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ فقال له : أقبل ، إنّنا لو وجدنا أمينا لحدّثناه » الخبر (٧) .

فدلّت الرواية على أنّ مطلق الكتمان لا يكون محرّما ، بل يكون مشروطا بكون الطالب أمينا على

(١) تفسير العياشي ١ : ١٧٣ / ٢٤٧ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٥ . (٣) في الاحتجاج وتفسير الإمام : ونمود .

(٤) الاحتجاج : ٤٥٨ ، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٠٢ / ١٤٤ .

(٥) الكافي ١ : ٤٤ / ٢ .

(٦) مجمع البيان ١ : ٤٤٢ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٩ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ١٧٢ / ٢٤٤ ، تفسير الصافي ١ : ١٨٩ .

العلم ، حافظا له كما سمعه ، غير مبدّل ولا معيّر ، وأن لا يكون في إظهار العلم ضرر على المظهر ولا على المستمع ، وأن يكون العلم ممّا يحتاج إليه السائل في عقيدته وعمله ، بحيث يجب عليه تحصيله . ودلّت الروايات أيضا على أنّ حكم الآية عامّ ، وإن قيل أنّها نزلت في رؤساء اليهود وأخبارهم ^(١) .

كما روي عن ابن عباس أنّه سأل جماعة من الأنصار نفرا من اليهود عمّا في التّوراة من صفات النبيّ ﷺ ومن الأحكام ، فكتّموا فنزلت ^(٢) .

وعنه أيضا أنّه قال : نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنّصارى . الخير ^(٣) لوضوح أنّ خصوصيّة المورد لا يختصّ عموم الحكم .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا عن كفرهم ، وندموا على كتمانهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ نيتهم وأعمالهم وتداركوا ما أفسدوه ﴿وَيَسْئَلُونَ﴾ للنّاس ما في الكتب السّماويّة من نعوت محمّد ﷺ وعلائمه . ﴿فَأُولَئِكَ﴾ التائبون الصالحون ﴿أَتُوبُ﴾ وأرجع ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بقبول التّوبة والرّحمة المغفرة ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ السّريع القبول للتّوبة ، الواسع المغفرة للتّائبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾

ثمّ لما لم تكن في الآية السابقة دلالة على استمرار اللّعة عليهم ، صرّح سبحانه وتعالى بكوّنهم ملعونين بعد الموت إذا استمرّوا على كفرهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبآياته وكتّموها عن النّاس ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يرتدعوا عن عقائدهم الفاسدة ، ولم يتوبوا من أفعالهم الشّنيعة . ﴿أُولَئِكَ﴾ المصرون على الكفر ومعاندة الحقّ ، مستقرّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بعد خروجهم من الدنيا ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وطردهم من رحمته ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ﴾ حتّى الكفّار منهم ، حيث إنّهم يلعنون الكفّار في الدنيا لا دعائهم أنّهم ليسوا منهم ، وقد أخبر الله تعالى بأنّ يوم القيامة يلعن بعضهم بعضا .

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٤ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ١٦٢ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ١٦٢ .

وقيل : إنّ المراد بالنّاس في الآية المؤمنون منهم لأنّهم المنتفعون بالإنسانية ، وأمّا الكفّار فهم كالأنعام بل هم أضلّ (١) ، فاللّعة محيطه بهم حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين ﴿فِيهَا﴾ لا خلاص لهم منها ، فلازم دوام اللّعة عليهم أنّه ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ كيفيّة ولا يهوّن عليهم ساعة ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ويمهلون لحظة.

وقيل : إنّ المراد أنّه لا ينظر إليهم ربّهم نظر الرّحمة (٢) .

﴿وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾

ثمّ أنّه لما كان الشّرك ساريا في اليهود والنصارى وغيرهم من العرب ، دعا الله تعالى جميعهم بعد محاجّتهم في النبوّة إلى التّوحيد الخالص بقوله : ﴿وَالْهَيْكُمُ﴾ ومعبودكم أو مفزعكم أيّها النّاس ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ومفزع أو معبود فارد لا تعدّد له حتّى تباينوا في المقصد وتشعّبوا في المسلك. ثمّ قرّر وحدانيّته وأكّدها بقوله : ﴿لَا إِلَهَ﴾ موجود ومتصوّر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا تعبدوا إلّا إيّاه ، ولا ترجوا ولا تخافوا ما سواه.

وفي الإتيان بضمير الغائب إشعار بأنّه تعالى من غاية إبهام ذاته وكنه صفاته ، يكون غيب الغيوب وحقيقته من العقول والأوهام مستورا ومحجوبا ، لا تدركه الأبصار والقلوب ، وهو يدرك الأبصار والألباب ، ليس له دون خلقه ستر ولا حجاب ، محيط بذرّات الكائنات ، قيوم على جميع الممكنات ، فهو بذاته مع قطع النّظر عن نعمه مستحقّ لأن يعبدّه جميع الموجودات.

ثمّ أضاف إلى استحقاقه الذاتيّ استحقاقه الصّفايّ بقوله : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المولى بجميع النعم ، اصولها وفروعها ، حيث إنّ جميع ما سواه إمّا نعمة وإمّا منعم عليه من فضله ورحمته ، فلا يستحقّ غيره العبادة.

روي عن أسماء بنت يزيد أنّها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم : ﴿وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٣) .

ثمّ أنّه روي أنّه : لما قدم النبيّ ﷺ المدينة ، نزلت عليه آية : ﴿وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فسمع [

كفّار]

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٥ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٧ والآية من سورة البقرة : ٢ / ٢٥٥ ، وآل عمران : ٣ / ٢ .

قريش فقالوا : كيف يسع الناس إله واحد ؟ فنزل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾^(١) .
وروي أنّ المشركين كان لهم حول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فلما سمعوا آية ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ . قالوا : إن كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك ، فنزل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾^(٢) .
الآية^(٣) .

وروي عن سعيد^(٣) بن مسروق ، قال سألت قريش اليهود ، فقالوا : حدّثونا بما جاءكم [به] موسى من الآيات فحدّثوهم بالعصا وباليد البيضاء ، وسألوا النَّصارى عن ذلك فحدّثوهم بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

فقال قريش عند ذلك للنبي ﷺ : ادعوا الله أن يجعل لنا الصّفا ذهبا فنزداد يقينا وقوة على عدوّنا فسأل ربّه ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه أن يعطيهم ، ولكن إن كذّبوك بعد ذلك لا عدّبتهم عذابا لا اعدّبه أحدا من العالمين !

فقال ﷺ « ذرني وقومي أدعوهم يوما فيوما » ، فأنزل الله تعالى هذه الآية مبينا لهم أنّهم إنّ كانوا يريدون أن أجعل لهم الصّفا ذهبا ليزدادوا يقينا ، فخلق السّماوات والأرض وسائر ما ذكر في الآية أعظم^(٤) .

أقول : ظاهر الرواية أنّ قريش الذين اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصّفا ذهبا ، كانوا من المؤمنين به ، حيث قالوا : فنزداد يقينا وقوة على عدوّنا ، والظاهر أنّه لم يكن في المؤمنين منهم أجسر من صنمهم .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤)

(١) تفسير الرازي ٤ : ١٧٩ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ١٦٤ .

(٢) تفسير أبي الفتوح ١ : ١٨٤ ، تفسير روح البيان ١ : ٢٦٧ .

(٣) في النسخة : شعبة ، وهو سعيد بن مسروق الثوري ، راجع : تهذيب الكمال ١١ : ٦٠ .

(٤) تفسير الرازي ٤ : ١٧٩ .

ثم شرع الله تعالى في إقامة البرهان على وحدانيته ، ومن الواضح أنّ الاستدلال بالآثار على وجود المؤثر أقرب إلى فهم العامة ، ولذا جرت سيرته تعالى في الكتاب العزيز بالاستدلال على وجوده ووحدانيته بمخلوقاته العجيبة ومصنوعاته البديعة ، مع أنّ من توغل في التفكير في مخلوقاته تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته وقدرته وحكمته.

ثم لما كان من أظهر الآيات وأعظمها في أنظار العامة خلق السماوات ، بدأ بذكره ، بقوله : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ** ﴾ السّبع أو التسع وإنشائها على سبيل الاختراع والإبداع بلا عمد تمنعها من السقوط ، وعلاقة تحبسها عن الوقوع.

ثم تناه بذكر الآية التي هي دون السماوات وفوق غيرها في العظمة ، بقوله : ﴿ **وَوَ فِي خَلْقِ** ﴾ في خلق ﴿ **الْأَرْضِ** ﴾ مع ما فيها من أعاجيب وبدائع الصنائع التي يعجز عن فهمها عقول البشر. قيل : إنّما جمع السماوات وأفرد الأرض ، للإشعار بأنّ كلّ سماء ليست من جنس الأخرى بخلاف الأرضين ، فإنّها كلّها من جنس واحد وهو التراب ^(١) .

ثم ذكر الآية الأخرى التي تكون من توابع خلق السماوات بقوله : ﴿ **وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ** ﴾ والنّهار ﴾ وتعاقبهما بحيث يخلف كلّ واحد منهما الآخر ، أو المراد اختلافهما بالجنس والهيئة والصفات والمنافع ، حيث إنّ الليل جعل سكنا وراحة لظلمته لأن لا ينهك الأبدان بشدّة الكدّ والتعب ، والنّهار مبصرا لطلب المعاش وأبتغاء فضل الله.

ثم ذكر الآية التي تكون من خواصّ الأرض بقوله : ﴿ **وَالْفَلَكَ** ﴾ وهي السفن ﴿ **الَّتِي تَجْرِي** ﴾ وتسير ﴿ **فِي الْبَحْرِ** ﴾ مصحوبة ﴿ **بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ** ﴾ من الأمتعة.

في وجه كون الفلك وسيرها في البحر من آيات الله وإنّما جعل خلق الفلك وسيرها من آياته مع أنّها مصنوعات خلقه ؛ لأنّ في خلق أجزائها بحيث تستقرّ على البحر في أمد بعيد لا تغرق ولا تغوص فيه ، كما إذا كان كلّها من حديد ، وتسخير البحر لها بحيث تجري فيه بسهولة ، وتعليم صنعها حمولة ^(٢) بحيث تنقل بها الأمتعة النافعة من بلد إلى بلد ، وإرسال الرّيح غير العاصفة لتحريكها وتسييرها بسرعة ، وتقوية القلوب لركوبها ، وجعل الأمتعة فيها حتّى ينتفع عموم النّاس بأشياء نافعة مختصّة ببعض البلاد ، حيث إنّّه من الواضح اختصاص بعض البلاد ببعض الأمتعة التي يحتاج إليها أهل البلاد

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٧.

(٢) كذا.

البعيدة ، من ظهور قدرة الله وحكمته ورحمته ما لا يخفى على ذي لب ، حيث إنه لو لا تبعية السفن بتعليم الله وجريانها في البحار ، وحفظهما من تلاطم الأمواج ، ووكوف الأمطار ^(١) ، ومصادمة الحيوانات العظيمة ، والجبال والأشجار من حرق الألواح ، ومخالفة عواصف الرياح ، لما وصلت سفينة إلى ساحل سليمة ، ولما كثرت في البلاد نعمة ووقع ^(٢) الخلق في مشقة عظيمة وكلفة وخيمة.

﴿و﴾ كذا في ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ المطلة أو من جهة العلو ، الأمطار التي تكون ﴿مِنْ﴾ جنس ﴿مَاءٍ﴾ عظيم النفع به حياة كل شيء وبقاؤه ورزقه ، فإن دلالة خلق الماء البارد العذب وإنزاله من السماء حتى يحيط بجميع الأرض على كمال القدرة والحكمة أوضح من أن يحتاج إلى البيان.

في أن غالب الأمطار نازل من السماء ، لا أن كلها متكوّن من الأبخرة ثم اعلم أن ظاهر كثير من الآيات والأخبار أن المطر نازل من السماء المعروفة إلى السحاب ، ومنه إلى الأرض.

وقال الطَّبَّيَّونَ : إنه من أبخرة متصاعدة من الأرض إلى الجو البارد بتأثير الشمس فيها فتبرد حينئذ وتنقلب بذرات الماء فتتصل الذرات فتكون قطرات ، وليس السحاب إلا تلك الأبخرة المتراكمة. وادّعوا أنه محسوس لمن مارس ، وهذا القول وإن كان في نفسه غير بعيد إلا أنه مخالف لظواهر الآيات وصريح الروايات ، ولا وجه لرفع اليد عنها بعد إمكان تحقّق مضمونها. نعم يمكن القول بأن الأغلب أنه نازل من السماء المعروفة ، وقد يوجد بالمبادئ التي ذكرها ، والله العالم بحقائق الأمور.

﴿فَأَخْبَاهُ بِهِ الْأَرْضُ﴾ وأثبت فيها به أنواع النباتات والأزهار والزرع والأشجار ، وحصل لها به حسن ورونق ونضارة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويؤسّسها حسب ما تقتضيه طبيعتها.

قيل : إن إطلاق الحياة على حصول النماء والإثمار استعارة بعلاقة أن الحياة الحقيقية - وهي الروح في الأحياء - منشأ لوجود الآثار والنماء والنزعة والبهاء ، وفيه أن الظاهر أن لفظ الحياة حقيقة في كون الشيء مبدءاً للآثار المتوقعة منه. وبهذا المعنى يطلق الحي على الله تعالى ، وعلى القلوب ، والموت الذي هو ضده حقيقة في سقوط الشيء عن قابلية تلك الآثار. ولما كان الروح مبدءاً للآثار يطلق عليه الحياة ، فعلى هذا يكون لكل شيء ، ولو كان من الجمادات ،

(١) وكف المطر : سال وقطر.

(٢) كذا ، والظاهر : ولوقع.

حياة وموت.

﴿و﴾ في أنّه تعالى ﴿بَثَّ﴾ في الأرض وفرّق ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ من الانسان وسائر الحيوانات التي تدبّ وتتحرّك على وجه الأرض ، فإنّ من تفكّر في خلق الحيوانات خصوصا الانسان ، تحصل له معرفة كاملة بوحداية صانعه وكمال حكمته ، فلينظر العاقل إلى بدو خلقه ؛ كان نقطة متشابهة الأجزاء ، ثمّ بعد استقرارها في الرحم صارت دما متشابهة الأجزاء ، ثمّ صار بعد مدّة بعضه عظما ، وبعضه لحما ، وبعضه عسبا ، وبعضه عروقا ، وبعضه شحما ، وبعضه جلدا ، مع كون جميع هذه الأجزاء متخالفات بالطّبع والوصف والفائدة ، حيث إنّ لكلّ منها فوائد عظيمة غير ما للآخرى.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وانطق بلحم » (١) .

في بيان بعض عجائب خلقه الانسان

ثمّ لينظر إلى عجائب تركيب جسده ، فإنّ من راجع علم التشريح وجد فيه من العجائب ما تحار فيه العقول وتضلّ فيه الأفهام ، ثمّ ليتفكّر في أنّه بعد انفصاله عن أمّه طفلا لو وضعت على فمه وأنفه خرقة تمنعه من التنفّس لمات في ساعته ، ومع ذلك بقي في رحم أمّه حيّا من غير تنفّس مدة قريبة من خمسة أشهر ولم يموت.

ثمّ من عجائب خلقه الانسان أنّه بعد ولادته يكون من أضعف الحيوانات بطشا وأقلّها إدراكا ، حيث إنّّه لا يميّز بين أمّه وغيرها ، ولا بين الماء والنّار ، والتّافع والمضّرّ ، والملدّ والمؤذي ، ثمّ يصير بعد استكمالهِ أعقل من سائر الحيوانات وأذكى من جميع موجودات عالم الأجسام ، بل يصير بإعمال القوّة النظريّة العمليّة جوهرًا قدسيّا وعالما عقليّا ، مع أنّ أولاد سائر الحيوانات أقوى شعورا وأشدّ بطشا منه حال صغره. ومقتضى الطّبع أنّ كلّ ما كان في صغره وبدو أمره أذكى وأعقل وأبطش ، كان في كبره وأوان استكمالهِ أكمل في تلك الصفات (٢) ، وليس هذه المزيّة للإنسان إلّا من عطايا القادر الحكيم المتّان.

ثمّ من عجائب خلق الانسان كثرة اختلاف ألستهم وألوانهم وطبائعهم وأمزجتهم وأخلاقهم ، وكيفية أشكالهم وأصواتهم بحيث لا يكاد يرى فردان من الإنسان متماثلين في الشّكل وكيفيّة

(١) تفسير الرازي ٤ : ١٩٩ .

(٢) والانسان على الضّد من ذلك ، ويؤيده ما جاء في الحديث عن العبد الصالح عليه السلام : « تستحبّ عرامة الصبي

في صغره ليكون حليما في كبره ، ثمّ قال : ما ينبغي أن يكون إلا هكذا » الكافي ٦ : ٥١ / ٢ .

الصّوت ، متوافقين في المزاج وخصوصيّات الأخلاق بحيث لا يتميز أحدهما عن الآخر ، مع أنّ غالب الحيوانات البريّة أو البحريّة لا يكون بين أكثر أفراد نوع واحد منها تميّز ظاهر ، وليس هذا الاختلاف في أفراد الإنسان إلّا للتعارف ، ولولاه لاختلّت معاشهم ونظام امورهم. واستقصاء الكلام في عجائب خلقه الإنسان بل كلّ من أنواع الحيوانات لا مطعم فيه لأحد ، حيث إنّ بحر لا ساحل له ^(١) .

في حكمة تمويج الرياح

﴿و﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ وتحريكها وتمويجها ، فإنّ فيه حكمة بالغة والنظام الأتمّ ، حيث إنّ فيه كمال النّفع للنباتات والحيوانات ، إذ لكلّ منها تنفّس بها ، فلو لم يتغيّر الهواء بهبوب الرّيح لفسد ، وبفساده هلكت الحيوانات والنباتات.

قال بعض : لو لم تكن الرّيح والذباب لأنّنت الدنيا ^(٢) .

في وجه تسمية الهواء المتموّج بالريح وبالمبشّر وبيان أقسام الرياح

قيل : سمّيت الرّيح ريحا لأنّ في هبوبها الرّوح والرّاحة ، وفي انقطاعها الكرب والغمّ ^(٣) .

وإنّما سمّى الله تعالى الرّيح مبشّرات ؛ لأنّ فيها مع عظم منافعها تحريك السحاب الممطر الذي به حياة الأرض ، وبحياتها حياة جميع الحيوانات ، فإنّ بالعشب تعيش الدّوابّ ، وبالثمار يتقوّت الإنسان.

ثمّ اعلم أنّ للرّيح أقساما أربعة :

أحدها : الصّبا ، ويقال لها : القبول لاستقبالها الدّبور ، وهي شرقية.

وثانيها : الدّبور ، وهي غربيّة.

وثالثها : الشّمال وهي شمالية.

ورابعها : الجنوب وهي جنوبيّة.

وكلّ ريح هبّت من بين المهبتين من المهابّ الأربعة تسمّى نكباء ، ولكلّ واحدة منها منافع لا تحصى.

روي عن النّبىّ ﷺ أنّه إذا هبّت ريح ، قال : « اللهمّ اجعلها رياحا ، ولا تجعلها ريحا » ^(٤) . ولعلّ فيه إشارة إلى أنّ هبوب الرّيح من جميع الجوانب إحاطة الرّحمة بالخلق ، وأنّ لكلّ ريح

(١) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٠ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٨ .

(٣) تفسير الرازي ٤ : ٢٠١ .

(٤) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٢ .

فائدة لا تتم إلا بسائر الرياح.

وأما القسم الخامس فهو الريح العقيم التي أهلك الله بها عادا ، وهي من آيات غضبه تعالى .
عن ابن عباس ، قال : أعظم جنود الله الريح والماء ^(١) .

﴿و﴾ في ﴿السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذلل تحت إرادته وأمره ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه لا يمسكه مع ثقله بحمل الماء عن السقوط على الأرض إلا بإرادة الله ، ولا يسوقه من بلد إلى بلد إلا أمره ، فلو انقطع عن بلد عظم الضرر بسبب القحط وفقد العشب والزرع والثمار ، ولو دام وقوفه عليه عظم الضرر بسبب استتار ضوء الشمس وكثرة الأمطار ، فهو مسخر تحت حكم الله يأتي به وقت الحاجة ويرده عند زوالها.

في بيان وجه دلالة الآيات الثمانية على وجوده تعالى وقدرته وإرادته وحكمته وتوحيده ووجوب عبادته

ثم لما كان كل واحد من الامور الثمانية آية عظيمة ودلالة واضحة على وجود الصانع الواحد القادر المدبر الحكيم ووجوب طاعته وعبادته ، قال : ﴿لَا يَاتِ﴾ بينات ودلائل واضحة نافعات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دلالتها ، ويتفكرون فيها بالإدراك السليم والفهم المستقيم.

أما دلالتها على وجوده تعالى وقدرته ، فبأنه لما كان امتناع حدوث الحادث من غير علّة من البديهيّات ، كان حدوث هذه الموجودات بعد عدمها دليلا على وجود موجد قادر لها .
وأما دلالتها على اختياره وإرادته ، فبأنه لو كان المؤثر موجبا لدام الأثر ، فتغيير الأثر دليل على كون المؤثر مريدا مختارا.

وأما دلالتها على حكمته تعالى ، فبظهور كون وجود هذه الموجودات وتغييراتها على وفق الحكمة والصّلاح.

وأما دلالتها على وحدانيته تعالى ، فبكون جميع امورها على نحو الاتّساق والانتظام ، ولو كان موجدها والمتصرّف فيها متعدّدا لاختلّ نظامها .

وأما دلالتها على وجوب شكره وعبادته ، فبأنّ كلّ واحد منها نعمة عظيمة ، ووجوب شكر المنعم من ضروريّات العقل ، ومن شكره طاعته وعبادته . وإنّما خصّ الآيات بالعقلاء لكونهم المنتفعين بها دون غيرهم ، كما أنّ ذوي الأمزجة الصحيحة والحواس غير العليّة مختصّون بالانتفاع بالأطعمة

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٦٨ .

اللذیذة الدنیویة والمحسوسات بالحواس الظاهریة.

فی بیان دلالة جمیع ذرات الموجودات علی الصانع ووجوب وجوده وکماله
ثم اعلم أنّ الدلالة علی وجوده تعالی وکماله فی الصفات غیر مختصّ بتلك الآیات المعدودة فی
الآیة ، بل کلّ موجود من الموجودات ، حتّى التّملة والذّرة من آیات وجوده وکماله.
وأتمّ أنحاء الاستدلال بها وأقصرها أن نقول : إنّنا نتصوّر جمیع ماله حظّ من الوجود بحیث لا
یشدّ منه شیء ، وحينئذ فإمّا أن نحکم بأنّ جمیعه واجب قدسم ، وإمّا أن نحکم بأنّ جمیعه ممکن
حادث ، وإمّا أن نحکم بأنّ بعضه واجب وبعضه ممکن. ولا سبیل إلى الأول لامتناع تعدّد الواجب
القدسم ، حیث إنّ التعدّد مستلزم للترکّب ممّا به الاشتراك وما به الامتیاز ، والترکّب مستلزم للحدوث
والحاجة.

أمّا الحدوث فلا أنّ المركّب متأخّر بالطّبع وجوداً عن وجود أجزائه ، وأمّا الحاجة فلا أنّه لو لم
تکن الأجزاء لم یکن المركّب ، والواجب قدسم بالذّات ، مع أنّ قدسم الجمیع خلاف الحسّ والوجدان ،
ولا سبیل إلى الثانی لبدهة أنّ الحادث محتاج إلى العلّة ، والمفروض أنّه لا موجود غیر ما فرضناه حتّى
یکون علّة له ، وفرض کون جمیع الموجودات حادثاً مستلزم لعدم کونها معلولة لعلّة ، وهو محال ،
فتعیّن الثالث وهو کون بعضه واجباً وبعضه ممکناً.

وقد ثبت امتناع تعدّد الواجب ، فثبت وحدته ، وأنّ ما سواه أثره وصنعه ، فتحصّل من جمیع
ذلك أنّ جمیع العالم مرآة جمال الله وجلاله ، والانسان العاقل هو المشاهد فیها بعین بصیرته ، وإمّا
خصّ سبحانه وتعالی الآیات الثّماني بالذکر لظهور عظمها فی الأنظار ، وإمّا جامعة بین کونها
دلائل علی معرفته ونعماءه علی الخلق أجمعین علی أوفر حظّ ونصيب. وإذا كانت الدلائل كذلك ،
كانت انجع فی القلوب وأشدّ تأثيراً فی النفوس.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا
أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَتَرْجَاهُمْ فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

تَبَرُّؤُنَا مِنْكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد ما قرَّر توحيد ذاته المقدَّسة بالدلائل القاهرة والبراهين الظاهرة ، أردفه بتقبيح الشُّرك الذي هو ضدُّ التَّوحيد ، بقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ ويختار ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه من الأصنام ورؤساء الضَّلال والمطاعين الذين لم ينصِّبهم الله للطَّاعة والاتباع ﴿أَنْدَادًا﴾ وأمثالا له في الألوهية ، وشركاء له في العبادة والطَّاعة ، حال كون المتَّخذين للأنداد ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ حبًّا كائنًا ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ويسوِّون بينهم وبينه في التعظيم والطَّاعة ، بل يتَّبِعُونهم فيما خالف رضاه.

عن (الكافي) و (العياشي) : عن الصادق ^(١) عليه السلام : « هم والله أولياء فلان وفلان [وفلان] ، اتَّخذوهم أئمة [من] دون الإمام الذي جعله الله للناس اماما » ^(٢) الخبر .
وعن بعض العرفاء : كلَّ شيء شغف ^(٣) قلبك به سوى الله تعالى فقد جعلته ندًا له ^(٤) .
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي رواية : هم آل محمد ^(٥) عليه السلام ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من هؤلاء المشركين حيث إنَّهم بمعرفتهم عظيمة الرُّبوبيَّة لا يميلون إلى غيره ، ولا يتوجَّهون إلى ما سواه ، بخلاف المشركين الذين يعدلون بهوى أنفسهم من صنم إلى صنم .
عن ابن عبَّاس : أن المشركين كانوا يعبدون صنما ، فإذا رأوا صنما ^(٦) أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا إلى عبادة الأحسن ، انتهى ^(٧) .

وبخلاف أتباع رؤساء الضلالة وأئمة الكفر فاتَّهم يميلون مع كلِّ ربح ، ويتَّبِعُونَ كلَّ ناعق .
روي أنَّه جاء أعرابي إلى النبي ^(٨) عليه السلام فقال : يا رسول الله ، متى السَّاعة ؟ فقال ^(٩) عليه السلام : « ما أعددت لها ؟ » فقال : ما أعددت كثير صلوات ولا صيام ، إلَّا أنَّي أحبُّ الله ورسوله . فقال ^(١٠) عليه السلام : « المرء مع من أحبَّ » . فقال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك ^(٨) .

وروي أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ بثلاثة نفر وقد نخلت أبدانهم وتغيَّرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم

(١) في الكافي : عن الباقر .

(٢) الكافي ١ : ٣٠٦ / ١١ ، تفسير العياشي ١ : ١٧٣ / ٢٤٨ .

(٣) في تفسير الرازي وتفسير روح البيان : شغلت .

(٤) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٤ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٩١ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٧٤ / ٢٤٩ ، تفسير الصافي ١ : ١٩١ .

(٦) في تفسير الرازي : شيئا .

(٧) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٨ .

(٨) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٥ .

إلى ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار . فقال : [حق] على الله أن يؤمن الخائف .
ثم تركهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدّ نخولا وتغيّرا . فقال لهم : ما الذي بلغ بكم إلى هذا
المقام ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة . فقال : حقّ على الله أن يعطيكم ما ترجون .
ثم تركهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدّ نخولا وتغيّرا ، كأنّ وجوههم المرابا من النور ، فقال :
كيف بلغتكم إلى هذه الدرجة ؟ قالوا : بحبّ الله . فقال ﷺ : أنتم المقرّبون إلى الله يوم القيامة ^(١) .
ونقل عن بعض الكتب : عبدي أنا وحقك ، لك محبّ ، فبحقّي عليك ، كن لي محبّا ^(٢) .
ثم شرع الله تعالى في تهديد المشركين بقوله : ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ويعلم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم
باعتمادهم الشّرك واتخاذهم الأنداد لله - والأمثال لمحمد وآله الأبرار (صلوات الله عليهم) - من
الكفار والفجار ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ ويوم يشاهدون فيه ما أعدّ لهم من العقاب والتّكال ، وعجز
أنفسهم عن الدّفاع ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ على الامور ﴿جَمِيعاً﴾ لا قوّة ولا قدرة لأحد غيره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ عليهم ، فيدخلهم من التّدم والتّحسّر ما لا يدخل تحت الوصف ، ويخرج عن حدّ
التّصوّر .

﴿إِذْ تَبَرَّأ﴾ الأصنام ورؤساء الضّلال ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ واطيعوا في الباطل ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾
هم وأفنوا أعمارهم في عبادتهم وطاعتهم باعتماد أنّهم أوكّد أسباب نجاحهم في الآخرة ﴿وَالْحَالُ أَنَّ
المتبعين﴾ ﴿رَأَوْا﴾ وعانوا ﴿الْعَذَابَ﴾ المعدّ لهم على إضلالهم ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وزالت
عنهم وسائل النّجاة من الشّدائد ، من القرابة والمواودة والمعاهدة والتّابعية ، فعند ذلك لا يقدرّون على
خلاص أنفسهم ، فكيف بخلاص أتباعهم ؟ ولهذا يتبرّؤون منهم .
ويحتمل أن تكون الجملتان بيانا لحال الأتباع ، ويكون المعنى : والحال أنّ الأتباع رأوا العذاب
وانقطعت عنهم الوسائل ، فتوسّلوا بالرؤساء في نهاية استئصالهم وشدة الحاجة إليهم ، طمعا في
إعانتهم لهم ، وشفاعتهم عنهم . فإذا رأوا تبرّؤ الرؤساء منهم ، يدخلهم نهاية الحسرة وغاية التّدامة ،
﴿و﴾ حينئذ ﴿قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وأطاعوا رؤساء الضّلال ، تمّنيا : ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ورجعة إلى
الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأ مِنْهُمْ﴾ فيها عند ابتلائهم بالشّدائد وحاجتهم إلينا ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ في الآخرة .
﴿كَذَلِكَ﴾ الإرادة الفطرية ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ حال كونها ﴿حَسْرَاتٍ﴾ مستولية
﴿عَلَيْهِمْ﴾ وندامات واردة بهم ، فكأنّهم لا يرون أعمالهم ، بل يرون مكانها الحسرة والتّدامة .

(١) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٥ .

(٢) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٥ .

نقل أنهم مع ما رأوا من العذاب وتبرؤ الرؤساء منهم ، ترفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله ، فيقال لهم : تلك مساكنكم لو أطعتم الله. ثم تقسم بين المؤمنين ^(١) .
وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ « هو الرجل يدع المال لا ينفقه في طاعة الله بخلا ، ثم يموت فيدعه لمن يعمل به في طاعة الله أو [في] معصية الله ، فإن عمل به في طاعة الله يراه في ميزان غيره فيراه حسرة ، وقد كان المال له ، وإن كان عمل به في معصية الله ، قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله » ^(٢) .

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أبدا. روي أنه يساق أهل النار إلى النار ، فلا يبقى منهم عضو إلا لزمه عذاب ، إما حية تنهشه ، أو ملك يضربه. فإذا ضربه الملك هوى في النار مقدار أربعين يوما لا يبلغ قرارها. ثم يرفعه اللهب ويضربه الملك فيهوي ، فإذا بدا رأسه ضربه - إلى أن قال - فإذا عطش أحدهم طلب الشراب فيؤتى بالحميم ، فإذا دنا من وجهه سقط وجهه ، ثم يدخل في فيه فتسقط أضراسه ، ثم يدخل بطنه فيقطع أمعاء وينضح جلده ^(٣) .

وعن سعيد بن جبير : أن الله تعالى يأمر يوم القيامة من أحرقت نفسه [في الدنيا] على ربوبية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم ، فلا يدخلون لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام. ثم يقول للمؤمنين بين أيدي الكفار : إن كنتم أحبائي فادخلوا جهنم فيقتحمون فيها ، وينادي مناد من تحت العرش : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ^(٤) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾

ثم أنه تعالى بعد ما بين قبح الشرك ، وسوء عاقبته ، وكون المشركين معذبين بالنار ، محرومين من نعم الآخرة ، بين أن نعم الدنيا تعمهم ولا تختص بخصوص المؤمنين ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٧١ .

(٢) الكافي ٤ : ٤٢ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ١٧٤ / ٢٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ١٩١ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٢٧١ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٢٧١ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ١٦٥ .

وانتفعوا ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من النعم ، حال كونها ﴿حَلَالاً﴾ ومباحا لكم ، ليس من الله عقدة الحظر والحرمة ﴿طَبِئاً﴾ لذيذا أو طاهرا من كل شبهة .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تطأوا على عقبه ولا تقتدوا به ، ثم علل النهي بقوله : ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند من له بصيرة نافذة ، فلا تتعدوا عن الحلال إلى ما يدعوكم إليه الشيطان من الحرام .

عن ابن عباس : نزلت الآية في الذين حرّموا على أنفسهم السّوائب والوصائل والبحائر ^(١) ، وهم قوم من ثقيف وبني عامر بن صعصعة وخزاعة وبني مدلج ^(٢) .

ثم ذكر الله تفصيل عداوة الشيطان بقوله : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ ويدعوكم إلى المعصية ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ قيل : هو أقبح أنواع المعاصي ، ولذا يقال للزنا فاحشة ^(٣) .

﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ وتفتروا ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله قاله وأمر به ، وهو أقبح من الفحشاء ، فيدخل في الآية الصّغائر والكبائر والشّرك والبدعة في الدّين .

عن (الكافي) عن الصادق عليه السلام : « إِيَّاكَ وَحَصَلْتَيْنِ ففِيهِمَا هَلَكٌ مِنْ هَلَكٍ ؛ إِيَّاكَ أَنْ تَفْتِيَ النَّاسَ بِرَأْيِكَ ، أَوْ تَدِينُ بِمَا لَا تَعْلَمُ » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن حقّ الله على العباد ، قال : « أَنْ يَقُولُوا مَا يَعْلَمُونَ ، وَيَقْفُوا عِنْدَ مَا لَا يَعْلَمُونَ » ^(٥) .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠)

ثم أنّه تعالى بعد إباحة نعمه الطّيبية لجميع خلقه ، التي هي موجبة لتوحيده وعبادته ، ونهيّه عن اتّباع الشيطان ، أخذ في ذمّ المشركين الذين هم أحصّ النّاس باتباعه ، وبَيّنْ نهاية حمقهم ، بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ وعظا ونصحا ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في كتابه وعلى لسان رسوله من العقائد الحقّة والأعمال الحسنة .

(١) السائبة : الناقة التي كانت تسيب في الجاهلية لنذر ونحوه ، والوصيلة في الجاهلية : الناقة التي وصلت بين عشيرة أبطن ، والبحيرة : الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقوا أذنها .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ٢ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٢٧٢ .

(٤) الكافي ١ : ٣٣ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ١٩٢ .

(٥) الكافي ١ : ٣٤ / ٧ ، تفسير الصافي ١ : ١٩٢ .

وفي التكنية عنهم بضمير الغائب إشعار بالإعراض عنهم لعدم قابليتهم للمخاطبة لفرط حماقتهم ، فكأنه تعالى وجه الخطاب إلى العقلاء ، وقال : انظروا أيها العقلاء إلى هؤلاء الحمقى السفهاء ، أنهم مع قيام البراهين القاطعة على توحيد الله واستحقاقه العبادة ؛ إذا قيل لهم اعملوا بكتاب الله وتديتوا بتوحيده وخصّوه بالعبادة ﴿قَالُوا﴾ لا نتبع كتاب الله ، ولا نتدين بدينه ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ ووجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءُنَا﴾ من عبادة الأنداد ، وتحريم الطيبات ، وارتكاب الفحشاء ؛ لأنهم كانوا أعلم منا .

فعارضوا الأدلة القاطعة بالتقليد ، فردّ الله عليهم بقوله توبيخا وتقريعا لهم : ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يدركون ﴿شَيْئًا﴾ من الدين الحق ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى شيء من الصواب . مع ذلك لا يمكن جواز اتباعهم في حكم العقل .
 قيل : إنّما نزلت في مشركي العرب وكفار قريش ، امروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من البينات الباهرة ، فجنحوا للتقليد ^(١) .

ونقل عن ابن عباس : أنّها نزلت في اليهود ، وذلك حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقالوا : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ^(٢) .

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١)

ثم أنّه تعالى لتوضيح نهاية حماقة هؤلاء الكفرة لجميع الناس حتى لا يبقى لأحد فيها ريب ، شبههم بالبهايم والأنعام ، بقوله : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وحالهم العجيبة من عبادتهم الأصنام ، وعدم فهمهم آيات التوحيد ، وعدم استماعهم لدعوة الرسل ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ ويصيح ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ من الداعي ، ولا يدرك من كلامه ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ وغير صوت وصياح من غير فهم شيء من معناه .

قيل : إنّ الفرق بين الدّعاء والنّداء ، أنّ الدّعاء للقريب ، والنّداء للبعيد ^(٣) .
 عن (المجمع) : عن الباقر عليه السلام : « أي مثلهم في دعائك إيتاهم إلى الإيمان ، كمثّل النّاعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم ، وإنّما تسمع الصّوت » ^(٤) .

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٧٤ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٢٧٤ .

(٤) مجمع البيان ١ : ٤٦٣ ، تفسير الصافي ١ : ١٩٣ .

وقيل : إنّ المراد أنّ مثل داعيهم كمثّل داعي البهائم ^(١) . حيث إنّها لا تسمع إلّا الصّوت ولا تدرك المراد من الألفاظ ومداليلها ، فكأنّهم ﴿صُمُّوا﴾ لا يسمعون الكلام أصلاً ﴿بُكِّمُوا﴾ لا يقدرّون على إجابة الدّاعي ﴿غُمِّي﴾ لا يبصرون الطّريق حتّى يحضروا عند الدّاعي .
وحاصل المراد - والله أعلم - أنّهم لشدّة إعراضهم عن الدلائل والمعجزات ؛ كأنّهم لا يشاهدونها ولا يدركونها بالحواسّ .

ثمّ بيّن أنّ عدم تأثير الدّعوة والبراهين في قلوبهم ، لقلة إدراكهم ، بقوله : ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾
البرهان ولا يدركون الحقّ بنور العقل .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢) **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٧٣)

ثمّ أنّه تعالى بعد ترخيص عموم النّاس بالانتفاع من النّعم التي خلقها في الأرض ، وجّه الخطاب إلى خصوص المؤمنين ، تشريفاً لهم ولطفاً بهم ، وخصّهم بالدّعوة إلى طيّبات نعمه والأرشاد إلى شكرها بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا﴾ وامتّعوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ومستلذات ما أنعمنا عليكم ، فاتّها مباحة لكم ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على إنعامها وإحلالها ، واثنوا عليه ، واعملوا بمرضاته ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وله بالعبوديّة تقروّن ، وبالالهية تؤمنون ، وبنعمه تدعون حيث إنّ عبادته لا تتمّ إلّا بالشكر .

عن النّبي ﷺ : « يقول الله تعالى : إِنِّي وَالْجَنِّ وَالْإِنْسَ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ ، أَخْلَقَ وَيَعْبُدُ غَيْرِي ، وَأَرْزُقُ وَيَشْكُرُ غَيْرِي » ^(٢) .

في بيان جملة من المأكولات والمشروبات المحرّمة والمحلّلة
عن الحسن ^(٣) بن عليّ بن شعبة ، عن الصادق عليه السلام في حديث : « وأما ما يحلّ للإنسان أكله ممّا أخرجت الأرض فثلاثة صنوف من الأغذية : صنف منها جميع الحبّ كلّ من الخنطة والشّعير والأرزّ والحمص وغير ذلك من صنوف الحبّ وصنوف

(١) تفسير الصافي ١ : ١٩٣ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١٠ ، تفسير أبي السعود ١ : ١٩٠ .

(٣) في النسخة : الحسين ، راجع : نوابغ الرواة : ٩٣ .

السَّماسم وغيرها ، كلَّ شيءٍ من الحبِّ ممَّا [يكون] فيه غذاء الإنسان في بدنه وقوته فحلال أكله .
 وكلَّ شيءٍ [تكون] فيه المضرة على الإنسان في بدنه وقوته فحرام أكله إلا في حال الضرورة .
 والصنف الثاني : ممَّا أخرجت الأرض من جميع صنوف الثمار كلّها ممَّا يكون فيه غذاء الإنسان ومنفعة له وقوته به فحلال أكله ، وما كان فيه المضرة على الإنسان في أكله فحرام أكله .
 والصنف الثالث : جميع صنوف البقول والنبات ، وكلَّ شيءٍ تنبت [الأرض] من البقول كلّها ممَّا فيه [منافع الإنسان وغذاء له فحلال أكله ، وما كان من صنوف البقول ممَّا فيه] المضرة على الإنسان في أكله نظير بقول السموم القاتلة ونظير الدفلى ^(١) وغير ذلك من صنوف السم القاتل فحرام أكله .

وأما ما يحلّ أكله من لحوم الحيوان فلحوم البقر والغنم والإبل ، وما يحلّ من لحوم الوحش ، وكلّ ما ليس له ناب ولا له مخلب .
 وما يحلّ أكله من لحوم الطير كلّها ما كانت له قانصة فحلال أكله ، وما لم تكن له قانصة فحرام أكله ، ولا بأس بأكل صنوف الجراد .
 وأما ما يجوز أكله من البيض ، فكلّ ما اختلف طرفاه فحلال أكله ، وما استوى طرفاه فحرام أكله .

وما يجوز أكله من صيد البحر من صنوف السمك ؛ فما كان له قشور فحلال أكله ، وما لم يكن له قشور فحرام أكله .
 وما يجوز من الأشربة من جميع صنوفها ، فما لا يغيّر العقل كثيره فلا بأس بشربه ، وكلَّ شيءٍ منها يغيّر العقل كثيره فالقليل منه حرام ^(٢) .

ثمّ أنّه تعالى بعد تحليله الانتفاع بعموم نعمه ، ذكر بعض أنواعها المحرّمة بقوله : ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ** **عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ** ﴾ والانتفاع بما فارقت الروح بغير ذكاة بالانتفاعات المقصودة منه ، كأكل لحمه ، ﴿ **وَالدَّمَ** ﴾ المسفوح لا المتخلف في الذبيحة بعد ذكاتها ، ﴿ **وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ** ﴾ وتخصيص التحريم بلحمه مع حرمة بعض الانتفاعات بسائر أجزائه ؛ لأنّ المقصود منه للغالب هو أكل لحمه .

﴿ **وَمَا أَهْلَ** ﴾ ورفع الصوت ﴿ **بِهِ** ﴾ عند ذبحه ﴿ **لِغَيْرِ اللَّهِ** ﴾

قيل : إنّ المشركين كانوا إذا ذبحوا لاهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها ويقولون : باسم اللات

(١) الدفلى : نبت مرّ زهره كالورد الأحمر ، يتخذ للزينة .

(٢) تحف العقول : ٣٣٧ .

والعزى (١) .

قيل : وجه تخصيص الأنواع الأربعة بالذكر من بين المحرمات ؛ لأنّ العرب كانوا يستحلونها ويقولون : تأكلون ما أمّتم ولا تأكلون ما أمّته الله ! وكانوا يشربون الدّم ويأكلونه ، وكانوا يأكلون لحم الخنزير وذبائح الأصنام ، فنهى الله هذه الأشياء الأربعة.

في جواز أكل المحرمات في المحمصة والضرورة مطلقا

ثمّ منّ عليهم بإباحة أكلها في المحمصة (٢) بقوله : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ والتجأ إلى أكل شيء من هذه المحرمات لمجاعة أو إكراه ، حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قيل : يعني غير ظالم على مضطرّ آخر بالاستئثار عليه (٣) ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ومجاوز في أكله عن حدّ سدّ الرّمق والجوع الشّديد. وروي أنّ الباغي : الظالم ، والعادي الغاصب (٤) .

وعن (الفقيه) : عن [محمد بن علي] الرضا ع^{عليه السلام} عن أبيه عن آبائه ع^{عليهم السلام} : « سئل رسول الله ﷺ فقيل [له : يا رسول الله] إنّنا نكون بأرض فتصينا المحمصة ، فمتى تحلّ لنا الميتة ؟ قال : ما لم تصطبخوا أو تغتبقوا أو تحتفئوا (٥) بقلا فشأنكم بهذا » (٦) .

قال في (المجمع) : الاصطباح : أكل الصّبوح وهو الغداء ، والغبوق : أكل العشاء ، وأصلهما الشّرب ثمّ استعمالا في الأكل (٧) .

قال عبد العظيم : فقلت له : يا ابن رسول الله ، فما معنى قول الله عزّ وجلّ : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال : « العادي : السّارق : والباغي : الذي يبغي الصّيد بطرا أو لهوا لا ليعود [به] على عياله ، ليس

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٧٧ .

(٢) أي المجاعة.

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٢٧٧ ، تفسير أبي السعود ١ : ١٩١ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٧٦ / ٢٥٧ ، تفسير الصافي ١ : ١٩٤ .

(٥) في التهذيب : (أو تحتفوا) من احتفى البقل : أخذه بأطراف أصابعه من قصره وقتله ، كما في المغرب ١ : ١٣١ ، وفي القاموس ٤ : ٣١٨ ، احتفى البقل : اقتلعه من الأرض .

ونقل ابن الأثير عن أبي سعيد الضرير أنّه قال : صوابه (تحتفوا) بغير همز ، من أحفى الشعر ، ومن قال : تحتفوا مهموزا هو من الحفأ ، وهو البردي ، فباطل ، لأنّ البردي ليس من البقول .

ونقل عن أبي عبيد قوله : هو من الحفأ ، مهموز مقصور ، وهو أصل البردي الأبيض الرطب منه ، وقد يؤكل ، يقول ما لم تقتلعوا هذا بعينه فتأكلوه . ويروى (تحتفوا) بتشديد الفاء ، من احتفت الشيء : إذا أخذته كله ، كما تحفّ المرأة وجهها من الشعر . النهاية ١ : ٤١١ .

(٦) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢١٧ / ١٠٠٧ ، التهذيب ٩ : ٨٣ / ٣٥٤ ، وفي من لا يحضره الفقيه : فشأنكم بها .

(٧) مجمع البحرين ٢ : ١٠٠٣ .

لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرَّ ، هي حرام عليهما في حال الاضطرار « (١) الخبر .
وعن (العياشي) : عن الصادق عليه السلام : « الباغي الصَّيد ، والعادي : السارق ، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرَّ ، هي حرام عليهما ، ليس هي عليهما كما هي على المسلمين » (٢) .
وعن (الكافي) عنه عليه السلام : « الباغي : الذي يخرج على الإمام ، والعادي : الذي يقطع الطريق ، لا تحل لهما الميتة » (٣) .

أقول : ظاهر تلك الروايات سوى النبوي ، حرمة أكل الميتة على كل من اضطرَّ في طريق معصية الله وفي السفر الحرام ، وفيه إشكال لمعارضتها لأدلة نفي الحرج والضّر مع كونها آية عن التقيد والتخصيص ، وعلى أي حال ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناول مقدار يحفظ نفسه .
ثم لما كان فيه مقتضى الحرمة المزاحم بالأهم في الرعاية ، زيل الترخيص بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ وستار لجميع المعاصي والقبائح ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده ، لا يرضى بضرهم وعطبهم وهلاكهم .
في حكم حرمة لحم الخنزير والدم والميتة

عن (العلل) و (العيون) : عن الرضا عليه السلام فيما كتب من جواب مسائل : « وحرّم الخنزير لأنّه مشوّه جعله الله عظة للخلق (٤) ودليلا على ما مسح على خلقته ، ولأنّ غذاءه أقدر الأقدار ، مع علل كثيرة » .

إلى أن قال : « وحرّمت الميتة لما فيها من فساد الأبدان والآفة ، ولما أراد الله أن يجعل التسمية سببا للتّحليل وفرقا بين الحلال والحرام ، وحرّم الله الدّم كتّحريم الميتة لما فيه من فساد الأبدان ، ولأنّه يورث الماء الأصفر ، ويبيخر الفم ، وينتن الرّيح ، ويسيء الخلق ، ويورث القسوة للقلب وقلة الرّافة والرّحمة حتّى لا يؤمن أن يقتل ولده ووالده وصاحبه » (٥) الخبر .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا

(١) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢١٦ / ١٠٠٧ .

(٢) التهذيب ٣ : ٢١٧ / ٥٣٩ ، تفسير العياشي ١ : ١٧٧ / ٢٦٢ « نحوه » ، تفسير الصافي ١ : ١٩٤ .

(٣) الكافي ٦ : ٢٦٥ / ١ .

(٤) في العلل والعيون : وعبرة وتخويفا .

(٥) علل الشرائع : ٤٨٤ / ٤ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٩٤ / ١ .

أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي

الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ﴿

ثم لما كان من دلائل صدق النبي موافقة أحكام شريعته للعقول السليمة والأذهان المستقيمة ، كانت تلك الأحكام دليلا على صدق النبي ﷺ في دعوى نبوته . وعلى أنه المبشر به في التوراة ، ومع ذلك أنكر عليه اليهود وكتبوا ما يدل على نعوته في كتابهم ، فلذلك هددهم على كتمانهم طلبا للزخارف الدنيوية بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ﴾ ويطلبون بدل كتمانهم نعوت محمد ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وعوضا يسيرا من متاع الدنيا .

﴿أُولَئِكَ﴾ الكاتمون ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ وما يجرون بالماكل التي ^(١) يصيبونها من سفلتهم ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ شيئا ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ في الآخرة عقوبة على أكلهم الرثشا .

في أن للأموال المحرمة صورة برزخية

قيل : إن إطلاق النار على مآكلهم من باب إطلاق المسبب على السبب ^(٢) . ويمكن أن يكون الإطلاق من باب الحقيقة باعتبار أن الأموال المحرمة صورتها البرزخية صورة النار ، ولكن لا يشعرون بحقيقتها وصورتها المعنوية ، حتى إذا هبت عليهم ريح عالم البرزخ والآخرة ، فعند ذلك تشتعل في بطونهم .

ويؤيده أنه نقل أن عالما حضر في محضر سلطان ظالم فأمر السلطان بإحضار الطعام ، فأحضروا الأطعمة الطيبة ، فأمر السلطان العالم بأكلها ، فأبى العالم ، فأصر السلطان ، فقال العالم : هذه الأطعمة دماء المظلومين . فقال السلطان مستهزئا به : كيف تكون هذه الأطعمة اللذيذة دماء ؟ ! فأخذ العالم لقمة منها فعصرها فصبت الدم من بين أصابعه ، وعلى ذلك يحمل ما روي من أن الشارب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم ^(٣) .

﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بكلام فيه لطف وعطوفة ^(٤) كما يكلم به أهل الجنة .

وقيل : إن ترك الكلام كناية عن نهاية الإعراض ، حيث إن عادة الملوك أنهم لا يكلمون من يعرضون عنه عند الغضب ، ويكلمون من يرضون عنه بالبشر واللطف ^(٥) .

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس المعاصي كما يطهر المؤمنين ، لعدم قابلية الكافر للتطهير .

(١) في النسخة : الذي .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٧٩ .

(٣) تفسير الرازي ٥ : ٢٧ .

(٤) كذا ، وقياس المصدر : عطف أو عطوف .

(٥) تفسير الرازي ٥ : ٢٧ .

وقيل : إنّ المراد بتزكيتهم المدح والثناء عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعقوبة موجعة بالنار .
﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون عن العقل والإدراك هم ﴿الَّذِينَ﴾ من شدّة حمقهم وخبث ذاتهم
﴿اشْتَرَوْا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿الضَّلَالَةَ﴾ والجهل واستبدلوها ﴿بِالْهُدَى﴾ والعلم بالحقّ في الدّنيا ،
حيث إنّهم مع حصوله لهم ووضوح صدق النّبي ﷺ وصحّة دين الإسلام عندهم ، ادّعوا الجهل
واختاروا الكفر ، فكأثمّ رفعوا اليد عن الهداية الحاصلة ، وأخذوا الضّلالة بدلا منها . وهذا العمل
الشّنيع لا يمكن أن يصدر ممّن شمّ رائحة العقل ، ﴿و﴾ اشتروا ﴿الْعَذَابَ﴾ الأبدي ﴿بِالْمَغْفِرَةِ﴾
والرحمة الدائمة في الآخرة ، وذلك غاية الخسارة . فإذا ينبغي أن يقال تعجّبا : ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى
النَّارِ !﴾ وما أجزأهم عليها ، وكلمة التعجّب كناية عن استعظام الأمر .

عن (الكافي) و (العياشي) : ما أصبرهم على فعل ما يعلمون أنّه يصيّرهم إلى النار (١) .
﴿ذَلِكَ﴾ العذاب معلّل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ﴾ المجيد والقرآن الحميد حال كونه مقرونا
﴿بِالْحَقِّ﴾ وشواهد الصّدق ، وهم مع وضوح أمره عندهم اتّفقوا على رفضه وتكذيبه ، واختلفوا في
وجهه ، فقال بعض : إنّّه سحر ، وبعض : إنّّه كهانة ، وبعض : إنّّه شعر ، وبعض : إنّّه أساطير .
﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ في أقاويلهم ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ العزيز بالله ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ وعناد
﴿بَعِيدٍ﴾ عن الصّواب ، أو لفي خلاف بعيد عن الاجتماع على الحقّ .

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي
الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾

ثمّ أنّه تعالى لما ذكر إصرارهم على الضّلال وثباتهم على معاندة الحقّ ، وكان من ضلالة اليهود
والنّصارى أنّهم يكثرّون الخوض في أمر تحويل القبلة إلى الكعبة ، وكان كلّ منهم يقول : إنّ البرّ هو
التّوجّه إلى قبلتنا ؛ فردّ الله عليهم بقوله : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ والطّاعة التي تنالون بها رضا الله وغفرانه ،

(١) الكافي ٢ : ٢٠٦ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ١٧٨ / ٢٦٣ .

وتستحقّون بها الجنة ونعيمها ﴿أَنْ تُؤَلُّوا﴾ وتصرفوا يا معشر اليهود والنصارى ﴿وَجُوهَكُمْ﴾ في الصلاة ﴿قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وطرفهما.

عن السَّحَّاد عَالِيًا : « قالت اليهود : قد صلّينا إلى قبلتنا هذه الصّلاة الكثيرة ، وفيما من يحيي الليل صلاة إليها. وقال كلّ واحد من الفريقين : أتري ربّنا يطل أعمالنا هذه الكثيرة وصلواتنا إلى قبلتنا لأنّا لا نتبع محمدا على هواه في نفسه ! » (١) الخبر.

ثمّ بعد ذلك أرشدهم إلى ما هو البرّ في حكم العقل والشرع بقوله : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ والخير الذي ينبغي أن يهتمّ به برّ ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وأقرّ بوحدانيّته.

وقيل : إنّ المراد ، ولكن ذي البرّ والبارّ من آمن بالله (٢) وعرف مبدأه ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرِ﴾ ومعاذه ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ كلّهم ، وأتمّ عباد الله لا أولاده وليسوا بذكور ولا إناث ، وهم مكرمون عنده مطيعون لأمره ﴿وَالْكِتَابِ﴾ الذي أنزله الله بتوسّط رسله ، ومنه القرآن ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ جميعا ذوي الشرائع وغيرهم.

هذا من حيث العقائد ، فجمعت الآية الإيمان بالامور الخمسة : الإيمان بالمبدأ ، والمعاد ، وصحّة الشرائع التي نزلت بتوسّط الملائكة ، والكتب السماوية المنزلة إلى الأنبياء [والإيمان بالأنبياء] ، واليهود قد أخلّوا بجميعها ، حيث قالوا بالتّجسيم (٣) والبخل في المبدأ (٤) ، وأنّه ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (٥) وقالوا : إنّ جبرئيل عدونا ونحن نعاديّه ، وأنكروا الكتب وكفروا ببعضها ، واقتصروا بالإيمان بالتّوراة ، بل كفروا بكثير ممّا فيها ، وقتلوا كثيرا من الأنبياء مع أنّ البرّ لا يكون إلّا بالإيمان بالامور الخمسة ، ثمّ تميّمه بالعمل.

ولما كانت الأعمال على قسمين : مائيّة وبدنيّة ، وكانت الأعمال المائيّة أشقّ على النّفس من الأعمال البدنيّة ؛ قدّم ذكرها بقوله : ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ وأعطاها ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ والشّحّ به. وقيل : على حبّ الله (٦) .

وقيل : على حبّ الإيتاء (٧) بأن يكون طيب النّفس بإعطائه ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ وأولي الأرحام صدقة وبرّا وصلّة.

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ع : ٥٨٩ / ٣٥٣ .

(٢) مجمع البيان ١ : ٤٧٦ .

(٣) في النسخة : بالتّجسيم .

(٤) يريد قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ... [المائدة : ٥ / ٦٤] .

(٥) البقرة : ٢ / ٨٠ .

(٦) جوامع الجامع : ٣٢ .

(٧) جوامع الجامع : ٣٢ .

عن النبي ﷺ أنه سئل : أي الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تؤتيها وأنت صحيح صحيح ، تأمل العيش وتخشى الفقر » (١) .

وقيل : إن المراد بدوي القرى قرابة النبي ﷺ إلا إنهم يعطون هدية وبراً ، لا صدقة (٢) .
﴿وَالْيَتَامَى﴾ قيل : إن المراد بهم يتامى بني هاشم (٣) ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ الكافين عن سؤال الناس
﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع به ولا نفقة له ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين أحتاجهم الحاجة إلى أن يتكففوا الناس .

روي أن للساءل حقاً وإن جاء على فرس (٤) .
﴿وَفِي﴾ تخلص ﴿الرَّقَابِ﴾ عن قيد الرقبة بشرائها وإعتاقها ، أو بإعانتها على أداء مال الكتابة ، وفي ترتيب ذكر الأصناف إشعار بترتيبهم في أولوية الرعاية والإحسان .
عن الشعبي ، قال : إن في المال حقاً سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية (٥) . ولا يخفى أن صرف المال في هذه الأصناف مستحب إلا إذا توقّف صلة الرحم أو حفظ النفس عليه .
ثم ذكر سبحانه جملة من الأعمال البدنية مبتدئاً بأهمها بقوله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة بحدودها وشرائطها ، فاتمها عمود الدين . ثم أردفها بذكر الزكاة المفروضة بقوله : ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ وأعطاهما المؤمنين لكونها كالصلاة مما بني عليه الاسلام . وقيل : ذكر إيتاء المال أولاً لبيان المصارف ، وثانياً لبيان الوجوب (٦) .

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ سواء كان العهد بينهم وبين الله كالنذر والأيمان ، أو بينهم وبين الرسول كالبيعة وأمثالها ، أو بينهم وبين الناس كالعقود والمعاملات ، وهذا وإن كان شاملاً للمواعيد إلا إنه قد ادعى الإجماع من الخاصة والعامة على عدم وجوب الوفاء بها .
﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ قيل : إن التقدير : وأخص بالذكر لفضيلة الصبر الصابرين ، الذين صبروا ﴿فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ عن ابن عباس : البأساء : الفقر ، والضراء : المرض ، وحين البأس ، قال : يريد القتال في سبيل الله (٧) . واليهود أخلوا بجميع ذلك فليسوا بآزين ، بل ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون

(١) تفسير البيضاوي ١ : ١٠١ .

(٢) تفسير الصافي ١ : ١٩٦ .

(٣) تفسير الصافي ١ : ١٩٦ .

(٤) جوامع الجامع : ٣٢ .

(٥) جوامع الجامع : ٣٢ .

(٦) تفسير أبي السعود ١ : ١٩٤ .

(٧) تفسير الرازي ٥ : ٤٥ .

بتلك الأوصاف المحمودة هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في دعوى الإيمان واتباع الحق وطلب البرّ ، فإنّ العمل من أعظم شواهد صدق القبول.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر والرذائل في الظاهر والباطن ، وفي تكرير الإشارة إشارة إلى عظمة شأنهم وعلو منزلتهم ، وفي توسيط الضمير دلالة على اختصاص التقوى بهم.

في بيان جميع ما به كمال الإيمان

فالآية جامعة لبيان الكمالات الإنسانيّة ، حيث إنّها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة : صحّة الاعتقاد ، وتهذيب النّفس ، وحسن المعاشرة.

وقد اشير إلى الأوّل بقوله : ﴿مَنْ آمَنَ﴾ إلى قوله : ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ وإلى الثّاني بقوله : ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخر الآية. وإلى الثّالث بقوله : ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ إلى قوله : ﴿وَفِي الرَّقَابِ﴾ ولذا روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان » ^(١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَدِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر وظائف العبوديّة ، شرع في جملة من الأحكام السياسيّة ، ولما كان أهمّها قانون تحفظ به الدّماء والنّفوس قدّمه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ في اللّوح المحفوظ ، أو فرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ والمماثلة في مجازاة جناية القتل والجرح بأن يفعل بالجاني مثل ما فعله. أمّا الفرض على الجاني فتسليم نفسه ، وأمّا على الجاني عليه أو وليّه فعدم التّجاوز عن حدّ المساواة ، وأمّا على سائر المؤمنين فإعانة الجاني في عدم التّعدي عليه ، وإعانة الجاني عليه في استيفاء حقّه.

ولكن يشترط في عدم التّراجع المساواة في الحرّيّة والرّقّيّة والذكورة والانوثة بأن يقتل ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ قيل في سبب النّزول : إنّّه كان بين حيّين من أحياء العرب دماء في الجاهليّة ، وكان لأحدهما طول ^(٢) على الآخر فأقسموا : لنقتلن الحرّ منكم بالعبد ، والذكر بالأنثى

(١) تفسير أبي السعود ١ : ١٩٥ .

(٢) أي قوة وفضل.

والاثنين بالواحد. فلمّا جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت ، وأمرهم الله أن يتساووا ويتعادلوا (١) .

في نبد من أحكام القصاص

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّ المقصود من هذه الآية بيان أن بين الحرّين والعبدین والذّكرين والاثنين يقع القصاص ، ويكفي ذلك فقط. فأما إذا كان القاتل للعبد حرّاً أو للحرّ عبداً فإنّه يجب مع القصاص التّراجع ، وأما حرّ قتل عبداً فهو قوده ، فإن شاء موالي العبد أن يقتلوا الحرّ قتلوه ، بشرط أن يسقطوا ثمن العبد من دية الحرّ ، ويردّوا إلى أولياء الحرّ بقيّة ديته. وإن قتل عبد حرّاً فهو به قود ، فإن شاء أولياء الحرّ قتلوا العبد وأسقطوا قيمة العبد من دية الحرّ وأخذوا الدية الكاملة ، وإن شاءوا أخذوا كلّ الدية وتركوا قتل العبد. وإن قتل رجل امرأة فهو بها قود ، فإن شاء أولياء المرأة قتلوه وأدّوا نصف الدية. وإن قتلت المرأة رجلاً فهي به قود ، فإن شاء أولياء الرجل قتلوها وأخذوا نصف الدية ، وإن شاءوا أخذوا كلّ الدية وتركوها » (٢) .

عن الصادق عليه السلام قال : « لا يقتل حرّ بعيد ، ولكن يضرب ضرباً شديداً ويغرم دية العبد نصف الدية ، ولا يقتل الرجل بالمرأة إلّا إذا أدّى [أهلها] إلى أهله نصف الدية » (٣) .

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ أي إن حصل العفو للقاتل والجاني ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ وهو وليّ الدّم ﴿شَيْءٌ﴾ قليل من العفو وبعضه بأن يعفي عن بعض الدّم أو بعوض الدية ، وفي التعبير عن وليّ الدّم بالأخ إشعار بحسن تعطف كلّ منهما على الآخر.

﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمستحسن عند الشرع والعقل بأن يعامل العاني مع المفعو عنه معاملة حسنة ولا يطالبه بالدية إلّا مطالبة جميلة من غير تضيق وتشديد ﴿وَأَدَاءٌ﴾ من الجاني الدية ﴿إِلَيْهِ﴾ ملتبسا ﴿بِإِخْسَانٍ﴾ في الأداء بأن لا يخس منها ، ولا يماطل فيه.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم والتخيير بين القصاص والعفو بالدية ﴿تَخْفِيفٌ﴾ وتوسعة عليكم ، كائن ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حيث إنّ أهل التّوراة كان عليهم القصاص أو العفو ، ولم يكن لهم أخذ الدية ، وكان على أهل الإنجيل العفو وأخذ الدية ولم يكن لهم القصاص ﴿وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى﴾ وتجاوز على الجاني بأن قتله ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العفو أو الصّلح بالدية ﴿فَلَهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقيل : في الدنيا أيضاً لقول

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٨٤ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ٤٧ .

(٣) تفسير الصافي ١ : ١٩٧ .

النبي ﷺ : « لا اعافي أحدا قتل بعد أخذه الدية » (١) .

ثم أشار سبحانه إلى حكمة حكم القصاص وغيته ، بقوله : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ من الجاني عظمة. وفي هذا الكلام من كمال الفصاحة ما لا يخفى ، حيث إنّ حكم القصاص الذي هو موجب لتفويت الحياة جعل ظرفا ومقرّا لها.

قيل : إنّ العرب كانوا يقتلون بالواحد جماعة ، وبالمقتول غير القاتل ، فكانت تقع الفتنة ويكثر القتل ، فبهذا الحكم سلم الناس من القتل ، وحصل الارتداع عنه ، فسلمت النفوس لخوف القود ، بل النفوس الكثيرة.

وعن (الأمالي) : عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « أربعة قلت فأُنزل الله تصديقي في كتابه - وعدّ منها - قلت : القتل يقلل القتل ، فأُنزل الله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ » (٢) .

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ والعقول. قيل : في ندائهم إشعار بكمال حكمة الحكم من حفظ النفوس واستبقاء الأرواح (٣) ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل ، أو المراد : لكي تعملوا عمل أهل التقوى ، فإنّ من أعظم حقوق الناس الدماء. وفي رواية : أنّها أوّل ما يحاسب به (٤) .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ
عَلَى الَّذِينَ يَبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)﴾

ثم شرع في بيان حكم آخر منها ، بقوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وظهر لنفس أماراته ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أو مالا قليلا أو كثيرا ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ممّن يرث وممّن لا يرث ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمستحسن في الشرع والعقل ، وذلك يحقّ ﴿حَقًّا﴾ ثابتا ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين اتّخذوا التقوى طريقة ومذهبا لأنفسهم فيشمل عامّة المؤمنين ، فدلت الآية بظاهرها على وجوب الوصية للأرحام ، ويؤيده ما روي عن الصادق عليه السلام عن أبيه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « من » :

(١) تفسير الرازي ٥ : ٥٥ .

(٢) أمالي الطوسي : ٤٩٤ / ١٠٨٢ .

(٣) كنز العرفان ٢ : ٣٥٨ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٢٨٦ .

لم يوص عند موته [لذوي قرابته] مَن لا يرث ، فقد ختم عمله بمعصية « (١) .
نعم روى العياشي عن أحدهما عليه السلام : « أُنْهَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمَوَارِيثِ » (٢) .
وقال بعض الأصحاب : إنَّه لا ينسخ القرآن بخبر الواحد . وفيه : أنَّه قد حَقَّقَ في الأصول
جواز نسخه به إذا كان جامعاً لشرائط الحجَّة ، كما أنَّه يجوز تخصيصه به حيث إنَّ النسخ نوع من
التخصيص .

في استحباب الوصية وكراهة تركها
ويمكن حمل الخبر الأول على شدة الكراهة ، والخبر الثاني على نسخ الوجوب مع بقاء
استحبابه جمعاً بين الروايات ، وقد حمله الشيخ على التقية .
وعن الصادق عليه السلام : « أَنَّهُ شَيْءٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ » . قيل : هل لذلك حد ؟
قال : « أَدْنَى مَا يَكُونُ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ » (٣) .

وعن الباقر عليه السلام أَنَّهُ سئل عن الوصية للوارث ، قال : « تَجُوزُ » ثم تلا هذه الآية (٤) .
والحاصل : أَنَّهُ لا شبهة في استحباب الوصية وعدم وجوبها ، وإنَّ ظاهر الآية محمول على
تأكيد الاستحباب .

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ من الوصي والشاهد وغيرهما من سائر النَّاس ، وغير الإيصاء عن الوجه الذي
أوصى به الموصي ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ وحقَّقه ، وثبت عنده ﴿فَإِنَّمَا﴾ عصيان التبديل و﴿إِثْمُهُ﴾
محمول ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لا على الموصي ولا على الموصى له .
ثم هدد المبدلين بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالمهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم ، فيعاقبهم عليها .
عن (الكافي) : عن أحدهما عليه السلام و (العياشي) : عن الباقر عليه السلام : في رجل أوصى بماله
في سبيل الله ، قال : « أعطه لمن أوصى له ، وإن كان يهودياً أو نصرانياً ، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول
« وتلا هذه الآية (٥) .

ثم لا شبهة أنَّ إطلاقها وإطلاق بعض الروايات مقيد بالثالث فما دونه ، للروايات المتضافرة ،
منها : ما عن النبي صلى الله عليه وآله : « أَنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ فِي آخِرِ أَعْمَارِكُمْ زِيَادَةً لَكُمْ فِي
أَعْمَالِكُمْ » (٦) .

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ وتوقع ، أو علم ﴿مِنْ مُوصٍ﴾ في وصيته ﴿جَنَفًا﴾ وميلاً عن الحق . عن
الصادق عليه السلام : « يَعْنِي إِذَا اعْتَدَى فِي الْوَصِيَّةِ وَزَادَ عَلَى الثَّلَاثِ » (٧) .

(١) تفسير العياشي ١ : ١٨٠ / ٢٧٢ . (٢) تفسير العياشي ١ : ١٨٠ / ٢٧٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٨٠ / ٢٧٤ .

(٤) مجمع البيان ١ : ٤٨٣ .

(٥) الكافي ٧ : ١٤ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ١٨١ / ٢٧٥ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٢٨٨ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ١٨٢ / ٢٧٩ ، علل الشرائع : ٥٦٧ / ٤ .

وفي بعض الروايات : تفسير الجنف بالوصية بغير ما أمر الله ^(١) ، أو في ما لا يرضى الله به ^(٢) .
﴿أَوْ﴾ خاف **﴿إِنَّمَا﴾** من الموصي في وصيته ، كأن أوصى بمعصيته من عمارة بيوت التيران ،
أو تشييد الكفر ، أو ترويج الباطل .

﴿فَأَصْلَح﴾ الوصي **﴿بَيْنَهُمْ﴾** قيل : يعني بين الموصى له وورثة الموصي ^(٣) ، بأن يرده الوصية
إلى الحق والجائز وبدلها إلى ما هو الصواب **﴿فَلَا إِنَّم﴾** ولا وزر **﴿عَلَيْهِ﴾** في هذا التغيير والتبديل ،
لأنه تبديل الباطل بالحق .

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للعصاة **﴿رَحِيمٌ﴾** بالعباد . قيل : ذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل
من جنس ما يؤثم به ^(٤) . وفي هذا التذييل وعد للمصلح بالثواب والرحمة .

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ
لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ
الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ
وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾**

ثم عاد سبحانه إلى بيان الأحكام العبادية ، وذكر حكم الصوم الذي هو من أفاضل
العبادات بقوله : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** وفي تخصيص الخطاب بالمؤمنين مع عدم اختصاص الحكم
بهم ، تهييج المكلفين على العمل ، لأن في ذكر هذا الوصف تشريف وإكرام وإشعار بأن القيام بأداء
التكاليف من وظائف الإيمان ولوازمه ، وإشارة إلى اختصاص التكليف بالبالغين العاقلين دون الصغار
والجنانين . ولما كان في هذا التكليف مشقة على النفوس ، وجه إليهم الخطاب بكلمة النداء كي يهون
عليهم

(١) تفسير القمي ١ : ٦٥ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٨٢ / ٢٧٨ .

(٣) تفسير ابن عباس : ٢٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ١ : ١٩٨ .

العناء ، كما روي عن الصادق عليه السلام قال : « لَذَّة [ما في] النداء أزال تعب العبادة والعناء » (١) .

في وجوب صوم شهر رمضان وجملة من أحكامه

﴿كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَيْكُمْ الصَّيَامُ﴾ وهو الإمساك عن الأشياء المعينة بنية الفرية ، من طلوع الفجر إلى المغرب .

قيل : هذا صوم عام ، وأما الصَّوم الخاصّ بالإمساك عن المنهيات التَّحريميّة والتنزيهيّة ، وأما الأخصّ بالإمساك عمّا سوى الله (٢) .

ثمّ لتسهيل الأمر عليهم ، قال : ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ الصَّوم ﴿عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء وأممهم من لدن آدم ، فلا يختصّ هذا التكليف وتحميل هذه المشقّة بكم ، والأمر الشاقّ إذا عمّ سهل .

قيل : إنّ النَّصارى كتب عليهم صوم شهر رمضان فأصابهم موتان فزادوا عشرا قبله وعشرا بعده ، فصار صومهم خمسين .

وقيل : كان وقوعه في الحرّ الشديد أو البرد الشديد ، فشقّ عليهم في أسفارهم ومعائشهم فحوّلوه إلى الرّبيع ، وزادوا فيه عشرين يوما كقارة للتحويل .

وأما اليهود ففرض عليهم صيام هذا الشّهر ، فتركوه وصاموا يوما من السنّة زعموا أنّه يوم غرق فرعون .

وعن الصادق (٣) عليه السلام : « أن صوم شهر رمضان كان واجبا على كلّ نبيّ دون أمته ، وإنّما وجب على أمة محمد ﷺ محبة لهم » (٤) وعلى هذا يكون المراد من ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ خصوص الأنبياء .

ثمّ أشار إلى فائدة الصَّوم بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بالمحافظة عليه وتعظيمه ﴿تَتَّقُونَ﴾ العذاب أو المعاصي ، فإنّ الصَّائم أردع لنفسه من مواجهة السَّوء ، ولوضوح أنّ الصَّوم كاسر الشّهوة ، روي : أنّ من لم يستطع الباه فليصم ، فإنّ الصَّوم له وجاء (٥) .

في حكمة إيجاب الصوم وكون الواجبات الشرعية ألطافا

وفي الآية إشارة إلى أنّ الواجبات السَّمعيّة ألطاف ومقرّبات إلى الطّاعة واجتناب كثير من المعاصي ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٦) .

عن ابن عبّاس رضي الله عنه : بعث الله نبيّه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلمّا صدّق زاد الصَّلَاة ، فلمّا صدّق زاد الزّكاة ، فلمّا صدّق زاد الصيام (٧) .

(١) مجمع البيان ٢ : ٤٩٠ . (٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٨٩ .

(٣) في كنز العرفان : الباقر . (٤) كنز العرفان ١ : ٢٠٠ / ٣ .

(٥) تفسير الصافي ١ : ٢٠٠ .

(٦) العنكبوت : ٢٩ / ٤٥ .

(٧) تفسير روح البيان ١ : ٢٩١ .

قيل : كان وجوبه بعد الهجرة بثلاث سنين .
ثم بين الله تعالى زمان الصَّيَّام ووقته ، بقوله : ﴿ **أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ قيل : يعني مقدَّرات بعدد معيَّن ^(١) .

وقيل : إنَّ المراد صوموا أيَّاماً قلائل ، فإنَّ الشيء القليل يعدُّ عدداً ، والكثير يهال هيلاً ^(٢) .
ثم بين حكم ذوى الأعذار بقوله : ﴿ **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً** ﴾ يضُرُّه الصَّوْمُ بتشديد مرضه أو إبطائه أو عسر علاجه ﴿ **أَوْ** ﴾ كان راكباً ﴿ **عَلَى سَفَرٍ** ﴾ إذا تلبَّس به قبل الزَّوال ﴿ **فَعِدَّةٌ** ﴾ موافقة لأيَّام مرضه أو سفره ﴿ **مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ واجبة عليه قضاء ، ولا يجوز له الصَّوم في الحالين .
عن الباقر عليه السلام قال : « سَمَّى رسول الله ﷺ قوما صاموا حين أفطر وقصَّر عصيانا » ^(٣) .
وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عمَّن صام في السَّفر ؟ فقال : « إن كان بلغه أنَّ رسول الله ﷺ نهي عن ذلك فعليه القضاء ، وإن لم يبلغه فلا شيء عليه » ^(٤) .

وفي رواية أخرى : « وإن صام بجهالة ، لم يقض » ^(٥) . والمشهور نصّاً وفتوى أنَّ السَّفر ثمانية فراسخ ، امتدادية ، أو تلفيقية .

﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ** ﴾ ويقدرّون عليه مع المشقة والعسرة ، كالشيخ والشيخة وذوي العطاش والحامل المقرب ﴿ **فِدْيَةٌ** ﴾ مقدَّرة واجبة عليهم إن أفطروا ، وهي ﴿ **طَعَامٌ مِسْكِينٍ** ﴾ واحد وإشباعه عوضاً عن الصَّوم الذي فات منه .

روي عن الصادق عليه السلام أنَّ معناه : « وعلى الذين كانوا يطيقون الصَّوم ثمَّ أصابهم الكبر أو العطاش أو شبه ذلك ، فدية لكلِّ يوم مدٌّ من الطَّعام » ^(٦) .

﴿ **فَمَنْ تَطَوَّعَ** ﴾ وتبرَّع ﴿ **خَيْرًا** ﴾ وزاد في الفدية المقرَّرة ﴿ **فَهُوَ** ﴾ عند ربِّه ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ وأَنْفَع ﴿ **لَهُ** ﴾ وأكثر ثموبة في الآخرة .

﴿ **وَأَنْ تَصُومُوا** ﴾ أيَّها المطيقون ﴿ **خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ وأفضل من الفدية والتطوُّع بالزيادة ، وأنتم أيَّها المؤمنون ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ ما في الصَّوم من الفضيلة اخترتموه لا محالة . في الحديث القدسي : « الصَّوم لي ، وأنا أجزي به » ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٥ : ٧٣ ، وفيه : بعدد معلوم .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٢٩٠ .

(٣) الكافي ٤ : ١٢٧ / ٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٠ ، وفيهما : وقصر عصاة .

(٤) الكافي ٤ : ١٢٨ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٠ .

(٥) الكافي ٤ : ١٢٨ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٠ .

(٦) جوامع الجامع : ٣٤ .

(٧) تفسير روح البيان ١ : ٢٩١ .

والأَيَّامُ المَعْدُودَاتُ هِيَ «شَهْرُ رَمَضَانَ» قِيلَ : سَمِيَ هَذَا الشَّهْرُ بِرَمَضَانَ لِارْتِمَاضِ الْأَكْبَادِ وَاحْتِرَاقِهَا مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ ، وَأَمَّا لِارْتِمَاضِ الذُّنُوبِ بِالصَّيَّامِ فِيهِ ^(١) وَمَا لَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْتَ فِي مَحَلِّهَا .

وَرُوي أَنَّ رَمَضَانَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالشَّهْرُ مَضَافٌ إِلَيْهِ . وَرُوي : لَا تَقُولُوا : جَاءَ رَمَضَانُ ، وَذَهَبَ رَمَضَانُ ، وَلَكِنْ قُولُوا : جَاءَ شَهْرُ رَمَضَانَ ، فَإِنَّ رَمَضَانَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى . ^(٢)

ثُمَّ أَشارَ سَبْحَانَهُ إِلَى حِكْمَةِ تَخْصِيصِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ بِهَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ ، بِقَوْلِهِ : «الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» ابْتِدَاؤُهُ أَوْ بَيَانُهُ أَوْ تَأْوِيلُهُ أَوْ جَمِيعُهُ دَفْعَةً إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ مِنْهُ .

رُوي عَنْ (الْكَافِي) : عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» وَإِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِي عِشْرِينَ سَنَةً بَيْنَ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ؟

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « نَزَلَ [الْقُرْآنُ] جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، ثُمَّ نَزَلَ فِي طُولِ عِشْرِينَ سَنَةً »

ثُمَّ قَالَ : « قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لِسِتْ مَضِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لثَلَاثِ عَشْرَةٍ [لَيْلَةٍ] خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لثَمَانِ عَشْرَةٍ خَلُّونَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةٍ ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ » ^(٣) .

وَقَدْ تَضَافَرَتِ الرِّوَايَاتُ بِأَنَّهَا لَيْلَةُ الْقَدَرِ ، فَتُوصَفُ هَذِهِ الشَّهْرُ بِذَلِكَ الْوَصْفِ لِبَيَانِ أَنَّ هَذَا الشَّهْرَ لِفَضِيلَتِهِ وَشِرَافَتِهِ الذَّاتِيَّةِ حَصَّ بِنَزُولِ الرَّحْمَةِ وَوُفُورِ الْبَرَكَاتِ الَّتِي أَتَمَّهَا نَزُولُ الْقُرْآنِ الَّذِي وَصَفَهُ بِكَوْنِهِ «هُدًى» وَدَلِيلًا «لِلنَّاسِ» إِلَى الْحَقِّ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ .

«وَبَيِّنَاتٍ» قِيلَ : يَعْنِي آيَاتِهِ مُوضِحَاتٍ ^(٤) «مِنْ الْهُدَى» الَّذِي يَكُونُ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَكَاشَفَاتٍ عَنْ مَبْهَمَاتِ سَائِرِ الصِّحَفِ الَّتِي نَزَلَتْ لَهْدَايَةِ النَّاسِ «وَالْفُرْقَانِ» الَّذِي يَكُونُ فِيهَا .

وَالْحَاصِلُ : أَنَّ جَمِيعَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَإِنْ كَانَ هَادِيًا إِلَى الْخَيْرِ وَمُفَرِّقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا تَتِمُّ هِدَايَتُهَا وَتَفْرِيقُهَا إِلَّا بِتَوْضِيحَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَالْقُرْآنُ بَيِّنٌ بِنَفْسِهِ وَمُبَيِّنٌ لْغَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ . فَلِذَا كَانَ أَهْدَى وَأَفْضَلَ وَأَشْرَفَ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ . وَهَذَا الشَّهْرُ أَفْضَلُ وَأَشْرَفُ بِسَبَبِ نَزُولِ الْقُرْآنِ فِيهِ . فَحَقٌّ

(١) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١ : ٢٩٢ .

(٢) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١ : ٢٩٢ .

(٣) الْكَافِي ٢ : ٤٦٠ / ٦ .

(٤) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١ : ٢٩٢ .

على العباد أن يشكروا الله فيه ويعبدوه.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ وحضر في وطنه أو أقام في مكان ولم يكن مريضاً ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ وليخصه بهذه العبادة الفاضلة.

﴿وَمَنْ كَانَ﴾ في هذا الشهر ﴿مَرِيضاً﴾ وإن كان مقيماً أو حاضراً ﴿أَوْ﴾ كان ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ وإن كان صحيحاً سليماً فليفطره في الحالين ، فإذا أفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ غير شهر رمضان ، يصوم قضاء لما أفطر.

قيل : في تكرير هذا الحكم تأكيد الأمر بالإفطار ، وإشعار بكونه عزيمة لا يجوز تركه ^(١) .
ثم أشار إلى حكمة الحكم بقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بإباحة الإفطار ﴿بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ والتسهيل ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ والمشقة بالصوم في الحالين لغاية رأفته ، وسعة رحمته.
عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : إنّ الله عز وجل تصدّق على مرضى امتي ومسافريها بالتقصير والإفطار ، أيسرّ أحدكم إذا تصدّق بصدقة أن تردّ عليه ؟ » ^(٢).

وعن (الخصال) : عن النبي ﷺ : « إنّ الله تبارك وتعالى أهدى إليّ [وإلى] امتي هدية لم يهدّها إلى أحد من الأمم كرامة من الله لنا » . قالوا : وما ذلك يا رسول الله ؟ قال : « الإفطار في السفر ، والتقصير في الصلّة ، فمن لم يفعل ذلك فقد ردّ على الله عز وجل هديته » ^(٣) .
ثم أشار إلى حكمة الأمر بالقضاء بقوله : ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ المعيّنة من أيام الصيام بقضاء الصوم في غيرها.

ثم أشار إلى حكمة الحكمين بقوله : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ وتعظّموه وتمجّدوه ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ وأرشدكم إليه من أحكامه وطريق امتثالها.

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « أما إنّ في الفطر تكبيراً ، ولكنّه مسنون » ^(٤) .
قال : قلت : وأين هو ؟ قال : « في ليلة الفطر في المغرب ، والعشاء الآخرة ، وفي صلاة الفجر ، وفي صلاة العيد ، ثمّ يقطع » .

قال : قلت : كيف أقول ؟ قال : « تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر [والله أكبر] والله الحمد ، الله أكبر على ما هدانا . وهو قول الله عز وجل : ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ ^(٥) .

(١) تفسير الصافي ١ : ٢٠٣ .

(٢) الكافي ٤ : ١٢٧ / ٢ .

(٣) الخصال : ١٢ / ٤٣ .

(٤) في المصدر : مستور .

(٥) الكافي ٤ : ١٦٦ / ١ .

عن (الفقيه) : عن الرضا عليه السلام : « وإنما جعل التكبير في صلاة العيد أكثر منه في غيرها من الصلوات ؛ لأنّ التكبير إنما هو تعظيم الله وتمجيده على ما هدى وعافى ، كما قال عزّ وعلا : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾^(١) الخبر .

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لله على أفضاله وألطافه من إيجاب الصوم الذي هو موجب لتهديب النفوس في الشهر الذي هو أفضل الشهور وتسهيل الأمر فيه ، فإنّ من تفكّر في أنّ الله تعالى مع كمال جلاله واستغناؤه راعى صلاح عبده ومن عليهم بالألطف العظيمة ، علم أنّه مستحقّ لغاية الشكر والتناء ، فيجب عليه المواظبة والاهتمام به بمقدار قدرته وطاقته .

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)

ثمّ أنّه تعالى بعد ما أمر بالتكبير والشكر ، رغب عبده في الدّعاء وطلب الحوائج لتنبيههم بأنّه تعالى كما يطلب منكم الطّاعة والتّكبير والشّكر ، كذلك هو مع كونه منعما عليكم بنعم لا تحصى مجيب لطلباتكم ومستجيب لدعائكم .

قيل : إنّّه تعالى لما فرض الصّوم وكان من أحكامه أنّ الصّائم إذا نام حرّم عليه الإفطار ؛ شقّ ذلك على بعضهم حتّى عصوا . ثمّ ندموا وسألوا النّبيّ ﷺ عن توبتهم^(٢) ، فنزل : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ وروي أنّ أعرابيا قال لرسول الله ﷺ : أفرّيب ربّنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه^(٣) .
﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾ منهم لا بالمكان ، بل بالقيومية والإحاطة العلميّة وسعة الرّحمة ، حيث إنّّه إذا كان القرب بالمكان مرادا لامتنع أن تتساوى نسبته إلى جميع خلقه .

نقل كلام الفخر الرازي في تنزيهه تعالى عن المكان

نقل الفخر الرازي^(٤) [يروى أنّ إمام الحرمين] نزل ببعض الأكابر ضيفا ، فاجتمع عنده العلماء وسائر الأكابر ، فقال بعض أهل المجلس : ما الدّليل على تنزيهه تعالى عن المكان وهو قال : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥) ؟

(١) من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٣١ / ١٤٨٨ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ٩٤ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٥٠٠ ، تفسير الرازي ٥ : ٩٤ ، لباب النقول : ٣٣ .

(٤) وجدناه في روح البيان ، ولم نجدّه عن الفخر الرازي .

(٥) طه : ٢٠ / ٥ .

فقال : الدليل عليه قول يونس في بطن الحوت : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) . فتعجب منه الناظرون ، فالتمس صاحب الضيافة بيانه .

فقال الإمام ^(٢) : هاهنا فقير مديون بألف درهم ، أدّ عنه دينه حتى أبيّنه . فقبل صاحب الضيافة دينه ، فقال : إنّ رسول الله ﷺ لما ذهب في المعراج إلى ما شاء الله من العلى ، قال : « ربّ لا احصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ولما ابتلي يونس عليه السلام بالظلمات في قعر البحر ببطن الحوت ، قال : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فكلّ منهما خاطبه بقوله : (أنت) وهو خطاب الحضور ، فلو كان الله في مكان لما صحّ ذلك ^(٣) .

ثم قال الله تعالى تقريراً للقربة وترغيباً للعباد في دعائه : ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ واعطي ما سأله السائل ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ وسألني حاجته باللسان والقلب في السرّ والجهر . ومن الواضح أنّه إذا لم يخالف إجابته القضاء المبرم ولم يكن في إسعاف حوائجهم مفسدة في دينهم ودنياهم .

فإذا كنت مجيباً لدعائهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ وليبادروا إلى إجابة دعائي إلى الإيمان والأعمال الصالحة ، فكأنّه تعالى قال : أنا مع غنائني عنكم اجيب دعاءكم ، فأنتم مع نهاية حاجتكم إليّ في جميع اموركم أحقّ وأولى بإجابة دعائي .

ثم بيّن استجابتهم الواجبة ^(٤) بقوله : ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ فكأنّه قال : إجابة دعائي الإيمان بوحدانيّتي وبرسولي بجميع ما جاء به .

عن الصادق عليه السلام : « أنّ معناه ليتحققوا أنّي قادر على إعطائهم ما سألوه » ^(٥) .
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ويصيّبون الحقّ ويهتدون إليه ، ويمكن أن يكون من وجوه نظم الآية أنّ من وظائف الصّائم الدعاء ، كما روي أنّ دعوة الصّائم لا تردّ ^(٦) .

في بيان بعض موجبات عدم استجابة الدعاء
روي أنّ الصادق عليه السلام قرأ : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ^(٧) فسئل : ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ فقال : « لأنّكم تدعون من لا تعرفون ، وتسالون ما لا تفهمون فلاضطرار

(١) الأنبياء : ٢١ / ٨٧ .

(٢) في النسخة : فقال فخر ، وما أثبتناه من روح البيان ، إذ المراد إمام الحرمين لا الفخر الرازي .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٣٦٥ .

(٤) في النسخة : الواجب .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٥٠٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٤ .

(٦) عدة الداعي : ١٢٨ ، بحار الأنوار ٩٦ : ٢٥٦ / ٣٦ .

(٧) النمل : ٢٧ / ٦٢ .

عين الدين ، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان ، من لم يشهد ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله حكم على الله بالسؤال ، وظن أن سؤاله دعاء ، والحكم على الله من الجرأة على الله « (١) .

وفي رواية : قيل له **إِنَّا** : إن الله يقول : **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** وإنّا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ فقال : « لأنكم لا توفون بعهد ، وإن الله يقول : **﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾** (٢) والله لو وفيتم [لله] لو في الله لكم » (٣) .

في دفع توهم عدم الفائدة للدعاء

ثم اعلم أن بعض الجهال قالوا : إن الدعاء عديم الفائدة ؛ لأن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع عند الله تعالى كان واجب الوقوع ، وإن كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع ، فلا فائدة في الدعاء على التقديرين.

وهو واضح الفساد ، إذ قد يكون أمر معلوم الوقوع على تقدير الدعاء حيث إن للدعاء دخالة تامة في مصلحة ذلك الأمر ، فقد لا تكون المصلحة في إيجاد المطلوب ، وبالدعاء يوجد فيه الصلاح ، والآيات والأخبار المتواترة ناصة على فائدته ، بل هي من ضرورات الدين فمنكرها كافر. في دفع المنافاة بين الدعاء والرضا بقضاء الله

وأما ما قيل من أنه : ثبت بشواهد العقل والأخبار الصحيحة أن الرضا بقضاء الله من أجل مقامات الصديقين وأعلامها ، والدعاء مناف للرضا ، حيث إن فيه ترجيح مراد النفس على مراد الله ، وطلب حظوظ البشرية.

ففيه : أن الدعاء إظهار لجهة العبودية من الحاجة والدلة والمسكنة مع الرضا بقضاء الله وقدره لعدم المنافاة بينهما ، وذلك من أعظم مقامات الأولياء ، بل الآيات والأخبار المتواترة ناصة على كونه من أفضل العبادات ، بل في تركه مظنة الاستكبار ، ولذا قال سبحانه : **﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** (٤) .

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ

(١) تفسير الصافي ١ : ٢٠٤ .

(٢) البقرة : ٢ / ٤٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٤٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٥ .

(٤) غافر : ٤٠ / ٦٠ .

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ
الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ
عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴿﴾

ثمَّ أنه روي أنَّ الأكل كان محرماً في شهر رمضان بالليل بعد التَّوم ، وكان النِّكاح حراماً بالليل
والنَّهار ، وكان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له مطعم بن جبير ، نام قبل أن يفطر
وحضر حفر الخندق فاغمي عليه ، وكان قوم من الشَّبان ينكحون بالليل سرّاً في شهر رمضان ،
فنزلت (١) : ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ﴾ وابيح لكم فيها ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ قالوا : الرَّفَثُ :
كناية عن المباشرة والجماع. ثمَّ أشار سبحانه إلى علّة التَّرخيص والإباحة بقوله : ﴿هِنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾
ومتّصلات بكم إتّصال الثَّياب بالأبدان ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيضاً ﴿لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ومخالطون بهنَّ.

قيل : وجه شبهة المخالطة والمحرميّة باللباس أنّ الإنسان كما لا يفارق لباسه ، ولا يستر عنه
عورته ، بل يستر عورته به عن غيره ، كذلك الرّوج والرّوجة ، والصّدق الحافظ لأسرار صديقه المؤانس
له ، فصارت شدّة مخالطة الرّوج والرّوجة سبباً لكمال المشقّة في كفّ النَّفس عن المقاربة والاستمتاع.
ثمَّ أخبر الله بعضيّا كثير من المسلمين فيه بقوله : ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُون﴾ وتظلمون
﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بتعريضها للعقاب بسبب غلبة الشَّهوة وارتكاب المعصية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما تبتّم
﴿وَعَفَا﴾ ومحا أثر الخيانة ﴿عَنْكُمْ﴾ بقبول التَّوبة.

وروي البيضاوي : أنّ عمر باشر بعد العشاء مع علمه بحرمة (٢) ، فندم وأتى النبيّ
ﷺ وأعتذر إليه. وقال النبيّ ﷺ : « ما كنت جديراً به » (٣) فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد
العشاء (٤) .

وفي رواية : أنّه أراد الجماع ، فقالت امرأته : إيّ نمت. فلم يقبل منها ، ثمَّ أخبر رسول الله
ﷺ فنزلت (٥) .

﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ وجامعوا معهنّ في أيّ وقت أردتم من الليل ﴿وَابْتَغُوا﴾ بالمباشرة واطلبوا

بها

(١) جوامع الجامع : ٣٤ .

(٢) (مع علمه بحرمة) ليس في تفسير البيضاوي .

(٣) (وقال النبيّ ﷺ : ما كنت جديراً به) ليس في تفسير البيضاوي .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ١٠٦ .

(٥) الدر المنثور ١ : ٤٧٥ .

﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللوح المحفوظ ، وما قدره ﴿لَكُمْ﴾ من الولد ، ولا يكن غرضكم منها صرف قضاء الشهوة.

في نقل بعض العامة اعتذار عمر عن عصيانه

ولعلّ فيه التعريض على عمر ، حيث نقل صاحب (روح البيان) أنّ عمر اعتذر عند النبي ﷺ وقال : إني رجعت إلى أهلي بعد العشاء ، فشمنت رائحة طيبة ، فسوّلت لي نفسي. ثمّ قال بعد نقله : وصارت زلّته سببا للرحمة على جميع الأمة ^(١) . وذلك من عجائب الكلام ، وليت شعري كيف يكون لمن لم يقدر على كفّ نفسه بسبب استنشام رائحة من زوجته عن المعصية الكبيرة ، كرامة عند الله ! ولعلّ هذه الرحمة كانت بسبب رجال شبّان اعترفوا بالخطيئة وكانوا معذورين فيها.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من أول ليالي الصّيام ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ ويتّضح ﴿لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ وهو كناية عن البياض المعترض في الأفق ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وهو كناية عن ظلمة غسق الليل الممتدة فوق البياض ، حال كون ذلك البياض ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وانشقاق الصّبح الصادق.

روي عن سهل السّاعدي : أمّا نزلت ولم يكن قوله : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال [إذا صاموا] يشدّون في أرجلهم خيوطا بيضاء وسوداء ، فلم يزالوا يأكلون ويشربون حتّى يتبيّن لهم ، ثمّ نزل البيان في قوله : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ ^(٢) .

وعن عديّ بن حاتم أنّه قال : أخذت عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي ، وكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلم يتبيّن لي الأبيض من الأسود ، فلمّا أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فضحك وقال : إنّك لعريض القفا ^(٣) ، إمّا ذلك بياض النهار وسواد الليل ^(٤) .

في ردّ قول بعض العامة بمحصر مفطرات الصوم في ثلاثة

ثمّ اعلم أنّ وجه الاقتصار في الآية على حرمة الجماع والأكل والشّرب ، هو كثرة الابتلاء بها ، وكونها مرغوبا إليها لنوع المكلفين دون سائر المفطرات كالحقنة والقيء والارتماس في الماء - على القول بمفطريته - وأنكر بعض العامة مفطرية غير الثلاثة المذكورة في الآية ، وهو في غاية الفساد لثبوت مفطرية غيرها بالروايات المعتبرة.

(١) تفسير روح البيان ١ : ٢٩٩ .

(٢) كنز العرفان ١ : ٢١٥ / ٧ .

(٣) قيل : هو كناية عن طول النوم وكثرته ، وقيل : كناية عن السّمن. راجع : النهاية ٣ : ٢١٠ .

(٤) تفسير الرازي ٥ : ١٠٩ .

في منع الملازمة بين إباحة الجماع في الليل وإباحة الإصباح جنبا وعن بعض العامة : أنَّ الآية دالة على صحّة صوم من أصبح جنبا ، حيث إنّ (حتى) غاية لجواز المباشرة والأكل والشرب إلى طلوع الفجر ، وجواز تأخير الغسل إلى الصّبح لازم إباحة المباشرة في الزّمان المتّصل بالصّبح ^(١) .

وفيه منع الملازمة ، فإنّ حرمة الإصباح جنبا لا ينافي جواز المباشرة قبل الفجر ، لأنّه إذا باشر قبل الصّبح لم يرتكب حراما من حيث تلك المباشرة ، بل بالإصباح جنبا .
والحاصل : أنّه لو دلّ الدّليل على مفطريّة الإصباح جنبا ، لا يعارضه ظهور الآية ، بل الآية ساكنة عن مفطريّة البقاء على الجنابة نفيا وإثباتا .

﴿ثُمَّ أَتَمُّوا﴾ وأدوموا ﴿الصَّيَّامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فإنّ أوّله آخر وقته ، ويعلم بزوال الحمرة المشرقيّة عن قمّة الرأس .

ثمّ بعد بيان حرمة مباشرة النّساء في زمان الصّيام ، بيّن حرمتها في حال الاعتكاف بقوله : ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ ليلا ونهارا بالجماع ومقدّماته ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ ومقيمون بقصد العبادة المعهودة ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾ عموما على قول ، وفي كلّ مسجد جامع على قول آخر ، أو خصوص مسجد جمع فيه النّبى ﷺ أو الوصيّ جمعة أو جماعة على قول ثالث ، فإن باشر أحد في حال الاعتكاف ليلا أو نهارا يبطل على ما ذهب إليه بعض الأصحاب .

ثمّ بالغ في الردع عن مخالفة أحكامه بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ وحرّماته ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ فإنّ التّهي عن القرب أبلغ في التّحريم من التّهي عن المخالفة .
عن النّبى ﷺ أنّه قال : « أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحْرَمَهُ ، فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى يوشكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ » ^(٢) .

﴿كَذَلِكَ﴾ التّبيين والتّوضيح الذي لا يبقى الشكّ معه ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ ويوضح ﴿آيَاتِهِ﴾ وحججه على توحيدِهِ ونبوّة نبيّه وسائر أحكامِهِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافّة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عقابه ويحترزون عن مخالفته .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ

أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨)

(١) تفسير الرازي ٥ : ١١٠ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٠٠

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١١٥ .

ثمَّ أنَّه تعالى بعد نهي النَّاس عن أكل أموال أنفسهم في أيام شهر رمضان ، نهي عن أكل أموال الغير على خلاف حكمه وبغير الوجه الذي شرَّعه في جميع الأوقات ، بقوله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يتصرَّف بعضكم في أموالك بعض آخر ، ولا تتعاملوا ﴿بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ وبالوجه الذي يكون منهياً ومحزماً ، كأكلها بشهادة الزور ، أو اليمين الكاذبة ، أو بالصِّلح ، مع العلم بعدم الحقِّ أو غير ذلك من الوجوه غير الجائزة.

قيل : نزلت في رجلين تخاصما في أرض بينهما ، فأراد أحدهما أن يحلف على أرض أخيه بالكذب ، فقال النبي ﷺ : « إنما أنا بشر يوحى إليَّ وأنتم تحتصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له شيئاً من حقِّ أخيه ، فإنَّما أقضي له قطعة من نار » فبكيا ، وقال كلَّ واحد منهما : أنا أحلَّ لصاحبي. فقال : « اذهبا فتوخَّيا ثمَّ استهما ، ثمَّ ليحلل كلَّ واحد منكما صاحبه » (١) .

عن الصادق عليه السلام : « كانت قريش تقامر الرجل في أهله وماله ، فنهاهم الله » (٢) . وعن (المجمع) عن الباقر عليه السلام : « يعني بالباطل اليمين الكاذبة ، يقتطع بها الأموال » (٣) . وعن (الفقيه) و(العياشي) : عن الصادق عليه السلام أنه سئل : الرَّجل ممَّا يكون عنده الشيء يتبَّلَّغ به ، وعليه الدين ، أيطعمه عياله حتَّى يأتيه الله بميسرة فيقضي دينه ، أو يستقرض على ظهره في حُبِّ الزَّمان وشِدَّة المَكاسب ، أو يقبل الصَّدقة ؟ فقال : « يقضي بما عنده دينه ، ولا يأكل أموال النَّاس إلَّا وعنده ما يؤدِّي إليهم » (٤) ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (٥) - إلى أن قال - : ولا يستقرض على ظهره [إلَّا وعنده] وفاء » (٦) الخبر.

في جواز الاستقراض مع عدم القدرة على الوفاء ولعلَّه لهذه الرواية ذهب أبو الصَّلَّاح إلى حرمة الافتراض على من لا يكون عنده ما يقتضيه ولا يقدر لو طوَّلب على القضاء (٧) .

(١) تفسير أبي السَّعود ١ : ٢٠٢ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٠٢ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٩١ / ٣١٠ ، مجمع البيان ٢ : ٥٠٦ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٥٠٦ .

(٤) زاد في تفسير العياشي : حقوقهم .

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٩٢ / ٣١٣ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ١١٢ / ٤٧٦ .

(٦) الكافي ٥ : ٩٥ / ٢ .

(٧) الكافي في الفقه : ٣٣٠ .

وفيه : أنَّها معارضة برواية موسى بن بكر ^(١) ، عن أبي الحسن عليه السلام : « من طلب هذا الرزق من حلّه ليعود به [على] نفسه وعياله ، كان كالجاهد في سبيل الله عز وجل ، فإن غلب عليه فليستدن على الله عز وجل وعلى رسوله ما يقوت به عياله ، فإن مات ولم يقضه كان على الإمام قضاؤه ، فإن لم يقضه كان عليه وزره ، إن الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالْعَارِمِينَ ﴾ ^(٢) فهو فقير مسكين مغرم » ^(٣) ونحوه غيره ، والترجيح معه لتأييده بإطلاق كثير من الروايات وفتاوى جلّ الأصحاب فلا بدّ من حمل الرواية المانعة على نوع من الكراهة.

ثمّ لكمال شدّة حرمة إعطاء الأموال رشوة خصّه بالذكر مع دخوله في عموم النهي السابق بقوله : ﴿ وَتَذَلُّوا بِهَا ﴾ وتلقوها ﴿ إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ والقضاة السوء بعنوان الرشوة ﴿ لِتَأْكُلُوا ﴾ بأحكامهم الباطلة والرشوة والمصانعة ﴿ فَرِيقًا ﴾ وقسمة ﴿ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ ملابسا ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ والمعصية والظلم ، أو بسبب الإثم من اليمين الكاذبة.

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنكم مبطلون ظالمون ، ومن الواضح أنّ ارتكاب القبيح مع العلم بقبحه أقيح.

في حرمة الترافع عند قضاة الجور

عن القمي رحمته الله : قال العالم عليه السلام : « قد علم الله أنّه قد يكون حكام يحكمون بغير الحقّ ، فنهى أن يتحاكموا ^(٤) إليهم ؛ لأنهم لا يحكمون بالحقّ فتبطل الأموال » ^(٥) .

وقيل : إنّ المراد أن لا تلقوا أمر أموالكم والحكومة فيها إلى الحكّام لتأكلوا وتأخذوا باليمين الكاذبة وشهادة الزور والصّلح - مع العلم بعدم الحقّ - طائفة من أموال الناس عصيانا وظلما ، فعلى هذا يكون المراد من الحكّام عموم القضاة ، والنّهي راجع إلى أخذ أموال الناس بالدّعوى الباطلة.

عن (العياشي) عن الرضا عليه السلام أنّه كتب في تفسيرها : « إنّ الحكّام القضاة » ثمّ كتب تحته : « هو أن يعلم الرجل أنّه ظالم فيحكم له القاضي ، فهو غير معذور في أخذه ذلك الذي حكم له [به] إذا كان قد علم أنّه ظالم » ^(٦) .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) في النسخة : موسى بن بكير ، راجع : معجم رجال الحديث ٩ : ٢٢ .

(٢) التوبة : ٩٠ / ٦٠ .

(٣) الكافي ٥ : ٩٣ / ٣ .

(٤) في المصدر : يتحاكم .

(٥) تفسير القمي ١ : ٦٧ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ١٩١ / ٣١٢ ، التهذيب ٦ : ٢١٩ / ٥١٨ .

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

ثمَّ أنّه روي أنّ معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم ، وهم كانا من الأنصار ، قالا : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ، ثمَّ يزيد حتّى يمتلئ ويستوي ، ثمَّ لا يزال ينقص حتّى يعودكما بدأ ؟ لم لا يكون على حالة واحدة كالشمس ؟ [فنزلت هذه الآية]^(١) .

ولما جرى ذكر شهر رمضان لتعيين وقت الصّوم ، ذكر الله هذا السؤال وجوابه هنا بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ بزيادة نورها ونقصانه.

قيل : وجه إطلاق الهلال على أوّل ما يبدو من نور القمر إلى ثلاث ليال أنّ العرب كانوا يرفعون أصواتهم بالذّكر عند رؤيته^(٢) .

وروي عن معاذ : أنّ اليهود سألت عن الأهلّة^(٣) ، فأجابهم الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد أنّ الأهلّة ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ ومعالم جعلت ﴿لِلنَّاسِ﴾ يوقّتون بها تجاراتهم وديونهم وعدّة نسائهم ، وعبادتهم من صومهم وفطرمهم وصلوات جمعهم وأعيادهم ، وسائر ما يحتاجون إلى التوقيت من أمور معاشهم ومعادهم.

ثمَّ لكثرة الاهتمام بالحجّ خصّه بالذكر بقوله : ﴿وَالْحَجِّ﴾ يعرف بها وقته ، حيث إنّّه مختصّ بالأشهر المعينة ، ولا يجوز نقله إلى غيرها كما كانت العرب تفعل ذلك في التّسيي.

ثمَّ لما جرى ذكر الحجّ في المقام ، ذكر الله تعالى بدعة من بدع المشركين في حال الإحرام استطرادا.

روي عن الباقر عليه السلام : « أنّهم إذا أحرّموا كانوا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه ، ولكنّهم كانوا ينقبون في ظهور بيوتهم نقبا يدخلون ويخرجون منه ، ويسمّونه بَرّا ، فنهاهم الله عن التدين به »^(٤) بقوله : ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ ولا القرية إلى الله ﴿بِأَنْ تَأْتُوا﴾ وتدخلوا ﴿الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وخلفها ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ ما يقرب إلى جميع الخيرات الدنيويّة والأخرويّة برّ ﴿مَنْ اتَّقَى﴾ ما حرّم الله. كذا روي عن الصادق عليه السلام^(٥) .

(١) تفسير الرازي ٥ : ١٢٠ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٠٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٣٠٣ .

(٣) تفسير الرازي ٥ : ١٢٠ .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٥٠٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٠٨ .

(٥) تفسير الصافي ١ : ٢٠٨ .

قيل في وجه ارتباط هذه الجملة بما قبلها : إنَّهم لما سألوا عن حكمة تغيير حال القمر ، ردَّهم الله عن السُّؤالات غير المفيدة للدين ، كأنَّه قال سبحانه : لا تسألوا عَمَّا لا يهَمُّكم ، بل اسألوا عَمَّا البحث فيه أهمُّ ، وهو أنكم تظنُّون أنَّ إتيان البيوت من ظهورها برّ ، وهذا خطأ محض ، بل البرُّ هو تقوى الله ^(١) .

في وجوب أخذ العلم من الراسخين في العلم والعلماء الذين يكون علمهم مأخوذا عنهم وقيل : إنَّهم لما سألوا عن حكمة اختلاف حال القمر ^(٢) ، علَّمهم الله طريق تحصيل العلم ، بقوله : ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وهي كناية عن وجوب السؤال عَمَّن يعلم أنَّه عالم بحقائق الأمور والأحكام من قبل الله وهو النبي وأوصياؤه صلوات الله عليهم ، الذين وصفهم الله بالراسخين في العلم ، والعلماء الذين أخذوا العلم منهم ، دون من يكون علمه مبنياً على الخرص والظنّ والقياس والاستحسان ، وأقوال الرجال الذين لا يؤمنون من الافتراء على الله ورسوله.

عن (الاحتجاج) : عن أمير المؤمنين عليه السلام : « قد جعل الله للعلم أهلاً ، وفرض على العباد طاعتهم بقوله : ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ والبيوت هي بيوت العلم الذي استودعه الأنبياء ، وأبوابها أوصياؤهم » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « نحن البيوت التي أمر الله [بها] أن تؤتى من أبوابها ، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منها ، فمن تابعنا وأقرّ بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها ، ومن خالفنا وفضّل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها » ^(٤) .

وفي رواية : « أنَّ الله عزَّ وجلَّ لو شاء عرّف النَّاس نفسه حتَّى يعرفوه [وحده] ويأتوه من بابه ، ولكنَّه جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه » قال : « فمن عدل عن ولايتنا وفضّل علينا غيرنا ، فقد أتى البيوت من ظهورها وإنهم عن الصراط لناكبون » ^(٥) ، الخبر .

ويمكن أن يكون المراد من إتيان البيوت من أبوابها ، البيوت الظاهرية المسكونة ، والبيوت المعنوية العلمية بإرادة القدر المشترك بين المعنى الحقيقي والمجازي .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحتزوا مخالفة أحكامه وتغييرها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بجميع الخيرات الدنيوية والاخرية والمقامات العالية.

(١) تفسير الرازي ٥ : ١٢٦ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ١٠٨ .

(٣) الإحتجاج : ٢٤٨ .

(٤) الإحتجاج : ٢٢٧ .

(٥) الإحتجاج : ٢٢٨ .

وقيل في تأويل الآية : إنه كان في الجاهلية من همّ بسفر أو أمر يصنعه فمنع من ذلك ، لم يدخل داره من الباب حتى يحصل له ذلك. وكانت قريش وقبائل العرب من خرج لسفر أو حاجة ثم رجع ولم يظفر بذلك ، كان ذلك طيرة ، فنهاهم الله عن ذلك ، وأخبر أنّ الطيرة ليس ببرّ ، والبرّ [من توكل على الله ولم يخف غيره ^(١)] .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠)
 وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ
 مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ
 فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ
 حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى
 الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى لما أمر بالتقوى ، عقّبه بالأمر بأشدّ أقسامه وأشقّها على النفوس ، وهو قتال أعداء الله ، بقوله : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولطلب مرضاته ، ونصرة نبيّه ، وإعزاز دينه. روي أنّه سئل النبي ﷺ عمّن يقاتل في سبيل الله ، فقال : « هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ولا يقاتل رياء و [لا] سمعة » ^(٢) .

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ من الكفار. عن (المجمع) عنهم ﷺ : « هي ناسخة لقوله تعالى : ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ ^(٣) .

وقيل : هذه الآية أوّل آية نزلت في القتال ، فلمّا نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكفّ عن قتال من تركه ، وبقي على هذه الحالة إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٤) .
 وقيل : إنّ لما رجع رسول الله ﷺ عن الحديبية وعاد إلى المدينة ، ثمّ تجهّز في السنة القابلة ، خاف أصحابه أن لا يفوا قريش بالعهد ويصدّوهم ويقاتلوهم ، وكانوا كارهين لمقاتلتهم في الشّهر الحرام

(١) تفسير روح البيان ١ : ٣٠٤ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١٢٨ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٥١٠ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ٧٧ .

(٤) تفسير الرازي ٥ : ١٢٧ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٥ .

في الحرم ، فأُنزل الله تعالى هذه الآيات ، وبيّن لهم كيفية المقاتلة إلى أن احتاجوا إليها ، فقال : **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾** ^(١) .

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال في الحرم محرمين ، وبقتل الصبية والنساء ، وبالمثلة **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** ولا يريد بهم خيرا .

ثم شدد سبحانه في قتال مشركي قريش بقوله : **﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾** وفي أي مكان من الحل أو الحرم وجدتموهم .

روي عنهم عليهم السلام : « أُنسخ لقلوبنا قوله تعالى : **﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾** ^(٢) .

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكة ، وقد فعل عليه السلام بمن لم يسلم من كفار قريش يوم الفتح .

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أجلى كلّ مشرك من الحرم . ثمّ أجلاهم من المدينة ومن جزيرة العرب ، وقال : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » ^(٣) .

ثمّ أنّه روي أنّ بعض الصحابة كان قتل رجلا من الكفار في الشهر الحرام فعابه المؤمنون على ذلك فنزلت ^(٤) .

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ وهي محنة الإخراج وجلاء الوطن ^(٥) . وقيل : هي الشّرك ^(٦) وصدّهم المسلمين عن الحرم **﴿أَشَدُّ﴾** وأصعب **﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾** لدوام تعبها وبقاء ألم النفس بها .

سئل بعض الحكماء : أي شيء أشدّ من الموت ؟ قال : الذي يتميّ في الموت ^(٧) .

وقيل : إنّ المشركين كانوا يستعظمون القتل في الحرم ، ويعيبون المسلمين به ، فردّ الله عليهم بأنّ الكفر والشّرك بالله في الحرم أشدّ قبحا من القتل ^(٨) .

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ شرط جواز القتال في الحرم أن يكون بعنوان الدّفاع ، بقوله : **﴿وَلَا تُفَاتِلُوهُمْ﴾** بادين به **﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** ولا تهتكوا بالقتال فيه حرمة **﴿حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ﴾** ويبادروا إلى

(١) تفسير الرازي ٥ : ١٢٧ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٥١٠ ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٣ / ٤٨ .

(٣) تفسير الرازي ٥ : ١٣٠ .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٥١١ ، تفسير الرازي ٥ : ١٣٠ .

(٥) كذا ، والظاهر : والجلاء من الوطن .

(٦) تفسير البيضاوي ١ : ١٠٩ .

(٧) تفسير روح البيان ١ : ٣٠٦ .

(٨) الكشف ١ : ٢٣٦ .

قتالكم.

﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾ فيه بادين به ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فيه دفاعا ، ولا تبالوا هتك حرمة الحرم ، لأنهم الذين هتكوا حرمة وأنتم مدافعون عن أنفسكم ﴿كَذَلِكَ﴾ القتل ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ على مبادرتهم بالقتال ، فإنه يفعل بهم مثل ما فعلوا.

﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ وانصرفوا عن القتال واعتقاد الشرك بالله وتابوا إليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يغفر لهم ؛ لأنه ﴿غَفُورٌ﴾ للعصاة وستار للسيئات ﴿رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين التائبين.

ثم أكد الله الأمر بقتال المشركين بقوله : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ مجدين فيه ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ﴾ في الأرض ﴿فِتْنَةٌ﴾ الشرك ، وحتى يسلموا ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ في الأرض خالصا ﴿لِلَّهِ﴾ لا شرك للشيطان والأصنام فيه ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ ورجعوا عن الشرك إلى التوحيد ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ جائز مستحسن على أحد ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الكفر.

قيل : تسمية الجزاء عدوانا من باب المشاكلة والازدواج ^(١) .

عن (العياشي) : عن أحدهما عليه السلام : « أي لا عدوان إلا على ذرية قتلة الحسين عليه السلام » ^(٢) وقريب منه رواية أخرى ^(٣) .

وعن (العياشي) : عن الرضا عليه السلام أنه سئل : يابن رسول الله ، ما تقول في حديث روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : « إذا خرج القائم قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائهم ؟ » فقال عليه السلام : « هو كذلك » .

فقيل : فقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ^(٤) ما معناه ؟ فقال : « صدق الله في جميع أقواله ، لكن ذراري قتلة الحسين عليه السلام رضوا بفعال آبائهم ، ويفتخرون بها ، ومن رضي شيئا كان كمن أتاه ، ولو أن رجلا قتل في المشرق فرضي [بقتله] رجل في المغرب ، لكان الراضي عند الله شريك القاتل . وإنما يقتلهم القائم إذا خرج لرضاهم بفعال آبائهم » ^(٥) .

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾

(١) تفسير الصافي ١ : ٢١٠ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ١٩٣ / ٣٢٠ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ١٩٣ / ٣٢٢ .

(٤) الزمر : ٣٩ / ٧ .

(٥) علل الشرائع : ٢٢٩ / ١ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٧٣ / ٥ .

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)
وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴿

ثمَّ أنه تعالى بعد ما رتخص المسلمين في قتال المشركين في الحرم دفاعا ؛ رتخصهم فيه في الأشهر الحرم قصاصا ، بقوله : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ يقابل ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فلا تبالوا بهتكه بإزاء هتك المشركين إيّاه.

روي : أنَّ المشركين قاتلوا المسلمين في عام الحديبية في ذي القعدة ^(١) . ونقل أنَّ بعد صدَّ المشركين المسلمين ، وقع بينهم ترام بسهام وحجارة ، ولما اتَّفَق خروج المسلمين لعمرة القضاء في ذلك الشهر كرهوا أن يقاتلوهم ، فنزلت الآية ^(٢) .

ثمَّ عمَّ حكم القصاص بقوله : ﴿وَالْحُرُمَاتُ﴾ وجميع الامور التي يجب رعاية حرمتها ، يجري فيها ﴿قِصَاصٌ﴾ وحكم المعاملة بالمثل ، فإن صدَّكم المشركون عن دخول الحرم عنوة فادخلوا أنتم عليهم عنوه ، وإن قاتلوكم في الحرم وفي الشهر الحرام فقاتلوهم ، حيث إنَّ الحرمات لا تراعى في حق من لا يراعيها.

عن (التهذيب) و(العياشي) : أنه سئل عن المشركين أيتدئهم المسلمون في القتال في الشهر الحرام ؟ فقال : « إذا كان المشركون ابتدؤوهم باستحلالهم ثم رأى المسلمون أنَّهم يظهرون عليهم فيه ، وذلك قوله تعالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ ^(٣) .
ثمَّ أنه تعالى لتقرير ما بيَّنه من الحكم ذكر فذلِكَ له بقوله : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى﴾ وتجاوز عليكم نفسا أو عرضا أو مالا ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ وعاقبوه ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ من الجناية ، ولا تتجاوزوا عن الحدِّ المرخص فيه.

عن الصادق عليه السلام في رجل قتل رجلا في الحرم ، وسرق في الحرم ، فقال : « يقام عليه الحدُّ [في الحرم] صاغرا ، إنه ^(٤) لم ير للحرم حرمة ، وقد قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ﴾

(١) تفسير الصافي ١ : ٢١٠ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٣٠٧ .

(٣) التهذيب ٦ : ١٤٢ / ٢٤٣ ، تفسير العياشي ١ : ١٩٣ / ٣٢١ .

(٤) في النسخة : وصغار له ، لأنه .

مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني في الحرم ، وقال : ﴿فَلَا عُذْوَانِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١) .
 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا غضبه ، فلا تتجاوزوا عما رخص لكم ، ولا تفتاحوا بالقتال في الحرم
 وفي الشهر الحرام ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ بالنصرة والمعونة والحفظ ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
 ثم روي أنه لما نزلت ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ قال رجل من الحاضرين : يا رسول الله
 ، مالنا زاد ، وليس أحد يطعمنا ، فأمر رسول الله ﷺ أن ينفقوا في سبيل الله ، وأن يتصدقوا ، وأن
 لا يكتفوا أيديهم عن الصدقة ولو بشق تمره تحمل في سبيل الله ، فنزلت [هذه الآية] على وفق
 رسول الله ﷺ^(٢) .

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه ، وطلب مرضاته من الجهاد وسائر أبواب الخير ، وهذا
 أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر بالجهاد بالنفس.

في وجوب الاقتصاد في الانفاق

﴿وَلَا تُلْقُوا﴾ أنفسكم ، ولا تطرحوها ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ وبمباشرتكم ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾
 والتلف بسبب الإسراف في الإنفاق وتضييع أمر المعاش وسائر ما يؤدي إلى الهلاك.
 عن أبي أيوب الأنصاري ، قال : إن الله تعالى لما أعز دينه ونصر رسوله ﷺ قلنا فيما بيننا :
 إنّا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتّى فشا الإسلام ونصر الله نبيّه ﷺ فلو رجعنا إلى أهلنا وأموالنا فأقمنا
 فيها وأصلحنا ما ضاع منا ؟ فأنزل الله هذه الآية. فالتهلكة ما كان سببا للهلاك من الإقامة في الأهل
 والمال وترك الجهاد^(٣) .

في وجوب طاعة السلطان

عن النبي ﷺ قال : « طاعة السلطان واجبة ، ومن ترك طاعة السلطان فقد ترك طاعة الله
 تعالى ، ودخل في نفيه ، إن الله يقول : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٤) » .
 عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام قال : « لو أنّ رجلا أنفق ما في يديه في سبيل
 الله ، ما [كان] أحسن ولا وفق ، أليس يقول الله تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٥) .
 ثم أكّد سبحانه الأمر بالإنفاق ، بالأمر بالإحسان ، من الإنفاق وسائر الأعمال الصالحة
 بقوله :

(١) الكافي ٤ : ٢٢٧ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٠ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١٣٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣٠٩ .

(٤) أمالي الصدوق ٤١٨ / ٥٥٣ .

(٥) الكافي ٤ : ٥٣ / ٧ .

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ إلى الفقراء وتفضلوا عليهم مراعين للاقتصاد ، أو التزموا بالأعمال الحسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومنهم المقتصدون في الإنفاق .

وقيل : إنَّ مما يؤدي إلى الهلاك ، ترك الإنفاق في أصحاب الجهاد ، فيستولي عليهم العدو فيهلكهم ^(١) .

﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾

ثم أنه روي أن النبي ﷺ لما رجع في العام القابل إلى مكة فمنعه الكفار عن الحج والعمرة فنزلت : ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ^(٢) واتوا بهما كاملين بشرائطهما وأركانهما خالصين لوجه الله .
عن (الكافي) و (العياشي) سئل الصادق عليه السلام عن هذه الآية ، فقال : « هما مفروضان » ^(٣) .

وعنه عليه السلام قال : « العمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج على من استطاع ؛ لأن الله يقول : ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ^(٤) .
وفي رواية ، قال : يعني بتمامها أداءهما واتقاء ما يتقي الحرم فيهما ^(٥) .
وعن (المجمع) : عن أمير المؤمنين عليه السلام والسجاد عليه السلام : « يعني أقيموها إلى آخر ما فيها » ^(٦) .

وفي رواية : « تمامهما اجتناب الرفث ، والفسوق ، والجدال في الحج » ^(٧) .
وعن (الكافي) : عنه عليه السلام قال : « إذا أحرمت فعليك بتقوى الله ، وذكر الله كثيرا ، وقلة الكلام إلا بخير ،

في أن زيارة الإمام تمام الحج

فإن من تمام الحج والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلا من خير » ^(٨) .

وعن الباقر عليه السلام : « تمام الحج لقاء الإمام » ^(٩) .

(١) مجمع البيان ٢ : ٥١٦ . (٢) تفسير الرازي ٥ : ١٤٤ .

(٣) الكافي ٤ : ٢٦٥ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ١٩٥ / ٣٣٠ .

(٤) علل الشرائع : ٤٠٨ / ١ . (٥) الكافي ٤ : ٢٦٥ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢١١ .

(٦) مجمع البيان ٢ : ٥١٨ .

(٧) الخصال : ٦٠٦ / ٩ . (٨) الكافي ٤ : ٣٣٧ / ٣ .

(٩) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٦٢ / ٢٩ .

وعن الصادق عليه السلام : « إذا حج أحدكم فليحتم حجّه بزيارتنا ؛ لأنّ ذلك من تمام الحجّ »^(١).

أقول : وذلك لأنّ الحجّ زيارة الله في بيته ، ولما كان الإمام عليه السلام عين الله الناظرة ، ويده الباسطة ، وجنبه ، وبابه الذي يؤتى منه ، وخازن علمه ، ومعدن حكمته ، كانت زيارته زيارة الله في عرشه ، ولذا عدّت من تمام الحجّ.

ثمّ بيّن الله تعالى حكم المحصور منه بقوله : ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ ﴾ ومنعتم من الحجّ بعد إحرامه لخوف من عدوّ أو لمرض ، وأردتم التحليل من الإحرام ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ ﴾ وما تيسّر لكم ﴿ مِنْ الْهَدْيِ ﴾ واجب عليكم ، أعلاه البعير ، وأوسطه البقرة ، وأقله الشاة. وقيل : كلّ ما تيسّر ، وإنّما سميّ هدياً لأنّه بمنزلة الهدية التي يهديها العبد إلى ربّه^(٢) ، وما تيسّر من شيء واجب عليكم. ﴿ وَلَا تَحْلِفُوا ﴾ أيّها المحصورون ﴿ رُؤُسَكُمْ ﴾ ولا تحلّوا من إحرامكم ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ وتعلموا أنّ هديتكم التي بعثتموها قد بلغت منى الذي يجب التحرّ أو الذبح فيه إن كان الإحرام بالحجّ ، أو مكّة إنّ كان الإحرام بالعمرة.

في حكم المحصور بعد الإحرام

عن (الكافي) عن الباقر عليه السلام : « المصدود يذبح حيث صدّ ، ويرجع صاحبه فيأتي النساء ، والمحصور يبعث بهديه ويعدّهم يوماً ، فإذا بلغ الهدي أحلّ هذا في مكانه »^(٣) .
وعن الصادق عليه السلام : « يجزيه شاة ، والبدنة والبقرة أفضل »^(٤) .

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ﴾ في حال الحصر ﴿ مَرِيضاً ﴾ يحتاج إلى حلق الرأس ﴿ أَوْ بِهِ أَذًى ﴾ وألم كائن ﴿ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ كقمل أو صداع ﴿ فَفِدْيَةٌ ﴾ معيّنة عليه إذا حلق ، كانت الفدية ﴿ مِنْ صِيَامٍ ﴾ في ثلاثة أيّام ﴿ أَوْ صَدَقَةٍ ﴾ وهي إطعام ستّة مساكين ، لكلّ مسكين مدّان ، أو عشرة مساكين لكلّ مدّ ﴿ أَوْ نُسْكَ ﴾ وهو الذبيحة ، أقلّها شاة ، وأوسطها بقرة ، وأعلاها بدنة.

عن (الكافي) و (العياشي) : عن الصادق عليه السلام : « مرّ رسول الله ﷺ على كعب بن عجرة ، والقمل يتناثر من رأسه وهو محرم ، فقال له : أتؤذيك هوائك ؟ فقال : نعم. فانزلت هذه الآية ، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق ، وجعل الصيام ثلاثة أيّام ، والصدقة على ستّة مساكين ، لكلّ مسكين مدّان والنسك

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٦٢ / ٢٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٣١١ .

(٣) الكافي ٤ : ٣٧١ / ٩ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ١٩٦ / ٣٣٣ .

شاة» (١) .

قال أبو عبد الله عليه السلام : « وكلّ شيء في القرآن (أو) فصاحبه بالخيار ، يختار ما شاء ، وكلّ شيء في القرآن (فمن لم يجد كذا فعليه كذا) فالأولى الخيار » (٢) الخبر . والظاهر من الخيار الأخير الجري بالاختيار .

في حكم حجّ التمتع في الأمن

ثم أنّه لما ذكر حكم المحصور لعدوّ أو مرض ، بين حكم حال الأمن والسّعة ، بقوله : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ من خوف العدو وبرئت من المرض ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ ﴾ وانتفع بما كان يحرم عليه بعد التحليل من إحرامها مستمراً عليه ﴿ إِلَى الْحَجِّ ﴾ وإحرامه به ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ عليه ، وهو شاة ، على ما روي عن الصادق عليه السلام (٣) .

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ الهدى ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ واجب عليه في وقت الحجّ ، أو أيام اشتغاله

به .

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام في المتمتع لا يجد الهدى ؟ قال : « يصوم قبل التّروية [يوم ويوم التّروية] ويوم عرفة » .

قيل : قد قدم يوم التّروية ؟ قال : « يصوم ثلاثة أيّام بعد التشريق » .

قيل : لم يقم عليه جمّاله ؟ قال : « يصوم [يوم] الحصة (٤) وبعده يومين » .

قيل : وما الحصة (٥) ؟ قال : « يوم نفره » .

قيل : يصوم وهو مسافر ؟ قال : « نعم ، أليس [هو] يوم عرفة مسافراً ! إنّ أهل بيت نقول ذلك لقول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ يقول : في ذي الحجة » (٦) . ﴿ وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ إلى أهاليكم ﴿ تِلْكَ ﴾ الجملة ﴿ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ وفيه زيادة توصية بصيامها .

في (التهذيب) : عن الصادق عليه السلام أنّه سأل سفيان الثّوريّ : « أيّ شيء يعني بكاملة ؟ » قال : سبعة وثلاثة . قال : « و [يختل] ذا على ذي حجا ، إنّ سبعة وثلاثة عشرة » .

قال : فأيّ شيء هو أصلحك الله ؟ قال : « انظر ! » قال : لا علم لي ، فأيّ شيء هو أصلحك الله ؟ قال : « الكاملة كما لها كمال الاضحية ، سواء أتيت بها أو لم تأت » (٧) انتهى . وعلى هذا يكون المعنى أنّه لا

(١) الكافي ٤ : ٣٥٨ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ١٩٧ / ٣٣٦ .

(٢) الكافي ٤ : ٣٥٨ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ١٩٨ / ٣٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٣ .

(٣) الكافي ٤ : ٤٨٧ / ١ .

(٤) في النسخة : الخطيئة .

(٥) في النسخة : الخطيئة .

(٦) الكافي ٤ : ٥٠٦ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٣ .

(٧) التهذيب ٥ : ٤٠ / ١٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٤ ، وفي التهذيب : أتيت بها أو أتيت بالأضحية تمامها كمال الأضحية .

تنقص ثواب صيام العشرة عن الأضحية.

و﴿ذَلِكَ﴾ التمتع بمحرّمات الإحرام جائز بين العمرة والحجّ ﴿لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن يكون بينهم وبين المسجد اثني عشر ميلا فما دونها من كلّ جانب.

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام في هذه الآية : « من كان منزلة على ثمانية عشر ميلا من [بين يديها ، وثمانية عشر ميلا من] خلفها ، وثمانية عشر ميلا عن يمينها ، وثمانية عشر ميلا عن يسارها ، فلا متعة له ، مثل مرّ^(١) وأشباهها »^(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما فرض عليكم ، كما عن ابن عباس^(٣) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تهاون بحدوده ولم يحافظ على أوامره ونواهيه.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾

في بيان أشهر الحجّ

ثم بيّن الله تعالى زمان الحجّ بقوله : ﴿الْحَجُّ﴾ وقته ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ معيّنات عند الله ، معروفة عند الناس ، وهي : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، على ما روى عن الصادقين عليه السلام قالوا : « ليس لأحد أن يحجّ فيما سواه ، ومن أحرم بالحجّ في غير أشهر الحجّ فلا حجّ له »^(٤).

﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ وأوجب على نفسه ﴿فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ بأن اشتغل به وشرع فيه. عن (الكافي) و(العياشي) قال : قال الصادق عليه السلام : « الفرض : التلبية والإشعار والتقليد ، فأيّ ذلك فعل فقد فرض الحجّ »^(٥).

أقول : فيه دلالة على وجوب إتمام الحجّ بالاشتغال به والدخول فيه وإن كان مندوبا ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ جائز ﴿فِي﴾ وقت ﴿الْحَجِّ﴾ وزمان الاشتغال بمناسكه.

(١) مرّ : واد في بطن إضم ، وقيل : بطن إضم ، والمرّ أيضا : أرض بالنجد من بلاد مهرة بأقصى اليمن.

(٢) الكافي ٤ : ٣٠٠ / ٣.

(٣) تفسير الرازي ٥ : ١٦٠.

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٠٣ / ٣٥٥ و ٣٥٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٤.

(٥) الكافي ٤ : ٢٨٩ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ٢٠٣ / ٣٥٨.

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « الرّفث : الجماع ، والفسوق : الكذب والسّباب ، والجدال : قول الرّجل : لا والله ، وبلى والله » (١) .

وقال : « في الجدال شاة ، وفي [السباب و] الفسوق بدنة (٢) ، والرّفث فساد الحجّ » (٣) . والمراد من التّقي ، التّهي بأبلغ بيان ، وتخصيص تحريم الثلاثة بالحجّ مع كونها حراما مطلقا لكون الحرمة فيه أشدّ ، كلبس الحرير في الصّلاة .

ثمّ حتّ المؤمنين إلى الأعمال الحسنة بعد التّهي عن القبائح بقوله : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمل صالح وبرّ ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ فيجازيكم به أحسن الجزاء ﴿وَتَرْوُدُوا﴾ بالأعمال الصالحة لسفر الآخرة ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الرِّزَادِ﴾ فيه ﴿التَّقْوَى﴾

أو المراد التزوّد بالمؤونة في السّفر الدنيويّ ولو بسبب التّقوى ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٤) . نقل أنّهم كانوا يحجّون بغير زاد ، فيكونون كلّا على النّاس ، فأمر الله المؤمنين بالتزوّد للسّفر ، لأنّه لا ينبغي استطعام النّاس والتّثقل عليهم (٥)

ثمّ بعد بيان فائدة التّقوى ، وأنّه خير الرّاد ، أمر به بقوله : ﴿وَاتَّقُوا﴾ في مخالفتي واحترزوا عقابي ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وتوجيه الخطاب إلى ذوي العقول السّليمة ، لأنّ العقل يحثّ العاقل على التّقوى وملازمته ، فمن لا تقوى له لا عقل له ، لأنّه ترك ما فيه خير الدنيا والآخرة .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)﴾

ثمّ أنّه روي عن ابن عبّاس أنّه كان ناس من العرب يحترزون [من] التجارة في أيّام الحجّ ، وإذا دخل العشر بالغوا في ترك البيع والشراء بالكلّيّة ، وكانوا يسمّون التاجر في الحجّ الدّاج ، ويقولون : هؤلاء الدّاج وليسوا بالحاج ، ومعنى الدّاج المكتسب الملتقط .

وبالغوا في الاحتراز عن الأعمال إلى أن امتنعوا عن إغاثة الملهوفين ، وإعانة الضعفاء ، وإطعام

(١) الكافي ٤ : ٣٣٨ / ٣ .

(٢) في الكافي : بقرة .

(٣) الكافي ٤ : ٣٣٩ / ٦ .

(٤) الطلاق : ٦٥ / ٢ و ٣ .

(٥) تفسير الصافي ١ : ٢١٥ .

الجائع ، فأزال الله هذا الوهم ^(١) ، بقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وبأس في ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً﴾ وربحاً كائناً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وتطلبوا مالا بالتجارة المحللة.

قيل : إنّ عكاظ ومجّة وذا الجاز كانوا يتّجرون في أيّام الموسم فيها ، وكانت معائشهم منها ، فلمّا جاء الإسلام كرهوا أن يتّجروا في الحجّ بغير الإذن ، فسألوا رسول الله ﷺ فنزلت ^(٢) .

عن (العياشي) : عن الصادق عليه السلام : ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني الرزق ، إذا أحلّ الرجل من إحرامه وقضى نسكه فليبع وليشتر في الموسم « ^(٣) .

وفي رواية أخرى ﴿فَضْلاً﴾ أي مغفرة ^(٤) .

وروي عن الباقر عليه السلام : ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هو أن يتبغى الإنسان حال كونه حاجاً أعمالاً أخرى تكون موجبة لاستحقاق فضل الله ورحمته ، مثل إغاثة الملهوف ، وإعانة الضّعيف ، وإطعام الجائع « ^(٥) .

وقال بعض علماء العامة معترضاً عليه : إنّ هذه الأعمال بين واجب ومندوب ، ولا يصحّ أن يقال فيها : (لا جناح) فإنّ هذا التعبير مختصّ بالمباحات ^(٦) .

وفيه : أنّ استعمال (لا جناح) في الواجبات غير عزيز إذا كان في مورد توهم الحصر كقوله تعالى : ليس ﴿عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ^(٧) .

ثمّ اعلم أنّه لا تعارض بين الروايات المفسّرة للفضل ، لأنّ كلّ واحد منها محمول على بيان نوع من أنواعه.

﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ﴾ ودفعتم أنفسكم للرجوع ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ بكثرة ومضيتم منها إلى المزدلفة ، [كما] عن (تفسير الإمام عليه السلام) ^(٨) وعرفات علم للموقف.

روي : أنّه تمثّل جبرئيل لإبراهيم فيه ، فلمّا رآه عرفه ، فسَمّي ذلك الموضع عرفات ^(٩) .

ونقل : أنّ جبرئيل كان يدور به في المشاعر ، ويقول : عرفت ؟ فلمّا رآه ، قال : عرفت ^(١٠).

(١) تفسير الرازي ٥ : ١٧١ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١٧١ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٠٦ / ٣٦٦ .

(٤) عوالي الآلي ٢ : ٩٢ / ٢٤٦ .

(٥) تفسير الرازي ٥ : ١٧٢ .

(٦) تفسير الرازي ٥ : ١٧٢ .

(٧) النساء : ٤ / ١٠١ .

(٨) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٠٥ / ٣٥٨ .

(٩) تفسير روح البيان ١ : ٣١٦ .

(١٠) تفسير روح البيان ١ : ٣١٦ .

ونقل أيضا : أَنَّ آدَمَ وَحَوَّاءَ اجْتَمَعَا بِعَرَفَاتٍ وَتَعَارَفَا (١) .

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وجوبا بالدعاء والتكبير والتهليل ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهو جبل سَمَّى قَرْح (٢) ، وَلَقَّبَ بِالْمَشْعَرِ لِأَنَّهُ مَعْلَمُ الْعِبَادَةِ ، وَوَصَفَ بِالْحَرَامِ لِحُرْمَتِهِ (٣) .

روي عن جابر : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا صَلَّى الْفَجْرَ بِالْمَزْدَلِفَةِ بَغِلَسَ ، رَكِبَ نَاقَتَهُ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ ، فَدَعَا وَكَبَّرَ وَهَلَّلَ ، وَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ (٤) .

﴿وَاذْكُرُوهُ﴾ ذكرا حسنا ، على ما قيل (٥) ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾ هداية حسنة إلى المناسك وغيرها من العبادات . أو المراد اذكروه لِأَنَّهُ عَلَّمَكُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ ، أَوْ عَلَّمَكُمْ كَيْفَ تَذْكُرُونَهُ .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي قبل الهدى أو التعليم ﴿لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ بكيفية ذكره وعبادته .

نقل عن ابن عباس أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى النَّاسِ فِي هَذَا اللَّيْلَةِ ، وَقَالَ : كَانَ النَّاسُ إِذَا أَدْرَكُوا هَذِهِ لَمْ يَنَامُوا (٦) .

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا

قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ

يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا

آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ

مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾

ثُمَّ أَنَّهُ نَقَلَ أَنَّ قَرِيشًا وَجَمَاعَةً مِنْ حَلَفَائِهِمْ كَانُوا يَسْمُونَ بِالْحَمْسِ لِتَشَدِّدِهِمْ فِي دِينِهِمْ ، لَمْ يَكُونُوا يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ ، بَلْ كَانُوا وَقُوفُهُمْ بِالْمَزْدَلِفَةِ ، وَلَا يَتَجَاوَزُونَ عَنْهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَرَفَّعُونَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَقُولُونَ : نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ ، وَلَا نَحِلَّ حَرَمَ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْحَرَمَ أَشْرَفُ مِنْ غَيْرِهِ ، فَالْوُقُوفُ بِهِ أَوْلَى ، وَسَائِرُ النَّاسِ كَانُوا يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ (٧) ، بِقَوْلِهِ : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ وَارْجِعُوا وَكَلِمَةً (ثُمَّ) لِلتَّرْتِيبِ فِي الرِّتْبَةِ ، وَلِتَكُنْ إِفَاضَتُكُمْ ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يَعْنِي بِالنَّاسِ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ أَفَاضَ

من

(١) تفسير روح البيان ١ : ٣١٦ .

(٢) في النسخة : بقرح .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ١١٢ ، تفسير أبي السعود ١ : ٢٠٨ .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ١١٢ .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ١١٢ .

(٦) تفسير الرازي ٥ : ١٧٨ .

(٧) مجمع البيان ٢ : ٥٢٧ .

عرفات» (١) .

وعن (الكافي) : عن الحسين بن علي عليه السلام : « نحن الناس » (٢) .

وعن الصادق عليه السلام في حديث حج النبي صلى الله عليه وآله قال : « ثم غدا والناس معه ، وكانت قریش تفيض من المزدلفة وهي جمع ، ويمنعون الناس أن يفيضوا منها . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وقریش ترجو أن تكون إفاضته [من] حيث كانوا يفيضون ، فأنزل الله تعالى : ﴿ تُمْ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ (٣) .

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من تغييركم المناسك في الجاهلية ، ومن سائر المعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ وستار للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين ، لا يقطع عنهم إحسانه .

عن النبي صلى الله عليه وآله : « أن الله يباهي ملائكته بأهل عرفات ، ويقول : انظروا إلى عبادي جاءوا من كل فج عميق شعنا غربا [اشهدوا] أي غفرت لهم » (٤) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لا يغفر له » (٥) .

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ﴾ وأديتم أيها المؤمنون ﴿مَنَاسِكُكُمْ﴾ وأعمال حجكم ، وفرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وآلاءه ونعماءه عندكم ، وإحسانه إليكم ، وبالغوا فيه ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾

عن ابن عباس : أن العرب كانوا عند الفراغ من حجهم بعد أيام التشريق ، يقفون بين مسجد منى وبين الجبل ، ويذكر كل واحد منهم فضائل آبائه في الشجاعة (٦) والحماسة وصلة الرحم ، ويتناشدون فيها الأشعار ، ويتكلمون بالمشور من الكلام ، ويريد كل واحد منهم من ذلك الفعل حصول الشهرة والترفع بمآثر سلفه ، فلما أنعم الله [عليهم] بالإسلام ، أمرهم أن يكون ذكركم لرحمهم كذكركم لآبائهم (٧) ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ وأبلغ ﴿ذِكْرًا﴾

عن (تفسير الإمام علي عليه السلام) : « خيرهم بين ذلك ، ولم يلزمهم أن يكونوا [له] أشد ذكرا منهم لآبائهم وإن كانت نعم الله عليهم أكثر وأعظم من نعم آبائهم » (٨) .

وقيل : إن المراد أن الانسان كما لا ينسى ذكر أبيه ، كذلك يجب أن لا يغفل عن ذكر الله

(٩) .

وقيل : إن المعنى : اذكروا الله بالوحدانية كذكركم آباءكم بالوحدانية ، فإن الواحد منهم لو

نسب إلى

(١) تفسير الصافي ١ : ٢١٦ .

(٢) الكافي ٨ : ٢٤٤ / ٣٣٩ .

(٣) الكافي ٤ : ٢٤٧ / ٤ . (٤) تفسير روح البيان ١ : ٣١٨ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٣١٨ .

(٦) في تفسير روح البيان : السماحة .

(٧) تفسير روح البيان ٥ : ١٨٣ .

(٨) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٠٦ / ٣٥٨ .

(٩) تفسير الرازي ٥ : ١٨٥ .

والدين لتأدّى واستنكف ، ومع ذلك يثبت لنفسه آلهة ، والحال أنّ المبالغة في التّوحيد أولى ^(١) .

وقيل : إنّ المراد أنّ الطّفل كما يرجع إلى أبيه في طلب المهمّات ، ويكون ذاكرا له بالتّعظيم ، فكونوا أنتم كذلك في ذكر الله ^(٢) .

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال في تفسير الآية : هو أن تغضب له لو عصي أشدّ من غضبك لوالدك إذا ذكر بسوء ^(٣) .

وحاصل جميع الوجوه أنّه يجب على العبد أن يكون دائم الذّكر ، ودائم التّعظيم ، ودائم الرّجوع إلى ربّه ، ودائم الانقطاع عمّن سواه.

قيل : معنى ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بل أشدّ ذكرا ، لأنّ موجبات ذكر آبائهم قليلة ، وصفات الله الكمالية وحقوقه على عباده غير متناهية ^(٤) .

ثمّ أنّه لما كان ينبغي للعبد بعد أداء مناسك الحجّ - الذي به تنكسر النفس وترفع عنها غواشي الشّهوات ، وتوجّهه إليه بذكره الذي به تنجلي في القلوب أنوار عظمتة وإشراقات جلاله - أن يشتغل بالدّعاء والطلب للمهمّات ، ولذا بيّن الله تعالى اختلاف همّ النّاس بقوله : ﴿فَمِنْ النَّاسِ﴾ الذين يشهدون هذا الموقف العظيم الذي تستجاب فيه الدّعوات ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ في مقام الدّعاء افتتاناً بلذات الدنيا ، ونسياناً للآخرة ونعيمها ﴿رَبَّنَا آتِنَا﴾ نصيبنا ، وأعطنا حظنا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ من الجاه ، والغنى ، بدلا من الآخرة.

ويجب الله مسؤوله إن شاء ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ونصيب من كرامة الله ورحمته وثوابه ، لأنّ همّه كان مقصورا على الدنيا الدنيّة الزائلة ولذا نالها الفانية ، وأعرض عن النّعم الدائمة الباقية لقصور العقل ، وعدم اليقين بالمعاد.

عن ابن عبّاس : أنّ المشركين كانوا يقولون ، إذا وقفوا : اللهمّ ارزقنا ابلا وغنما وبقرا وعبيدا وإماء ، وكانوا لا يطلبون التّوبة والمغفرة لأنّهم كانوا ينكرون البعث والمعاد ^(٥) .

أقول : وذلك جار في حقّ بعض المؤمنين الذين يكون همّهم في الدنيا ، ويعملون لها ، وذلك

(١) تفسير الرازي ٥ : ١٨٥ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١٨٥ .

(٣) تفسير الرازي ٥ : ١٨٥ .

(٤) تفسير الرازي ٥ : ١٨٦ .

(٥) تفسير الرازي ٥ : ١٨٧ .

مبلغهم من العلم ، مع أنّ مقتضى الإيمان الإعراض عن الدُّنيا وما فيها ، والسَّعي في تحصيل النعم الباقية والراحة الدَّائمة ، فلا يطلب المؤمن من الدنيا إلّا مقداراً يكون له وسيلة إلى نيل السَّعادة الآخروية ، ولذا قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا﴾ وهب لنا ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي كلّ ما فيه السَّعادة الدنيوية ، وهي : روحانيّة وجسمانية داخلية وخارجية.

في أنّ السَّعادة الدنيوية روحانية وجسمانية

أمّا السَّعادة الروحانيّة : فكمال القوّة النظريّة بالعلم ، وكمال القوّة العملية بالأخلاق الجميلة الفاضلة ، فإنَّهما زينة المرء في الدَّارين ، وأمّا السَّعادة الجسمانيّة الداخليّة : وهي السَّعادة البدنيّة من الصَّحّة والجمال.

وأمّا السَّعادة الخارجيّة فهي : المال والجاه والأقارب والأولاد ، وهذه السَّعادات كما أنّها حظوظ في الدنيا [فهي] مقدّمات ووسائل لتحصيل حظوظ الآخرة. والظاهر أنّ المراد من الحسنة جميع ما له نفع في الآخرة ، وليس حبّها وطلبها من حبّ الدنيا وطلبها ، بل عين حبّ الآخرة.

عن ابن عبّاس : أنّ رجلاً دعا ربّه فقال : ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النَّار.

فقال النبي ﷺ : « ما أعلم أنّ هذا الرجل سأل شيئاً من أمر الدنيا » . فقال بعض الصَّحابة : بلى يا رسول الله ، [إنه] قال : ربّنا آتنا في الدنيا حسنة ! فقال رسول الله ﷺ : « إنّّه يقول : آتنا في الدنيا عملاً صالحاً » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام في رواية : « السَّعة في الرِّزق [والمعاش] وحسن الخلق في الدنيا » ^(٢) . وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « [أنّ الحسنة] في الدنيا المرأة الصالحة » ^(٣) . وقيل : إنّ المراد بالحسنة العلم والعبادة ^(٤) . والظاهر أنّ جميع المذكورات أنواعها ، والجامع ما ذكرنا ، وهو جميع ما يكون له نفع في الآخرة ، وما يكون معيناً على تحصيلها.

ثمّ أنّه لإظهار شدّة الاهتمام بالآخرة ، وأنّها المطلوب النَّفسيّ ، خصّ نعمها أوّلاً بالذِّكر صريحاً ، بقوله : ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ وهي الثَّواب والرَّحمة ^(٥) . وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « هي الحوراء » ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ٥ : ١٨٩ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٥٣٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣١٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٧ .

(٤) تفسير الصافي ١ : ٢١٧ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٣١٩ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٣١٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٧ .

وعن الصادق عليه السلام : « رضوان الله والجنة » (١) .

وتنكير الحسنة لعلّه لإظهار المذلة وعدم القابلية لجميع حسنات الدنيا والآخرة ، وإظهار جنسها كأنّه يقول : يغنيني حسنة واحدة ، فكيف بأكثر منها ؟ وملخصه : أكثروا من ذكر الله وأسألوا سعادتكم في الدارين .

ثم لإظهار أنّ أهمّ الأمور النجاة من العقاب ، خصّه بالذكر بقوله : ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بالمحافظة من ارتكاب الشّهوات واللذات المؤدّية إليه وبشمول العفو والمغفرة .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « هو عذاب امرأة [السوء] » الخير (٢) . ولعلّه لأنّ المرأة السوء توقع الرّوح في المعاصي .

﴿أُولَئِكَ﴾ الدّاعون بهذا الدّعاء على هذا الوصف ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وافر حاصل وكائن ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ وهو الدّعاء الذي هو من أعظم العبادات ، أو المراد : لهم نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الصّالحة الحسنة ، فإنّ لكلّ عمل ما يساخره من الأجر .

في كيفية الحساب

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : « معناه أنّه يحاسب الخلائق دفعة كما يرزقهم دفعة » (٣) .

وعن (تفسير الإمام عليه السلام) « لأنّه لا يشغله شأن عن شأن ، ولا محاسبة عن محاسبة ، فإذا حاسب واحدا فهو في تلك الحال محاسب للكلّ ، يتمّ حساب الكلّ بتمام حساب الواحد ، وهو كقوله : ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (٤) .

وتوصيف نفسه تعالى بسرعة الحساب لعلّه لأن لا يخاف الدّاعي من طول الوقوف في موقف الحساب ، بل يطمئنّ بوصوله إلى ما أعدّ له في القيامة بأسرع زمان .

وقيل : إنّ المراد من الحساب مجازاة الخلق على أعمالهم (٥) .

وقيل : إنّ الله يخلق كلاما يسمعه الخلق ، يعلم به ما له وما عليه (٦) .

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل : كيف يحاسب الله سبحانه الخلق ولا يروونه ؟ قال : « [كما

[يرزقهم

(١) التهذيب ٦ : ٣٢٧ / ٩٠٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ٢٠٩ ، تفسير روح البيان ١ : ٣١٩ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٥٣١ .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٠٦ / ٣٥٨ ، والآية من سورة لقمان : ٣١ / ٢٨ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٥٣١ .

(٦) تفسير الرازي ٥ : ١٩١ .

ولا يروونه « (١) .

ونقل عن ابن عباس أنه قال : لا حساب على الخلق ، بل يقفون بين يدي الله تعالى ، ويعطون كتبهم بأيامهم ، فيها سيئاتهم ، فيقال لهم : هذه سيئاتكم قد تجاوزت عنها ، ثم يعطون حسناتهم ، ويقال : هذه حسناتكم قد ضاعفتها لكم (٢) .

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾

ثم أتت تعالى لما ذكر الوقوف في عرفات والمشعر ، وبين جملة من وظائفهما ، ذكر بعض أحكام الوقوف بمنى ، بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتكبيرات في أعقاب خمس عشرة صلاة من ظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من اليوم الثالث ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قليلا من مسميات بأيام التشريق لمن كان بمنى ، وعشر صلوات لمن كان بغير منى . وكيفية التكبير : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر ، والله الحمد . الله أكبر على ما هدانا ، الله أكبر على ما رزقنا من بحيمة الأنعام » كذا روي عنهم عليه السلام (٣) .

وروي أنّ رسول الله ﷺ أمر مناديا ينادي : « الحجّ عرفة ، من جاء ليلة جمع (٤) قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحجّ ، وأيام منى ثلاثة أيام » الخبر (٥) .

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ في التفرد وطلب الخروج من منى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ بعد يوم النحر ، إذا فرغ من رمي الجمار ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في التعجيل ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ التفرد حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالتأخير ، فيكون الحاصل التخيير بين الأقل والأكثر .

وقالوا : هذا ردّ على أهل الجاهلية ، فإنّ منهم من آثم وعييب المتعجل ، ومنهم من عييب المتأخر وآثمه ، فردّ الله عليهم بأنّه لا إثم في التعجيل والتأخير (٦) .

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « ليس هو على أنّ ذلك واسع ، إن شاء صنع ذا وإن شاء صنع ذا ، لكنّه يرجع مغفورا له لا إثم عليه ولا ذنب له » (٧) .

(١) نهج البلاغة : ٥٢٨ / ٣٠٠ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١٩٠ .

(٣) تفسير الصافي ١ : ٢١٨ .

(٤) جمع : علم للمزدلفة ، سميت به لأنّ آدم عليه السلام وحواها لما أهبطا اجتمعنا بها .

(٥) تفسير الرازي ٥ : ١٩٢ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٣٢١ ، تفسير الصافي ١ : ٢١٩ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ٢ : ٢٨٩ / ١٤٢٧ .

وهذا الترخيص والتخيير ثابت ﴿لِمَنْ اتَّقَى﴾ الله عَزَّ وَجَلَّ . روي عن الباقر والصادق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قال : « مَنْ اتَّقَى الصَّيْدَ - يعني في إحرامه - فَإِنْ أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَنْصَرِفَ ^(١) فِي التَّقَرُّ الْأَوَّلِ » ^(٢) .

وعن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ اتَّقَى مِنْهُمْ الصَّيْدَ ، وَاتَّقَى الرَّفْثَ وَالْفَسُوقَ وَالْجِدَالَ وَمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي إِحْرَامِهِ » ^(٣) .

والحاصل : أَنَّ التَّخْيِيرَ لَيْسَ مُطْلَقًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ حَاجٍّ ، بَلْ هُوَ لِمَنْ اتَّقَى . واختلف فيه على قولين : الأول : مَنْ اتَّقَى الصَّيْدَ وَالنِّسَاءَ فِي إِحْرَامِهِ . والثاني : مَنْ اتَّقَى سَائِرَ الْحَرَّمَاتِ فِي الْإِحْرَامِ ^(٤) .

وعن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ : « اتَّقَى الْكَبِيرَ ، وَهُوَ أَنْ يَجْهَلَ الْحَقَّ وَيَطْعَنَ عَلَى أَهْلِهِ » ^(٥) .
عن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، قَالَ : « أَنْتُمْ وَاللَّهُ هُمْ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لَا يَثْبُتُ عَلَى وَلَايَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » ^(٦) .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّهَا الْحَاجُّ الْمَغْفُورُ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ ، فَلَا تَعَاوَدُوا الْمَوْبِقَاتِ فَتَعُودَ إِلَيْكُمْ أَثْقَالُكُمْ ، فَإِنَّ السَّيِّئَاتِ تَذْهَبُ بِالْحَسَنَاتِ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ .
قِيلَ : كَانُوا إِذَا رَجَعُوا مِنَ الْحَجِّ يَجْتَرِئُونَ عَلَى اللَّهِ بِالْمَعَاصِي ، فَشَدَّدَ فِي تَحْذِيرِهِمْ ^(٧) .

﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ
فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ النَّاسَ بِالتَّقْوَى ، وَكَانَتْ حَقِيقَتُهُ هُوَ الْيَقِينُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْخَوْفُ الْكَامِنُ فِي الْقَلْبِ ، الْبَاعْثُ عَلَى الْعَمَلِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ وَصَمِيمِ الْقَلْبِ ، ذَكَرَ حَالَ الْمُنَافِقِينَ الْمَظْهَرِينَ لِلْإِيمَانِ

(١) فِي التَّهْذِيبِ وَالصَّافِي : يَنْفِرُ .

(٢) التَّهْذِيبُ ٥ : ٢٧٣ / ٩٣٣ ، وَتَفْسِيرُ الصَّافِي ١ : ٢١٩ عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٣) تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ١ : ٢١٠ / ٣٨٤ ، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١ : ٢١٩ .

(٤) كَنْزُ الْعُرْفَانِ ١ : ٣٢٠ / ٤ .

(٥) تَفْسِيرُ الصَّافِي ١ : ٢٢٠ .

(٦) تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ١ : ٢١١ / ٣٨٩ .

(٧) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١ : ٣٢١ .

والتقوى ، المبطنين للكفر والعناد بقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ﴾ ويروقك ويعظم في قلبك ﴿قَوْلُهُ﴾ بسبب تزيين البيان بالورع والتقوى ليطلب حظا ، إلا أنه يكون إعجابه وحسنه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من غير أن يكون لكلامه المعجب أثر في الآخرة ، فإنّ الظواهر تفيد في هذا العالم ، وأما الآخرة فهي عالم كشف الحقائق والواقعيّات ، ليس فيها ستر واشتباه.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ من اليقين والإخلاص ، ويحلف بالله أنّ باطنه مطابق لظاهره ، ومصدّق لكلامه ﴿وَهُوَ﴾ في هذه الحالة ﴿أَلَدُ الْخِصَامِ﴾ وشديد المعارضة والعداوة لله ولرسوله وللمؤمنين.

في نفاق الأخنس بن شريق الثقفي

نقل أنّها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي ، وهو حليف لبني زهرة ، أقبل إلى النبي ﷺ وأظهر الإسلام والمحبة لرسول الله ﷺ ويحلف بالله على ذلك ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ إلى آخره (١) .

وروي عن ابن عباس أنّ كفّار قريش بعثوا إلى النبي ﷺ : أنا قد أسلمنا ، فابعث إلينا نفرا من علماء أصحابك ، فبعث إليهم جماعة فنزلوا ببطن الرّجيع ، ووصل الخبر إلى الكفّار ، فركب منهم سبعون راكبا وأحاطوا بهم وقتلوهم وسلبوهم ، ففيهم نزلت (٢) . ويرجّح الأوّل.

قوله : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ وانصرف من عندك ، وإذا صار غالبا وواليا ﴿سَعَى﴾ واجتهد ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ جميعها ، لا يتفاوت في نظره مكان ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ نقل أنّ الأخنس لما انصرف من عند النبي ﷺ وخرج من المدينة ، مرّ بزرع المسلمين فأحرق الزّرع وقتل الحمر (٣) .

وقيل : كان بينه وبين ثقيف عداوة ، فأتاهم ليلا فأحرق زرعهم وأهلك مواشيهم (٤) .

فإنّ هذه الآية أوفق بما روي عن الأخنس ممّا يروي عن ابن عباس.

وقيل : إنّ الأخنس سعى في إدخال الشبهة في قلوب المسلمين ، وتقوية الكفر (٥) ، وتضعيف الاسلام. وهذا هو السّعي للفساد في الأرض لأنّه موجب للاختلاف بين النّاس وتفريق كلمتهم ، فيتبرأ بعضهم من بعض ، ويتقطّعون أرحامهم ، ويشغلون بالحرب ، فيهلك الحرث والنّسل.

(١) تفسير الرازي ٥ : ١٩٧ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ١٩٧ .

(٣) تفسير الرازي ٥ : ١٩٧ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٣٢٣ .

(٥) تفسير الرازي ٥ : ٢٠٠ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « **وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ** » بظلمه وسوء سيرته « (١) الخبر ،
ويحتمل كون المراد أنّ الظلم موجب لانقطاع الرحمة وارتفاع البركة .

وعن الصادق عليه السلام : « **الْحَرْثُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الدِّينُ ، وَالنَّسْلُ : النَّاسُ** » (٢) .
« **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ** » ولا يريد بالإرادة التشريعية « **الْفُسَادَ** » في الآفاق والأنفس ، أو لا يريد
بالإرادة التكوينية والتشريعية الفساد المحض الذي لا يشوبه صلاح .
« **وَإِذَا قِيلَ لَهُ** » عظة ونصحا « **اتَّقِ اللَّهَ** » وخف عذابه ، واترك الفساد ، واحذر سوء عاقبته
« **أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ** » والأنفة « **بِالْإِثْمِ** » وحملته عليه لجأ « **فَحَسْبُهُ** » وكافيه « **جَهَنَّمُ** » جزاء ونكالا
على سوء فعاله « **وَلَيْسَ الْمِهَادُ** » والفرش الممهّد والمستقرّ المؤبد هي .

« **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)** »

ثم أنّه تعالى لما بيّن حال المنافق الذي باع دينه بدنياه ، عقّبه بذكر حال المؤمن المخلص الذي
باع دنياه بدينه ، بقوله : « **وَمِنَ النَّاسِ** » المؤمنين « **مَنْ يَشْرِي** » ويبيع « **نَفْسَهُ** » من الله « **ابْتِغَاءَ**
مَرْضَاتِ اللَّهِ » ويذل شرّاشر وجوده (٣) في سبيل الله ، وطلباً لرضوانه « **وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ** » المؤمنين
، يدفع عنهم كلّ ضرّ ، وينزل عليهم كلّ خير .

عن (تفسير الإمام عليه السلام) : « هؤلاء خيار أصحاب رسول الله ﷺ عدّ بهم أهل مكّة
ليضلّوهم عن دينهم ، فمنهم بلال وصهيب وخبّاب وعمّار بن ياسر وأبواه » (٤) .

وعن ابن عباس : أنّ هذه الآية نزلت في صهيب بن سنان مولى عبد الله بن جدعان (٥) ،
وفي عمّار بن ياسر ، وفي سمّية امّه ، وفي ياسر أبيه ، وفي بلال مولى أبي بكر ، وفي خبّاب بن الأرت
، وفي عابس مولى حويطب ، أخذهم المشركون فعذبوهم ، فأما صهيب فقال لأهل مكّة : إني شيخ
كبير ، ولي مال ومتاع ، ولا يضركم كنت منكم أو من عدوّكم ، تكلمت بكلام وأنا أكره أن أنزل
عنه ، وأنا اعطيكم مالي

(١) تفسير العياشي ١ : ٢١١ / ٣٩٤ ، الكافي ٨ : ٢٨٩ / ٤٣٥ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٧١ ، مجمع البيان ٢ : ٥٣٤ .

(٣) أي جميع وجوده وكيانه ، والشرّاشر : أطراف الأجنحة ، والجسم بجمليته ويقال : ألقي عليه شرّاشره ، أي اعباءه
وهمومه ، أو ألقي عليه نفسه حرصاً ومحبة .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٢١ / ٣٦٥ .

(٥) في النسخة : عبد الله بن صرحان .

ومتاعي ، واشتري منكم ديني ، فرضوا منه بذلك وحلّوا سبيله ، فانصرف راجعا إلى المدينة ، فنزلت .
وأما خباب بن الارت ، وأبو ذر ، فقد فرّا وأتيا المدينة . وأما سمية فربطت بين بعيرين ثم قتلت ،
وقتل ياسر . وأما الباقون فأعطوا بسبب العذاب بعض ما أراد المشركون فتركوا . الخبر (١) .
وعنه أيضا : أنّها نزلت في رجل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر (٢) .
وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّ المراد بالآية الرجل يقتل على الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر » (٣) .

في قصة ليلة المبيت

وقال الفخر في (تفسيره) : والرواية الثالثة : أنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام بات
على فراش رسول الله ﷺ ليلة خروجه إلى الغار .
قال : ويروى أنّه لما نام على فراشه قام جبرئيل عند رأسه ، وميكائيل عند رجله ، وجبرئيل
ينادي : بخ بخ ، من مثلك يابن أبي طالب ، يباهي الله بك الملائكة ؛ ونزلت الآية (٤) .
وقال الفيض رحمه الله : روت العامة عن جماعة من الصحابة والتابعين ، والعيّاشي ، وعدّة من
أصحابنا عن أئمتنا عليهم السلام في عدّة أخبار أنّها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام حين بات على فراش النبي
ﷺ . الخبر (٥) .

ويمكن الجمع بين الروايات بالقول بتكرّر نزول الآية بعد نزولها أولا في مكة في أمير المؤمنين
عليه السلام ليلة المبيت .

وأما قول أمير المؤمنين عليه السلام : « المراد الرجل يقتل » إلى آخره ، فلعلّ المراد أنّ مورد نزوله وإنّ
كان خاصا ، إلّا أنّ عنوان الآية بعمومه يشمل هذا المقتول ، بل يشمل كلّ من نصر دين الله ،
وبذل نفسه في سبيل الله ، وإن كان أفضلهم وسيدهم ومقتداهم أمير المؤمنين عليه السلام .
والعجب كلّ العجب ممّن يروي قول جبرئيل في عليّ عليه السلام : من مثلك ، إلى آخره ، ثمّ
يفضّل غيره عليه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ (٢٠٩) ﴾

(١) تفسير الرازي ٥ : ٢٠٤ .

(٢) تفسير الرازي ٥ : ٢٠٤ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٥٣٥ .

(٤) تفسير الرازي ٥ : ٢٠٤ .

(٥) تفسير الصافي ١ : ٢٢١ .

ثمَّ أنَّه تعالى لما حكى عن بعض النَّاس مضادَّة الإسلام ، وعن بعض الخلوص فيه ، أمر كلَّهم بالانقياد ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ﴾ والطَّاعة ، والانقياد لله ورسوله ﴿كَافَّةً﴾ وجميعها. أو المراد : التزموا أحكام الإسلام بألسنتكم وقلوبكم جميعاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بالتفرُّق والتفريق ، أو بمخالفة ما امرتم به.

قيل : نزلت في طائفة من مسلمي أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وذلك لأنَّهم حين آمنوا بالنَّبِيِّ ﷺ أقاموا بعده على تعظيم شرائع موسى ﷺ فعظَّموا السَّبْتَ ، وكرهوا لحوم الإبل وألبانها ، وكانوا يقولون : ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التَّوراة ، فنحن نتركها احتياطاً ، فكره الله ذلك منهم وأمرهم أن يدخلوا في السَّلَام كَافَّةً ، أي في كافة شرائع الاسلام ^(١) .

وعن (تفسير الإمام عليّ) : « [يعني] في السَّلَام ^(٢) والمسألة إلى دين الإسلام ﴿كَافَّةً﴾ جماعة ^(٣) فيه ، وادخلوا في جميع الإسلام ، فتقبَّلوه واعملوا به ، ولا تكونوا ممَّن يقبل بعضه ويعمل به ، ويأبى بعضه ويهجره. ومنه الدَّخُولُ في ولاية عليّ ﷺ فَإِنَّهُ كالدَّخُولِ في نبوة رسول الله ﷺ ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مسلماً من قال إِنَّ مُحَمَّدًا رسول الله ، ولم يعترف بأنَّ عليّاً وصيّه وخليفته وخير امتّه. ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ما يتخطى بكم إليه من طرق الغي والضلالة ، ويأمركم [به] من ارتكاب الآثام والموبقات » ^(٤) .

وعن (العياشي) : عن الصادق ﷺ : « ولاية عليّ ﷺ والأئمة الأوصياء من بعده ، وخطوات الشَّيْطَانِ : ولاية فلان وفلان ^(٥) » . وفي رواية : « الثَّانِي والأَوَّل » ^(٦) .
عن النَّبِيِّ ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَظْهَرَ الشَّكَايَةَ مِنْ أُمَّتِي ، وَقَالَ : إِنِّي طَرَدْتُ الشَّيْطَانَ لِأَجْلِهِمْ ، [فهم] يعصوني ويطيعون الشَّيْطَانَ » ^(٧) .

واعلموا ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ وأخطأتم الحقَّ ، وكففتم أنفسكم عن الدَّخُولِ في السَّلَام ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ﴾ الآيات ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ والحجج الظاهرات ، على أنَّ ما دعيتم إليه حقٌّ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجز عن الانتقام ، ولا يمنع عن مراده شيء ، لكمال قدرته ،

(١) تفسير الرازي ٥ : ٢٠٧ .

(٢) في المصدر : السلم .

(٣) زاد في المصدر : ادخلوا .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ : ٦٢٦ / ٣٦٦ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٢١٣ / ٣٩٨ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٢١٤ / ٤٠٣ .

(٧) تفسير روح البيان ١ : ٣٢٦ .

وقوة سلطانه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بالحق ، ولا يعذب إلا بالاستحقاق .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠)

ثم أنه تعالى بعد انهماك بيان المنافقين والمشركين في العناد واللجاج ، وثباتهم على الكفر والفساد ، أعرض عن مخاطبتهم بالالتفات إلى الغيبة كأنه يخاطب العقلاء ويستفهم عن سبب عنادهم ، توبيخا وإنكارا عليهم ، بقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وينتظرون من عدم الدخول في الاستسلام والوقوف على الكفر والنفاق بعد إتمام الحجة ، ومشاهدة ما يمكن ظهوره من الآيات والمعجزات وقطع العذر في التمرّد والمخالفة ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ ببأسه وعذابه الكائن ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ وقطع مظلمات ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ والسحاب الذي يتوقع منه الرحمة ، فينزل به العذاب والنقمة ، ﴿وَيَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الذين هم وسائط العذاب . أو المراد : أو يأتيهم العذاب في جمع من الملائكة ﴿وَيَقُضَى الْأَمْرُ﴾ وتم إهلاكهم ، وفرغ منه ، وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون ويتوقعون ، فوضع الماضي موضع المستقبل لتحقيق الوقوع . وملخصه أن الحجة قد قامت وتمت عليهم بحيث لم يبق له انتظار إلا نزول عذاب الاستئصال ، ويمكن أن يكون المراد : بل ينتظرون يوم القيامة الذي تشقق فيه الغمام ، وتنزل الملائكة تنزيلا .

﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ في ذلك اليوم ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كلّها ، ومنها تعذيب أولئك المصرّين على الكفر . والتعبير برجوع الامور إليه باعتبار أنه تعالى قد ملك الناس امورا في الدنيا امتحانا ، فإذا جاء يوم القيامة ترجع جميع الامور في الظاهر والواقع من غيره إليه وحده ، لا قدرة لغيره على شيء ولو في الظاهر .

عن (تفسير الإمام عليّ) في تفسير الآية : « أي هل ينظر هؤلاء المكذبون بعد إيضاحنا لهم الآيات ، وقطعنا معاذيرهم بالمعجزات إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة ، كما كانوا اقترحوا عليك اقتراحهم الحال في الدنيا ، في إتيان الله الذي لا يجوز عليه الإتيان ، واقترحهم الباطل في إتيان الملائكة الذين لا يأتون إلا مع زوال هذا التعبد لأته ^(١) وقت مجيء الأملاك بالإهلاك ، فهم

(١) في المصدر : التعبد ، وحين وقوع هلاك الظالمين بظلمهم ووقتك هذا وقت تعبد لا .

في اقتراحهم مجيء الأملاك جاهلون ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي هل ينظرون [إلا] مجيء الملائكة ، فإذا جاءوا وكان ذلك ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بهلاكهم « الخبر (١) .

وأما ما عن القمي عليه السلام : عن الباقر عليه السلام قال : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا بَدَأَ لَهُ أَنْ يَبْنِي خَلْقَهُ وَيَجْمَعُهُمْ لِمَا لَا يَدَّ مِنْهُ ، أَمْرٌ مُنَادِيًا يَنَادِي فَاجْتَمِعِ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ فِي أَسْرَعِ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ ، ثُمَّ أَدْنَى لِسَمَاءِ الدُّنْيَا فَتَنْزِلُ فَكَانَ مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ ، وَأَدْنَى لِسَمَاءِ الثَّانِيَةِ فَتَنْزِلُ ، وَهِيَ ضَعْفُ الَّتِي تَلِيهَا ، فَإِذَا رَأَاهَا أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، قَالُوا : جَاءَ رَبُّنَا ؟ قَالُوا : لَا ، وَهُوَ آتٍ - يَعْنِي أَمْرُهُ - حَتَّى تَنْزِلَ كُلُّ سَمَاءٍ ، تَكُونُ كُلٌّ وَاحِدَةً مِنْهَا مِنْ وَرَاءِ الْآخَرِ ، وَهِيَ ضَعْفُ الَّتِي تَلِيهَا.

ثم ينزل أمر الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى ربك ترجع الأمور. ثم يأمر [الله] مناديا ينادي ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٢) فلا ظهور له في تفسير الآية ، بل هو بيان بعض أهوال يوم القيامة ، وإن عبر عن بعضها بعبارة الآية.

وأما ما عن العياشي عليه السلام : عنه عليه السلام في هذه الآية ، قال : « يَنْزِلُ فِي سَبْعِ قَبَابٍ مِنْ نُورٍ ، لَا يَعْلَمُ فِي أَيِّهَا هُوَ حِينَ يَنْزِلُ فِي ظَهْرِ الْكُوفَةِ ، فَهَذَا حِينَ يَنْزِلُ » (٣) . فهو تأويل للآية ، كالترواية الأخرى ، عنه عليه السلام قال : « كَأَنِّي بَقَائِمِ أَهْلِ بَيْتِي قَدْ عَلَا نَجْفَكُمْ ، فَإِذَا عَلَا فَوْقَ نَجْفِكُمْ نُشْرَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِذَا نُشِرَ نَحَطَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ بَدْرٍ » (٤) .

وقال : « إِنَّهُ نَازِلٌ فِي قَبَابٍ مِنْ نُورٍ حِينَ يَنْزِلُ بِظَهْرِ الْكُوفَةِ عَلَى الْفَارُوقِ ، فَهَذَا حِينَ يَنْزِلُ ، وَأَمَّا ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فَهُوَ الْوَسْمُ عَلَى الْخَرْطُومِ يَوْمَ يَوْسُمُ الْكَافِرَ » (٥) فتأويل.

ويمكن أن يكون المعنى : هل ينتظر هؤلاء الكفرة في تأخيرهم الإيمان مجيء وقت لا ينفع الذين كفروا بإيمانهم ولا هم يستعقبون ؟ وهذا الوقت إما وقت نزول عذاب الاستئصال بالغمام والملائكة ، كعذاب قوم شعيب ، أو وقت ظهور القائم المنتظر عليه السلام ، ورفع التوبة ، وهو القيامة الصغرى ، أو يوم القيامة الكبرى.

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٢٩ / ٣٦٧ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٧٧ ، والآية من سورة الرحمن : ٥٥ / ٣٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢١٤ / ٤٠٥ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢١٤ / ٤٠٦ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٢١٥ / ٤٠٧ .

وإن كان الأظهر والأشهر ما ذكرنا من حمل رواية التفسير ، أو هي مع رواية القمي رحمهما الله عن الباقر عليه السلام على التفسير ، وحمل رواية العياشي وما هو على مضمونه على البطن والتأويل.

﴿سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ

فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان حال الكفار والمنافقين ، وشدة لجاحهم على الباطل ، وتهديد المعاندين للحق على الزلل والعصيان ؛ ذكر حال أمة موسى عليه السلام وشدة جهلهم وعنادهم للحق بعد ظهور الآيات لهم مبالغة في زجر حاضري عصر النبي صلى الله عليه وآله وتسلية لقلبه الشريف بقوله : ﴿سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لا لتحصيل العلم ، بل لأخذ الاعتراف منهم والتبكيك والتقرع عليهم ﴿كَمَ آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنزلنا إليهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ ومعجزة أو دلالة ﴿بَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة واضحة على صدق الأنبياء ، إذ [إن] في الكتب السماوية التي عندهم دلالة ظاهرة على صدق محمد صلى الله عليه وآله .

ومن الواضح أنّ كلّ واحد من المعجزات الدالة على صدق الأنبياء ، والآيات الدالة على صحة دين الإسلام وصدق محمد صلى الله عليه وآله نعمة عظيمة موجبة لهدايتهم إلى الحق ، ونجاتهم من الضلال ، فبدّلوا هذه النعمة بأن جعلوها سببا لضلّالهم ، إن كان المراد من الآية معجزات الأنبياء ، أو بأن حرّفوها ، إن كانت آيات الكتب ، وشواهد صدق النبي صلى الله عليه وآله ودينه .

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ وَيَغْيِرْهَا عَنْ جَهْتِهَا أَوْ يَحْرِفْهَا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ النعمة ، يعاقبه الله بعقوبة شديدة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لأنه عظيم الجرم.

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا

فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾

ثم ذكر الله سبحانه سبب تغييرهم النعمة وتبديلهم الآيات بقوله : ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنعمة الله ، وحسنت في أعينهم ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وأمتعتها ولذائدها لضعف عقولهم وقوة شهواتهم ﴿و﴾ لذا ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويستهزئون بهم حيث تركوا الدنيا وزهدوا فيها واختاروا الآخرة.

عن ابن عباس : نزلت في أبي جهل ورؤساء قريش ، كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعبد

الله

بن مسعود ، وعَمَّار ، وخَبَّاب ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وعامر بن فهيرة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، بسبب ما كانوا فيه من الفقر والضَّر ، والصَّبْر على أنواع البلاء ، مع أنَّ الكفَّار كانوا في النَّعم والراحة (١) .

وقيل : نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم من بني قريظة والنَّضير والقينقاع ، سخرُوا من فقراء المسلمين المهاجرين حيث اخرجوا من ديارهم وأموالهم (٢) .

وقيل : نزلت في المنافقين عبد الله بن أبيِّ وأصحابه ، كانوا يسخرون من ضعفاء المسلمين و [فقراء] المهاجرين (٣) .

أقول : ويمكن القول بنزولها في جميعهم .

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ واجتنبوا مخالفة أحكام الله من المؤمنين ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنَّ المتقين في أعلى عليين والدرجة الرفيعة من الجنان ، والساخرين في أسفل السَّافلين من النَّار وحضيض الذلَّة والهوان . ويحتمل أن يكون تفوقهم من حيث السَّخَرَة ، فإنَّ سخرية المؤمنين في القيامة فوق سخرية الكفَّار في الدنيا .

ثمَّ أنَّه لما كان للكفَّار أن يقولوا : اذا كان المؤمنون المتَّقون أكرم عند الله فلم يعيشون في الشدَّة والفقر ؟ فردَّهم بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه في الدنيا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتقدير ، فيوسَّع استدراجا تارة ، وابتلاء اخرى ، أو المراد أنَّ رزق الدنيا قليل ، ويرزق في الآخرة من يشاء من عباده بغير حساب وينعم المؤمنون في الجنة بلا إحصاء .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾

ثمَّ بيَّن الله تعالى أنَّ هذه المعاندة والمشاقَّة مع الأنبياء ليست ممَّا حدث في هذا الأوان أو بعد موسى ، بل كانت من قديم الزَّمان قبل نوح وبعد آدم ، بقوله : ﴿كَانَ النَّاسُ﴾ جميعهم في أوَّل الأمر بعد وفاة آدم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجماعة مجتمعين على الجهل ، لا يدرون ما الإيمان وما الكفر وما

(١) تفسير الرازي ٦ : ٥ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ٦ : ٥ .

الشرك ، وكانوا على الفطرة والاستعداد لقبول الحق ، كما عن (المجمع) عن الباقر عليه السلام : « أئهم كانوا قبل [نوح] أمة واحدة على فطرة الله ، لا مهتدين ولا ضاللا » ^(١) الخبر .

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ فيهم ﴿النَّبِيِّينَ﴾ حال كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بوحدانيته وأنبيائه وشرائعه ، بفضلته وثوابه ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ للكافرين بها من عقابه .

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام قال : « كان [الناس] قبل نوح أمة ضلال ، فبدا الله فبعث النبيين ، وليس كما يقولون : لم يزل ، [و] كذبوا ، يفرق [الله] في ليلة القدر ما كان من شدة أو رخاء أو مطر بقدر ما شاء أن يقدر إلى مثلها » ^(٢) الخبر .

لعل المراد أنّ الله لم يترك الخلق سدى ، وما كانت يده مغلوطة ، فكما أنّه يدبر أمور معاشهم في كلّ آن ويقدرها في كلّ سنة ، كذلك يدبر أمور دينهم ببعث الرسل .
إشكال وحلّ

فإن قلت : يلزم على الروايتين أن يكون زمان [ما] خاليا من الحجّة ، وهو خلاف ما عليه الإمامية وما دلّت عليه الروايات المتظافرة إن لم تكن متواترة .

قلت : لعلّ الترتّب المستفاد من الفاء هو الترتّب العقلي لا الزماني ، فإنّ النّبي وإن كان قبل الخلق ، ولكن البعث لا يتحقّق إلّا بعد وجود المبعوث إليه ، فيكون مفاد الآية - والله العالم - أنّه لو لم يكن بعث النّبيين ، لم يكن اختلاف بين الناس لأنّ كلّهم كانوا جهّالا وضالّلا ، فلمّا بعث الرسل حدث الاختلاف بينهم ، ولم يحدث إلّا بوجود الاخلاق الرّذيلة من الحسد والبغي على النّبي صلّى الله عليه وآله .

توضيح بتمثيل

وهذا نظير ما قيل من أنّ الأجسام ليس لها لون وإنّما اللون إذا أشرقت الأجسام ، فإذا وقع الشعاع على الجسم فبحسب الاستعداد الذي يكون للجسم يحصل للنور لون مناسب لما في كون الجسم من الاستعداد والخصوصيّة ، ففي الحقيقة الألوان المختلفة تكون للنور لا للجسم ، وإنّما يظهر كلّ لون من الألوان للنور بسبب انعكاسه على الجسم الذي تكون فيه خصوصيّة مناسبة لذلك اللون ، فكذلك النفوس البشريّة ليس فيها فعليّة الاختلاف في الإيمان والكفر ، ولو لم يكن إشراق نور شمس النبوّة والهداية ، كانت جميع النفوس متساوية . فإذا أشرق نور النبوّة ظهر الاختلاف فيهم بالإيمان والكفر على حسب اختلاف الاستعدادات والخصوصيّات ، فمن كانت نفسه مستعدّة لقبول الحق ، ولم يغلب عليها الحسد والبغي يكون من أهل الإيمان على اختلاف مراتبه ، ومن فيه الخباثة

(١) مجمع البيان ٢ : ٥٤٣ .

(٢) الكافي ٨ : ٨٢ / ٤٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٢٤ .

والحسد وحبّ الجاه يكون من أهل الكفر والعناد على اختلاف مراتبهما.

ويمكن أن يقال كما قيل : إنّ الخلق قبل بعث الرّسل - حتّى آدم عليه السلام - كانوا على العقائد العقلية ، كوحدة الصّانع ، والأحكام العقلية كوجوب شكره وقبح الظلم والكذب ، وحسن العدل والاحسان وغير ذلك ، فلمّا نزلت الأحكام الشرعية من العبادات والسياسات على آدم عليه السلام وبعث على أولاده انقادوا له ، ثمّ حصل الاختلاف بين قاييل وهابيل ، وابتدع الكفر.

ثمّ بعد وفاة آدم عليه السلام وبعد برهة من الزّمان نسوا الشّرائع الإلهية ورجعوا إلى الشرائع العقلية ، ثمّ بعث الله النّبیین ، ثمّ اختلفوا لأسباب مفصّلة ، ولأخلاق الرّذيلة.

واشير إلى هذا المعنى فيما روي عن الصادق عليه السلام قال : « [كان] هذا قبل بعث نوح ، كانوا أمة واحدة فبدا لله فأرسل الرّسل قبل نوح » .

قيل : أعلى هدى كانوا أم على ضلال ؟ قال : « بل كانوا ضلّالا ، لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين » ^(١) .

وفي رواية عنه عليه السلام قال : « ذلك أنّه لما انقرض آدم وصالح ذريّته ، بقي شيث وصيّته لا يقدر على إظهار دين الله الذي كان عليه آدم وصالح ذريّته ، وذلك أنّ قاييل توعدّه بالقتل كما قتل أخاه هابيل ، فسار فيهم بالتقيّة والكتمان فازدادوا كلّ يوم ضلّالا حتّى لحق الوصيّ بجزيرة في البحر يعبد الله ، فبدا لله تبارك وتعالى أن يبعث الرّسل. ولو سئل هؤلاء الجهّال لقالوا : قد فرغ من الأمر ، وكذبوا ، إنّما شيء يحكم به الله في كلّ عام [ثمّ قرأ] : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ^(٢) فيحكم الله تعالى ما يكون في تلك السنة من شدّة أو رخاء ، أو مطر أو غير ذلك » .

قيل : أفي ضلالة كانوا قبل النّبیین أم على هدى ؟ قال : « لم يكونوا على هدى ، كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله ، ولم يكونوا ليهدتوا حتّى يهديهم الله ، أما تسمع قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ ^(٣) ؟ أي ناسيا للميثاق » ^(٤) الخبر.

في ذكر غيبة القائم عليه السلام وعدم استلزامها منع اللطف

وليعلم أنّ غيبة شيث كغيبة القائم المنتظر عليه السلام في آخر الزّمان ، ولا يلزم منها منع لطف على الله ، فإنّ تأسيس الدّين وإتمام الحجّة على الخلق كان سببة النّبیین الشّارع والأوصياء بعد الأنبياء ، الذين هم ذوو الشّرائع كوصيّ خاتم النّبیین ﷺ حفاظ

(١) تفسير العياشي ١ : ٢١٥ / ٤١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٢٤ .

(٢) الدخان : ٤٤ / ٤ .

(٣) الأنعام : ٦ / ٧٧ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢١٦ / ٤١٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٢٤ .

للشّرع ، فإذا منعوا عن إظهار الحقّ وحفاظته ، واتّقوا من الجبّارة ، لم يكن للنّاس على الله حجة ، لكون ذلك بسوء اختيارهم ، مع أنّ بركاتهم في غيبتهم متّصلة إلى الموادّ المستعّدة ، لو توجّهوا إليهم واستمدّوا منهم.

ثمّ توصيفهم [في كتاب] الله تعالى بأنّهم مبشّرين ومنذرين دلالة على أنّ الأحكام والشّرائع لو لم يقرّنا بالتبشير بالثّواب والأجر والإنذار بالعذاب أو العقاب لكان جعلها لغوا ، حيث إنّّه لو لم يكن الطّمع والخوف ، لم يعمل أحد بحكم من الأحكام ، ولا يجري شرع من الشّرائع في الأنام. ثمّ بيّن سبحانه أنّه لم يقنع في الهداية بإرسال الرّسل ، بل ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ متلبّسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصّدق.

والظاهر أنّ المراد بالكتاب جنسه ، فإنّ المرويّ أنّ عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا ، والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، والمذكور منهم في القرآن [باسم العلم] ثمانية وعشرون ^(١) ولم ينزل مع كلّ واحد منهم كتاب ، بل الأنبياء بعد موسى عليه السلام كان كتابهم هو التّوراة ، وكانوا حافظين لأحكامها ، وكذلك الأنبياء بعد عيسى عليه السلام كان كتابهم الإنجيل ، وكانوا حافظين له ، وإن كان لبعض النّبيين كداود عليه السلام كتاب ولكن لم يكن فيه أحكام.

﴿لِيَحْكُمَ﴾ النّبيّ أو الكتاب المنزل عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ وليكون المرجع عندهم ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الحقّ والدين ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وانزل إليهم لرفع الاختلاف من بينهم ، فجعلوا الكتاب الذي انزل لرفع الاختلاف وسيلة لشدّة الاختلاف ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ والدلائل الواضحات على الحقّ بحيث لم يكن مجال لأن يشتبه عليهم ، وإنّما كان الاختلاف ﴿بَغْيًا﴾ وظلما وحسدا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لحرصهم على الدّنيا وزخارفها.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وآله ﴿لَمَّا اخْتَلَفُوا﴾ سائر النّاس ﴿فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ وتبيينه وتوفيقه لفهمه وقبوله.

روي أنّه صلى الله عليه وآله قال : « نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة ، ونحن أوّل النّاس دخولا في الجنّة يوم القيامة ، بيد أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه ، فهذا اليوم الذي هدانا الله ^(٢) ، والنّاس لنا فيه تبع ، وغدا لليهود ، وبعد غد للتّصارى ^(٣) .

(١) راجع : تفسير البيضاوي ١ : ١١٥ .

(٢) في تفسير الرازي : هدانا له .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ١٦ .

قيل : إنّ النَّاسَ اختلفوا في القبلة ، فصلّت اليهود إلى بيت المقدس ، والنّصارى إلى المشرق ، فهدانا الله للكعبة ، واختلفوا في الصّيام ، فهدانا الله لشهر رمضان ، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام فقالت اليهود : كان يهوديًا ، وقالت النّصارى : كان نصرانيًا. فقلنا : إنّهُ كان حنيفًا مسلمًا. واختلفوا في عيسى عليه السلام فاليهود فرطوا ، والنّصارى أفرطوا ، وقلنا القول العدل ^(١) .

﴿وَاللّٰهُ﴾ بلطفه وفضله ﴿يَهْدِي مَنْ يَّشَاءُ﴾ بحسب الاستعداد والطّينة ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الحقّ القويم ، فإنّ الهداية والصّلالة لا تكون إلّا بتوفيق الله وحذلانه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِمِينَ﴾
الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ

قَرِيبٌ (٢١٤) ﴿﴾

ثمّ أنّه تعالى لما بيّن أنّ المؤمنين هم المهتدون إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم - ومن الواضح أنّ العقائد الحقّة لا بدّ أن تكون موثرا في القلب بحيث تبعث الجوارح على الأعمال الشّاقة في جنب الله ، فالفتور في الجوارح عن القيام بالوظائف الإلهيّة لا يكون إلّا لضعف اليقين وعدم رسوخ الحقّ في القلب - بيّن أنّ امتحان المهتدين إلى الحقّ الموجب لدخول الجنّة لا يكون إلّا بالصّبر على الطّاعة كما صبر السّابقون من أهل الايمان ، بقوله : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾

قيل : إنّ التّقدير : فصبر الذين هدوا إلى الحق على الشّدائد ، فتسلكون سبيلهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ من دون تحمّل المشاقّ ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ ولم ينزل عليكم بعد ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من المؤمنين ولم تتحملوا مثل ما تحمّلوه من البلايا التي كانت في الشّدّة مثلاً.

ثمّ كأنّه قيل : كيف كان مثلهم ؟ فينبّه تعالى بقوله : ﴿مَسْتَهْزِمِينَ الْبَاسَاءُ﴾ من الخوف والفاقة ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ من القتل والأمراض ، والخروج عن الأهل والمال ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ وازعجوا إزعاجا شديدا لما دهمتهم الأهوال والأفزع ﴿حَتَّى﴾ بلغت الشّدّة إلى أن ﴿يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ مع أنّه أصبر النَّاس وأعلمهم بتأييد الله ونصره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ واقتدوا به : ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ وأيّ وقت يكون عونه ؟ قد أبطأ إنجاز وعده وطال زمان الشّدّة والعناء بنا ، وعجز الصّبر عن تحمّل البلاء. فإذا بلغت

(١) تفسير الرازي ٦ : ١٦ .

بهم المحنة إلى الغاية والضرّ والبؤس إلى هذه الدرجة العظيمة ، قيل لهم : ﴿لَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(١) والحاصل : أنّ المؤمنين الذين خلّوا ، كانوا في هذه المرتبة من البلاء والحن ، وصبروا ولم يتغيّر دينهم حتّى أتاهم النصّر والفرج ، فكونوا أيّها المسلمون كذلك .

روي أنّه ﷺ قال : « حَقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمُكَارِهَةِ ، وَحَقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »^(٢) .

وروي عن حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ ، قال : شكّونا إلى رسول الله ﷺ ما تلقى من المشركين ، فقال : « إِنَّ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا يَعْذَّبُونَ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ، فَلَمْ يَصْرَفْهُمْ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِمْ ، حَتَّى أَنْ الرَّجُلَ يَوْضَعُ عَلَى رَأْسِهِ الْمُنْشَارَ فَيَشَقُّ فِلَقَتَيْنِ ، وَيَمَشُّطُ الرَّجُلُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ فِيمَا دُونَ الْعِظَمِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَصَبِ ، وَمَا يَصْرَفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَإِيمَ اللَّهِ لِيَتِمَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ »^(٣) .

وعن ابن عبّاس : لما دخل رسول الله ﷺ المدينة اشتدّ الضرّ عليهم ، لأنّهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم في أيدي المشركين ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ فأنزل الله تطييباً لقلوبهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾^(٤) .

وقيل : إنّها نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والحزن ، وكان كما قال سبحانه : ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾^(٥) .

وقيل : نزلت في حرب أحد لما قال عبد الله بن أبيّ لأصحاب رسول الله ﷺ : إلى متى تقتلون أنفسكم وترجون الباطل ؟ ولو كان محمّد [نبيا] لما سلّط الله عليكم الأسر والقتل ، فأنزل الله هذه الآية^(٦) . ويمكن الجمع بينهما بالقول بتكرّر النزول .

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ الدِّينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ الصّبر على الضّراء من وظائف الإيمان ، وكان الإنفاق في سبيل الله أيضا من وظائف الإيمان ، حكى الله تعالى سؤال المؤمنين عن خصوصيّاته بعد حثّ النبي ﷺ بقوله :

(١) نهج البلاغة : ٢٥١ الخطبة ١٧٦ .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ٢٠ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ١٩ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ١٩ ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٣ / ١٠ .

(٥) تفسير الرازي ٦ : ١٩ .

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾

عن ابن عباس : أنَّ الآية نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا هرما ، وهو الذي قتل يوم احد وعنده مال عظيم ، فقال : ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فنزلت هذه الآية ^(١) . فأجاب الله عن السؤالين بقوله : ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي خير كان ﴿فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وقد مرّ تفسير جميعها ووجه ترتيبها ^(٢) .

وعن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رجل أتى النبي ﷺ فقال : إنَّ لي دينارا. فقال : « أنفقه على نفسك » قال : إنَّ لي دينارين ، قال : « أنفقهما على أهلك » قال : إنَّ لي ثلاثة. قال : « أنفقها على خادمك » . قال : إنَّ لي أربعة ؟ قال : « أنفقها على والديك » . قال : إنَّ لي خمسة. قال : « أنفقها على قرابتك » . قال : إنَّ لي ستة. قال : « أنفقها في سبيل الله ، وهو أحسنها » ^(٣) .

وعدم التعرّض في الآية للسائلين وفي الرّقاب لعلّه لدخولها تحت عموم قوله : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ فإنّه عامّ لكلّ ما فيه مرضاة الله من العبادات والصّدقات ، وفي قوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وعد بالتّواب العظيم.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾

ثمّ أنّه سبحانه بعد التّغيب في الإنفاق في سبيل الله - الذي هو الجهاد بالأموال - حتّى على الجهاد بالأنفس.

قيل : لم يكن النبي ﷺ مأذونا في القتال مدّة إقامته في مكّة ، فلمّا هاجر إلى المدينة اذن له في قتال من يقاتله من المشركين ، ثمّ اذن له في قتال عامّتهم ، وفرض الله عليه الجهاد ^(٤) بقوله : ﴿كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ﴾ مع الكفّار ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ غير ملائم لطباعكم البشريّة ، لأنّ فيه الإقدام على بذل المهج وتحمل المشاقّ ، وخطر الرّوح ، وإن كان المؤمن بعد أمر الله يحبه ويشتاق إليه على خلاف الطبيعة ، وإطلاق الكره للمبالغة وهو بمعنى المكروه.

(١) تفسير الرازي ٦ : ٢٣ .

(٢) الآية (١٧٧) من هذه السورة.

(٣) تفسير الرازي ٦ : ٢٢ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ٢٦ .

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ لما ترون فيه من المشقة والضّرر على النفس والمال من غير صلاح ظاهر ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الحقيقة ، وصلاحكم في الواقع ، كما أنّ المريض إذا كان جاهلا بنفع شرب الدواء المرّ التّن ، لا يتحمّل شربه إلّا بكره وجبر ، بخلاف ما إذا علم بكون شغائه في شربه ، فإنّه يشّاق إليه أكثر من اشتياقه إلى شرب الأشربة الحلوة الطّيبة.

﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وتشتاقوا إليه لجهلكم بضّرّه وشرّه ، وموافقته لطباعكم ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ يكون فيه فسادكم وهلاككم ، فإنّ الطّفل يشّاق إلى أن يلعب بالحيّة لحسن منظرها ولين لمسها ، وجهله بأنّها قاتلة ، وأنّ في قربها هلاكه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ واقع صلاح الأشياء وفسادها ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئا إلّا بتعليم الله ، فما أمركم به فاعلموا أنّ فيه خيركم وصلاحكم ، ولا تنظروا إلى كونه مكروها لطباعكم أو مفسدة في اعتقادكم ، فعليكم البدار إلى طاعة أوامره ولو كان بإلقاء أنفسكم في المهالك وتحت أظلة السيوف.

في دفع توهم التنافي بين التكليف الشرعية الشاقة وبين نفي الحرج

فإن قيل : التّكليف بالأعمال الشاقة والحرجية والضّررية ينافي قوله سبحانه : ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١) وقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢) وقوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام »^(٣) .

قلنا : المراد من العسر والحرج والضّرر ، ما يكون بجهات طارئة على متعلّق التّكليف ، لا ما هو في نوع المكلف به وحقيقته ، مثلا التّكليف بالجهاد والزّكاة يكون في نوعهما الضّرر والحرج ، وهما بالّحاظ الأوّلية مقتضي لثبوت التّكليف لا رافع له ، ولا يمكن أن يكون مقتضي الشيء مانعا عنه أو رافعا له ، بخلاف العسر والحرج والضّرر الطارئ على التّكليف ، كأن يكون المكلف مريضا أو يكون أداء الزّكاة موجبا - اتّفاقا - لضرر بذل مال آخر في إيصاله إلى الفقير ، فإنّ دليل نفي الحرج والضّرر رافع للتّكليف في هذه الصّورة ولا منافاة.

والحاصل : أنّ مفاد قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أنّ الله تعالى أراد من كلّ عمل أمركم به ، الصنف الذي ليس فيه مشقة زائدة على ما اقتضته طبيعة ذلك العمل ، ولم يرد منكم الصّنف الذي فيه الضّرر والعسر الزائد بالنسبة إلى أصل الطّبيعة المأمور بها ، مثلا الوضوء بالماء ، مع كون المشقة العظيمة في تحصيله وإن كان موجبا للطّهارة ولكنّ الله لم يرض بتحمّل تلك المشقة

(١) الحج : ٢٢ / ٧٨ .

(٢) البقرة : ٢ / ١٨٥ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٤٣ / ٧٧٧ .

لعباده إذا كان في التَّيَمُّمِ بالتراب مصلحة مقتضية لبدليته عن الوضوء في تلك الحال ، ففي صورة عدم وجدان الماء لم يكلفنا الله بتحصيل الماء وتحمل المشقة والحرَج له ، بل اكتفى بعمل الطَّهْوَر السَّهْل الذي لا مشقة فيه ، وهو التَّيَمُّم بالتراب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾

ثمَّ أتتعالى لما أمر بالقتال وأوجبه ، سأل الكفار عن حكمه في الأشهر الحرم ، فحكى الله ذلك السؤال توطئة لجوابه بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ وقيل : إنّ السائلين هم المسلمون ، وكان السؤال بعد واقعة عبد الله بن جحش الأسدي ، وهو ابن عمّة رسول الله ﷺ (١) .

عن ابن عباس رضيه الله عنه قال : إنّ رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش قبل قتال بدر بشهرين ، وبعد سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة في ثمانية رهط ، وكتب له كتابا وعهدا دفعه إليه وأمره أن يفتحه بعد منزلتين ، ويقرأه على أصحابه ويعمل بما فيه ، فإذا فيه : « أمّا بعد ، فسر على بركة الله بمن اتّبعك حتّى تنزل بطن نخل فترصد بما غير قريش لعلّك أن تأتينا منه بخير » .

فقال عبد الله : سمعا وطاعة لأمره ، فقال لأصحابه : من أحبّ منكم الشّهادة فليطلق معي فإنّي ماض لأمره ، ومن أحبّ التخلّف فليتخلّف ، فمضى حتّى بلغ بطن نخل بين مكّة والطائف . فمرّ عليهم عمرو بن الحضرمي وثلاثة معه ، فلمّا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ حلقوا رأس واحد منهم وأوهموا بذلك أنّهم قوم عمّار (٢) ، ثمّ أتى واقد بن عبد الله الحنظليّ - وهو أحد من كان مع عبد الله بن جحش - ورمى عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا اثنين وساقوا العير بما فيه حتّى قدموا على رسول الله ﷺ

(١) مجمع البيان ٢ : ٥٥١ .

(٢) أي قادمون للعمرة .

فضحّت قريش وقالوا : قد استحلّ محمد الشهر الحرام ، شهرا يأمن فيه الخائف ، فيسفك فيه الدماء ، والمسلمون أيضا قد استبعدوا ذلك ، فقال ﷺ : « إني ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام » .
فقال عبد الله بن جحش : يا رسول الله ، إنّنا قتلنا ابن الحضرمي ، ثمّ أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب ، فلا ندري أيّ رجب أصبناه أم [في] جمادى . فوقف رسول الله ﷺ العير والاسارى فنزلت [هذه الآية] ، فأخذ رسول الله ﷺ الغنيمة ^(١) .

وعن القمّي رحمه الله في رواية : فكتبت قريش إلى النبي ﷺ : إنّك استحللت الشهر الحرام ، وسفكت فيه الدّم ، وأخذت المال . وكثر القول في هذا . قال الصحابة : يا رسول الله ، أيجلّ القتل في الشهر الحرام ؟ فنزلت ^(٢) .

وعن ابن عباس [أنّه] قال : ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلّا عن ثلاث عشرة مسألة حتّى قبض ، كلّهنّ في القرآن ، منها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ ^(٣) أي عن قتال فيه .

وقيل : سأل الكفار عن هذا حتّى لو أخبرهم بأنّه حلال فتكوا به وأستحلّوا قتاله فيه ^(٤) ، فأجابه الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي قتال كان هو إثم ﴿كَبِيرٌ﴾ وذنب عظيم .

وقيل : إنّ تنكير القتال في الجواب لإظهار أنّ القتال الذي هو إثم كبير ليس قتال عبد الله بن جحش الذي كان لاشتباه الشهر ، أو لنصرة الإسلام وإذلال الكفر أو للدّفاع ، بل قتال آخر ، وهو القتال الذي فيه هدم الإسلام ، أو سائر الأغراض الفاسدة ^(٥) . ﴿وَصَدَّقْ﴾ مخصوص ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو منع الناس عن الإيمان بالله ، أو منع المسلمين من أن يهاجروا إلى رسول الله ﷺ ، أو منعهم عن العمرة عام الحديبية ، وعلى هذا الاحتمال يكون إخبارا بما وقع بعد مدّة ﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ أي بالله .

وقيل : المراد : الكفر بأنّه مرسل الرّسول وكونه مستحقّا للعبادة وقادرا على البعث ^(٦) .
﴿وَوَصَّدَ﴾ عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بناء على أن يكون عطفًا على سبيل الله ، أو المراد : والكفر بالمسجد الحرام ، بناء على كونه عطفًا على الضّمير المجرور قبله . والمراد من الكفر بالمسجد : منع المسلمين عن الصّلاة فيه وزيارة البيت والطّواف به ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ وهم الرّسول والمؤمنون

(١) تفسير الرازي ٦ : ٢٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٧٢ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ٣٠ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ٣٠ .

(٥) تفسير الرازي ٦ : ٣١ .

(٦) تفسير الرازي ٦ : ٣٤ .

﴿مِنْهُ﴾ أي من المسجد ، كل واحد من هذه الامور إثم من قريش ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي علمه من قتال سرية وقتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام ؛ لأن القتال فيه قد يحل والكفر بالله لا يحل بحال .
 قيل : إن عدّه المسلمين من أهل المسجد مع كونهم خارجين عن مكّة ، لكونهم قائمين بأداء وظائفه حافظين لحدوده ^(١) .

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ والفساد في الأرض ، وقيل : إن المراد منها الشرك بالله وإخراج أهل المسجد ^(٢) ﴿أَكْبَرُ﴾ وزرا ، وأشدّ قبحا ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ الصادر من المسلمين على سبيل الخطأ ، وبظنّ عدم دخول الشهر الحرام .

نقل أنّه لما نزلت ، كتب عبد الله بن أنيس إلى مؤمني مكّة : إذا عيّركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام ، فعيّروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكّة ، ومنعهم المسلمين عن البيت ^(٣) .

ثم بين سبحانه ، أنّهم كيف يعيرونكم على قتل واحد ﴿وَوَ﴾ هم ﴿لَا يَزَالُونَ﴾ في جميع الأوقات ﴿يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ ويدعون على عداوتكم ولا ينفكون عنها ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ﴾ وكي يصرفوكم ﴿عَنْ دِينِكُمْ﴾ الحق إلى دينهم الباطل ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ وأنى لهم ذلك لتصلّبكم في إيمانكم ، وثباتكم في دينكم ، وفيه تطيب لقلوب المؤمنين .

ثم أنّه تعالى بعد استبعاد ارتداد أهل الإيمان ، أخذ في تحذير من يرتدّ بإضلالهم ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ﴾ وينصرف ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عَنْ دِينِهِ﴾ الحق إلى الباطل ، وعن التوحيد إلى الشرك ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ولم يتب عن ارتداده ، ولم يرجع إلى الإسلام ، وفيه ترغيب في الرجوع إلى الاسلام بعد الارتداد وقبل الموت ، ودلالة على قبول توبة المرتدّ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المرتدون البعيدون عن رحمة الله ﴿حَبِطَتْ﴾ وضاعت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصالحة التي عملوها حال إسلامهم ، ولا يترتب عليها نفع وأثر خير ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ فإنّ للأعمال الخيرية آثارا وفوائد دنيوية كحسن الذكر عند المؤمنين ، وطلب المغفرة له منهم ، وجواز المناكحة ، والمواودة ، والطفاف خاصة من الله في أعقابه .

روي عن الصادق عليه السلام : « أنّ الله ليصلح لصلاح ^(٤) المؤمن ولده وولد ولده ، ويحفظه في دويرته ودويرات حوله ، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله » ^(٥) الخير . فبالارتداد نزول تلك الآثار

(١) تفسير الرازي ٦ : ٣٤ .

(٢) و (٣) . تفسير روح البيان ١ : ٣٣٥ .

(٤) في تفسير العياشي : بصلاح الرجل .

(٥) تفسير العياشي ٣ : ١٠٦ / ٢٦٨٧ .

والكرامات الدنيوية ، بل يجب قتله عند الظفر به .

﴿و﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَثْبُونُ عَلَيْهَا فَيَفُوتُهُمْ ثَوَابُهَا فِي الدَّارَيْنِ ، وفيه دلالة على اشتراط حبط الأعمال ، وثوابها ، والخلود في النار ، بالموت على الكفر .
﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا مناص ولا خلاص لهم منها أبدا .

ثم روي أنه قال عبد الله بن جحش : يا رسول الله ، هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا ، فهل نطمع منه أجرا وثوابا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١)
وقيل : إنه قال قوم : إن أصحاب السيرة إن سلموا من الإثم فلا أجر لهم ، فنزلت :
﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أوطانهم طلب صحبة الرسول ﷺ ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلب مرضاته - وفي ذكر الأوصاف إيماء إلى عبد الله وأصحابه حيث إنهم كانوا مؤمنين مهاجرين مجاهدين - ﴿وَأُولَئِكَ يَرْجُونَ﴾ بأعمالهم الصالحة ﴿رَحِمَتِ اللَّهُ﴾ وثوابه . والتعبير بالرجاء لأن المؤمن لا يزال في خوف ورجاء ، ولا يقطع بالفلاح إلا عند الاحتضار .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لزلّات المؤمنين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بإجزال الأجر .
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدنيا والآخرة ويسألك عن اليتامى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

والسؤال الرابع من المسلمين ، ما بيّنه الله بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ وعن حكم شرب المسكر ، أحلال شربه أم حرام ؟
قيل : نزلت في الخمر أربع آيات ، نزلت بمكة آية ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(٢) فطلق المسلمون يشربونها ، ثم إن جمعا من الصحابة قالوا : أفتنا يا رسول الله في الخمر ، فإنها مذهب للعقل ؟ فنزلت هذه الآية ، فشرها قوم وتركها آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن بن

(١) تفسير الرازي ٦ : ٣٩ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٥٥٣ ، تفسير البيضاوي ١ : ١١٨ .

(٣) النحل : ١٦ / ٦٧ .

عوف ناسا منهم ، فشربوا وسكروا ، وقام أحدهم فقراً : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، إلى آخر الخبر ^(١) .

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصْرِفِينَ﴾ وهو كل ما قומר عليه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الميسر : « كل ما ألهى عن ذكر الله فهو [من] الميسر » ^(٢) .

﴿قُلْ فِيهِمَا﴾ وفي أستعمالهما ﴿إِنَّكُمْ كَبِيرٌ﴾ وذنب عظيم.

في ذكر مفسدات شرب الخمر والقمار

روي عن الصادق عليه السلام قال : « الخمر رأس كل إثم ، ومفتاح كل شر » ^(٣) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله : « أن الملائكة لتنفّر عند الزمان ، وتلعن صاحبه ، ما خلا الحافر ، [والخف] والريش ، والنّصل » ^(٤) الخبر.

واعلم أنّ مفسدات الخمر والميسر أظهر من أن تخفى على ذي مسكة ^(٥) ، أمّا الخمر فأظهر مفسادها أنّها مذهبة للعقل.

نقل عن العباس بن مرداس أنّه قيل له في الجاهليّة : لم لا تشرب الخمر فإنّها تزيد في جرأتك ؟ فقال : ما أنا بأخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي ، ولا أرضى أن اصبح سيّد قوم وامسي سفيهم ^(٦) .

وقال بعض : لو كان العقل يشري ما كان شيء أنفس منه ، فالعجب لمن يشتري الحمق بماله فيدخله في رأسه فيقيء في جيبه ويسلح في ذيله ^(٧) .

وأما الميسر ، فأظهر مفساده أنّه مذهب للمال لاه عن ذكر الله ، ومن مفسادهما أنّ تعاطيهما موقع في العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ^(٨) .

ثم ذكر سبحانه مقتضى إباحتها بقوله : ﴿وَوَيْلٌ فِيهِمَا﴾ ^(٩) كثيرة جسمانيّة وماديّة **لِلنَّاسِ** ^(١٠)

قيل : إنّ من منافع الخمر أنّ الناس كانوا يتعاملون ^(٩) بها إذا جلبوها من النّواحي ، وكان المشتري إذا ترك المماكسة ^(١٠) في الثمن ، كانوا يعدّون ذلك فضيلة له فكانت تكثر أرباحهم ^(١١) .

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢١٨ .

(٢) أمالي الطوسي : ٣٣٦ / ٦٨١ .

(٣) الكافي ٦ : ٤٠٣ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٢٧ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٠ / ٨٨ .

(٥) المسكة : العقل . (٦) تفسير الرازي ٦ : ٤٦ .

(٧) تفسير روح البيان ١ : ٣٤٠ .

(٨) المائدة : ٥ / ٩١ .

(٩) في تفسير الرازي : يتغالون ، أي يبيعونها بثمن غال .

(١٠) أي التقليل من الثمن . (١١) تفسير الرازي ٦ : ٤٧ .

ومنها : أَنَّهُ يَقْوَى الضَّعِيفُ ، وَيَهْضُم الطَّعَامُ ، وَيَعِين عَلَى الْبَاهِ (١) ، وَيُسَلِّي الْخَزْنَونَ ، وَيَشَجِّعُ الْجَبَانَ.

وقيل : إِنَّ مِنْ مَنَافِعِ الْمَيْسَرِ التَّوَسُّعَ عَلَى ذَوِي الْحَاجَةِ (٢) .

نقل عن الواقدي أَنَّهُ قَالَ : كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ رِمَا قَمَرٍ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ بَعِيرٍ ، فَيَحْصِلُ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ ثُمَّ يَصْرِفُهُ فِي الْمَحْتَاجِينَ ، فَيَكْتَسِبُ مِنْهُ الْمَدْحَ وَالنَّائِيَّ (٣) .
ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ مَقْتَضَى الْحَرَمَةِ فِيهِمَا آثَمُ وَأَقْوَى مِنْ مَقْتَضَى الْإِبَاحَةِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿وَأَنَّهُمَا﴾ وَضَرَّهُمَا ﴿أَكْبَرُ﴾ وَأَعْظَمُ ﴿مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لِأَنَّ ضَرَرَهُمَا رُوحَانِيٌّ وَنَفْعُهُمَا جَسْمَانِيٌّ ، وَلَا يَعَادِلُ أَضْعَافُ مَا يَتَصَوَّرُ لَهَا مِنَ النَّفْعِ لِأَقَلِّ قَلِيلٍ مِنْ غَيْرِهِمَا.

روى مِنْ طَرُقِ الْعَامَّةِ أَنَّ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَكَرَ لْجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْبَعَ خِصَالٍ كَانَ عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ عَلَيْهَا فِي الْإِسْلَامِ . فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ جَعْفَرًا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ أَطْلَعَكَ عَلَيْهَا لَمَّا أَخْبَرْتُكَ بِهَا : مَا شَرِبْتُ الْخَمْرَ قَطُّ ، لِأَنِّي رَأَيْتُهَا تَنْزِيلَ الْعَقْلِ ، وَأَنَا إِلَى أَنْ أَزِيدَ فِيهِ أَحْوَجَ مَيِّ إِلَى أَنْ أَزِيلَهُ ، وَمَا عَبَدْتُ صَنَمًا قَطُّ لِأَنِّي رَأَيْتُهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ ، الْخَبِيرُ (٤) .

فِي تَنْزِيهِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الشَّرْكِ وَشَرْبِ الْخَمْرِ
أَقُولُ : بَعْدَ وَضُوحِ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَانَا أَعْقَلُ وَأَكْمَلُ مِنْهُ ، كَانَا أَجَلَّ وَأَنْزَهَ مِنْ أَنْ يَعْبُدَا صَنَمًا أَوْ يَشْرِبَا خَمْرًا.

وَعَنْ بَعْضِ الْعَامَّةِ ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : « لَوْ وَقَعَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الْخَمْرِ فِي بَحْرٍ ثُمَّ جَفَّتْ فَنَبَتَ فِيهِ الْكَلَأُ لَمْ أَرَعُهُ » (٥) . وَبِإِلَاحِ أَنَّ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ مَرْوِيٌّ بِطَرُقِ أَصْحَابِنَا .
وَعَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ عَجَلًا نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَ [فِي] عِلْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَكْمَلَ [لَهُ] دِينَهُ كَانَ فِيهِ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ ، وَلَمْ يَزَلِ الْخَمْرُ حَرَامًا ، وَإِنَّمَا يَنْقَلِبُونَ مِنْ خِصْلَةٍ ثُمَّ خِصْلَةٍ (٦) ، وَلَوْ حَمَلَ (٧) ذَلِكَ عَلَيْهِمْ جَمْلَةٌ لَقَطَعَ بِهِمْ دُونَ الدِّينِ » (٨) .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَا أَحَدٌ أَرْفَقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمَنْ رَفَقَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَنْقَلِبُ مِنْ خِصْلَةٍ إِلَى خِصْلَةٍ ، وَلَوْ حَمَلَ عَلَيْهِمْ جَمْلَةٌ لَهْلَكُوا » (٩) .

(١) فِي النِّسْخَةِ : الْبَاهِ.

(٢) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٦ : ٤٧ .

(٣) وَكَذَا.

(٤) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١ : ٣٣٩ .

(٥) تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ١ : ٢١٨ ، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١ : ٣٤٠ .

(٦) فِي الْكَافِي : مِنْ خِصْلَةٍ إِلَى خِصْلَةٍ.

(٧) زَادَ فِي النِّسْخَةِ : مِنْ.

(٨) الْكَافِي ٦ : ٣٩٥ / ٣ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١ : ٢٢٨ .

(٩) الْكَافِي ٦ : ٣٩٥ / ٣ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١ : ٢٢٨ .

وعنهم ﷺ : « أن أول ما نزل في تحريم الخمر قول الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فلما نزلت هذه الآية أحسَّ القوم بتحريمها [وتحريم الميسر] وعلموا أنَّ الأثم ممَّا ينبغي اجتنابه ، ولا يحمل الله عُمَّالَ عَلَيْهِم من كلِّ طريق ، لأنَّه قال : ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ ثمَّ أنزل الله تعالى آية أخرى : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فكانت هذه الآية أشدَّ وأغلظ في التَّحريم ، ثمَّ ثلث بآية أخرى فكانت أغلظ من الآية الأولى والثَّانية وأشدَّ ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(١) فأمر الله تعالى باجتنابهما « الخبر »^(٢) .

وعن بعض العامة : لما نزلت الآية ، قال عمر : قد انتهينا يا ربَّ^(٣) .
أقول : فيه دلالة على أنَّه كان يشربه .

قيل : حرِّمت الخمر في السَّنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة الأحزاب بأيَّام^(٤) .
وقيل في وجه تحريم الخمر على هذا التَّرتيب : إنَّه تعالى علم أنَّ القوم كانوا ألفوا شرب الخمر ، وكان انتفاعهم به كثيرا ، وعلم أنَّه لو منعهم دفعة واحدة لشقَّ عليهم ، فلا جرم استعمل في التَّحريم التَّدرِج والرفق .

ثمَّ لما أنزل التَّحريم أريقَت الخمر^(٥) . قال ابن عمر : خرجنا بالحِجَاب إلى الطَّرِيق فمَنَّا من كسر حَبِّه ، ومَنَّا من غسله بالماء والطَّين ، ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً كلَّما مطرت استبان فيها لون الخمر ، وفاحت منها ريحها ، [وحرِّمت الخمر] ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها ، وما حرَّم الله عليهم شيئاً أشدَّ من الخمر^(٦) .

ثمَّ أنَّه تعالى حكى السَّؤال الخامس بقوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وأيَّ مقدار من أموالهم يذُلون ؟ قيل : إنَّ السَّائل عمرو بن الجموح ، حيث سأل أوَّلاً عمَّا ينفق من الأموال ، وعن مصرفه ، ثمَّ سأل عمَّا ينفق من حيث المقدار والكميَّة^(٧) ، فأجاب سبحانه بقوله : ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾
قيل : إنَّه الزائد عمَّا

(١) المائدة : ٥ / ٩٠ و ٩١ .

(٢) الكافي ٦ : ٤٠٦ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٢٨ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ٤٠ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٣٩ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٣٣٩ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٣٣٩ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٣٣٩ .

(٧) تفسير أبي السعود ١ : ٢١٩ .

يحتاج إليه المنفق ^(١) . وقيل : أن ينفق ما يسهل ويتيسر ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « العفو : الوسط » ^(٣) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « خير الصدقة ما أبقت غنى و [لا] يلام على كفاف » ^(٤) .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب ، فقال : يا رسول الله ، خذها صدقة ، فو الله لا أملك غيرها ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أتاه من بين يديه فقال : « هاآها » مغضبا ، فأخذها منه ثم حذفه بها بحيث لو أصابته لوجعته ، ثم قال : « يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره ثم يجلس يتكفف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى ، خذها فلا حاجة لنا فيها » ^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام : « أن العفو ما يفضل عن قوت السنة » ^(٦) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يحبس لأهله قوت سنة ^(٧) .

قال بعض الحكماء : الفضيلة بين طربي الإفراط والتفريط ، فالإنفاق الكثير

هو التبذير ، والتقليل جدّا هو التقتير ، والعدل هو الفضيلة ^(٨) .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ التبيين والتوضيح لأحكام الإنفاق ﴿ بَيِّنُ اللَّهُ ﴾ ويوضح ﴿ لَكُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ الْآيَاتِ ﴾ الدالة على سائر الأحكام التي تحتاجون إليها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ولكي تنظروا وتتأملوا ﴿ فِي ﴾ أموركم الزاجعة إلى ﴿ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وتعلموا مصالحكم فيهما ، وتختاروا ما هو أصلح وأنفع لكم .

وقيل : إن المراد كبيان الأحكام في كمال الوضوح ، يبين الله لكم دلائل المعاد ، لكي تتفكروا في أن أيهما خير وأبقى فتعملون بما هو أنفع وأصلح لكم ^(٩) .

والسؤال السادس : ما حكاه الله بقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾ وحكم التصرف في أموالهم .

وعن الصادق عليه السلام : « لما نزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾ ^(١٠) خرج كل من

كان عنده

(١ و ٢) . تفسير الرازي ٦ : ٤٨ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢١٩ / ٤١٨ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ٤٩ .

(٥) تفسير الرازي ٦ : ٤٩ .

(٦) مجمع البيان ٢ : ٥٥٨ .

(٧ و ٨) . تفسير الرازي ٦ : ٤٩ .

(٩) تفسير أبي السعود ١ : ٢٢٠ .

(١٠) النساء : ٤ / ١٠ .

يتيم ، وسألوا رسول الله ﷺ في إخراجهم » (١) .

قيل : كان سبب ذلك أن الناس في الجاهلية كانوا قد اعتادوا الانتفاع بأموال اليتامى ، وربما تزوجوا باليتيمة طمعا في مالها ، ثم لما هدى الله تعالى عن مقارنة ما لهم وحرمة أكله ، وهدد وشدد عليه ، ترك المؤمنون (٢) مخالطة اليتامى والمقاربة من أموالهم ، والقيام بأمورهم ، فعند ذلك اختلت مصالح اليتامى وساءت معاشيتهم (٣) ، فثقل ذلك على الناس (٤) .

روي : لما نزلت الآيات اعتزلوا أموال اليتامى واحتنبوا مخالطتهم في كل شيء حتى كانوا يضعون لليтим طعاما فيفضل منه شيء فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد ، وكان صاحب اليتيم يفرده له منزلا وطعاما وشرابا ، فعظم ذلك على ضعفاء المسلمين ، فقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، مالكلنا منازل تسكنها الأيتام ، ولا كلنا يجد طعاما وشرابا يفردهما لليтим (٥) . فنزلت ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِصْلَاحٌ لَهُمْ﴾ ومداخلتهم على نحو يكون فيها صلاح حالهم وأموالهم ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ولليتامى من إخراجهم ومجانبتهم.

﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم وتتصرفوا في أموالهم بجهة الإصلاح والاسترباح لهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين.

ومن المعلوم أن علاقة الاخوة الدينية أقوى من علاقة الاخوة النسبية ، وحقّ الاخوة رعاية صلاح الأخ والسعي في إيصال النفع إليه وحسن المخالطة والعشرة معه .
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لما اليتامى ، وغيره ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ له إذ هو وليّ اليتيم ، فعليه أن يطالب المفسد ويجازيه على إفساده ، ويشكر المصلح ويثيبه على إصلاحه.

عن (الكافي) عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : إنا ندخل على أخ لنا في بيت أيتام ومعهم خادم [لهم] ، فنقعد على بساطهم ونشرب من مائهم ويخدمنا خادمتهم ، وربما طعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا وفيه من طعامهم ، فما ترى في ذلك ؟ فقال : « إن كان في دخولكم عليهم منفعة لهم فلا بأس ، وإن كان فيه ضرر فلا » .

(١) تفسير القمي ١ : ٧٢ .

(٢) في تفسير الرازي : القوم .

(٣) في تفسير الرازي : معيشتهم .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ٥٠ .

(٥) تفسير الرازي ٦ : ٥١ .

وقال : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(١) فأنتم لا تخفى عليكم ، وقد قال الله عز وجل :
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾^(٢) .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إعناتكم وإيقاعكم في المشقة ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ وأوقعكم فيها بتحريم المداخلية
والمعاشرة عليكم ، ولم يجوز لكم المخالطة بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره لا يعجز من
الإعنات ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما فيه حسن وصلاح من غير حرج.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ
أَعَجَبْتَكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ
وَلَوْ أَعَجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢١)

ثم أنه لما كان النكاح مربوطا بإصلاح أمور اليتامى كما قال في سورة النساء : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ
أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(٣) ذكر الله تعالى حكم النكاح بقوله :
﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ ولا تتزوجوا النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ في حال من الحالات ، ووقت من الأوقات
﴿حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾ بالله.

عن ابن عباس : أنَّ النبي ﷺ بعث مرثد بن أبي مرثد - وكان حليفا لبني هاشم - إلى مكة
ليخرج منها أناسا من المسلمين سرا ، فعند قدومه جاءته امرأة يقال لها : عناق - خلييلة له في
الجاهلية ، أعرضت عنه عند الإسلام - فالتصقت الخلوة فعرفها أنَّ الإسلام يمنع من ذلك ، ثم
وعدها أن يستأذن الرسول ﷺ ثم يتزوج بها. فلما انصرف إلى رسول الله ﷺ عرفه ما جرى من
أمر عناق ، وسأله : هل يحل له التزويج بها ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٤) .

وروي أنَّها منسوخة بالنسبة إلى الكتابية - التي هي داخلية في المشركات - بقوله تعالى في
المائدة : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٥) وسورة المائدة كلها ثابتة غير منسوخة
منها شيء^(٦) ، وباقية على الحرمة في غيرها.

(١) القيامة : ٧٥ / ١٤ .

(٢) الكافي ٥ : ١٢٩ / ٤ .

(٣) النساء : ٤ / ٣ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ٥٤ .

(٥) المائدة : ٥ / ٥ .

(٦) تفسير الرازي ٦ : ٥٨ ، تفسير أبي السعود ١ : ٢٢١ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٤٥ .

ثم علّل سبحانه الحكم بقوله : ﴿وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ﴾ موحّدة مع ما بها من حسنات الرقّ وفقدانها الشرف والمال ، لكونها متزينة بزينة الإيمان والتوحيد ﴿خَيْرٌ﴾ لكم بحسب الدين والدنيا ﴿مِنْ﴾ امرأة حرّة ﴿مُشْرِكَةٍ﴾ مع مالها من شرف الحرية ورفع الشّأن وكثرة المال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ تلك المشركة بسبب جمالها ومالها ونسبها وشرفها ، حيث إنّ حكمة النّكاح المودة بين الزوج والزوجة ، وطيب الولادة ، وكلاهما منتفیان في نكاحهنّ لعدم حصول المودة بين المؤمن والمشركة كما قال تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١) ولعدم تحقّق طيب الولادة في نسلهنّ ؛ لأنّ في خبثاة الأمّ ونجاسة لبنها أثر عظيم في خبثاة الولد كما قال : ﴿الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾^(٢) .

ولذا أكّد سبحانه القضية بلام الابتداء التي تشبه لام القسم ، ثمّ لعين ما ذكر من الملاك نهي الله تعالى عن إنكاح المشركين بقوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ ولا تزوجوا النّساء المؤمنات كنّ حرّات أو إماء ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ ويصدّقوا بالله ورسوله ويدخلوا في دين الإسلام ، ولا خلاف في هذا الحكم بين المسلمين.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به من ذلّ العبوديّة وفقد المال والشرف وكونه كلاً على مولاه ﴿خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾ مع ماله من عزّ الحرية والثروة ونفوذ التصرفات ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ جماله وماله وعزّه وخصاله.

ثمّ بعد التّهي عن مزاجحة الكفّار وبيان عدم الصّلاح فيها ، وأنّ الصّلاح في مواصلة المؤمنين ، بيّن مفسدة عظيمة في مزاجحة الكفّار هي عمدة علل التّهي عنها ، بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المشركون والمشركات ﴿يَدْعُونَ﴾ من يعاشرهم إلى الشّرك والفسق والعصيان الذي يؤدّي ﴿إِلَى النَّارِ﴾ فلا ينبغي للعاقل أن يقارهم ويواليهم.

نقل أنّ مسلماً رأى نصرانيّة سمينة فتمتّى أن يكون [هو] نصرانيّاً حتّى يتزوّجها بكفر^(٣) .
﴿وَاللَّهُ﴾ برحمته ولطفه ﴿يَدْعُوا﴾ بالتّهي عن مواصلتهم ، وأمركم بالإيمان ومواصلة أهلهم ﴿إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ قدّم الجنّة لمقابلة النّار ، وهذه الغاية القصوى لا تحصل لأحد إلّا ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وتوفيقه.

(١) المجادلة : ٥٨ / ٢٢ .

(٢) النور : ٢٤ / ٢٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣٤٦ . وفيه : يكفر وهذا من حماقته ...

ثم لما كانت هذه الأحكام المحكمات آيات ربوبيته ورحمته لكونها جامعة لصالح العباد ، قال : ﴿وَبَيِّنْ آيَاتِهِ﴾ ودلائل ربوبيته ورحمته ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بها ، ويتفكرون فيها ، فيعملون بما هو صلاحهم ونجاحهم.

قيل : إنَّ إيراد التذكّر هنا للإشعار بأنّه لوضوحها غير محتاجة إلى التفكّر والتدبّر ^(١) .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢)

ثم لما بيّن سبحانه حكم النكاح الذي هو غير منفك عن الواقعة غالباً ، حكى السؤال السابع الذي كان عن حكم الواقعة في حال الحيض بقوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ وعن مخالطة النساء في حال تلوّثهنّ بالدم الخاص الخارج من الرحم.

قيل : إنَّ حكاية الأسئلة الثلاثة مقترنة بواو العطف لكون جميعها في وقت واحد بخلاف ما عداها فإنهم سألوها في أوقات متفرقة ^(٢) .

وقيل : إنَّ سبب السؤال أنّ اليهود والمجوس كانوا يتباعدون عن المرأة الحائض بحيث لا يساكنونها ولا يواكلونها ، والنصارى كانوا بخلاف ذلك حتّى إنهم لم يبالوا بجماعها ، وأهل الجاهلية كانت رؤيتهم رؤية اليهود ، فسأل أبو

الدّحداح ونفر من الصّحابة عن الحكم ، فنزلت ^(٣) ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾ وقذارة مؤذية لمن يقرهّن ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ واجتنبوا مجامعتهنّ ﴿فِي الْمَحِيضِ﴾ ومجرى الدم الخاصّ ، وهو الفرج .
عن أبي عبد الله عليه السلام في رواية : « أنّ دم الحيض حارّ عبيط أسود ، له دفع وحرارة » ^(٤) .
الخبر .

وفي حكمه ما يخرج في أيام العادة ولو كان فاقدا للصفات ، لقول النبي ﷺ لزَيْنَب بنت جحش ^(٥) : « دعي الصّلاة أيام أقرائك » ^(٦) .

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢٢٢ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٤٦ .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ٦٢ ، تفسير أبي السعود ١ : ٢٢٢ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ٦٣ .

(٤) الكافي ٣ : ٩١ / ١ .

(٥) في تفسير الرازي : لفاطمة بنت أبي حبيش .

(٦) تفسير الرازي ٦ : ٦٧ .

قيل : إنّ المسلمين أخذوا بإطلاق الاعتزال ^(١) فأخرجوهنّ من بيوتهنّ ، فقال جمع من الأعراب : يا رسول الله ، البرد شديد والثياب قليلة ، فإن آثرناهنّ بالثياب هلك سائر أهل البيت ، وإن استأثرناها هلكت الحائض . فقال ﷺ : « إنّما أمرتكم أن تعتزلوا مجامعتهنّ إذا حضن ، ولم آمركن بإخراجهنّ من البيوت كفعل الأعاجم » فلمّا سمع اليهود ذلك ، قالوا : هذا الرجل يريد أن لا يدع شيئا من أمرنا إلا خالفنا فيه .

ثمّ جاء عباد بن بشير واسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك ، وقالوا : يا رسول الله ، أفلا ننكحهنّ في الحيض ؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتّى ظننّا أنّه غضب عليهما ، فقاما فجاءته هديّة من لبن ، فأرسل النبيّ ﷺ إليهما فسقاها ، فعلمنا أنّه لم يغضب عليهما ^(٢) . ثمّ أنّه ورد في أخبار كثيرة أنّ أقلّ الحيض ثلاثة أيّام وأكثره عشرة ^(٣) .

ثمّ بيّن سبحانه غاية وجوب الاعتزال بقوله : ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ بالمجامعة في القبل ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ من الحيض وينقطع الدّم عن باطن الفرج ، ويعلم ذلك بالاختبار . وفي رواية : (حتّى يطهرن) بالتشديد ^(٤) ، أي يغتسلن .

عن الصادق عليه السلام [سئل] : ما لصاحب المرأة الحائض منها ؟ فقال : « كلّ شيء ما عدا القبل بعينه » ^(٥) .

وعنه عليه السلام قال : « ترى هؤلاء المشوّهين في خلقهم ؟ » قال : قلت : نعم . قال : « هؤلاء الذين آباؤهم يأتون نساءهم في الطمث » ^(٦) . وعن النبيّ ﷺ : « من جامع امرأته وهي حائض فخرج الولد مجذوما أو أبرص فلا يلومنّ إلا نفسه » ^(٧) .

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ واغتسلن غسل الحيض ، وقيل : إنّ المراد : إذا طهرن ﴿فَأَتُوهُنَّ﴾ وجامعوهنّ ، وليكن الإتيان والمجامعة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ عن ابن عباس : من حيث أمركم الله بتجنّبه ، وهو محلّ الحيض ، أعني القبل ^(٨) . وقيل : من حيث الطهر دون الحيض ^(٩) .

(١) في تفسير الرازي : أخذ المسلمون بظاهر الآية .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ٦٣ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ٦٧ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ٦٨ .

(٥) الكافي ٥ : ٥٣٨ / ١ .

(٦) الكافي ٥ : ٥٣٩ / ٥ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ١ : ٥٣ / ٢٠١ .

(٨ و ٩) . كنز العرفان ١ : ٤٥ / ٦ .

وعن محمد بن الحنفية : من قبل النكاح دون الفجور ^(١) .
وقيل : من الجهة التي يحل أن يؤتين منها ، ولا تقربوهن من حيث لا يحل ، بأن يكن محرّمات ، أو معتكفات ، أو صائمات ^(٢) .

في جواز إتيان النساء بعد النقاء وقبل الغسل على كراهة
ثم أن مقتضى ظهور قوله : ﴿هُوَ أَذَى﴾ في كونه علّة حرمة الوقاع المستلزمة لدوران الحكم مدارها ، وظهور الأمر باعتزالهن في الحيض في حال حصره بحال الحيض ، وظهور قوله : ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بناء على قراءة التخفيف في كون غاية التّهيّ النّقاء من الدّم ؛ هو جواز الواقعة بعد النّقاء وقبل الغسل ، فيعارض ظهور قوله : ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بناء على إرادة الغسل من التّطهير ، حيث إنّ مقتضاه عدم جواز الإتيان قبله ، فلا بدّ من حمل الجملة الشرطيّة على كونها شرطاً للإباحة الخالية عن المرجوحية ، أو حمل يطهرن على معنى طهرن كما قيل .
وأما الروايات الواردة عن المعصومين عليه السلام فعدها دالّة على جواز الإتيان بعد النّقاء وقبل الغسل ، كرواية عبد الله بن بكير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إذا انقطع [الدم] ولم تغتسل ، فليأتها زوجها إن شاء » ^(٣) .

وعدها منها دالّة على الحرمة كما روي عنه عليه السلام قال : سألت عن امرأة حاضت في السّفر ، ثمّ طهرت ولم تجد ماء يوماً أو اثنين ، أيجلّ لزوجها أن يجامعها قبل أن تغتسل ؟ قال : « لا يصلح حتّى تغتسل » ^(٤) .

وفي رواية : قلت : فيأتيها زوجها في تلك الحال - أي في السّفر مع عدم وجدان الماء - قال : نعم ، إذا غسلت فرجها وتيمّمت فلا بأس ^(٥) .

فلا بدّ من حمل التّواهي على الكراهة ، خصوصاً مع ظهور لا يصلح فيها ، وشهادة ما روي عن أبي الحسن عليه السلام عليها قال : سألت عن الحائض ترى الطّهر ، أيقع عليها زوجها قبل أن تغتسل ؟ قال : « لا بأس ، وبعد الغسل أحبّ إليّ » ^(٦) . وعلى هذا يتعيّن القول بالكراهة .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ حيث إنّ التّوبة تطهير للنّفس من رجس المعاصي ﴿وَيُحِبُّ

(١) مجمع البيان ٢ : ٥٦٣ .

(٢) الاستبصار ١ : ١٣٥ / ٤٦٤ .

(٣) الاستبصار ١ : ١٣٦ / ٤٦٥ ، التهذيب ١ : ١٦٦ / ٤٧٨ .

(٤) الكافي ٣ : ٨٢ / ٣ .

(٥) التهذيب ١ : ١٦٧ / ٤٨١ ، الاستبصار ١ : ١٣٦ / ٤٦٨ .

الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿ من أرجاس الأحداث ونجاسات الأقدار الجسمانية.

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفْتَنَ ^(١) التَّوَّابَ ، وَمَنْ لَا يَكُونُ ^(٢) ذَلِكَ مِنْهُ كَانَ أَفْضَلَ » ^(٣) .

وعن (العلل) و (العياشي) عنه عليه السلام قال : « كَانَ النَّاسُ يَسْتَنْجُونَ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الْبَسْرَ فَكَانُوا يَبْعِرُونَ بَعْرًا ، فَأَكَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الدَّبَّاءَ فَلَانَ بَطْنُهُ وَاسْتَنْجَى بِالْمَاءِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : فَجَاءَ الرَّجُلُ وَهُوَ خَائِفٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَزَلَ فِيهِ أَمْرٌ يَسُوؤُهُ فِي اسْتِنْجَائِهِ بِالْمَاءِ ، فَقَالَ ﷺ لَهُ : هَلْ عَمِلْتَ فِي يَوْمِكَ هَذَا شَيْئًا ؟ فَقَالَ : [نَعَمْ] يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا حَمَلَنِي عَلَى الاسْتِنْجَاءِ بِالْمَاءِ إِلَّا أَتَيْتُ أَكَلْتُ طَعَامًا فَلَانَ بَطْنِي فَلَمْ تَغْنِ عَنِّي الْحَجَارَةُ شَيْئًا ، فَاسْتَنْجَيْتُ بِالْمَاءِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هَنِيئًا لَكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ [قَدْ] أَنْزَلَ فِيكَ آيَةً ، فَأَبَشِرْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فَكَنتِ أَنْتِ أَوَّلُ مَنْ صَنَعَ هَذَا ، وَأَوَّلُ التَّوَّابِينَ ، وَأَوَّلُ الْمُتَطَهِّرِينَ ^(٤) » .

قيل : كَانَ الرَّجُلُ الْأَنْصَارِيُّ هُوَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ^(٥) .

وقيل : إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ : الْمُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْأَقْدَارِ ، كَمَجَامِعَةِ الْحَائِضِ ^(٦) . وَلَعَلَّهُ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِ الصَّادِقِ عليه السلام : « وَمَنْ لَا يَكُونُ ^(٧) ذَلِكَ مِنْهُ كَانَ أَفْضَلَ » ^(٨) .

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٢٣)

ثمَّ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْإِنْتِفَاعِ بِالنِّسَاءِ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْحَيْضِ حَالَتِهِ ، وَفِيهِ أَيْضًا : بَعْدَ النِّقَافِ مِنْهُ ، صَرَّحَ بِتَعْمِيمِ الْإِبَاحَةِ مِنْ حَيْثُ كَانَ الْإِنْتِفَاعُ وَكَيْفِيَّتُهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ نِسَاؤُكُمْ ﴾ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴿ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ وَمَوَاضِعُ إِقَاءِ بَذُورِكُمْ مِنْهُمْ ، تَحْرِثُونَ الْوَلَدَ وَاللَّدَّةَ . وَوَجْهُ الشَّبَهِ بَيْنَ النَّطْفَةِ وَالْبَذْرِ ظَاهِرٌ ، فَكَمَا أَنَّ صَاحِبَ الْحَرْثِ لَهُ أَنْ يَأْتِيَ حَرْثَهُ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ وَبِأَيِّ كَيْفِيَّةٍ ، كَذَلِكَ الزَّوْجُ .
ثُمَّ لَمَّا شَبَّهَ الْأَزْوَاجَ بِامْكِنَةِ الْحَرْثِ عَبَّرَ عَنْ مَجَامِعَتِهِنَّ بِالْإِتْيَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ ﴾

(١) أي الممتحن ، يمتحنه الله بالذنوب ثم يتوب ، ثم يعود ثم يتوب .

(٢) في المصدر : لم يكن .

(٣) الكافي ٢ : ٣١٦ / ٩ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٢٣ / ٤٣٢ ، علل الشرائع : ٢٨٦ / ١ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٠ / ٥٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٣٢ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٣٤٧ .

(٧) في الكافي : لم يكن .

(٨) الكافي ٢ : ٣١٦ / ٩ .

شَتْمٌ» ومن أيّ مكان وبأيّ كيفية أردتم.

عن الصادق عليه السلام عن الرجل يأتي المرأة في دبرها ، قال : « لا بأس إذا رضيت » .
قيل فأين قول الله عزّ وجلّ : ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال : « هذا في طلب الولد ،
فاطلبوا الولد من حيث أمركم الله ، إنّ الله تعالى يقول : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى
شِئْتُمْ﴾ (١) الخبر .

والظاهر أنّ الاستشهاد بقوله : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ لجواز الإتيان في الدبر ، والروايات
الكثيرة دالة على جوازه مع كراهة شديدة.

وقيل : إنّ المراد أيّ كيفية شتم ، ومن أيّ جهة أردتم ، بعد أن يكون المأثي قبلًا (٢) .
نقل أنّ سبب نزول الآية أنّ اليهود كانوا يزعمون أنّ من أتى امرأته في قبلها من دبرها يأتي
ولده أحول ، فذكر ذلك للرّسول ﷺ فنزلت الآية ردّاً عليهم (٣) .
وعن الرضا عليه السلام : « أنّ اليهود كانت تقول : إذا أتى الرجل المرأة من خلفها خرج ولده
أحول ، فانزل الله : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ من خلف أو قدّام ، خلافاً
لقول اليهود ، ولم يعن في أدبارهنّ » (٤) .

قيل : كانت الأنصار تنكر أن يأتي الرجل المرأة من دبرها في قبلها ، وكانوا أخذوا ذلك من
اليهود وكانت قريش تفعل ذلك ، فأنكرت الأنصار ذلك عليهم (٥) .
ونقل عن ابن عبّاس أنّ عمر جاء إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت ، وحكى وقوع
ذلك منه ، فنزلت (٦) .

وعن الصادق عليه السلام في تفسير الآية : « أي متى شتمت في الفرج » (٧) .
وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : « من قدّامها ومن خلفها في القبل » (٨) .
وفي أخرى عنه عليه السلام : « أي ساعة شتمت » (٩) .

(١) التهذيب ٧ : ٤١٤ / ١٦٥٧ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٣٤٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣٤٧ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٢٤ / ٤٣٧ .

(٥) تفسير الرازي ٦ : ٧١ .

(٦) وكذا .

(٧) تفسير القمي ١ : ٧٣ .

(٨) تفسير العياشي ١ : ٢٢٤ / ٤٣٦ .

(٩) تفسير العياشي ١ : ٢٢٥ / ٤٣٩ .

وروى العاقمة عن النبي ﷺ في حديث : « ملعون من أتى امرأته في دبرها » ^(١) . والأظهر ما ذكرنا من الجواز مع الكراهة الشديدة.

ثم لما ذكر الله تعالى أنّ النساء حرث ، أشار إلى أنّ الدنيا أيضا حرث الآخرة ، بقوله : ﴿وَقَدْ مُوا﴾ من الأعمال الصالحة ﴿لأنفسكم﴾ في الدنيا ما تنتفعون به في الآخرة ، وأعملوا ما يكون ثوابه ذخرا لكم ليوم حاجتكم.

قيل : إنّ المراد طلب الولد من إتيان النساء ، حيث إنّّه ينفع الوالد في الآخرة ، ولا تكونوا في قيد قضاء الشهوة ^(٢) .

وعن ابن عباس : أنّ المراد التسمية قبل الجماع ^(٣) .

ثم بعد الأمر بالطاعة أمر بالاجتناب عن المعاصي ، بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عقابه في مخالفة أوامره ونواهيه التي من جملتها ما ذكر من الأمور ﴿وَاعْلَمُوا أَنكُم﴾ في الآخرة ﴿مُلاقوه﴾ وترون جزاءه ، فتزودوا ما لا تفتضحوا به عنده ، وفيه بيان علّة وجوب التقوى حيث إنّّه لو لا الثواب والعقاب لكان تحمّل المشقة عبثا.

ثم أردف الوعيد بالوعد بقوله : ﴿وَبَشِّرِ﴾ بثواب يقصر عنه البيان ، وبالكرامة العظيمة عند الله ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يتلقون أوامر الله ونواهيه بحسن القبول والامتثال.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤)

ثم لما أمر سبحانه عباده بالطاعة والتقوى ، ذكر أنّ الحلف بالله على تركهما لا أثر له ولا يكون مانعا عنهما بقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً﴾ ومانعا وحاجزا ﴿لِإِيمَانِكُمْ﴾ ولأجل حلفكم به على ترك عمل برّ من ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾

روي أن بشير بن نعمان الأنصاري كان قد طلق زوجته التي هي اخت عبد الله بن رواحة ، وأراد أن يتزوجها بعد ذلك ، وكان عبد الله قد حلف على أن لا يدخل على بشير ولا يكلمه ، ولا يصلح بينه وبين اخته ، فإذا قيل له في ذلك ، قال : [قد] حلفت بالله على أن لا أفعل ، ولا يحلّ لي إلّا أن أحفظ

(١) تفسير روح البيان ١ : ٣٤٧.

(٢) تفسير الرازي ٦ : ٧٤.

(٣) أيضا.

يميني وأبرّ فيه ، فأُنزل الله تعالى هذه الآية (١) .

وعن بعض العامة : أنّها نزلت في أبي بكر حين حلف أن لا ينفق على مسطح لخوضه في حديث الإفك (٢) .

وعن الصادق عليه السلام في تفسيرها : « إذا دعيت لصلح بين الاثنين فلا تقل : عليّ يمين أن لا أفعل » (٣) .

وقيل : إنّ المراد لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم بإكثار اليمين به (٤) . وعلة هذا التّهيّإرادة أن تبرّوا ، أي تكونوا بارّين متّقين مصلحين بين النّاس حيث إنّ من عرفه النّاس بالبرّ والتّقوى يقبلون قوله في مقام الإصلاح.

عن الصادق عليه السلام : « لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين ، فإنّ الله يقول : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ (٥) الخبر .

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرکم ونيّاتکم.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴿

ثمّ لما ذكر الله تعالى عدم كون الحلف مانعاً عن عمل الخير ، ذكر بعض أحكام الحلف من عدم العقوبة والكفارة على ما يكون منه لغوا وساقطاً عن الاعتبار ، بقوله : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وهو كقول العرب : لا والله ، وبلى والله ، وذلك مروى عن الصادقين عليه السلام (٦) . فإنّه لا يكون معه قصد وعقد في القلب على الحلف ، بل يجري على اللسان على حسب العادة أو بقصد تأكيد الكلام.

وقيل : إنّ حلف الرّجل بالله على شيء يظنّ أنّه صادق فيه ، وليس كذلك (٧) .

وقيل : في وجه تسمية الحلف باليمين : إنّ العرب كانوا إذا حلفوا تصافحوا باليمين. أو أنّ

أحد

(١) تفسير روح البيان ١ : ٣٤٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ٢٢٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٢٦ / ٤٤٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٣٤ .

(٤) جوامع الجامع : ٤٠ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٥٦٧ ، تفسير الصافي ١ : ٢٣٤ .

(٦) مجمع البيان ٢ : ٥٦٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٣٤ .

(٧) تفسير روح البيان ١ : ٣٥٠ .

معاني اليمين : القوّة ، والحالف يتقوّى بحلفه على العمل بما حلف عليه ^(١) .

﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ﴾ الله ويعاقبكم على حنث الحلف في الدّنيا بإيجاب الكفّارة ، وفي الآخرة على تقدير عدم التّكفير بالعذاب ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وانطوت عليه ﴿فَلَوْكُمْ﴾ وضماؤكم من الجدّ به واقترفت من الكذب فيه.

قيل : كسب القلب هو التعمّد ، وكسب اللسان هو الخطأ فيه.

قيل : إنّ المؤاخذة في هذه الآية عقوبة الآخرة. وفي قوله : ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ ^(٢) المؤاخذة بالكفّارة ^(٣) .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ وستار للذنوب ، كثير الإغماض عن العقوبة ، فلا يؤاخذ على يمين اللغو مع كونه ناشئا من عدم المبالاة والتّقصير في التّحفظ ﴿حَلِيمٌ﴾ غير عجول بالعقوبة في مورد استحقاقها غير الصالح للعفو.

في بيان شرائط الإيلاء

ثمّ لما ذكر سبحانه القسمين لليمين ، ذكر حكم نوع خاصّ منه ، وهو حلف الزّوج على ترك وطء زوجته بقوله : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ ويحلفون على التّباعد ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ بترك الجماعه ﴿تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وانتظار انقضائها من زمان الحلف.

﴿فَإِنْ فَاؤُ﴾ ورجعوا عن حلفهم بأن جامعوهنّ قبل انقضاء المدّة مع أداء الكفّارة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمولى ، وستار لمعصية حنثه اليمين وقصده الإضرار بالمرأة إذ الفيء مع الكفّارة توبة له ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا﴾ وقصدوا ﴿الطَّلَاقَ﴾ وطلّقوهنّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالمهم في الطّلاق ولسائر المقالات التي لا يخلو الطّلاق منها عادة ﴿عَلِيمٌ﴾ بضماؤهم وأغراضهم ، وفيه تهديد ووعيد.

قال بعض الفقهاء : يستفاد من الآية وجوب جماعة الزّوج زوجته في أربعة أشهر مرّة ^(٤) .

وفيه : أنّ الاستفادة موقوفة على تقدير المدّة من زمان الجماع لا من زمان الحلف ، أو الرّفْع إلى السّلطان ، وهو خلاف ظاهر الآية والرّوايات.

(١) تفسير روح البيان ١ : ٣٥٠ .

(٢) المائدة : ٥ / ٨٩ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣٥٠ .

(٤) كنز العرفان ٢ : ٢٩٣ .

عن (العياشي) عن الرضا عليه السلام في رواية : « أن أجل الإيلاء أربعة أشهر بعد ما ياتيان السلطان » (١) .

وعن الحلبي ، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال : « أيما رجل آلى من امرأته - والإيلاء : أن يقول : والله لا اجامعك كذا وكذا ، والله لاغيضنك ، ثم يغاضبها - فإنه يترى بها أربعة أشهر ، ثم يؤخذ بعد الأربعة الأشهر فيوقف فإذا فاء - وهو أن يصلح أهله - فإن الله غفور رحيم ، وإن لم يفئ أجبر على الطلاق ، ولا يقع بينهما طلاق حتى يوقف » (٢) .

وعنه عليه السلام قال : « كان أمير المؤمنين عليه السلام يجعل له حظيرة من قصب ويجبسه (٣) فيها ، ويمنع من الطعام والشراب حتى يطلق » (٤) .

وعنه عليه السلام في المولى : « إما أن يفئ أو يطلق ، فإن قبل وإلا ضربت عنقه » (٥) .
وعن الباقر عليه السلام في رواية قال : « لا يكون إيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر » (٦) .

وعن الصادق عليه السلام في رواية : « لا إيلاء (٧) حتى يدخل بها » (٨) .
وعن الرضا عليه السلام قال : سألته عن الرجل يؤلي من أمته ؟ فقال : « لا ، كيف يؤلي وليس لها طلاق ؟ ! » (٩) .

﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَنُغُولْتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾

ثم لما ذكر الله سبحانه الطلاق ، تعرض لبيان بعض أحكامه بقوله : ﴿وَالْمُطَلَّاتُ﴾ من النساء الحرائر المدخول بهن ، غير الحاملات إذا كن ذوات أقرأ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ وينتظرن ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ بأن يحملنها على ترك التزويج ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وهي الأطهار عندنا.
عن أبي جعفر عليه السلام قال : « الأقرأ هي الأطهار » (١٠) .

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٢٧ / ٤٥٠ .

(٢) الكافي ٦ : ١٣٠ / ٢ .

(٣) في النسخة : يحفر له حفيرة من قصب ويجعله .

(٤) الكافي ٦ : ١٣٣ / ١٠ .

(٥) الكافي ٦ : ١٣٣ / ١١ .

(٦) التهذيب ٨ : ٦ / ١٢ ، الاستبصار ٣ : ٢٥٣ / ٩٠٧ .

(٧) في الكافي : لا يقع الإيلاء .

(٨) الكافي ٦ : ١٣٤ / ٢ .

(٩) قرب الإسناد : ٣٦٣ / ١٢٩٩ .

(١٠) الكافي ٦ : ٨٩ / ٤ .

وعنه عليه السلام في رواية أخرى : « القرء ما بين الحيضتين » ^(١) .

وفي التعبير عن الأمر بصيغة المضارع دلالة على تأكيد الوجوب ؛ لأنّ فيه إشعار بأنّ هذا الوجوب ملازم للعمل ، ويكون امتثاله معه ، كما أنّ في تقديم المطلّقات على فعل (يتربّصن) دلالة على قوّة الوجوب.

ثمّ لما كان انقضاء العدة بالأقراء ، ولا يمكن الاطّلاع عليها إلّا من قبل النّساء ، نهان عن كتمانها بقوله : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ﴾ ويخفين ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الحيض والحبل بأن تقول المرأة : لست بحامل ؛ حبّ تعجيل الطّلاق ، حيث إنّ الزّوج إذا علم أنّها حامل يمنعه حبّ الولد عن الطّلاق. أو تقول : لست بحائض ؛ وهي حائض ، لكرهه التّعجيل ، حيث إنّها إذا كانت في طهر الواقعة لا يجوز طلاقها ، ولا بدّ من انتظار حيضها وطهرها بعده ، وقد يكون كتمان الولد حبّ سرعة انقضاء العدة إذا كانت عدّة الوضع أطول من مدّة الأقراء ، وكتمان الحيض لكرهه سرعة الانقضاء ، فتدعي بقاء العدة وتأخير الحيض حتّى يرجع إليها الزّوج.

في حجية قول المرأة في الحمل والحيض والطهر

ثمّ أنّه استدلّ بحرمة الكتمان على حجّة قول النّساء بالنّسبة إلى الحيض والطهر والحمل إثباتاً ونفياً ، ولا شبهة فيها نصّاً وفتوى ، وليس تعليق الحكم على الإيمان بالمبدأ والمعاد في قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لبيان اشتراط حرمة الكتمان به ، بل إنّما هو لزيادة التّرجيب على تركه ، والتّهديد على فعله ، فيكون المفاد أنّ الإيمان مانع عن الكتمان ، وأنّ الكاتمة لا إيمان لها.

ثمّ بيّن الله تعالى الحكم الثاني في الطّلاق بقوله : ﴿وَيُعَوِّلُهنَّ﴾ وهم الأزواج الذين طلقوهنّ رجعيّاً ، كما ينبى عنه التعبير بالبعولة التي هي جمع بعل ، وهو في الأصل المالك للأمر ﴿أَحَقُّ﴾ وأملك ﴿بِرَدِّهنَّ﴾ إلى الزوجيّة بإنشاء الرجوع ، أو بالتمتّعات التي لا تنبغي إلّا للزّوج ، كالقبلة والجماع ﴿فِي ذَلِكَ﴾ الزّمان والأجل المضروب للتربّص ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ الأزواج بالرجوع إليهنّ ﴿إِصْلَاحاً﴾ لما بينهم وبينهنّ ، أو إحساناً إليهنّ ، ولم يريدوا مضارّتهنّ ، وليس هذا الشرط لتأثير الرجوع في عود العلقّة وزوال أثر الطّلاق ، بل للحثّ على الإحسان ، والزّجر عن الإضرار.

﴿وَلَهُنَّ﴾ على أزواجهنّ من الحقوق ﴿مِثْلُ﴾ الحقّ ﴿الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ لأزواجهنّ في تحتم

(١) الكافي ٦ : ٨٩ / ٣.

المحافظة ووجوب الرعاية والحقوق المقررة ملابسات ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المقرّر عند الشرع والعقلاء ، فلا يكلف أحدهما الآخر بما ليس له بحق.

عن ابن عباس : إني لا تزين لامرأتي كما تزين لي ، لقوله تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾^(١) .

﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ﴾ في الحقوق ﴿دَرَجَةٌ﴾ زائدة ، ومرتبة فاضلة ، لكونهم قوامين عليهنّ .
سئل الصادق عليه السلام عن حق المرأة على زوجها . قال : « يشبع بطنها ، ويكسو جثتها ، وإن جهلت غفر لها »^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ما حق الزوج على المرأة ؟

فقال لها : أن تطيعه ولا تعصيه ، ولا تتصدّق من بيته بشيء إلا بإذنه ، ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب^(٣) ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها .

فقالت : يا رسول الله من أعظم الناس حقاً على الرجل ؟ قال : والداه .

قالت : فمن أعظم الناس حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها .

قالت : فما لي من الحق عليه مثل ماله عليّ ؟ قال : لا ، ولا من كلّ مائة واحدة .

فقالت : والذي بعثك بالحق نبياً لا يملك رقبتي رجل أبداً »^(٤) .

وفي حديث : « جهاد المرأة حسن التبعل »^(٥) .

﴿وَاللَّهُ غَزِيرٌ﴾ وغالب على خلقه ، لا يعجز عن الانتقام ممّن خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يشرّع الأحكام على طبق الصّلاح .

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

(١) تفسير الرازي ٦ : ٩٤ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٧٩ / ١٣٢٧ ، تفسير الصافي ١ : ٢٣٦ .

(٣) القتب : الرّحل الصغير يوضع على سنام البعير .

(٤) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٧٦ / ١٣١٤ ، الكافي ٥ : ٥٠٦ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٣٧ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٣٥٥ .

يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا
وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ
حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ
يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) ﴿

ثم لما ذكر الطلاق الرجعي ، بين عدده بقوله : ﴿الطَّلَاقُ﴾ الرجعي الذي للزوج حق الرد في
عدته ﴿مَرَّتَانِ﴾ ودفعتان لا أزيد ، وفيه دلالة على عدم وقوع الطلقتين دفعة ، بل لا بد من التفريق
فيهما.

في حديث ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال له : « إِنَّمَا السِّنَّةُ أَنْ تَسْتَقْبَلَ الطَّهْرَ اسْتِقْبَالًا
فِيَطْلُقُهَا بِكُلِّ طَهْرٍ تَطْلِيْقَةٌ » (١) وبه وردت روايات أهل البيت عليه السلام من طرق أصحابنا ، وفيه أيضا
دلالة على شرعية الرجوع لأن طلاق المطلقة غير متصور عقلا.

قيل : كان الرجل في الجاهلية يطلق المرأة (٢) ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ، ولو طلقها
ألف مرة كانت القدرة على المراجعة ثابتة له ، فجاءت امرأة إلى عائشة ، فشكت أن زوجها يطلقها
ويرجعها ويضارها بذلك ، فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ (٣) لا يزيد
الرجل عليهما ، وأن يؤدي جميع حقها ولا يذكرها بسوء.

ثم إذا أوقع التطلعتان ، يكون الواجب على الزوج أحد الأمرين :
أحدهما : ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿فَإِمْسَاكِ﴾ للزوجة وأخذ بعلاقة الزوجية بالرجوع إليها
مقرونا ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وحسن العشرة ، ولطف السيرة ، والالتزام بحقوق الزوجية.

وثانيهما : ما ذكره بقوله : ﴿أَوْ تَسْرِيحٍ﴾ وإرسال مقرون ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ بان لا يراجعها حتى
تنقضي عدتها ، ويحتمل أن يراد منه التطليقة الثالثة ، كما روي عن النبي ﷺ سئل : أين الثالثة ؟
فقال ﷺ : « أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ » (٤) .

قيل : إن المراد منه أن لا يضربها حتى تبذل شيئا وتفدي نفسها.
ثم بين الحكم الرابع بقوله : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا﴾ بعوض الطلاق أو
لسائر الأسباب ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ وأعطيتموهن بعنوان الصداق أو غيره ﴿شَيْئًا﴾ قليلا أو كثيرا
﴿إِلَّا﴾

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٠ .

(٢) في تفسير الرازي : يطلق امرأته.

(٣) تفسير الرازي ٦ : ٩٦ .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ١٢٢ .

بسبب ﴿أَنْ يَخَافَا﴾ الزوجان ﴿أَلَّا يَقِيمَا﴾ ولا يرعيا ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ وحقوقه التي جعلها فيما بينهما من وظائف الزوجية ، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

في طلاق الخلع وجملة من أحكامه

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكماء من الزوجين ﴿أَلَّا يَقِيمَا﴾ ولا يرعيا ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ من حقوق الزوجية وأحكامها الواجبة ، بأن أظهرت الزوجة البذاء وسوء الخلق والتعدي في القول ، بأن تقول له : لا أبرّ لك قسما ، ولا اطيع لك أمرا ، ولأوطئن فراشك من تكرهه وغير ذلك ، فيخاف من الزوج التعدي عليها وإيذاؤها وحصل من الزوجة أيضا خوف التعدي بظهور الكراهة منها لزوجها وهو أمانة قوية موجبة لخوف الفتنة ، فإذا كان ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأس ﴿عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ﴾ الزوجة ﴿بِهِ﴾ من نفسها ليطلقها زوجها ، وفي أخذ الزوج منها الفداء بعوض طلاقها [سواء أ كان الفداء مساويا للصدّاق أو أزيد منه أو أنقص.

روي أنّ هذه الآية نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبيّ ، وفي زوجها ثابت بن قيس بن شماس ، وكانت تبغضه أشد البغض ، وكان يحبّها أشدّ الحبّ ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : فرّق بيني وبينه فإنّي أبغضه ، ولقد رفعت طرف الخباء فرأيتّه يجيء في أقوام ، فكان أقصرهم قامّة وأقبحهم وجها ، وأشدّهم سوادا ، وإنّي أكره الكفر بعد الإسلام.

فقال ثابت : يا رسول الله ، مرها فلتردّ عليّ الحديقة التي أعطيتها. فقال لها : « ما تقولين ؟ » قالت ، نعم وأزيد. فقال ﷺ : « لا ، حديقته فقط » . فقال : لثابت : « خذ منها ما أعطيتها وحلّ سبيلها » ففعل ، وكان ذلك أوّل خلع في الإسلام ^(١) .
وفي رواية : أنّ المرأة كانت حفصة بنت سهل الأنصارية ^(٢) .

وعن (العياشي) عن الصادق عليه السلام في المختلعة ، قال : « لا يحلّ خلعهما حتّى تقول : والله لا أبرّ لك قسما ، ولا اطيع لك أمرا ، ولا واطئن فراشك ، ولأدخلنّ عليك بغير إذنك ، فإذا هي قالت ذلك حلّ خلعهما وحلّ [له] ما أخذ منها من مهرها وما زاد ، وهو قوله تعالى : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فإذا فعلت ^(٣) ذلك فقد بانّت منه بتطليقة ، وهي أملك بنفسها ، إن شاءت نكحته ، وإن شاءت فلا ، فإن نكحته فهي عنده على ثنتين » ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٦ : ١٠٠ .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ١٠٠ .

(٣) في المصدر : وإذا فعل.

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٣٢ / ٤٧٠ .

عن النبي ﷺ قال : « ومن أضرّ بامرأته حتّى تفتدي منه نفسها ، لم يرض الله له بعقوبة دون النار ، لأنّ الله يغضب للمرأة كما يغضب لليتيم » .

إلى أن قال : « وأما امرأة خلعت من زوجها لم تنزل في لعنة الله وملائكته [ورسله] والناس أجمعين حتّى إذا نزل بها ملك الموت قال لها : أبشري بالنار . فإذا كان يوم القيامة قيل لها : ادخلي النار مع الدّاخلين ، ألا وإنّ الله ورسوله بريئان من المختلعات بغير حقّ ، ألا وإنّ الله ورسوله بريئان ممّن أضرّ بامرأته حتّى تخلع منه » ^(١) .

في حرمة أخذ العوض للطلاق مع عدم كراهة الزوجة

ثمّ أنّ ظاهر الآية وكثير من الروايات حرمة أخذ العوض للطلاق على الزوج ، وعدم صحّة طلاق الخلع مع عدم كراهة الزّوجة ؛ ومع ذلك ذهب بعض الأصحاب إلى جواز الطّلاق بالعوض مع عدم تحقّق شرائط الخلع والمباراة لوجوه لا ينبغي أن يعتمد عليها ؛ لكونها اجتهدا في مقابل النصّ.

فعلى هذا يكون نفي الجناح في الآية عن الزوج والزوجة باعتبار أنّ الزّوج عند خوف الفتنة يحلّ له أخذ الفدية ، ولا بأس عليه فيه ، ويصحّ طلاق الزوجة خلعا ، ولا بأس عليها بالتزوّج بالغير .
و﴿ تِلْكَ ﴾ الأحكام ﴿ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ التي يجب رعايتها ، والمحافظة عليها ، والعمل بها ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ أيّها المؤمنون بالرفض وعدم المحافظة .

ثمّ أتبع النهي بالتوعيد بقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ ﴾ ويتجاوز ﴿ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ وأحكامه ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ المتعدّون ﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أنفسهم بتعريضها لسخط الله وعذابه .

في حرمة المرأة المطلقة ثلاثا على زوجها إلّا بعد المحلل وجملة من أحكامه

ثمّ بيّن الله تعالى الحكم الخامس من أحكام الطّلاق بقوله : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ ثالثة ، وهو اختيار التّسريح بالإحسان بعد التّخيير بينه وبين الإمساك ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ ﴾ المرأة المطلقة بالرجوع أو بالعقد ﴿ مِنْ بَعْدُ ﴾ الطّلاق الثّالث . هذا إذا كانت المطلقة حرة ، وأمّا إذا كانت أمة فمقتضى الروايات أنّها بعد الطّلاق الثّاني لا تحلّ ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ ﴾ وتتزوّج تلك المرأة ﴿ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ وتذوق عسيلته ^(٢) ، لما روي أنّ امرأة رفاعة ^(٣) قالت لرسول

(١) عقاب الأعمال : ٢٨٥ و ٢٨٧ .

(٢) العسيلة : تصغير العسل ، قطعة منه ، والمراد لذّة الجماع ، والتّصغير إشارة إلى القدر القليل الذي يحصل به الحلّ .

(٣) هي عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك زوجة رفاعة بن وهب بن عتيك ، وهو ابن عمها . اسد الغابة ٢ : ١٨٥ .

الله ﷺ : إِنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَنِي فَبِتَّ طَلَاقِي ^(١) ، وَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّيْبِرِ تَزَوَّجَنِي ، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هَدْبَةِ الثَّوْبِ ^(٢) فَقَالَ ﷺ : « أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ » قَالَتْ : نَعَمْ . قَالَ ﷺ : « إِلَّا أَنْ تَذُوقِي عَسِيلَتَهُ ، وَتَذُوقِي عَسِيلَتَكَ » ^(٣) .

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام في الرجل يطلق امرأته الطلاق الذي لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، ثم تزوج رجلا ^(٤) ولم يدخل بها . قال عليه السلام : « لا ، حتى يذوق عسيلتها » ^(٥) . وفي التعبير عن الجماع بذوق العسيلة دلالة على اعتبار الوطء في القبل لعدم كون الوطء في الدبر ذوق العسيلة .

قيل : إِنَّ اشتراط الوطء يستفاد من لفظ التكاك الموضوع للوطء ، والعقد يستفاد من إسناده إلى الزوج ^(٦) .

وعن (الكافي) : عنه ﷺ أَنَّهُ سئل عن رجل طلق امرأته طلاقا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره وتزوجها رجل متعة . أيجل له أن ينكحها ؟ قال : « لا ، حتى تدخل في مثل ما خرجت منه » ^(٧) .

وفي رواية أخرى : « المتعة ليس فيها طلاق » ^(٨) ففيها دلالة على أن اشتراط الدوام في عقد المحلل مستفاد من قوله : « فَإِنْ طَلَّقَهَا » الزوج الثاني المحلل وانقضت عدتها « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » أي الزوج الأول والمرأة « أَنْ يَتَرَاجَعَا » بالعقد الدائم ، أو الانقطاع « إِنْ طَنَّا » وحسبا « أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » التي وجب رعايتها من حقوق الزوجية « وَتِلْكَ » الأحكام المبينة « حُدُودَ اللَّهِ » وشرائعه المعينة التي يحفظها من التغيير والمخالفة ، وهو بذاته المقدسة « بَيِّنُهَا » ويوضحها « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » حسن الطاعة ، وقبح المعصية ، ويعقلون أن في العمل بأحكام الله خير الدنيا والآخرة ، فإنهم المنتفعون بها ، وإن كانت الأحكام عامة .

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا
تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ

(١) البت في الطلاق : هو تطبيق الزوجة طلاقا لا رجعة فيه .

(٢) هدبة الثوب : طرفه الذي لم ينسج ، تريد أنه لا يملك شيئا .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ١٢٣ .

(٤) في المصدر : تزوجها رجل آخر .

(٥) الكافي ٥ : ٤٢٥ / ٤ .

(٦) تفسير أبي السعود ١ : ٢٢٧ .

(٧) الكافي ٥ : ٤٢٥ / ٢ .

(٨) التهذيب ٨ : ٣٤ / ١٠٣ .

وَالْحِكْمَةُ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

ثمَّ أنه لما كان الإضرار بالمرأة الضعيفة من القبائح السخيفة - ومن أقسام الإضرار : أن يطلق ثمَّ يعبر عليها ^(١) حتى إذا بلغت العدة آخرها راجعها ، ثمَّ يطلقها ، فتكون مدة عدّة الطلقات الثلاث ما يقرب من تسعة أشهر - نهى الله تعالى عنه ، وكرّر التخيير السابق توطئة للزجر عنه ، بقوله : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ﴾ وما يقرب آخر عدّتهن فأنتم بالخيار ، فإذا أحببتم إمساكنهن ومراجعتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ مقرونا ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ والإحسان إليهنّ غير مضارين بهنّ ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ وخلوهنّ على حالهنّ متلبّسين ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وإيصال نفع وخير . وهذا التعليق لبيان لزوم مراعاة الصّلاح في تحديد العقد ، لا لبيان اشتراط الصّحة به .

في حرمة الاضرار بالزوجة

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ ولا ترجعوا إليهنّ لتضارهنّ من غير رغبة فيهنّ بل ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ وتظلموا ، وتتجاوزوا عليهنّ بالتضييق في المعيشة وسوء المعاشرة وتطويل العدة .
عن (الفقيه) : سئل الصادق عليه السلام عن هذه الآية فقال : « الرجل [يطلق] حتى إذا كاد أن يخلو أجلها [راجعها] ثمَّ يطلقها ، يفعل ذلك ثلاث مرات ، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك » ^(٢) الخير .

قيل : نزلت في ثابت بن يسار الأنصاري ، طلق امرأته ، حتى إذا قرب انقضاء عدّتها راجعها ، ثمَّ طلقها بقصد مضارّتها ^(٣) .

ثمَّ لشدة الاهتمام بترك الإضرار ، عقّب الله النهي بالتهديد بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الإضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ﴾ وأضرّ ﴿نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لسخط الله وعذابه ، وبتفويت المنافع الدنيويّة والاخرويّة عليها .

ثمَّ بالغ سبحانه في التهديد على الإضرار وترك مراعاة الحقوق الواجبة بقوله : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ سواء كانت متضمّنة الأحكام أو غيرها ﴿هُزُوءًا﴾ ولعبا ؛ بأن تكونوا مستخفّين بها متهاونين فيها ، معرضين عنها . فإنّ أشقى الأشقياء المتجرّئون على الله ، المستخفّون بأحكامه .
روي أنّه كان الرّجل في الجاهليّة يطلق ويقول : طلّقت وأنا لاعب ، ويعتق وينكح ويقول مثل ذلك .

(١) كذا ، والعبارة غير واضحة ، والذي في أكثر التفاسير : ثمَّ يمسك عنها .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٢٣ / ١٥٦٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣٦٠ .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقرأها رسول الله ﷺ ، قال : « من طلق ، أو حرّر ، أو نكح ، فزعم أنه لاعب ، فهو جدّ » (١) .

ثم بعد المبالغة في التهديد ببيانات مختلفة رغبهم في الطاعة بتذكير نعمه بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي أنعمها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فإن من أتمها وأكملها هدايتكم إلى ما فيه صلاحكم في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ بركة النبي الأُمِّي ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ المجيد ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ من العلوم النظرية والمعارف وكشف الحقائق ، والعلوم العملية من الأحكام والأخلاق ، لأن ﴿يُعْظَمُ بِهِ﴾ ويؤدّ بكم بآدابه. فقابلوا نعمه بالشكر ، وأطيعوا أحكامه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروه في مخالفته وعصيانته ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مصالحكم ومفاسدكم ، وأعمالكم وتبّاتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية ، فيجازيكم بما تستحقّون. وهذا تهديد فوق التهديدات السابقة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾

ثم بيّن الله تعالى الحكم السادس من أحكام الطلاق ، وهو حكم طلاق المرأة بعد انقضاء عدّتها بقوله : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أيّها المؤمنون ﴿وَالْأَزْوَاجَ﴾ ، بأن وقع الطلاق من بعض - وهذا من باب نسبة الفعل إلى القبيلة بوقوعه من أحدهم - ﴿فَلَبُغْنَ﴾ واستوفين ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ المضروب لعدّتهنّ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ ولا تمنعهنّ من ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ﴾ ويتزوّجن ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الذين طلقوهنّ.

فيكون حاصل المعنى ، والله العالم : إذا صدر من أحدكم طلاق ، فلا يصدر من أحدكم منع عن التزوّج بأزواجهنّ ظلماً ﴿إِذَا﴾ كان الزوجان ﴿تَرَاضَوْا﴾ بالمواصلة ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ ملابسين ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمستحسن عند الشرع بإيقاع العقد وحفظ شرائط الصحة ورعاية الأحكام والحقوق. وروي أنّ معقل بن يسار زوج اخته جميل بن عبد الله بن عاصم ، فطلقها ثم تركها حتى انقضت عدّتها ، ثم ندم فجاء يخطبها لنفسه ، فرضيت المرأة بذلك ، فقال لها معقل : إنّه طلقك ثم تريدن

(١) تفسير الرازي ٦ : ١١٠ .

مراجعته ، وجهي من وجهك حرام إن راجعته. فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فدعا رسول الله ﷺ معقل بن يسار وتلا عليه هذه الآية ، فقال [معقل] : رغم أنفي لأمر ربي ، اللهم رضيت وسلّمت لأمرك. وأنكح اخته زوجها (١) .

وروي أنّ جابر بن عبد الله كانت له بنت عمّ ، فطلقها زوجها وأراد رجعتها بعد العدة ، فأبى جابر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وكان جابر يقول : فيّ نزلت هذه الآية (٢) .

ويحتمل أن يكون المراد من التّراضي بالمعروف ، هو التراضي بما فيه الصّلاح ، فإذا تراضوا على شروط يكون للمرأة فيها فساد ، فليس منع الولي عن التزويج منهيّا.

﴿ذَلِكَ﴾ النّهي ممّا ﴿يُوعَظُ﴾ ويرتدع ﴿بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإنّ من كان من أهل الإيمان ينتفع وينتهي به ، وفيه تهديد مؤكّد للنّهي.

ثمّ أتبعه بالترغيب على الطّاعة بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ العمل بحكم الله ﴿أَرْكَى لَكُمْ﴾ وأثر في تهذيب نفوسكم من الأخلاق الرّذيلة ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم من أدناس الآثام ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ﴾ ما به تركية نفوسكم وتطهير قلوبكم ﴿وَأَنْتُمْ﴾ لقصور عقولكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولا تدركون نتائج الأعمال ومقتضيات الأفعال.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان جملة من أحكام الطّلاق ، بيّن بعض أحكام الأولاد ، لمناسبة أنّه قد يقع التّشاجر بين الزّوج والزّوجة فيهم ، فإنّه قد يريد الزّوج أن يأخذ الولد من الزّوجة ، أو يريد أن يرضعه مجّانا وبلا اجرة ، وقد تريد الزّوجة الاستنكاف عن إرضاع الولد بغضا لزوجها ، أو تريد إلزام الزّوج

(١) تفسير الرازي ٦ : ١١١ .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ١١١ .

بإعطاء الزائد على ما هو المعروف من الأجر.

فبين الله تعالى أنه ليس للزوج أخذ الرضيع من أمه بقوله : ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ [سواء أ [كنّ مزوجات أو مطلّقات ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وجوبا إن توقفت حياتهم على إرضاع الوالدات ، كأن لم تكن مرضعة أخرى ، أو لم يأخذوا ثدي غيرها ، أو كان لبن غيرها مضرّا. أو جوازا في غير الصّور [المذكورة] مع حقّ الأولوية لهنّ ، فلا يجوز للزوج أخذ الولد منهنّ ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ تامين بالتدقيق ، لا على المسامحة والتّصرف.

هذا ﴿لَمَنْ أَرَادَ﴾ من الوالد والوالدة ﴿أَنْ يُتِمَّ﴾ ويكمل ﴿الرَّضَاعَةَ﴾ إذ تمام الحولين أقصى مدّة الرضاع ، ويجوز أنقص منهما.

وروي أنّه : « ما نقص عن أحد وعشرين [شهرا] فهو جور على الصّبي » ^(١) .
وروي عن ابن عباس : « أنّ هذا الحدّ ليس لكلّ مولود ، ولكن لمن ولد لستّة أشهر ، وإن ولد لسبعة [أشهر] فثلاثة وعشرون ، وإن ولد لتسعة [أشهر] فأحد وعشرون شهرا ^(٢) . فإن لم يردن تكميل الرضاع فليس للآباء إلزامهنّ على الارضاع في تمام الحولين » .
في (الكافي) عن الصادق عليه السلام : « لا تجبر الحرّة على إرضاع الولد ، وتجبر أمّ الولد ^(٣) .
وعن النّبي ﷺ : « ليس للصّبيّ لبن خير من لبن أمّه » ^(٤) .
وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « ما من لبن ارضع ^(٥) به الصّبيّ أعظم بركة [عليه] من لبن أمّه » ^(٦) .

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ عبّر به عن الوالد للإشارة إلى أنّ الولد للوالد ، والامّ وعاء ، وتجب نفقته عليه ، وأجر إرضاعه هو ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ ومأكلهنّ ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ وملبوسهنّ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بين النّاس ممّا يناسب حال المرأة.

ثمّ لما كان مجال أن يقال : لم لم تجب مؤنة الأمّهات على أنفسهنّ ولم قيّد إيجاب الإنفاق على الوالد بكونه بالمعروف ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ﴾ من كلّ من الوالدين الاخرى ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وما يسهل تحمّله عليها ، فإنّ إلزام الامّ على مؤنة نفسها ، مع ضعفها وعدم قدرتها على

(١) مجمع البيان ٢ : ٥٨٦ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٥٨٦ .

(٣) الكافي ٦ : ٤٠ / ٤ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٣٤ / ٦٩ .

(٥) في الكافي : يرضع .

(٦) الكافي ٦ : ٤٠ / ١ .

التكسب ، إلزام بما هو خارج عن وسعها.

وكذا إلزام الأب على الإنفاق ، فوق حدّ المعروف ، إلزام بما هو خارج عن وسعها ، ولعلّه للإشارة إلى ذلك قال : ﴿لَا تُضَارَّ الْوَلَدُ وَالِدًا﴾ والدا ﴿يُولَدُهَا﴾ بأن تطلب منه ما ليس بعهد من الرزق والكسوة ، أو تمتنع زوجها من نفسها مخافة الحمل ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ﴾ والدة بولده بأن يأخذ الولد منها ، أو يمنعها شيئاً من حقّها ﴿يُولَدُهُ﴾

وقيل : إنّ المعنى أنّه لا يجوز أن يغيظ أحدهما صاحبه بسبب الولد ، مثل أن ينزع الأب الولد من أمّه مع رغبتها في إمساكه ، أو يضيق عليها في الرزق والكسوة ، أو تطلب منه الموافقة ويتمنع عليها ، وإضرار الأمّ على الأب مثل أن تمتنع من إرضاعه غيظاً على الأب وتلقيه إليه ، أو تطلب منه فوق العدل والمعروف ، أو تمتنع من التمكين للزوج.

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام ، سئل عن هذه الآية ، فقال : « كانت المراضع تدفع إحداهنّ الرجل إذا أراد الجماع ، تقول : لا أدعك إنّي أخاف أن أحبل ، فأقتل ولدي هذا الذي ارضعه. وكان الرجل تدعوه المرأة ، فيقول : أخاف أن اجامعك فأقتل ولدي ، فيدعها فلا يجامعها. فهى الله تعالى عن ذلك أن يضارّ الرجل المرأة ، والمرأة الرجل » (١) .

وعنه عليه السلام : « إذا طلق الرجل امرأته وهي حبلى ، أنفق عليها حتى تضع حملها ، فإذا أرضعته أعطّاها أجرها ولا يضارّها ، إلّا أن يجد من هو أرخص أجراً منها ، فإن رضيت بذلك الأجر فهي أحقّ بابنها ، حتى تفتطمه » (٢) الخبر.

ثمّ بيّن الحكم بعد موت الأب بقوله : ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ من الوالد ، يجب ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الرزق والكسوة الواجبين على الأب من نصيب الولد من تركته أبيه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قضى في رجل توفّي وترك صبيّاً ، واسترضع له : « أنّ أجر رضاع الصبيّ ممّا يرث من أبيه وأمّه » (٣) .

وعن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام ، في قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ « أنّه نهى أن يضارّ بالصبيّ ، أو تضارّ أمّه في رضاعه. وليس لها أن تأخذ في رضاعة فوق حولين كاملين » (٤) .

(١) الكافي ٦ : ٤١ / ٦ .

(٢) الكافي ٦ : ١٠٣ / ٢ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٠٩ / ١٤٨٧ .

(٤) الكافي ٦ : ١٠٣ / ٣ .

وعنه عليه السلام ، أنه سئل عنه فقال : « لا ينبغي للوارث أن يضارَّ المرأة ، فيقول : لا أدع ولدها يأتيها ، ويضارَّ ولدها ، إن كان لهم عنده شيء ، فلا ينبغي [له] أن يقتّر عليه » ^(١) . ويحتمل أن يراد من الوارث وارث الرضيع من رحمه الذي تحب عليه نفقته.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ وفطاما عن الرضاع ، قبل الحولين - كما روي عن الصادق عليه السلام ^(٢) - صادرا ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ مبني على صلاح الولد ، كائن ﴿مِنْهُمَا﴾ لا من أحدهما ، ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ كامل من كلٍّ مع الآخر ؛ لأنَّ الأب وليَّ والأم شقيقة ، أو تشاورهما مع أهل التجارب ، واستجماع الآراء على صلاح فطام الولد ، وعدم تضرره به ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في الفطام ، فإنه قد يتفق أن تملَّ الأم من الرضاع ، والأب من إعطاء الأجر ، فيتوافقان على الفطام ، مع كونه ضررا على الولد ، ولكن قلما يتفق هذا لرأفتهما على الولد ، سيما مع المشاورة مع أرباب التجارب ، فينسد باب احتمال الضرر على الولد.

قيل : يفهم من هذه الشرائط أنَّ رعاية الله تعالى للضعفاء أكثر ، وعنايته بهم أشدّ ، ورحمته عليهم أوفر.

ثمَّ أنه تعالى لما أمر الوالدات أن يرضعن أولادهنَّ ، أوهم أنه لا يجوز استرضاع غيرهنَّ مطلقا ، حتى مع رضا الامِّ ، أو تعذّره عليها ، لانقطاع اللبن وأمثاله ، فأزال التوهم بقوله : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ أيها الآباء ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا﴾ المراضع ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ وتستأجروا لإرضاعهم عند سقوط حقِّ أولوية الامِّ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثمٌ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في استرضاع غير الأمِّ ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إلى المرضعة ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ وأعطيتُم للوالدات ، أو ما ألزمتُم وشرطتم إعطائه للمرضعات مقرونا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ والوجه المتعارف المستحسن شرعا.

وليس التسليم هنا شرطا لجواز الاسترضاع ، بل الغرض من التعليق التنبيه على أنَّ المرضعة ينبغي أن تكون طيبة النَّفس حتى تقبل الطفل بقلبها وتراعي مصلحته حقَّ المراجعة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « انظروا من ترضع أولادكم ، فإنَّ الولد يشبَّ عليه » ^(٣) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « لا تسترضعوا الحمقاء والعمشاء » ^(٤) ، فإنَّ اللبن يعدي » ^(٥) .

ثمَّ حثَّ سبحانه على العمل بما شرع في أمر الأطفال والمراضع بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٣٧ / ٤٨٧ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٥٨٨ .

(٣) الكافي ٦ : ٤٤ / ١٠ .

(٤) العمشاء : هي الضعيفة البصر .

(٥) عيون أخبار الرضا ٢ : ٣٤ / ٦٧ .

عقابه في التّهاون في ما شرع من أحكام الأولاد والمراضع.
ثم أردفه بالتهديد بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾

ثم أنه تعالى بعد ما ذكر عدّة المطلقة ، وأنها ثلاثة قروء بين عدّة المتوفى عنها زوجها بقوله :
﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ وتقبض أرواحهم بالموت ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون من بعدهم ﴿أَزْوَاجًا﴾
كبيرات أو صغيرات ، حائلات أو حاملات - إذا وضعن قبل المدّة - دائمات أو منقطععات على
قول ، حرائر أو إماء على المشهور المنصور ، مدخولا بهنّ أو غير مدخول بهنّ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ويمتنعن
عن التزويج ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ ويعتددن ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ من زمان العلم بالموت ، أو بلوغ خبره.
عن (العياشي) : عن الصادق عليه السلام : « لما نزلت هذه الآية ، جئن النساء يخاصمن رسول
الله ﷺ ، وقلن : لا نصبر. فقال لهنّ رسول الله ﷺ : كانت إحداكنّ إذا مات زوجها أخذت
بكرة فألقته خلفها في دويرها (١) ثمّ قعدت ، فإذا كان مثل ذلك اليوم من الحول أخذتها ففتّتها ، ثمّ
اكتحلت بها ، ثمّ تزوّجت. فوضع الله عنكنّ ثمانية أشهر » (٢) .

عن الصادق عليه السلام : « لأنّ حرقة المطلقة تسكن في ثلاثة أشهر ، وحرقة المتوفى عنها [زوجها
[لا تسكن إلّا في أربعة أشهر وعشرا » (٣) .

وقيل : إنّ الحكمة في هذا التقدير أنّ الجنين في الغالب يتحرّك لثلاثة أشهر إن كان ذكرا ،
ولأربعة أشهر إن كان انثى ، فأعتبر أقصى الأجلين ، وزيد عليه العشر استظهارا ، وربما (٤) تضعف
حركته في البادئ فلا يحسّ بها (٥) .

(١) زاد في المصدر : في حدرها.

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٣٧ / ٤٨٩ .

(٣) علل الشرائع : ٥٠٨ / ٢ .

(٤) في تفسير البيضاوي : إذ ربما .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ١٢٦ .

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾ النساء ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ المضروب لعدتهن ، وانقضت المدة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾
 أيها المؤمنون ، والأولياء ، والحكام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التزيين والتزويج إذا كان
 ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المقرر في الشرع ، وليس لأحد منعها من التعرض للتزويج ، وسائر محرمات المعتدة
 ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ
 عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا
 وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
 أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ
 النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ
 وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ
 أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ
 بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧)

ثم بيّن الله تعالى بعض أحكام عدّة البائنة بقوله : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ﴾ ولوّحتم
 ﴿بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المعتدات ، وطلب نكاحهنّ .

في جواز التعرض بالنكاح في العدّة

وحاصل الآية - والله العالم - أنّه لا بأس بإظهار الميل إلى نكاح المعتدات في عدتهنّ ،
 بالإشارة من غير صراحة ، كأن يقول لها : إنك جميلة ، أو صالحة ، وإني راغب إلى نكاح امرأة
 متّصفة بصفة كذا ، ويذكر بعض صفاتها ، وأمثال ذلك ممّا يؤهم أنّه راغب إلى نكاحها ، ولا يصريح
 بالنكاح .

﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ﴾ وأضمرتم ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وقلوبكم من التصميم على تزويجهنّ ﴿عَلِمَ اللَّهُ
 أَنَّكُمْ﴾ لا محالة ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ وتنطقون برغبتكم في نكاحهنّ لماهنّ أو جمالهنّ ، ولا تصبرون على
 السكوت وعدم إظهار الرغبة فيهنّ ، لخوف أن يسبق إليهنّ غيركم ، وفيه تعريض على ضعف
 نفوسهم ، وقلة ثباتهم .

فإذا كان الأمر كذلك ، فاذكروهنّ بالتعريض والتلويح ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ﴾ في مكان ﴿سِرًّا﴾ للتصريح بالخطبة ، ولا يصدر منكم شيء في الموعد ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا﴾ فيه لهنّ ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ لا ينكره الشرع ، وهو التعريض بالنكاح.

عن الصادق عليه السلام ، أنه سئل عن هذه الآية : ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ فقال : « هو الرجل يقول للمرأة قبل أن تنقضي عدتها : أواعدك بيت آل فلان ، ليعرض لها بالخطبة. فعنى بقوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ التعريض بالخطبة » ^(١).

نقل أنّ الرجل كان يدخل على المرأة وهو يعرض بالنكاح ، فيقول لها : دعيني اجامعك ، فإذا أتممت عدتك أظهرت نكاحك ، فإنه تعالى نهي عن ذلك ^(٢).

ثمّ نهي الله تعالى عن إيقاع عقد النكاح بنحو أبلغ بقوله : ﴿وَلَا تَعْزِمُوا﴾ ولا تقصدوا ، أو لا تواجهوا ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ ورابطته وعلاقته ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ﴾ وهو العدة المكتوبة ﴿أَجَلُهُ﴾ وآخره ، فإذا بلغ فلا بأس في إيجاب العقد.

ثمّ أردف النهي بالتهديد بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وقلوبكم من نيات السوء ﴿فَاخْذَرُوهُ﴾ في مخالفة سرّاً وعلانية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ في مورد المغفرة ﴿حَلِيمٌ﴾ في مورد العقوبة ، لا يعجل بها ، فلا تغتروا بتأخيرها.

في أنّ المطلقة ليس لها مهر إذا طلقت قبل الدخول ، وإنّما يجب إمتاعها بشيء ثمّ أنّه تعالى بعد ما بيّن جملة من أحكام المطلقة ، المدخول بها ، المسمّى لها المهر ، ذكر حكم المطلقة التي لم يدخل بها ، ولم يسم لها مهر ، بقوله : ﴿لَا جُنَاحَ﴾ ولا تبعة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من حيث المهر ، بل ولا من جهة الانتظار والترقب بالأطهار ، فإنّ غير المدخول بها تطلق على كلّ حال ﴿إِنْ طَلَّقْتُمْ﴾ وفارقتن ﴿النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ومن قبل أن تجامعهنّ ﴿أَوْ تَفْرِضُوا﴾ أي إلا أن تقدروا وتسموا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةٌ﴾ ومهراً مقدّراً في ضمن العقد.

والحاصل : أنّه لا تستحقّ الزوجة المهر إلاّ باشتراط المهر في العقد ، أو بالدخول مع عدم الاشتراط ، فإن اشترط وطلق قبل الدخول بها فلها النصف ، وإن لم يشترط ودخل بها فمهر المثل. هذا ممّا اتّفق عليه النصّ والفتوى.

(١) الكافي ٥ : ٤٣٤ / ١.

(٢) تفسير الرازي ٦ : ١٣٢.

ثم أنه تعالى بعد نفي استحقاق المهر ، أثبت لمن حق المتعة وجوبا بقوله : ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ بشيء من أموالكم وأعطوهن منها ما ينتفعن به .

في رواية عن الباقر عليه السلام : « فَإِنَّهُنَّ يَرْجِعْنَ بِكَأَبَةِ وَحَرَقَةٍ ^(١) وَهَمَّ عَظِيمٌ وَشِمَاتَةٌ مِنْ أَعْدَائِهِنَّ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي ، وَيُحِبُّ أَهْلَ الْحَيَاءِ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ أَشَدُّكُمْ إِكْرَامًا لِحُلَائِلِهِمْ » ^(٢) .
وعن الصادق عليه السلام : « أَنَّ مَتْعَةَ الْمَطْلُوقَةِ فَرِيضَةٌ » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام ، أنه سئل عن الرجل يريد أن يطلق امرأته قبل أن يدخل بها ، قال : « يَمْتَعُهَا قَبْلَ أَنْ يَطْلُقَهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ الْآيَةُ » ^(٤) .

وهذه المتعة واجبة ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ﴾ والغني الذي هو في سعة من المال ﴿قَدْرُهُ﴾ وحد سعة ﴿وَعَلَى الْمُفْتِيرِ﴾ والفقير ﴿قَدْرُهُ﴾ ووسعه ، وعلى قدر حاله ﴿مَتَاعاً﴾ أي تمتيعاً مقروناً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وبالوجه الذي تستحسنه الشريعة والمروءة .

وهذا التمتع بحق ﴿حَقًّا﴾ ويفرض فرضاً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على أنفسهم بفعل الطاعات ، واجتناب المعاصي .

عن (فقه الرضا عليه السلام) : « يَمْتَعُهَا بِشَيْءٍ قَلٍ أَوْ كَثْرٍ ، عَلَى قَدْرِ يَسَارِهِ ، فَالْمَوْسِعُ يَمْتَعُ بِخَادِمٍ أَوْ دَابَّةٍ ، وَالْوَسْطُ بِثَوْبٍ ، وَالْفَقِيرُ بِدِرْهَمٍ أَوْ خَاتَمٍ » ^(٥) .

وعن (الفقيه) ، روي أَنَّ الْغَنِيَّ يَمْتَعُ بِدَارٍ أَوْ خَادِمٍ ، وَالْوَسْطُ بِثَوْبٍ ، وَالْفَقِيرُ بِدِرْهَمٍ أَوْ خَاتَمٍ ^(٦) .

وروي أَنَّ أَذْنَاهُ الْخِمَارُ وَشَبِيهَهُ ^(٧) .

في أَنَّ الْمَطْلُوقَةَ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا إِذَا فُرِضَ لَهَا مَهْرٌ ، لَا تَسْتَحِقُّ أَزِيدَ مِنْ نِصْفِ الْمَهْرِ الْمَفْرُوضِ
وفي خبر الحلبي : « إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مَوْسِعًا ؛ عَلَيْهِ أَنْ يَمْتَعَ امْرَأَتَهُ الْعَبْدَ وَالْدَّابَّةَ ، وَالْفَقِيرَ ^(٨) يَمْتَعُ بِالْحَنْطَةِ وَالزَّبِيبِ وَالثَّوْبِ وَالدِّرْهَمِ ... » الخبر ^(٩) . والظاهر أَنَّ جَمِيعَ مَا ذَكَرَ فِي الرِّوَايَاتِ خَارِجٌ مَخْرَجَ التَّمَثُّلِ .

ثم بيّن سبحانه حكم القسم الثالث من المطلقات من حيث المهر وهي التي لم يدخل بها وقد سمى لها المهر بقوله : ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾

(١) في من لا يحضره الفقيه : ووحشة .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٢٧ / ١٥٨٠ .

(٣) التهذيب ٨ : ١٤١ / ٤٩٠ .

(٤) التهذيب ٨ : ١٤١ / ٤٨٩ .

(٥) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام : ٢٤٢ .

(٦) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٢٧ / ١٥٨٢ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٢٧ / ١٥٨٣ .

(٨) في الكافي : والمقتر .

(٩) الكافي ٦ : ١٠٥ / ٣ .

وتدخلوا بهنَّ ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ وسميتم في ضمن عقد النكاح ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةٌ﴾ ومهرا مقدرا ﴿فِيصَفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ من المهر يستقر في ملكهنَّ ويرجع إليكم النصف الآخر. فحينئذ يجب عليكم إعطاء ما استقر للمطلقات في كلِّ حال ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أزواجهنَّ من النصف ، بأن يذللها لهم ولا يطالبنهم إن كنَّ كبارا غير مولى عليهنَّ ﴿أَوْ يَعْفُوا﴾ من النصف الوليَّ ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾ وفي سلطته ﴿عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الأب ، والجدُّ للأب ، إذا كنَّ قاصرات عن التصرف ، كالصغيرة والمجنونة ، هذا هو المعروف بين الإمامية ، وتضافرت به أخبار أهل البيت عليه السلام .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « هو الزوج » ^(١) . وعليه جلَّ العامة ، سوى الشافعي ^(٢) . ومعنى عفو الزوج إعطاء جميع المهر.

وعن جبير بن مطعم ، أنه تزوج امرأة وطلَّقها قبل الدخول ، وأكمل لها الصداق ، وقال : أنا أحقُّ بالعفو ^(٣) .

﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ أيها المطلقات والأولياء ، ويمكن إدخال الزوج في الخطاب على التفسير الثاني ، وتذكير الخطاب لتغليب جانب الذكور ، فيكون المراد أن العفو من الزوج والزوجة وأوليائها ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فإنَّ من سمح بحقه الحلال يكون أقرب إلى ترك الظلم ، والتجنب عن المال الحرام وسائر المعاصي.

عن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام ، أنه حلف على ضرب غلامه ، فلم يف به ، فلما سئل عنه قال : « أليس الله يقول : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ... » الخبر ^(٤) . وفيه تنبيه على أن حسن العفو لا يختص بالمهر ، بل يعم جميع ما يليق للعفو.

ثم لما كان الطلاق قبل المسيس سببا لتأدي المرأة ، وإعطاء نصف المهر قبل الدخول موجبا لتأدي الزوج ، أكد الله تعالى الأمر بالعفو والإحسان بالنهي عن ترك التفضل بقوله : ﴿وَلَا تَنْسُوا﴾ ولا تتركوا ﴿الْفَضْلَ﴾ والإحسان فيما ﴿بَيْنَكُمْ﴾

ثم بعد التأكيد أردفه بالوعد بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يكاد يضيع عملكم من التفضل والإحسان. ويحتمل أن تكون الجملة تهديدا على ترك التفضل.

(١) تفسير الصافي ١ : ٢٤٥ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٥٩٧ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ١٢٨ .

(٤) الكافي ٧ : ٤٦٠ / ٤ .

عن الباقر عليه السلام ، قال : « قال رسول الله ﷺ : يأتي [على الناس] زمان عضوض بعض كل أمرئ على ما في يديه ، وينسون الفضل بينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (١) .

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) ﴿

ثم لما بين سبحانه ما يوجب الفصل بين الأزواج وأحكامه ، ذكر ما يوجب الوصل بين ذاته تعالى وبين خلقه بقوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ ويحتمل وجه آخر للنظم ، هو أنه تعالى لما بين جملة من أحكام الشرع ، وبالع في التهديد على مخالفتها ، بين ما يستعان به على الطاعة وزوال كلفة امتثالها ؛ وهو الصلاة كما قال : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (٢) الآية ، وما يوجب الردع عن مخالفتها ، كما قال : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (٣) .

والمراد من المحافظة المداومة عليها ، ومراعاة أوقاتها وشرائطها وحدودها.

وعن الصادق عليه السلام : الصلوات الخمس المفروضات ، من أقام حدودهن ، وحافظ على مواعيتهن لقي الله يوم القيامة وله عنده عهد يدخله به الجنة ، ومن لم يقم حدودهن ، ولم يحافظ على مواعيتهن لقي الله ولا عهد له ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له « (٤) .

وعن (الكافي) : عن النبي ﷺ ، قال : « لا يزال الشيطان ذعرا من المؤمن ما حافظ على الصلوات الخمس ، فإذا ضيعهن تجرأ عليه فأدخله في العظام » (٥) .

وعن الباقر عليه السلام : « أن الصلاة إذا ارتفعت في (٦) وقتها ، رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة ، تقول : حفظتني حفظك الله ، وإذا ارتفعت في غير وقتها ، بغير حدودها ، رجعت إلى صاحبها سوداء مظلمة ، تقول : ضيعتني ضيعك الله » (٧) .

وعن القمي ، عن الصادق عليه السلام ، في رواية تفسير المحافظة ، قال : « هو إقبال الرجل على صلاته حتى

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٤٤ / ٥١٧ .

(٢) البقرة : ٢ / ٤٥ .

(٣) العنكبوت : ٢٩ / ٤٥ .

(٤) الكافي ٣ : ٢٦٧ / ١ .

(٥) الكافي ٣ : ٢٦٩ / ٨ .

(٦) زاد في الكافي : أول .

(٧) الكافي ٣ : ٢٦٨ / ٤ .

لا يلهيه ولا يشغله عنها شيء» (١) .

في تعيين المراد من الصلاة الوسطى

ثم حصّ من بين الصلوات أفضلهنّ ، بالأمر بالمحافظة ، اهتماماً بشأنها بقوله : ﴿وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى﴾ التي هي أفضل الصلوات المفروضات.

في (الكافي) و (التهذيب) : عن الباقر عليه السلام ، قال : « هي صلاة الظهر ، وهي أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ ، وهي وسط النهار ، ووسط صلاتين بالنهار ؛ صلاة الغداة وصلاة العصر » (٢) .

وفي بعض القراءات : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى و (٣) صلاة العصر وقوموا لله قانتين) (٤) والعطف دالّ على المغايرة.

قال (٥) : « نزلت هذه الآية يوم الجمعة ، ورسول الله ﷺ في سفر ، فقنت فيها رسول الله ﷺ وتركها على حالها في السفر والحضر ، وأضاف للمقيم ركعتين ، وإثماً وضعت الركعتان اللتان أضافهما النبي ﷺ يوم الجمعة للمقيم ، لمكان الخطبة مع الإمام ، فمن صلى يوم الجمعة في غير جماعة ، فليصلّها أربع ركعات ، كصلاة الظهر في سائر الأيام » (٦) ، الخبر .
وبهذا التفسير وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات متضافرة ، وادّعى عليه بعض الأساطين إجماع الإمامية.

وقيل : إنّها صلاة الفجر ، واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فُرْقَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٨) حيث إنّهُ فسر بصلاة الفجر (٩) .

وقيل : إنّها صلاة العصر ، ورواه العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام (١٠) .

وروي عنه عليه السلام قال : « أنّ النبي ﷺ قال يوم الخندق : شغلونا عن الصلاة الوسطى ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا » (١١) .

وفي رواية : « شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر » (١٢) .

(١) تفسير القمي ١ : ٧٩ .

(٢) الكافي ٣ : ٢٧١ / ٢١ ، التهذيب ٢ : ٢٤١ / ٩٥٤ .

(٣) (و) ليس في الكافي والتهذيب .

(٤) الكافي ٣ : ٢٧١ / ٢١ ، التهذيب ٢ : ٢٤١ / ٩٥٤ .

(٥) أي الإمام الباقر عليه السلام في تنمة الرواية المتقدمة .

(٦) (رسول الله ﷺ) ليس في التهذيب .

(٧) الكافي ٣ : ٢٧١ / ١ ، التهذيب ٢ : ٢٤١ / ٩٥٤ .

(٨) الإسراء : ١٧ / ٧٨ . (٩) مجمع البيان ٢ : ٥٩٩ .

(١٠) مجمع البيان ٢ : ٥٩٩ ، تفسير الرازي ٦ : ١٥٠ .

(١١) تفسير الرازي ٦ : ١٥٠ .

(١٢) تفسير الرازي ٦ : ١٥٠ .

واستدلوا أيضا بما روي فيها من التأكيدات مما لم يرد في غيرها ، قال عليه السلام : « من فاته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » ^(١) .

وأیضا أقسم الله تعالى بها فقال : ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ^(٢) فدلّ على أنّها أحبّ الساعات إلى الله تعالى ^(٣) ، وأيدوه بوجوه اعتبارية .

والحقّ هو الأوّل ، وما سواه في غاية الوهن .

وقيل : إنّ الله تعالى أخفها في الصلوات الخمس ، ليصير اختصاصها بالفضل موجبا لزيادة الاهتمام بجميع الصلوات .

نقل عن الربيع بن خيثم أنّه سئل عنها فقال : يابن عمّ ، الوسطى واحدة منهم ، حافظ على الكلّ تكن محافظا على الوسطى . ثمّ قال الربيع : لو علمتها بعينها لكنت محافظا لها ومضيعة لسائرهنّ ^(٤) .

﴿وَقُومُوا﴾ خالصين ﴿لِلَّهِ﴾ في صلواتكم حال كونكم ﴿قَانِتِينَ﴾ داعين في قيامكم . وهو مروى عن الصادق عليه السلام ^(٥) .

وقيل : أي : مطعين ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : « كلّ قنوت في القرآن فهو الطاعة » ^(٦) .

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ المحافظة على الأجزاء والشّرائط مخصوصة بحال الأمن ، بقوله : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدوّ ، أو لصّ ، أو سبع ، أو غيره ﴿فَرَجُلًا﴾ ماشين صلّوا ﴿أَوْ زُبَانًا﴾ سائرين . عن (الفقيه) : عن الصادق عليه السلام ، في صلاة الرّحف ، قال : « تكبير وتهليل » ، ثمّ تلا الآية ^(٧) .

وعنه عليه السلام : « إن كنت في أرض مخوفة ، فخشيت لصّا أو سبعا ، فصلّ الفريضة [وأنت] على دابّتك » ^(٨) .

وفي رواية : « الذي يخاف اللصوص يصلّي إيماء على دابّته » ^(٩) .

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ على أنفسكم من المخوفات ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وصلّوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ من صلاة الأمن ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

قيل : إنّما عبّر سبحانه عن الصلّة بالذكر لكونه معظم أركانها ، أو لأنّه روحها .

(١) تفسير الرازي ٦ : ١٥١ . (٢) العصر : ١٠٣ / ١ و ٢ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ١٥١ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ١٤٧ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٦٠٠ « نحوه » .

(٦) تفسير الرازي ٦ : ١٥٢ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٩٥ / ١٣٤٤ .

(٨) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٩٥ / ١٣٤٥ .

(٩) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٩٥ / ١٣٤٦ .

وقيل : إنّ المراد : فاشكروا الله شكرا يوازي تعلّمكم الشرائع ، التي منها كيفية صلاة الخوف والأمن ^(١) .

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)﴾

ثمّ بيّن سبحانه حكم نفقة المتوفى عنها زوجها ، بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ ويشرفون على الموت ﴿مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون من بعدهم ﴿أَزْوَاجًا﴾ يجب عليهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً﴾ نافعة ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ وهي أن يتمتّعن من تركه أزواجهنّ ﴿مَتَاعًا﴾ ونفقا كافيا لهنّ ﴿إِلَى الْحَوْلِ﴾ الكامل من حين الوفاة ، حال كونهنّ مقيمات في بيوت أزواجهنّ ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي مخرجات منها . فلا تدلّ الآية إلى هنا على أنّ عدّة الوفاة كانت سنة ، بل ظاهرها وجوب الوصية على الزوج ، بالإئناق والإسكان إلى الحول ، وهذا منسوخ بآية الإرث ، وإن قلنا بعدم الدلالة على الوجوب بل على الجواز والاستحباب ، فحكمها باق بلا نسخ .

ولكنّ قوله تعالى : - ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من منزل أزواجهنّ باختيارهنّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ الزينة والزواج ، وهو ما لا يكون في الشرع منهيا ، بناء على كون المراد من عدم الجناح بعد الخروج : عدم وجوب نهيهنّ عن الزينة والتزوج ، إن خرجن بعد تمام الحول - يدلّ على وجوب الحداد وترك التزوج قبل تمام الحول ، ووجوب نهيهنّ عنهما ، فتكون عدّة الوفاة تمام الحول ، ويكون منسوخا بآية : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ^(٢) .

وإن كان المراد من الخروج : قبل تمام الحول ، يكون محمولا على ما بعد ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ولا نسخ أيضا .

وفي عدّة روايات عن الباقر والصادق عليهما السلام : « هي منسوخة ، نسختها آية : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ »

(١) تفسير روح البيان ١ : ٣٧٣ .

(٢) البقرة : ٢ / ٢٣٤ .

أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» ونسختها آية الميراث «^(١) .

وروي بطريق عامي : أنّ رجلا من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة وله أولاد ، ومعه أبواه وامرأته ومات ، فأنزل الله هذه الآية ، فاعطى النبي ﷺ والدية وأولاده من ميراثه ، ولم يعط امرأته شيئا ، وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركته زوجها حولا .

وكانت عدّة الوفاة في بدو الإسلام حولا ، وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول ، وكانت نفقتها وسكنها واجبة من مال زوجها ما لم تخرج ولم يكن لها ميراث ، فإن خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها ، وكان على الرجل أن يوصي بها ، فكان كذلك حتى نزلت الآية ^(٢) فنسخ الله تعالى نفقة الحول بالزّرع عند عدم الولد ، والثّمن مع الولد ^(٣) .

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب على خلقه ، قادر على الانتقام ممّن خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي مصالح العباد في أحكامه وشرائعه.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان متاع المتوفّي عنها زوجها - وإن كان منسوخا - بيّن متاع المطلّقة بقوله : ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ﴾ البائعات ، أو مطلقا ولو كنّ رجعيّات ﴿مَتَاعٌ﴾ وتمتّع ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ عند الشّرع ، والعادة . وهذا التّمتيع يحقّ ﴿حَقًّا﴾ ويثبت ثبوتا ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فإنّ من لوازم التّقوى التّبرّع بالمتعة تطيبا لقلبها وإزالة لضعفها.

في استحباب امتاع المطلّقات مطلقا

عن أبي عبد الله عليه السلام ، في رجل يطلق امرأته أيمّتها ؟ قال : « نعم ، أما يحبّ أن يكون من المحسنين ، أما يحبّ أن يكون من المتّقين » ^(٤) .

عن الحلبي ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، في الرجل يطلق امرأته قبل أن يدخل بها ، قال : « عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئا ، وإن لم يكن فرض لها شيئا فليمتّعها على نحو ما يمتّع به مثلها من النّساء » ^(٥) الخبر ، وهذا محمول على إرادة مثلها باعتبار حال الزّوج.

عن الطبرسي ، في قوله تعالى : ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ ^(٦) قال : « إمّا

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٤٧ / ٥٢٩ ، مجمع البيان ٢ : ٦٠٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٤٨ .

(٢) في تفسير روح البيان : نزلت آية الميراث .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣٧٥ ، وفيه : الولد وولد الابن والثّمن عند وجودهما .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٤٠ / ٤٩٩ ، الكافي ٦ : ١٠٤ / ١ .

(٥) الكافي ٦ : ١٠٦ / ٣ .

(٦) البقرة : ٢ / ٢٣٦ .

تجب المتعة للتي لم يسم لها صداق خاصة «^(١) . وهو المروي عن الصادق عليه السلام - إلى أن قال - : وعن ابن عباس ، قال : هذا إذا لم يكن [قد] سمى لها مهرا ، فإذا فرض لها صداق فلها نصفه ، ولا تستحق المتعة. قال : وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام .

وعن أبي الصباح ^(٢) ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلها نصف مهرها ، وإن لم يكن فرض لها مهرا فمتاع بالمعروف » ^(٣) الخبر . وهذا إذا لم يدخل بها ، وإلا فمهر المثل .

فعلى هذا ، فالآية والأخبار المطلقة محمولة في غير المفوضة على الاستحباب المؤكد ، كرواية الحلبي ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، في قوله تعالى : ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قال : « متاعها بعد ما تنقضي عدتها على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره . وكيف [لا] يمتعها وهي في عدتها ترجوه ويرجوها ، ويحدث الله عز وجل بينهما ما يشاء » ^(٤) الحديث .

﴿كَذَلِكَ﴾ التبيين والتوضيح ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ﴾ الدالة على التوحيد ، وصفاته ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بدلالاتها تخرجون عن حد السفاهة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون إن لكم إليها ^(٥) منه بدءكم ، وإليه عودكم وإيابكم ، وعليه حسابكم .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣)
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان جملة من الأحكام ، ذكر قضية دالة على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وصدق نيته في دعوى نبوته ، لأنها إخبار بالغيب ، وفيها دلالة على إمكان المعاد ، ليفيد المستمع اليقين والاعتبار ، والتجنب عن التمرد والعناد ، ويزيده الخضوع والانقياد .

ولما كان إخبار الله تعالى - لقوة تأثيره في العلم - بمنزلة الرؤية والمشاهدة لما أخبر به ، وكان

نور

(١) مجمع البيان ٢ : ٥٩٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٤٩ .

(٢) في النسخة : أبي الصلاح ، وما أثبتناه من تفسير العياشي ، راجع معجم رجال الحديث ٢١ : ١٨٩ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٤٠ / ٥٠٠ .

(٤) الكافي ٦ : ١٠٥ / ٣ .

(٥) كذا ، ولعلها : وتفهمون بها أن .

نبيّه ﷺ في عالم الأشباح محيطا ومشاهدا لجميع وقائع هذا العالم ، خاطب نبيّه ﷺ بقوله : ﴿لَمْ تَرَ﴾ ولم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وقيل : المراد ألم ينته علمك إليهم ؟ ^(١) ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثيرة ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ولأجل الفرار منه ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ أو بلسان ملك ﴿مُوتُوا﴾ وإسناده إلى ذاته المقدسة للتحويل والتخويف ، أو المراد من القول وصورة الأمر تعلق إرادته التكوينية بموتهم ، كما كتني عن إرادة الإيجاد بقوله : ﴿كُنْ﴾ فماتوا جميعا دفعة في مكائهم ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

عن الباقر والصادق عليهما السلام : « أَنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلَ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الشَّامِ ، وَكَانُوا سَبْعِينَ أَلْفَ بَيْتٍ ، وَكَانَ الطَّاعُونَ يَقَعُ فِيهِمْ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، فَكَانُوا كُلَّمَا أَحْسَوْا بِهِ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ الْأَغْنِيَاءُ لِقَوَّتِهِمْ ، وَبَقِيَ فِيهَا الْفُقَرَاءُ لضعفهم ، فَكَانَ الْمَوْتُ يَكْثُرُ فِي الَّذِينَ أَقَامُوا ، وَيَقِلُّ فِي الَّذِينَ خَرَجُوا ، فَيَقُولُ الَّذِينَ خَرَجُوا : لَوْ كُنَّا أَقْمَنَّا لَكُنَّا فِيْنَا الْمَوْتَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ أَقَامُوا : لَوْ كُنَّا خَرَجْنَا لَقُلْنَا فِيْنَا الْمَوْتَ . فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ جَمِيعًا عَلَى أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ طَاعُونَ [فِيهِمْ] وَأَحْسَوْا بِهِ خَرَجُوا كُلَّهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا أَحْسَوْا بِالطَّاعُونَ خَرَجُوا جَمِيعًا ، وَتَنَحَّوْا عَنِ الطَّاعُونَ حَذَرَ الْمَوْتُ ، فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ مَا شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ أَتَاهُمْ مَرَّوًا بِمَدِينَةٍ خَرِبَةٍ قَدْ جَلَا أَهْلُهَا عَنْهَا وَأَفْنَاهُمُ الطَّاعُونَ ، فَزَلُّوا بِهَا ، فَلَمَّا حَطُّوا رَحَالَهُمْ وَأَطْمَأَنَّنُوا قَالَ لَهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ : مَاتُوا جَمِيعًا ، فَمَاتُوا مِنْ سَاعَتِهِمْ وَصَارُوا رَمِيمًا يُلُوحُ ، وَكَانُوا عَلَى طَرِيقِ الْمَارَةِ ، فَكَنَسَهُمُ الْمَارَةُ وَتَحَوَّهُمْ وَجَمَعَهُمْ فِي مَوْضِعٍ ، فَمَرَّ بِهِمْ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقُولُ لَهُ حَزْقِيلُ ، فَلَمَّا رَأَى تِلْكَ الْعِظَامَ بَكَى وَاسْتَعْبَرَ وَقَالَ : يَا رَبِّ لَوْ شِئْتَ لِأَحْيَيْتَهُمُ السَّاعَةَ كَمَا أَمَّتَهُمْ ، فَعَمَّرُوا بِبِلَادِكَ وَوَلَدُوا عِبَادَكَ وَعَبَدُوكَ مَعِ مَنْ يَعْبُدُكَ مِنْ خَلْقِكَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَفْتَحَبْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، قَالَ : فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّجَلَّ [إِلَيْهِ] أَنَّ قُلَّ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يَقُولَهُ - قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَهُوَ الْاسْمُ الْأَعْظَمُ - فَلَمَّا قَالَ حَزْقِيلُ ذَلِكَ نَظَرَ إِلَى الْعِظَامِ يَطِيرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَعَادُوا أَحْيَاءَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؛ يَسْتَبْحُونَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ ، وَيَكْبَرُونَهُ وَيَهْلَلُونَهُ ، فَقَالَ حَزْقِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ : أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ » ^(٢) .

أقول : تدلّ الرواية على أنّ الإمامة كانت عقوبة لهم .

وفي رواية عن الباقر عليه السلام ، أنّه سئل : أمّاتهم ، أم ردّهم إلى الدّنيا حتى سكنوا الدّور ، وأكلوا

الطّعام ؟

(١) تفسير روح البيان ١ : ٣٧٧ .

(٢) الكافي ٨ : ١٩٨ / ٢٣٧ .

قال : « لا بل ردّهم الله حتى سكنوا الدّور ، وأكلوا الطّعام ، ونكحوا النّساء ، ومكثوا بذلك ما شاء الله ، ثمّ ماتوا بأجلهم » (١) .

وروي أنّ حزقيل ندب قومه إلى الجهاد فكرهوا ، فأرسل الله عليهم الموت ، فلمّا كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت ، فلمّا رأى حزقيل ذلك قال : اللهمّ إله يعقوب وإله موسى ترى خطيئة عبادك ، فأرهم آية في أنفسهم تدلّهم على نفاذ قدرتك ، وأنّهم لا يخرجون من قبضتك . فأرسل الله عليهم الموت ، ثمّ أنّه ﷺ ضاق صدره بسبب موتهم ، فدعا مرّة أخرى ، فأحياهم الله . (٢)

وروي عن ابن عبّاس أنّ ملكا من ملوك بني إسرائيل ، أمر عسكره بالقتال ، فخافوا القتال ، وقالوا للملكهم : إنّ الأرض التي تذهب إليها فيها الوباء ، ونحن لا نذهب إليها حتى يزول ذلك الوباء ، فأماهم الله تعالى بأسرهم ، وبقوا ثمانية أيام حتى انتفخوا . وبلغ بني إسرائيل موتهم ، فخرجوا لدفّنهم ، فعجزوا من كثرتهم فحظروا عليهم حظائر . فأحياهم الله بعد الثمانية ، وبقي فيهم شيء من ذلك النّتن ، وبقي ذلك في أولادهم إلى هذا اليوم (٣) .

وقيل : إنّ حزقيل هو ذو الكفل ؛ لأنّه تكفّل بشأن سبعين نبيا وأنجاهم من القتل (٤) . ولعلّ المراد من ملك بني إسرائيل - في رواية ابن عبّاس - هو حزقيل .

وقيل : إنّ ثالث أوصياء موسى ﷺ ، وكان أولهم يوشع بن نون ، وثانيهم كالب بن يوحنا ، وثالثهم حزقيل بن يوز ، ويقال له : ابن العجوز ، لأنّ أمّه كانت عجوزا ، فسألت الله ولدا بعد ما كبرت وعقمت ، فوهبه الله لها .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ جميعا ، حيث إنّهُ بتلك الإمامة والإحياء عزّفهم نفسه بالقدرة الكاملة ، والرّحمة الشاملة ، وحثّهم على التّوكّل والتّسليم والإذعان بالمعاد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لانهمّاكهم في الشّهوات ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله وإحسانه ، ولا يعتبرون بهذه الآيات ، ولا ينتفعون بها .

وقيل : إنّ الله سبحانه ساق القصّة للحثّ على الجهاد ، لدلالة قوله بعده : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه لإعلاء كلمته ، فإنّ الفرار من الموت ليس بمنج منه ، كما قال تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾

(١) مجمع البيان ٢ : ٦٠٥ .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ١٦٣ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ١٦٢ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ١٦٤ .

يُذَرِّكُمْ الْمَوْتَ ^(١) فلا تركوا الجهاد بسبب خوف الموت **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾** لمقالكم في التَّغْيِيبِ إلى الجهاد والتَّهْيِيبِ منه **﴿عَلَيْمٌ﴾** بما في قلوبكم من الدَّوْعِي الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ .
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾

ثمَّ لما كان الجهاد موقوفًا على الإنفاق على نفسه ، وعلى غيره [من] العاجزين عن نفقة السَّفر ومؤنة الجهاد ، أَرَدَفَ الأمر بالجهاد بالتَّغْيِيبِ الأَكِيدِ في أداء الصَّدَقَاتِ بقوله : **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾** بالإنفاق على الفقراء من المؤمنين بإخلاص النِّيَّةِ وطيب النَّفْسِ **﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾** ومالا حلالا طيبا . وإطلاق القرض على الصَّدَقَةِ باعتبار أنَّ الصَّدَقَةَ قطع قطعة من المال عن نفسه ، بعوض الأجر الموعود من الله .

روي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « من تصدَّق بصدقة ، فله مثلها في الجنَّة » . فقال أبو الدَّحداح - واسمه عمر ^(٢) بن الدَّحداح - : [يا رسول الله] إنَّ لي حديقتين ، إن تصدَّقت بإحدهما فإنَّ لي مثليها في الجنَّة ؟ قال : « نعم » ، قال : وأمَّ الدَّحداح معي ؟ قال : « نعم » ^(٣) .
وفي رواية قال : والصَّبيبة معي ؟ قال : « نعم » . فتصدَّق بأفضل حديقتيه ^(٤) .
وفي رواية ابن عَبَّاس : كانت تسمَّى الحنينة ، فدفعها إلى رسول الله ﷺ ، فضاعف الله صدقته ألفي ألف ، وذلك قوله تعالى : **﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾**

قال : فرجع أبو الدَّحداح ، فوجد أمَّ الدَّحداح والصَّبيبة في الحديقة التي جعلها صدقة ، فقام على باب الحديقة ، فكره أن يدخلها ، فنادى : يا أمَّ الدَّحداح ، قالت : لبيك يا أبا الدَّحداح ، قال : إني قد جعلت حديقتي صدقة ، [واشتريت مثليها في الجنَّة وأمَّ الدَّحداح معي والصَّبيبة معي] قالت : بارك الله في ما شريت وفي ما اشتريت . فخرجوا منها ، وأسلموا الحديقة إلى النَّبِيِّ ﷺ ^(٥) **﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ﴾** في الأجر والثَّواب **﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾** لا يعلمها إلا الله . وقيل : الواحد بسبعمئة ؛ نظرا إلى قوله تعالى : **﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾** ^(٦) .

(١) النساء : ٤ / ٧٨ .

(٢) في مجمع البيان : عمرو .

(٣ و ٤) . مجمع البيان ٢ : ٦٠٨ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٦٠٨ ، تفسير الرازي ٦ : ١٦٦ .

(٦) البقرة : ٢ / ٢٦١ .

وعن (المعاني) : عن الصادق عليه السلام : « لما نزلت : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾^(١) قال رسول الله ﷺ : اللهم زدني ، فأنزل الله سبحانه : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٢) . فقال رسول الله ﷺ : اللهم زدني ، فأنزل الله عز وجل : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فعلم رسول الله ﷺ أن الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى »^(٣) .

وعن (الكافي) : عنه عليه السلام ، قال : « ما من شيء أحب إلى الله من اخراج الدرهم إلى الإمام ، وإن الله ليجعل له الدرهم في الجنة مثل جبل احد » .

ثم قال : « إن الله يقول في كتابه : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا﴾ إلى قوله : ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال : هو والله في [صلة] الإمام »^(٤) الخبر .

ثم أزال خوف الفقر عن القلوب ، بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ ويمنع عن الخلق ﴿وَيَبْصُطُ﴾ ويوسع عليهم ، فإنّ الغنى والفقر بتقدير الله ويده ، فلا يفقركم الإعطاء ، ولا يغنيكم البخل ، فتزودوا في يومكم هذا ليوم لقاء الله ، فإنكم إليه تعلقون ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيوفي ما اقترض منكم بأحسن وفاء ، ويجازيكم بأوفر جزاء .

وفيه تنبيه على أنّ الغني يفارق ماله بالموت ، فليبادر إلى الإنفاق قبل الفوت ، وفي تأخير البسط عن القبض إشارة إلى أنّ الله تعالى قد يوسع على العبد بعد التقتير ، ففيه التسلية للفقراء .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ إِنْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَاقِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾

(١) النمل : ٢٧ / ٨٩ .

(٢) الانعام : ٦ / ١٦٠ .

(٣) معاني الأخبار : ٣٩٧ / ٥٤ .

(٤) الكافي ١ : ٤٥١ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥١ .

ثمَّ أنَّه تعالى لما أمر بالقتال ، ذكر قصّة مخالفة بني إسرائيل ، وغلبة فئة قليلة منهم فئة كثيرة ، ليعلم المؤمنون قبح مخالفة أمر الجهاد ، وليتّكلوا في النَّصرة على الله لا على الكثرة والعدد والعدّة. ولعلّه لظهار إحاطة قلب النبي ﷺ - في عالم الأشباح - بجميع وقائع العالم من بدء الخلقة كما مرّ ، قال مخاطبا له ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ حال ﴿الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأشرفهم ؟ وهذا الاستفهام لتقرير من بلغ إليهم القصّة بالتواتر ، أو العجب من شأن الملاء وهم كانوا ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ وفاة ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ قيل : هو يوشع بن نون وصيّ موسى ، وهو من ولد يوسف. وقيل : شمعون من ولد لاوي بن يعقوب. وقيل : إسموئيل من بني هارون ^(١) .

نقل أنّه لما ادّعى النبوّة كذبّه بنو إسرائيل ، وقالوا له : إن كنت صادقا فأتنا بآية. ولما كان قوام بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك ، وطاعة الملوك لأنبيائهم ، وكان الملك يسير الجموع ، والنبي يقيم أمره ، ويشير عليه ، قالوا له : إن كنت نبيا ﴿ابْعَثْ﴾ وانحض ﴿لَنَا مَلِكًا﴾ وأميرا نصدر عن رأيه وتديبره في قتال كفّار العمالقة ، حتى ﴿نُقَاتِلَ﴾ معه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه.

عن (العياشي) : عن الصادق عليه السلام قال : « فإنّ الملك في ذلك الزمان هو الذي يسير بالجنود ، والنبي يقيم له أمره وينبئه بالخبر من عند ربّه » ^(٢) .

في استيلاء جالوت رأس العمالقة على بني إسرائيل بعصيانهم وتغييرهم دين الله وعتوهم عن أوامره

عن الباقر عليه السلام : « أنّ بني إسرائيل من بعد موسى عملوا بالمعاصي ، وغيّروا دين الله ، وعتوا عن أمر ربهم ، وكان فيهم نبي يأمرهم وينهاهم ، فلم يطيعوه ، فسلب الله عليهم جالوت ، وهو من القبط ، فأذاهم وقتل رجالهم ، وأخرجهم من ديارهم ، وأخذ أموالهم ، واستعبد نساءهم ، ففزعوا إلى نبيهم ، وقالوا : اسأل الله تعالى أن يبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله. وكانت النبوّة - في بني إسرائيل - في بيت ، والملك في بيت آخر ، لم يجمع الله لهم النبوّة والملك في بيت واحد ، فمن ذلك قالوا : ابعث لنا ملكا » ^(٣) الخبر.

﴿قَالَ﴾ النَّبِيُّ ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقاربت ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ ووجب ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَا تُقَاتِلُوا﴾ جبنا وخوفا ، فإني أظنّ وأتوقع جنبكم عن القتال.

﴿قَالُوا وَمَا﴾ العذر ﴿لَنَا﴾ وأي داع يتصوّر في ﴿أَلَا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأن نترك نصره

دينه

(١) تفسير الرازي ٦ : ١٧٠ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٠ / ٥٤١ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٨١ ، بحار الأنوار ١٣ : ٤٣٩ / ٤ .

﴿وَالْحَالِ أَتَا﴾ **﴿قَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾** وطرَدنا من أوطاننا ، وأغتربنا من أهلنا **﴿وَأَبْنَانَا﴾** وكلّ من هذه المصائب والبليّات أقوى المهيجات إلى القتال.

وقيل : إنّ جالوت كان رأس العمالقة وملكهم ، وهو من أولاد عمليق بن عاد ، وكان هو والعمالقة يسكنون ساحل بحر الرّوم بين مصر وفلسطين ، وظهروا على بني إسرائيل ، وأخذوا ديارهم ، وسبوا أولادهم ، وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم (١).

﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ وفرض **﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾** بعد دعاء النبيّ وبعث الملك ، آل أمرهم إلى أن **﴿تَوَلَّوْا﴾** وتخلّفوا عن القتال. قيل : لأنّهم علّلوا قتالهم بحظوظ النّفس ، فخذلوا وظلموا عند الامتحان **﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾** وهم ثلاثمئة وثلاثة عشر ، بعدد أصحاب بدر ، وأصحاب القائم **﴿عَلَيْهِ﴾** **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** على أنفسهم بالتّقاعد عن الجهاد.

في اصطفاء طالوت للسلطنة

ثمّ بيّن الله تعالى تفضيل بعث الملك ، وتولّى القوم بقوله : **﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾** بعد مراجعة الله ووحيه : **﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾** فأطيعوه وقاتلوا عدوّكم معه.

روي أنّه **﴿عَلَيْهِ﴾** لما دعا ربّه أن يجعل لهم ملكا ، أتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم ، فلم يساوها إلّا طالوت (٢).

قيل : إنّ اشموئيل (٣) جاء بعضا وقرن فيه دهن القدس ، قال : إنّ صاحبكم الذي يكون ملكا طوله طول هذه العصا ، ونقل أنّه ضلّت حمير لأبي طالوت ، فأرسله أبوه في طلبها ، فمرّ ببيت إشمئول ، فدخل عليه حتى يسأله عن الحمير ، فقاسه طالوت بالعصا ، فكان على طولها ، فقال لطالوت : قرّب رأسك فقرّبه ، فدهنه بدهن القدس ، ثمّ قال له : أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله أن املكه عليهم ، قال : بأيّ آية ؟ قال : بآية أنّك ترجع وقد وجد أبوك حميره ، فكان كذلك (٤).

وقيل : لما كانت السلطنة في بيت يهودا ، وكان طالوت من سبط بنيامين ، وكان سبط بنيامين قليلا مستحقرا بين بني إسرائيل.

﴿قَالُوا﴾ متعجّبين من قول النبيّ ، ومنكرين له : **﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ﴾** والسلطنة **﴿عَلَيْنَا﴾** وكيف يمكن أن يكون ذلك **﴿وَنَحْنُ﴾** لشرافة بيوتنا **﴿أَحَقُّ﴾** وأولى **﴿بِالْمُلْكِ﴾** والسلطنة **﴿مِنْهُ﴾** فتقدّم

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢٣٩.

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ٢٤٠.

(٣) في النسخة : الشموئيل.

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٣٨٣.

غير المستحق على من هو أحقّ قبيح ، كتقدم أبي بكر على عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة. ثمّ أعتزوا ثانيا ، بقولهم : ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّ طَالُوتَ ﴿لَمْ يُؤْتِ﴾ ثَرَةً وَلَمْ يُعْطَ ﴿سَعَةً مِنْ الْمَالِ﴾ فيشرف بالمال إذا فاته شرف الحسب ، بل هو فقير معدم ، لا مال له كي يتقوى به في تأسيس ملكه وسلطانه. قيل : كان راعيا ، وقيل : مكاريا ^(١) ، وقيل : دباغا ، وقيل : سقاء ^(٢) .

﴿قَالَ﴾ النَّبِيُّ رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بِحُكْمَتِهِ ﴿اصْطَفَاهُ﴾ واستخلصه للملك واختاره ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وليس لكم أن تعترضوا على الله في ما اختاره واصطفاه.

ثمّ بعد الجواب الإجمالي ، شرع في الجواب التفصيلي بقوله : ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ وسعة ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ بأحكام الدين وسياسة الملك وشؤون الحرب ، ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّ طَالُوتَ ﴿لَمْ يُؤْتِ﴾ ثَرَةً وَلَمْ يُعْطَ ﴿سَعَةً مِنْ الْمَالِ﴾ فيشرف بالمال إذا فاته شرف الحسب ، بل هو فقير معدم ، لا مال له كي يتقوى به في تأسيس ملكه وسلطانه. قيل : كان راعيا ، وقيل : مكاريا ^(١) ، وقيل : دباغا ، وقيل : سقاء ^(٢) .

، وطولا في القامة ، وشدة في البطش. في أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان أحقّ بالخلافة من غيره وتوضيح الجواب : أنّ شرافة النسب ، وكثرة المال ليستا من الكمالات الحقيقية ، ومّا له دخل في لياقة الملك وأهلية الإمارة ، وإنّما الدّخيل في استحقاق هذا المنصب العلم بأحكام الدين ، وسياسة الملك ، وعظمة الجسم ، وكمال القوى ، والشّجاعة.

فبالعلم تدبّر المملكة وتنظم الامور ، وبالجسامة تعظم مهابته في الأنظار ، وبالشّجاعة يكايد الأعداء ، ويقاوم في الهيجاء ، ولذا كان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أحقّ بالخلافة من سائر الصحابة ؛ لأنّه كان أعلم وأزهّد وأشجع من جميع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فكان بخلافته أولى ، وهذا مع قطع النظر عن اصطفاؤه [من قبل] الله ونصبه بالنصّ الصّريح على ولايته. قيل : كان طالوت أطول من جميع بني إسرائيل برأسه ومنكبه ، حتى إنّ الرّجل القائم كان يمدّ يده فينال رأسه ، وكان أجمل وأقوى من جميعهم.

﴿وَاللَّهُ﴾ الذي بيده الملك والملكوت ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده. وفيه دلالة على أن لا ملك لغيره ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ حكمة وفضلا ورحمة ، فيوسع على الفقير ويغنيه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح العالم وقابليّات بني آدم.

في اعتراض الفخر الرازي على الإمامة وجوابه
قال الفخر : هذه الآية تدلّ على بطلان قول من يقول : إنّ الإمامة موروثة ^(٣) ، ولعلّ

(١) المكارى : هو الذي يكرى ، أي : يؤجر الدّواب - من البغال والحمير - لغيره.

(٢) تفسير الرازي ٦ : ١٧٣.

(٣) تفسير الرازي ٦ : ١٧٣.

اعتراضه على أصحابنا الإمامية.

وفيه : أنهم لا يقولون بأنها موروثه ، بل يقولون بأنها منصوبة لمن كان في الأصحاب الشاخصة والأرحام المطهرة والنفوس الزكية التي طهرها الله من كل رجس .
ثم إننا نقول : إن الآية تدلّ على بطلان إمامة من اختاره الخلق ، وعدم أهليّة غير الأعلم والأفضل ، ومن يقول : أقيلوني ، ولست بخيركم وعليّ فيكم لها .

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد نصب طالوت للسلطنة ؛ بإخبار النبيّ الذي كان قوله حجّة - جعل لقطع العذر ، ودفع اعتراض بني إسرائيل ، دليلا وآية على صدق النبيّ ، وكون سلطنة جالوت بنصبه ، وهو ما أشار إليه بقوله : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ من قبل الله ، وعلامة سلطنته الإلهيّة ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾

وقيل : إنّّه قال ذلك بعد طلب بني إسرائيل من النبيّ آية على سلطنة طالوت .

في ذكر خصوصيات تابوت بني إسرائيل وآثاره

قيل : كان التابوت صندوقا أنزله الله على موسى عليه السلام ، فوضعت أمّه فيه فألقته في اليمّ ، فلمّا حضر موسى عليه السلام الوفاة ، وضع فيه ألواح التوراة ودرعه وما كان عنده من آيات النبوة ، وأودعه يوشع بن نون وصيّّه .

ونقل أنّ الله أنزل على آدام تابوتا ، فيه صور الأنبياء من أولاده ، فتوارثه أولاد آدم إلى أن وصل إلى يعقوب ، ثمّ بقي في أيدي بني إسرائيل ، فكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم ، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم ، يستفتحون به على عدوّهم ، وكانت الملائكة [تحمله] فوق العسكر وهم يقاتلون العدو ، فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا بالنصرة ^(١) .

وروي أنّ سعته كانت ثلاثة أذرع في ذراعين ^(٢) .

وروي أنّه إذا وضع التابوت بين المسلمين والكفار ، فإن تقدّم التابوت رجل ، لا يرجع حتى

يقتل أو

(١) تفسير الرازي ٦ : ١٧٦ .

(٢) معاني الأخبار : ٢٨٤ / ٢ .

يغلب ، ومن يرجع عنه كفر ، وقتله الإمام ^(١) . فلَمَّا عصوا وفسدوا واستخفّوا به - حتى إنّ الصّبيان كانوا يلعبون به في الطرقات ويستخفّون به - سلّط الله عليهم العمالقة ، فغلبوهم على التّابوت ، وسلبوه ، فلَمَّا سألوها نبيّهم آية على ملك طالوت ، قال ذلك النّبيّ : إنّ آية ملكه أنّكم تجدون التّابوت في داره .

ثمّ أنّ الكفّار الذين سلبوا ذلك التّابوت ، كانوا قد جعلوه في موضع البول والغائط ، فدعا النّبيّ في ذلك الوقت ، فسلّط الله على أولئك الكفّار البلاء ، حتّى إنّ كلّ من بال عنده أو تغوّط ، ابتلاه الله بالبواسير .

ونقل أنّه هلك من بلادهم خمس مدائن ، فعلم الكفّار أنّ ذلك لأجل استخفافهم بالتّابوت ، فأخرجوه ووضعوه على ثورين فأقبل الثّوران يسيران ، ووكل الله بهما أربعة من الملائكة يسوقونها حتّى أتوا منزل طالوت ، ثمّ أنّ قوم ذلك النّبيّ رأوا التّابوت ، فعلموا أنّ ذلك دليل على كونه ملكا .

فعلى هذا ، نسبة الإتيان إلى التّابوت من باب التّوسّع والمجاز ، كما يقال رجحت التّجارة ^(٢) . وعن ابن عباس : أنّ التّابوت صندوق ، كان موسى يضع فيه التّوراة ، وكان من خشب ، وكانوا يعرفونه ، ثمّ أنّ الله رفعه بعد ما قبض موسى ؛ لسخطه على بني إسرائيل ، قال نبيّ أولئك القوم : إنّ آية ملك طالوت أنّ يأتيكم التّابوت من السّماء ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام : « حيثما دار التّابوت في بني إسرائيل دار الملك ، وأينما دار السلاح فينا دار العلم » ^(٤) .

وفي رواية : « أنّ مثل السّلاح فينا مثل التّابوت في بني إسرائيل ، كانت بنو إسرائيل ، أيّ أهل بيت وجد التّابوت على باهم أوتوا النّبوة ، فمن صار إليه السّلاح منّا أوتي الإمامة » ^(٥) .

﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ كائنة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ سئل الكاظم عليه السلام عن السّكينة ؟ فقال : « ربح تخرج من الجنّة ، لها صورة كصورة الإنسان ، ورائحة طيّبة ، وهي التي نزلت على إبراهيم ، فأقبلت تدور حول أركان البيت وهو يضع الأساطين » ^(٦) .

وفي رواية أخرى : عنه عليه السلام ، قيل : وما السّكينة ؟ قال : « روح الله يتكلّم ، كانوا إذا اختلفوا في شيء

(١) تفسير القمي ١ : ٨٢ .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ١٧٦ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ١٧٦ .

(٤) الكافي ١ : ١٨٥ / ٢ .

(٥) الكافي ١ : ١٨٥ / ١ .

(٦) قرب الإسناد : ٣٧٣ / ١٣٢٧ .

كَلَّمَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ بَيَانٌ مَا يَرِيدُونَ « (١) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أَنَّ السَّكِينَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ رِيحٌ هَفَافَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، لَهَا وَجْهٌ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ » (٢) .

﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِ مُوسَى وَآلِ هَارُونَ﴾ عن الباقر عليه السلام : « أَنَّ الْبَقِيَّةَ عَصَا مُوسَى وَرِضَايُ (٣) الْأَلْوَابِ » (٤) .

وفي رواية : عن الرضا عليه السلام ، قال : « كَانَ فِيهِ أَلْوَابٌ مُوسَى الَّتِي تَكْسَرُ ، وَالطَّسْتُ الَّتِي يَغْسَلُ فِيهَا قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ » (٥) .

وفي رواية : « الْبَقِيَّةُ ذُرِّيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ » (٦) وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الذَّرِّيَّةِ ، مَا بَقِيَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ كَيْفِيَّةَ إِيْتَانِ التَّابُوتِ بِقَوْلِهِ : ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾

عَنْ (الْكَافِي) : عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام : « فَجَاءَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُهُ » (٧) .

وَفِي رِوَايَةٍ : « يَحْمِلُهُ ثَوْرَانٌ وَالْمَلَائِكَةُ تَسُوقُهُمَا » (٨) .

وَفِي رِوَايَةٍ : « لَمْ تَحْمِلْهُ الْمَلَائِكَةُ وَلَا الثَّوْرَانُ ، بَلْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَحْفَظُونَهُ » (٩) .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ إِيْتَانِ التَّابُوتِ فِي مَنْزِلِ طَالُوتَ بِحَمْلِ الْمَلَائِكَةِ ﴿لَايَةً﴾ عَظِيمَةً ، وَمَعْجَزَةً بَاهِرَةً ﴿لَكُمْ﴾ يَا بَنِي إِسْرَئِيلَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِشَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ .

ثُمَّ لَمَّا أَدْعَنُوا لَهُ بِالْمَلِكِ جَهَّزَ الْجَيْشَ لِقِتَالِ الْعَمَالِقَةِ . رَوَى أَنَّ طَالُوتَ قَالَ لِقَوْمِهِ : لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ مَعِيَ رَجُلٌ يَبْنِي بِنَاءً لَمْ يَفْرَغْ مِنْهُ ، وَلَا تَاجِرٌ مَشْتَغَلٌ بِالتَّجَارَةِ ، وَلَا مَتَزَوِّجٌ بِامْرَأَةٍ لَمْ يَبْنِ عَلَيْهَا ، وَلَا أَبْغِي إِلَّا الشَّابَّ النَّشِيطَ الْفَارِغَ . فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِمَّنْ اخْتَارَ ثَمَانُونَ أَلْفًا (١٠) .

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

(١) معاني الأخبار : ٢٨٥ / ٢ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٦١٤ .

(٣) فِي النِّسْخَةِ : رِضَايُ ، وَالرِّضَايُ : هُوَ فَتَاتُ الشَّيْءِ وَقَطْعُهُ الْمَتَّبِقَةُ بَعْدَ تَحْطُّمِهِ وَتَكْسَرُهُ ، أَمَّا الرِّضَايُ : فَهُوَ الصَّغِيرُ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْحَصَى .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٦١٤ عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام .

(٥) تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ١ : ٢٥٣ / ٥٤٦ .

(٦) تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ١ : ٢٥٢ / ٥٤٥ .

(٧) الْكَافِي ٨ : ٣١٦ / ٤٩٨ .

(٨) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٦ : ١٧٦ .

(٩) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٦ : ١٧٦ .

(١٠) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٦ : ١٧٩ .

وَمَنْ لَمْ يَطْعَمُهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ وفارق وجاوز ﴿طَالُوتُ﴾ البلد ، وقيل : هو بيت المقدس مصاحبا
﴿بِالْجُنُودِ﴾ والعساكر. قيل : كانوا ثمانين ألفا ، وقيل : سبعون ألفا ، وقيل : ثلاثون ألف مقاتل.

في بيان كيفية ابتلاء بني إسرائيل بنهر

﴿قَالَ﴾ طالوت عن نفسه ، أو إخبارا عن نفسه ، أو إخبارا عن النبي. وروي أنّ القائل
للجنود هو النبي ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ وممتحنكم ﴿بِنَهَرٍ﴾ حتى يعلم المجاهدين والصّابرين.
عن ابن عباس : أنّه كان بين الأردن وفلسطين ^(٢) .

وقيل : كان الوقت قيظا ، فسلخوا مفازة فسألوا أن يجري الله لهم نهرا فقال : إنّ الله مبتليكم
بما أقرحتموه من النّهر ^(٣) ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ومن أصحابي المطيعين ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾
ولم يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ومن أصحابي ، وأهل طاعتي ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ من الماء ﴿بِيَدِهِ﴾ فلا
بأس بشرب غرفة واحدة ، فاختصّ المنع بشرب يكون بوضع الفم في ماء النّهر.

روي عن ابن عباس : كانت الغرفة يشرب منها هو ودوابّه وخدمه ، ويحمل منها. الخبر ^(٤) ،
ولعله لبركة الله بإعجاز النبي.

فلما انتهى الجنود إلى النّهر وابتلوا به ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ كالدّواب ، ولم يقنعوا بالغرفة فضلا عن
أن لا يشربوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾

وعن الرضا عليه السلام في رواية : « وقال لهم نبيهم : يا بني إسرائيل ، إنّ الله مبتليكم [بنهر] في
هذه المفازة ، فمن شرب منه فليس من حزب الله ، ومن لم يشرب فهو من حزب الله إلا من اغترف
غرفة بيده. فلما وردوا النّهر أطلق الله لهم أن يغترف كلّ واحد منهم غرفة [بيده] ، فشربوا منه إلا
قليلا منهم. فالذين شربوا منه كانوا ستين ألفا » ^(٥) .

ونقل أنّ من لم يقتصر على الغرفة غلب عطشه ، واسودّت شفّته ، ولم يقدر أن يمضي ،
وبقي على

(١) تفسير القمي ١ : ٨٣ ، تفسير الرازي ٦ : ١٧٩ .

(٢) الدر المنثور ١ : ٧٥٩ .

(٣) تفسير الرازي ٦ : ١٨٠ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ١٨٢ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٨٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٦ .

شطّ النَّهر. فعرف طالوت الموافق من المخالف.

وأعلم أنّ مثل الدنيا مثل هذا النَّهر ، فمن لم يقنع بالكفاف لا يشبع إلا بتراب القبر .
وعن الصادق عليه السلام أنّه قال : « القليل - الذين لم يشربوا ، ولم يغترفوا - ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا » (١) .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ ﴾ أي عبر النَّهر ﴿ هُوَ ﴾ أي طالوت ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ رأوا قوة جالوت وكثرة جنوده ، خافوا و﴿ قَالُوا ﴾ عن الصادق عليه السلام ، في رواية : « قال الذين شربوا منه » (٢) : ﴿ لَا طَاقَةَ ﴾ ولا قوّة ﴿ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ وبمحاربتهم .

قيل : كانوا مائة ألف مقاتل ، كلّهم شاكبي السلاح (٣) ، وكان جالوت رأس العمالقة وملّكهم ، وكان من أشدّ الناس وأقواهم ، وكان يهزم الجيوش وحده .

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ ﴾ ويتيقنون بالمعاد ولقاء كرامة الله وثوابه ، ولم يلهم حبّ الدنيا ولذاتها ، للمرعوبين من كثرة عدّة العدو وشوكتهم : اثبتوا في القتال ولا تنظروا كثرة العدو فإنه ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ وَفِرْقَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ ﴾ وهزمت ﴿ فِئَةٍ ﴾ وجماعة ﴿ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وإرادته ونصرته ﴿ وَاللَّهُ ﴾ بتأييده ومعونته ﴿ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ في طاعته وقاتل عدوّه ، فلا عبرة بكثرة العدو ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴾ (٤) .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٥١)

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا ﴾ في ميدان الحرب ﴿ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ وتحمّأوا لقتالهم مع ما رأوا من قلة عددهم وضعفهم ، وكثرة عدوّهم وشوكتهم ، تضرّعوا إلى الله في طلب الإعانة والنصرة ﴿ قَالُوا ﴾ (٥) ﴿ رَبَّنَا ﴾ ويا من بيده تدبير امورنا على وفق صلاحنا ﴿ أَفْرِغْ ﴾ واصبب ﴿ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ في منازلتهم ، وأعطنا

(١) تفسير القمي ١ : ٨٣ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٨٣ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٣٨٨ ، ورجل شاكبي السلاح : تام السلاح كامل الاستعداد .

(٤) آل عمران : ٣ / ١٦٠ .

(٥) في النسخة : بقولهم .

قوة تحمّل البلبا والمكاره والألام في مقاتلتهم ﴿وَتَبَّتْ أقدامنا﴾ في مزاولة النزال ، ومركة القتال ﴿وأنصرنا﴾ بإعانتك وتأيدك ﴿على القوم الكافرين﴾ الذين لا يلقون لرحمتك وأفتك. فحقق الله ظنهم ، وأجاب لهم دعوتهم ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ وفرقوا جمعهم وكسروا شوكتهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ونصره.

قصة قتل جالوت وأهزام عسكره

عن القمي ، عن الرضا عليه السلام : « فأوحى الله إلى نبيهم : أن جالوت يقتله من يستوي عليه درع موسى عليه السلام ، وهو رجل من ولد لاوي بن يعقوب ، اسمه داود بن آسي ، وكان آسي راعيا ، وكان له عشرة بنين أصغرهم داود. فلما بعث طالوت إلى بني إسرائيل وجمعهم لحرب جالوت ، بعث إلى آسي أن احضر وأحضر ولدك ، فلما حضروا دعا واحدا واحدا من ولده ، فألبسه الدرع - درع موسى - فمنهم من طالت عليه ، ومنهم من قصرت عنه ، فقال لآسي : هل خلقت من ولدك أحدا ؟ قال : نعم ، أصغرهم تركته في الغنم راعيا. فبعث إليه [ابنه] فجاء به ، فلما دعي أقبل ومعه مقلع^(١) . قال : فنادته ثلاث صخرات في طريقه ، فقالت : يا داود خذنا ، فأخذها في محلاته^(٢) ، وكان شديد البطش قويا في بدنه شجاعا ، فلما جاء إلى طالوت ألبسه درع موسى ، فاستوت عليه^(٣) .

وفي رواية العياشي : « أن داود لما دخل العسكر ، سمعهم يتعظمون أمر جالوت ، فقال لهم : ما تعظمون من أمره ، فوالله لئن عاينته لأقتلته. فحدثوا بخبره حتى ادخل على طالوت ، فقال : يا فتى ، وما عندك من القوة ، وما جرئت من نفسك ؟ قال : كان الأسد يعدو على الشاة من غنمي فادركه ، فأخذ برأسه فافك لحية^(٤) منها ، فأخذها من فيه. قال : فقال : ادع إلي بدرع سابعة^(٥) ، قال : فأتي بدرع ، ففقدتها في عنقه فتملا^(٦) منها. قال : فقال طالوت : والله لعسى الله أن يقتله به ، قال : فلما أن أصبحوا ورجعوا إلى طالوت ، والتقى الناس ... »^(٧) .

وفي رواية القمي : « ووقف داود بجذاء جالوت ، وكان جالوت على الفيل ، وعلى رأسه التاج ، وفي جبهته ياقوتة يلمع نورها ، وجنوده بين يديه ، فأخذ داود من تلك الحجارة حجرا فرمى به [في] ميمنة جالوت ، فمر في الهواء ووقع عليهم فانهمزوا ، وأخذ حجرا آخر فرمى به [في] ميسرة جالوت فانهمزوا ، ورمى جالوت بحجر^(٨) فصكّ الياقوتة في جبهته ، ووصل إلى دماغه ، ووقع إلى الأرض

(١) المقلع : ما يرمى به الحجر.

(٢) المخلاة : ما يوضع فيه العلف ويلقى في عنق الدابة.

(٣) تفسير القمي ١ : ٨٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٥.

(٤) اللحيان : العظمان اللذان فيهما الأسنان.

(٥) سابعة : أي واسعة.

(٦) أي امتلأت به ، واستوت عليه فكانت بقدر حجمه.

(٧) تفسير العياشي ١ : ١٣٤ / ٤٤٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٦ ..

(٨) زاد في المصدر : ثالث.

ميتا « (١) .

روي عن ابن عباس : أنَّ داود كان راعيا ، وله سبعة إخوة مع طالوت ، فلما أبطأ خبر إخوته على أبيهم إيشا ، أرسل ابنه داود إليهم ليأتيه بخبرهم ، فأتاهم وهم في المصاف^(٢) ، وبدر جالوت الجبار - وكان من قوم عاد - إلى البراز ، فلم يخرج إليه أحد ، فقال : يا بني إسرائيل ، لو كنتم على حق لبارزني بعضكم. فقال داود لإخوته : أما فيكم من يخرج إلى هذا الأغلف^(٣) ؟ فسكتوا ، فذهب إلى ناحية من الصف ليس فيها إخوته ، فمرَّ به طالوت وهو يحرض النَّاس ؛ فقال له داود : ما تصنعون بمن يقتل هذا الأغلف ؟ فقال طالوت : انكحه ابنتي واعطيه نصف ملكي ، فقال داود : فأنا خارج إليه ، وكان عادته أن يقاتل بالمقلاع الذَّئب والأسد في المرعى ، وكان طالوت عارفا بجلادته. فلما همَّ داود بأن يخرج إلى جالوت مرَّ بثلاثة أحجار ، فقلن : يا داود ، خذنا معك ، ففينا ميتة جالوت. ثمَّ لما خرج إلى جالوت رماه فأصابه في صدره ، ونفذ الحجر فيه^(٤) ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ وقتل بعده ناسا كثيرا ، فهزم الله جنود جالوت.

وفي رواية العياشي : « وقال النَّاس : قتل داود جالوت ، وملك النَّاس حتَّى لم يكن يسمع لطالوت ذكر ، واجتمعت بنو إسرائيل على داود »^(٥) الخبر.

وفي رواية ابن عباس : فحسده طالوت ، فأخرجه من مملكته ، ولم يف له بوعده ، ثمَّ ندم فذهب يطلبه إلى أن قتل^(٦) .

﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ والسلطنة على عامة بني إسرائيل ، فاستملك جميع أراضيهم ، ولم يتجمَّعوا قبل داود على ملك واحد ﴿وَوُ﴾ آتاه ﴿الْحِكْمَةَ﴾ قيل : هي النبوة ، ولم يجتمع الملك والنبوة في بني إسرائيل قبله إلَّا له ، بل كان الملك في سبط يهودا ، والنبوة في سبط لاوي. وفي رواية : وأنزل الله عليه الزَّبور^(٧) .

(١) تفسير القمي ١ : ٨٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٦ .

(٢) المصاف : جمع مصفٍّ ، وهو موقف الحرب ؛ حيث يقف ويصطف المقاتلون صفوفًا متقابلة مع العدو .

(٣) الأغلف : الذي لم يختن .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ١٨٨ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٢٥٥ / ٥٤٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٧ .

(٦) تفسير الرازي ٦ : ١٨٨ .

(٧) (٤ و) . تفسير العياشي ١ : ٢٥٥ / ٥٤٩ .

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وفي رواية : علّمه صنعة الحديد ، وليّنه له ^(١) . وقيل : منطق الطير والتّمّل . وقيل : الحكم والقضاء . وقيل : الألحان ^(٢) . ولا يبعد أن يكون المراد هو الجميع .
ثمّ بعد بيان منّته على بني إسرائيل بدفع جالوت وجنوده عنهم ونعمه عليهم ، بيّن أنّ هذه النعمة عامّة لجميع أهل العالم بقوله : ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ﴾ الكفّار ﴿بِبَعْضٍ﴾ المؤمنين .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أي يدفع الهلاك بالبرّ عن الفاجر » ^(٣) الخبر . ولعلّ المراد أنّ الله يدفع البلاء ببركة الأخيار عن الفجّار ، فيسلم ويعيش أهل الفسق والفجور بسبب وجود عباده الصّالحين ، ولولاهم لمنعت السّماوات والأرض بركاتها .

ويحتمل أن يكون المراد : لو لا دفع الله النّاس بعضهم عن المنكرات ؛ ينهي بعضهم ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ بمن فيها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ جميعا ، فيدفع بفضلّه هذا النّحو من الدفع حتّى لا يعمّهم الفساد ، فيمتنع الكافر بكفره قليلا ، ويربح المؤمن بكسبه جزيلا .

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥٢)

﴿تِلْكَ﴾ القصص العجيبة الخارقة للعادة ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ ودلائل صنعه ، وتوحيده ، وحكمته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ وحيا ، أو ننزلها إليك بتوسّط جبرئيل حال كونها مقرونة ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ، لا يعتريه شكّ ولا ريب ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فاتل تلك الآيات على النّاس ليعتبروا ويهتدوا ، وإنّ أصرّوا على الكفر ، فإنّما عليك البلاغ المبين ، وفيه إشعار بأنّه غنيّ عن الاعتبار بتلك الآيات ، فإنّ الشّهود والعيان مغن عن الدّليل والبرهان ، وإنّما عليه تلاوتها على النّاس ؛ لأنّ وظيفته الرّسالة .

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ

وَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ

الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ

وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣)

(٢) مجمع البيان ٢ : ٦٢١ ، تفسير روح البيان ١ : ٣٩١ ، تفسير الرازي ٦ : ١٨٩ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٦٢١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٧ .

ثم ذكر الله تعالى اختلاف امم الأنبياء ، ووقوع القتال بينهم ، مع أن الأنبياء كانوا في كمال العظمة وعلو المقام تسلياً لقلب حبيبه ، بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ جماعة ﴿ الرُّسُلِ ﴾ الذين أرسلناهم لإصلاح الأرض ، ودفع الفساد ، وهداية العباد ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ في المقامات المعنوية ، ومرتبة الرسالة ﴿ عَلَى بَعْضٍ ﴾ آخر ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ وشافهه بالمخاطبة كخاتم النبيين ﷺ في ليلة المعراج وغيرها ، وكموسى بن عمران ﴿ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ كثيرة ، لا يقاس بغيره .

في أفضلية خاتم النبيين ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ولعل الفرق بين التفضيل المذكور في الصدر ، والرفع المذكور هنا ، أن الأول لبيان أفضلية بعض الرسل على بعض ، وتفاوت مراتب بعضهم بالقياس إلى [بعض] آخر ، وهنا لبيان الرتبة المطلقة من غير إضافة ونسبة إلى بعض آخر ، كما أن رفعة السلطان رفعة مطلقة بالنسبة إلى الفقير ، ولا يقال : إن السلطان أرفع قدرا من الفقير الصعلوك ، فإن رتبة الفقير ليس بقابل أن تقع [في] طرف النسبة لرتبة السلطان ، بخلاف رتبة السلطان بالنسبة إلى سلطان آخر .

وهذه المرتبة من الرفعة لخاتم النبيين ﷺ ، حيث إنه أوتي ما لم يؤت أحد من المرسلين ، ولو أن إبراهيم وموسى وعيسى عليهما السلام كانوا في زمانه ﷺ لم يسعهم إلا الإيمان به واتباع دينه .

عن (العيون) : عن النبي ﷺ : « ما خلق الله خلقا أفضل مني ، ولا أكرم عليه مني » . قال علي عليه السلام : « فقلت : يا رسول الله أنت أفضل أم جبرئيل ؟ » فقال : « إن الله فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين ، وفضلني على جميع النبيين والمرسلين ، والفضل بعدي لك يا علي ، وللأئمة من بعدك ، وإن الملائكة لخدامنا ، وخدام محبينا » (١) .

عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اعطيت خمسا ، لم يعطهن أحد قبلي ولا فخر : بعثت إلى الأحمر والأسود وكان النبي قبلي يبعث إلى قومه ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر ، واحللت لي الغنائم ولم تكن لأحد قبلي ، واعطيت الشفاعة فادخرتها لامتي ، فهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئا » (٢) .

وروى البيهقي في (فضائل الصحابة) على ما نقله الفخر الرازي مع نهاية عصبته : أنه ظهر علي عليه السلام من بعيد ، فقال النبي ﷺ : « هذا سيد العرب » فقالت عائشة : أ لست أنت سيد العرب ؟ فقال : « أنا سيد

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٦٢ / ٢٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٨ .

(٢) تفسير الرازي ٦ : ١٩٨ .

العالمين» (١) .

وقال بعض العلماء : إنّ كلّ أمير تكون مؤنته على قدر رعيته ، وسعة مملكته . فالأمير الذي تكون إمارته على قرية تكون مؤنته بقدر تلك القرية ، ومن ملك المشرق والمغرب احتاج إلى أموال وذخائر أكثر من أموال أمير القرية ، فكذلك كلّ رسول بعث إلى قومه ، اعطي من كنوز التوحيد وجواهر المعرفة على قدر ما حمل من الرسالة ، فالمرسل إلى قومه في طرف مخصوص من الأرض ، إنّما يعطى من كنوز الروحانية بقدر ذلك الموضع ، والمرسل إلى كلّ أهل المشرق والمغرب إنسهم وجهنم ، لا بدّ وأن يعطى من المعرفة بقدر ما يمكنه أن يقوم بامور أهل الشرق والغرب .

وإذا كان كذلك ، كانت نسبة نبوة محمد ﷺ إلى نبوة سائر الأنبياء ، كنسبة ملك كلّ المشارق والمغارب إلى ملك بعض البلاد المخصوصة (٢) ، فلا جرم بلغ في العلم والحكمة والمعرفة إلى حدّ لم يبلغه أحد من البشر ، قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ (٣) وفي الفصاحة - إلى أن قال : « اوتيت جوامع الكلم » وصار كتابه مهيمنا على سائر الكتب ، وصارت أمته خير الأمم (٤) .

ثمّ حصّ الله تعالى عيسى بن مريم بالذكر ، بقوله : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ الآيات ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ والمعجزات الباهرات كإحياء الطير المسوى من الطين بالنفخ فيه ، وإحياء الموتى وغير ذلك ، مع كون معجزات موسى عليه السلام أكثر لتوبيخ اليهود على عدم الإيمان به ، مع وفور معجزاته ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ وأعانه ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ قيل : إنّ القدس هو الله ، وروحه جبرئيل . والإضافة تشريفيّة ، فإنّ الله أعانه بجبرئيل في أوّل أمره ، حيث قال : ﴿ فَتَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (٥) وفي وسطه حيث علّمه العلوم ، وفي آخره حيث إنّّه رفعه إلى السماء (٦) .

وهؤلاء النّبيون مع علوّ شأنهم وإتيانهم المعجزات الباهرات ، اختلفت امهم في الكفر والإيمان حتى تقاتلوا ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ وأراد - إرادة تكوينيّة - توافقهم على الحقّ ، وتسالمهم عليه ، وترك مقاتلتهم ، لا تفقوا على الإيمان بالقهر والجبر ﴿ مَا أَفْتَلَّ ﴾ امهم ﴿ الَّذِينَ ﴾ كانوا ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ وغبّ (٧) وفاتهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ ﴾ من قبل رسلهم ، الآيات ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ وشاهدوا المعجزات ،

(١) تفسير الرازي ٦ : ١٩٨ .

(٢) زاد في تفسير الرازي : ولما كان كذلك لا جرم اعطي من كنوز الحكمة والعلم ما لم يعط أحد قبله .

(٣) النجم : ٥٣ / ١٠ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ١٩٨ .

(٥) التحريم : ٦٦ / ١٢ .

(٦) تفسير الرازي ٦ : ٢٠٣ .

(٧) أي بعدها .

ووضحت لهم دلائل الحق الموجبة لاتفاقهم واجتماعهم على الإيمان بهم ، والموادة بينهم.

﴿وَلَكِنْ﴾ مع ذلك - حيث لم يشأ الله قهرهم على التوافق في الإيمان لكونه خلاف الحكمة ، وأتمّ النظام - ﴿اِخْتَلَفُوا﴾ بأهوائهم الزائغة اختلافا شديدا فاحشا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ بالرسول وما جاءوا به ، وأطاع ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ بهم ، وعصى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بعد وقوع الاختلاف بينهم ، عدم اقتتالهم ﴿مَا افْتَتَلُوا﴾ بأن لم يتحرّك منهم عضو للقتال ، ولم يحدث في قلوبهم داع إليه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من الخذلان والعصمة عدلا وفضلا.

عن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام : « في هذه الآية دلالة على أنّ أصحاب محمد ﷺ قد اختلفوا من بعده ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر » (١) .

عن العياشي : سئل أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل : كبر القوم وكبرنا ، وهلل القوم وهللنا ، وصلى القوم وصلينا ، فعلام نقاتلهم ؟ فتلا هذه الآية ، ثم قال : « نحن الذين من بعدهم » ، وقال : « فنحن الذين آمنّا ، وهم الذين كفروا » (٢) .

وفي رواية ، قال : « فلمّا وقع الاختلاف كنّا نحن أولى بالله عزّ وجلّ وبالتيّ والكتاب وبالحقّ ، فنحن الذين آمنوا ، وهم الذين كفروا ، وشاء الله تعالى قتالهم بإرادته ومشيتته » (٣) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ

وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤)

ثمّ لما كان في الآية السابقة إشعار بلزوم القتال بين المؤمنين والكافرين ، ومن الواضح أنّه متوقّف على صرف المال ، أردفه بالأمر بإنفاقه ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ في الجهاد ، وسائر سبل الخير ، شيئا ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وتفضلنا به عليكم إحسانا وكرما.

وفيه دلالة على أنّ كل ما بأيدي الناس من الأموال ، من مواهب الله وإنعامه عليهم وليس لهم شيء منها ، وعلى هذا لا ينبغي أن يصعب على احد إنفاقه ، بل عليه أن ينفقه بسهولة وبلا منّة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ﴾ يوم فاقة جميع الناس ، وغاية استئصالهم ، وهو يوم القيامة ، حيث إنّهُ ﴿يَوْمٌ لَا بَيْعَ﴾ و [لا]

(١) الكافي ٨ : ٢٧٠ / ٣٩٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٨ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٦ / ٥٥٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٨ .

(٣) أمالي الطوسي : ١٩٨ / ٣٣٧ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٨ .

تجارة يكتسب بها ﴿فِيهِ﴾ مال يفيد أحدا ، ويكون فداء لنفس ﴿وَلَا حُلَّةَ﴾ وصداقة فيه بين الناس ، بل الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ ﴿وَلَا شَفَاعَةَ﴾ نافعة إذ الشفعاء لا يشفعون إلا لمن ارتضى .

والحاصل : أنه لما كانت أسباب جلب المنافع في الدنيا منحصرة بالمعاوضات ، وعمدتها البيع ، وبالموادّة بالصّلات والهدايا ، وبالمعاونة للغير ، وعمدتها الشفاعة ، والإنسان منقطع عن جميعها في الآخرة ، فعليه أن يكتسب نفع الآخرة في الدنيا بالإنفاق والعمل الصّالح .

ويحتمل أن يكون المراد من الإنفاق بذل جميع ما كان واجدا له بعتاء الله من النفس في الجهاد ، والقوى في الطاعات ، والعلم في هداية الخلق ، والمال لفقراء المؤمنين ، والجاه في قضاء حوائج العباد ، وغير ذلك ممّا يمكن صرفه في تحصيل مرضاة الله .

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بترك الطّاعة وعدم الإنفاق ﴿هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم ولبلوغهم في هذا الوصف غايته ، كأنّ المتصف بهذا الوصف صار منحصرا بهم ، لا يشركهم فيه غيرهم .
وقيل : المراد من الكافرين المؤمنون التاركون للزّكاة ، والتعبير عنهم بالكافرين للإشعار بأنّ ترك الزّكاة بمنزلة الكفر بالله . وقال بعض : الحمد لله الذي قال : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل الظّالمون هم الكافرون ^(١) .

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)

ثمّ أنّه تعالى بعد ما ذكر جملة من الأحكام والقصص ، عاد إلى بيان التّوحيد وصفاته الكاملة الجلالية ، ليحصل للقلوب نور ونشاط ، وللصدور انشراح وانبساط ، بقوله : ﴿اللَّهُ﴾ وفي ذكر اسم الجلالية ، ليحصل للقلوب نور ونشاط ، وللصدور انشراح وانبساط ، بقوله : ﴿اللَّهُ﴾ وفي ذكر اسم الجلالة أولا إشارة إلى التّوحيد الدّاتي ، لإشعار ذكره بانفراده بأنّ الموجود القابل للذكر هو الدّات المقدّسة ، وما سواه عدم محض وليس صرف ، كما قال : ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ ^(٢) الآية .

ثمّ أشار إلى التّوحيد الصّفاقي بقوله : ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا معبود يستحقّ بذاته عبودية جميع الموجودات

(١) تفسير الرازي ٦ : ٢٠٧ .

(٢) الأنعام : ٦ / ٩١ .

﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحده ، لا شريك له في الألوهية ، وفيه تنزيهه من جميع النقائص.

ثم بعد إثبات الصفات الجلالية إجمالاً ، أثبت له الصفات الجمالية بذكر الصفة الجامعة لها ، وهي ﴿الْحَيُّ﴾ قيل في معناه : الدائم ، الباقي ، الفعال ، المريد. وقيل : إنه المدرك بذاته ، والقادر بإرادته.

و﴿الْقَيُّومُ﴾ وهو المتقوم بذاته ، المقوم لكل ما عداه في ماهيته ووجوده ، والعالم بتدبير جميع الخلق وحفظهم ، فبدل هذا الوصف على كون ذاته المقدسة قديمة ، أزلية ، دائمة ، غنية ، قادرة ، عالمة.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « لما كان يوم بدر قاتلت ، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ أنظر ماذا يصنع - قال - فجئت وهو ساجد ، يقول : يا حيّ يا قيوم ؛ لا يزيد على ذلك ، ثم رجعت إلى القتال ، ثم جئت وهو يقول ذلك ، فلا أزال أذهب وأرجع وأنظر إليه ، وكان لا يزيد على ذلك ، إلى أن فتح الله له » (١) . وقال بعض : إنه الاسم الأعظم (٢) .
روي عن ابن عباس أنه كان يقول : أعظم أسماء الله الحيّ القيوم (٣) .
ونقل أن عيسى عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى يقول : يا حيّ يا قيوم (٤) .
وقيل : دعاء من خاف الغرق في البحر : يا حيّ يا قيوم (٥) .

ثم قرّر تعالى صفة القيمومية بذكر لازمها ، بقوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ ولا تعتربه ﴿سِنَةٌ﴾ وفتور ، أو نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ قيل : هو كناية عن عدم غفلته عن تدبير الخلق (٦) ، كما أنه يقال لمن غفل عن شيء وضعفه : إنك وسنان نائم.

ثم أكّد قيمومته ، واحتج على تفردّه بالتدبير بأن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إذ هو خالق جميع الممكنات ومبدعها ، فكلّها ملكه وتحت قدرته وسلطانه ، ليس لغيره في عوالم الوجود تصرف ولا حكم ولا نفوذ وإرادة.

ثم لما كانت قريش يعبدون الأصنام بزعم أنّها شفعاء عند الله ، عظّم كبرياءه ، وأثبت توحيده في العبادة ، وأنكر عليهم اعتقاد كونهم شفعاء بقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ في شيء من الأشياء وأمر من الأمور ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وإجازته ورضاه ، ومن الواضح أنّه لا إذن إلا لمن له كرامة لديه ، ومقام محمود عنده ، كالنبي وخلفائه وصلحاء أمته ، دون الأصنام والكفار.

(١) تفسير الرازي ٧ : ٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤٠٠ .

(٣) تفسير الرازي ٧ : ٣ .

(٤) تفسير الرازي ٦ : ١٧٦ .. تفسير روح البيان ١ : ٤٠٠ .

(٦) تفسير الرازي ٧ : ٦ .

عن النبي ﷺ ، قال : « أتاني آت [من عند ربي] فخيرني بين أن يدخل نصف امتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة » (١) .

ثم بين سعة علمه ، وقصور غيره عن معرفة شيء بغير إفاضة منه بقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل : المراد ما كان قبلهم في الوجود ، ومن قوله : ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما لم يكن بعد . وهو مروى عن الرضا عليه السلام (٢) ، وقيل : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي الآخرة ؛ لأنهم يقدمون عليها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي الدنيا ؛ لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم (٣) .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ ولا يطلعون على جزء من معلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يعلمه غيره ، ويطلع عليه .

عن القمي رحمه الله : إلا بما يوحى إليهم (٤) . وفيه دلالة واضحة على أن جميع العلوم بإفاضته تعالى ، ولو لا إفاضته لم يعلم أحد شيئا حتى نفسه .

ثم أوضح سبحانه سعة ملكه ، وعظمة سلطانه ، وكمال إحاطته وعلمه بقوله : ﴿وَسِعَ﴾ وأحاط ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ وهو اسم للسماء ، الذي دون العرش ، وفوق سائر الموجودات ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ وما فيها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها . فعليه يكون الكرسي محيطا بجميع الموجودات سوى العرش ، وإنما سميت تلك السماء باسم الكرسي تشبيها له بمقر سلطنته .

وعن العياشي ، عنه عليه السلام : أنه سئل : إن السماوات والأرض وسع الكرسي ، أم الكرسي وسع السماوات والأرض ؟ فقال : « إن كل شيء في الكرسي » (٥) .

وعن القمي رحمه الله : أن عليا عليه السلام سئل عن هذه الآية ، فقال : « السماوات والأرض وما فيهما في جوف الكرسي ، وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله » (٦) .

وفي الحديث النبوي : « ليس (٧) السماوات السبع ، والأرضون السبع مع (٨) الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » (٩) .

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٠٢ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٨٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٩ .

(٣) تفسير الرازي ٧ : ١٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٨٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٥٩ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٢٥٨ / ٥٥٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٠ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٨٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٠ .

(٧) في تفسير روح البيان : ما .

(٨) في تفسير روح البيان : من .

(٩) تفسير روح البيان ١ : ٤٠٤ .

عن (التوحيد) : عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن العرش والكرسي ما هما ؟ فقال : « العرش في وجهه هو جملة الخلق ، والكرسي وعاءه . وفي وجه [آخر] العرش هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه ورسله وحججه ، والكرسي هو العلم الذي لم يطلع عليه أحدا من أنبيائه ورسله » (١) .

ثم بين سبحانه كمال قدرته بقوله : ﴿وَلَا يُوَدُّهُ﴾ ولا يشقّ عليه إقامة السماوات والأرض و﴿حَفِظُهُمَا﴾ عن الخلل والفساد .

ثم بين كمال تعاليه وعظمته بعد ذكر تلك الصفات بقوله : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته عن الأنداد ، وبصفاته عن الأشياء ، وهو المتعالي بالقدر والشأن عن جميع ما سواه ، وهو ﴿الْعَظِيمُ﴾ بالمهابة والقهر والكبرياء ، ترتعد من خشيته جميع الأشياء .

في بيان وجه فضيلة آية الكرسي على غيرها من الآيات

ثم لما كانت الآية الكرمة حاوية لجميع المعارف الإلهية ، متضمنة لامتهات مسائل العلوم الربانية - لكونها ناطقة بوجوده تعالى وتفرده ، ووجوب ذاته وحياته ، وكمال صفاته ، وتنزهه عن التحيز والحلول والتغير والفتور ، وكونه موجدا لجميع الكائنات قائما بتدبيرها ، وكونه مالك الملك والملوك ، ومبدع الاصول والفروع ، ذا البطش الشديد ، لا يشفع عنده إلا لمن أذن له ، علما بجميع الأشياء جليها وخفيها ، واسع الملك والقدرة ، ولا يشقّ عليه شاق ، ولا يشغله شأن عن شأن ، متعاليا عما تناله الأوهام ، عظيما لا تدركه العقول والأفهام - كانت لها فضيلة فائقة ، وعظمة كاملة على سائر الآيات .

كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أن أعظم آية في القرآن آية الكرسي ، من قرأها بعث الله ملكا يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة » (٢) .

وروى كثير من العامة ، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تذاكر الصحابة أفضل ما في القرآن ، فقال علي عليه السلام : « أين أنتم من آية الكرسي ؟ » .

ثم قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا علي ، سيد البشر آدم ، وسيد العرب محمد ولا فخر » إلى أن قال : « وسيد الكلام القرآن ، وسيد القرآن البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسي » (٣) .

وفي رواية أخرى ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « يا علي ، علمها ولدك وأهلك وجيرانك ، فما نزلت آية أعظم منها » (٤) .

(١) معاني الأخبار : ٢٩ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ٢٤٩ .

(٣) تفسير الرازي ٧ : ٣ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٤٠٦ .

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ

فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾

ثمَّ أنه بعد ما بيّن الله تعالى اصول المعارف الحقّة - من تفرّده بذاته وتعالیه بالشؤون الجليلة الجميلة التي تحكم بها العقول السليمة ، وجملة من الأحكام التي توافق العادات والحكم الكاملة ، وكان فيها الدلالة الواضحة على صحّة دين الإسلام ، بحيث لم يكن لأحد مجال الشكّ والتّرديد فيه - بيّن أنّه لا عذر في الإقامة على الشّرك وعدم قبول الإسلام بقوله : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي﴾ قبول ﴿الدِّينِ﴾ القويم الذي جاء به محمد ﷺ ، ولا مصداق لمفهومه ، حيث إنّ بالأدلة العقلية والآيات الباهرة ﴿قَدْ تَبَيَّنَ﴾ واتّضح ﴿الرُّشْدُ﴾ وسبيل الحقّ ، وهو ملّة التّوحيد ودين الإسلام ، وتميّز ﴿مِنْ﴾ الْغَيِّ﴾ وطريق الضّلال ، وهو مذهب الوثنيّة ، وسائر الأديان الباطلة.

إن قيل : في تشريع الجهاد إكراه الكفّار ، فكيف ينفي مصداقه ؟

قلنا : ليس الإكراه إلزام الغير بما لا يرى فيه صلاحا وخيرا ، وبعد وضوح الحقّ يكون الامتناع عن قبوله عنادا ولجاجا ، فيكون قتل المعاند الجاحد عقوبة له كسائر الحدود المشروحة لا إكراها على قبول الدّين ، فالإسلام للكافر توبة من تلك المعصية.

قيل : إنّ الآية نزلت في الجوس ، وأهل الكتاب فإنّهم لا يكرهون على الإسلام ، بل تقبل منهم الجزية.

وفيه : أنّه لا يندفع به الإشكال ، لوضوح صدق الإكراه عند الإلزام بأحد الأمرين تخييرا ، مع أنّ الإكراه على الإسلام يتحقّق بتوعّد المكره وتخييره بين القتل وبذل المال مع الصّغار.

روي أنّه كان لأنصاري من بني سالم بن عوف ابنان ، قد تنصّرا قبل مبعثه ﷺ ، ثمّ قدما المدينة فألزمهما أبوهما ، وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما ، فأبيا ، فاختموا إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت ، فخلاهما (١) .

أقول : هذا محمول على ما قبل تشريع الجزية على أهل الكتاب ، ويمكن أن يراد بالدّين التّشيع والولاية.

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢٤٩ .

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ ويعرض عن كلِّ معبود غير الله ، وكل مطغ عن طاعة الله من الشياطين والأصنام ومردة الجن والإنس وأئمة الضلال.

وعن القمي : هم الذين غصبوا آل محمد حقهم ^(١) .

﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً صادقاً. ومن العلوم أنَّ الإيمان الحقيقي به سبحانه مستلزم للإيمان بكتبه ورسوله وحججه وأحكامه ، والعمل بها ، وفي تقديم الكفر بالطَّاغُوت على الإيمان بالله إشعار بتقدّم التخليه على التحلية والتبري على التوليّ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ وبالعروة الوثقى ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ والحلقة الوكيدة التي ﴿لَا انفصام﴾ ولا انقطاع ﴿لَهَا﴾ أبداً.

وكما أنَّ المتمسك بالحلقة الوكيدة ، والحبل المحكم مأمون من التردّي في البئر ، أو الغرق في البحر ، كذلك الملازم للعقائد الحقّة من التوحيد والرّسالة والولاية مأمون من التردّي في جبّ الهوى وبحر الفتن ، وأمواج الشّهوات في الدّنيا ، وفي نار جهنّم في الآخرة.

عن النبي ﷺ : « من أحبَّ أن يستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، فليتمسك بولاية أخي ووصي عليّ بن أبي طالب ، فإنّه لا يهلك من أحبّه [وتولّاه] ، ولا ينجو من أبغضه وعاداه » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « هي مودّتنا أهل البيت » ^(٣) .

ثمّ وعد الله المؤمنين وأوعد الكافرين بقوله : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقال المؤمن والكافر من إظهار الإيمان والكفر ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم وقلوبهم من العقائد الحقّة والباطلة ، والتّيّات الحسنة والسيّئة ، ومن حبّ الله وبغضه ، وولاية رسوله وأوليائه ومعاداتهم ، فيجزّي كلّاً على وفق قوله وعقد قلبه وعمله. وفيه غاية التّغيب إلى الإيمان والطّاعة ، والتّرهيب من الكفر والمعصية.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه ، قال في تفسيره : كان رسول الله ﷺ يحبّ إسلام أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا حول المدينة ، وكان يسأل الله ذلك سرّاً وعلانية. فمعنى قوله : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يريد : لدعائك يا محمد بحرصك عليه واجتهادك ^(٤) .

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمْ

(١) تفسير القمي ١ : ٨٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦١ .

(٢) معاني الأخبار : ٣٦٨ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٢ .

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٢ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ١٧ .

الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

ثمّ بالغ سبحانه في التّرييب والتّرهيب بقوله : ﴿اللَّهُ﴾ تعالى بلطفه وإحسانه ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومدبّر امور الذين أراد إيمانهم. أو المراد محبّ الذين التزموا بالإيمان وناصرهم. ومن تدبيره لامورهم ، أو من ثمرات حبّه إياهم أنّه : ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾ بتوفيقه وتكميل عقولهم ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الضلال والجهل والمعاصي ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الذي يعمّ نور الإيمان والإيقان ، والطّاعة والعلم.

عن الصادق ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « المؤمن يتقلّب في خمسة من النور : مدخله نور ، ومخرجه نور ، وعلمه نور ، وكلامه نور ، ومنظره يوم القيامة إلى النور » (١) .

وقال بعض : إنّ المؤمنين ثلاث طوائف : عوامهم ، وخواصهم ، وخواصّ الخواصّ منهم. فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ، والخواصّ يخرجهم من ظلمات الصّفات النّفسانيّة والجسمانيّة إلى نور الرّوحانيّة الرّائيّة ، وخواصّ الخواصّ يخرجهم من ظلمات وجودهم إلى نور الفناء في الله ، وكلّها من شؤون ربوبيّته وولايته لهم (٢) .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وخبثت فطرهم ، وسبق في علمه تعالى ضلالتهم ، فيكلهم الله إلى أنفسهم ، فعند ذلك ﴿أُولَئَاؤُهُمْ﴾ ومدبّر امورهم ﴿الطَّاغُوتُ﴾ من الشياطين ورؤساء الضلال. عن الباقر عليه السلام : « أولياؤهم الطّواغيت » (٣) .

وعن القمي عليه السلام : هم الظالمون لآل محمّد ﴿أُولَئَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ وهم الذين تبعوا من غصبهم (٤) .

ومن شؤون ولايتهم لإهل الكفر أنّهم ﴿يُخْرِجُونَهُمْ﴾ بوساوسهم وتسويلاتهم وسائر وسائل الإضلال ﴿مِنَ النُّورِ﴾ الذي هو الإيمان والعقائد الحقّة ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الثلاث المذكورة. قيل : إنّ القضية الاولى نزلت في قوم من أهل الكتاب آمنوا بالنبي ، والاخرى في قوم ارتدّوا عن الإسلام.

عن الصادق عليه السلام : « النور آل محمّد ﷺ ، والظلمات عدوّهم » (٥) .

(١) الخصال : ٢٧٧ / ٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٢ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤٠٩ .

(٣) الكافي ٨ : ٢٨٩ / ٤٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٢ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٨٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٢ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٢٦٠ / ٥٦٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٢ .

وعن ابن أبي يعفور ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام احاطت الناس ، فيكثر عجي من أقوام لا يتولونكم ، ويتولون فلانا وفلانا ، لهم أمانة وصدق ووفاء ، وأقوام يتولونكم ليست لهم تلك الأمانة ولا الوفاء والصدق !

قال : فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالسا ، فأقبل عليّ كالمغضب ^(١) . ثم قال : « لا دين لمن دان الله بولاية إمام جائر ليس من الله ، ولا عتب على من دان الله بولاية إمام عادل من الله » . قلت : لا دين لأولئك ، ولا عتب على هؤلاء ؟ قال : « نعم ، لا دين لأولئك ، ولا عتب على هؤلاء » .

ثم قال - : « ألا تسمع لقول الله عز وجل : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني ظلمات الذنوب إلى نور التوبة والمغفرة بولايتهم كل إمام عادل من الله عز وجل ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ إنما عنى بهذا أنهم كانوا على نور الإسلام ، فلما أن تولوا كل إمام جائر ليس من الله ، خرجوا بولايتهم من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر ، فأوجب الله تعالى لهم النار مع الكفار » ^(٢) .

وزاد العياشي بعد قوله : إلى الظلمات ، قال : قلت : أليس الله عنى بهذا الكافر ^(٣) حين قال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال : فقال : « وأي نور للكافر وهو كافر به ^(٤) فاحرج منه إلى الظلمات ؟ ! إنما عنى بهذا ... » ^(٥) إلى آخر الحديث .

﴿أُولَئِكَ﴾ الكافرون بالله ورسله ، أو بولاية ولاية الحق ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿هُمْ﴾ خاصة ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ماكنون أبدا .

وفي رواية : « فأعداء أمير المؤمنين عليه السلام هم الخالدون في النار ، وإن كانوا في أديانهم على غاية الورع والزهد والعبادة » ^(٦) .

قيل : إنّه تعالى لم يقل بعد قوله : ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون تعظيما لشأن المؤمنين وإشعارا بأنّ البيان ^(٧) لا يفني بما أعدّ لهم من الثواب ^(٨) .

(١) في الكافي وتفسير الصافي : كالغضبان .

(٢) الكافي ١ : ٣٠٧ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٢ .

(٣) في تفسير العياشي : بما الكفار .

(٤) أي بالإسلام .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٢٥٩ / ٥٦٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٣ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٢٦١ / ٥٦٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٣ .

(٧) زاد في تفسير روح البيان : اللفظي .

(٨) تفسير روح البيان ١ : ٤٠٩ ، وفيه : أعدّ لهم في دار الثواب .

ثم اعلم أنّ الأشاعرة استدّلوا بقوله : ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ على أنّ الإيمان بخلق الله من غير تأثير لإرادة العبد وقدرته. والمعتزلة استدّلوا بقوله : ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ على أنّ الكفر والعصيان مستندان إلى الخلق استقلالا ، من غير دخل الله تعالى فيهما ، وكلاهما في غاية الفساد لوضوح استناد الإيمان والكفر إلى إرادة العبد وقدرته وانتهائهما بالتسبب إلى إرادة الله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طُعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى استشهد على ولايته للمؤمنين ، وولاية الطّاغوت للكافرين بقصّة محاجة إبراهيم وملك زمانه حيث قال مخاطبا لنبيّه : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد مرّ سابقا أنّ في هذا التعبير إشعارا بإحاطته صلوات الله عليه في عالم الأشباح بجميع وقائع هذا العالم ، وحضوره عندها.

في محاجة نمrod إبراهيم

وقيل : إنّ المعنى : ألم ينته علمك الذي يضاهاى الرؤية والعيان ، الحاصل بسبب إخبارنا ، الموجب لكمال الإيقان ﴿إِلَى﴾ نمrod بن كنعان ﴿الَّذِي حَاجَّ﴾ وجادل وخصم ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ لادّعاءه الرّبوبيّة لنفسه ﴿فِي﴾ شأن ﴿رَبِّهِ﴾ وفي التعريض لعنوان الرّبوبيّة مع إضافته إليه ﷺ تشريف له ، وإيدان بتأييده بالحجّة. وكانت مخاصمة نمrod لأجل ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ والسّلطنة الواسعة العظيمة فاغترّ بها وبطر حتى ادّعى الرّبوبيّة.

عن مجاهد : أنّه لم يملك الدّنيا إلّا أربعة : مسلمان وكافران ، فالمسلمان : سليمان وذو

القرنين ،

والكافران : نمروذ وبخت نصر ، وهو شدّاد بن عاد الذي بنى إرم في بعض صحاري عدن ^(١) .
وعن البرقي ، مرفوعا ، ما يقرب منه ، إلى قوله : وبخت نصر ^(٢) .
ونقل : أنّ نمروذ أوّل من وضع التّاج وتجبرّ ، ودعا النّاس إلى عبادته ^(٣) .
وقيل : أنّ المراد أنّه حاجّ إبراهيم عليه السلام شكر الله لأجل أن آتاه الملك ، على طريقة العكس ،
كقولك : عاديتني لأني أحسنت إليك.
قيل : إنّ الحاجة كانت بعد كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام ، وقبل إلقائه في النّار .
روي من طرق العامّة أنّه عليه السلام لما كسر الأصنام سجنه نمروذ ، ثمّ أخرججه ليحرقه ، فقال : من
ربّك الذي تدعوننا إليه ؟ ^(٤) .
وعن الصادق عليه السلام أنّه كان بعد إلقائه في النّار ^(٥) .
ثمّ شرح الله الحاجة بقوله : ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ بعد سؤال نمروذ عن ربّه : ﴿رَبِّي﴾ القادر
﴿الَّذِي يُحْيِي الْمَيِّتَ وَيُمِيتُ الْحَيَّ﴾ ، فاستدلّ بفعله الذي لا يشاركه فيه أحد من الخلق . وتقديم
الإحياء لكون القدرة فيه أظهر .
فعارضه نمروذ و﴿قَالَ﴾ لغاية بلاذته ، أو للتّمويه والتّلبيس على النّاس : ﴿أَنَا﴾ أيضا
﴿أُحْيِي﴾ الميت ﴿وَأُمِيتُ﴾ الحيّ .
روي أنّه دعا برجلين قد حبسهما ، فقتل أحدهما ، وأطلق الآخر ، فقال : قد أحييت هذا
وأمتّ هذا ^(٦) .
وعن الصادق عليه السلام : « أنّ إبراهيم عليه السلام قال له : أحي من قتلته إن كنت صادقا » ^(٧) .
ثمّ أعرض عن جواب معارضته الفاسدة ، لكون بطلانها من الظّهور بحيث لا يكاد يخفى على
أحد ، وأتى بحجّة لا يقدر الأحمق على معارضتها بمثل هذا التّمويه ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عليه السلام : إنّ كنت
قادرا على مثل مقدورات الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ إلى المغرب قسرا ، بمشيئته
وقدرته ، لوضوح أنّ الحركة ليست من لوازم ذات الجسم ، وإلا لم يوجد جسم منفكّا عن الحركة ،
وهو خلاف الحسّ والوجدان ، فلا بدّ أن يكون محرّك جرم الشّمس مع كمال عظمتها هو خالقها ،
وليس إلّا الله

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤١٠ .

(٢) الخصال : ٢٥٥ / ١٣٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٣ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٤١٠ ، وفيه : وتجبرّ ، وادعى الربوبية .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٤١٠ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٦٣٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٣ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٤١٠ .

(٧) مجمع البيان ١ : ٦٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٣ .

الذي هو خالق سائر الموجودات ، فهو بقدرته يسيّرُها وبحكمته يحركها إلى المغرب. فإن كنت تدّعي
الالوهية الملازمة للقدرّة الكاملة ﴿فَأْتِ﴾ وسيّر ﴿بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ إلى المشرق.
﴿فَبُهِتَ﴾ وتخيّر الملك ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾ في الجواب ، وصار كالمدهوش ، لم يجد للردّ مقالا ،
وللمعارضة مجالا ؛ لبداهة أنّه ليس للبشر التصرّف في الفلكيّات ، سيّما مثل هذا التصرّف ﴿وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي﴾ ولا يوفّق للرّشد إلى صراط الحقّ وطريق الجنّة ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار
الكفر والضلال ؛ لخبث طبيعتهم ، وسوء سريرتهم ، فاستحقّوا الخذلان والنكال.

قصة النبي الذي مرّ على قرية

ثمّ أنّه تعالى - بعد إقامة البرهان على التّوحيد ؛ بذكر حاجة إبراهيم عليه السلام - أخذ في إقامة
البرهان على إمكان المعاد بذكر قصة متضمّنة لوقوع نظيره الذي هو أقوى البراهين على إمكانه ،
بقوله : ﴿أَوَلَمْ تَرَ أَنِّي رَأَيْتُكَ الْنَبِيَّ الَّذِي مَرَّ عَلَيَّ قَرْيَةً﴾ بيت المقدس. وهل اطّلت على لطف ربّك
باحد مثل لطفه بذلك النبيّ ؟ حيث إنّ الله هداه إلى المعرفة الكاملة بالمعاد ، وكيفية البعث وإحياء
الرمم ، حتى بلغ من مرتبة علم اليقين إلى درجة عين اليقين ، وذلك من شؤون ولايته للمؤمنين.

روي أنّ بني إسرائيل لما بالغوا في تعاطي الفساد سلّط الله عليهم بخت نصر ، فسار إليهم في
ستّمائة ألف راية ، حتّى وطئ الشّام ، وخرب بيت المقدس ، وجعل بني إسرائيل أثلاثا : ثلثا منهم
قتلهم ، وثلثا منهم أقرّهم بالشّام ، وثلثا منهم سباهم. وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع ،
فقسّمهم بين الملوك الذين كانوا معه ، فأصاب كلّ ملك منهم أربعة غلّة ، وكان عزيز من جملتهم
(١).

وعن ابن عباس : أنّه كان من علمائهم (٢) ، وجاء بهم إلى بابل ، فلمّا نجّاه الله منهم بعد
حين مرّ بحماره على بلدة بيت المقدس ، فرآها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ وساقطة بغيظاتها ﴿عَلَى غُرُوشِهَا﴾
وسقوفها ، خالية من أهلها. فلمّا رأى العزيز الأجساد البالية ﴿قَالَ﴾ - استعظاما لقدرّة الله ،
واعترافا بقصور فهمه عن كيفية الإحياء ، أو تلّفها على القرية وأهلها ، وتشوقا إلى عمارتها مع
استشعار اليأس عنها ، لا شكّا وإنكارا - : ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ﴾ العظام ، أو هذه القرية ، وكيف
يبعثها ﴿اللَّهُ﴾ أو يعمرها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وبلائها ، أو بعد خرابها وعفو آثارها.

عن ابن عباس عليه السلام : أنّ عزيزا دخل يوما تلك القرية ، ونزل تحت شجرة وهو على حمار ،

فربط

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤١٢ .

(٢) تفسير الرازي ٧ : ٣١ .

حماره ، وطاف في القرية ، فلم ير فيها أحدا ، فعجب من ذلك ، وقال : ﴿أَنْتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لا على سبيل الشك في القدرة ، بل على سبيل الاستبعاد بحسب العادة ، وكانت الأشجار مثمرة ، فتناول من الفاكهة التين والعنب ، وشرب من عصير العنب ، ونام ^(١) ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ وقبض روحه في منامه ، وأبقاه على الموت ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾

وعن النبي ﷺ ، في حديث : « فبعث الله عزيرا نبيا إلى أهل القرى التي أمات الله عز وجل أهلها [، ثم بعثهم ، وكانوا من قرى شتى ، فهربوا فرقا من الموت فنزلوا في جوار عزير ، وكانوا مؤمنين ، وكان [عزير] يختلف إليهم ويسمع كلامهم وإيمانهم فأحبهم على ذلك وآخاهم عليه ، فغاب [عنهم] يوما واحدا ، ثم أتاهم فوجدهم صرعى موتى ، فحزن عليهم وقال : ﴿أَنْتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تعجبا من ^(٢) حيث أصابهم ، وقد ماتوا أجمعين في يوم واحد ، فأماته الله » ^(٣) الحديث .

وفي رواية ذكر فيها تسلط بخت نصر على بني إسرائيل ، وقتله إيتاهم ، وسببه ذراريهم ، واصطفى من السبي دانيال وعزيرا ، وهما صغيران ، وكان دانيال أسيرا في يده سبعين ^(٤) سنة - إلى أن قال - : « وفوض بخت نصر إليه أمور ممالكه ، والقضاء بين الناس ، ولم يلبث إلا قليلا حتى مات ، وافضلي الأمر بعده إلى عزير ، فكانوا يجتمعون إليه ويستأنسون به ، ويأخذون عنه معالم دينهم ، فعيب الله عنهم شخصه مائة عام ، ثم بعثه » ^(٥) . والظاهر أن المراد بالغيبة الموت .

وفي رواية القمي والعياشي : عن الصادق عليه السلام : « أن المارّ على القرية هو أرميا » ^(٦) . وعليه بعض المفسرين من العامة ، ثم أنهم اختلفوا فقال بعضهم : إنه أرميا بن حلقام ^(٧) ، وبعضهم قالوا : إن أرميا هو الخضر بعينه ^(٨) والأشهر الأقوى هو الأول .

وعن (الجمع) : عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أن عزيرا خرج من أهله وامراته حامل ، وله خمسون سنة ، فأماته الله مائة عام » ^(٩) .

(١) تفسير الرازي ٧ : ٣١ .

(٢) في كمال الدين وتفسير الصافي : منه .

(٣) كمال الدين : ٢٦٦ / ٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٨ .

(٤) في كمال الدين وتفسير الصافي : تسعين .

(٥) كمال الدين : ١٥٧ و ١٥٨ / ١٧ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٩ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٨٦ ، تفسير العياشي ١ : ٢٦٢ / ٥٧٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٤ .

(٧) في تفسير أبي السعود : أرميا بن حلقيا .

(٨) تفسير أبي السعود ١ : ٢٥٢ .

(٩) مجمع البيان ١ : ٦٤١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٩ .

وفي رواية : أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد ، فلمّا مضى من موته سبعون سنة وجّه الله عزّ وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس ، يقال له : يوشك إلى بيت المقدس ليعمّره ، ومعه ألف قهرمان ^(١) ، ومع كلّ قهرمان ثلاثمائة ألف عامل ، فجعلوا يعمّرونه ، وأهلك الله بخت نصّر ببعوضة دخلت في دماغه ، ونجّى الله من بقي من بني إسرائيل ، وردّهم إلى بيت المقدس ، فتراجع من تفرّق منهم ، فعمّروه ثلاثين [سنة] ، فلمّا تمتّ المائة من موت عزيز أحياء الله ^(٢) ، وذلك قوله : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُ﴾ والتعبير عن الإحياء بالبعث للدلالة على السرعة ، وسهولته على الله ، مع كونه بعد الموت في مدّة طويلة.

وفي رواية القميّ : عن الصادق عليه السلام أنّه لما سلّط الله بخت نصّر على بني إسرائيل هرب أرميا ، ودخل في عين وغاب فيها ، وبقي ميّتا مائة سنة ، ثمّ أحياه [الله تعالى] وأول ما أحياه منه عينيه في مثل غرقبي ^(٣) البيض ، فنظر ^(٤) ثمّ ﴿قَالَ﴾ الله وحيا ﴿كَمْ لَبِثْتُ﴾ وبقيت ميّتا.

وفي رواية ابن عباس عليه السلام : ونودي من السماء : يا عزيز كم لبثت بعد الموت ؟ ^(٥) قيل : كان السّؤال لأجل أن يظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤون التّوبّيّة ، وليعلم بالبرهان أنّ إحياءه كان بعد مدّة طويلة حتى تنحسم مادّة استبعاده بالمرّة ^(٦) .

﴿قَالَ﴾ عزيز أو أرميا - على وجه الحسبان والتّخمين - : ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ ثمّ نظر إلى ضوء الشّمس باقيا في رؤوس الجدران كما روي ، فقال : ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وقيل : إنّ قال : يوما أو بعض يوم ، اقتصارا لمدّة لبثه ^(٧) .

ثمّ ﴿قَالَ﴾ الله ما لبثت المدّة اليسيرة ﴿بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامًا﴾ قيل : فائدة إماتته مائة عام وإعلامه بها - مع كفاية الإحياء بعد موت ساعة لثبوت المطلوب ، وهو القدرة على الإحياء بعد الموت - أنّ الإحياء بعد مثل هذه المدّة الطويلة أدلّ على القدرة ؛ لأنّ إحياء العظام الرّميم أبعد في العقول ، كما هو واضح.

ثمّ كأنّه قال الله : إنّ شئت أن يزيد عرفانك بكمال قدرتي ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ من التّين والعنب اللّذين يفسدان من غاية اللّطافة في اليوم واللّيلة ﴿وَشَرَابِكَ﴾ من العصير أو اللّبن ، مع أنّهما يتغيّران

(١) القهرمان : أمين الملك ووكيله الخاص.

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ٢٥٣.

(٣) الغرقبيّ : القشرة الرقيقة الملتزمة ببياض البيض.

(٤) تفسير القمي ١ : ٩٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٧.

(٥) تفسير الرازي ٧ : ٣١.

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٤١٣.

(٧) تفسير روح البيان ١ : ٤١٣.

في بعض يوم واحد ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ولم يتغيّر في السنين المتطاولة.

روي أنّه رأى تينة وعنبه كما جنى ، وعصيره كما عصر ^(١) ، ثمّ لما رأى ذلك ، وكان مجال توهم الاستدلال به على قصر مدّة موته ، دفع الله ذلك التّوهم بإقامة دليل قاطع على طول مدّة موته بقوله : ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ عِظَامِ ﴿حِمَارِكَ﴾﴾ كيف صار رميما ، ليتبيّن لك موتك في المدّة المديدة ، وإنّما فعلنا ما رأيت من الإمامة وإحياء الرّم ، وحفظ التّين والعصير من التّغيير والفساد ، لتشاهد كمال قدرتنا وتزداد يقينا بالمعاد ﴿وَلَنَجْجَعَنَّكَ آيَةً﴾ نافعة ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعا ، حيث يزدادون بقضيّتك معرفة ويقينا.

ثمّ لما أمره أوّلا بالنّظر إلى الحمار البالي ؛ لتبيين طول مدّة موته ، أمره ثانيا بالنّظر إلى عظام نفسه ، أو عظام حمارة بقوله : ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ﴾ المتفرّقة الرّميمة ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ ونرفع بعضها إلى بعض ، ونردّها إلى أماكنها من الجسد ﴿ثُمَّ نَكْسُوها﴾ ونلبسها ﴿لَحْمًا﴾ ونسترها به ؛ ليشاهد به كميّة الإحياء في نفسه ، أو في غيره ، بعد ما شاهدها في نفسه.

في رواية عن القميّ ، عن الصادق عليه السلام : « فجعل ينظر إلى العظام البالية المتفطرّة تجتمع إليه ، وإلى اللّحم الذي قد أكلته السّباع ، يتالف إلى العظام من هاهنا وهاهنا ويلتزم بها ، حتى قام وقام حمارة » ^(٢) .

وفي رواية أخرى : ونظر إلى عظامه كيف تلتئم وتلبس اللّحم ، وإلى مفاصله وعروقه كيف توصل ، فاستوى قاعدا ^(٣) ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ كمال قدرة الله بما عاين من إحياء الرّم ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ الآن بالشّهود ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا أمكن وأراد ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يستعصي عليه أمر.

قصة عزير النّبيّ

روي أنّه ركب حمارة وأتى محلّته ، فأنكره النّاس ، وأنكر النّاس ، وأنكر المنازل ، فانطلق على وهم منه حتّى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير ، فقال لها عزير : يا هذه ، هذا منزل عزير ؟ قالت : نعم. وأين ذكرى عزير وقد فقدناه منذ كذا وكذا ! فبكت بكاء شديدا ، قال : فيّ عزير ، قالت : سبحان الله أنّ يكون ذلك ؟ قال : قد أمتني الله مائة عام ، ثمّ بعثني.

قالت : أنّ عزيرا كان مستجاب الدّعوة ، فادع الله برّد بصري حتى أراك ، فدعا ربّه ، ومسح بين عينيها ففتحتا ، فأخذ بيدها ، فقال : قومي بإذن الله ، فقامت صحيحة كأنّها انشطت من عقال ^(٤) ، فنظرت إليه ،

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤١٣ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٩٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٧ .

(٣) الاحتجاج : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٨ .

(٤) أنشطت من عقال : أي اطلقت من قيدها.

فقلت : أشهد أنك عزيز. فانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ، وكان في المجلس ابن العزيز ، قد بلغ مائة وثمانين سنة وبنو بنيه شيوخ ، فنادت : هذا عزيز قد جاءكم ، فكذبوها ، فقلت : انظروا ؛ فإنّي بدعائه رجعت إلى هذه الحالة ، فنهض الناس ، فأقبلوا إليه ، فقال ابنه : كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه مثل هذا الهلال ، فكشف فإذا هو كذلك ، وقد كان قتل بخت نصر بيت المقدس من قرّاء التّوراة أربعين ألف رجل ، ولم يكن بينهم يومئذ نسخة من التّوراة ، ولا أحد يعرف التّوراة ، فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا - أي ينقص ويقطع - فقال رجل من أولاد المسيّين ، ممّن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر : حدّثني أبي ، عن جدّي أنّه دفن التّوراة يوم سبينا في خابية في كرم ، فإن أريتموني كرم جدّي أخرجتها لكم ، فذهبوا إلى كرم جدّه ففتشوه فوجدوها ، وعارضوها ^(١) بما أملى عليهم عزيز عن ظهر القلب ، فما اختلفا في حرف واحد ، فعند ذلك قالوا : عزيز ابن الله ^(٢) .

وعن (الجمع) : عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّ عزيزا خرج من أهله ، وامرأته حامل ، وله خمسون سنة ، فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه ، فرجع إلى أهله ابن خمسين ، وله ابن له مائة سنة ، فكان ابنه أكبر منه ، فذلك من آيات الله » ^(٣) .

اعلم أنّ الروايات في هذه القضية ، وإن كانت مختلفة من جهات عديدة ، إلّا أنّه لا يهمنّا الجمع بينها بالتّكليف ، لعدم حجّيتها ، وعدم ترتّب أثر عليها ، وأنّها كانت تدلّ على قدرة الله وصحة المعاد الجسماني.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى - لازدياد يقين المؤمنين بالمعاد حتّى يخرجوا من ظلمات الجهل أو ضعف اليقين إلى نور حقّ اليقين - أردف قصة عزيز بقصة تضاهيها عن إبراهيم عليه السلام ، وكان دليلا آخر على ولايته تعالى

(١) عارضوها : أي قابلوها.

(٢) تفسير أبي السعود ١ : ٢٥٥ ، تفسير روح البيان ١ : ٤١٤ .

(٣) جمع البيان ١ : ٦٤١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٦٩ .

للمؤمنين ، وكأنه تعالى قال : ﴿وَوُكِّلَ لَهُ آلُ هَارُونَ﴾ أَمْ تَرَى ، أَوْ ﴿وَوُكِّلَ لَهُ آلُ هَارُونَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ استدعاء واستعطافاً : ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ بلطفك على أنك ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وبصّرني كيفية الإحياء وهيئته بعد العلم بأصله إجمالاً.

قيل : إنه تعالى ذكر اسم إبراهيم هنا لإظهاره العبودية ، وحفظه للأدب ، حيث أثنى على الله أولاً بتوصيفه بالربوبية ، بخلاف النبي الذي مرّ على القرية ، ولذلك جعل الله الإمارة والإحياء في قصة إبراهيم عليه السلام في الطيور ، وفي قصة النبي في نفسه. ويمكن أن يكون وجه ذكر اسمه عليه السلام عظمة شأنه وكرامته عند الله ، زيادة على عزير وعلى من هو أعظم منه.

وفي قول إبراهيم : (رَبِّي) إشعار بأنّ من كمال الدعاء وموجبات سرعة الإجابة ، الثناء على الله قبل الدعاء.

وعن جمع من المفسرين أنّ إبراهيم رأى حيفة مطروحة في شطّ البحر ، فإذا مدّ البحر أكل [منها] دوابّ البحر ، وإذا جزر جاءت السباع فأكلت ، وإذا ذهب السباع جاءت الطيور فأكلت وطارت. فقال إبراهيم : ربّ أريني كيف تجمع أجزاء الحيوان من بطون السباع والطيور ودوابّ البحر .^(١)

﴿قَالَ﴾ الله وحيا : أَمْ تَعْلَمُ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ بَأَيِّ قَادِرٍ عَلَى الْإِحْيَاءِ كَيْفَ أَشَاءُ ؟ ! ﴿قَالَ﴾ إبراهيم : ﴿بَلَى﴾ آمنت وأيقنت ﴿وَلَكِنْ﴾ سألت هذا ﴿لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ وينضّم علمي بالبرهان ؛ بالشهود والعيان.

قيل : إنّ سؤال الله تعالى مع علمه بقوة يقين إبراهيم ؛ ليعلم الناس أنّه عليه السلام لم يكن على شكّ ، وللاشعار بأنّ على المؤمن أن يكون في طلب زيادة اليقين والارتقاء إلى درجة الشهود.

عن العياشي : سئل الرضا عليه السلام أكان في قلب إبراهيم شكّ ؟ قال : « لا ، كان على يقين ،^(٢) ولكنّه أراد من الله الزيادة في يقينه » .^(٣)

وقيل : إنه عليه السلام بعد مناظرته مع نمrod لما قال : ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾^(٤) فأطلق محبوساً^(٥) وقتل رجلاً ، قال [إبراهيم] : ليس هذا بإحياء وإماتة ، وعند ذلك قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾

(١) تفسير الرازي ٧ : ٣٨ .

(٢) (كان على يقين) ليس في المصدر .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٦٦ / ٥٧٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٠ .

(٤) البقرة : ٢ / ٢٥٨ .

(٥) أي نمrod .

كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴿ لتتكشف هذه المسألة عند نمرود ^(١) .

وقيل : إن نمرود قال له : قل لربك حتى يحيي وإلا قتلتك ، فسأل الله ذلك . وقوله :

﴿لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ أي بنجاتي من القتل ، أو ليطمئن قلبي بقوة حجتي وبرهاني . ^(٢)

عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير : أن الله أوحى إليه : أي اتخذ بشرا خليلا ، فاستعظم ذلك إبراهيم عليه السلام وقال : إلهي ما علامة ذلك ؟ فقال : علامته أن يحيا الميت بدعائه . فلما عظم مقام إبراهيم عليه السلام في درجات العبودية ، وأداء الرسالة ، خطر بباله : إني لعلّي أكون ذلك الخليل . فسأل إحياء الميت ، فقال الله : **﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾** بأيّ خليل لك ^(٣)

فيأذن **﴿قَالَ﴾** الله مستجيبا لدعائه : إن أردت ذلك **﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾** قيل : إنما خصّ الطير ؛ لأنه أقرب إلى الإنسان ، وأجمع لخواص الحيوان ^(٤) **﴿فَصُرْنَهُنَّ﴾** وضممهن **﴿إِلَيْكَ﴾** كي تتأملها وتعرف أشكالها مفصلة حتى لا يلتبس عليك أحد منها بعد الإحياء .

عن الرضا عليه السلام : « فأخذ إبراهيم عليه السلام نسرا وبطّا وطاووسا وديكا » ^(٥) .

وفي رواية ، بدل البطّ : الغراب ^(٦) . وفي أخرى : الهدهد ^(٧) . وفي ثالثة ، بدل النسر :

الحمامة ^(٨) . وفي رابعة : النعامة ^(٩) . وفي خامسة : الصرد ^(١٠) .

عن الصادق عليه السلام : « فذبحهنّ وعزل رؤوسهنّ ، ثمّ نحر ^(١١) أبدانهنّ في المنحاز بريشهنّ ولحومهنّ وعظامهنّ حتى اختلطت » ^(١٢) .

وعنه عليه السلام ، في حديث : « أنّ إبراهيم دعا بمهراس فدقّ فيه الطير جميعا ، وحبس الرؤوس عنده » ^(١٣) .

وفي رواية (الكافي) : « فقطعهنّ واخلطهنّ كما اختلطت هذه الجيفة في هذه السباع التي

أكل

(١) تفسير الرازي ٧ : ٣٨ . (٢) تفسير الرازي ٧ : ٣٨ .

(٣) تفسير الرازي ٧ : ٣٨ .

(٤) تفسير أبي السعود ١ : ٢٥٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٢ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٨ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧١ .

(٦) تفسير الرازي ٧ : ٤٠ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ٢٦٧ / ٥٧٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٢ .

(٨) تفسير الرازي ٧ : ٤٠ .

(٩) تفسير العياشي ١ : ٢٦٥ / ٥٧٥ .

(١٠) تفسير العياشي ١ : ٢٦٩ / ٥٨١ ، والصدّ : طائر أكبر من العصفور ضخّم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات .

(١١) النحر : الدقّ والسحق والهرس بأداة كالهاون والمهراس .

(١٢) الخصال : ٢٦٥ / ١٤٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧١ .

(١٣) تفسير العياشي ١ : ٢٦٦ / ٥٧٧ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧١ .

بعضها بعضا» (١) .

﴿ثُمَّ﴾ غَبَّ (٢) اختلاطهنَّ ﴿اجْعَلْ﴾ وضع ﴿عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ من الجبال التي حولك - عن الصادق عليه السلام : « أُمَّةَ عَشْرَةَ » (٣) . وقيل : كانت سبعة ، وقيل : أربعة (٤) - ﴿مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ من الأجزاء المختلطة ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ بأسمائهنَّ إليك ، وقل لهنَّ : تعالين بإذن الله ، فإذا دعوهنَّ ﴿يَأْتِيَنَّكَ﴾ ويسعين إليك ﴿سَعِيًّا﴾ سريعا طيرانا ، أو مشيا .

عن الرضا عليه السلام : « جعل مناقيرهنَّ بين أصابعه ، ثمَّ دعاهنَّ بأسمائهنَّ ، ووضع عنده جبا وماء ، فتطايرت تلك الأجزاء بعضها إلى بعض حتَّى استوت الأبدان ، وجاء كلُّ بدن حتَّى انضمَّ إلى رقبته ورأسه ، فحلَّى إبراهيم عن مناقيرهنَّ فطرن ، ثمَّ جئن وشربن من ذلك الماء ، والتقطن من ذلك الحبَّ وقلن : يا نبيَّ الله أحييتنا أحياءك الله ، فقال إبراهيم عليه السلام : بل الله يحيي ويميت ، وهو على كلِّ شيء قدير » (٥) .

وعن الصادق عليه السلام ، - في حديث ذكر فيه أخذ إبراهيم الطيور الأربعة ، وخلط أجزائهنَّ ، وجعلها على عشرة أجبل - قال : « هذا تفسيره في الظاهر ، وتفسيره في الباطن : خذ أربعة ممَّنْ يحتمل الكلام فاستودعهم علمك ، ثمَّ ابعثهم في أطراف الأرضين حججا (٦) ، وإذا أردت أن يأتوك دعوتهم بالاسم الأكبر يأتونك سعيًا بإذن الله » الخبر (٧) ، هذا أحد بطون الآية .

وقيل : إنَّ منها أنَّ إبراهيم عليه السلام سأل من الله حياة قلبه ؛ فأشار إليه بذبح الطيور : الطاووس كناية عن الرِّبَّة ، والغراب عن الأمل ، والدِّيك عن الشَّهوة ، والبطُّ عن الحرص . فأشار إلى أنَّه ما لم يذبح نفسه بالمجاهدة ، ولم يقلع هذه الرِّذائل عن النَّفس ، لم يحي قلبه بالمشاهدة (٨) .

﴿وَاعْلَمَ﴾ بالشَّهود بعد البرهان ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غالب على أمره ، قادر على إنفاذ إرادته ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ، لا يصدر عنه من العاديَّات وخوارقها إلَّا ما فيه الصَّلاح التَّام .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ

(١) الكافي ٨ : ٣٠٥ / ٤٧٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٠ .

(٢) أي بعد .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٦٥ / ٥٧٤ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ٤٢ ، تفسير أبي السعود ١ : ٢٥٧ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٨ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧١ .

(٦) زاد في الخصال : لك على النَّاس .

(٧) الخصال : ٢٦٥ / ١٤٦ ، تفسير الصافي : ٢٧١ .

(٨) تفسير روح البيان ١ : ٤١٦ .

سُنْبِلَةٌ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

ثمّ بعد ما بيّن الله تعالى من اصول العلم بالمبدأ والمعاد ، والاستدلال بالوقائع المسلّمة بين أهل الكتاب على صحّتهما ، شرع في بيان جملة من الشّرائع والأحكام ، ولما كان من أشقّها التّكليف ببذل المال والإنفاق على الفقراء وفي سائر وجوه الخير ، بدأ بترغيب العباد فيه بقوله : ﴿مَثَلُ﴾ نفقة المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ ويصرفون ﴿أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطريق الخير ، ووجوه البرّ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ وقيل : إنّ المراد مثل المنفقين كمثّل باذر حبة صحيحة ، زرعت في أرض عامرة مغلّة ^(١) ، فعند ذلك ﴿أَنْبَتَتْ﴾ وأخرجت تلك الحبة سبعة سوق ، لكلّ ساق سنبله ، فيكون المجموع ﴿سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ كما يشاهد في الدّرة والدّخن ، مع أنّه تمثيل لتصوير مضاعفة الثّواب ، ويكفي فيه كونه معقولا وإن لم يكن له مصداق في الوجود ، مع أنّه يحتمل أنّ زرع الخنطة كان سنبله في بدو الخلقة أو في بعض الأراضي المغلّة كذلك.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ ثواب المنفق زائدا على تلك المضاعفة إلى ما شاء الله ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يضاعف له فضله ، وعلى حسب حال المنفق والإنفاق ، من إخلاصه وتعبه وخصاصته ومصرف إنفاقه ، ككونه في الجهاد ، أو على الوالدين ، أو العلماء ، أو ذراري الرّسول ، فإنّه يتفاوت ثواب الأعمال بتفاوت الجهات والخصوصيات.

عن الصادق عليه السلام : « هذا لمن أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « إذا أحسن العبد عمله ضاعف الله عمله بكلّ حسنة سبعمائة ضعف » ^(٣) . وفيهما دلالة على أنّ تلك المضاعفة جارية في جميع الأعمال والعبادات.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ جودا وفضلا لا يضيق عليه إعطاء الزّيادة كائن ما كان ﴿عَلِيمٌ﴾ به ، وبنية المنفق وخلوصه ومقدار إنفاقه.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾

(١) المغلّة : الأرض المنتجة للغلات.

(٢) تفسير القمي ١ : ٩٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٢ .

(٣) ثواب الأعمال : ١٦٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٢ .

ثم بين الله تعالى ما يعتبر في صحة الإنفاق بقوله : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من جهاد أو غيره من وجوه الخير ﴿ثُمَّ﴾ بعد التوفيق بهذا العمل الصالح النافع ﴿لَا يُتَّبِعُونَ﴾ ولا يعقبون ﴿مَا أَنْفَقُوا مَنًّا﴾ وإظهار حق على المنفق عليه ، وحسن اصطناع به ﴿وَلَا أَدَى﴾ وإساءة بكلام أو فعل فيسوؤه ، كأن يقول للفقير : تأذينا منك ، أو : لا نستريح من شرك وزحمتك ، أو يتناول عليه ، وأمثال ذلك. وتقدم ذكر المنّ لكونه أكثر وقوعا من الأذى ، وذكر كلمة (ثم) لإظهار مباينة الإنفاق لهما ، وكمال البعد بينه وبينهما.

عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله : « من أسدى إلى مؤمن معروفا ، ثم آذاه بالكلام ، أو منّ عليه ، فقد أبطل الله صدقته » (١) .

فحصل من الآية المباركة والرواية الشريفة أنّ الصدقة ، بل كلّ معروف ، كزرع المؤمن ، والمنّ والأذى آفتاه ، فعلى المؤمنين أن يحفظوا زرعهم من الآفة ، فإذا حفظوه منها كان ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثوابهم الموعود ، في الآية السابقة ، المذخور ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ومليكم اللطيف بهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نقص الأجر ، والابتلاء بالعذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوه من الدنيا ، وما فاتهم من مطلوب.

روى العامة أنّها نزلت في عثمان حين جهّز جيش العسرة في غزوة تبوك ، بألف بغير بأفتابها وأحلاسها ، وألف دينار (٢) . وفي عبد الرحمن بن عوف حيث تصدّق بأربعة آلاف درهم على رواية ، أو دينار على أخرى ، أو بنصف ماله على ثلاثة (٣) .

وعلى هذا يحتمل أن يكون في ذكر المنّ والأذى التعريض عليهما ، والإشارة إلى منّهما على النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين بصدقتيهما ، كما يستفاد ممّا روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : « ما من الناس أحد آمنّ علينا في صحبته وذات يديه من ابن أبي قحافة » (٤) . أنّه منّ بإسلامه وصحبته على النبي صلى الله عليه وآله وكان من مصاديق قوله تعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ (٥) .

في ردّ ما روته العامة في قضية أبي بكر

وقد أوّل بعض العامة المنّ في الحديث بكثرة إنعامه بماله. وفيه : أنّه ما نقل من أحد

(١) تفسير القمي ١ : ٩١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٢ .

(٢) الأحلاس جمع جلس : وهو كلّ ما على ظهر الدابة تحت الرّجل والقتب والسّرج.

(٣) تفسير الرازي ٧ : ٤٥ ، تفسير أبي السعود ١ : ٢٥٨ ، تفسير روح البيان ١ : ٤١٩ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ٤٦ .

(٥) الحجرات : ٤٩ / ١٧ .

أنّه كان قبل البعثة وبعدها غنيا ذا ثروة ، مع وضوح كون أمير المؤمنين عليه السلام أمنّ عليه صلّى الله عليه وآله منه ، حيث إنّه عليه السلام بذل في محبته نفسه وماله . وكيف كان أبو بكر كثير الإنعام مع بخله بصدقة درهم لنجوى النبي صلّى الله عليه وآله ؟ ! ولذلك ترك مكالمه النبي صلّى الله عليه وآله ونجواه عشرة أيام .

والحاصل : أنّه لا دلالة في الآية إلّا على اشتراط أجر الصدقة بخلوها عن المن والأذى ، وأنهما مبطلان لها ومحبطان لأجرها ، وكونها عند الاقتزان بهما حسرة ووبالا ، ولا صراحة بل لا ظهور لها في المدح ، وإتاما الصراحة فيما نزل في صدقة أمير المؤمنين عليه السلام من قوله تعالى : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(١) .

رواية عامية في فضيلة الحسن بن علي عليه السلام

وروى بعض العامة - في شأن نزول الآية - أنّ الحسن بن علي عليه السلام اشتهى طعاما ، فباع قميص فاطمة عليها السلام بستّة دراهم ، فسأله سائل فأعطاه ، ثمّ لقي رجلا يبيع ناقة ، فاشترها بأجل وباعها من آخر ، فأراد أن يدفع الثمن إلى بائعها فلم يجده . فحكى القضية إلى النبي صلّى الله عليه وآله فقال : أمّا السائل فرضوان ، وأمّا البائع فميكائيل ، وأمّا المشتري فجبرائيل ، قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...﴾ الآية^(٢) .

أقول : الرواية قرينة على سوق الآية في غاية المدح .

﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣)

ثمّ أكّد سبحانه اشتراط قبول الصدقة بعدم اقتراها بالمن والأذى بقوله : ﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ﴾ وردّ جميل عند عدم الإنفاق ، كأن يقول للفقير : أنا منفعلك منك ، ومعتذر إليك والله يرزقك ، ويوسع عليك ، حتى يسرّ قلبه ويطيب خاطره ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وستر لإلحاف السائل في المسألة ، وعفو عن تعديّه في القول وبذاءة لسانه ، وصفح عن إساءته ﴿خَيْرٌ﴾ لكم عند ربكم ، وأنفع ﴿مِنْ صَدَقَةٍ﴾ تحسبونها خيرا ، إذا كان ﴿يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ وإساءة ؛ لأنّ في الكلام الجميل مسرّة قلب الفقير بلا ضرر عليه ، بخلاف الإعطاء مع المن والأذى ، فإنّ فيه ضررا بما يكون تحمّله أشقّ عليه من تحمّل مرارة الفقر ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عمّن ينفق على الفقراء الذين هم عياله ، وعن إنفاقكم ، حيث إنّه بفضلته ورحمته يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، بل أنتم محتاجون إلى الإنفاق حتّى يكون ذخرا لكم ، وهو ﴿حَلِيمٌ﴾ غير عجول

(١) الإنسان : ٧٦ / ٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤١٩ .

بعقوبة المانّ والمؤذي في صدقته ، وفيه من السّخط والوعيد لهم ما لا يخفى .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴿﴾

ثمّ أكّد سبحانه اشتراط صحّة الإنفاق وحسنه بعدم الإتياع بالمنّ والأذى ، بالنّهي الصّريح ، والتنصيص بالبطلان بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ ولا تحبطوا أجرها وثوابها الموعود لكم ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ وفي التوجّه من الغيبة إلى الخطاب ، وتوصيف المخاطبين بالإيمان غاية التّهيج وكمال التّرجيب إلى العمل بموجب النّهي اهتماما به .

ثمّ للمبالغة في توضيح البطلان ضرب الله مثلا معقولا ، وهو ما أفاد من أنّ إبطال المانّ والمؤذي إنفاقهما ﴿كَالَّذِي﴾ أي مثل إبطال المنافق الذي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ﴾ في وجوه البرّ وسبل الخير ، حال كونه مريدا بإنفاقه ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ ونفاقهم ، غير قاصد لوجه الله والتّقرب إليه ؛ لأنّه لا يصدّق بقلبه ﴿وَلَا يُؤْمِنُ﴾ في ضميره ﴿بِاللَّهِ﴾ حتى يكون في طلب رضاه ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ودار الجزاء ، حتى يهتمّ في تحصيل الثّواب والنّجاة من العقاب . فبطلان هذا المنافق لكفره وفساد نيّته أظهر من الشّمس ، فكذلك بطلان عمل المانّ والمؤذي .

عن العياشي : عنهما عليهما السلام : « نزلت في عثمان ، وجرت في معاوية وأتباعهما » ^(١) .

ثمّ مع وضوح حبط الصّدقات بالرياء ، بالغ سبحانه في توضيح خسران المرائي ، بضرب مثل محسوس له بقوله : ﴿فَمَثَلُهُ﴾ وحاله المعجب في إبطاله إنفاقه بالرياء ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وحجر صلب أملس كان ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يسير ﴿فَأَصَابَهُ﴾ وانصبّ عليه ﴿وَابِلٌ﴾ ومطر شديد عظيم القطر ، فغسل كلّ ما على الحجر من التّراب ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس ليس عليه شيء من الغبار .
ثمّ بيّن وجه شبهة اولئك المبطلين لإنفاقهم بقوله : ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ اولئك الخاسرون بسبب المنّ والايذاء والرياء ﴿عَلَى﴾ ثواب ﴿شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ وعملوا ولا يستطيعون [على] الانتفاع بما فعلوا ؛

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٧١ / ٥٨٦ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٣ .

لحبط أعمالهم وضياعها ، وعدم استحقاقهم الأجر عليها .
فالكافر المنافق كالحجر الأملس ، وإنفاقه كالتراب على الحجر ، والكفر والرياء كالمطر الشديد ، وكذلك المنافق والمؤذي كالحجر ، والمن والأذى كالمطر الشديد يذهبان بما للإنفاق من الأجر والثواب .

ثم أشار سبحانه إلى سبب هذا الخسران بقوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) والخير والرشاد

وفيه تعريض على المانّ المؤذي في إنفاقه ، وإشعار بأنّ الخصال المزبورة من خصال الكفار ، والمؤمن منزّه عنها ، أو إيماء على أنّ المانّ المؤذي والمرائي يموتون كفارا ، ويحشرون كفارا .
نقل عن بعض أن مثل من يقصد بالطاعة الرياء والسمعة ، كمثّل رجل خرج إلى السوق وملاً كيسه حصى ، فيقول الناس : ما أملاً كيس هذا الرجل ! ولا منفعة له سوى مقالة الناس ، فلو أراد أن يشتري به شيئا لا يعطى به شيئا .

نقل أنّ بعضا بالغوا في إخفاء الصدقة ، وكانوا يطلبون فقيرا أعمى لا يعلم من المتصدّق ، أو كانوا يربطون في ثوب الفقير وهو نائم ، أو كانوا يلقونها في طريق الفقير ليأخذها ^(٢) .
عن النبي ﷺ قال : « إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر » قالوا : يا رسول الله ، وما الشّرك الأصغر ؟ قال : « الرياء » يقول الله لهم حين يجازي العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون لهم ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ ^(٣) .

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾

ثم أنّه سبحانه بعد ذكر المثل لإنفاق المانّ والمؤذي والمرائي ، ذكر مثلاً لإنفاق المؤمن المخلص في إنفاقه وكثرة ثوابه بقوله : ﴿وَمَثَلُ﴾^(١) إنفاق المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في وجوه الخير قاصدين بإنفاقهم ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وطلب ثوابه ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ لبعض ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وجعلا

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٢٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤٢٣ .

لمقدار منها مستقرًا على الإيمان ، وترسخا لليقين في قلوبهم.

قيل : إنّ العلائق الدنيويّة تعلّق القلب بين الدنيا والآخرة وبين الإيمان والكفر ، فما لم يقطع المؤمن جميع العلائق الدنيويّة من قلبه لا يستقرّ قلبه على الإيمان ويتمحّض للآخرة ، ولا شك أنّ من العلائق حبّ المال ، ومنها حبّ الحياة ، ومنها حبّ الأهل والأولاد ، فكلّما قطع علاقة منها حصل له بعض الثّبات ، أو حصل لبعض نفسه الاستقرار على الإيمان ، ولبعض قلبه التّوجّه إلى الحقّ. أقول : لا ريب أنّ المواظبة على العبادات والرياضات التّفنّائية تورث القلب نورا وضياء تنزل به ظلمة الشّكوك والشّبهات ن ويزداد به اليقين فيها حتى تكون المعارف والعقائد الحقّة راسخة فيها فتكون كلّ عبادة من العبادات موجبا لزيادة مرتبة من اليقين ، وثبات بعض القلب على الإيمان.

فالإنفاق لهما الغرضين يكون مثله في كثرة النّفع والثّواب ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ واقعة ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ ونظير بستان كائن في مكان مرتفع مصون من أن يفسده البرد للطافة الهواء وهبوب الرّيح. قيل : إنّ الأشجار الواقعة في الرّبوة تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا ، وأمّا الأراضي المنخفضة فكلّما تسلم ثمارها من البرد ، لكثافة هوائها يركود الرّيح ^(١) .

وقيل : إنّ المراد من الرّبوة الأرض اللّينة الجيّدة ، بحيث إذا نزل عليها المطر انتفخت ونمت ، فإذا كانت الأرض كذلك يكثر ريعها ، وتكمل ثمارها وأشجارها ^(٢) ، بخلاف الأراضي المرتفعة ، فإنّها يقل انتفاعها من الأنهار ، وتكثر فيها الرّيح المضرة.

وعلى أي تقدير يفرض أنّ تلك الجنّة العالية ﴿أَصَابَهَا﴾ ونزل عليها ﴿وَابِلٌ﴾ مطر نافع عظيم القطر ﴿فَأَتَتْ﴾ تلك الجنّة صاحبها حينئذ ﴿أُكْلَهَا﴾ وثمارها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ قيل : يعني مثلي ما كان يعهد من هذا البستان من الثّمر ^(٣) .

عن ابن عبّاس : حملت في سنة من الرّيع ما يحمل غيرها في سنتين. وقيل : الضّعف : مثلي الشيء ، وضعفيه : أربعة أمثاله ^(٤) .

﴿فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَاِبِلٌ فَطَلٌ﴾ ومطر صغير القطر ، يكفيها لمضاعفة ثمرها ، لكرامة منبتها ،

وجودة

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٢٥ .

(٢) وكذا.

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٤٢٥ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٤٢٥ .

محلّها ، وبرودة هوائها.

قيل : إنّ المطر الخفيف ورطوبة الهواء إذا داما يفيدان فائدة المطر العظيم.
وقيل : إنّ المراد أنّ الطلّ يكفي لأن يكون لها ثمر ، إن كان ثمرها دون الضّعف ، وعلى أي تقدير لا تبقى بلا ثمر.

عن العياشي : عن الباقر عليه السلام : « أُنْزِلَتْ فِي عَلِيِّ صَلَواتِ اللَّهِ عَلَيْهِ » (١) .
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإنفاقات وسائر العبادات ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطلّع كالناظر إليه ، لا يمكن أن تخفى عنه قليلة وكثيرة ؛ فيجازي بأضعاف الجزاء وأحسنه.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦)

ثمّ أنّه تعالى للمبالغة في توضيح بطلان صدقات المانّ والمؤذي وحسرتهما على حبطها ، مع كمال الحاجة إليها ، ضرب مثلا آخر بقوله : ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ﴾ أيّها المؤمنون العقلاء ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ وبستان تكون أكثر أشجارها ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هما أنفع الأشجار وأشرفها ، ومع ذلك ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فإذاً تكون في غاية الحسن والنظارة والنفع ، ثمّ مع هذين الحسنين من الأشجار الجامعة لفنون المنافع يكون ﴿لَهُ فِيهَا﴾ رزق وافر ، وحظّ متكاثر ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الآخر.

وتخصيص النخل والعنب - مع دخولهما في عموم الثمرات - وتقديمهما ، لكونهما الأصل والركن فيها ، وأكرم الأشجار وأنفعها.

ثمّ بعد بيان صفة الجنة ، وكمال نفعها بحيث لا يتصوّر أحسن وأنفع منها ، بيّن شدّة حاجة صاحبها إليها ، وإلى منافعها بقوله : ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ **﴿أَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾** والهرم والضّعف الذي هو مقتضى لشدّة الحاجة إلى منافعها ، والعجز عن تدارك أسباب المعاش من غيرها **﴿وَلَهُ﴾** مع ذلك الهرم والضّعف **﴿ذُرِّيَّةٌ﴾** وأولاد **﴿ضُعَفَاءُ﴾** عجزة عن تحصيل القوت الذي يسدّون به الرّمق ، لأجل الصّغر والضّعف ، فكلّهم صاروا كالأعلى والدهم الضّعيف ، وحياتهم ومعاشهم على هذا الفرض منوطان

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٧٢ / ٥٨٩ .

بشمار تلك الجنة ومنافعها ، بحيث لو لم تكن لوقعوا جميعا في المحمصنة والهلاك ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وريح عاصفة شديدة تستدير في الأرض ، ثم تنعكس منها ساطعة إلى السماء كهيئة العمود. قيل : يسميها العرب الزوبعة ^(١) ، والعجم (گردباد) .

ومن الواضح أنّ هذه الريح بنفسها قالعة للأشجار ومعدمة للجنة ، ومع ذلك كانت ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ شديدة محرقة ﴿فَاخْتَرَقَتْ﴾ بها الجنة وأشجارها ، وذهبت ثمارها ، وخرّبت ومحت آثارها. فانظر كيف يبقى صاحب هذه الجنة متحيّرا ، حيث إنّّه لا يجد ما يعود على نفسه وعياله ، ولا يقوى أن يغرس مثلها ولا يعينه أحد من ذريته ، إذن لكوّنهم في غاية العجز والضعف ، فليس لهم إلّا الهلاك.

كذلك من ينفق ماله ، أو يفعل الأعمال الحسنة ، ثمّ يحبط أجرها بالمتّ والأذى والرياء وغيرها من الآفات ، لا ينتفع بها يوم القيامة مع شدّة الحاجة إليها ، فكما لا يؤدّ أحد أن يكون له شأن تلك الجنة ، كذلك لا يؤدّ أن يحبط أجر أعماله وصدقاته ، لكون حسرته وأسفه أشدّ من صاحب الجنة.

﴿كَذَلِكَ﴾ التّبيين الواضح لسوء عاقبة المتّ والأذى والرياء في الصّدقات والعبادات ﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾ ويوضح ﴿لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدّالة على ولايته للمؤمنين ، والدلائل المثبتة للشرع المتين ، والعبارات المبيّنة لحكم أحكام الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها ، ولكي تتدبروها ، وتعتبروا بها ، وتلتزموا باتّباعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٢٦٧)

ثمّ أنّه تعالى بعد ما بيّن شرائط صحّة الإنفاق ، من حيث نيّة المنفق وأخلاقه وسلوكه مع الفقير ، بيّن شرط صحّته أو كماله ، من حيث نفس المال ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ وتصدّقوا في سبيل الله ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ بالتجارة من الأموال ، ومن جياذ ما استفدتم من الارباح.

روي أنّها نزلت في قوم لهم مال من ربا الجاهليّة ، وكانوا يتصدّقون منه ، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة بالحلال ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « كان القوم قد كسبوا مكاسب [سوء] في الجاهليّة ، فلمّا أسلموا أرادوا أن

(١) تفسير الرازي ٧ : ٦٠ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٦٥٥ .

يخرجوها من أموالهم ليتصدقوا بها ، فأبى الله تبارك وتعالى إلا أن يخرجوا من طَيِّب ^(١) ما كسبوا « ^(٢) .
وروي أنّ الله طَيِّب ، ولا يقبل إلا الطَيِّب ^(٣) ، وعلى هذا تكون الآية في بيان شرط صحّة
الإنفاق.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّها نزلت في قوم كانوا يأتون بالحشف فيدخلونه في تمر الصدقة
« ^(٤) . وعليه تكون بيانا لشرط كماله. ويحتمل أن يكون المراد من الطَيِّب القدر المشترك بين الحلال
والجيد.

وقيل : إنّ شرط الحليّة مستفاد من الأمر حيث إنّ الإنفاق من الحرام لا يؤمر به ، ومن قوله
تعالى بعده : ﴿وَلَا تَبْمُمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ والخبيث هو الرديء المستحب ، واعتبار جودة
المال يستفاد من قوله : ﴿طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ﴾
اعتراض ودفع

إن قيل : قد ثبت في الشرع على مذهب الإمامية وجوب أداء الخمس من المال المختلط
بالحرام ، إذا لم يعلم مالكة وقدره - وهو مناف لمدلول الآية من اعتبار الحليّة في المال - فإنّ الأمر
بأداء الخمس من المال المختلط بالحرام ، أمر بالإنفاق من المال الحرام.

قلنا : يستفاد من تشريع الخمس تحقّق المعاوضة القهرية من مالك المملوك الذي هو وليّ
المؤمنين ، بأن يصير مال الحرام حين الاختلاط ملكا للمتصرّف بعوض الخمس الذي يصرفه في
مصارفه.

﴿وَوَ أَنْفَقُوا مِنْ مِمَّا﴾ من طَيِّبَاتٍ ما ﴿أَخْرَجْنَا﴾ وأنبتنا ﴿لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ من الحبوب
والثمار والمعادن ﴿وَلَا تَبْمُمُوا﴾ ولا تقصدوا حين إرادة الإنفاق ﴿الْخَبِيثَ﴾ من المال ، وهو المال
الحرام ، أو المعيوب حال كونهم ﴿مِنْهُ﴾ خاصّة ﴿تُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الله ، وتختارون لأنفسكم
الحلال والجيد. وفيه إشعار بأنّه لا بأس بالإنفاق من الرديء إذا كان كلّ المال رديئا.

وقيل : إنّ قوله : ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ بتقدير همزة الاستفهام التوبيخي ، فيكون المعنى : أمن
الخبيث تنفقون ؟ ! ﴿وَوَ الْحَالِ أَنْتُمْ﴾ الحال أنكم ﴿لَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ﴾ من أخذه عوضا من حقوقكم ، أو في
معاملاتكم في وقت من الأوقات ، أو بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا﴾ وتسامحوا ﴿فِيهِ﴾ مخافة
فوت حقكم ، أو لاحتياجكم إليه.

(١) في الكافي : أطيّب.

(٢) الكافي ٤ : ٤٨ / ١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٤.

(٣) صحيح مسلم ٢ : ٧٠٣ / ١٠١٥.

(٤) مجمع البيان ٢ : ٦٥٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٥.

وقيل : إنّ المراد أنّه لو اهدي إليكم الرديء لا تأخذونه إلّا عن استحياء وإغماض.
عن الصادق عليه السلام قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالنخل أن يزكى ، يجيء أقوام
بألوان من التمر هو من أردأ التمر ، يؤدّونه من زكّاهم ، ثمرة يقال لها الجعرور ^(١) والمعارفة ، قليلة
اللحاء ، عظيمة النواة ، وكان بعضهم يجيء بها عن [التمر] الجيد ، فقال رسول الله
ﷺ : لا تخرصوا هاتين التمرتين ، ولا تجيئوا منهما بشيء. وفي ذلك نزل : ﴿وَلَا تَيْمَّمُوا
الْخَبِيثَ﴾ **﴿وَأَعْلَنُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾** عن إنفاقكم ، وأمره به ليس لحاجة إليه ، بل إنّما هو لنفعتكم
وحاجتكم إليه في تكميل نفوسكم **﴿حَمِيدٌ﴾** قيل : يعني مستحقّ للحمد على نعمه عليكم ، وقيل
: إنّ معناه أنّه حامد على إعطاء الجيد ، ومثيب عليه .

وفي الأمر بالعلم إشعار بأنّ إعطاء الرديء لا يكون إلّا لأجل الجهل بغناؤه تعالى ، ولتوهم
حاجته واضطراره إلى هذا الرديء ، فيقبله البتّة ، وأما إذا علم أنّ ما يعطيه بمنزلة البذر ، ليحصد
حاصله في يوم فقره وفاقته ، فلا بدّ من أن يبالي في جودته .

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ

وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦٨)

ثمّ لما رغب سبحانه في الإنفاق بجماد المال ، وكان الشيطان يمنع عنه بوسوسته ، ويردعه عنه
بتسويله ، نبّه المؤمنين به ، وبقبح طاعته بقوله : **﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾** ويوسوس في قلوبكم أنّ
عاقبة إنفاقكم عدم المال ، وصفر اليد ، والابتلاء بشدّة الحاجة **﴿وَيَأْمُرُكُم﴾** بتسويله وبغيركم
﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ والقبايح العقلية من البخل ومنع الحقوق الواجبة **﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم﴾** في إنفاقكم
﴿مَّغْفِرَةً﴾ وسترا كائنا **﴿مِنْهُ﴾** لذنوبكم **﴿وَفَضْلاً﴾** وزيادة في المال والأجر .

عن ابن مسعود : أنّ للشيطان لمة ^(٢) ؛ وهي الإيعاد بالشرّ ، وللملك لمة ؛ وهي الوعد بالخير
، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله ، ومن وجد الأوّل فليتعوّد بالله من الشيطان الرجيم . ثمّ قرأ هذه
الآية ^(٤) .

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ ومنبسط فضله على المنفقين في وجوه الخير **﴿عَلِيمٌ﴾** بمقدار إنفاقهم وخلوص

(١) الجعرور : ضرب من التمر صغار لا ينتفع به .

(٢) الكافي ٤ : ٤٨ / ٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٥ .

(٣) لمة الشيطان : هي همته وخطوته في قلب الإنسان .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ٦٤ .

نيتهم ؛ فينجز ما وعده على إنفاقكم ، ولا يضيع أجركم.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا

أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾

ثمَّ أنه تعالى - بعد ما تبه على وعد الشيطان وتسويله ، ووعد الرحمن وإلهامه - أشار إلى أنَّ ترجيح الثاني على الأول متوقف على العقل السليم والعلم والتوفيق للعمل بقوله : ﴿يُؤْتِي﴾ الله ﴿الْحِكْمَةَ﴾ قيل : هي العلم ، وتوفيق العمل ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : « الحكمة : المعرفة ، والفقه في الدين ، فمن فقه منكم فهو حكيم ، وما [من] أحد يموت من المؤمنين أحبَّ إلى إبليس من فقيه » ^(٢) .

وعنه عليه السلام قال : « طاعة الله ، ومعرفة الإمام » ^(٣) .

وعنه عليه السلام في رواية أخرى : « معرفة الإمام ، واجتناب الكبائر » ^(٤) .

وقيل : هي القرآن وما فيه من المواعظ وعجائب الأسرار ^(٥) . ومرجع الجميع إلى المعنى الواحد ، وهو معرفة الله والعلم بالأحكام ، ومن الواضح أنَّ طريقهما منحصر بمعرفة النبي والإمام ، والعلم بحقيقة القرآن وأسراره.

والتوفيق للعمل ملازم لهذه المعارف ، فإنَّ جميعها هو الحكمة التي تكون فضلا من الله يعطيه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ويختاره من النفوس الزكية والذوات الطيبة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ من قبل الله ، وبإفاضته وتفضله ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا﴾ ونفعا ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعدله خير في الدنيا والآخرة.

عن الصادق عليه السلام : « الحكمة ضياء المعرفة ، وميراث ^(٦) التقوى ، وثمرة الصدق . وما أنعم الله على عباده بنعمة أنعم وأعظم وأرفع وأبهى من الحكمة » ^(٧) .

قيل : إنما سمى الله الدنيا بأسرها قليلا حيث قال : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ^(٨) . وسمى

الحكمة خيرا

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٣١ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٧٦ / ٦٠٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٦ .

(٣) الكافي ١ : ١٤٢ / ١١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٦ .

(٤) الكافي ٢ : ٢١٦ / ٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٦ .

(٥) تفسير الرازي ٧ : ٦٧ .

(٦) في مصباح الشريعة : وميزان .

(٧) مصباح الشريعة : ١٩٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٦ ، وفي مصباح الشريعة : الحكمة للقلب .

(٨) تفسير الرازي ٧ : ٦٧ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ٧٧ .

كثيرا ؛ لأنّ الدّنيا محدودة من جميع الجهات ، والعلم لا نهاية لمراتبه ومدة بقائه ، فالعلم والحكمة خير من الدّنيا وما فيها.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ لتلك الفضيلة ، ولا يتنبّه لهذه المزيّة للحكمة أحد ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وذوو العقول السليمة ، الخالصة عن شوائب الأوهام ، الغالبة على الشّهوات. وهم الحكماء الرّباّتيون والعلماء بالله ، لوضوح أنّ من لا غلبة لعقله على هواه ليس له ذلك التّنبّه والاتّعاظ.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠)

ثمّ أنّه تعالى - لشدة الاهتمام بالإنفاق الذي هو أحسن الأعمال وأنفعها - أكّد أمره به بالوعد بالثواب العظيم ، والتّحذير عن تركه بالعقاب الشّديد ، بقوله : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾ في سبيل الله ﴿مِنْ نَفَقَةٍ﴾ وبأيّ شيء تصدّقتُم من قليل أو كثير ، في حقّ أو باطل ، في سرّ أو علانية ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ﴾ والتزمتُم على أنفسكم ﴿مِنْ نَذْرٍ﴾ والتزام معلّق أو مطلق ، في طاعة كنذر أمير المؤمنين وفاطمة عليها السلام صيام ثلاثة أيّام لشفاء ولدهما ، أو معصية كنذر نسوة من قبيلة بني أود أن تنحر كلّ واحدة منهن عشر قلائص ^(١) إن قتل الحسين عليه السلام ، على ما نقله ابن أبي الحديد ^(٢) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيثب على مستحسنها ، ويعاقب على قبيحها. وفيه - مع كمال اختصاره - وعد عظيم ووعيد شديد.

ثمّ أكّد الوعيد بقوله : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بترك الإنفاق الواجب ، أو إبطاله بالرياء والسّمعة أو المنّ والأذى ، أو بالصّرف في تشييد الكفر وتضعيف الحقّ ، أو بنذره في المعصية ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وأعوان مدافعين عنهم بأس الله وعذابه ، فلا شفاعة ولا مدافعة. وإيراد (الأنصار) بصيغة الجمع لمقابلة الجمع وهو (الظالمين) وعطف النّذر على الإنفاق ، لغلبة استلزامه إيّاه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ

وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١)

(١) القلائص : جمع قلوص ، والقلوص من الإبل : الفتية من حين تركب إلى التاسعة من عمرها.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ٦١ .

ثمَّ بَيَّنَّ سبحانه مراتب رجحان الصَّدَقَاتِ من حيث الإعلان والإسرار ، وتفاوتهما في الأجر بقوله : ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ وتظهروا ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ المفروضة والمندوبة ، كما هو ظاهر عموم اللَّفْظ ﴿فَبِعَمَّا هِيَ﴾ أي شيء ممدوح ، ذلك الإبداء عند الله إن سلم من السَّمعة والرياء .
﴿وَأِنْ تُخْفُوهَا﴾ من النَّاسِ ﴿وَتُؤْتُوهُهَا﴾ الذين علمتموهم ﴿الْفُقَرَاءَ﴾ وغير المالكين مؤنة سنتهم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأحسن وأفضل عند الله من الإبداء ، حيث إنَّ الإعطاء في الخفاء أبعد من الرياء ، وأحفظ لعرض الفقراء .

قيل : وجه التصريح عند الإخفاء بالإيتاء للفقراء - مع أنَّه واجب في الإبداء أيضا - أنَّ الإخفاء مظنة الالتباس ، فإنَّ الغيَّ ربَّما يدَّعي الفقر ويقبل الصدقة سرًّا ، ولا يفعل ذلك عند النَّاسِ .^(١)

﴿وَيَكْفُرُ﴾ الله ويستتر ﴿عَنْكُمْ﴾ بعفوه بعضا ﴿مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وشيئا من ذنوبكم ، وقيل : إنَّ (من) زائدة ، والمعنى : يمحو عنكم جميع ذنوبكم^(٢) . فجعل الله ستر الذَّنوب جزاء لستر الصَّدَقَاتِ .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الصَّدَقَاتِ وسائر العبادات ، ولو كان في السِّرِّ والخفية ﴿خَبِيرٌ﴾ ومطلع ، فمن يطلب بها مرضاة الله يحصل مطلوبه بإتيانها في السِّرِّ ، إذ لا تخفى على الله خافية .
عن النبي ﷺ : « صدقة السِّرِّ تطفئ غضب الرَّبِّ ، وتدفع^(٣) الخطيئة ، كما يطفئ الماء النَّار ، وتدفع سبعين بابا من البلاء »^(٤) .

وعنه ﷺ : « سبعة يظلهم الله بظلة يوم لا ظلَّ إلا ظله - إلى أن قال - : ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم يمينه ما أنفق بشماله »^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام ، في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَبِعَمَّا هِيَ﴾ قال : « يعني الزَّكاة المفروضة » قال : قلت : ﴿وَأِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا الْفُقَرَاءَ﴾ قال : « يعني التَّافِلة »^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام ، في قوله : ﴿تُخْفُوهَا﴾ قال : « هي سوى الزَّكاة ، إنَّ الزَّكاة علانية خير له »^(٧) .

وعنه عليه السلام : « فَإِنْ كَلَّ ما فرض الله عليك بإعلانه أفضل من إسراره [وكلَّ ما كان تطوعا فإسراره أفضل من إعلانه] ولو أنَّ رجلا حمل زكاته على عاتقه ، فقسَّمها علانية ، كان ذلك حسنا جميلا »^(٨) .

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٣٢ و ٤٣٣ .

(٢) تفسير الرازي ٧ : ٧٦ . (٣) في مجمع البيان : وتطفئ .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٣٨٥ . طبعة شركة المعارف الإسلامية .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٦٦٣ . (٦) الكافي ٤ : ٦٠ / ١ .

(٧) الكافي ٣ : ٥٠٢ / ١٧ ، وفيه : علانية غير سرّ .

(٨) الكافي ٣ : ٥٠١ / ١٦ .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا ^(١) .

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾

ثم أنه قيل : لما كثر المسلمون ^(٢) هدى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإنفاق على المشركين حتى تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام ، فنزلت ^(٣) ﴿لَيْسَ﴾ بالواجب ﴿عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وإرشادهم جبرا ، وإدخالهم في دين الإسلام اضطرارا ، بل إنما عليك البلاغ والإرشاد بالبيان والدعوة إلى الحق ، والمجادلة بالتي هي أحسن والوعظ والنصح ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بتوفيقه وتأييده ﴿يَهْدِي﴾ ويوصل إلى الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته وإيصاله إليه من النفوس الزكية والدوات المستعدة القابلة التابعة للعقل .
وروي أن نائلة أم أسماء بنت أبي بكر جاءت إلى ابنتها تسألها ، وكذلك جدتها - وهما مشركان - فقالت : لا اعطيكما حتى أستمروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنكما لستم على ديني ، فاستأمرته في ذلك ، فنزلت [الآية] فأمرها رسول الله صلى الله عليه وآله أن تتصدق عليهما ^(٤) .
وقيل : كان اناس من الأنصار لهم قرابة من قريظة والنضير ، وكانوا لا يتصدقون عليهم ، ويقولون ما لم تسلموا لا نعطيكم شيئا ^(٥) .

وقيل : جيء بها على طريق تلوين الخطاب ، وتوجيهه إلى شخص النبي صلى الله عليه وآله للمبالغة في إقبال المؤمنين على الامتثال .

ثم صرح بتأكيد رجحانه وكثرة الثواب عليه لعموم المؤمنين بقوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ وأي شيء تتصدقوا أيها المسلمون ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ ومال ، كان المنفق عليه كافرا أو مسلما ﴿فَلَا تُنْفِسْكُمْ﴾ نفعه وثوابه ، لا لغيركم ، ولا يضرركم كفر الفقير .

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢٦٤ ، تفسير روح البيان ١ : ٤٣٣ .

(٢) في تفسير أبي السعود وتفسير روح البيان : كثر فقراء المسلمين .

(٣) تفسير أبي السعود ١ : ٢٦٤ ، تفسير روح البيان ١ : ٤٣٤ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ٧٦ .

(٥) تفسير الرازي ٧ : ٧٦ .

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ﴾ ولا تتصدقون على المشركين - ولو كانوا من أرحامكم وأقاربكم - لعلّة من العلل ، أو وجه من الوجوه ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وطلباً لمرضاته ، لا لتأييدهم في كفرهم ، ولا للزّكون إليهم في باطلهم ، فإنّ الله عالم بما في قلوبكم من الإخلاص ، وقصد صلة الرّحم ، وسدّ خلّة المضطرّ. وأمّا تلبّسهم بالكفر فليس بممانع عن الإنفاق ، إلّا إذا كان من الصّدقات المفروضة كالزّكاة والفطرة ، أو كان في الإنفاق عليهم تقوية الباطل وتضعيف الحقّ ، ففي الصورتين لا يجوز الإنفاق على غير أهل الحقّ.

ثمّ بالنظر إلى العداوة الدّينيّة بين المسلمين والكفّار الرّادعة للمسلمين عن الإنفاق عليهم ، وقوّة توهّم مرجوحية الإنفاق عليهم في نظر المسلمين ، أكّد الله سبحانه فضله وكثرة ثوابه بقوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ومال على المسلم أو الكافر ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره المضاعف ، ويوفّر لكم ثوابه ، مضافاً إلى ما يخلفه كما روي عنه ﷺ : « اللهم اجعل للمنفق خلفاً ، وللممسك تلفاً » (١).

﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيّها المنفقون لوجه الله ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ في حقّكم ، ولا تنقصون من أجركم ، فلا ينبغي التّسامح فيه.

قال بعض : لو كان الفقير شرّ خلق الله ، لكان لك ثواب نفقتك (٢) .

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣)

ثمّ أنّه تعالى لما بيّن تعميم استحباب الصّدقة للمؤمن والكافر ، بيّن أولويّة المؤمنين الخلّص ؛ بالإنفاق ، وأفضليّة التّصدّق عليهم بقوله : ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ من المؤمنين الخلّص ، اجعلوا صدقاتكم ، وهم ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ وحبسوا عن تحصيل المعاش ، لاستغراق أوقاتهم بالعبادات من الجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة الدّين ، ومنهم العلماء المروّجون للشرع ، والمشتغلون بتحصيل العلوم الدّينيّة ، فإنّهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لكثرة اشتغالهم بالعبادات والمهام الإسلاميّة ﴿ضَرْباً﴾ وسيراً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للتّجارة ، وطلب المعيشة.

ذكر أصحاب الصّفة وأوصافهم

قيل : نزلت في فقراء المهاجرين ، وكانوا نحواً من أربعمئة ، لم يكن لهم مسكن

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢٦٥ .

(٢) الكشف ١ : ٣١٧ ، تفسير الرازي ٧ : ٧٨ .

وعشائر بالمدينة ، وكانوا ملازمين للمسجد ساكنين في صفته ^(١) ؛ وهي مسقفة ، يتعلمون القرآن بالليل ، ويستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة والجهاد ، ويخرجون في كل غزوة وسرية بعثها رسول الله ﷺ . ^(٢)

عن ابن عباس ، قال : وقف رسول الله ﷺ يوما على أصحاب الصفّة ، فرأى فقرهم وجهدهم ^(٣) ، فطيب قلوبهم فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفّة ، فمن لقيني من امتي على التّعف الذي أنتم عليه ؛ راضيا بما فيه ، فإنه من رفائي » ^(٤) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، في تفسير الآية قال : هؤلاء قوم ^(٥) حبسهم الفقر عن الجهاد في سبيل الله ، فعذرهم الله ^(٦) .

ثم بعد بيان واقع حالهم ، بين حال عشرتهم وسلوكهم مع الناس بقوله : ﴿يَحْسَبُهُمْ وَيُظَنُّهُمْ﴾ **الْجَاهِلُ** بحالهم وشأنهم غير المختبر لأمرهم كونهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنْ﴾ **أَجَلْ غَايَةِ التَّعَفُّفِ** وكفّ النفس عن مسألة الناس ، وإظهار الحاجة إليهم . روي أنهم كانوا يقومون بالليل للتهجد ، ويحيطون بالتهار للتّعفف ^(٧) .

ثم كأنه قيل : فكيف يعرف فقرهم ؟ فقال سبحانه : ﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ بالفقر والفاقة ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ وعلامات الفقر فيهم من صفرة اللون ، ونحول الجسم ، وضعف القوى ، وراثثة الثياب ، وأمثال ذلك .

ثم لما كان الإنسان لا يكاد يخلو عن الاضطرار إلى السؤال وطلب الحاجة من الغير ، ولو بالغ في التّعفف ، وصفهم سبحانه - بعد توصيفهم بالمبالغة في التّعفف - بأنهم قوم إذا اضطروا إلى سؤال حاجة دنيوية ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ﴾ حاجتهم ﴿إِلْحَافًا﴾ وإلحاحا .

عن ابن مسعود : أن الله يحبّ العفيف المتّعفف ، ويغض الفاحش البذيء .
وقيل : السائل الملحف : الذي إن اعطي كثيرا أفرط في المدح ، وإن اعطي قليلا أفرط في الدّم ^(٨) .

وعن رسول الله ﷺ : « لا يفتح أحد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، لأن يأخذ أحدكم حبالا يحنط فيبيعه بمدّ من تمر ، خير له من أن يسأل

(١) الصفّة : المكان المظلل في مسجد المدينة ، حيث كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ﷺ ، وهم أصاب الصفّة .

(٢) تفسير الرازي ٧ : ٧٩ .

(٣) في تفسير الرازي : وجدهم .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ٧٩ ، وفيه : من رفاقي .

(٥) زاد في تفسير الرازي : من المهاجرين .

(٦) تفسير الرازي ٧ : ٨٠ . (٧) تفسير الرازي ٧ : ٨١ .

(٨) تفسير الرازي ٧ : ٨١ .

النَّاسِ» (١) .

وعنه ﷺ «لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره ، فيكفّ بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أشياءهم ؛ أعطوه أو منعوه » .

وعنه ﷺ : « إنَّ الله يحبّ الحبييِّ الحليم المتعقّف ، ويغضّ البذيء السائل الملحف » (٢) .
وقيل : إنّ المراد من الآية نفي السؤال والإلحاف جميعا ، أي لا يسألون الناس أصلا فيكون إلحافا (٣) .

ثمّ حتّ سبحانه على مطلق الإنفاق ، سيّما على الموصوفين بتلك الصّفات ، بأبلغ بيان وأخصره وأوجزه بقوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ومال ، أو من كلّ ما وجدتموه ، ممّا ينتفع به الغير ؛ علما أو جاهها أو مالا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم به أحسن الجزاء .

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾

ثمّ بيّن شمول حسن الإنفاق لجميع الأوقات والأحوال بقوله : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في أيّ وقت من الأوقات كان ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وفي أيّ حال من الأحوال كان ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لا يخصّون إنفاقهم بوقت دون وقت ، وبحال دون حال . ولعلّ وجه تقديم اللّيل والسرّ ، مزيتتهما على النهار والعلانيّة ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثوابهم الموعود المدّخر ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ومليكنهم اللطيف بهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروه آت ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من محبوب فات .

ذكر فضيلة لأمر المؤمنين ﷺ

عن ابن عبّاس رضی الله عنه : أنّ عليّا عليه السلام ما كان يملك غير أربعة دراهم ؛ فتصدّق بدرهم ليلا ، وبدرهم نهارا ، وبدرهم سرّا ، وبدرهم علانيّة . فقال النبي ﷺ : « ما حملك على هذا »

(١) وكذا .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤٣٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٤٣٥ .

فقال عليه السلام : « استوجب ما وعدني ربّي » فقال صلوات الله عليه : « لك ذلك » فأُنزل الله هذه الآية ^(١) .

وعن العياشي والطبرسي : عن الصادقين ^(٢) عليهم السلام ، ما يقرب منه ^(٣) .
ومن عجائب الروايات ما عن التّخشي ، وبعض العامة : أنّها نزلت في أبي بكر حين تصدّق بأربعين ألف دينار ؛ عشرة آلاف في الليل ، وعشرة آلاف في النهار ، وعشرة آلاف في السرّ ، وعشرة آلاف في العلانية ^(٤) . فإنّه لم ينقل أنّ أبا بكر كان في زمان شركه غنيا ، بل المنقول أنّه وأباه كانا في مكّة من الفقراء ، وليت شعري ، من أين وجد في المدينة تلك الثروة العظيمة ؟
وعن بعض العامة : أنّه لما نزل قوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بعث عبد الرحمن بن عوف إلى أصحاب الصّفة بدنانير ، وبعث عليّ عليه السلام بوسق ^(٥) من تمر ليلا ، فكان أحبّ الصّدقتين إلى الله صدقته ^(٦) . ويمكن القول بوقوع كلتا الصّدقتين من أمير المؤمنين عليه السلام .
وعن الفقيه : أنّها نزلت في النفقة على الخيل ^(٧) .
وعن أبي هريرة ، أنّه إذا مرّ بفرس سمين قرأ هذه الآية ^(٨) .
والحقّ أنّها نزلت في شأن أمير المؤمنين عليه السلام لاتّفاق روايات الخاصّة والعامة عليه ، فلا يعبا بغيرها.

بيان معنى الرّيا وأقسامه

ثمّ لما كان بين التّفقة والرّيا مناسبة التّضادّ - حيث إنّ الإنفاق موجب لتنقيص المال مع رجحانه والأمر به ، والرّيا موجب لازدياد المال مع مبعوضيته والنّهي عنه - عقّب سبحانه بيان أحكام التّفقات ببيان جملة من أحكام الرّيا بقوله : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ ويتعاملون في متّحدي الجنس بزيادة ويأخذونها. قيل : عبّر عن التّصرّف بالأكل ؛ لأنّه المقصود الأعظم منه ، ولشيوعه في المطعومات.

قال الفاضل المقداد رحمته الله : كان الرّجل في الجاهليّة إذا حلّ له دين على غيره وطالبه ، يقول له الغريم : زدني في الأجل [حتى] أزيدك في المال ^(٩) .

(١) تفسير الرازي ٧ : ٨٣ .

(٢) في تفسير العياشي : عن أبي إسحاق .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٧٧ / ٦٠٧ ، مجمع البيان ٢ : ٦٦٧ .

(٤) الكشف ١ : ٣١٩ ، تفسير الرازي ٧ : ٨٣ ، تفسير روح البيان ١ : ٤٣٥ .

(٥) الوسق : مكيّلة معلومة ، وهي ستون صاعا ، والصاع خمسة أرتال وثلاث .

(٦) تفسير الرازي ٧ : ٨٣ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٨٨ / ٨٥٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٨ .

(٨) تفسير الرازي ٧ : ٨٣ .

(٩) كنز العرفان ٢ : ٣٥ .

أقول : الربا في الشرع قسمان : ربا المعاوضة ، و ربا القرض .
أما الأول : فهو معاوضة جنس بجنسه - إذا كانا مكيلين أو موزونين - مع الزيادة في أحد العوضين .

فيعتبر في الربا المعاملي أمران : اتحاد الثمن والمثمن في الجنس ، وكونه مكيلا أو موزونا . فإذا تحقق الشرطان تعتبر المساواة ، وتحرم الزيادة ، بلا خلاف نصا وفتوى ، سواء كانت المعاملة بصيغة البيع أو الصلح أو غيرهما على الأظهر ، لإطلاق الروايات وعموم العلة .
وأما الثاني : فهو إقراض مال - مكيلا كان أو موزونا ، أو غيرهما - مع شرط النفع بالعين ، أو الصفة ، أو تمديد أجل الدين بشرط النفع .

ولا ريب أنه بكلا قسميه من الكبائر ، حيث أوعد الله الأكلين له والمتصرفين فيه بأنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ من قبورهم حين بعثهم منها ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ المصروع ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ ويصرعه ﴿الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قيل : إن من عذاب الربا أنه يحشر في القيامة مجنونا ، ويكون ذلك سيماهم يعرفون به في المحشر .

وقيل : إن التعبير عن الجنون أو الصرع بالخبط الحاصل من مسّ الشيطان ، مبني على زعم العرب من كون الجنون والصرع حاصلين من مسّ الشيطان والجن .

وقيل : إن أكل الربا يعظم بطنه في المحشر ، بحيث يقوم ويسقط من ثقله ، وسائر الناس يوفضون إلى المحشر ، وهو لا يقدر على سرعة المشي ، بل لعظم بطنه وثقله بسبب أكل الربا ، ينهض ويسقط كالمصروع ^(١) ، لا أنه يصير مصروعا أو مجنونا .

عن القمي رحمه الله (و) (الجمع) : عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : لما اسري بي إلى السماء رأيت قوما يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر لعظم بطنه ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، فإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ، يقولون : ربنا متى تقوم الساعة » الخبر ^(٢) . وفيه دلالة على وجود عالم الصور والمثال .

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب المقرّر للمريين ^(٣) معلّل ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بنوا على حلّية الربا ، حتى جعلوه أصلا ، وشبهوا

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٣٦ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٩٣ ، مجمع البيان ٢ : ٦٦٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٨ .

(٣) المري : من يأتي الربى .

البيع به في الحليّة و﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ﴾ في الحليّة ، وفي الفائدة ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾ فكما يجوز بيع سلعة تكون قيمتها درهما بدرهمين ، كذلك يجوز بيع عين الدرهم بدرهمين ، وكما يجوز بيع ما يساوي درهما بدرهمين إلى شهر ، يجوز بيع درهم أو قرض درهم بدرهمين أو بشرط أداء درهمين إلى شهر لعدم الفرق عقلا. فنظموا الربا والبيع في سلك واحد ، لإفضائهما إلى التريح ، فخالفوا الله بهذه التسوية الاعتبارية التي لا اعتبار بها.

فردّ الله عليهم بقوله : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ﴾ العالم بحقائق الأشياء ، وواقعيات مصالح الأمور ومفاسدها ﴿الْبَيْعُ﴾ لوجوب ملاك حسن ترتيب الأثر فيه ، ومعاملة الصّحة معه ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لوجود ملاك القبح فيه ، وترتب الفساد عليه. فعليكم التسليم والانقياد لقصور عقلكم ، والدين والأحكام لا يصاب بالعقول القاصرة.

عن (الكافي) : « إِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ الرِّبَا لِثَلَا يَمْتَنِعَ النَّاسُ مِنْ اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ » ^(١) .
أقول : الظاهر أنّ المراد بالمعروف هنا القرض الحسن والمواساة والإحسان بالإخوان.
﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ وبلغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وزجر ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ عن أكل الربا لتربيته بالخصال الحسنة ، وصرفه عن الأخلاق السيئة على حسب وظيفة الربويّة ﴿فَأَنْتَهَى﴾ عنه واتّعظ بالموعظة الإلهية واتبع النهي وتاب ﴿فَلَهُ﴾ من تلك الزيادة ﴿مَا سَلَفَ﴾ أخذه ، وأخذه قبل العلم بالنتهي .
عن (الكافي) و(الفقيه) : عن الصادق عليه السلام : « كُلَّ رِبَا أَكَلَهُ النَّاسُ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ مِنْهُمْ إِذَا عَرَفَ مِنْهُمْ التَّوْبَةَ » .

وقال : « لو أنّ رجلا ورث من أبيه مالا ، وعرف أنّ في ذلك المال ربا ، ولكن قد اختلط في التجارة بغيره حلالا ^(٢) ، كان حلالا طيبا فليأكله ، وإن عرف منه شيئا معزولا [أنّه ربا] فليأخذ رأس ماله وليردّ الربا ، وأيّما رجل أفاد مالا كثيرا قد أكثر فيه [من] الربا ، فجهل ذلك ثمّ عرفه بعد ، فأراد أن ينزعه ، مضى فله ، ويدعه فيما يستأنف » ^(٣) .

﴿وَأَمْرُهُ﴾ وشأنه راجع ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يجازيه في الآخرة بحسب ما علم من صدق نيّته في الانتهاء ، وقيل : يحكم في شأنه في القيامة ^(٤) . وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به.

(١) الكافي ٥ : ١٤٦ / ٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٩ .

(٢) في الكافي : حلال .

(٣) الكافي ٥ : ١٤٥ / ٤ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ١٧٥ / ٧٨٧ و٧٨٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٧٩ .

(٤) جوامع الجامع : ٥٠ .

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى معاملة ربوية ، وأخذ الربا مستحلاً له ، بعد علمه بالنهي ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المستحلّون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبداً.

عن النبي ﷺ : « درهم من الربا أعظم عند الله من سبعين زنية بذات محرم ، في بيت الله الحرام » (١) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « لعن رسول الله ﷺ في الربا خمسة : آكله ، وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه » (٢) .

ثم بعد النهي عن أكله ، وبيان عقوبته المترتبة عليه ، بيّن سبحانه عدم نفع دنيوي فيه بقوله : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ ويذهب به ، حتّى لا يبقى منه شيء ينتفع به.

قيل : إنّ الله يذهب بركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه ، ولا ينتفع به ولده ، وتبقى على المرء تبعته وعقابه.

﴿وَيُرِيهِ﴾ الله ويضاعف ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ ويزيد في ثوابها في الآخرة ، بل تكون الصدقة التي هي تنقيص في المال سبباً لزيادته ، بخلاف الربا الذي هو سبب لتكثير المال ، فإنّه بالمال موجب لتنقيصه ، حيث إنّهُ يتلف بنفسه ، ويتلف المال الذي يدخل فيه.

عن النبي ﷺ : « ما نقص مال عن صدقة » (٣) .

وروي عنه ﷺ : « أنّ الملك ينادي كلّ يوم : اللهم يسّر لكلّ منفق خلفاً » (٤) .

وعنه ﷺ : « أنّ الله يقبل الصدقة ويربّيها ، كما يربّي أحدكم مهره » (٥) .

وعن الصادق عليه السلام مثله (٦) .

وعنه ﷺ : « ما نقصت زكاة من مال قطّ » (٧) .

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ بل يبغض ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مصرّ على تحليل المحرمات ، وكلّ ﴿أَثِيمٍ﴾

منهمك في المعاصي واتباع الشهوات ، فيعاقبهم في الآخرة بأشدّ العقوبات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾

(١) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٦٦ / ٨٢٤ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٦٧١ .

(٣) جوامع الجامع : ٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٠ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ٩٥ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٤٣٦ ، تفسير أبي السعود ١ : ٢٦٧ ، والمهر : أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية وغيرها .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٢٧٩ / ٦١٥ .

(٧) تفسير أبي السعود ١ : ٢٦٧ ، تفسير روح البيان ١ : ٤٣٦ .

ثمّ بعد ما بيّن سبحانه إعراضه عن الكفرة العصاة وبغضه إياهم ، أعلن بحبّه لأهل الإيمان ، وإقباله برحمته وثوابه إلى المطيعين ومعطي الزّكاة والصّدقات بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ، ورسوله ، وكتابه ، ودينه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي تكون من وظائف الإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وأتوا بها بحدودها من أجزائها وشرائطها وما يعتبر في صحتها ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ وصرفوها في مصارفها المقرّرة وفي تخصيص الصّلاة والزّكاة بالذّكر مع دخولهما في الأعمال الصّالحات ، دلالة على كمال الاهتمام بهما وكونهما من أعظم الواجبات ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثوابهم الموعود ، حال كونه مذخورا ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ومالكهم الرّؤوف بهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لقاء مكروه ، ونقص أجر ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على مفارقة الدّنيا وما فيها ، وتنزّل الدّرجة في الآخرة.

عن ابن عباس رضي الله عنه : لا خوف عليهم فيما يستقبلهم من أحوال القيامة ، ولا هم يحزنون بسبب ما تركوه في الدّنيا ^(١) ، وعلى ما فاتهم من النّعم الزّائدة التي حصلت لغيرهم من السّعداء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حلّيّة الرّبا الذي كان قبل التّهي عنه ، بيّن اختصاصها بالرّبا المقبوض من الغريم دون غير المقبوض ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروه في مخالفة حكمه وصونوا أنفسكم من عقابه ﴿وَذَرُوا﴾ واركبوا ﴿مَا بَقِيَ﴾ عند الغريم ﴿مِنَ الرِّبَا﴾ بالكلّيّة ، ولا تطالبوا منه ما لم تقبضوه ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله واليوم الآخر ، فإنّ لازم الإيمان الالتزام بأحكام الله ، وترك مطالبة بقيّة الرّبا. وفيه غاية التهديد ، لدلالته على أنّ مطالب البقيّة خارج عن الإيمان. عن الصادق عليه السلام ^(٢) : « أنّ الوليد بن المغيرة كان يربي في الجاهليّة ، وبقي له بقايا على ثقيف ، فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها - بعد أن أسلم - فنزلت [الآية] » ^(٣) .

(١) تفسير الرازي ٧ : ٩٧ .

(٢) في مجمع البيان وتفسير الصّافي : عن أبي جعفر الباقر .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٦٧٣ ، تفسير الصّافي ١ : ٦٧٣ .

وقيل : كان العباس بن عبد المطلب وخالد شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا ، فجاء الإسلام ، ولهما أموال عظيمة [في الربا] فأنزل الله [هذه] الآية ، فقال النبي ﷺ : « ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب ، وكل دم في الجاهلية موضوع ، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب » (١) .

وعن القمي رحمه الله : لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ قام خالد بن الوليد ، فقال : يا رسول الله ربا (٢) أبي في ثقيف ، وقد أوصاني عند موته بأخذه ، فأنزل الله (٣) : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما امرتم به من الاتقاء ، وترك بقايا الربا ، فقد عارضتم الله ، وتجرأتم عليه ﴿فَأَذْنُوا﴾ واعلموا ﴿بِحَرْبٍ﴾ عظيمة ، وغضب شديد ، وعذاب أليم ، كائن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ بالنار ﴿وَوَ﴾ من ﴿رَسُولِهِ﴾ بالقتال والسيوف .
روي أنه كان لثقيف مال على بعض قريش ، فطالبوهم عند الحبل بالمال والربا ، فنزلت الآية ، فقالت ثقيف : لا بد لنا بحرب الله ورسوله (٤) .

﴿وَإِنْ تُبْتِئْ﴾ من أخذ الربا بعد ما سمعتموه من النهي والوعيد ﴿فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أن تأخذوها كاملا ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أنتم من قبلهم بالتقصيص والمماطلة .

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ ووجد في غرمائكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ وغير متمكن من تهيئة المال - زائدا على المستثنيات المعهودة في الفقه - بسبب التلف ، أو كساد المتاع ، أو انقطاع تصرفه عنه مع وجوده ، بظلم ظالم ونحوه ﴿فَنَظْرَةٌ﴾ وإمهال واجب عليكم ﴿إِلَى﴾ زمان حصول ﴿مَيْسَرَةٍ﴾ وقدرة على الأداء ، فلا يجوز مطالبته بالدين .

عن الصادق عليه السلام ، قال : « خلّوا سبيل المعسر كما خلّاه الله » (٥) .

روي أنه لما نزلت آية ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قالت الإخوة الأربعة الذين كانوا يعاملون بالربا : بل نتوب إلى الله ، فإنه لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ، فرضوا برأس المال ، وطالبوا بني المغيرة بذلك ، فشكا بنو المغيرة العسرة ، وقالوا : آخرونا إلى أن ندرك الغلات ، فأبوا أن يؤخروهم ، فنزلت

(١) مجمع البيان ٢ : ٦٧٣ .

(٢) كذا ، والظاهر رابي بمعنى أعطى ماله بالربا .

(٣) تفسير القمي ١ : ٩٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨١ .

(٤) تفسير أبي السعود ١ : ٢٦٧ .

(٥) الكافي ٤ : ٣٥ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٢ .

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾^(١) .

وفي التعبير ب (ذو عسرة) دون (ذا عسرة) دلالة على عموم الحكم لعموم المديونين ، وعدم اختصاصه بالربا .

عن النبي ﷺ : « لا يحلّ دين رجل مسلم فيؤخره ، إلّا كان له بكلّ يوم صدقه »^(٢) .

وعنه ﷺ : « من أنظر معسرا أو وضع له ، أبحه الله من كرب يوم القيامة »^(٣) .

عن الصادق عليه السلام قال : « سعد رسول الله ﷺ المنبر ذات يوم ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على أنبيائه ، ثم قال : أيّها الناس ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، ألا ومن أنظر معسرا ، كان له على الله في كلّ يوم صدقة بمثل ماله ، حتى يستوفيه - ثم قال أبو عبد الله عليه السلام - : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ الخبر^(٤) .

عن العياشي : عن الرضا عليه السلام أنّه سئل عن هذه النظرة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في كتابه ، لها حدّ يعرف ، إذا صار هذا المعسر لا بدّ له من أن ينظر ، وقد أخذ مال هذا الرجل وأنفقه على عياله ، وليس له غلّة ينتظر إدراكها ، ولا دين ينتظر محلّة ، ولا مال غائب ينتظر قدومه ؟ قال : « نعم ، ينتظر بقدر ما ينتهي خبره إلى الإمام ، فيقضي عنه ما عليه من سهم الغارمين ، إذا كان أنفقه في طاعة الله ، فإن كان أنفقه في معصية الله فلا شيء له على الإمام » قيل : فما لهذا الرجل الذي أئتمنه ، وهو لا يعلم فيما أنفقه ، في طاعة الله أم في معصيته ؟ قال : « يسعى له في ماله ، فيردّه وهو صاغر »^(٥) .

وعن القمي رحمه الله : عن النبي ﷺ : « ما من غريم ذهب بغريمه إلى وال من ولاية المسلمين ، واستبان للوالي عسرته ، إلّا برئ هذا المعسر من دينه ، وصار دينه على والي المسلمين فيما في يديه من أموال المسلمين »^(٦) .

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ على المعسرين بإبراء ذمتهم من الدين كلّ ، فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأكبر ثوابا من الإنظار و﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك عملتم به .

عن الصادق عليه السلام : « إن كنتم تعلمون أنّه معسر ، فتصدّقوا بما لكم عليه »^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٧ : ١٠٢ .

(٢) تفسير الرازي ٧ : ١٠٣ .

(٣) مصابيح السنة ٢ : ٣٤١ / ٢١٣١ ، تفسير روح البيان ١ : ٤٣٨ .

(٤) الكافي ٤ : ٣٥ / ٤ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٢٨١ / ٦٢٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٢ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٩٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٢ .

(٧) الكافي ٤ : ٣٦ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٢ .

وعنه عليه السلام : « من أراد أن يظله الله يوم لا ظلّ إلا ظله - قالها ثلاثا ، فهابه الناس أن يسألوه ، فقال - : فلينظر معسرا ، أو ليدع له من حقّه » ^(١) .

روي أنّه جاء رجل إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال له : يا [أبا] عبد الله فرض إلى ميسرة. فقال له أبو عبد الله عليه السلام : « إلى غلّة تدرك » فقال الرجل : لا والله. قال : « فإلى تجارة تؤوب » قال : لا والله. قال : « فإلى عقدة ^(٢) تباع » فقال : لا والله ، فقال أبو عبد الله عليه السلام : « فأنت ممن جعل الله له من أموالنا حقّا » ثمّ دعا بكيس فيه دراهم ، فأدخل يده فيه ، فناوله منه قبضة ^(٣) .

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

ثمّ ختم سبحانه أحكام الرّبا والمعسر بالتّوعيد بالعقاب على المخالفة ، والوعد بالثّواب على الطّاعة بقوله : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ عظيما ، كثير الأهوال والشّدائد ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وتردّون ﴿فِيهِ﴾ قهرا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحكمه ، فيحاسب فيه أعمالكم ﴿ثُمَّ تُوَفَّى﴾ وتعطى كاملا ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من المطيع والعاصي ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وحصلت من جزاء أعمالها في الدّنيا من الطّاعة والعصيان ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من قبل الله بتنقيص ثواب أو زيادة عقاب. وفيه تأكيد لتوفية الجزاء ، وإشعار بأنّ العذاب - وإن كان مؤبدا ، وفي أعلى مرتبة الشّدّة - لا يكون ظلما ، بل هو على حسب الاستحقاق.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه : هذه الآية آخر آية نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وذلك لأنّه صلّى الله عليه وآله لما حجّ نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ^(٤) وهي آية الكلاله ، ثمّ نزل وهو واقف بعرفة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ^(٥) ثمّ نزل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فقال جبرئيل : يا محمّد ، ضعها على رأس ثمانين آية ومائتي آية من البقرة ، وعاش رسول الله صلّى الله عليه وآله بعدها أحدا وثمانين يوما ^(٦) .

أقول : قيل : أحدا وعشرين ، وقيل : سبعة أيّام ، وقيل : ثلاث ساعات ^(٧) . ولا ينافي ذلك ما روي من أنّ سورة النّصر آخر ما نزل ؛ لأنّها آخر سورة ، وهذه آخر آية.

(١) الكافي ٤ : ٣٥ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٢ .

(٢) العقدة : كلّ ما يمتلكه الإنسان من ضيعة ، أو عقار ، أو متاع ، أو مال ...

(٣) الكافي ٣ : ٥٠١ / ١٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٢ .

(٤) النساء : ٤ / ١٧٦ .

(٥) المائدة : ٥ / ٣ .

(٦) (٦ و٧) . تفسير الرازي ٧ : ١٠٤ .

(٧) (٦ و٧) . تفسير الرازي ٧ : ١٠٤ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكُتُبُوهُ وَلْيَكُتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكُتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِكْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكُتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُنُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾

ثمَّ أتتعالى بعد بيان حكم دين المعسر من وجوب إنظاره ، واستحباب التصدق عليه ، بين طريق حفظ الدين عن التورى ^(١) والتلف بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ وتعاملتم ﴿بِدَيْنٍ﴾ وبعبوض في الدِّمَّة ، سلما كانت المعاملة أو نسيئة ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ وأمد ﴿مُسَمًّى﴾ ومعيّن مشروط في العقد كالיום والشَّهر والسنة ، دون غير المعيّن عند المتعاملين كالخصاد والدياس ^(٢) وقدمو الحاج لعدم الخلاف ظاهرا في أنّ التوقيف بأمثالها مفسد للمعاملة.

عن ابن عباس رضى الله عنه : أنّها نزلت في السلف ؛ لأنّ النبي ﷺ قدم المدينة وهم يسلفون في التمر السنتين والثلاث ، فقال ﷺ : « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم » ^(٣) .

قيل : في ذكر الدين منكرا دلالة على أنّ اشتراط كون الدين في المعاملة واحدا ، ثمنا كان أو

مثمنا ،

(١) التورى : أي الهلاك والتلف.

(٢) الدياس : دوس الحصيد ليخرج الحب منه ، وذلك بوطئه بالأرجل أو غيرها.

(٣) تفسير الرازي ٧ : ١٠٨ .

وعليه لا يجوز بيع الدين بالدين ؛ لأنه معاملة بدينين لا بدين ، وهو المعروف بالكالي ^(١) ، ولا خلاف في بطلانه.

قيل : ما من لذة ، ولا منفعة ، يوصل إليها بطريق محرّم ، إلّا جعل الله سبحانه للوصول إلى تلك اللذة والمنفعة طريقا حلالا ، وسبيلا مشروعاً ^(٢) . ولما حرّم الله استفادة الرّيح بطريق الرّبا ، أذن في بيع السّلم والنسيئة ؛ لوجود جميع المنافع المطلوبة في الرّبا فيهما .
ثمّ بيّن سبحانه طريق الاحتياط في الأجل والكيل والوزن في الدّين بقوله : ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ بجنسه وصفاته ووزنه وأجله ؛ لكون الكتب أوثق وأدفع للتّزاع . ولا شبهة أنّ الأمر هنا ليس للوجوب النّفسي ، بل للإرشاد أو الاستحباب .

عن (العلل) : عن الباقر عليه السلام : « أنّ الله عزّ وجلّ عرض على آدم أسماء الأنبياء وأعمارهم ، قال : فمرّ بآدم اسم داود النّبّيّ ، فإذا عمره في العالم أربعون سنة ، فقال آدم : يا ربّ ما أقلّ عمر داود وأكثر عمري ! يا ربّ إنّ أنا زدت ^(٣) داود ثلاثين سنة ثبت ذلك له ؟ قال : نعم يا آدم ، قال : فائيّ قد زدته من عمري ثلاثين سنة ، فأنفذ ذلك وأثبتها له عندك ، واطرحها من عمري » .
قال أبو جعفر عليه السلام : « فأثبت الله عزّ وجلّ لداود في عمره ثلاثين سنة ، وكانت له عند الله ^(٤) مثبتة . فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ^(٥) فمحا الله ما كان عنده مثبتا لآدم ، وأثبت لداود ما لم يكن عنده مثبتا .

قال : فمضى عمر آدم فهبط ملك الموت لقبض روحه ، فقال له آدم : يا ملك الموت إنّه قد بقي من عمري ثلاثون سنة ، فقال له ملك الموت : يا آدم ألم تجعلها لابنك داود النّبّيّ ، وطرحتها من عمرك حين عرض عليك أسماء الأنبياء من ذرّيّتك ، وعرضت عليك أعمارهم ، وأنت يومئذ بوادي الأحياء ^(٦) ؟ فقال له آدم : ما أذكر هذا .

قال : فقال له ملك الموت : يا آدم لا تجحد ، أ فلم تسأل الله عزّ وجلّ أن يثبتها لداود ويمحوها من عمرك ، فأثبتها لداود في الزّبور ومحامها من عمرك في الذّكر ؟ قال آدم : حتى أعلم ذلك » .

(١) الكالي : أي المتأخر .

(٢) تفسير الرازي ٧ : ١٠٨ .

(٣) في النسخة : ازددت .

(٤) في النسخة : عند ذلك .

(٥) الرعد : ١٣ / ٣٩ .

(٦) في المصدر : بوادي الدخياء .

قال أبو جعفر عليه السلام : « وكان آدم صادقا » قال : « لم يذكر ، ولم يحدد ، فمن ذلك اليوم أمر الله تبارك وتعالى العباد أن يكتبوا بينهم إذا تداينوا وتعاملوا إلى أجل ، لأجل نسيانه ^(١) وجحوده [ما] على نفسه » انتهى ^(٢) .

أقول : مع وضوح مصلحة كتابة الدين على كل ذي مسكة ^(٣) ، من غير حاجة إلى الاطلاع على وقوع هذه القضية من آدم ، ففي تلك الرواية وجوه من الإشكال : أحدها : دلالتها على نسيان النبي مع ثبوت عصمته منه عقلا .
وثانيها : جحود آدم ما أخبر الملك المعصوم بثبوتيه ، مع أنه موجب للقطع به .
وثالثها : أن آدم كيف بذل سنين من عمره لداود بسبب اطلاعه على قصر عمره ، ولم يبذل يوما منه ليحيى وعيسى ، مع أنهما أفضل وأقصر عمرا من داود .
والحاصل : أن الرواية من المشكلات التي يجب ردّ علمها إلى الراسخين في العلم صلوات الله عليهم .

ثم أنه تعالى بعدما أمر بكتابة الدين المؤجل إجمالا ، بيّن كيفيتها والصّفة المعتبرة فيمن يتولّاها بقوله : ﴿ وَلْيَكْتُبْ ﴾ كتاب الدين ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ أيّها المتعاملون ﴿ كَاتِبٌ ﴾ كان من كان ، ولكن لا بدّ من كون كتابه ملتبسا ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ والتسوية بين الدائن والمديون ، من غير ميل إلى أحدهما ، بحيث لا يزيد في مقدار الدين والأجل ولا ينقص ولا يغيّر .

وقيل : إنّ من عدل الكاتب أن لا يحمل ولا يهمل في عبارة الكتاب ، وأن يكتبه على نحو تكون صحّته متّفقا عليها بين العلماء ، حتى لا يتردّد فيها عالم .
وقيل : في ذكر (بينكم) إشعار بأنّ للكاتب أن يكتب السند ، مع حضور المتدائنين ، ولا يكتفي بتقرير أحدهما .

فإذا دعا المتعاملان كاتباً ينبغي له إجابتهما ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ ﴾ من الكتاب ، ولا يمتنع من ﴿ أَنْ يَكْتُبَ ﴾ كتاب الدين ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ ومثل ما عرف بفضله تعالى من كتابة الحجج والوثائق ، من إيضاح مداليله وشرائطه ، بلا إغلاق ولا خلل .

(١) في المصدر : إلى أجل مسمى لنسيان آدم .

(٢) علل الشرائع : ٥٥٣ / ١ .

(٣) المسكة : الرأي والعقل .

وقيل : إنّ المراد من أن لا يأب الكاتب ، من أن ينتفع النَّاسُ بكتابتِهِ ، كما نفعه الله بعلمها وعلمه إياها ، فيكون نظير : أحسن كما أحسن الله إليك.

ثمّ أكّد سبحانه الأمر بالكتابة بالعدل ؛ بقوله : ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكاتب كتاب الدّين مطابقا لإملاء المديون ، المستفاد من قوله : ﴿وَلْيُمْلِلْ﴾ المطالب ، وليقرّها على الكاتب المعامل ﴿الَّذِي﴾ ثبت ﴿عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ واستقرّ على ذمّته الدّين ؛ لأنّه المقرّ والمشهود عليه ﴿وَلْيَتَّقِ﴾ المديون المملّي في إملائه ﴿اللَّهُ رَبَّهُ﴾

وفي الجمع بين اسم الجلالة والنّعت الجميل مبالغة في التّحذير من الإملاء بنحو يكون فيه ضياع حقّ الدّائن ، لما في المملّي من الدّاعي التّفساني إلى تغيير الدّين ، ودفع الضّرر عن نفسه ، وتخفيف ما في ذمّته.

ولذا أكّد الأمر بالاتّقاء بالنّهي عن البخس بقوله : ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ من الدّين ولا ينقص ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ وإن كان مثقال ذرّة من خردل ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ العامل ﴿الَّذِي﴾ استقرّ ﴿عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ والدّين ﴿سَفِيهًا﴾ ناقص العقل غير مميّز بين المعاملة النّافعة والمضرة.

عن الصادق عليه السلام : « السّفيه : الذي يشتري الدرهم بأضعافه » ^(١) .

وقيل : إنّ المراد المبذّر الذي يصرف المال في الأغراض غير العقلانية ^(٢) .

﴿أَوْ﴾ كان ﴿ضَعِيفًا﴾ لصباوة أو شيخوخة أو هرم بحيث صار مختلّ الحواس.

عن (تفسير الإمام عليه السلام) : « يعني ضعيفا في بدنه ، لا يقدر أن يملّ ، أو ضعيفا في فهمه وعلمه ، لا يقدر أن يملّ ويميّز الألفاظ التي هي عدل عليه وله ، من الألفاظ التي هي جور عليه وعلى حميمه » ^(٣) .

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ﴾ مقصوده على الكاتب ، لخرس أو جهل.

عن (تفسير الإمام عليه السلام) : « هو بمعنى أن يكون مشغولا في مرّة ^(٤) المعاش ^(٥) ، أو تزوّد

المعاد ^(٦) ، أو لدّة في غير محرم. فإنّ تلك الأشغال التي لا ينبغي لعامل أن يشرع في غيرها » ^(٧) .

أقول : الظاهر أنّ المراد مطلق من يتعدّر أو يتعسّر عليه الحضور عند الكاتب ، أو البيان

والإملاء

(١) التهذيب ٩ : ١٨٢ / ٧٣١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٤ .

(٢) في النسخة : العقلانية.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٣٤ / ٣٦٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٤ .

(٤) مرّة المعاش : إصلاحه والسعي فيه.

(٥) في المصدر : لمعاش.

(٦) في المصدر : لمعاد.

(٧) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٣٤ / ٣٦٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٤ .

عليه ، مع استجماعه شرائط نفوذ الإقرار ، من البلوغ والعقل.

وحينئذ ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ وليقرّر على الكاتب بدلا من المديون ﴿وَلِيَهُ﴾ ومن إليه أموره شرعا ، من الأب والجدّ للأب ، في السّفية الذي بلغ فاسد العقل وفي الصبيّ ، ومن الفقيه العادل ، في السّفية والجنون المنفصلين الطّارئين بعد البلوغ - على الأظهر الأشهر - ، ومن عدول المؤمنين عند فقد أولئك الأولياء ، ومن الوكيل والمترجم في غير الأضعاف المذكورة. ولا بدّ من أن يكون إملاؤهم ملتبسا ﴿بِالْعَدْلِ﴾ والتّوسّط من غير نقص ولا زيادة ولا تغيير.

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا﴾ وأحضروا لتحمل الشّهادة على الدّين وخصوصيّاته ، عند الكتابة ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ كائنين ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ وأهل دينكم ، من البالغين العاقلين ، فلا تقبل شهادة الصبيّ ، والكافر.

وعلى مذهبننا يعتبر فيهما أن يكونا من أهل الولاية ، فلا تقبل شهادة غيرهم. وإطلاق الشّهاد قبل تحمّل الشّهادة مجاز بعلاقة المشاركة.

وعن بعض الفضلاء : الفرق بين الشاهد والشّهاد : أنّ الشاهد بمعنى الحدوث ، والشّهاد بمعنى الثّبوت ، فإذا تحمّل الشّهادة فهو شاهد باعتبار الحدوث والتّحمّل ، فإذا ^(١) ثبت تحمّله زمانين أو أكثر فإنّه شهيد ^(٢) .

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ﴾ لإعوازمهما ، أو لعلّة أخرى ﴿فَرَجُلٌ﴾ واحد ﴿وَأَمْرَاتَانِ﴾ كاف في الشّهادة ، وإثبات الحقّ ، حيث إنّهم يقومون مقام رجلين ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ روي في تفسيره عليه السلام : « ممّن ترضون دينه وأمانته ، وصلاحه وعقّته ، وتيقّظه في ما يشهد به ، وتحصيله وتمييزه ، فما كلّ صالح ممّيّز ولا محصّل ، ولا كلّ محصّل ممّيّز صالح ، وإنّ من عباد الله لمن هو أهل لصلاحه وعقّته ، ولو شهد لم تقبل شهادته لقلة تمييزه » ^(٣) الخير . وتخصيص الرجل وامرأتين بالوصف - مع اعتباره في الشّاهد مطلقا - لقلة اتّصاف النّساء به.

ثمّ بيّن سبحانه علّة اعتبار التّعدّد في النّساء بقوله : ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ وتنسى الشّهادة ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ ذلك توطئة لبيان العلّة الحقيقيّة ومحقّق لموضوعها ، وهي قوله : ﴿فَتَذَكَّرُ﴾ النّاسية ﴿إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ لوضوح أنّه لو لا النسيان لا يتحقّق التّذكّار.

(١) في كنز العرفان : حدوث تحمله وإذا.

(٢) كنز العرفان ٢ : ٥٠ .

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٧٢ / ٣٧٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٤ .

وحاصل الآية أنّ اعتبار التعدّد لأجل أن تذكر إحداهما الاخرى ، إن ضلّت الاولى ونسيت الشهادة.
 في أنّ المراد من نهي الشهداء عن الإباء ، الإباء عن التحمل ، وإمكان إرادة الأعم
 ثمّ أنّه تعالى - كما نهي الكاتب عن الامتناع من الكتابة - نهي الشاهد عن الإباء عن
 الحضور لتحمل الشهادة أو لأدائها ، بقوله : ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ﴾ عن التحمل أو أداء الشهادة
 ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾ إلى التحمل أو الأداء.

في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام ، في قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ﴾ قال : « قيل
 الشهادة » (١) .

وعنه عليه السلام ، في تفسير الآية ، قال : « لا ينبغي لأحد إذا دعي إلى شهادة ليشهد عليها ،
 أن يقول : لا أشهد لكم عليها » (٢) .

وقريب منها أو مثلها عدّة روايات اخر ، الظاهرة في كون المراد حرمة الإباء عن التحمل (٣) .
 ولا معارض لها ، إلّا ما عن (تفسير الإمام عليه السلام) : عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « تفسير هذه
 الآية : من كان في عنقه شهادة ، فلا يأب إذا ما دعي لإقامتها » (٤) .

ومن الواضح أنّ هذه الرواية مع ضعف السند ، لا تكافئ الروايات الكثيرة المعتبرة ، مع
 إمكان الجمع بالقول بأنّ متعلّق ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾ أعمّ من التحمل والأداء ، ولا يرد عليه ما قاله
 الفضل المقداد رحمه الله من استلزامه استعمال المشترك في أكثر من معنى (٥) ، لوضوح أنّه على تقدير
 جعل المقدار الأعمّ من التحمل والأداء ، لم يستعمل لفظ الدّعوة في غير معناه الظاهر ، وتكون
 الكثرة في المحذوف ، وهو المدعو إليه.

ويمكن أن يكون نظره رحمه الله إلى أنّه على تقدير إرادة الأعمّ ، لزم استعمال لفظ الشهداء في
 المعنى الحقيقي والجمازي ، حيث إنّ استعماله في من لم يتحمل بعد ، مجاز بعلاقة المشاركة ، فتأمل.
 ثمّ إنّ التّهي عن الإباء دالّ بالالتزام على الأمر بالإجابة ، فتكون الإجابة واجبة ، ولا بدّ من
 القول بكون وجوبها كفاثيا لمعلومية الغرض ، كما أنّ وجوب الكتابة على الكاتب كذلك ، ولا منافاة
 بين كون أمر المديون بالاستكتاب والاستشهاد إرشاديا أو نديبا ، وبين كون الأمر بالكتابة وتحمل
 الشهادة على

(١) الكافي ٧ : ٣٨٠ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٥ .

(٢) الكافي ٧ : ٣٧٩ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٥ .

(٣) الكافي ٧ : ٣٨٠ / ٣ - ٦ .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٧٦ / ٣٧٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٥ .

(٥) كنز العرفان ٢ : ٥٤ .

الكاتب والشاهد وجويبًا مولوبًا ، كما لا يخفى .

ثم وجه سبحانه الخطاب إلى المدينين ونهاهم عن التواني في الكتابة بقوله : ﴿وَلَا تَسْتُمُوا﴾ ولا تملوا لكثرة مدايناتكم ، أو لقلة هذا الدين ، من ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ سواء كان ﴿صَغِيرًا﴾ وقليلًا كدينار أو درهم ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ وكثيرا كمائة أو ألف ، حال كونه مستقرًا في الذمة ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ المعين ، ووقته المعلوم .

قال بعض : المالة والكسالة من الشيطان .

وعن النبي ﷺ أنه قال : « لا يقول المؤمن كسلت » ^(١) .

ثم بين سبحانه فوائد الكتب بقوله : ﴿ذَلِكُمْ﴾ الكتب ﴿أَقْسَطُ﴾ وأعدل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي حكمه ، حيث إن فيه حفظ الحق ﴿وَأَقْوَمُ﴾ وأثبت ﴿لِلشَّهَادَةِ﴾ وأعون على إقامتها ﴿وَأَدْنَى﴾ وأقرب إلى أن تكونوا موقنين به لا ﴿تَرْتَابُوا﴾ ولا تشكوا فيه من حيث الجنس والمقدار والوصف والأجل ، وسائر ما اعتبر فيه .

فحصّل من الآية أنّ للكتابة ثلاث فوائد :

الاولى : كونها أقسط باعتبار أنّ المتدينين إذا وجدوا كتابا ، فلا بدّ لهم من العمل ، فلا يقع التعدي من أحدهما على الآخر .

والثانية : أنّ الشاهدين إذا نسوا القضية ، تكون الكتابة سببا لحفظها وتذكرها ، ثم أنّه قد يكون المتدينان حاضرين لأداء الحق ، ولكن قد يكون في قلبهما ريب ؛ إما في أصله ، أو في مقداره ، أو أجله .

والفائدة الثالثة : أن تكون الكتابة موجبة لزوال ريبهما .

قيل : إنّ تعالى بالغ في هذه الآية المباركة في التأكيد ، والبسط الشديد في الأمر بكتابة الدين والإشهاد عليه ، بعد المنع عن تحصيل المال بالرّبا ، مع بنائه تعالى في بيان الأحكام في الكتاب المجيد على الاختصار ، نظرا إلى حفظ المال الحلال عن الضياع والبوار ، حتى يتمكن المؤمن من الإنفاق في سبيل الله ، والإعراض عن مساخطه من طلب المال بالرّبا ، وسائر الوجوه المحرّمة .

ثم بين سبحانه عدم الرجحان للكتابة في المعاملة النقدية بقوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ المعاملة

﴿تِجَارَةً﴾

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢٧١ .

حَاضِرَةً ومعاملة نقدية **تُذِيرُونَهَا** وتتعاطونها **بَيْنَكُمْ** يدا بيد ، فإن كانت المعاملة هكذا **فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** وضرر أن لا **تَكْتُبُوهَا** لبعدها عن التسيان والتنازع **وَوَ** لكن **أَشْهَدُوا** شهيدين **إِذَا تَبَايَعْتُمْ** مطلقا ، سواء كان البيع نقدياً أو سلماً أو نسيئة ، لكونه أحفظ **وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ** يحتمل كون الفعل مبنياً على الفاعل ، وعلى المفعول ؛ فعلى الأول يكون نهياً للكاتب والشاهد عن الإضرار بالمتدينين ، بترك الإجابة ، أو التغيير ، أو التحريف في الكتب والشهادة. وعلى الثاني يكون نهياً للمتدينين عن الإضرار بهما ^(١) ، بأن يعجلاهما عن مهمّاتهما ، أو يلزمهما على الخروج عن الحدود الشرعية في الكتابة والشهادة ، أو لا يعطيا الكاتب جعله ، والشاهد مؤنة مجيئه.

والثاني هو الأظهر ، لقوله تعالى بعده ، مخاطباً للمتدينين : **وَإِنْ تَفْعَلُوا** ما نهيتكم عنه من الإضرار **فَإِنَّهُ فُسُوقٌ** وخروج عن حدود الشرع والعقل ، ملتبس **بِكُمْ** ثم أكد الوعيد بقوله : **وَاتَّقُوا اللَّهَ** في مخالفة أحكامه التي من جملتها حرمة الإضرار **وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ما فيه صلاح دينكم ودنياكم **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** من مصالح الأمور ومفاسدها ، وحسن الأشياء وقبحها **عَلَيْمٌ** لا تخفى عليه خافية.

وتكرير لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ، لتربيته المهابة وقيل : للتنبية على استقلال كل منها بمعنى على حياله ، حيث إنّ الأولى حثّ على التقوى ، والثانية وعد بالإنعام ، والثالثة تعظيم لشأنه تعالى.

أقول : في الجملة الثانية إشعار بحكمة الأمر بالتقوى ، وإنّه لصلاح راجع إلى العباد لا إليه سبحانه ، وفي الثالثة دلالة على عدم إمكان الخطأ والاشتباه منه تعالى في ما علمه من الصّلاح والفساد.

ثمّ أعلم أنّ الآية المباركة أطول آية في الكتاب العزيز ، وفيها دلالة على كمال لطفه على عباده ، ونهاية رفقته بهم ، وإنّ تعالى إذا كان حافظاً لمصالح دنياهم بهذه المرتبة من الاهتمام ، يكون لمصالح آخرتهم أحفظ بمراتب ، وإنّ لا يرضى بوقوع الظلم والتنازع بينهم ، وإنّ يحبّ القيام بجوائجهم ، وإعانتهم على إحقاق حقوقهم.

عن القمّي رحمه الله : في [سورة] البقرة خمسمائة حكم ، وفي [هذه] الآية خمسة عشر حكماً . (٢)

في شرعية أخذ الرهن للدين وعدم اختصاصها بالسفر
ثمّ بيّن سبحانه طريقاً آخر لحفظ الديون ، أوثق من الكتابة ، وهو أخذ الرهن والوثيقة عليها ، بقوله : **وَإِنْ كُنْتُمْ** راكبين **عَلَى سَفَرٍ** ومتلبسين به ، أو مشرفين عليه

(١) أي بالكاتب والشاهد.

(٢) تفسير القمي ١ : ٩٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٦ .

ومتوجهين إليه ، واحتجتم إلى التداين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب الدين بحيث تستوثقون بكتابته ﴿فَرِهَانٌ﴾ ووثائق من الأعيان ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ ومسلمة إليكم ، قائمة مقام الكتابة ، بل أحفظ منها للدين .

وإنما شرط السفر في جواز الرهن - مع عدم كونه مشروطا به ، بل يجوز في الحضر إجماعا - لكون السفر مظنة شدة الحاجة إليه ، وانحصار طريق الاستيثاق به ، لغلبة إغواء الكاتب فيه . فالكلام خرج على الأعم الأغلب ، وليس في الواقع على سبيل الاشتراط .
روي أنه رهن رسول الله ﷺ درعه في المدينة من يهودي بعشرين صاعا من شعير ، وأخذه لأهله ^(١) .

في بيان اشتراط صحة الرهن بالقبض
ثم أن ظاهر الآية اشتراط صحته الرهن بالقبض ، ويعضده ما روي عن الصادق عليه السلام : « لا رهن إلا مقبوضا » ^(٢) ، وأدعي شهرته بين الأصحاب . والإشكال في دلالة الآية ، وسند الرواية - بل ودلالاتها - ضعيف في الغاية .

ثم بين سبحانه القسم الثالث من الدين ، وهو ما لم يؤخذ عليه كتاب ولا رهن ، بقوله : ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ الدائن الذي هو ﴿بِعِضِّكُمْ﴾ ومن جملتكم ﴿بَعْضًا﴾ آخر ، وهو المديون ، واطمأن قلبه به ، بحيث لا يخاف منه الجحود والإنكار ، حتى يحتاج إلى الاستيثاق بالكتاب والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ المديون ﴿الَّذِي أُؤْتِنَ﴾ على الدين إلى الدائن ﴿أَمَانَتُهُ﴾ وحقه . وإطلاق الأمانة عليه ، لمعاملة الدائن مع المديون ودينه معاملة الأمين والأمانة ، من عدم أخذ الكتاب والرهن والشهود عليه ﴿وَلْيَتَّقِ﴾ المديون أن يعصي ﴿اللَّهَ رَبَّهُ﴾ ومليكه اللطيف بإنكار هذا الدين الذي هو بمنزلة الأمانة ، والمماثلة في أدائه .

ثم لما كانت الشهادة على الدين بمنزلة أمانة الدائن عند الشاهد ، أمر سبحانه بأدائها ونهى عن كتمانها بقوله : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا﴾ أيها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ على حقوق الناس إذا دعيتهم لأدائها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾ وأمتنع من أدائها عند الحاجة إليها ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ قيل : إن إسناد الإثم إلى القلب ، لا ستلزامه إثم جميع الجوارح ، لكون القلب رئيسها ، فمن كان قلبه آثما كانت جميع جوارحه آثمة .

عن الباقر عليه السلام ، قال : « كافر قلبه » ^(٣) .

(١) تفسير أبي السعود ١ : ٢٧٢ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٨٣ / ٦٣٠ ، التهذيب ٧ : ١٧٦ / ٧٧٩ عن الباقر عليه السلام ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٦ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٥ / ١١٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٦ .

وقيل : كتمان الشهادة هو أن يضررها ولا يتكلم بها ، فلما كان ^(١) مقترفا بالقلب اسند إليه ، لوضوح أن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ ، كما يقال : هذا مما أبصرته عيني ، وعرفه قلبي ^(٢) .

وقيل : هذا الإسناد ؛ لئلا يظن أنه من الآثام المتعلقة باللسان فقط ، وليعلم أن القلب أصل متعلقة ، ومعدن اقترافه ، واللسان ترجمان عنه ، ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال الجوارح ، إذ هي لها كالأصل الذي تنشعب منه. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر ، وهما من أفعال القلوب ، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلب ، فقد شهد له بأنه من معظّمات الذنوب ^(٣) .

عن ابن عباس رضي الله عنه : أكبر الكبائر الإشراك بالله ، لقوله تعالى : ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ ^(٤) وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة ^(٥) .

وفي حديث مناهي النبي ﷺ : « ونهى عن كتمان الشهادة ... بقوله : ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ﴾ ^(٦) .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والمعصية ، والخيانة في الأمانة وردّها ، وكتمان الشهادة وأدائها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيجازيكم أوفق الجزاء. وفيه غاية التهديد.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ

يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾

ثم لزيادة الترهيب على المخالفة والكتمان ، ذكر العباد سعة قدرته وإحاطة علمه ، ونبتهم بهما. أما سعة قدرته فبقوله : ﴿لِلَّهِ﴾ بالملكية الحقيقية الإشراقية ، لا الاعتبارية الإضافية ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جميعا ، لا يخرج موجود من الموجودات - في عوالم الملك والملكوت ، قوتها وضعيفها وعظيمها وحقيقتها - من تحت قدرته وسلطانه ، فلا عجز له من عقوبة من عصاه ، وإثابة من أطاعه ، هذا سعة قدرته.

وأما إحاطة علمه سبحانه فبقوله : ﴿وَإِنْ تُبْذُوا﴾ تظهروا بالقول أو الفعل ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾

(١) أي الكتمان.

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤٤٣ .

(٣) تفسير روح البيان ١ : ٤٤٣ .

(٤) المائدة : ٥ / ٧٢ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٤٤٣ .

(٦) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٧ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٦ .

وقلوبكم من الإيمان والكفر ، والإرادات الحسنة والسيئة ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾ وتستروه من كل أحد ، من الإرادات والعزومات ، دون الوسوس وخطورات النفس التي لا عقد ولا عزيمة فيها ، لعدم الوسع في دفعها ﴿يُحَاسِبُكُمْ﴾

ويؤاخذكم ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ يوم الحساب.

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت [هذه] الآية جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ^(١) وناس إلى النبي ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، كلفنا من العمل ما لا نطيق ، إنَّ أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ، وإنَّ له الدنيا. فقال النبي ﷺ : « فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا » . وأشدَّ ذلك عليهم ، فمكثوا في ذلك حولا ، فأنزل الله : ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ^(٢) فنسخت هذه الآية ، فقال النبي ﷺ : « إنَّ الله تجاوز عن أمتي ما حدثوا به أنفسهم ، ما لم يعملوا ويتكلموا به » ^(٣) .

في رد استدلال العامة بآية المحاسبة على بطلان مذهب الخاصة

أقول : في الاعتراض وفي الجواب من الدلالة على فساد ضمائر المعترضين ما لا يخفى .

قيل : إنَّما قدم الإبداء على الإخفاء ؛ لأنَّ المتعلِّق بما في أنفسهم هو المحاسبة ، والأصل فيها الأعمال البادية ^(٤) .

وقال جمع من العامة : إنَّ في الآية ردَّ على منكري المحاسبة بما في النفس ، من الإمامية والمعتزلة ^(٥) .

وفيه : أنه إن أريد بما في النفس الخطورات القلبية وحديث النفس ، فأصحابنا الإمامية متفقون على عدم المحاسبة به ، وما من ذي مسكة يخالفهم في ذلك. ولا شبهة أنَّ عموم الآية - بقرينة حكم العقل بقبح المؤاخذة على ما لا يطاق - مخصوص بغيره.

وإن أريد به ^(٦) العزم والإرادة ، فانكار المحاسبة ليس ممَّا اتَّفقت عليه الإمامية ، لذهاب كثير منهم إلى ثبوت المحاسبة به ، والعقاب عليه ، مستدلّين بحكم العقل ، وكثير من الروايات. وأمَّا ذهاب كثير منهم إلى المعفو عنه ، فلتقييدهم الآية بطائفة أخرى من الأخبار المعتبرة ، وحملهم إطلاقها على الكفر

(١) زاد في تفسير الرازي : ومعاذ.

(٢) البقرة : ٢ / ٢٨٦ .

(٣) تفسير الرازي ٧ : ١٢٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ١ : ٢٧٢ .

(٥) تفسير أبي السعود ١ : ٢٧٢ ، تفسير روح البيان ١ : ٤٤٤ .

(٦) أي وإن أريد بما في النفس.

والعقائد الباطلة ، أو مع النيات السيئة بالنسبة إلى غير المؤمنين.

وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وعدا بالمغفرة لمن تاب وآمن ، فلا يواخذ بنيته المعاصي الجوارحية ، ما لم يقتربها ، وقوله : ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تعذيبه ، وعيدا لمن مات على الكفر والعقائد الباطلة.

في الاستدلال على العفو عن النيات السيئة المجردة عن العمل
ومما يدلّ على العفو عن نيات السوء ، وعدم المحاسبة بها ، قوله صلى الله عليه وآله في الرواية السابقة : « إنّ الله تجاوز عن أمّتي ما حدّثوا به أنفسهم ، ما لم يعملوا ، أو يتكلّموا به » ^(١)

فإنّه نصّ صريح في عموم العفو للنيات والارادات المجردة عن العمل.
ورواية ابن عباس : أنّ الله تعالى إذا جمع الخلائق يخبرهم بما كان في نفوسهم ، فالمؤمن يخبره ثمّ يعفو عنه ، وأهل الذنوب يخبرهم بما أخفوا من التكذيب والذنب ^(٢) .
وأما ما عن أمير المؤمنين عليه السلام ، في (نهج البلاغة) من قوله : « وبما في الصدور تجازى العباد » ^(٣) .

فالظاهر أنّ المراد أنّ العباد بنياتهم يجازون على أعمالهم ، فمساقه مساوق قوله صلى الله عليه وآله : « الأعمال بالنيات » ^(٤) .

وتوضيح المرام أنّ حسن الأعمال والعبادات وقبحها ، دائران مدار القصد والنية ، لوضوح أنّ ضرب اليتيم بقصد التأديب حسن ، وبقصد الإيذاء قبيح ، وكذا الكذب بقصد الإصلاح حسن ، وبغيره قبيح ، والعبادات بقصد الإخلاص تكون حسنا ، وبقصد الرياء والسّمة تكون شركا وقبيحا.
فظهر أنّ حسن الأعمال وقبحها بحسب النيات التي في الصدور ، فلا اعتراض على الإمامية - تمسّكا بإطلاق الآية المباركة - ناشئ عن عدم فهم السنّة وعدم التمسّك بالتّقليد اللذين [هما] كلّ مبين للآخر.

ثمّ قرّر سبحانه تعالى سعة قدرته وأكّدها بقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المحاسبة ، والتّعذيب ، والمغفرة ، وغيرها ممّا يكون في حيز الإمكان ﴿قَدِيرٌ﴾ ولا قصور في قدرته ، ولا مانع عن نفوذ إرادته.

روى الطبرسي رحمه الله في (الاحتجاج) ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، في ضمن بيان قصّة المعراج :
« فكان

(١) تفسير الرازي ٧ : ١٢٥ .

(٢) تفسير الرازي ٧ : ١٢٦ .

(٣) نهج البلاغة : ١٠٣ / الخطبة ٧٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٦ .

(٤) التهذيب ١ : ٨٣ / ٢١٨ .

قاب قوسين بينهما أو أدنى ، فأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، فكان فيما أوحى إليه الآية التي في سورة البقرة : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ، وكانت الآية مما ^(١) عرضت على الأنبياء - من لدن آدم إلى أن بعث (تبارك اسمه) محمدا ﷺ - وعلى الامم ، فأبوا أن يقبلوها من ثقلها ، وقبلها رسول الله ﷺ ، وعرضها على أمته فقبلوها ^(٢) .

أقول : المراد من الأمة التي قبلتها أمير المؤمنين عايشا والأوحد من أصحابه ، لظهور أن الذين شكوا إلى رسول الله ﷺ من ثقل الآية ، فقال لهم : « لعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل : ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ » ، قولوا : سمعنا وأطعنا « - على ما في الرواية السابقة - لم يكونوا ممن قبلها ؛ لأنهم لم يقولوا : سمعنا وأطعنا ، بل روي أنه أشد ذلك [عليهم] ، فمكثوا في ذلك حولا ^(٣) .

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ
وَرُسُلُهُ لَا تَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾

ثم أنه تعالى - لما بين التكليف الكثيرة ، ثم عقبها بآية المحاسبة - مدح النبي ﷺ والمؤمنين به بكمال الإيمان والسمع والطاعة بقوله : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ حق الإيمان بالمشاهدة والعيان ، لا بالدليل والبرهان ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ من المعارف والحكم والأسرار وحقائق الأشياء التي يمكن تحمّلها ، المنطوية في القرآن المجيد.

قيل : إنه تعالى لما بين في فاتحة السورة الكريمة ؛ أن الكتاب العظيم الذي أنزله على رسوله ، هدى للمتقين المتصفين بالصفات الفاضلة ، ولم يبين مصداقا لهم ، عين في خاتمتها المتصفين بها ، وحكم بعنوان الشهادة لهم بكمال الإيمان وحسن الطاعة ، وإتاما بدأ تعالى بذكره ﷺ بطريق الغيبة ، مع ذكره هناك بطريق الخطاب ، لما أن حق الشهادة الباقية من الدهور أن لا يخاطب بها المشهود له. وإيراده بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه ﷺ صاحب كتاب وشرع تمهيدا لقوله : ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ ، والتعرض لعنوان الربوبية مع إضافته إليه تشريف له ، وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له ﷺ .

ثم أتبع مدحه بمدح تابعيه بقوله : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المعهودون المعروفون ، الخاصون الصديقون

(١) في المصدر : قد.

(٢) الاحتجاج : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٩ .

(٣) تفسير الرازي ٧ : ١٢٥ .

﴿كُلُّ﴾ منهم بركة هداية ذلك الرسول المكرّم ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته وبصفاته الجلالية والجمالية ، بحقيقة الإيمان ، وصميم القلب ، كما قال سيدهم وأميرهم ^(١) : « لو كشف الغطاء ما ازدادت يقينا » ^(٢) .

ثمّ أنّه تعالى عند تفصيل العقائد المعتمدة في الإيمان ومدح المؤمنين بها ، قدّم الإيمان بالملائكة والكتب في الذكر على الإيمان بالرسول بقوله : ﴿وَمَلَايِكَةٍ﴾ من حيث إنّهم عباد مكرمون له ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، ومن شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاء الوحي ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المنزلة لهداية الخلق وإقامتهم بالقسط ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المبعوثين من قبله تعالى ، لتربية النفوس ، وإتمام الحجّة ، وتبيين الأحكام.

مع أنّ الرسل أرفع شأنًا من الملائكة ، بمقتضى الروايات المتضافرة ، بل المؤمنون أكرم عند الله منهم ؛ لأنّ الملائكة وسائط الوحي ، والكتب منشور الله ووحيه ، فترتيب النظم مقتضي لتقديم المرسل ، ثمّ واسطة الإرسال ، ثمّ الرسالة والمرسول ، ثمّ المرسل إليه.

وأما تغيير الأسلوب بإضافة إيمان الرسول إلى ما انزل إليه - مع كون الإيمان بالملائكة والكتب والرسول داخلا فيه بنحو الإجمال ، وذكر التفصيل في إيمان المؤمنين - فإنّما هو لتعظيم الرسول وتشريفه ، بحيث ينبغي أن يقال في التعبير : الملائكة والرسول آمنوا بالرسول ، فتعظيمه صلوات الله عليه اقتضى الاكتفاء في بيان ما آمن به بذلك الإجمال الذي يعلم تفصيله من تفصيل ما آمن به المؤمنون بذلك الرسول.

ثمّ بعد وصف المؤمنين من حيث العقائد والمعارف ، وصفهم من حيث المقال بأنّهم قائلون : نحن ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ ولا نتميّز ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ من حيث الإيمان والكفر ، والتصديق والتكذيب ، ولا نقول كما قال اليهود : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿وَقَالُوا﴾ إظهارا للانقياد لأحكام الله : ربّنا ﴿سَمِعْنَا﴾ نداء منادي الإيمان ، وتلاوة آيات القرآن ، وفهمنا ما جاءنا من الحقّ والأحكام ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أوامرنا ونواهيك ، وأجبنا ذلك المنادي بالإيمان والانقياد والطاعة ، فإذن نسأل ﴿غُفْرَانَكَ﴾ خطايانا وذنوبنا يا ﴿رَبَّنَا﴾ ومالك أمرنا اللطيف بنا ، فإنّك مرجعنا في القيامة ﴿وَالْيَكْ الْمَصِيرُ﴾ والمنقلب بعد الموت ، وعند الحشر.

قيل : لما نزلت الآية قال جبرئيل للرسول ﷺ : إنّ الله قد أثنى عليك وعلى امتك ، فسل تعط ، فقال

(١) أي أمير المؤمنين علي عليه السلام .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ٣٨ ، بحار الأنوار ٦٩ : ٢٠٩ .

[الرسول ﷺ] : « غفرانك ربنا » (١) .

وفي ندائه بعنوان الربوبية مضافا إلى أنفسهم مبالغة في التضرع ، وجلب العطفة (٢) . وتقديم ذكر السمع والطاعة على سؤال المغفرة ، لكونه ادعى إلى القبول والإجابة ، وفي الإقرار بالمعاد بقوله : ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ بيان لعلّة كمال الحاجة إلى المغفرة.

وفي رواية (الاحتجاج) : عن أمير المؤمنين عليه السلام في قصة معراج النبي ﷺ قال : « فلما أن صار إلى ساق العرش كرّر عليه الكلام ليفهمه ، فقال : ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ ، فأجاب عليه ﷺ مجيبا عنه وعن أمته فقال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُنْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ ، فقال جلّ ذكره : لهم الجنة والمغفرة على أن فعلوا ذلك ، فقال النبي ﷺ : أما إذا فعلت ذلك بنا فغفرانك ربنا وإليك المصير - يعني المرجع في الآخرة - قال : فأجابه الله جل ثناؤه : قد فعلت ذلك بك » (٣) .

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا
إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا
رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
فَاَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾

ثمّ بعد ما بيّن الله طاعة المؤمنين وانقيادهم له ، ذكر منته عليهم بالتسهيل في الأحكام بقوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ ولا يلزم على نسمة عملا ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وما يسهل عليها ، وتسع له قدرتها ؛ بحيث لا يكون عليها فيه ضيق ولا حرج ، فضلا منه ورحمة على هذه الأمة .
عن الصادق عليه السلام : « ما امر العباد إلّا دون سعتهم ، وكلّ شيء امر الناس بأخذه فهم متّسعون [له] ، وما لا يتّسعون [له] فهو موضوع عنهم ، ولكنّ الناس لا خير فيهم » (٤) .
ثمّ بعد بيان المنّة عليهم بالتخفيف والتسهيل في التكليف ، رغب في الطّاعة بقوله : ﴿لَهَا﴾ ثواب ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وعملت من خير وطاعة ، لا لغيرها . ثمّ رهب عن المخالفة والعصيان بقوله : ﴿وَعَلَيْهَا﴾ عقاب ﴿مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وحصلت من الشرّ والضّرّ والمعصية ، لا على غيرها .

(١) تفسير روح البيان ١ : ٤٤٧ .

(٢) كذا ، وقياس المصدر : العطف أو العطف .

(٣) الاحتجاج : ٢٢١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٩ .

(٤) التوحيد : ٣٤٧ / ٦ .

ثم عاد سبحانه إلى بيان مقال المؤمنين في مقام الدعاء والتضرع والخوف بقوله : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

وفي رواية المعراج : « فقال النبي ﷺ لما سمع ذلك : أما إذا فعلت [ذلك] بي وبأمّتي فزدني ، قال : سل ، قال : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله تعالى : لست أوأخذ امتك بالنسيان والخطأ لكرامتك عليّ. وكانت الأمم السالفة ، إذا نسوا ما ذكروا به ، فتحت عليهم أبواب العذاب ، وقد رفعت [ذلك] عن امتك. وكانت الأمم السالفة إذا أخطئوا أو أخذهم بالخطأ وعوقبوا عليه ، وقد رفعت [ذلك] عن امتك لكرامتك عليّ » الخبر ^(١) .

توضيح المراد من رفع الخطأ والنسيان

توضيح الآية والرواية : أنّ المراد من النسيان والخطأ العمل الذي صدر عن النسيان والخطأ في الحكم أو الموضوع ، لوضوح أنّ صفة النسيان والخطأ ليستا من متعلقات التكليف ، ولا قابلتين للمؤاخذه عليهما حتى يرفع عنهما ، وما ليس قابلاً للوضع ليس قابلاً للرفع.

إن قيل : كما لا يمكن جعل المؤاخذه على نفس الصفتين ، لا يمكن جعلها على العمل الصّادر عنهما ، فكيف يصحّ الامتنان برفعها عنه ؟

قلت : نعم ، ولكن يمكن جعل المؤاخذه على عدم المبالاة وعدم المحافظة المؤدّين إلى الخطأ والنسيان ، لكونهما مستنديين إلى الاختيار والتقصير ، ويصحّ جعل العقوبة عليهما بجعل وجوب الاحتياط وإيجاب التحفظ. فمعنى رفع المؤاخذه والعقوبة على العمل الصادر عن الخطأ والنسيان ، رفع إيجاب التحفظ.

وقيل : إنّ المراد من النسيان ترك العمل ، ومن الخطأ الذنب.

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنّ معناه لا تعاقبنا إن عصيناك جاهلين ، أو متعمدين ^(٢) .

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ وتكليفنا شاقاً ثقيلاً ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ﴾ وجعلته

﴿عَلَى﴾ الامم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِنَا﴾

ذكر الأصار التي كانت على الامم

وفي الرواية المعراجيّة السابقة : « فقال النبي ﷺ : اللهم : إذا أعطيتني ذلك فزدني ، فقال

الله تعالى : سل ، قال : ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ

(١) الاحتجاج : ٢٢١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٩ .

(٢) جوامع الجامع : ٥٢ .

قَبْلَنَا يعني بالإصر الشدائد التي كانت على من كان قبلنا ، فأجابه الله تعالى [إلى] ذلك ، فقال تبارك اسمه : قد رفعت عن امتك الآصار التي كانت على الامم السالفة ، كنت لا أقبل صلاتهم إلا في بقاع من الأرض المعلومة ^(١) اخترتها لهم وإن بعدت ، وجعلت الأرض كلها [لامتك] مسجدا وطهورا ، فهذه من الآصار التي كانت على الامم قبلك ، فرفعتها عن امتك .

وكانت الامم السالفة إذا أصابهم أذى من نجاسة قرضوها من أجسادهم ، وقد جعلت الماء طهورا لامتك ، فهذه من الآصار التي كانت عليهم ، فرفعتها عن امتك .

وكانت الامم السالفة تحمل قرايينها على أعناقها إلى بيت المقدس ، فمن قبلت ذلك منه أرسلت إليه نارا فأكلته فرجع مسرورا ، ومن لم أقبل ذلك منه رجع مثبورا ، وقد جلعت قريان امتك في بطون فقرائها ومساكينها ، فمن قبلت ذلك منه أضعفت ذلك له أضعافا مضاعفة ، ومن لم أقبل منه رفعت عنه عقوبات الدنيا .

إلى أن قال : وكانت الامم السالفة صلواتها مفروضة عليها في ظلم الليل وأنصاف النهار ، وهي من الشدائد التي كانت عليهم ، فرفعتها عن امتك ، وفرضت عليهم صلواتهم في أطراف الليل والنهار ، وفي أوقات نشاطهم .

وكانت الامم السالفة قد فرضت عليهم خمسين صلاة في خمسين وقتا ، وهي من الآصار التي كانت عليهم ، فرفعتها عن امتك ، وجعلتها [خمسا] في خمسة أوقات ^(٢) .

وقيل : إن من الآصار : قتل النفس في التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وحرمة أكل الصائم بعد النوم وبعض الطيبات عليهم بالذنوب ، وكتابة ذنب الليل على الباب بالصبح ، وكون الزكاة ربع ما لهم ، وغير ذلك من الشدائد . وقد عصم الله عز وجل هذه الأمة من أمثال ذلك ، وأنزل في شأنهم **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** ^(٣) ، وقال ﷺ : « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » ^(٤) .

ثم كثر النداء بقوله : **﴿رَبَّنَا﴾** إظهارا لمزيد الضراعة **﴿وَلَا تُحْمِلْنَا﴾** ولا تنزل بذنوبنا وإسرافنا على أنفسنا **﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾** ولا صبر لنا عليه ، من البلايا والعقوبات النازلة على الامم السالفة .

واستدل الأشاعرة به على جواز التكليف بما لا يطاق .

(١) في المصدر : بقاع معلومة من الأرض .

(٢) الاحتجاج : ٢٢١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٨٩ .

(٣) الأعراف : ٧ / ١٥٧ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٤٤٩ .

وفيه : أنه لا موقع لاستدعاء عدم تحميل التكليف بغير المقدور ، بعد سؤال عدم تحميل الإصر الذي هو التكليف الشاقة ، وإجابته منه تعالى .

إن قيل : إن المراد بالإصر البلى والعقوبات .

قلنا : مضافا إلى أنه خلاف المشهور بين المفسرين ، وكثير من الروايات ، لا يمكن حمل ما لا يطاق على غير المقدور ؛ لحكم العقل بقبح التكليف به ، فلا بد من حمله على غير المقدور العربي ، وهو ما يكون فيه حرج ومشقة .

وفي الرواية المعراجية : « قال : فقال النبي ﷺ : إذا أعطيتني ذلك فزدني ، قال : سل : قال : **﴿وَلَا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾** قال تبارك اسمه : قد فعلت ذلك بك وبأمتك ، وقد رفعت عنهم عظيم بلايا الامم ؛ وذلك حكمي في جميع الامم أن لا اكلف خلقا فوق طاقتهم » (١) .

ثم أنه تعالى بعد حكاية سؤال المؤمنين أهم حوائجهم في الدنيا ، حكى عنهم سؤال أهم حوائجهم في الآخرة بقوله : **﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾** ذنوبنا **﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾** سيئاتنا **﴿وَارْحَمْنَا﴾**

والفرق بين العفو والمغفرة والرحمة ، أن العفو : هو التجاوز عن عقوبة الذنب . والمغفرة : هي ستر الذنب أو مطلق السر ، ذنبا كان المستور أو نقصا وعيبا ، بحيث لا يطلع عليه أحد . والرحمة : هي التعطف بإعطاء الثواب ، أو بالأعم منه ومن دفع البلاء والحن والكروب وأحوال القيامة .

ثم حكى ختمهم الدعاء بأهم الحوائج بقوله : **﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** وفيه دلالة على أن إعلاء كلمة الحق والجهاد في سبيل الله ، والغلبة على الكفار ، والنصرة على أعداء الدين بالسيف والحجة ، غاية آمال المؤمنين .

ولما كان في الأدعية الثلاثة الاول مقام إظهار غاية الضراعة ، كان الأنسب توصيفه تعالى بصفة الربوبية ؛ لإشعارها بكمال ذلة الداعي ، وتأثيرها في سرعة إجابة الدعاء .

وأما في السؤال الرابع ؛ وهو طلب النصرة على الكفار ، فلما كان مقام الاستعانة والانتصار ، كان المناسب توصيفه تعالى بالمولوية ، حيث إن المولى إن كان بمعنى الناصر والمعين ، أو بمعنى المالك والسيد ، بالمناسبة ظاهرة ، حيث إن من وظيفة السيد والمالك أن يكون ناصرا لعبده وحافظا له ، وإن كان بمعنى متولي الأمور فيدخل فيه النصرة على الأعداء .

(١) الاحتجاج : ٢٢٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩١ .

وفي الرواية المعراجية : عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « قال صلى الله عليه وسلم : **﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾** قال الله تعالى : قد فعلت ذلك بتائي امتك. قال صلى الله عليه وسلم : **﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** قال الله جل اسمه : إنَّ امتك في الأرض كالشَّامة البيضاء في الثور الأسود ، هم القادرون ، وهم القاهرون ، يستخدمون ولا يستخدمون لكرامة امتك ^(١) علي ، وحق علي أن اظهر دينك على الأديان ، حتى لا يبقى في شرق الأرض وغربها دين إلا دينك ، ويؤدّون إلى أهل دينك الجزية » ^(٢) .

وروي من طرق العامة أنّه لما اسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدره المنتهى ، وهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها. قال : **﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾** ^(٣) قال : فراش من ذهب ، قال : فاعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا : اعطي الصلوات الخمس ، واعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئا من أمته ^(٤) .

قال صلى الله عليه وسلم : « قربني الله وأدناني إلى سند العرش ، ثم ألهمني الله أن قلت : **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾** كما فرقت اليهود والنصارى » .

قال : فما قالوا ؟ قلت : **﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾** ، والمؤمنون قالوا : سمعنا وأطعنا » . فقال : صدقت ، فسل تعط ، فقلت : **﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾** قال : قد رفعت عنك وعن امتك الخطأ ، والنسيان ، وما استكروها عليه. فقلت : **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾** يعني اليهود. قال : لك ذلك ولا امتك.

قلت : **﴿وَلَا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾** قال : قد فعلت. قلت : **﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَاَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** قال : قد فعلت ^(٥) .

عن معاذ : أنّه كان إذا ختم سورة البقرة يقول : آمين ^(٦) . ثمّ اعلم أنّ مقتضى هذه الروايات ؛ أنّ آية **﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾** إلى قوله **﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** ، ومن قوله :

(١) في المصدر : لكرامتك.

(٢) الاحتجاج : ٢٢٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩١ .

(٣) النجم : ٥٣ / ١٦ .

(٤) تفسير روح البيان ١ : ٤٤٩ .

(٥) تفسير روح البيان ١ : ٤٤٩ .

(٦) تفسير روح البيان ١ : ٤٥٠ .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ إلى قوله : ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ من كلام الرسول في ليلة المعراج ،
وإنما حكاها الله في كتابه ؛ وليس بكلام الله . مع أنّ الإجماع والضرورة من الدين حاكمان بأنّ جميع ما
بين الدّفتين كلام الله ، ليس كلام المخلوق ، إلّا أن يقال : أنّ الله تعالى حكى المعاني بكلام نفسه ،
والمعصوم حكاها بكلام الله .
ثمّ أنّه تعالى حكى الدّعاء ، ولم يحك الإجابة ؛ لظهورها بقرينة سعة الرّحمة ، وظهور
استحقاق الدّاعي للإجابة .

في تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾

وجه إرداف البقرة بآل عمران

ثمَّ أنَّه تعالى لما ختم السورة المباركة بالدعاء بالنصرة على الكافرين بالسيف والحجة ، وكان ربعها أو أزيد تقريبا في الحاجة مع اليهود ، اقتضى حسن التّظم إردافها بسورة آل عمران ، المتضمّنة لإجابة ذلك الدّعاء ، من جهة دلالتها على غلبة النّبيّ والمسلمين ؛ بنصرته تعالى ، على النّصارى ، بالحجة والمباهلة ، وبشارة المؤمنين بغلبتهم على الكفّار ، ونصرته لهم بقوله : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾^(١) ، واشتمالها على خذلان الكفّار في غزوة احد ، وكونها إلى بضع وثمانين آية في الحاجة مع النّصارى.

قصة وفد نصارى نجران

روي أنَّه قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ، وكانوا ستّين راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ؛ ثلاثة منهم أكابر ، إليهم يؤول أمرهم ، أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب ، واسمه عبد المسيح ، وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيّد ، واسمه الأيهم ، وثالثهم حبرهم واسقّهم وصاحب مدارسهم يقال له أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل ، وقد كان ملوك الرّوم شرفوه ومولّوه وأكرموه لما بلغهم من علمه واجتهاده في دينهم ، وبنوا له كنائس ، فلمّا خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته ، وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه ، فبينما بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت ، فقال كرز تعسا للأبعد - يريد به رسول الله ﷺ - فقال له أبو حارثة : بل تعست امّك ، فقال كرز : ولم يا أخي ؟ [فقال أبو حارثة :] إنّه والله النّبيّ الذي كنّا ننتظره.

فقال أخوه كرز : فما يمنعك عنه ، وأنت تعلم هذا ؟ ! قال : لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا

كثيرة

(١) آل عمران : ٣ / ١٢ .

وأكرمونا ، فلو آمنّا به لأخذوا منّا كلّ هذه الأشياء ، فوقع ذلك في قلب كرز ، وكان يضمّره إلى أن أسلم ، فكان يحدث بذلك.

فأتوا المدينة ، ثمّ دخلوا مسجد رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر ، عليهم ثياب خيّرات ، من جبب وأردية فاخرة ، يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ : ما رأينا وفدا مثلهم. وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلّوا في المسجد ، فقال عائشة : « دعوهم » فصلّوا إلى المشرق.

ثمّ تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله ﷺ ، فقالوا تارة : عيسى هو الله ؛ لأنّه كان يحيي الموتى ، ويرى الأسماء ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطّين كهيئة الطّير ؛ فينفخ فيه فيطير ، وتارة اخرى : هو ابن الله ؛ إذ لم يكن له أب يعلم ، وتارة اخرى : إنّّه ثالث ثلاثة ؛ لقوله تعالى : (فعلناه) و(قلنا) ولو كان واحدا لقال : فعلت وقلت.

فقال لهم رسول الله ﷺ : « أسلموا » . فقالوا : أسلمنا قبلك. قال ﷺ : « كذبتهم ، كيف يصحّ إسلامكم وأنتم تثبتون لله ولدا ، وتعبدون الصّليب ، وتأكلون الخنزير ؟ » قالوا : إن لم يكن ولد الله فمن أبوه ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى في ذلك أوّل سورة آل عمران ^(١) .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد مرّ تفسير البسملة ، وتأويل الحروف المقطّعة ، وإنّما بدأ السورة بها لتوجيه الأذهان إلى إصغاء ما بعدها من البراهين القاطعة على التّوحيد ، وإبطال الشّرك. ولما كان مقام الاحتجاج مع التّصارى ، بدأ سبحانه - على قانون الجدل - ببيان التّوحيد الذاتي ، الذي هو المدعى الأوّل بقوله : ﴿الله﴾ حيث إنّّه علم للذات الواجب ، المستجمع لجميع الكمالات ، الممتنع تعدّده وتكثّره ، ثمّ تنهّاه ببيان التّوحيد العبادي بقوله ، مخبرا عن ذاته بأنّه ﴿لا إله﴾ ولا معبود متصوّر أو موجود ﴿إلا هو﴾

فالجملة الخبريّة دلّت على نفي الوهيّة عيسى ومعبوديّته ، ردّا على التّصارى ، حيث إنّ طائفة منهم كانوا يقولون : عيسى هو الخالق والمعبود لا غيره ، وطائفة اخرى يقولون : هو أحد المعبودين الثلاثة ، وثالثة يقولون : هو أحد المعبودين لكونه ابن الله.

ثمّ أخذ سبحانه في الاستدلال على وحدانيّة ذاته بقوله مخبرا عنه بأنّه ﴿الحى﴾ الذي لا

يموت

(١) تفسير الرازي ٧ : ١٥٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٢ .

و﴿الْقِيَوْم﴾ الذي بيده تدبير كل شيء ، فإذا حكم العقل بأن خالق العالم لا بدّ من أن يكون واحداً لهذين الوصفين ، حكم بفساد القول بكون عيسى إلهاً ؛ لضرورة حياته بعد موته ، وموته بعد حياته ، وعجزه عن الاستقلال بتدبير نفسه ، فضلاً عن تدبير السماوات والأرض وما فيهما .
وفي الرواية السابقة لما قالوا : فمن أبوه ؟ فقال ﷺ : « أ لستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ؟ ! » فقالوا : بلى ، قال ﷺ : « أ لستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء ؟ » قالوا : بلى ، قال ﷺ : « أ لستم تعلمون أنّ ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه ؟ » قالوا : بلى ، قال ﷺ : « فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ » قالوا : لا ^(١) .
وروي أنّ هذين الاسمين اسم الله الأعظم ^(٢) .

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)﴾

ثمّ استدلّ سبحانه على انحصار استحقات العبادة فيه ، بنعمه العظام التي أهمّها إنزال الكتب السماوية لهداية البشر إلى العقائد الحقّة ، والمحسّنات العقلية ، والمصالح الدنيويّة ، بقوله مخبراً عن ذاته المقدّسة أنّه ﴿نَزَلَ﴾ نجوماً وتدرجاً ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمّد ؛ لهداية الخلق إلى يوم القيامة ﴿الْكِتَاب﴾ المجيد والقرآن المجيد .

قيل : عبّر سبحانه عنه باسم الجنس للإشعار بتفوّقه في الكمالات الجنسيّة كأنّه الحقيق بهذا الاسم دون غيره من الكتب .

ثمّ استدلّ على كونه منزلاً من الله بكونه ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل ، أو بالصدق في أخباره ، التي من جملتها خبر التّوحيد ، وسائر المعارف ، وما فيه من الوعد والوعيد ، أو مقروناً بدلائل الصدق ؛ من إعجاز البيان ، والإخبار بالمغيّبات ، والاشتغال على العلوم غير المتناهية ، مع كون من أتى به أميّاً ، حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾ نزل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماويّة ؛ حيث إنّّه أخبر جميعها ببعثة نبيّ من ولد إسماعيل ، له نعوت وصفات خاصّة ، وكتاب ناسخ لسائر الكتب .

(١ و ٢) . تفسير أبي السعود ١ : ٣ .

وجميع هذه العلام المذكورة في الكتب منطبقة على محمد ﷺ وكتابه ، فلو لم يكن صادقا في دعوى رسالته وكتابه منزلا من الله ، لكان إخبار الكتب السماوية كذبا ، فجميع الكتب المنزلة شواهد صدق القرآن ، وأدلة كونه منزلا من الله ، فكل من آمن بها يلزمه الإيمان به.

ثم استدلل سبحانه بنعمه السابقة على الامم السالفة بقوله : ﴿وَأَنْزَلْ﴾ سبحانه دفعة ﴿التَّوْرَةَ﴾ على موسى بن عمران ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ على عيسى بن مريم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على نزول القرآن ؛ لأجل أن يكون كل واحد منهما ﴿هُدًى﴾ ودليلا مرشدا ﴿لِلنَّاسِ﴾ المكلفين باتباعهما إلى الحق والرشاد.

ولا يذهب عليك أنه ظهر من تفسيرنا الفرق بين التنزيل والإنزال ، وأن التنزيل متضمن للكثرة والتدرج في النزول دون الإنزال. ولما كان القرآن جامعا بين الجهتين ، باعتبار نزوله دفعة إلى البيت المعمور ، وتدرجيا إلى الأرض ، اسند إليه التنزيل في أول الآية.

ثم للدلالة على كونه أعظم شأنا ، وأتم نعمة من غيره ، أعاد ذكره بقوله : ﴿وَأَنْزَلْ﴾ الكتاب الذي جعله ﴿الْفُرْقَانَ﴾ بين الحق والباطل ، والمائر بين الضلال والرشاد ، والمبين لمشتبهات سائر الكتب السماوية ، والمهيم عليها.

عن الصادق عليه السلام : « القرآن جملة الكتاب ، والفرقان المحكم الواجب العمل به » (١) .

وفي رواية : « الفرقان كل آية محكمة » (٢) .

وعن النبي ﷺ « سمي القرآن فرقانا ؛ لأنه متفرق الآيات ، والصور انزلت في غير الألواح وغير الصحف » (٣) ، والتوراة [والإنجيل] والزبور انزلت كلها جملة في الألواح والأوراق » (٤) .

أقول : لا منافاة بين هذه الأخبار ، لإمكان إطلاق هذا الوصف عليه بكلا الاعتبارين ، فتحصل من الآيات أن من كان كمال قدرته ، وسعة لطفه ورحمته ، ووفور نعمته بهذه المرتبة ، كان هو المعبود بالاستحقاق دون عيسى وغيره من الخلق.

ثم بعد وضوح الحق وإبطال الشرك بالبراهين القاطعة ، أخذ سبحانه في التهديد على الكفر

(١) الكافي ٢ : ٤٦١ / ١١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٢ .

(٢) جوامع الجامع : ٥٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٢ .

(٣) في علل الشرائع : وغيره من الصحف .

(٤) علل الشرائع : ٤٧٠ / ٣٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٢ ، وفيهما : الألواح والورق .

والشُّرك ، وإنكار كلِّ حقِّ بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وألحدوا ﴿بآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده ، ومعجزات نبيه ، من القرآن وغيره ، قد هبَّ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ غاية الشدَّة ، خارج عن حدِّ البيان ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ، قاهر على خلقه ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ عظيم من أعدائه ، ومنكري توحيده ، ورسالة رسوله ، ودينه .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾

ثمَّ عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيد ذاته - الملازم لاستحقاقه العبادة دون غيره ، بسعة علمه ، وكمال إحاطته بجميع ذرَّات الكائنات وخفايا أحوالها - بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ من الأشياء ، وذرة من الذرَّات ، وحال من أحوالها ، لا ما كان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حتَّى خطرات القلوب ، ومكنونات الضمائر ، من التَّوحيد والشُّرك والإيمان والكفر ، والإرادات الحسنة والسيئة ﴿وَلَا﴾ ما كان ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ حتَّى ضمائر الملائكة ، ومكتوماتهم .

وفيه مزيد تهديد ، حيث إنَّ القدرة الكاملة على العقوبة غير كافية في الردع عن المعاصي الخفيَّة والعقائد السيئة ، إلَّا إذا علم أنَّ المنتقم مطلع على الخفيَّات ، عالم بالسرَّات والمستورات . والتعبير عن علمه بعدم خفاء شيء عليه ، للإشعار بأنَّ علمه بالأشياء بحضورها عنده ، والإحاطة التَّامة القيموميَّة عليها ، لا بالصُّور الدَّهنيَّة ، فلا يشبه علمه علم المخلوقين .

وفي ذكر الأرض والسَّماء تأكيد لسعة علمه ، وتصريح بشموله ، ولدفع توهم اختصاص علمه بخصوص ما في الأرض ، وفي تقديم ذكر الأرض إشعار بكمال الاعتناء بإحاطته بأحوال أهلها . وفي رواية محاجة النَّبيِّ ﷺ مع وفد نجران : قال ﷺ : « أ لستم تعلمون أنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء ؟ ! » قالوا : بلى ، قال ﷺ : « فهل يعلم عيسى شيئا إلَّا ما علَّم ؟ » قالوا : لا ^(١) .

ثمَّ أوضح سبحانه كمال قدرته ، وسعة إحاطته بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ ويخلقكم على هيئة خاصَّة ، وشكل مخصوص ، وأنتم ﴿فِي﴾ مضائق ﴿الْأَرْحَامِ﴾ وظلماتها الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة المشيمة ، وظلمة الرَّحم ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لكم من الصُّور ، من الذَّكورة والانوثة ، والتَّمام ، والنَّقص ،

(١ و ٢) . تفسير روح البيان ٢ : ٣ .

والطَّوْل والقصر ، والحسن والقبح .

وفي رواية الحاجة : قال ﷺ : « أ لستم تعلمون أنّ ربّنا صوّر عيسى في الرّحم كيف شاء ، وأنّ ربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ؟ » قالوا : بلى ، قال ﷺ : « أ لستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة ، ووضعتّه كما تضع المرأة ولدها ، ثمّ غدّي كما يغدّي الصّبيّ ، ثمّ كان يطعم الطّعام ، ويشرب الشّراب ، ويحدث الحدث ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فسكتوا ، فأبوا إلّا جحودا » (١) .

وفي الآيتين أيضا تقرير لصفتي حياته وقيموميّته .

ثمّ أعاد سبحانه ذكر المدعى وهو التّوحيد - بعد إقامة البرهان عليه تفصيلا ، لإشراجه في القلوب - بقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فنزّه ذاته المقدّسة عن أن يكون عيسى مثله وشبيهه في الألوهيّة . ثمّ أعاد حاصل البرهانين المذكورين ، بقوله : ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب غير المتناهي في قدرته ﴿الْحَكِيمُ﴾ والمتقن في أفعاله ومخلوقاته . فعيسى مقهوره ومغلوبه وبديع صنعه ، لكونه مركبا من المادّة والصّورة ، ومحتاجا إلى المركّب ، ومعرّضا للانحلال والفناء .

وحاصل ما استفيد من الآيتين في الردّ على النّصارى : أنّهم إن تمسّكوا في الوهيّة عيسى بعلمه بالمعيّيات ، حيث كان ينبتهم بما يأكلون وما يدّخرون . ففيه : أنّ علما كان مقصورا ببعض الامور الجزئيّة ، والعلم اللاّئق بمقام الألوهيّة هو العلم المحيط بجميع جزئيّات الكائنات ، وأجزاء الموجودات ، وصفاتها ، وأحوالها ، وإن كان مثقال حبة من خردل في صحرة في الظّلّمات ، وبالضرورة لم يكن هذا العلم الشّامل ، لعيسى ولا لغيره .

وإن تمسّكوا بقدرته على ما لا يقدر عليه البشر ؛ من إبراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطّير وإحياء الموتى ، ففيه : أنّها قدرة ناقصة مفاضة إليه من خالقه ومصوره ، إذ من الواضح أنّه مصنوع غيره ، صوره قادر مطلق في رحم أمّه من غير أب ، لبداية أنّه ﷺ لم يخلق أمّه ، ولم يصوّر نفسه في رحمها .

في كيفية خلق الجنين في الرحم ومقدّماته

عن (الكافي) : عن الباقر ﷺ ، قال : « إنّ الله تعالى إذا أراد أن يخلق النّطفة ، التي هي ممّا أخذ عليه (٢) الميثاق ، من (٣) صلب آدم ، أو ما يبدو له فيه ، ويجعلها في الرّحم ، حرّك الرّجل للجماع ، وأوحى إلى الرّحم أن افتحي بابك حتّى يلج فيك خلقي وقضائي

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣ .

(٢) في المصدر : عليها .

(٣) في المصدر : في .

التأذ وقدري ، فتفتح الرحم بابها ، فتصل النطفة إلى الرحم ، فتردد فيه أربعين يوما ، ثم تصير علقة أربعين يوما ، ثم تصير مضغة أربعين يوما ، ثم تصير لحما تجري فيه عروق مشتبكة ، ثم يبعث الله إليه ملكين خلّاقين يخلقان في الأرحام ما يشاء الله ، يقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة فيصلان إلى الرحم ، وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فينفخان فيها روح الحياة والبقاء ، ويشقان له السمع والبصر وجميع الجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله تعالى « (١) الخبر .

أقول : الظاهر أنّ المراد من قوله : (وما يبدو له) من يريد خلقه ممّن لم يأخذ عليه الميثاق ، وهم الذين يموتون قبل البلوغ والتعبير بالبداء لكون الغرض في خلقهم مترّبا على الغرض من خلق من أخذ عليه الميثاق ، ومتأخرا عنه في الرتبة ، فكأنّه حدث إرادته بعد إرادته .

ومن قوله : (حرّك الرجل للجماع) أنّه أوجد مبادئ هيجان الشهوة . ومن قوله : (فأوحى إلى الرحم) جعل قوّة الانفتاح فيه ، وتعلّقت الإرادة التكوينية بفتحه . ومن قوله : (فتردد فيه) تغيّر شيئا فشيئا ، ومن حال إلى حال ، حتّى تصير علقة .

ومن قوله : (الروح القديمة) استعداد صيرورته إنسانا . ومن قوله : (البقاء) هو روح البقاء ، وقوّة التغذية والتنمية . وأنّ المراد من الواو في قوله : (ويشقان) الجمع المطلق ، كما هو مقتضى العطف به ، لا الترتيب ، فلا ينافي تسوية الأعضاء والأحشاء قبل ولوج الروح .

إلى أن قال عليه السلام : « ثمّ يوحى الله إلى الملكين اكتبوا عليه قضائي وقدري ونافذ أمري ، واشترطا لي البداء فيما تكتبان . فيقولان : يا ربّ ما نكتب ؟ قال : فيوحى الله عزّ وجلّ إليهما : أن ارفعا رؤوسكما إلى رأس أمّه ، فيرفعان [رؤوسهما] ، فإذا اللوح يقرع جبهة أمّه ، فينظران فيه فيجدان في اللوح صورته وزينته وأجله وميثاقه ، شقيّا أو سعيدا ، وجميع شأنه .

قال : فيملي أحدهما على صاحبه ، فيكتبان جميع ما في اللوح ، ويشترطان البداء فيما يكتبان ، ثمّ يختتمان الكتاب ، ويجعلانه بين عينيّه ، ثمّ يقيمانه قائما في بطن أمّه . قال : فرمّا عتا فانقلب ، ولا يكون ذلك إلّا في كلّ عات أو مارد « (٢) .

وعن الصادق عليه السلام ، في رواية : « أنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقا جمع كلّ صورة

ما بينه

(١) الكافي ٦ : ١٣ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٣ .

(٢) الكافي ٦ : ١٤ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٣ .

وبين آدم ^(١) ، ثم خلقه على صورة إحداهن ^(٢) ، فلا يقول أحد لولده : هذا لا يشبهني ولا يشبه أحدا من آبائي » ^(٣) .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)﴾

ثم أنه روي أن الوفد قالوا : يا محمد ، أ لست تزعم أن عيسى كلمة الله وروح منه ؟ قال ﷺ : « بلى » قالوا : حسبنا ^(٤) .

والظاهر من قولهم : (حسبنا) أنك اعترفت بقولك : (إنه كلمة الله) أنه ابنه ، وقولك : (أنه روح منه) بأنه ثالث ثلاثة.

فنزل في ردّهم قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ المجيد المسمى بالقرآن ، حال كونه مشتملا على نوعين : نوع ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قطعيات الدلالة ، ناصتات في المراد ، أو ظاهرات فيه ، بنفسها أو بالقرائن المتصلة ؛ من اللفظية أو العقلية أو المقامية.

وتلك الآيات ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وأصل فيه ، باعتبار وجوب إرجاع سائر إليها ، فقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ^(٥) مرجع لقوله : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ^(٦) ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ^(٧) مرجع لقوله : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ^(٨) ، وقوله : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ^(٩) مرجع لقوله : ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ^(١٠) لوضوح أن المخلوق لا يمكن أن يكون جزءا لخالقه ، إلى غير ذلك.

ونوع منه آيات ﴿وَأُخَرُ﴾ هنّ آيات ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الدلالة ، محتملات لمعاني متعدّدة ، لا رجحان لبعضها على بعض في استحقاق الإرادة بها ، ولا يتّضح المقصود منها إلا بالقرائن المنفصلة ، كالمحتملات والمبهمات ، أو الظواهر التي يكون مدلولها مخالفا للعقل السليم ، كقوله : ﴿يُدِّ اللَّهُ فَوقَ﴾

(١) في العلل : صورة بينه وبين أبيه إلى آدم.

(٢) في العلل : أحدهم.

(٣) علل الشرائع : ١٠٣ / ١ باب ٩٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٣ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ١٥٥ .

(٥) مريم : ١٩ / ٦٤ .

(٦) التوبة : ٩ / ٦٧ .

(٧) الأعراف : ٧ / ٢٨ .

(٨) الإسراء : ١٧ / ١٦ .

(٩) الإسراء : ١٧ / ٨٥ .

(١٠) النساء : ٤ / ١٧١ .

أَيْدِيهِمْ^(١) ، وقوله : ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ﴾^(٢) وقوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٣) لحكم العقل بتنزّه خالق الأجسام والأمكنة عن الجسم والصورة والمكان والحركة.

في معنى المحكم والمتشابه

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن المحكم والمتشابه ، فقال : « المحكم : ما يعمل به ، والمتشابه : ما اشتبه على جاهله »^(٤) .

والظاهر أنّ المراد من قوله : (ما يعمل به) ما لا يتوقّف العرف في مدلوله ومفاده.

وعن (الكافي) : عنه عليه السلام ، في تأويله : « أنّ المحكمات أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام ، والمتشابهات فلان وفلان »^(٥) .

ثمّ اعلم أنّ تقسيم الكتاب يجعل بعضه محكما وبعضه متشابها ، لا ينافي تسمية كلّ محكما في قوله : ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾^(٦) ، وأنّ معناه : أنّه اتقنت مطالبه ، بحيث لا يتوهم التناقض فيها ، وحفظت من أن يعترّيها الخلل والتّحريف والتّسخ ، ولا توصيف كلّ بالمتشابه في قوله : ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾^(٧) لأنّ معنى المتشابه هنا : المتماثل الآيات في صحّة المعاني ، وجزالة النّظم ، وحقّية المدلول.

وقد سبق في الطّرفة السّابعة عشرة بيان فوائد كثيرة وحكم وفيرة في جعل كثير من الآيات القرآنية متشابها ، وعدم جعل جميعها محكمات ، من أراد الاطّلاع عليها فليراجعها ، وعمدة حكمها ابتلاء الخلق ، والتمييز بين الثّابت على الحقّ وأهل الزّيغ.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ﴾ كان ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ وميل عن الحقّ إلى اتّباع الهوى ، وانحراف عن الصّراط المستقيم إلى شعب الضّلال ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ من ذلك الكتاب ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ ويتمسّكون - لإثبات عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الباطلة - بظاهر آيات مخالف للمحكمات ، أو بمجملات غير ظاهرة الدّلالة ، ويؤوّلونها بالظّنون والاستحسانات ، لا تحرّيا للحقّ وطلبا للصّواب ، بل ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ وقصد إلقاء الشّبهات في قلوب ضعفاء العقول والإيمان ، وسعيا في إضلال النّاس عن طريق الحقّ والهدى ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلبا لتطبيقه على باطلهم ، وإرجاعه إلى ما هو مشتهى أنفسهم من

(١) الفتح : ٤٨ / ١٠ .

(٢) الفجر : ٨٩ / ٢٢ .

(٣) طه : ٢٠ / ٥ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٩٢ / ٦٤٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥ .

(٥) الكافي ١ : ٣٤٣ / ١٤ ، تفسير العياشي ١ : ٢٩٢ / ٦٤٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥ .

(٦) هود : ١١ / ١ .

(٧) الزمر : ٣٩ / ٢٣ .

الخرافات ، وإرجاعه إلى معنى يوافق ما راموه من الكفر ، لحب الغلبة على الخصم ، وحفظ الجاه والمال ، كتمسك الوفد بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾^(١) وبقوله : ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٢) لإثبات أنّ عيسى ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، مع قصور دالتهما ومعارضتهما لحكم العقل ومحكم الآيات من قوله : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾^(٣) وقوله : ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾^(٤) و﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٥) .

﴿و﴾ الحال أنّه ﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ وحقيقة المراد من المتشابهة أحد ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ العالم بحقائق الامور ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ الثّابتون المتمكّنون ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ المستغرقون في بحر الحكمة والمعرفة ، المقالون بتأييد الله عن العثرة في مزالّ الأقدام ، السّالكون بنور الهداية في ظلمات الأهواء والأوهام ، وهم النّبّي وأوصياؤه الكرام.

في تعريف الراسخين في العلم

عن (الكافي) : « الرّاسخون في العلم من لا يختلف في علمه »^(٦) .

أقول : الظّاهر أنّ المراد منه من لا يكون علمه عن رأي واجتهاد ، حتى تتغيّر فتواه ويختلف حكمه ، وهم الذين يكون علمهم بإفاضة الله وإلهامه ، كالنّبّي وأوصيائه وخلفائه .
روي أنّه قال أبو عبد الله عليه السلام لأبي حنيفة : « أنت فقيه أهل العراق ؟ » قال : نعم ، قال : « فبأيّ شيء تفتي ؟ » قال : بكتاب الله وسنة نبيّه ، قال : « يا أبا حنيفة ، تعرف كتاب الله حقّ معرفته [و] تعرف النّاسخ من المنسوخ ؟ » قال : نعم ، قال : « يا أبا حنيفة ، لقد أدّعت علما ، ويليّك ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم ، ويليّك ما هو إلّا عند الخاصّ من ذرّيّة نبيّنا ، وما ورثك الله من كتابه حرفا »^(٧) .

في (الاحتجاج) : عن أمير المؤمنين عليه السلام ، في حديث قال : « إنّ الله جلّ ذكره - لسعة رحمته ، ورأفته بخلقه ، وعلمه بما يحدث المبدّلون ، من تغيير كلامه^(٨) - قسم كلامه ثلاثة أقسام ؛ فجعل قسما منه يعرفه العالم والجاهل ، وقسما لا يعرفه إلّا من صفا ذهنه ولطف حسّه وصحّ تمييزه ، ممّن شرح الله

(١) آل عمران : ٣ / ٤٥ .

(٢) النساء : ٤ / ١٧١ .

(٣) مريم : ١٩ / ٣٥ .

(٤) الإسراء : ١٧ / ١١١ .

(٥) الأنعام : ٦ / ١٠١ .

(٦) الكافي ١ : ١٩٠ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥ .

(٧) علل الشرائع : ٨٩ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٢٢ .

(٨) في الاحتجاج : كتابه .

صدره للإسلام ، وقسما لا يعرفه إلا الله وأنبيأوه ^(١) والراسخون في العلم ، وإنما فعل [الله] ذلك لغلا يدعي أهل الباطل - من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ - من علم الكتاب ما لم يجعله لهم ، وليقودهم الاضطرار إلى الائتمار بمن ولّاه أمرهم ، فاستكبروا عن طاعته تعززا وافتراء على الله عز وجل ، واغترارا بكثرة من ظاهرهم ، وعاونهم ، وعاند الله جل اسمه ورسوله « ^(٢) .

وروى الفخر الرازي عن ابن عباس أنه قال : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير لا يسع أحدا جهله ، وتفسير تعلمه العرب بألسنتها ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ^(٣) .
عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « نحن الراسخون في العلم ، ونحن نعلم تأويله » ^(٤) .
وفي رواية : « فرسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم ، قد علمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله » ^(٥) .

ثم وصف سبحانه وتعالى الراسخين في العلم بأنهم - مع علمهم بالتأويل ، وفهمهم حقيقة المتشابه كالحكم - « يَقُولُونَ » بألسنتهم طبقا لما في قلوبهم : « آمَنَّا بِهِ » وصدقنا بحقيقة المراد منه ، فإنه « كُلٌّ » من الآيات المتشابهات ، أو منها ومن المحكمات ، حق نازل « مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » ويمكن أن يكون حكاية هذا القول عنهم ، لتعليم المؤمنين الذين لا يعلمون التأويل أن يقولوا مثله ، ولا يشكّوا - لعدم فهم المراد من المتشابه - في أنه من عند الله ، ولا يخوضوا في تفسيره بالظنون والاستحسانات ، بل عليهم أن يؤمنوا به ، ويسلموا له ، ويفوضوا علمه إلى الله تعالى ، وإلى خزان علمه ومهابط وحيه.

ذكر قول بعض العامة ورده

قيل : إنّ « الراسخون في العلم » مبتدأ ، وقوله : « يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » خبره ، وإنّ المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه وبمعرفة الحكمة فيه ، كعدد الزبانية ، وعدة بقاء الدنيا ، ووقت قيام الساعة ، إلى غير ذلك ^(٦) .

وهذا القول في غاية الفساد ، إذ يلزمه أن يكون الرسول جاهلا بكثير من الآيات ، وغير مطلع بالمراد مما أنزل إليه ، مع أنّ القرآن نزل لينتفع الناس به ، ولو ببيان حملته وأوعية علمه ، فلو كان فيه ما لا

(١) في الاحتجاج : وامناؤه.

(٢) الاحتجاج : ٢٥٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥.

(٣) تفسير الرازي ٧ : ١٧٨.

(٤) الكافي ١ : ١٦٦ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥.

(٥) الكافي ١ : ١٦٦ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٥.

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٥.

يعلمه إلا الله لكان تنزيله لغوا ، لعدم انتفاع أحد به ، تعالى عن ذلك.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ ولا يفهم حقيقة تأويل المتشابهات ، وحكمة نزولها حق التذكّر والتفهّم أحد
﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول السليمة من غلبة الشهوات ، وذوو الأفهام المستقيمة
الخالصة عن شوائب الأهواء الزائغات.

ومن الواضح أنّ هذا المدح الفائق ، والثناء الزائق ، لا يليق إلا بمن يصيب الحقّ ، ويهتدي إلى
حقيقة المراد ، ويصل إلى أصل المقصود من كلام الملك العلام ، بجودة الذهن ، وإصابة النظر ، وتنوّع
الفكر ، وتجرّد العقل عن غواشي الحسّ والأوهام.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾

ثمّ لما كان جميع الخيرات والكمالات حدوثا وبقاء بإفاضة الله ولطفه وتوفيقه ، كان على
المؤمن اللبيب أن لا يغترّ بوجدان خير ، ولا يطمئنّ ببقاء كمال ودوام فضيلة ، بل عليه أن يتضرّع
إلى الله ، ويسأل إدامته منه تعالى.

فلذا مدح الله الراسخين في العلم بأنهم الذين يقولون ، تضرّعوا واستكانة : ﴿رَبَّنَا﴾ ويا من
بلطفه تكميل نفوسنا ، وتوفيق هدايتنا ﴿لَا تُزِغْ﴾ ولا تمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن نهج الحقّ ، في تأويل
المتشابهات وغيره ، إلى الباطل والضلال ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحقّ والصواب ، في العقائد والأعمال
والتأويل والتفسير.

وقيل : إنّ المراد : لا تبتلنا ببلاء تزيغ منه قلوبنا.

روي عن النبي ﷺ : « قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه على
الحقّ ، وإن شاء أزاعه عنه » (١) .

والظاهر أنّ كلمة (الإصبعين) كناية عن رضا الله وغضبه ، أو عن الملك المرشد والشيطان
المغوي ، أو عن التوفيق والخذلان.

ثمّ أنّهم - بعد سؤال أن لا يسلب الله عنهم ما ألبسهم من الكمال ، ولا يستردّ ما أعطاهم
من العلم

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٩ .

وتوفيق الترشد إلى الحق - سألوا زيادة الرحمة والعلم والتوفيق بقولهم : ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ ومن خزائن جودك ﴿رَحْمَةً﴾ نفوز بها إلى أعلى درجات قربك ورضوانك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ للحيثيات ، المعطي المعطي للسؤالات . والتذليل به للإشعار بأن هذا المسؤول في جنب عطايه الكثيرة ، في غاية القلة .

عن الكاظم عليه السلام ، في حديث : « يا هشام ، إن الله تعالى قد حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ حين علموا أنّ القلوب تزيع وتعود إلى عماها ورداها ، إنه من لم يخف الله ^(١) لم يعقل عن الله ، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه ، ولا يكون أحد كذلك إلا من كان قوله لفعله مصدقا ، وسره لعلانيته موافقا ؛ لأن الله تعالى لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه ، وناطق عنه » ^(٢) .

عن العياشي ، عن الصادق عليه السلام : « أكثروا من أن تقولوا : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ ولا تأمنوا الزيغ » ^(٣) . وفي الآية دلالة على أنّ الهداية والضلال بتوفيق الله وخذلانه .

ثم لبيان شدة افتقارهم إلى التّحفظ عن الزّيع وشمول الرحمة ، عرضوا على ربهم كمال اطمئنانهم وقوة يقينهم بالمعاد والحشر في القيامة ، للجزاء على العقائد والأعمال ، بقولهم : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ وَعَدْتَ الْعِبَادَ فِي كِتَابِكَ الْحَقَّ ، وَبِلِسَانِ نَبِيِّكَ الصَّادِقِ ، أَنَّكَ ﴿جَامِعُ النَّاسِ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَحَاشِرَهُمْ ﴿لَيَوْمٍ﴾ عَظِيمٍ ، حَتَّى تَحَاسِبَ فِيهِ أَعْمَالَ الْعِبَادِ ، وَتَتَبَّعَ فِيهِ الْمُؤْمِنَ الْمَطِيعَ ، وَتُعَاقِبَ فِيهِ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَ ، وَ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لَنَا ، وَلِكُلِّ عَاقِلٍ بَصِيرٍ مِنْ حَيْثُ وَقُوعُهُ وَعَظَمَتُهُ وَشِدَّةُ أَهْوَالِهِ ، وَإِنَّ مِنْ زَاغِ قَلْبِهِ لَيَبْتَلَى بِعَذَابٍ أَلِيمٍ دَائِمٍ ، وَمَنْ أَعْطَيْتَهُ التَّوْفِيقَ وَالْهُدَايَةَ وَشَمَلْتَهُ الرَّحْمَةَ ، يَنَالُ السَّعَادَةَ وَالْكَرَامَةَ وَالنَّعْمَ الْبَاقِيَةَ كَمَا وَعَدْتَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ الْجَلَالَةِ لِبَيَانِ مَبَايِنَةِ خَلْفِ الْوَعْدِ لَالُوهِيَّتِهِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِلْحِكْمَةِ وَالْغِنَى وَالتَّنَزُّهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ

(١) في الكافي : إنه لم يخف الله من .

(٢) الكافي ١ : ١٤ / ١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٦ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٩٤ / ٦٤٩ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٧ .

هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)

ثمّ - لما علم أنّ هذا الإيمان همّهم في طلب الهداية إلى الحقّ في الدّنيا ، ونيل الرّحمة ، والفوز بالسّعادة في الآخرة ، لا في المال والأولاد والحطام الفانية ، بخلاف الكفّار وأهل الزّيف المتّبعين للمتشابهات ، كما نقل أنّ بعض الوفد ^(١) بعد اعترافه بأنّ محمّدا ﷺ هو النّبيّ الموعود المنتظر ، قال : إن آمنّا به أخذ منّا أموالنا وذهب جاهنا عند الملوك - بيّن الله حال الكفّار في الآخرة ، وهذّدهم بشديد عقابه ، وأنّ أموالهم لا تنجيهم منه بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من نصارى نجران ، وسائر صنوف المعاندين للحقّ ، تنقطع عنهم وسائل النّجاة من العذاب في الآخرة ، حيث إنّهُ ﴿لَنْ تُغْنِيَ﴾ ولا تجزي أبداً ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآخرة ، أو فيها وفي الدّنيا ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي جمعوها واكتسبوها في الدّنيا ، بقصد جلب المنافع ودفع المضارّ عن أنفسهم بها ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الذين يعولون عليهم في الخطوب ، ويتناصرون بهم في دفع الكروب ﴿مِنْ﴾ عذاب الله ﴿أَوْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ شيئاً قليلاً من الإغناء ، أو من العذاب.

وتخصيص الأموال والأولاد من وسائل الدّفاع والنّجاة بالذّكر ، لكونهما من أهمّها وأقواها ، وتقديم ذكر الأموال لأنّها أوّل عدّة يفرع إليها عند الملمات.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ البعيدون عن رحمة الله ، بعد قطع امنيات الخلاص ﴿هُمْ﴾ خاصّة ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ فتشتعل نار جهنّم فيهم كاشتعالها في الحطب والحشائش. وهذا أوضح بيان لكمال ملابتهم بالنّار ، ولسوء حالهم ، وتحويل شأنهم.

﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ

شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ

الْمِهَادُ (١٢)

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ عادة هؤلاء الكفّار وشأنهم ؛ في التّماذي في الكفر ، وتكذيب الرّسول ، والتمرّد عن الحقّ ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ومثل شأنهم ﴿وَوُ﴾ شأن ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من العتاة والمردة ومعاملتهم معك كمعاملتهم مع موسى عليه السلام وسائر الأنبياء العظام عليهم السلام .

(١) وفد نصارى نجران المتقدّم ذكره في أول السّورة.

ثم كآته قيل : كيف كان شأنهم وحالهم مع الأنبياء ؟ فأجاب سبحانه : بأنهم **﴿كذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾** وجحدوا المعجزات التي أظهرها ، وأعرضوا عن البراهين العقلية التي أقاموها ، فنسبوا المعجزات الباهرات إلى السحر ، والبراهين الساطعات إلى أساطير الأولين وتلفيقات الجانين **﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾** وعذبهم **﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾** الموبقة في الدنيا بأنواع العذاب ؛ من الغرق والخسف والصيحة وغيرها **﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** وذكر اسم الجلالة وتكراره لإظهار الروعة وتربية المهابة.

ثم أكد سبحانه تهديد الكفار والمردة - لازدياد الرعب في قلوبهم - بتوعيدهم بعذاب الدنيا ؛ من القتل والتشريد ، مع عذاب الآخرة ، بقوله : **﴿قُلْ﴾** يا محمد **﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** بالله ، وبما انزل إليك ؛ من اليهود والنصارى وعبداء الأوثان : إنكم أيها الطغاة **﴿سَتُغْلَبُونَ﴾** عن قريب ، وتقهرون بأيدي المسلمين وسيوفهم في الدنيا **﴿وَتُخْشَرُونَ﴾** من قبوركم ، وتساقون في الآخرة **﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾** والفرش ، وساء المقر الذي هيأتموه لأنفسكم من النار.

روي أنها نزلت قبل وقعة بدر ، فإنه ﷺ قال لمشركي قريش يوم بدر : « إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم ، وبئس المهاد » ^(١) .

وعن ابن عباس : أن يهود المدينة لما شاهدوا وقعة بدر ، قالوا : والله هذا هو النبي الأمي الذي بشرنا به موسى في التوراة ، ونعته بأنه لا ترد له راية ، وهموا باتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى له . فلما كان يوم أحد شكوا - وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوه - وانطلق كعب بن أشرف في ستين راكبا إلى أهل مكة ، فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ ، فنزلت [الآية] ^(٢) .

وروي عن بعض العامة ، ونسب أيضا إلى روايات أصحابنا : أنه لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا ببدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع ، فقال : « يا معشر اليهود ، أحمذوا من الله بمثل ما نزل بقريش يوم بدر ، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، وقد عرفتم أنني نبي مرسل » فقالوا : يا محمد لا يغرتك أنك لقيت قوما أغمارا ^(٣) لا علم لهم بالحرب ، فأصابت منهم فرصة ، أما والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، فنزلت [الآية] ^(٤) .

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ١١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١١ .

(٣) الأغمار : جمع غمر ، وهو من لم يجزب الأمور ، ولا علم له بها .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٧٠٦ .

في إخبار القرآن بالغيب ووهم ودفع

وعلى أيّ تقدير ، فهذه الآية دالة على إخبار الله بغلبة المسلمين على اليهود وسائر المشركين ، قبل وقوعها ، عن جزم ويقين ، مع وجود الأمارات العادية - من ضعف المسلمين ، وشوكة الكفار - على خلافه.

ثم صدّق الله الوعد بقتل بني قريظة ، وإجلاء بني النضير ، وفتح خيبر ، ووضع الجزية على من بقي منهم ، وخذلان المشركين ومغلوبيّتهم وطردهم وتشريدهم مع كثرة شوكتهم. فلا شبهة أنّ هذا الإخبار - كإخبار عيسى عليه السلام بما يأكلون وما يدّخرون - من آيات النبوة ، وصدق النبي في دعواه.

إن قيل : لعلّ وقوع ما أخبر به كان من الاتّفاقيات ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة. قلنا : من المتفق عليه بين العقلاء أنّ محمداً صلى الله عليه وآله كان أعقل أهل عصره ، لو لم يكن أعقل عقلاء العالم ، ولا ريب أنّ العاقل إذا ادّعى أمراً كالنبوة ، وكان ظهور كذبه في خبر مبطلا لدعواه ، يمتنع أن يخبر عن الجزم واليقين بأمر يكون في نفسه احتمال خلافه ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله بغلبته على الكفار عن جزم ويقين ، مع تراكم الأمارات العادية على خلافها ، وعدم إمكان الجزم إلّا بالوحي.

فإن قيل : لعلّ الجزم به حصل له بطريق الجفر والحساب ، أو علم النجوم ، أو الكهانة. قلنا : مضافاً إلى أنّ هذا الاعتراض وارد على إخبار عيسى عليه السلام - وغيره من الأنبياء - بالمعيات ، فما كان دافعاً لهم في إخبارهم كان دافعاً له في إخباره صلى الله عليه وآله ، فإنّه لا شبهة أنّ تحصيل هذه العلوم محتاج في العادة إلى التعلّم من أهلها ، والحضور عندهم ، ومن المسلم أنّه صلى الله عليه وآله كان أمياً لم يحضر عند عالم ، ولم يتعلّم من أحد ، ولم يراجع كتاباً ، فلا بدّ من اليقين بكون إخباره بالمعيات بالوحي.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فِتْنَةُ تُفَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾

ثمّ استشهد سبحانه على صدق هذا الإخبار الذي كان معدوداً من المحالات ، وتحقيق وقوعه فيما بعد بتأييده تعالى ونصره ، لا بكثرة العدد والعدّة ، بقضية بدر التي أشار إليها إجمالاً بقوله : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيّها اليهود في وقعة بدر ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة ، ودلالة واضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وصدق الإخبار بغلبة المسلمين ، وهي ما وقع ﴿فِي﴾ شأن ﴿فِتْنَتَيْنِ﴾ وفتنتين متبارزتين ، حين ﴿الثّقَاتِ﴾ وتراءتا في

وادي بدر ؛ إحداهما **﴿فِتْنَةٌ﴾** مؤمنة ، قليلة العدد والعدد ، وهم الرسول ﷺ ، وثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه ، وكانت تلك الفئة **﴿تَقَاتِلُ﴾** وتجاهد **﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** وطاعته ، وطلباً لمرضاته ، **﴿و﴾** فئة **﴿أُخْرَى﴾** منهما **﴿كَافِرَةٌ﴾** بالله ورسوله ، وهي طائفة قريش ، وفيها صناديدهم وشجعانهم ، حيث صمّموا على قتال الرسول ﷺ وأصحابه حين سمعوا أنه ﷺ قصد غيرهم. وإنما لم يوصف قتال الفئة الكافرة بكونه في سبيل الطّاغوت ؛ لوضوح أنّ قتالهم كان على ضدّ قتال الفئة المؤمنة ، ولعدم الاعتداد بقتالهم ، وللاّشعار بأنّهم لم يكونوا قاصدين له لما اعتزاهم من الرّعب.

روي أنّ المشركين كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً مقاتلاً ، وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وفيهم أبو سفيان بن حرب وأبو جهل ، وقادوا مائة فرس ، وكان فيهم سبعمائة بعير ، وأهل الخيل كانوا كلّهم دارعين ، وكان في الرّجال دروع سوى ذلك ، ومن أصناف الأسلحة عدد لا يحصى.

وكان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ؛ سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ، ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار ، وكان صاحب راية النّبى ﷺ والمهاجرين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه ، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادَةَ الخزرجي ، وكان في العسكر تسعون بعيراً وفرسان ، أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمُرثد بن أبي مرثد ، وست أدرع وثمانية سيوف ^(١) .

فلما تراءت الفئتان كان المشركون إذا نظروا إلى المسلمين **﴿يَرَوْنَهُمْ﴾** مع كونهم قريباً من ثلاثهم **﴿مِثْلِهِمْ﴾** وضعف عددهم - أي ستمائة ونيفا وعشرين ، بناء على إرجاع ضمير (مثليهم) إلى المسلمين ، ويحتمل رجوعه إلى المشركين ، فيكون عدد المسلمين في نظرهم ألفاً وتسعمائة ^(٢) - رؤية ظاهرة لكونها **﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾** لا يحتمل الالتباس فيها ، كما يحتمل في سائر المعاينات ، وقيل : إنّ المراد رؤية المعاينة ، من غير محاسبة.

قيل : إنّ الله تعالى قلّل المسلمين أوّلاً في أعين المشركين ، حين التقت الفئتان ، ليتجرّأوا على قتال المسلمين ، وقلّل المشركين في أعين المسلمين ، لئلاّ يتخاذلوا في قتالهم **﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** ^(٣) كما في سورة الأنفال ، فلما تبارزوا للقتال ، واشتبكت الحرب ، كثّر الله المسلمين في أعين

(١) تفسير الرازي ٧ : ١٨٩ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٣ .

(٢) في النسخة : ألفاً وست مائة.

(٣) الأنفال : ٨ / ٤٢ .

المشركين ، ليخذلهم بالرعب ، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين ، وكان أبلغ في القدرة وإظهار الآية (١) .

روي عن سعد بن أوس أنه قال : أسر المشركون رجلا من المسلمين ، فسألوه : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر . قالوا : ما كنّا نراكم إلّا تضعفون علينا (٢) .

ويحتمل أن يكون المراد أنّ الله قلّل المشركين في آعين المسلمين حتّى رأوا أنفسهم مثلي المشركين ، ويمكن كون تكثير المسلمين في نظرهم أو في نظر المشركين بدخول الملائكة فيهم ، أو بالتصرّف في القوّة الواهمة .

في بيان معجزات النبي ﷺ في وقعة بدر
ثمّ اعلم أنّه كانت في تلك الواقعة آيات كثيرة ، ومعجزات عديدة ظاهرة .
منها : إخبار النبي ﷺ أصحابه بنصرته على قريش قبل الواقعة .
ومنها : التقليل والتكثير اللذان حكاها الله تعالى في هذه الآية وفي سورة الأنفال .
ومنها : إخباره ﷺ قبل القتال بأنّ هنا مصرع فلان ، وهنا مصرع فلان ، فلمّا أنقضت الوقعة رأوا ما وقع مطابقا لما أخبر به .

ومنها : تأييد الله تعالى المسلمين بألف من الملائكة مردفين (٣) روي أنّه كان سيماء الملائكة أنّه كان على أذنان خيولهم ونواصيها صوف أبيض (٤) .

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ ويقوّي ﴿بِنَصْرِهِ﴾ وعونه ، بلا توسيط الأسباب العادية ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ نصره من عباده ، كما أيّد أصحاب بدر بالملائكة ، وأيّد الرّسول والمؤمنين على الكفّار بالحجج البالغة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من إراءة الجمع القليل كثيرا ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة وموعظة وهداية ظاهرة كائنة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الصّحيحة ، وذوي البصائر النّافذة ، والعقول السّليمة .

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ٨ .

(٣) كما في سورة الأنفال : ٨ / ٩ .

(٤) تفسير الرازي ٧ : ١٩٠ .

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بعد بيان آية التَّوْحِيد والتَّبَوُّة الظَّاهِرَة في قَضِيَّة بدر والتَّنْبِيه على لزوم اعتبار ذوي الأبصار بها - بَيَّنَّ عِلَّةَ عَمَى القلوب وعدم تأثُّرها بها بقوله : ﴿زَيْنٌ﴾ وحسَّن بوساوس الشَّيْطَان واقتضاء الطَّبِيعَة ﴿لِلنَّاسِ﴾ نوعاً ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ وتعلَّق القلوب بالتَّفَسَّاتِ والمُسْتَلَذَّاتِ .

وفي التَّعبير عنها بالشَّهَوَاتِ دون المَشْتَهَاتِ إِذْبانٌ بأنَّهم من شِدَّة حُبِّها ، كأَنَّهُم يَحِبُّونَ شَهْوَهَا ، وإشعارٌ بغاية رذالتها ، لوضوح أنَّ الشَّهْوَة من صفات البهائم .
وتزيَّن حُبُّها بحسبانهم أنَّ حُبَّها مقتضى العقل وكمال النَّفْس ، ولذا يلومون المعرض عنها وينسبونهُ إلى السَّفَه ، مع وضوح أنَّ حُبَّها لا يكون إلَّا من ضعف العقل وغلبة الحيوانِيَّة وفقد البصيرة بحقائقها .

ثمَّ فَصَّلَ سبحانه عمد المَشْتَهَاتِ بأنَّها ﴿مِنْ﴾ قبيل جنس ﴿النِّسَاءِ﴾ اللَّاتِي لِعِرَافَتِهَا في معنى الشَّهْوَة عددن من حبائل الشَّيْطَان ، وقَدَّمْن في الذِّكْر .
ثمَّ اردفن بقوله : ﴿وَالْبَيْنِ﴾ الَّذِي هُم من أعظم الفتن ، كما قيل : أولادنا فتنة ، إن عاشوا فتنونا ، وإن ماتوا أحزنونا ^(١) .

وتخصيص البنين بالذكر من بين الأولاد ، لكون حُبِّهم - من جهة السُّرور والتَّكثُّر - أكثر من حبِّ البنات ، بل كان العرب يكرهونَهُنَّ ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ^(٢) .

والافتتان بهم يشغل القلب بهم عن ذكر الله ، والاهتمام بحفظ خاطرهم بالتَّعَرُّض لمعصيته ، والحرص على جمع الأموال لهم من الحلال أو الحرام ، ولذا عَقَّب ذكرهم بقوله : ﴿وَالْقَنَاطِيرُ﴾ وهو جمع قنطار .

روي عن الباقر والصادق عليهما السلام : « أَنَّهُ ^(٣) مَلءُ مِسْكٍ ثَوْرٌ مِنَ الذَّهَبِ » ^(٤) ، وقيل : مائة ألف دينار . وقيل : ثمانون ألف . وقيل : سبعون ألف : وقيل : أربعون ألف مثقال من الذَّهَب . وقيل : ألف ومائتا مثقال . وقيل : ألفا دينار ^(٥) . وقيل : ألف . وقيل : اثنا عشر ألف درهم ^(٦) . وعلى أي تقدير هي كناية عن المال الكثير .

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٠ .

(٢) النحل : ١٦ / ٥٨ .

(٣) أي القنطار .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٧١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٨ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ١٤ .

(٦) تفسير الرازي ٧ : ١٩٦ .

﴿الْمُقَنْطَرَةُ﴾ مأخوذة من القنطار ، قيل : جيء بها للتأكيد. وقيل : معناه : الكثيرة ، المنضّدة بعضها على بعض. وقيل : المضروبة المنقوشة ، حال كونها ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ﴾ وعلة حبّهما كونهما ثمن سائر الأشياء ، فمالكهما كمالك جميع الأشياء ، ولذا قدّمهما سبحانه بالذكر على قوله : ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ والافراس المرسلّة من كثرتها ، للرّعي ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الثلاثة من الإبل والبقرة والغنم ، بأصنافها ﴿وَالْحَرْثِ﴾ من الغرس والزّرع. وحبّ هذه الأشياء وإن كان ممّا يقوم به نظام العالم ويتمّ عيش بني آدم ، إلّا أنّها لما كانت في الأغلب ملهية عن ذكر الله وشاغله عن طاعته ، ذمّها سبحانه بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من المشتبهات ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الدّنيّة الفانية ، وملذّاتها اليسيرة الزائلة.

فلا ينبغي للعاقل المؤمن أن يتوجّه إليها ، ويتعلّق قلبه بها ، ويصرف همّه فيها ، بل عليه أن يتوجّه بكلّه إلى الله والدار الآخرة ، ويجعل حبّ هذه الأمور تابعا لحبّ الله ، وتحصيلها وصلة إلى طاعة الله ومرضاته ؛ لوضوح أنّ جميع هذه النعم مقدّمات للأعمال الصّالحة ، ووسائل لتحصيل الدّرجات الاخرويّة.

في أنّ المؤمن يحبّ الدنيا لتحصيل الآخرة بها

فالمؤمن اللّيب يحبّ المال ويكتسبه للإنفاق في سبيل الله ، والإرفاق بعباده ؛ ويحرث لأن يوقّق لأداء الزّكاة ، ويتّجر للتوسّعة على العيال والصدّقة على الفقراء ، ويتزوّج لتحسين الفرج من الحرام وحفظ الإيمان وتكثير النّسل وتثقل الأرض بالولد الموحّد الصّالح ، ويأكل ويشرب للتقويّ على الطّاعة ، والقيام بوظائف العبوديّة.

والحاصل : أنّ المؤمن يحبّ الدّنيا وما فيها لغرض تحصيل الآخرة ، ولذا فسّر قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾^(١) بالمرأة الصّالحة وسعة الرّزق. فاتّضح أنّ حبّ الدّنيا لحبّ الله وطلب مرضاته ، ليس الحبّ المذموم ، بل هو ممدوح غايته ، لكونه عين حبّ الله وحبّ طاعته ومرضاته ، فإنّ من يتحمّل شرب الدّواء المرّ للبرء من المرض وطلب السّلامة منه ، لا يعدّ محبّا للدّواء ، بل هو محبّ للبرء من المرض ، وطالب له.

والحاصل : أنّ المؤمن الكامل لا ينال من الدّنيا إلّا لنيل الآخرة ، والقرب من الله ، ومع قطع النّظر عن ذلك يكون مبغضا لها ومعرضا عنها ، وتكون عنده أهون من عراق^(٢) خنزير في يد مجذوم ، وأضرّ من

(١) البقرة : ٢ / ٢٠١.

(٢) العراق : العظم اكل لحمه.

السّم ، فكيف يلتدّ المؤمن بلذائذ الدّنيا ، ويشتاق إليها ، وهو يعلم أنّه مفارقها ، وتبقى عليه تبعاتها ؟ التي أقلّها أن يقال له في الآخرة : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾^(١) .
﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ والمرجع من الجنّة ونعمها الباقية.

﴿قُلْ أَ أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾

ثمّ بعد الإشارة الإجمالية الى فضيلة نعم الآخرة على نعم الدّنيا ، ذكر سبحانه اصول نعم الآخرة تفصيلا بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ، لا تمّتك : ﴿أَنْبِئُكُمْ﴾ وهل اخبركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ وأحسن ﴿مِنْ ذَلِكَُمْ﴾ المشتبهات الدّنيويّة ؟

ثمّ لما كان السّؤال مقتضيا للجواب ، فكأنّه قيل في الجواب : نعم أنبئنا وأخبرنا ، فقال : ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله ، وخافوا عقابه في مخالفة أحكامه وعصيان تكاليفه ، وأعرضوا من الدّنيا ، وأقبلوا إلى الآخرة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اللّطيف بهم تفضلا منه عليهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ متعدّده لكل واحد منهم . وقيل : إنّ التعدّد بلحاظ تعدّد الأشخاص .

ثمّ وصف نضارتها بأن لها أشجارا ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، أو الأربعة المعهودة ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبدا ، غير خائفين من الخروج منها ، وزوال نعمها .
عن النّبي ﷺ : « شبر من الجنّة خير من الدّنيا وما فيها »^(٢) .

ثمّ لما كان من تمام النّعمة الزّوجة الصّالحة الموافقة الأنيسة ، بشرّ الله المؤمنين بها بقوله : ﴿وَوَ لَهُمْ﴾ ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ منزّهة ، طهّرهنّ الله من دنس الحيض والنّفاس والكثافات^(٣) الجسمانيّة ، ونزّههنّ من العيوب والأخلاق السيّئة ؛ كالحسد والغضب والطمع والنّظر إلى غير أزواجهنّ .

ثمّ بشرّهم بعد النّعم الجسمانيّة بأعلى النّعم الرّوحانيّة بقوله : ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ عظيم لا يوصف ببيان ، كائن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من تجلّي أنوار جلاله تعالى ، الذي هو أقصى الآمال ، وأعلى الحظوظ ، ومنتهى الكرامة للمؤمن ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ المتّقين ، فيثيبهم على حسب درجاتهم ، ويجازيهم على قدر زهدهم في الدّنيا ، وإقبالهم إلى الله ، وقيامهم بوظائف العبوديّة .

(١) الأحقاف : ٤٦ / ٢٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١٠ .

(٣) يريد بها الأوساخ .

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦) الصَّابِرِينَ

وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴿

ثم عرّف الله سبحانه عباده المتّقين ، المعدّ لهم هذه الكرامات ، ومدحهم أولاً باليقين بالمبدأ والمعاد ، والخوف والخشية بقوله : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بلسان قائلهم وحالهم : ﴿رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا﴾ بوحدانيتك ، ونبوّة نبيّك ، وصدق كتابك ، ودار ثوابك وعقابك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بحرمة الإيمان ﴿ذُنُوبَنَا﴾ وإسرافنا على أنفسنا ، واستر خطايانا يوم كشف السرائر ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ واحفظنا منه . وفيه دلالة على أنّ أهمّ حوائج المؤمن في الدّنيا غفران الذّنوب والنّجاة من العذاب .

ثمّ بعد ما مدحهم الله بالإيمان والخوف ، مجّدهم بكمال الأخلاق النّفسانيّة ثانياً بقوله : ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على تحمّل مشاقّ الطّاعات ، من أداء الواجبات ، واجتناب المحرّمات ، الحابسين أنفسهم عن الجزع ممّا ينزل بهم من المحن والشّدائد والبلّيات . وفي ذكر صفة الصّبر - من الصّفات الكماليّة النّفسانيّة والاقتصار عليها - دلالة على أنّها أكمل الصّفات ، وكونها جامعة لسائر الكمالات .

ثمّ وصفهم ثالثاً بحسن القول والفعل بقوله : ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم ونيّاتهم ، على ما قيل من أنّ الصّدق ، كما يكون في القول بمطابقته للواقع ، يكون في الفعل بالجدّ بإتمامه وعدم الانصراف عنه ، ويكون في النّيّة بإنفاذ الإرادة وإمضاء العزم ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ المواظبين على الطّاعات المداومين على العبادات ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ ما زاد عن كفافهم من الأموال في القربات ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

عن (المجمع) : عن الصادق عليه السلام : « المصلّين وقت السّحر » (١) .

وعنه عليه السلام : « من قال في وتره إذا أوتر : أستغفر الله وأتوب إليه ، سبعين مرّة ، وهو قائم ، فواظب على ذلك حتى تمضي له سنة ، كتبه الله عنده من المستغفرين بالأسحار ، ووجبت له المغفرة من الله » (٢) .

في أنّ أفضل أوقات الدّعاء وقت السحر

وفي رواية : « من استغفر سبعين مرّة (٣) ، فهو من أهل هذه الآية » (٤) .

وفي تخصيص الاستغفار بالأسحار إشعار بأنّها أفضل أوقات الدّعاء والعبادة ، لأنّ

(١) مجمع البيان ٢ : ٧١٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٩ .

(٢) الخصال : ٥٨١ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٩ .

(٣) في مجمع البيان : استغفر الله سبعين مرّة في وقت السحر .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٧١٤ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٩ .

التَّغْس فيها مصفّاة والعبادة أشقّ.

وعن مجاهد : في قول يعقوب عليه السلام : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ ^(١) أخره إلى وقت السحر ، فإنّ الدّعاء فيه مستجاب. وقال : إنّ الله لا يشغله صوت عن صوت ، لكنّ الدّعاء في السحر دعوة في الخلوة ، وهي أبعد من الرّياء والسّمعة فكانت أقرب إلى الإجابة ^(٢) .

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾

ثمّ اعلم أنّه تعالى بعد جعل ذاته المقدّسة أوّلا في المحاجة مع النّصارى ، مدّعيا لتوحيده الذّاتي والصّفاقي - وإقامة البراهين العقليّة القطعيّة عليه ، والحكم بكفر جاحديه ، وتهديدهم بالعقوبة الدّنيويّة والأخرويّة ، وتنبيه النّاس بعلة اختيار الكفر ، من تزيين مشتبهات الدّنيا في نظرهم ، وأمر نبيّه ببشارة الموحّدين بالتّواب العظيم ، ومدحهم بالصفّات الحميدة الفائقة جعل ثانيا نبيّه مدّعيا. ثمّ أقام الشّهود الذين ^(٣) لا يمكن ردّهم ، على صدق دعواه ، تأييدا للبرهان بها بقوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ عن علمه الحضورى ، وأخبر في كتابه التّكويني بدلالة كلماته التّامة - التي هي صنائعه البديعة ، واتّساق نظامها الأتمّ - على ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا خالق ولا معبود سواه ، ﴿وَوُشَّهَدَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ بلسان الحال والمقال ، وبدلالة الأفعال ، لمعاينتهم عظمتهم وقدرته ، ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ من عباده ، عن العلم البرهاني والعياني ، بما شهد به سبحانه. روي عن الباقر عليه السلام : « أنّ أولي العلم هم الأنبياء والأوصياء » ^(٤) .

ثمّ لما كان المعتبر عدالة الشّاهد ، وعدم جوره في الشّهادة ، أثنى سبحانه على نفسه في المقام بكونه ﴿قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وعاملا بالعدل في جميع الامور ، من قسمة الأرزاق ، والإثابة ، والتّعذيب. ومن عدله أمر عباده بالعدل والتّسوية ، وعدم رضاه بالظّلم والجور. وفيه بيان كماله تعالى في أفعاله ، إثر بيان كماله في ذاته.

وفي الرّواية السّابقة ، عن الباقر عليه السلام بعد تفسير ﴿أُولُوا الْعِلْمِ﴾ بالأنبياء والأوصياء ، قال : « وهم قيام »

(١) يوسف : ١٢ / ٩٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١١ .

(٣) في النسخة : التي .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٩٦ / ٦٥٨ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٩ .

بالقسط « (١) .

والظاهر أنّ المراد أنّ الأنبياء والأوصياء ، لما كانوا مظاهر صفاته تعالى ، كان ظهور صفة قيامه تعالى بالقسط في قيامهم به ، فكان قيامه تعالى بالقسط عين قيامهم به ، ويمكن كون (قائما) حالا لاولي العلم وأفراده بلحاظ كل واحد منهم .

ثم كرّر سبحانه ذكر التوحيد المشهود به بقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيداً له ، واهتماماً به ، وتقريراً لقيامه بالقسط ، حيث إنّ الألوهية لا تجتمع الظلم والجور ، وتوطئة للشهادة على كمال قدرته وعلمه بقوله : ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حتى يعلم أنّه المنعوت بهما دون غيره .

وتقدّم صفة العزيز لتقدّم العلم بقدرته على العلم بحكمته . وفيه تهديد بالانتقام ممن لا يوحّده بما لا يقدر عليه غيره ، وبالحكم بما يريد في خلقه .

قيل : نزلت الآية حين جاء رجلان من أحبار الشام ، فقالا للنبي ﷺ : أنت محمد ؟ قال : « نعم » فقالا : أنت أحمد ؟ قال : « أنا محمد وأحمد » قالوا : أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله ، فأخبرهما (٢) .

عن ابن عباس : خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة ، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة ، فشهد لنفسه قبل خلق الخلق ، حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ، ولا برّ ولا بحر ، فقال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ...﴾ الآية (٣) .

روي عن سعيد بن جبير أنّه كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما نزلت هذه الآية الكريمة حُزوا سجّداً (٤) .

روي عن النبي ﷺ أنّه قال : « يجاء بصاحبها (٥) يوم القيامة ، فيقول الله عزّ وجلّ : إنّ لعبدي هذا عندي عهداً ، وأنا أحقّ من وفي بالعهد ، ادخلوا عبدي الجنة » (٦) .

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)﴾

ثم أنّه تعالى بعد إثبات توحيد ذاته بالبراهين العقلية وشهادة الشهود العدول ، أشار إلى

النتيجة

(١) وايضاً .

(٢) و (٣) . تفسير روح البيان ٢ : ١٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ١٧ .

(٥) أي صاحب الشهادة .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ١٧ .

بقوله : ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ الحقَّ المرضيَّ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من لدن آدم إلى قيام الساعة هو ﴿الإسلام﴾ والالتزام له ، والالتزام بالتوحيد الخالص عن شوب الشُّرك ، المستلزم للاعتقاد بالمعاد والإيمان بالرَّسل والشُّرائع ، بالضرورة من العقل ودلالة الأدلة القاطعة ، بحيث لا مجال للشكَّ فيه.

ففيه دلالة على أنَّ أصل الدِّين في جميع الأزمنة واحد ، وإنَّما الفرق في بعض الفروع والأحكام. ومع ذلك اختلف النَّاس فيه ، وأنكروا التَّوحيد وتدبَّروا بالشُّرك ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ فيه اليهود والنَّصارى ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من التَّوراة والإنجيل ، وما اختاروا الشُّرك بقولهم : عزير ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، في حال من الأحوال ، أو وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بالتَّوحيد ، وصحَّة دين الإسلام ، ونبوة محمد ﷺ .

ولم يكن اختلافهم لخفاء الحقِّ والشبهة فيه ، بل كان ﴿بَغْيًا﴾ وحسدا كائنا فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حيث إنَّ الاختلاف بعد وضوح الحقِّ غايته ، لا يمكن تحقُّقه إلَّا لأجل الأخلاق الذميمة ، وحبِّ الدُّنيا والرئاسة. وفيه غاية التشنيع ، ودلالة على ترامي حالهم في الكفر والضلالة.

ثم هدَّد الجاحدين بقوله : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدَّالَّات على الحقِّ ، ويعرض عن الحجج السَّاطعة على الصَّواب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يحاسبه ويجازيه بأشدَّ العقاب من غير بطء ومهلة ، حيث إنَّه ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب جميع الخلائق في أقلِّ من لحظة.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾

ثم أنَّه تعالى بعد ظهور لجاج الكفَّار وعنادهم ، بحيث لا تنفعهم الحجج ، قال لنبيِّه ﷺ : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في التَّوحيد ، وجادلوك في الحقِّ ، وعارضوك في النُّبوة ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم ، معرضا عنهم : إني ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ وأخلصت قلبي ونفسي وشرائري^(١) وجودي ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا اشرك في انقيادي [إليه] غيره. ﴿وَأَسْلَمَ﴾ له أيضا ﴿مَنِ اتَّبَعَنِ﴾ وآمن بي واهتدى بهدائي ﴿وَقُلْ﴾ بعد ذلك ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنَّصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا علم لهم ولا كتاب ، من مشركي

(١) الشَّرَاشِر : معظم الشيء وجملته.

العرب ، تقريراً : ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ بعد وضوح الحق ، وتام الحجّة ، وظهور المعجزات الباهرة ، كما أسلم أتباعي ، أم أقمتهم بعد لجاجا وعنادا على كفركم ؟ وفيه تعييرهم على اللّجاج بقلّة الإنصاف ، وتوبيخهم بالبلادة والجهل ، وتهيجهم على الانقياد والتبعية.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ لله ، والتزموا بالتوحيد ، واعترفوا بنبوّتك وصحّة دينك ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ إلى الحق ، وسلكوا الصّراط المستقيم ، وفازوا بالنّجاة من العذاب ، وأصابوا جميع الخيرات ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن قبول قولك ، وأعرضوا عن الإسلام والإيمان بك ، فليس لك مسؤولية ، وما عليك من تبعة ﴿فَإِنَّمَا﴾ الواجب ﴿عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ والدّعوة ، وإقامة الحجّة ، وإيضاح الحق ، وقد أدّيت ما عليك بما لا مزيد عليه ، وبالغت في تبليغك بلا توان ولا فتور ﴿وَاللَّهُ بِالصِّيرِ بِالْعِبَادِ﴾ ومطلّع على فطرتهم ، وسجّيتهم ، وسوء أخلاقهم ، وقبائح أعمالهم. وفيه غاية التّهديد.

روي أنّ رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب ، قالوا : أسلمنا ، فقال ﷺ لليهود : « أتشهدون أنّ عيسى كلمة الله وعبدته ورسوله ؟ » فقالوا : معاذ الله. وقال ﷺ للنصارى : « أتشهدون أنّ عيسى عبد الله ورسوله ؟ » فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبدا ، وذلك قوله : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾

ثمّ اعلم أنّه تعالى بعد تهديد المصّرّين على الكفر ، المعرضين عن الإسلام - بنحو الإجمال - هدّدهم بعد بيان خبث ذاتهم ، وشناعة أعمالهم تفصيلا بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ويحسدون الحقّ ودلائله ، وينكرون نبوّة نبيّه ومعجزاته ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ لعنادهم الحقّ ﴿النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يتصوّر ، ومن غير استحقاق في نظرهم ، كما قتلهم أسلافهم. وروي أنّ نسبة القتل إلى الذين في عصر النبي ﷺ باعتبار رضاهم بفعل أوائلهم. ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ ويدعون إلى الحقّ والعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ١٩ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٤ .

عن أبي عبيدة [بن] الجراح : قال : قلت يا رسول الله ، أيّ الناس أشدّ عذابا يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر » ثم قرأها ، ثم قال : « يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار ، في ساعة واحدة ، فقام مائة رجل واثنى عشر رجلا من عبّاد بني إسرائيل ، فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ، ونهؤهم عن المنكر ، فقتلؤهم جميعا من آخر النهار في ذلك اليوم ، وهو الذي ذكره الله » (١) .

قيل : إنّ تكرير الفعل للإشعار بالتفاوت بين القتلين من الفظاعة ، أو باختلافهما في الوقت . ثم لما كان اشتياق هؤلاء إلى الفحشاء والمنكر بمنزلة اشتياقهم إلى العذاب ، عبّر عن إنذارهم بالعذاب بالتبشير بقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ يا نبيّ الرّحمة ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في الآخرة .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ البعيدون عن رحمة الله ، المبتلون بأسوأ الأحوال ، هم ﴿ الَّذِينَ حَبِطَتْ ﴾ وبطلت ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ الخيريّة وأفعالهم الحسنة في الدارين ، فلا يترتب عليها الأثر المرغوب منها ، من المدح والثناء والعزّ والزّفاء والبركة والسّلامة ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ - بل يذمّون عليها ويلعنون بها ويقتلون ويغار عليهم (٢) ويسبون ويسترقّون - ﴿ وَ ﴾ لا في ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ من الخلاص من النّار ، والفوز بالجنّة ، بل يجرمون منها ، ويساقون إلى جهنّم وأشدّ العذاب ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ حينئذ ﴿ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ينصرونهم على الله ، أو يشفعون لهم عنده ، أو يدفعون عنهم عذابه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ﴾

ثمّ أنّه تعالى - لتوضيح غاية خبث ذاتهم ، وشدّة لجاحهم ، ودفع العجب من نهاية تمرّدهم عن الإيمان بخاتم النّبیین ﷺ وبكتابه المشتمل على الإعجاز - ذكر تمرّد علمائهم عن أحكام التّوراة التي كانوا معترفين بكونها الحقّ المنزل من الله ؛ بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمّد ﴿ إِلَى ﴾ ما يعجبك من صنيع أحبار اليهود ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا ﴾ من جانب الله ﴿ نَصِيحًا ﴾ وافرا ، وحظّا متكاثرا ﴿ مِنْ ﴾ العلوم التي في ﴿ الْكِتَابِ ﴾ الذي علموا أنّه حقّ منزل من الله تعالى ، وهو التّوراة ، وأعترفوا بصحّة جميع ما فيه . وقد أخبر الله فيه ببعثة محمّد ﷺ وصفاته ونعوته وحقانيّة دينه .

(١) تفسير الرازي ٧ : ٢١٤ ، وفيه : اليوم فهم الذين ذكرهم الله تعالى .

(٢) في النسخة : ويغارون .

ثم كآنه قيل : ماذا يصنعون من العجائب حين ينظر إليهم ؟ فأجاب سبحانه : ﴿يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذي اوتوا نصيبا منه ، وآمنوا به ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ذلك الكتاب بأوضح بيان (فيما) وقع الاختلاف فيه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين النبي والمسلمين .

﴿ثُمَّ﴾ يقع منهم ما هو في غاية المباينة من إيمانهم بالكتاب ، وهو أنه ﴿يَتَوَلَّى﴾ عن تلك الدعوة ولا يجيها ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ، والالتزام بما فيه ﴿وَهُمْ﴾ في هذا الحال ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن ذلك الكتاب وأحكامه بقلوبهم .

وقيل : إن المراد : أن ديدهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل .

روي أن رسول الله ﷺ دخل مدارس اليهود ، فدعاهم إلى الإيمان ، فقال له رئيسهم نعيم بن عمرو : وعلى أي دين أنت ؟ قال ﷺ : « على ملة إبراهيم » قال : إن إبراهيم كان يهوديا ، قال ﷺ : « إن بيننا وبينكم التوراة فهاتوها » ، فأبوا ، فنزلت ^(١) [الآية] .

وعن الكلبي : أنها نزلت في الرجم : فجر رجل وامرأة من أهل خيبر ، وكانا في شرف منهم ، وكان في كتابهم الرجم ، فأتوا رسول الله ﷺ رجاء رخصة عنده ، فحكم عليهم بالرجم ، فقالوا : جرت علينا ، ليس عليهما الرجم ، فقال ﷺ : « بيني وبينكم التوراة » قالوا : قد أنصفتنا ، قال : « فمن أعلمكم بالتوراة ؟ » قالوا : ابن صوريا ، فأرسلوا إليه ، فدعا النبي ﷺ بشيء من التوراة فيه الرجم دلّه على ذلك ابن سلام ، فقال له : « اقرأ » فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها ، وقام ابن سلام فرفع إصبعه عنها ، ثم قرأ على رسول الله ﷺ وعلى اليهود : إن المحسن والمحصنة إذا زنيا ، وقامت عليهما البيّنة رجما ، وإن كانت المرأة حبلى تربص حتى تضع ما في بطنها . فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين فرجما ، فغضب اليهود لذلك ، فرجعوا كفارا ، فأنزل الله هذه الآية ^(٢) .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾

ثم بيّن الله سبحانه علّة توليهم عن الكتاب ، وجراهم على الله بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ التّولي عن إجابة الدّعوة ، والإعراض بالقلب عن الكتاب ، كان ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ اختلافا من عند أنفسهم ، وافتراء على الله

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١٥ .

﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ في الآخرة بسبب الكفر والمعصية أبدا ﴿إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ قلائل. روي أنهم كانوا يقولون : مدّة عذابنا سبعة أيّام ، وقيل : هي أربعون يوما ، مقدار عبادة بني إسرائيل العجل (١).

فهوّن عليهم الذّنوب والخطوب رسوخ اعتقادهم على ذلك ﴿وَعَرَّهْمُ﴾ وخدعهم ﴿فِي﴾ مخالفة ﴿دِينِهِمْ﴾ وأحكامهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله من قولهم : أنّه تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أولاده إلّا تحلة قسم (٢).

عن ابن عباس رضي الله عنه : زعمت اليهود أنهم وجدوا في التّوراة : أنّ ما بين طريقي جهنّم أربعون سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزّقوم ، وإمّا نعدّب حتّى نأتي إلى شجرة الزّقوم ، فتذهب جهنّم وتهلك ، وأصل الجحيم سقر ، وفيها شجرة الزّقوم ، فإذا اقتحموا من باب جهنّم وتبادروا في العذاب حتّى انتهوا إلى شجرة الزّقوم وملأوا البطون قال لهم خازن سقر : زعمتم أنّ النار لن تمسّكم إلّا أيّاما معدودات ، قد خلت أربعون سنة وأنتم في الأبد (٣).

أقول : فيه دلالة على أن المراد من الأيّام المعدودات أربعون سنة وعبر عنها بها تقليلا لها.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥)

ثمّ أبطل الله سبحانه ما غرّهم باستعظام عذابهم ، وتحويل ما يحيق بهم بقوله : ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم ﴿إِذَا﴾ أخرجناهم من قبورهم و﴿جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ عظيم شديد الأحوال يكون وقوعه ممّا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لعقل.

روي أنّ أوّل راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود ، فيفضّحهم الله عزّ وجلّ على رؤوس الأشهاد ، ثمّ يأمر بهم إلى النار (٤).

﴿وَوُفِّيَتْ﴾ في ذلك اليوم ﴿وُفِّيَتْ﴾ واعطيت من غير نقص ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وحصلت من عمل خير أو شرّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتنقيص الثواب ، أو زيادة العقاب. وفيه دلالة على أنّ الثّواب والعقاب يكونان بالاستحقاق.

(١) تفسير الرازي ٧ : ٢١٨.

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١٦.

(٣) نفس المصدر.

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ١٦.

وأستدلّ بعض العامة به على أنّ العبادة لا تحبط ^(١) . وفيه : أنّ إيفاء جزاء المعصية يكون بحبط ثواب العبادة ، كما أنّ إيفاء ثواب العبادة يكون بالعفو عن عقوبة المعصية.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾

ثمّ - لما كان من أباطيل اليهود قولهم : بأنّه لا بدّ أن تكون النبوة والملك فيهم ، وأنهم أحقّ بهما لكونهم من بيوت الأنبياء ، ومن أهل العلم والكتاب ، ولا يجوز أن يكونا في العرب لكونهم أمّيين - أمر الله نبيه ﷺ بأن يثنيه بالقدرة الكاملة والفضل الشامل الدالّين على بطلان قولهم ، بقوله : ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿اللَّهُمَّ﴾ يا ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ ملكا حقيقيا إشراقيا ويا سلطان عالم الوجود ، لا شريك لك فيه ولا معادل ، تتصرّف فيه كيف تشاء ، إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وفضلا ومنعا وتعذيبا وإثابة ، وتدبره كيف تريد ؛ ومن تدبيرك وسلطانك أنك ﴿تُؤْتِي﴾ وتهب ﴿الْمُلْكَ﴾ والسلطنة أو النبوة ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ أن تملكه وتشرفه بفضلك ﴿وَتَنْزِعُ﴾ وتسلب ﴿الْمُلْكَ﴾ والسلطنة الدنيوية والدنيّة ، وهي النبوة ﴿مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ أن تنزعها عنه ، وتنقلها إلى قوم آخرين. وفيه إشعار بأنّ السلطنة الحقيقيّة مختصّة به تعالى ، وسلطنة غيره بطريق المجاز.

﴿وَتُعِزُّ﴾ في الدّنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ أن تعزّه في الدّنيا بمنصب النبوة ، والمطاعية المطلقة ، والفضائل الكريمة ، والهداية والتّوفيق ، والنصر والغلبة ، وفي الآخرة بالجنّة العاليه ، والمقامات الرّفيعة ، والنّعم الدّائمة ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ذلّة في الدّنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما ، بالخذلان والبعد عن الرّحمة ، والكفر والضّلال والأخلاق الرّذيلة ، والفقر والمسكنة واللّعنّة الدّائمة ﴿بِيَدِكَ﴾ وقدرتك خاصّة دون غيرك ﴿الْخَيْرُ﴾ كلّّه ، قبضا وبسطا ، على حسب مشيئتك وحكمتك ، وعلى ما تقتضيه قابليّة القوابل ، واستعداد الممكنات.

وإنّما خصّ الخير بالذكّر - مع أنّ جميع الامور بيده حتّى الشّرّ - لكون الكلام في ما يسوقه

سبحانه

(١) تفسير الرازي ٧ : ٢١٩ - ٢٢٠.

إلى المؤمنين ، من النبوة والهداية والكتاب ، أو لأنّ كلّ ما هو من قبل الله تعالى ، من النافع والضار ، عين الخير والصّلاح ، وموافق للحكمة والنظام الأتمّ ، أو لأنّ الشّرور من قبل الماهيّات والخيرات ، من قبل الوجود المفاض منه تعالى ، أو لمراعاة الأدب ، لوضوح منافاته لخطابه : بأنّ الشّر منك.

روي أنّ رسول الله ﷺ لما خطّ الخندق عام الأحزاب ، وقطع لكلّ عشيرة ^(١) من أهل المدينة أربعين ذراعاً ، وجميع من وافي الخندق من القبائل عشرة آلاف ، فأخذوا يحفرونه ، خرج من بطن الخندق صخرة كالفيال العظيم ، لم تعمل فيها المعاول ، فوجّهوا سلمان رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ يخبره.

فجاء رسول الله ﷺ وأخذ المعول من سلمان ، فضربها ضربة صدعتها مقدار ثلثها ، وبرق منها برقاً أضاء ما بين لا بتيها ^(٢) ، كأنّه مصباح في ^(٣) بيت مظلم ، فكبر وكبر معه المسلمون ، وقال : « أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنّها أنياب الكلاب » ، ثمّ ضرب الثانية ، فقال : « أضاءت [لي] منها قصور الحمر في أرض الرّوم » ثمّ ضرب الثالثة ، فقال : « أضاءت لي قصور صنعاء ، وأخبرني جبرئيل ﷺ أنّ أمّتي ظاهرة على الامم كلّها ؛ فابشروا » .

فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمينكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنّه يبصر ^(٤) قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنّها تفتح لكم ، وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفرق ^(٥) ، لا تستطيعون أن تبرزوا ، فنزلت [الآية] ^(٦) .

ثمّ قرّر سبحانه سعة قدرته ، وأكّدها بقوله : ﴿ **إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ من إتياء الملك ونزعه ، والإعزاز والإذلال ، وغيرها من الامور الممكنة ﴿ **قَدِيرٌ** ﴾ لا يتصوّر فيك عجز ولا قصور .
﴿ **تَوَلَّجَ** ﴾ وتدخل ﴿ **الَّيْلَ فِي النَّهَارِ** ﴾ بتعقيبه إتياءه ، أو تنقيص الأوّل وزيادة الثاني ، حتّى يصير النهار خمس عشر ساعة ، والليل تسع ساعات ^(٧) ويمكن أن يكون تأويله ، إدخال ظلمة الكفر في نور الفطرة ﴿ **وَتَوَلَّجَ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾ بالتعقيب ، أو الزيادة والنقصان ، بعكس الأوّل . ويمكن أن يكون من بطونه ^(٨)

(١) في تفسير روح البيان : عشرة.

(٢) أي لابي المدينة ، مثنى لابة ، وهي الحرة ، أي الأرض ذات الحجارة السود ، والمدينة تقع بين لابتين .

(٣) زاد في تفسير روح البيان : خوف .

(٤) زاد في تفسير روح البيان : من يثرب .

(٥) أي الخوف .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ١٨ .

(٧) في النسخة : آيات .

(٨) أي من بطون تفسير هذه الآية ، بمعنى التأويل .

إدخال نور الإيمان أو نور الموجود في ظلمة الماهية.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ وتخلقه ﴿مِنْ﴾ الجسم ﴿الْمَيِّتِ﴾ ومن مادة لا حياة لها من تراب ، أو نطفة ، أو بيضة. أو المراد : تخلق العالم من الجاهل ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ كالنطفة والتراب وغيرهما ﴿مِنْ﴾ المبدأ ﴿الْحَيَّ﴾ كالإنسان وغيره من الحيوانات.

وعن (المعاني) : عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ لَمْ يَكُنْ مَيِّتًا ، وَأَنَّ الْمَيِّتَ هُوَ الْكَافِرُ » ، ثُمَّ فَسَّرَ الْآيَةَ : بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يُخْرَجُ مِنَ الْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ ^(١) .

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾ أن ترزقه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتعبد ، أو بغير تقتير .

عن أبي العباس المقرئ ، قال : ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه : بمعنى التعب ، قال تعالى : ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، وبمعنى العدد ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ^(٢) ، وبمعنى المطالبة ، قال تعالى : ﴿فَأَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ^(٣) .

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ

مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ (٢٨)

ثم بعد ما بيّن الله سبحانه أنّ الملك والعزة والخير والرزق كلّ بيد الله ، نهى المؤمنين عن موالاة الكفار بطمع الخير والعزة والمال بقوله : ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ ولا يختار ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ لقراية ، أو صداقة جاهليّة ، أو جوار أو غيرها من الأسباب ﴿الْكَافِرِينَ﴾ الذين هم أعداء الله ، وأعداء دينهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم أولياء الله وأحبّاءه ، وبدلاً منهم ، مع كونهم للأخوة الحقيقية المعنوية أحقاء بالموالاة ، والكفار أحقاء بالمعاداة للمباينة الدنيّة.

فليس للمؤمن أن يؤثر ولاية أعداء الله والمباينين له في الدين على ولاية أحبّائه وأخوتهم الدنيّة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الفعل الشنيع من اتّخاذ أعداء الله أولياء ﴿فَلَيْسَ مِنْ﴾ ولاية ﴿اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يصحّ أن يطلق عليه اسم الولاية ، ويكون خارجاً عنها ومنسلخاً منها رأساً ، لكمال التناهي بين ولاية

(١) معاني الأخبار : ٢٩٠ / ١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠١ .

(٢) الزمر : ٣٩ / ١٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ١٨ ، والآية من سورة ص : ٣٨ / ٣٩ .

المتعاضدين.

فلا يجوز أن تتولوا الكفار ظاهرا وباطنا في حال من الأحوال ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾ وتخافوا ﴿مِنْهُمْ﴾ وتحذروا من شرهم وضرهم ﴿تَقَاةً﴾ باطنية وحذرا واقعيا ، فلا بأس بإظهار موالاتهم مع اطمئنان النفس بعدواتهم وبغضهم ، حتى يزول مقتضى التقية ، فيجب عند ذلك معاداتهم ظاهرا وباطنا.

في وجوب التقية

عن (الاحتجاج) : عن أمير المؤمنين عليه السلام ، في حديث : « وأمر أن تستعمل التقية في دينك ، فإن الله يقول : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية - إلى أن قال - : وإياك ثم إياك أن تتعرض للهلاك ، وأن تترك التقية التي أمرتك بها ، فإنك شاطئ بدمك ^(١) ودماء إخوانك ، معرض لنعمك ونعمهم للزوال ، تدلهم في أيدي أعداء دين الله ، وقد أمرك الله بإعزازهم » ^(٢) .
وعن العياشي : عن الصادق عليه السلام قال : « كان رسول الله ﷺ يقول : لا إيمان لمن لا تقية له » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « التقية ترس الله بينه وبين خلقه » ^(٤) .

وفي رواية : « التقية ديني ودين آبائي » ^(٥) .

ثم أردف الله سبحانه النهي بالتهديد بقوله : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ويخوفكم من سطوته ، كي لا تعصوه فتستحقوا عقابه.

ثم أكد التهديد والتحذير بقوله : ﴿وَالِإِلَهِ الْمَصِيرُ﴾ والمنقلب لعامة الخلق ، فلا يخرج أحد عن سلطانه و [من] تحت قدرته. وفي تكرير اسم الجلالة إدخال الروعة وترية المهابة.

﴿قُلْ إِنْ تُخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾

ثم لما أذن سبحانه وتعالى في التقية ، وإظهار الموالات لهم ، وكان مدارها الخوف القلبي - وهو أمر باطني لا يطلع عليه أحد ، وقد يجعل مندوحة للمعاشرة والمودة في الظاهر ، مع عدم تحقق خوف منهم في الباطن ، بل الموالات الباطنية صارت منشأ للموالات الظاهرية ، ولكن عند اعتراض المؤمنين

(١) شاطئ دمه : أي ذهب هدرا.

(٢) الاحتجاج : ٢٣٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٢ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٩٧ / ٦٦٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٢ .

(٤) الكافي ٢ : ١٧٥ / ١٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٢ .

(٥) جامع الأخبار : ٢٥٣ / ٦٥٧ .

الصّادقين عليهم ، يعتذرون لهم بالخوف - أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ بإعلام المنافقين المحتالين في موالاتهم بسعة علمه تعالى بالسرائر كالظواهر ، بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد : ﴿إِنْ تُخْفُوا﴾ أيّها المنافقون ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وضماؤكم من نيات السوء وموالاة الكفار ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ وتظهروه للناس ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ ويطلع عليه .

فإنّه لا سرّ إلّا وهو عنده تعالى علانيّة ، ولا باطن إلّا وهو عنده ظاهر ، وكيف يخفى عليه سرائركم ﴿و﴾ هو ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخفايا والدقائق ، فإنّ وجود جميع ما فيها بإفاضته وتدبيره ، فإذا كانت إحاطته بهذه المرتبة من الكمال ، يجب على العباد أن يحذروا من مخالفته في الباطن والسرّ أيضا ؛ لأنّه يعلمها ويعاقب عليها ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من العقوبة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾ وفيه غاية التهديد والوعيد .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٣١)﴾

ثمّ بيّن الله تعالى صفة اليوم الذي يكون مصير الخلق فيه إليه ، ويجب على الناس الحذر منه تعالى فيه ، بقوله : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المكلفة ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وصالح ﴿مُحْضَرًا﴾ عندها ، أحضره الله بصورته المثاليّة التي تكون لذلك العمل في عالم المثل والصّور ، لما حقّق في محلّه من أنّ لكلّ شيء في هذا العالم - ولو كان من الأعراض - صورة جوهرية في عالم الصّور والمثل المعلقة ، كما هو مستفاد من كثير من الأخبار . أو المراد إحضاره بوجوده الكسبي في صحيفة الأعمال ، أو بجزائه وآثاره .

﴿و﴾ كذا تجد ﴿مَا عَمِلْتَ﴾ النفس ﴿مِنْ﴾ عمل ﴿سُوءٍ﴾ وقبيح محضرا عندها بصورته الجوهرية أو بجزائه ، فتضجر وتستوحش منه ، بحيث ﴿تَوَدُّ﴾ قيل : كأنّه يقال : حال النفس التي عملت الخير معلوم أنّها في سرور وأمن ، فما حال النفس الشريرة التي عملت السوء ؟ فقال تعالى : تَوَدُّ وتتمنى تلك النفس ، حين ترى السوء ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا﴾ وبونا ﴿بَعِيدًا﴾ من سوء المنظر ووخامة

الآثار.

وقيل : معنى الآية : تودّ وتتمنى كلّ نفس ، يوم تجد صحائف أعمالها ، أو جزاء أعمالها ، من الخير والشرّ حاضرة ، لو أنّ بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمدًا بعيدا ^(١) .

وقيل : المعنى : اذكروا يوم تجد كلّ نفس و (تودّ) حال من الضّمير في (عملت) أو خبر ل (ما عملت من سوء) .

ثمّ بالغ سبحانه في التحذير وأكّده بتكرار قوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ فاحذروا سخطه وبأسه.

ثمّ لتريبته الخوف والرجاء في القلوب أردف الوعيد بالوعد ، وأعلن برأفته ، بقوله : ﴿ وَاللَّهُ رُؤُوفٌ ﴾ سريع الرضا ، وكثير الرحمة ﴿ بِالْعِبَادِ ﴾ المؤمنين.

ويحتمل كون التذليل به ، لبيان علّة التحذير ، وهي الرأفة العظيمة منه بهم ، حيث يكون تحذيره كتحدير الوالد الشفيق ولده عمّا يوبقه ويضرّه.

في أن حبّ الله مستلزم لحبّ محبوباته

ثمّ لما قالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، أمر الله رسوله بردهم بقوله : ﴿ قُلْ لَهُمْ : ﴾ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ كما تقولون ، فلازم حبّه طاعته والانقياد له ، وطلب القرب منه بالقيام بمرضاته ، حيث إنّ الحبّ هو ميل النفس إلى شيء ، لإحرازها كمالا وحسنا فيه ، بحيث يحملها إلى ما يقربها إليه.

فإن علمتم أنّ ذاته المقدّسة مستجمعة لجميع الكمالات ، بل لا كمال لأحد إلّا هو منه وبإفاضته ، فعليكم أيّها المدّعون لمحبتّه أن تطلبوا رضاه وقربه بطاعته.

ثمّ لما تبين لكم أيّ رسوله إليكم ، وأنّه ما من شيء يقربكم إليه إلّا [و] أنا آمركم به ، وما من شيء يبعدكم عنه إلّا وأنا ناهيكم عنه ، إذن ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ في ما أدعوكم إليه ، وأمركم به من الإقرار برسالتي ، والعمل بأحكامي ، فإذا فعلتم ذلك ﴿ يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ ﴾ ويرضى عنكم ، ويقربكم إليه.

وهذا أجزل الاجور وأعظم المثوبات ، لوضوح أنّ أقصى آمال الحبّ كونه محبوبا عند حبيبه ، ولا يتحقّق إلّا بإتيان محبوباته ، وحبّ أحبّائه.

ومن الواضح أنّ أحبّ الناس إلى الله رسوله وخلفاؤه ، ولذا قال الصادق عليه السلام : « هل الدّين إلّا الحبّ » ^(٢) ، ومن أحبّ الرّسول وأوليائه وخلفائه ، أطاعهم وأوفق رضاهم.

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٢١ .

(٢) الخصال : ٢١ / ٧٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٣ .

وفي (الكافي) : عنه عليه السلام ، في حديث : « من سرّه أن يعلم أنّ الله يحبّه ، فليعمل بطاعة الله وليتبعنا ، ألم تسمع قول الله عزّ وجلّ لنبيّه : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والله لا يطيع الله عبد [أبدا] إلّا أدخل الله عليه في طاعته اتّباعنا ، ولا والله لا يتبعنا عبد أبدا إلّا أحبّه ^(١) الله ، ولا والله لا يدع أحد اتّباعنا أبدا إلّا أبغضن عدونا ^(٢) ، ولا والله لا يبغضنا أحد أبدا إلّا عصى الله ، ومن مات عاصيا لله أحزاه الله ، وأكبّه على وجهه في النار » ^(٣) .

ثمّ أشار سبحانه إلى أدنى ثمرات حبّه له ، بقوله : ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويستتر بعفوه سيئاتكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للمعاصي ، وستار للقبائح ﴿رَحِيمٌ﴾ لمن تحبّ إليه بطاعته واتباع رسله وخلفائه.

قيل : نزلت حين دعا رسول الله ﷺ كعب بن أشرف ومن تابعه إلى الإيمان ، فقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه.

وقيل : نزلت في وفد نجران ، لما قالوا : إنّنا نعبد المسيح حبّا لله ^(٤) .

وقيل : نزلت في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنّهم يحبّون الله ، فامروا أن يجعلوا قولهم مطابقا لعملهم ^(٥) .

وعن ابن عباس : أنّ النبي ﷺ وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يعبدون الأصنام ، وقد علّقوا عليها بيض النعام ، وجعلوا في آذانها الشنوف ^(٦) ، فقال رسول الله ﷺ : « يا معشر قريش ، قد خالفتم ملّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام » فقالت قريش : إنّما نعبدها حبّا لله ليقربونا إلى الله زلفى ، فقال تعالى لنبيّه : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ وتعبدون الأصنام لتقربكم إلى الله ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي اتّبعوا شريعتي وسنّي ﴿يُحِبِّكُمُ اللَّهُ﴾ فأنا رسوله إليكم ، وحجّته عليكم ^(٧) .

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

ثمّ أنّه روي أنّه لما نزلت آية ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [قال] عبد الله بن أبي : إنّ

محمّدا يجعل

(١) في النسخة : لحيّة.

(٢) في الكافي والصافي : لا يدع أحد اتّباعنا أبدا إلّا أبغضنا.

(٣) الكافي ٨ : ١٤ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٥ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٥ .

(٦) الشنوف : جمع شنف ، وهو القرط من الدرّ أو الذهب والفضّة وكل ما يعلّق في شحمة الاذن أو فوقها من الزينة.

(٧) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٥ .

طاعته كطاعة الله ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبّت النَّصارى عيسى ، فنزلت ^(١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، ردّا لشبهة المنافقين : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ لكونه بالذّات مستحقا للطّاعة ، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لكونه رسولا ومبلّغا عن الله ، لا لأهليّة نفسه ، كما تقول النَّصارى في عيسى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن طاعة الله في أحكامه التي جاء بها رسوله ، فقد كفروا بنعمه ، واستوجبوا سخطه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ به وبنعمه ، بل ييغضهم ويعذبهم بأشدّ العذاب.

ففيه دلالة على أنّ وجوب طاعة النبيّ ، لكونها من شؤون وجوب طاعة الله ، فمن ادّعى محبة الله ، وخالف أوامر نبيّه ونواهيه ، فهو كاذب في دعواه.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً

بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾

ثمّ أنّه لما بيّن سبحانه أنّ محبته لا تنفكّ عن طاعة الرّسل ، بيّن علوّ درجاتهم ، وشرف مناصبهم ، تحريضا عليها ؛ بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ واختار من جميع خلقه ﴿آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأشرف ولده ، وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من ذرّيتهما ، ولا شبهة أنّ أشرفهم محمد صلّى الله عليه وآله وذريته الطّيبة.

عن الباقر عليه السلام ، أنّه تلا هذه الآية ، فقال : « نحن منهم ، ونحن بقيّة تلك العترة » ^(٢) . وعن الصادق عليه السلام ، قال : « قال محمد بن أشعث بن قيس الكندي عليه اللّعة للحسين عليه السلام : يا حسين بن فاطمة أيّة حرمة لك من رسول الله صلّى الله عليه وآله ليست لغيرك ؟ فتلا الحسين عليه السلام هذه الآية ، ثمّ قال : والله إنّ محمدا صلّى الله عليه وآله لمن آل إبراهيم ، وإنّ العترة الهاذية لمن آل محمد صلّى الله عليه وآله » ^(٣) .

وفي (العيون) ، في حديث : فقال المأمون : هل فضّل الله العترة على سائر النّاس ، فقال أبو الحسن عليه السلام : « إنّ الله تعالى أبان فضل العترة على سائر النّاس في محكم كتابه » .

فقال المأمون : أين ذلك من كتاب الله ؟ فقال له الرضا عليه السلام : « في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ

اصْطَفَىٰ آدَمَ

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٩ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٩٩ / ٦٦٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٥ .

(٣) أمالي الصدوق : ٢٢١ / ٢٣٩ .

وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴿الآية﴾ (١) . وقد فسر آل إبراهيم بآل محمد ﷺ .

﴿وَالْعَمْرَأُ﴾ قيل : هم موسى ، وهارون ؛ ابنا عمران بن يصر بن فاهث (٢) بن لاوي بن يعقوب ، وأولادهما النبيون .

وقيل : عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان ، وإن ماثان كان من نسل سليمان بن داود ، وكان ينتهي بسبعة وعشرين أبا إلى يهودا بن يعقوب . وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة (٣) .

وفي رواية : هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين ، فوضعوا اسما مكان اسم (٤) .

وعن (المجمع) : وآل محمد على العالمين (٥) .

وعن القمي رحمه الله ، قال : قال العالم عائشة : « نزل آل إبراهيم (٦) ، وآل عمران ، وآل محمد ﷺ على العالمين » (٧) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « آل محمد كانت فمحوها » (٨) .

وفي تخصيص آل عمران أو آل محمد ﷺ بالذكر مع دخولهم في آل إبراهيم ، إظهار لكمال الاعتناء بشأنهم وشرفهم .

فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالنفس القدسية ، والملكات الجميلة الروحانية ، والفضائل الجسمانية ، فضّلهم الله بمنصب الرسالة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وجميع الخلق أجمعين من أول الدنيا إلى يوم الدين من الملائكة والجنّ والانس وسائر موجودات عالم الملك والملكوت ، حال كون جميع المصطفين ﴿ذُرِّيَّةً﴾ واحدة مسلسلّة منشعبة ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾

عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ ؛ بَعْضُهُمْ مِنْ نَسْلِ بَعْضٍ » (٩) .

وعن (العياشي) : عنه عليه السلام ، قيل : ما الحجة في كتاب الله أَنَّ آل محمد ﷺ هم أهل بيته ؟ قال : « قول الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ وآل محمد على العالمين (هكذا

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٣٠ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٥ .

(٢) في تفسير البيضاوي : فاهث .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ١٥٦ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٢٩٩ / ٦٧٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٥ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٧٣٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٥ .

(٦) (آل إبراهيم) ليس في المصدر .

(٧) تفسير القمي ١ : ١٠٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٥ .

(٨) تفسير العياشي ١ : ٣٠١ / ٦٧٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٥ .

(٩) مجمع البيان ٢ : ٧٣٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٦ .

نزلت ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ولا تكون الذَّرِيَّةُ من القوم إلا نسلهم من أصلابهم « (١) » .

والظاهر أنّ السائل احتمل أن يكون المراد بالآل جميع المؤمنين ، كما عليه بعض المفسرين من العامة ، مستشهدين له بقوله تعالى : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٢) .

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال النَّاسِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمايرهم وأخلاقهم ، وملكاتهم وأعمالهم ، فيختار منهم من هو أحسن قولاً ، وأصلح عملاً ، وأزكى قلباً ، وأخلص نيّة ، وأقوى بصيرة ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (٣) .

في أن الأنبياء مخالفون لغيرهم في القوى الروحانية والجسمانية نقل الفخر الرازي في تفسيره عن الحلبي كلاماً يعجبني أن أذكره بطوله ، لاشتماله على ذكر معجزات عديدة للنبي ﷺ ، وفضيلة فائقة لأمر المؤمنين ﷺ .

قال الحلبي : إنّ الأنبياء ﷺ لا بدّ أنّ يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانيّة ، والقوى الرّوحيّة . أمّا القوى الجسمانيّة ، فهي إمّا مدركة وإمّا محرّكة . أمّا المدركة فهي إمّا الحواسّ الظاهريّة ، وإمّا الحواسّ الباطنيّة . أمّا الحواسّ الظاهريّة ؛ فهي خمسة :

أحدها : القوّة الباصرة ، ولقد كان الرّسول ﷺ مخصوصاً بكمال هذه الصّفة ، ويدلّ عليه وجهان ؛ الأوّل : قوله ﷺ : « زويت (٤) لي الأرض فاريت مشارقها ومغاربها » ، والثاني : قوله ﷺ : « أقيموا صفوفكم وتراصّوا ، فإني أراكم من وراء ظهري » . ونظير هذه [القوة] ما حصل لإبراهيم ، وهو قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٥) ذكرُوا في تفسيره : أنّه تعالى قوى بصره حتّى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل .

قال الحلبي : إنّ (٦) البصراء يتفاوتون ، فروي أنّ زرقاء اليمامة كانت تبصر من مسيرة ثلاثة أيّام ، فلا يبعد أن يكون بصر النبيّ أقوى من بصرها .

وثانيها : القوّة السامعة ، وكان ﷺ أقوى النَّاسِ في هذه القوّة ، ويدلّ عليه وجهان ؛ أحدهما : قوله ﷺ : « أطّت (٧) السّماء وحقّق لها أن تطّ ، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى » فسمع أطيّط السّماء والثاني : أنّه سمع دويّاً ، وذكر أنّه هوي صخرة قذفت في جهنّم ، فلم تبلغ قعرها إلى

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٠١ / ٦٧٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٦ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٢٢ ، والآية من سورة المؤمن : ٤٠ / ٤٦ .

(٣) الأنعام : ٦ / ١٢٤ .

(٤) زوى الشيء : قبضه وجمعه .

(٥) الأنعام : ٦ / ٧٥ .

(٦) في المصدر : وهذا غير مستبعد لأنّ .

(٧) أطّ الشيء : صوّت .

الآن.

قال الحليمي : ولا سبيل للفلاسفة إلى استبعاد هذا ، فاتّهم زعموا أن فيثاغورس راض نفسه حتى سمع حفيف الملك ^(١) . ونظير هذه القوة لسليمان عليه السلام في قصة النمل : **﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾** ^(٢) فالله تعالى أسمع سليمان كلام النملة ووقفه على معناه. وهذا داخل أيضا في باب تقوية الفهم ، وكان حاصلًا لمحمد ﷺ حين تكلم مع الذئب ومع البعير. وثالثها : تقوية قوة الشَّم ، كما في حقّ يعقوب عليه السلام ، فإنّ يوسف لما أمر بحمل قميصه إليه وإلقائه على وجهه ، فلمّا فصلت العير قال يعقوب : **﴿إِنِّي أَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ، لَوْ لَا أَن تَفَنَّدُونَ . فَأَحْسَنَ بِهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَيَّامٍ .**

ورابعها : تقوية قوة الذّوق ، كما في حقّ رسول الله ﷺ حين قال : **« إِنَّ هَذَا الذَّرَاعَ يَخْبِرُنِي أَنَّهُ مَسْمُومٌ »** .

وخامسها : تقوية القوة اللامسة ، كما في حقّ الخليل ، حيث جعل الله تعالى النار بردًا وسلامًا عليه ، وكيف يستبعد هذا ، ويشاهد مثله في السمندر ^(٣) والنّعام ؟ ! .

وأما الحواسّ الباطنة ، فمنها قوة الحفظ ، قال تعالى : **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾** ^(٤) ومنها : قوة الذّكاء ، قال عليّ عليه السلام : **« عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ ، وَاسْتَنْبَطْتُ مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ »** . فإذا كان هذا حال الوليّ ، فكيف حال النبيّ ؟

وأما القوى المحركة ، فمثل : عروج النبيّ ﷺ إلى المعراج ، وعروج عيسى حيّا إلى السّماء ، ورفع ادريس وإلياس ، على ما وردت به الأخبار ، وقال تعالى : **﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾** ^(٥) .

وأما القوى الرّحانيّة العقلية فلا بدّ أن تكون في غاية الكمال ، ونهاية الصّفاء . اعلم أنّ تمام الكلام في هذا الباب أنّ النّفس القدسيّة النبويّة مخالفة بماهيّتها لسائر النّفوس ، ومن لوازم تلك النّفس الكمال في الذّكاء والفتنة والحرية ، والاستعلاء والترّفّع عن الجسمانيّات

(١) في المصدر : خفيف الفلك.

(٢) النمل : ٢٧ / ١٨ .

(٣) السمندر : طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا ، ونسيح من ريش بعض الطيور لا يحترق.

(٤) الأعلى : ٨٧ / ٦ .

(٥) النمل : ٢٧ / ٤٠ .

والشهوات ، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف ، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة ، كانت هذه القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال ؛ لأنها جارية مجرى الأنوار الفائضة من جوهر الروح ، والواصلة إلى البدن ، ومتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال ، كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء.

ثم أن الله تعالى بعد ما اصطفى آدم بالقوة الكاملة ، وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم ﷺ هم شيث وأولاده إلى إدريس ، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ، ثم حصل من إبراهيم شعبتان : إسماعيل وإسحاق ، فجعل إسماعيل مبدءاً لظهور الروح القدس لمحَمَّد ﷺ ، وجعل إسحاق مبدءاً لشعبتين : يعقوب وعيص ^(١) ، فوضع النبوة في نسل يعقوب ، ووضع الملك في نسل عيص ^(٢) ، واستمر ذلك إلى زمان مُحَمَّد ﷺ ، فلما ظهر مُحَمَّد ﷺ نقل نور النبوة ونور الملك إلى مُحَمَّد ﷺ ، وبقياً - أعني الدين والملك - لأتباعه إلى يوم القيامة ، ومن تأمل في هذا الباب وصل إلى أسرار عجيبة ، انتهى ^(٣) .

وفيه مواضع للتأمل والتخاطة ، والعجب أنه التزم بانتقال نور النبوة والملك في نسل المصطفين إلى مُحَمَّد ﷺ ، ولم يلتزم به في ذرية مُحَمَّد ﷺ بل جعله لأتباعه.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

ثم ذكر سبحانه [و] تعالى قضية ولادة مريم وعيسى - استشهاداً بها على اصطفاها آل عمران ، ورداً على النصارى القائلين بالوهية عيسى ، أو أنه ثالث ثلاثة ، أو أنه ابن الله - بقوله : ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ قيل : الظرف متعلق بـ ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والمعنى : والله سميع للدعاء ، عليم بالصراعة ، حين دعت وتضرعت

(١ و ٢) . في المصدر : عيصو .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٢١ .

حنة بنت فافوذ ﴿أَمْرَأْتُ عِمْرَانَ﴾ ابن ماثان ، أم مريم .

في قضية ولادة مريم وعيسى

عن عكرمة : أُنْهَما كانت عاقرا لا تلد ، وكانت تغبط النساء بالأولاد ^(١) .

وعن محمد بن إسحاق : أُنْهَما ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت ، وكانت يوما في ظل شجرة فرأت طائرا يطعم فرخا له ، فتحرّكت نفسها للولد ، فدعت ربّها أن يهب لها ولدا ، فحملت بمریم ، وهلك عمران ، فلما عرفت حملها جعلته الله بقولها : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ من الولد ﴿مُحَرَّرًا﴾ وعاهدتك أن أجعله خادما للمسجد ، أو لمن يدرس الكتاب ، أو مخلصا للعبادة ، أو عتيقا من أمر الدنيا لطاعة الله .

قيل : كان الأمر في دين بني إسرائيل أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه ، كان يجب عليه خدمة الأبوين ، فكانوا بالتّدرّ يتكون ذلك النوع من الانتفاع ، ويجعلونه محرّرا لخدمة المسجد ، وطاعة الله . ^(٢)

وقيل : كان المحرّر يجعل في الكنيسة ، يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم ، ثمّ يخير بين الدّهاب والمقام ، فإن أبي المقام وأراد أن يذهب ذهب ، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار . ولم يكن نبيا إلّا ومن نسله محرّر في بيت المقدس ، ولم يكن التّحرير جائزا إلّا في الغلمان . ^(٣)

قيل : إنّ تحرير حنة كان بإلهام الله ^(٤) ثمّ أُنْهَما لإظهار أنّ هذا النّذر كان لطلب مرضاة الله وتقربا إليه ، قالت : ﴿فَتَقَبَّلَ﴾ هذا التّحرير ، وتلقّه ﴿مَنِي﴾ بالرضا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بخلوص نيتي وحقيقة ضراعتي ، وفي تخصيص الوصفين به تعالى إظهار لقوّة يقينها ، وإشعار باختصاص دعائها به تعالى ، وانقطاع رجائها من غيره .

ثمّ أنّه كان في ظنّها أنّ النّسمة التي في بطنها غلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ ورأت أنّها أنثى ، ولم تكن الجارية صالحة للتّحرير ؛ لخدمة المسجد ، وملازمته ، لما يصيبها من الحيض والأذى ﴿قَالَتْ﴾ تحزّنا وتحسّرا على خيبة رجائها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾ حال كونها ﴿أُنْثَى﴾ ثمّ لما كانت جاهلة بقدرها وشأنها ، قال سبحانه تعظيما لها وإظهارا لجلالته : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ من غيره ﴿بِمَا وَضَعْتَ﴾ حنة ، وبما علق بها من عظام الامور .

وقرئ (وضعت) على الخطاب ، والمعنى أنّك لا تعلمين قدر هذه الموهوبة ، وما لها من علوّ

الشأن

(١) تفسير الرازي ٨ : ٢٥ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٢٥ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٢٥ .

(٤) تفسير الرازي ٨ : ٢٥ .

وسمّو المقام. وفي قراءة (وضعت) على المتكلّم ، على أنّه من كلامها ، تسليّة لنفسها ، وهو مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام (١) .

ثمّ أنّه تعالى زاد في تبين عظمة موضعها ورفع منزلتها ومقامها بقوله : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي كانت تطلبه ، وتمتّع أنّه يكون كواحد من سدنة المسجد ﴿كَالْأُنْثَى﴾ التي وهبتها لها ، في الفضيلة والشرف والكرامة عندي.

عن (الكافي) و (القمي) : عن الصادق عليه السلام قال : « إنّ الله أوحى إلى عمران أنّي واهب لك ذكرا سويا مباركا يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذني ، وجاعله رسولا إلى بني إسرائيل ، فحدث عمران امرأته حنة بذلك - وهي امّ مريم - فلمّا حملت بها كان حملها عند نفسها غلاما ، فلمّا وضعتها قالت : [ربّ] إنّني وضعتها انثى وليس الذكر كالانثى ، [أي] لا تكون البنت رسولا ، يقول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ فلمّا وهب لمريم عيسى ، كان هو الذي بشر به عمران ووعدته إياه » (٢) .

وعنه عليه السلام : « أنّ المحرّر يكون في الكنيسة لا يخرج منها ، فلمّا وضعتها [انثى] قالت : ربّ إنّني وضعتها انثى (٣) وليس الذكر كالانثى ، إنّ الانثى تحيض ، فتخرج من المسجد » (٤) . وفي رواية اخرى عنه عليه السلام : « وليس الذكر كالانثى في الخدمة » (٥) .

ومقتضى هذه الروايات أنّ الجملة المعارضة في الآية قوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ فقط ، وأنّ قوله : ﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ من كلام حنة ، وهو المعطوف عليه لقوله : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾

قيل : إنّ مريم بالعبرانية بمعنى : العابدة أو خادمة الربّ ، وإنّ إظهار تسليتها بهذا الاسم لإظهار بقائها على نيّة وقفها لعبادة ربّها ؛ غير راجعة عنها ، فكأنّها قالت : إنّ هذه الانثى ، وإن لم تكن خليفة لوقفها لخدمة المسجد وسدانة بيت المقدس ، فلتكن من العابدات فيه. وفي تصديدها للتسمية إشعار بموت عمران قبل ولادة مريم ؛ لأنّ مقتضى العادة أنّ الأب يتولّى تسمية الولد إذا كان حيّا (٦) .

ثمّ لما كانت حنة عالمة بأنّ الشيطان يطمع في إغواء كلّ مولود خصوصا النساء ، قالت :

﴿وَإِنِّي

(١) جوامع الجامع : ٥٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٠١ ، الكافي ١ : ٤٤٩ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٧ .

(٣) زاد في العياشي : والله أعلم بما وضعت .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٠٢ / ٦٧٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٧ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٠٢ / ٦٧٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٧ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٢٧ .

أُعِيذُهَا بِكَ» واجبرها بلطفك والجهها بحفظك ، ﴿وَوَكَا﴾ كذا ﴿ذُرِّيَّتَهَا﴾ ونسلها ﴿مِنْ﴾ كيد
﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ المطرود من كل خير .

عن النبي ﷺ : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسسه حين يولد ، فيستهل صارخا ^(١) ،
إلا مريم وابنها » ^(٢) .

قيل : لما قالت حنة هذه الكلمات ، وتضرعت إلى الله في قبول مريم لعبادته ، وحفظها من
إغواء الشيطان ، لفتها في خرقة ، وحملتها إلى المسجد ، ووضعها عند الأحبار ، أبناء هارون ، وهم
في بيت المقدس كالحجبة في مسجد الحرام ، وقالت : خذوا هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها ؛ لأنها كانت
بنت إمامهم ، وكان بنو ماثان رؤس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ،
عندي خالتيها ، فقالوا : لا حتى نقرع عليها ، فانطلقوا - وكانوا سبعا وعشرين - إلى نهر فألقوا فيه
أقلامهم ثلاث مرات في النهر . وقيل : نهر الأردن . ففي كل مرة ارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت
أقلامهم ، فسلموها إلى زكريا .

قيل : هو معنى قوله : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ ومليكتها ، ومكملت نفسها بكلمات لا ثقة بها
﴿بِقَبُولِ حَسَنِ﴾ فكأنه أخذها ربها من أمها وسلمها لزكريا . ^(٣)

قيل : إن الحكم في تلك الشريعة أنه لم يكن التحرير جائزا ، إلا في غلام عاقل قادر على
خدمة المسجد ، ومن حسن القبول أن الله بعد تضرع حنة ، قبل تحرير بنتها حال صغرها ، وعدم
قدرتها على خدمة المسجد ^(٤) وفي لفظ التقبّل إشعار بشدة الاعتناء بقبولها .

﴿وَأَنْبَتَهَا﴾ ربها ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وربها تربية صالحة كاملة ، وهيا لها جميع ما يصلحها .
قيل : إنما تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ، ولم تلتقم ثديا قط ، وكانت تنمو في اليوم
مثل ما ينمو المولود في عام ﴿وَوَكَّلَهَا﴾ الله ﴿زَكْرِيَّا﴾ وجعله ضامنا لمصالحها ، وقائما بتدبير امورها .
وفي عدة روايات من طرق أصحابنا أنه ﷺ كان زوج اختها ، لا زوج خالتيها .
وروي أنها لما صارت شابة ، بنى زكريا لها غرفة ، وفي رواية : محرابا في المسجد ، والظاهر أن
المحراب والغرفة واحد ، ولا يصعد إليها إلا بسلم ، ولا يدخل عليها غيره ، وإذا خرج أغلق عليها
سبعة

(١) زاد في تفسير الرازي : من مسّ الشيطان .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٢٨ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٢٨ .

(٤) تفسير الرازي ٨ : ٢٨ .

أبواب (١) .

ومع ذلك ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ روي أنه كان يأتيها رزقها من الجنة ، وأنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء (٢) ، فتعجب زكريا و﴿قَالَ﴾ لها : ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ الرزق ، ومن أين جاءك ، ومن أتاك به ، والأبواب مغلقة عليك ؟ ﴿قَالَتْ﴾ مريم في جوابه : ﴿هُوَ﴾ نازل عليّ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تعجب ولا تستبعد ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بفضله وجوده ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يرزقه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتقدير لكثرة ، أو بغير استحقاق ، قيل : إنَّ الدليل (٣) من كلامه عزَّ وجلَّ .

في نزول مائدة الجنة لفاطمة ؑ كما نزلت لمريم

ثم أنه روى أبو السَّعود والبيضاوي في تفسيرهما أنَّ فاطمة الزَّهراء ؑ أهدت إلى رسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم ، فرجع بها إليها ، فقال : « هلمِّي يا بنية » فكشفت عن الطَّبَق ، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً ، وقال لها : « أتى لك هذا ؟ » قالت : ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فقال ﷺ : « الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيِّدة نساء بني إسرائيل » ، ثم جمع عليّاً والحسن والحسين ؑ وجميع أهل بيته ، فأكلوا وشبعوا ، وبقي الطَّعام كما هو ، فأوسعت على جيرانها (٤) .

وعن العياشي : عن الباقر ؑ ، قال : « إنَّ فاطمة ؑ ضمنت لعلِّي ؑ عمل البيت والعجن والخبز وقمَّ البيت (٥) ، وضمن لها عليّ ؑ ما كان خلف الباب [من] نقل الحطب ، وأن يجيء بالطَّعام . فقال لها يوما : يا فاطمة ، هل عندك شيء ؟ قالت : لا ، والذي عظم حقك ، ما كان عندنا منذ ثلاثة أيَّام شيء نقرئك (٦) به ، قال : أ فلا أخبرني ؟ قالت : كان رسول الله ﷺ نُهاني أن أسألك شيئا ، فقال : لا تسألي ابن عمك شيئا ، إن جاءك بشيء عفووا وإلا فلا تسألية .

قال : فخرج عليّ ؑ فلقي رجلا فاستقرض منه دينارا ، ثم أقبل به وقد أمسى ، فلقي المقداد بن الأسود فقال للمقداد : ما أخرجك في هذه السَّاعة ؟ قال : الجوع ، والذي عظم حقك يا أمير المؤمنين ، قال [عليّ ؑ] : فهو أخرجني ، وقد استقرضت دينارا ، وساوثرك به ؛ فدفعه إليه ، فأقبل فوجد رسول

(١) تفسير الرازي ٨ : ٣٠ ، تفسير روح البيان ٢ : ٢٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٢٩ .

(٣) الدليل هو قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

(٤) تفسير أبي السَّعود ٢ : ٣٠ ، تفسير البيضاوي ١ : ١٥٨ .

(٥) أي كنسه .

(٦) من القرى ، وهو ما يقدّم إلى الضيف من طعام وشراب .

الله ﷺ جالسا وفاطمة ؓ تصلي ، وبينهما شيء مغطى ، فلما فرغت اجترت (١) ذلك [الشيء] ، فإذا جفنة من خبز ولحم ، قال : يا فاطمة ، أتى لك هذا ؟ قالت : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : ألا احذثك بمثلك ومثلها ؟ قال : بلى ، قال : مثل زكريّا إذ دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقا ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فأكلوا منها شهرا ، وهي الجفنة التي يأكل منها القائم ، وهي عندنا « (٢) » .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨)

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣٩)

ثم لما رأى زكريّا كرامة مريم عند الله ، ومنزلتها لديه ، تمى أن يكون له من أيشاع زوجته ولد مثل ولد حنة في الجلالة والكرامة ، وهو عند مريم ﴿ هُنَالِكَ ﴾ وفي مكانه ذلك ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ وكان دعاؤه أن ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ وأعطني ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ ومن محض قدرتك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ وولدا صالحا مباركا تقيا مرضيا ، تستطاب أخلاقه وأفعاله ، كما وهبت لحنة ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ومجيبه ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ﴾ لربّه ﴿ فِي الْمِحْرَابِ ﴾ الذي كان مكان مريم في المسجد : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ يا زكريّا بولد ذكر يكون مسمى ﴿ بِيَحْيَى ﴾

قيل : إنه سمي به ؛ لأنه يحيا به رحم امه ، حيث كانت عجوزا عاقرا ، أو تحيا [به] القلوب ويحيا به أهل الجنة والنار في الآخرة ؛ لأنه هو الذي يذبح الموت حين يجاء به بصورة الكباش الأملح في المحشر .

في أن يحيى أول من صدق بنبوة عيسى ؑ

ومن كمالات ذلك الولد أنه يكون ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ برسالة عيسى الملقب ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾

روي أنه كان أول تصديق يحيى بعيسى أنه كان لا يصعد إلى مريم في صومعتها غير زكريّا ، وهو يصعد إليها بسلم ، فإذا نزل أقفل عليها ، ثم فتح لها من فوق الباب كوة صغيرة يدخل عليها منها الريح ، فلما وجد مريم وقد حبلى ، ساءه ذلك وقال في نفسه : ما كان يصعد إلى هذه أحد غيري

(١) في تفسير الصافي : اجترته ، أي جذبته نحوها .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٠٣ / ٦٨١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٠٨ .

وقد حبلت ! والآن افتضح في بني إسرائيل لا يشكّون أنّي أحبلتها ، فجاء إلى امرأته وقال لها ذلك ، فقالت : يا زكريّا ، لا تخف ، فإنّ الله لا يصنع بك إلّا خيرا ، فأتني مريم حتّى انظر إليها وأسألها عن حالها.

فجاء بها زكريّا إلى امرأته ، فكفى الله مريم مؤنة الجواب عن السؤال. ولما دخلت إلى احتها ، وهي الكبرى ومريم الصّغرى ، لم تقم إليها امرأة زكريّا فأذن الله تعالى ليحيى ، وهو في بطن أمّه ، فنخس^(١) بيده في بطنها وأزعجها ، وناداه : يا أمّت ، تدخل إليك سيّدة نساء العالمين ، مشتملة على سيّد رجال العالمين فلا تقومي [إليها] ! فانزعجت وقامت إليها ، وسجد يحيى وهو في بطن أمّه لعيسى بن مريم ، فذلك كان أوّل تصديقه له ، فذلك قال رسول الله ﷺ في الحسن والحسين : « إنّهما سيّدا شباب أهل الجنّة ، إلّا ما كان من ابني الخالة عيسى ويحيى »^(٢) .

﴿وَسَيِّدًا﴾ فائقا على قومه ، وعلى سائر الناس في أنّه لم يهّم بمعصية.
روي عن النبيّ ﷺ : « ما من نبيّ إلّا وقد عصى أو همّ بمعصية ، غير يحيى فإنه لم يعص ، ولم يهّم »^(٣) .

والمراد بالمعصية ، على تقدير صحّة الرواية ، هو ترك الأولى.
وعن تفسير الإمام [العسكري عليه السلام] : في تفسير (السيّد) قال : « رئيسا في طاعة الله على أهل طاعته »^(٤) .

وعن ابن عبّاس : السيّد : الحليم. وقيل : الفقيه : العالم ، وقيل : المتقدّم المرجوع إليه^(٥) .
﴿وَحَصُورًا﴾ مبالغا في حبس نفسه عن مشتبهاتها مع القدرة عليها.
روي أنّه مرّ في صباه بصبيان فدعوه إلى اللّعب ، فقال : ما للّعب خلقت^(٦) .
وعن الصادق عليه السلام في تفسير (الحصور) : « هو الذي لا يأتي النّساء »^(٧) .
﴿وَنَبِيًّا﴾ صالحا معدودا ﴿مِّنَ﴾ الأنبياء ﴿الصّٰلِحِينَ﴾ أو ناشئا منهم ؛ لأنّه كان من أصلاب الأنبياء والصّالحاء.

(١) نخس الدابة : طعن مؤخرها بعود أو نحوه.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٦٠ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٣٧ .

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٦٠ / ٣٧٤ .

(٥) تفسير الرازي ٨ : ٣٦ .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٣٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٠ .

(٧) مجمع البيان ٢ : ٧٤٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٠ .

قيل : إنّ توصيفه بكونه من الصّالحين ، مع أنّ جميع الأنبياء صلحاء ، مشعر بأنّ صلاحه كان أتمّ من صلاح سائر الأنبياء ، فيكون المعنى : أنّه من الصّالحين من بين سائر الأنبياء. وفي الصّلاح ينتظم الخير كلّهُ.

وعن تفسير الإمام عليه السلام : « ما ألحق الله صبيانا برجال كاملِي العقول إلّا هؤلاء الأربعة : عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريّا ، والحسن ، والحسين عليه السلام » (١) .

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾

ثمّ لما كان قول جبرئيل عن الله ، وحكاية لقوله ، خاطب زكريّا ربّه و﴿قَالَ﴾ استبعادا عاديا ، أو تعجّبا ، أو استفهاما وسرورا بالولد : ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ﴾ وكيف يحصل ﴿لِي﴾ بحسب العادة ﴿غُلَامٌ﴾ وولد ذكر ﴿و﴾ الحال أنّه ﴿قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ في السنّ ، وأدركني الهرم ؟ قيل : كان له ستّون سنة. وقيل : خمس وستّون. وقيل : سبعون. وقيل : خمس وسبعون. وقيل : خمس وثمانون. وقيل : اثنتان وتسعون. وقيل : تسع وتسعون. وقيل : مائة وعشرون. وفيه إشعار بأنّ كبر السنّ ، من حيث إنّهُ طلائع الموت ، طالب للإنسان. ثمّ بعد ذكر قصور نفسه ، ذكر قصور زوجته بقوله : ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لم تلد أبدا ، والكبر والعقم منافيان للولادة غاية المنافاة.

قيل : كان لزوجته مع عقمها ، ثمان وتسعون سنة (٢) .

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ، أو الملك : ﴿كَذَلِكَ﴾ الفعل العجيب من خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أن يفعله من تعاجيب الأفعال الخارقة للعادة. ثمّ نقل أنّه جاء الشيطان زكريّا عند سماعة البشارة ، فقال : إنّ هذا الصّوت من الشيطان ، وقد سخر منك ، فلذا اشتبه الأمر على زكريّا (٣) و﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة دالة على أنّ تلك البشارة من

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٦٥٩ / ٣٧٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٠ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٣٩ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٣٩ .

الوحي وكلام الملائكة ، لا من إلقاء الشيطان.

وقيل : إنّ المراد : اجعل لي علامة تدلّ على تحقّق مسؤولي ، ووقوع الحبل والعلوق ؛ لأنّه أمر خفيّ ، حتّى أتلقّى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حصولها ^(١) .

وقيل : إنّ سؤال الآية كان بعد البشارة بثلاثة أشهر . وقيل : بثلاث سنين . وهذا الاختلاف مبنيّ على الاختلاف في التفاوت بين سنّ يحيى وعيسى أنّه ستّة أشهر أو ثلاث سنين .

ثمّ عقيب سؤال الآية بلا فصل ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ، أو الملك : ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ ولا تقدر على التّطرق بغير الذّكر والتّسبيح والشّكر ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ متواليات بلياليها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ وإشارة بيد ، أو رأس ، أو غيرهما .

قيل : إنّما جعل عجزه عن الكلام الدّنيوي آية ليخلص أوقاته بالذّكر والشّكر قضاء لحقّ هذه النعمة العظيمة ^(٢) .

عن العياشي : عن الصادق عليه السلام : « أَنْ زَكَّرْتَا لِمَا دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ وَلَدًا ^(٣) وَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِمَا نَادَتْهُ بِهِ ، أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنَ اللَّهِ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ آيَةَ ذَلِكَ أَنَّ يَمْسُكَ لِسَانَهُ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا أَمْسَكَ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ » ^(٤) .
عن العياشي : عن أحدهما عليه السلام : « أَنَّهُ كَانَ يُؤْمِي بِرَأْسِهِ » ^(٥) .

وقيل : إنّ المراد من التّكلم : كلّ ما أدّى المراد ولو كان غير اللفظ ، وعلى هذا يكون الاستثناء متّصلا .

وقيل : إنّّه عليه السلام عوقب بذلك من حيث سؤال الآية بعد بشارة الملائكة ، فأخذ الله لسانه ، وصيّره بحيث لا يقدر على الكلام ^(٦) .

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ في حبس لسانك ذكرا ﴿كَثِيرًا﴾ أداء لشكر النعمة ﴿وَسَبِّحْ﴾ ربّك ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وهو من الزّوال إلى الغروب ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ وهو من طلوع الفجر إلى الضّحى . وقيل : إنّ المراد بالتّسبيح هو الصّلاة ^(٧) .

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣١ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣١ .

(٣) في المصدر : ذكرا .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٠٥ / ٦٨٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣١١ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٠٥ / ٦٨٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣١١ .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ٤١ .

(٧) تفسير الرازي ٨ : ٤٢ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٣٤ .

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءٍ

الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾

ثم عاد سبحانه إلى قصة اصطفاء مريم ، عطفًا على قوله : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾^(١) بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ وفي العدول عن (نادت) إلى (قالت) إشعار بأن مريم رأت جبرئيل ، فخطبها وشافها بقوله : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أولاً بأن تقبلك من أمك لخدمة المسجد بقبول حسن ، وأنبتك نباتاً حسناً ، ورباك في حجر زكريا ، ورزقك من فواكه الجنة ، وأكرمك بكرامات سنّية.

عن الباقر عليه السلام : « معنى الآية : اصطفاك من ذرّية الأنبياء »^(٢) .

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من رجس الكفر ، وذنس المعاصي ، وذرّات الأخلاق الرّوحانيّة ، وذمائم الصّفات النّفسانيّة ، والشّهوات الحيوانيّة ، ومسيس الرّجال ، والأنجاس الجسمانيّة من الحيض والنّفاس وغيرهما من الأذى.

وعن الباقر عليه السلام : « طهّرك من السّفاح »^(٣) .

﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ آخرًا وفضّلَكِ ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب - كما عن الباقر عليه السلام ما يقرب منه^(٤) - وشرفك بصحبته وخدمته إيّاك ، وجعلك وابنة آية للعالمين.

في نقل كلام الفخر الرازي ورده

قال الفخر الرّازي : روي أنّه عليه السلام قال : « حسبك من نساء العالمين أربع : مريم ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة ، وفاطمة عليهنّ السّلام » .

ثم قال : فقيل : هذا الحديث دلّ على أنّ هؤلاء الأربع أفضل من سائر النساء ، وهذه الآية دلّت على أنّ مريم عليها السلام أفضل من الكلّ ، وقول من قال : المراد أنّها مصطفاة على عالمي زمانها ، فهذا ترك للظاهر^(٥) .

أقول : بل هو عمل بنصّ النبي عليه السلام ، في الرواية التي تكون من المسلّمات بين الفريقين ، من قوله : « الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيّدة [نساء] بني إسرائيل »^(٦) فإنّه صريح في أنّ سيادتها مختصّة بنساء بني إسرائيل. وقد دلّت الروايات الكثيرة من طرق أصحابنا على أنّ فاطمة عليها السلام أفضل من الكلّ.

(١) آل عمران : ٣ / ٣٥ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٧٤٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣١١ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٧٤٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣١١ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) تفسير الرازي ٨ : ٤٣ .

(٦) البداية والنهاية ٦ : ١١٥ ، الدر المنثور ٢ : ١٨٦ .

في أنّ فاطمة كانت أفضل من مريم

في (العلل) عن الصادق عليه السلام : « سميت فاطمة محدّثة ؛ لأنّ الملائكة كانت تهبط من السماء تناديها كما تنادي مريم بنت عمران ، فتقول : يا فاطمة ، إنّ الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا فاطمة اقنني لربك وأسجدي واركعي مع الرّاكعين ، فتحدّثهم ويحدّثونها ، فقالت لهم ذات ليلة : أليست المفضّلة على نساء العالمين مريم بنت عمران ؟ فقالوا : إنّ مريم كانت سيّدة نساء عالمها ، وإنّ الله عزّ وجلّ جعلك سيّدة نساء عالمك وعالمها ، وسيّدة نساء الأولين والآخرين » (١) .

مضافا إلى أنّ فضائلها الخاصّة بها - من كون والدها رسول الله ﷺ وخاتم النبيّين ، وأنّها روحه التي بين جنبيه ، وأحبّ الخلق إليه ، وأنّ والدتها خديجة سيّدة نساء العالمين ، وتربيتها في حجرهما ، وأن زوجها علي بن أبي طالب ، وهو بنصّ الكتاب نفس الرّسول ، وبنصّ النبيّ ﷺ سيّد العرب ، وولدها الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام سيّدا شباب أهل الجنّة ، ومعارفها وعلمها معارف أبيها مقتبسة ومأخوذة منه ، وشريعتها أكمل الشّرايع ، وذريّتها أفضل الذّراري ، وكونها أعبد أهل زمانها ، وكانت مشيتها مشية أبيها ، وكونها مطهّرة بنصّ آية التّطهير - تدلّ على أنّها أفضل ، حيث إنّ لا تقاس هذه الفضائل بفضائل مريم التي هي بنت عمران وحنة ، والمربّاة في حجر زكريّا ، الوالدة لعيسى المنقطع نسلها به ، العاملة بشريعة ولدها وشريعة من قبلها . مع أنّ فضيلة هذه الامة على سائر الامم مقتضية لأن يكون نبيّها أفضل من سائر الأنبياء ، ووصيّ نبيّها أفضل من سائر الأوصياء ، وشرعها أكمل من سائر الشّرائع ، ومعارفها أتمّ من معارف سائر الامم ، وسيّدة نسائها أفضل من سيدات نساء سائر الامم .

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٤٣)

ثمّ ناداه جبرئيل بعد تذكيرها بالنّعم ، ترغيبا لها في الطّاعة : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي ﴾ وقومي إلى العبادة ، أو أطيلي القيام فيها شكرا ﴿ لِرَبِّكِ ﴾ الذي أنعم عليك بالنّعم العظام ﴿ وَاسْجُدِي ﴾ وعفري خدك خضوعا له . وإنّما قدّم الأمر بالسّجود على الأمر بالركوع بقوله : ﴿ وَارْكَعِي ﴾ لكون السّجود غاية الخضوع ، حال كونك ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ وفي جماعتهم ، وقيل : إنّ المعنى : اركعي كركوعهم (٢) وفيه .

(١) علل الشرائع : ١٤٦ / ١ ب ١٤٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣١١ .

(٢) (٢ و ٢) . تفسير الرازي ٨ : ٤٤ .

إشعار بكمالها ، حيث عدّها في عداد الرّجال ، حيث قال : ﴿مَعَ الرَّائِعِينَ﴾ ولم يقل : (مع الزّائعات) .

وقيل : إنّ المراد بالقنوت : إدامة العبادة ، وبالسّجود : خصوص الصّلاة ، والتّكّي عنها به ، لكونه أفضل أركانها ، وبالسّجود : الخشوع والإخبات (١) .

روي أنّها لما امرت بذلك قامت في الصّلاة حتّى تورّمت قدمها (٢) ، وكذلك روي في حقّ فاطمة عليها السلام (٣) كما روي في حقّها كلّ فضيلة كانت لمريم من نزول مائدة الجنّة لها (٤) ، ومحادثة الملائكة (٥) ، والاجتهاد في العبادة ، والزّهد في الدّنيا ، وغير ذلك.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ

يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قصّة حنّة وزكريّا ، ومريم وعيسى ، يكون ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ لا طريق لأحد إلى العلم به إلّا الوحي ، ونحن ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونزله بوساطة جبرئيل ببيان فيه الإعجاز. ثمّ أنّه تعالى - بعد وضوح انحصار طريق العلم بالقضايا الماضية في قراءة الكتب والسّماع من العالم ، أو المشاهدة ، أو الوحي ، وبداهة كونه عليه السلام أمّيا لم يقرأ كتابا ، ولم يصحب عالما - قرّر كون علمه عليه السلام بهذه القضايا بالوحي بنفي مشاهدته بقوله : ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ حاضرا ﴿لَدَيْهِمْ﴾ حتّى تطلّع على قضاياهم بالمشاهدة ، وما كنت شاهدا ﴿إِذْ يُلقُونَ﴾ وحين يبنذون في الماء ﴿أَقْلَامَهُمْ﴾ التي كانوا يكتبون بها التّوراة ، ليقروا بها ، وليعلموا ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ويتشرّف بحضانتها وخدمتها ، قيل : اختاروا تلك الأقلام للقرعة تبرّكا بها ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ حاضرا ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وحين يتنازعون في شأنها تنافسا في كفالتها ، والتّعهّد للقيام بتدبير امورها ، وحفظ مصالحها.

ويحتمل أن يكون هذا الكلام مسوقا لبيان إظهار نهاية غرابته ، ونهاية اعجوبته.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٣٥ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٣ .

(٢) المناقب / لابن شهر آشوب ٣ : ٣٤١ ، مقتل الحسين / للخوارزمي ١ : ٨٠ ، ربيع الأبرار / للزّمخشري ٢ : ١٠٤ .

(٣) الدر المنثور ٢ : ١٨٦ ، البداية والنهاية ٦ : ١١٥ ، أمالي الطوسي : ٦١٤ - ٦١٥ / ١٢٧١ و ١٢٧٢ .

(٤) علل الشرائع ١ : ١٨٢ / ٢١ ، دلائل الإمامة : ٨٠ / ٢٠ .

مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ اصْطِفَاءِ مَرْيَمَ بِالْكَمَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْكَرَامَاتِ الْفَائِقَةِ ، شَرَعَ فِي بَيَانِ قِصَّةِ وَلَادَةِ عِيسَى بِقَوْلِهِ : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ وَقَدْ مَرَّ أَنَّ الْمُرَادَ خُصُوصَ جَبْرِئِيلَ - عَلَى مَا قِيلَ - : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ وَيَسِّرَ قَلْبَكَ بِالْإِخْبَارِ ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ تَامَةٍ كَائِنَةٍ ﴿مِنْهُ﴾ وَيَفْرَحُكَ بِوَلَدِ يَهْبَهُ لَكَ ، بِإِرَادَتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ الَّتِي يَعْبَرُ عَنْهَا بِكَلِمَةٍ (كُن) مِنْ غَيْرِ مَبَادِيٍّ عَادِيَّةٍ ﴿اسْمُهُ﴾ عِنْدَ اللَّهِ ﴿الْمَسِيحُ﴾ قِيلَ : هُوَ مَعْرَبٌ مَشِيخًا بِالْعِبْرِيَّةِ ، وَمَعْنَاهُ : الْمُبَارَكُ ^(١) .

وَالْمُرَادُ مِنْ لَفْظِ الْأَسْمِ هُنَا ، مَا يَحْكِي عَنْ ذَاتِ مَعْنَى ، وَلَوْ كَانَ لِقَبًا وَأَمَّا عِلْمُهُ فَهُوَ ﴿عِيسَى﴾ قِيلَ : هُوَ مَعْرَبٌ إِيشُوعَ ^(٢) ، وَكُنْيَتُهُ ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وَهُوَ يَكُونُ ﴿وَجِيهًا﴾ وَشَرِيفًا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بِمَنْصَبِ النَّبَوَّةِ ، وَمُطَاعِيَةِ النَّاسِ ، ﴿وَو﴾ فِي ﴿الْآخِرَةِ﴾ بِالشَّفَاعَةِ ، وَعِلْوِ الدَّرَجَةِ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَعْدُودًا ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عِنْدَ اللَّهِ ، قِيلَ : فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ ^(٣) .

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾

ثُمَّ بَشَّرَهَا بِكَمَالِ عِلْمِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بِكَلِمَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْجَامِعَةِ لِلْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ ، حَالُ كَوْنِهِ طِفْلًا كَائِنًا ﴿فِي الْمَهْدِ وَ﴾ كَوْنُهُ ﴿كَهْلًا﴾ بِالْغَا إِلَى كَمَالِ الْبَشَرِيَّةِ ، مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَ الْحَالَيْنِ ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَعْجَزَاتِهِ .

بَلْ نَقَلَ أَنَّهُ قَالَتْ مَرْيَمُ : إِذَا خَلُوتُ أَنَا وَعِيسَى ، حَدَّثَنِي وَحَدَّثْتَهُ ، فَإِذَا شَغَلَنِي عَنْهُ إِنْسَانٌ كَانَ يَسْتَبِحُّ فِي بَطْنِي وَأَنَا أَسْمَعُ ^(٤) .

وَفِي ذِكْرِ أَحْوَالِهِ الْمُخْتَلِفَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ مَعْزُولٌ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ .

فِي نَقْلِ انْكَارِ النَّصَارَى تَكَلُّمَ عِيسَى فِي الْمَهْدِ وَرَدَّهُ

قِيلَ : إِنَّ النَّصَارَى أَنْكَرَتْ تَكَلُّمَهُ فِي الْمَهْدِ ^(٥) ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَعْجِزَةُ لَتَوَاتَرَتْ بَيْنَهُمْ ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِمَعْرِفَتِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَا يُمْكِنُ مِنْهُمْ إِخْفَاؤُهَا مَعَ إِفْرَاطِهِمْ فِي مَحَبَّتِهِ ، حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى الْوَهْيَةِ .

(١ و ٢) . تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢ : ٣٥ .

(٣) تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٢ : ٣٧ .

(٤) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢ : ٣٥ .

(٥ و ٦) . تَفْسِيرُ الرَّازِي ٨ : ٥٢ .

وفيه : أنَّ القدر الثَّابت من تكلمه في المهد ، ما كان منه لبراءة أمه من الفحشاء ^(١) بعد اعتراض اليهود عليها وإشارتها إليه ، من قوله : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ^(٢) إلى آخر الآيات. وعلى هذا يمكن كون الحاضرين عنده قليلا من اليهود المعاندين ، فأخفوا هذه المعجزة عنادا ، أو خوفا من تكذيب سائر اليهود.

ولم يؤمن به أحد إلا بعد بلوغه في العمر ثلاثين سنة أو أكثر ، وهؤلاء المؤمنون لم يطلعوا على كراماته السابقة ، وبقي الأمر مكتوما إلى أن أخبر به محمد ﷺ بالوحي من الله تعالى ، مع أنه نقل عن جعفر بن أبي طالب أنه لما قرأ على النَّجاشي سورة مريم ، قال النَّجاشي : لا تفاوت بين واقعة عيسى وبين المذكور في هذا الكلام بذرة ^(٣) .

وأما تكلمه في الكهولة ، فقد قال جمع : إنَّه يكون بعد نزوله من السماء في آخر الزَّمان ؛ حيث إنَّ سنَّ الكهولة أربعون سنة ، وهو ﷺ [قد رفع قبل بلوغه ذلك السنَّ ^(٤)] .
روي أنه لما بلغ عمره ثلاثين سنة أرسله الله إلى بني إسرائيل ، فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ، وفي قول : ثلاث سنين وستة أشهر ، ثمَّ رفع إلى السماء ^(٥) . ولذا قيل : إنَّ الآية نصٌّ في نزوله من السماء ^(٦) .

وقال جمع : إنَّ الكهل في اللُّغة : ما اجتمع قوَّته وكمل شبابه ^(٧) ، وهذا الحال في الإنسان يبلغ ثلاثين سنة ، ثمَّ يكون على حال الوقف لا يزيد ولا ينقص إلى أربعين ، فمبدأ الكهولة ثلاثون ، ومنتهاها أربعون. وعلى هذا ، كان بعثه في الكهولة ، وهذا القول هو الأظهر والافوق بالآية.
ثمَّ مدحه سبحانه بقوله : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْرَافِيلَ أَنْ يُنْفِثَ فِي سُبْحَانَ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أَلْفَ مِائَةِ مِائَةٍ كُلِّ يَوْمٍ﴾ قيل : في ذكر هذه الصِّفة بعد الحالات الثلاث دلالة على أنَّها أعلى المراتب وأعظمها ؛ حيث إنَّ المرء لا يكون صالحا على الإطلاق ، إلاَّ بكونه في جميع أفعاله وتروكه مواظبا على التَّهجد الأصلح الأكمل ^(٨) . ومن الواضح أنَّ ذلك يتناول جميع المقامات العالية الدِّنيَّة والدُّنيويَّة ، وكمال أفعال القلوب والجوارح.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧)

(٢) مريم : ١٩ / ٣٠ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٥٢ .

(٤ و ٥) . تفسير روح البيان ٢ : ٣٥ .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ٥٢ .

(٧) تفسير الرازي ٨ : ٥١ .

(٨) تفسير روح البيان ٢ : ٣٥ .

ثمَّ كأنَّه قيل : فما قالت مريم بعد تلك البشارة ؟ فقال سبحانه : ﴿قَالَتْ﴾ مريم - استبعادا لوقوع هذا الأمر الخارق للعادة ، واستعظاما لقدرة الله ، أو استفسارا من أته [قد] يكون الولد بسبب التزوُّج ، أو غيره - : ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ﴾ ومن أين يوجد ﴿لِي وَلَدٌ﴾ إذ هو متوقَّف على مباشرة الفحل ﴿وَو﴾ أنا إلى الآن ﴿لَمْ يَمَسِّنِي﴾ ولم يقربني ﴿بَشَرٌ﴾ وهذه حالة منافية للولادة على حسب العادة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو جبرئيل ؑ : ﴿كَذَلِكَ﴾ الخلق العجيب الخارق للعادة ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أن يخلقه.

ولما كان لفظ الخلق مشعرا بالاختراع - ولذا كان ذكره أنسب بولادة العذراء من غير أب ، من ولادة عجوز عاقر من شيخ فان هرم - عبَّه ببيان كيفية الاختراع بقوله : و﴿إِذَا قَضَى﴾ الله وحتم ﴿أَمْرًا﴾ من الامور بالإرادة التكوينية ، وتمَّ صلاح وجود شيء من الأشياء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ وهو كناية عن تعلُّق الإرادة التكوينية بوجوده ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجد من غير توقُّف على مادَّة ومُدَّة ، ومن غير حاجة إلى مؤنة وعدَّة.

في كيفية احتبال مريم ومكالمة يوسف معها

عن ابن عباس ؓ : أنَّ مريم كانت في غرفة ، قد ضربت دونها سترا ، إذا هي برجل عليه ثياب بيض ، وهو جبرئيل ؑ تمثَّل لها بشرا سويا ، أي تامَّ الخلق ، فلمَّا رآته قالت : ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^(١) ثمَّ نفخ في جيب درعها ، حتَّى وصلت التَّفخة إلى الرَّحِم فاحتبلت^(٢).

وعن وهب : أنَّه كان معها ذو قرابة يقال له يوسف النّجار ، وكان يوسف هذا يستعظم ذلك ، فإذا أراد أن يتَّهمها ذكر صلاحها ، وإذا أراد أن يبرِّتها رأى ما ظهر عليها ، فكان أوَّل ما كلَّمها أن قال لها : قد دخل في صدري شيء أردت كتمانته ، فغلبي ذلك ، فرأيت الكلام أشفى لصدري. قالت : قل. قال : فحدَّثني هل ينبت الزَّرع من غير بذر ؟ قالت : نعم. قال : فهل ينبت شجر من غير أصل ؟ قالت : نعم. قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم ، ألم تعلم أنَّ الله أنبت الزَّرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر يومئذٍ إمَّا صار من الزَّرع الذي أنبت الله من غير بذر ، ألم تعلم أنَّ الله خلق آدم وحواء من غير انثى ولا ذكر. فلمَّا قالت له ذلك ، وقع في نفسه أنَّ الذي بها شيء أكرمها الله به^(٣).

﴿وَبُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ

(١) مريم : ١٩ / ١٨.

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣٦ ، وفيه : الرَّحِم فاشتملت.

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٦.

فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى يَأْذِنُ اللَّهُ
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

ثمَّ أنّ جبرئيل بعد أن بشرها بولادة عيسى بقوله : ﴿يُشْرِكُ بِكَلِمَةِ مِنْهُ﴾^(١) عطف عليه تبشيرها بكماله العلمي ، ومرتبة رسالته ، بقوله : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ السّماوي الذي نزل على آدم ومن بعده ، وقيل : المراد : الكتابة والخط^(٢) ، ﴿وَوَعَلَّمَهُ الْحِكْمَةَ﴾ والعلوم العقليّة والشّرعيّة ، وتهذيب الأخلاق ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وإفرادهما بالذكر بعد ذكر جنس الكتاب الشّامل لهما ، لزيادة فضلهما ، وإنافتهما على غيرهما.

روي أنّ عيسى عليه السلام حفظ التّوراة وهو في بطن أمّه ، وكانت مريم تسمع عيسى وهو يدرس في بطنها^(٣) .

في بيان زهد عيسى عليه السلام

ثمَّ لما شرف عالم الشّهود أعطاه [الله] الزّهادة في الدّنيا ؛ فإنّه كان يلبس الشّعر ، [و] يتوسّد الحجر ، ويستنير القمر ، وقد كان له قدح يشرب فيه الماء ، [ويتوضّأ] فيه فرأى رجلا يشرب بيده. فقال لنفسه : يا عيسى ، هذا أزهد منك ، فرمى القدح وكسره. واستظلّ يوما في ظلّ خيمة عجوز ؛ وكان قد لحقه حرّ شديد ، فخرجت العجوز فطرده ، فقام وهو يضحك فقال : يا أمة الله ، ما أنت أقمتني ، وإنّما أقامني الذي لم يجعل لي نعيما في الدّنيا ولما رفع إلى السّماء ، وجد عنده إبرة كان يرقع [بها] ثوبه ، فافتضت الحكمة الإلهيّة نزوله في السّماء الرابعة^(٤) .

﴿وَوَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ﴾ في حال الصّبا ، أو بعد البلوغ ، أو بعد ثلاثين سنة ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حال كونه قائلا : ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿بِآيَةٍ عَظِيمَةٍ﴾ ومعجزة باهرة ، دالة على صدق نبوّتي ، كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ومكمّل نفوسكم ، ومصلح امور دنياكم وآخرتكم. قيل : إنّ أوّل أنبياء بني إسرائيل يوسف ، وآخرهم عيسى^(٥) .

روي في (الإكمال) : عن الباقر عليه السلام : « أنّه ارسل إلى بني إسرائيل خاصّة ، وكانت نبوّته

بيت

(١) آل عمران : ٣ / ٤٥ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٥٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٦ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٣٦ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٣٨ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٧ .

المقدس » (١) .

ثم بين الآية وفصلها بقوله : ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ واصور واسوي ﴿لَكُمْ﴾ شيئا ﴿مِّنَ الطِّينِ﴾ بمهيئة وصورة ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ ومثل صورته ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ فتلج فيه الروح ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ حيا طيارا كسائر الطيور ﴿يَاذَنُ اللَّهُ﴾ وأمره وقدرته ، لا بقدرته متي .

روي أنه ﷺ لما ادعى النبوة ، وأظهر المعجزات ، طالبوه بخلق الخفّاش ، فأخذ طينا وصورة ونفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ، ليشتم من خلق الله تعالى (٢) .

قيل : إنما طلبوا خلق الخفّاش ؛ لأنه أكمل الطير خلقا ، وأبلغ دلالة على القدرة ؛ لأن له ثديا وأسنانا ، وهي تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوانات ، وتضحك كما يضحك الإنسان ، وتطير بغير ريش ، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل ، وإنما يرى في ساعتين ساعة بعد الغروب ، وساعة بعد طلوع الفجر (٣) .

قيل : لم يخلق عيسى غير الخفّاش . وقيل : خلق أنواعا من الطير (٤) .
﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ﴾ ومن ولد أعمى ، أو أعوج العين ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وهو المبتلى بمرض البرص ، وهو لون مختلط حمرة وبيضا أو غيرهما ، ولا يحصل إلا من فساد المزاج وخلل في الطبيعة ، ولم تنفر العرب من شيء نفرتها منه وتخصيص هذين الداءين ؛ لأنهما مما أعجب الأطباء ، مع كونهم في غاية الحذقة [في] زمنه ﷺ .

قيل : كان يجتمع عليه ﷺ الوف من المرضى ، من أطاق منهم أتاه ، ومن لم يطق أتاه عيسى ﷺ ، وما يداويهم إلا بدعاء (٥) .

﴿وَأُخِي الْمَوْتَى يَاذَنُ اللَّهُ﴾ وتكرير ﴿يَاذَنُ اللَّهُ﴾ للاهتمام بدفع توهم الالوهية .

في أن عيسى أحيا أربعة من الأموات

قيل : سألوا جالينوس عنه ﷺ ، فقال : الميت لا يحيا بالعلاج ، فإن كان هو يحيي الموتى ، فهو نبي وليس بطبيب . فطلبوا أن يحيي الموتى ، فأحيا أربعة أنفس : [أحيا]

(١) كمال الدين : ٢٢٠ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٢ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٥٦ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٧ ، وفي تفسير روح البيان : ليشتم من خلق الله من فعل الله .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧ .

(٤) تفسير الرازي ٨ : ٥٦ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨ .

العازر ، وكان صديقا له ، فأرسل اخته إلى عيسى عليه السلام أن اخاك العازر يموت فأتته ، فكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام ، فأتاه هو وأصحابه ، فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام ، فقال لاخته : انطلقيني بنا إلى قبره [فانطلقت معهم إلى قبره] وهو [في] صخرة مطبقة ، فقال عيسى عليه السلام : اللهم رب السماوات [السبع] والأرضين السبع ، إنك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك ، واخبرهم أنني أحيي الموتى ، فأحيي العازر ، فقام العازر وودكه ^(١) يقطر ، فخرج من قبره ، وبقي وولد له . وأحيا ابن عجوز مرّ به ميتا على عيسى عليه السلام ، على سرير يحمل ، فدعا الله عيسى عليه السلام ، فجلس على سرير ، ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه ، وحمل السرير على عنقه ، ورجع إلى أهله ، فبقي وولد له .

وأحيا ابنة العاشر الذي يأخذ العشور ، قيل له : أحيها ، وقد ماتت أمس ، فدعا الله تعالى ، فعاثت ، وبقيت وولد لها .

فقالوا : يحيي من كان قريب العهد من الموت ، فلعلهم لم يموتوا ، بل أصابتهم سكتة ، فأحيي لنا سام بن نوح ، فقال عيسى : دلّوني على قبره ، فخرج والقوم معه حتى انتهى إلى قبره ، فدعا الله تعالى بالاسم الأعظم ، فخرج من قبره وقد شاب رأسه ، فقال عيسى : كيف شاب رأسك ، ولم يكن في زمانك شيب ؟ قال : يا روح الله ، لما دعوتني سمعت صوتا يقول : أجب روح الله ، فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك قد شاب رأسي . فسأله عن النزع ، فقال : يا روح الله ، إن مرارته لم تذهب من حنجرتي وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة ، فقال للقوم : صدّقوه فإنه نبيّ ، فأمن به بعضهم وكذبه آخرون ، ثم قال له : مت ، قال : بشرط أن يعيدني الله سكرات الموت ، فدعا الله ففعل ^(٢) .

وعن (الكافي) والعيّاشي : عن الصادق عليه السلام أنه سئل هل كان عيسى بن مريم [قد] أحيا أحدا بعد موته ، حتى كان له أكل ورزق ومدة وولد ؟ فقال : « نعم ، إنه كان له صديق مؤاخ له في الله تعالى ، وكان يمرّ به وينزل عليه ، ثم إن عيسى غاب عنه حيناً ، ثم مرّ به ليسلم عليه ، فخرجت إليه أمه فسألها عنه ، فقالت : مات يا رسول الله ، فقال : أفتحبّين أن تريه ؟ قالت : نعم ، فقال لها : فإذا كان غدا فأتيك حتى أحييه لك بإذن الله تعالى ، فلما كان من الغد أتاه ، فقال لها : انطلقيني معي إلى قبره ، فانطلقا حتى إذا أتيا قبره ، فوقف [عليه] عيسى عليه السلام ثم دعا الله ، فانفرج القبر وخرج ابنها حيّا ، فلما رآته أمه وراها بكيا فرحمهما عيسى عليه السلام فقال : أتحبّ أن تبقى مع أمك في الدنيا ؟ فقال : يا نبيّ الله ، بأكل ورزق ومدة ، أم

(١) ودك الميت : ما يسيل منه .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨ .

بغير أكل ولا رزق ولا مدّة ؟ فقال له عيسى : بأكل ورزق ومدّة ، وتعمّر عشرين سنة ، وتزوّج ويولد لك. قال : نعم [إذا] قال : فدفعه عيسى إلى أمّه ، فعاش عشرين سنة ، [وتزوّج] وولد له «^(١).

نقل أنّه كان يحيي الموتى ب (يا حيّ ويا قيّوم) ^(٢) .

في إحياء خاتم النبيين جمعا من الأموات

ثمّ أعلم أنّه كان لنبيّنا ﷺ هذه المعجزة ، روي في (الاحتجاج) : عن الحسين بن علي عليه السلام ^(٣) ، وفي (التوحيد) : عن الرضا عليه السلام ، في حديث : « لقد اجتمعت قريش إلى رسول الله ﷺ ، فسألوه أن يحيي لهم موتاهم ، فوجّه معهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال له : أذهب إلى الجبّانة ^(٤) ، فناد بأسماء هؤلاء الرّهط الذين يسألون عنهم بأعلى صوتك : يا فلان ، [ويا فلان و] يا فلان ، يقول لكم محمّد [رسول الله] ﷺ : قوموا بإذن الله ، فقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم ، وأقبلت قريش تسألهم عن أمورهم ، ثمّ أخبروهم أنّ محمّدا ﷺ قد بعث نبيا ، وقالوا : وددنا أنّا كنّا أدركناه ، فنؤمن به » الخبر .

ومن المعلوم أنّ هذا الإحياء أعجب من إحياء عيسى عليه السلام بمراتب.

وروي عنهم عليه السلام أنّه أبرأ الأكمه والأبرص والمجانين ، وكلّمه البهائم والطير [والجنّ] والشیاطين ^(٥) .

ثمّ أخبر الله بأعظم معجزاته الباهرة ، وهو إخباره بالمعيبات ، بقوله : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ ﴾ وأخبركم ﴿ بِمَا تَأْكُلُونَ ﴾ من أنواع المأكولات ﴿ وَمَا تَدْخِرُونَ ﴾ من شيء ، وتخفونه من متاع ﴿ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور من الخوارق للعادات ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة ودليلا واضحا ﴿ لَكُمْ ﴾ على صدق دعواي ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بآية من الآيات .

عن القمّي : عن الباقر عليه السلام : « أنّ عيسى عليه السلام كان يقول لبني إسرائيل : إنّ رسول الله إليكم ، وإنّي ﴿ أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ﴾ والأكمه : هو الأعمى ، قالوا : ما نرى الذي تصنع إلّا سحرا ، فأرنا آية نعلم أنّك صادق ، قال : رأيتمكم إن أخبرتكم ﴿ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ يقول : ما أكلتم في بيوتكم قبل أن تخرجوا ، وما

(١) الكافي ٨ : ٣٣٧ / ٥٣٢ ، تفسير العياشي ١ : ٣٠٨ / ٦٩٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١ : ٤٠٠ .

(٣) كذا في تفسير الصافي ١ : ٣١٤ أيضا ، والحديث الآتي مروى في الاحتجاج عن الامام الرضا عليه السلام .

(٤) الجبّانة : المقبرة .

(٥) التوحيد ١ / ٤٢٣ ، الاحتجاج ٤١٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٤ .

ادّخرتم بالليل ، تعلمون أيّ صادق ؟ قالوا : نعم ، وكان يقول : أنت أكلت كذا وكذا ، وشربت كذا وكذا ، ورفعت كذا وكذا ، فمنهم من يقبل منه فيؤمن ، ومنهم من [ينكر] فيكفر « (١) .

قيل : ويخبر الصبيان وهو في المكتب ، بما يصنع أهلهم ، وما يأكلون ويحبّون لهم ، وكان الصبي ينطلق إلى أهله ويبكي عليهم حتّى يعطوه ما خبأوا له ، ثمّ قالوا لصبيانهم : لا تلعبوا مع هذا السّاحر. الخبر (٢) .

وهم ودفع

ثمّ اعلم أنّ صدور هذه المعجزة من نبينا ﷺ أكثر من أن يحصى.

فإن قيل : إنّ طرق الإخبار بالغيب لا تنحصر بالوحي والإعجاز ، بل يمكن بطريق علم النجوم والجفر.

قلنا : هذه الطرق محتاجة إلى التّعلّم والاستعانة بالآيات ، وتقدّم السؤال ، والتّفكّر في الحساب ، وكلّ ذلك كان متنفيا في إخبار الأنبياء ، فلا بدّ أن يكون بالوحي والإلهام.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ
وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾

ثمّ أنّه ﷺ بعد ما أخبر بمعجزاته وأتى بها ، بيّن ما ارسل به بقوله : ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ
لَا كُونَ﴾ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما تقدّمني ﴿مِنَ التَّوْرَةِ﴾ وتقرير غالب أحكامها ، وبيان أسرارها ، وحلّ مشكلاتها وغوامضها ، وإزالة شبهات منكرها ، ودفع التحريف منها ﴿وَلِأَجْلِ﴾ وارخص ﴿لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أكله في شريعة موسى من لحوم السمك ، ولحوم الإبل ، والشّحوم.

قيل : كان الأحبار قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ، ونسبوها إلى موسى ﷺ ، فجاء عيسى ﷺ ورفعها وأبطلها ، وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى ﷺ (٣) .

ثمّ أنّ الله قد حرّم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات ، ثمّ جاء عيسى ﷺ ورفع بعض التشديدات عنهم.

(١) تفسير القمي ١ : ١٠٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨ ، تفسير الرازي ٨ : ٥٧ .

(٣) . تفسير الرازي ٨ : ٥٩ .

وقيل : إنّ عيسى عليه السلام رفع كثيرا من أحكام التّوراة ، ولم يكن قادحا في كونه مصدّقا بالتّوراة ^(١) .
عن العياشي : عن الصادق عليه السلام قال : « كان بين داود وعيسى بن مريم أربعمئة سنة ، وكانت شريعة عيسى عليه السلام أنّه بعث بالتّوحيد والإخلاص ، وبما أوصى به نوح وإبراهيم وموسى عليه السلام ، وانزل عليه الإنجيل ، واخذ عليه الميثاق الذي اخذ على التّبيين ، وشرّع له في الكتاب إقام الصّلاة مع الدّين ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وتحريم الحرام وتحليل الحلال ، وانزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثال وحدود ، ليس فيها قصاص ولا أحكام حدود ، ولا فرض مواريث ، وانزل [عليه] تخفيف ما كان [نزل] على موسى في التّوراة ، وهو قول الله عزّ وجلّ في الذي قال عيسى بن مريم لبني إسرائيل : ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وأمر عيسى من معه ممّن يتبعه من المؤمنين أن يؤمنوا بشريعة التّوراة والإنجيل » ^(٢) .

ثمّ أعاد قوله : ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ عظيمة ، شاهدة على رسالتي ، كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ للإنجاء في القلوب ، وازدياد التأثير في الطّباع المألوفة بالعادات.
ثمّ خوفهم بقوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوه في تكذبي ومخالفة أحكامي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في أوامري ونواهي.

ويحتمل أن يراد من الآية التي جاء بها قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وفيه دعوة إلى التّوحيد الخالص ، وإشعار بأنّ أوّل الكمال وأعلى الفضائل هو الحكمة النظريّة التي غايتها معرفة الله بالوحدانيّة ذاتا وصفاتا وأفعالا ، وفي قوله : ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دعوة إلى الكمال الثاني ، وهو الحكمة العمليّة ، وهي القيام بالطّاعة ، ووظائف العبودية.
ثمّ قرّر ذلك بقوله : ﴿هَذَا﴾ الذي هديتكم إليه من التّوحيد والعبادة ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وطريق سويّ يوصلكم إلى محلّ القرب ، وأوج الكرامة ، ومستقرّ الرحمة ، ونعم الجنة.
ووجه كونه آية صدقه أنّ ما دعا إليه ممّا يشهد به العقل المتين والحقّ الذي اتّفق عليه جميع الأنبياء والمرسلين.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٠٩ / ٦٩١ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٤ .

أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكْرُوهًا وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)

ثمَّ أتته - بعد البشارة بولادته ، وعلوِّ مقامه ، وبهور معجزاته ، وحسن دعوته - بين أنَّ النَّاسَ مع جميع ذلك ، عارضوه بالكفر والجحود ، بقوله : ﴿ فَلَمَّا أَحْسَنَ ﴾ وشاهد ﴿ عِيسَى مِنْهُمْ الْكَفَرِ ﴾ بأن سمع منهم صريح الإنكار ، أو تيقن به بحيث صار كالحسوس له ، وعرف عزمهم على قتله .
في بدو ظهور أمر عيسى ﷺ

قيل : إنَّ اليهود كانوا عارفين بأنَّه هو المسيح المبشَّر به في التَّوراة ، وأنَّه ينسخ دينهم ، فأخذوا في الطَّعن عليه ، وصمَّموا على قتله ، فلمَّا أظهر الدَّعوة اشتدَّ غضبهم ، وأصرَّوا في إيذائه وإيحاشه ، وطلب قتله ^(١) .

وقيل : إنَّه تعالى لما بعثه رسولا إلى بني إسرائيل ، جاءهم ودعاهم إلى دين الله ، فتمردوا وعصوا ، فخافهم واختفى عنهم ، وكان أمر عيسى ﷺ في قومه كأمر محمد ﷺ وهو بمكة ، فكان مستضعفا ، وكان يختفي من بني إسرائيل ، كما اختفى النبي ﷺ في الغار وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله .

ثمَّ أنَّه ﷺ خرج مع امِّه يسيحان في الأرض ، فاتَّفقا أنَّه نزل [في] قرية على رجل فأحسن الرجل ضيافته ، وكان في المدينة ملك جبَّار ، فجاء ذلك الرَّجل يوما حزينا ، فسأله عيسى ﷺ عن السَّبب ، فقال : ملك هذه المدينة رجل جبَّار ، ومن عادته أنَّه جعل على كلِّ رجل منا يوما يطعمه ويسقيه هو وجنوده ، وهذا اليوم نوبتي ، والأمر متعذَّر عليَّ .

فلَمَّا سمعت مريم ذلك قالت : يا بني ادع الله ليكفي ذلك ، فقال : يا امَّاه ، إن فعلت ذلك كان فيه الشَّرُّ ، فقالت : قد أحسن وأكرم ، ولا بدَّ من إكرامه . فقال عيسى ﷺ : إذا قرب مجيء الملك فاملا قدورك وخوابيك ماء ثمَّ أعلمني ، فلمَّا فعل ذلك دعا الله تعالى ، فتحوَّل ما في القدر طبيخا ، وما في الخواوي خمرا ، فلمَّا جا الملك أكل وشرب ، وسأله : من أين هذا الخمر ؟ فتعلَّل الرَّجل في الجواب ، فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتَّى أخبره بالواقعة .

فقال : إنَّ من دعا الله حتَّى جعل الماء خمرا ، إذا دعا أن يحيي الله ولدي لا بدَّ وأن يجاب . وكان ابنه قد مات قبل ذلك بأيَّام ، فدعا عيسى ﷺ وطلب منه ذلك ، فقال عيسى ﷺ : لا تفعل ، فإنَّه إن عاش

(١) تفسير الرازي ٨ : ٦١ .

كان شراً ، فقال : ما ابالي ما كان إذا رأيته ، وإن أحييته تركتك على ما تفعل ، فدعا الله عيسى ، فعاش الغلام ، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح واقتتلوا ، وصار أمر عيسى مشهورا في الخلق ، وقصده اليهود ^(١) ، وأظهروا الطعن فيه ، والكفر به ^(٢) .

فإذن ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام لمن آمن به وصدقته : ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ وأعواني منكم ؛ حال كونه سالكا ومتوجها ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بطاعته ونصرة دينه ؟ ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ﴾ وهم صفوة أصحابه وخلّص المؤمنين به.

في وجه تسمية اثني عشر من أصحاب عيسى بالحواريين

عن (العيون) : عن الرضا عليه السلام أنه سئل لم سمي الحواريون حواريين ؟

قال : « أما عند الناس ، فإنهم سمّوا حواريين ؛ لأنهم كانوا قصّارين يخلّصون الثياب من الوسخ بالغسل ، وهو اسم مشتق من الخبز الحوّار ^(٣) ، وأما عندنا فسمي الحواريون حواريين ؛ لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم ، ومخلصين غيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير » ^(٤) .

وعن (التوحيد) : عنه عليه السلام : « أئمتهم كانوا اثني عشر رجلا ، وكان أفضلهم وأعلمهم لوقا » ^(٥) .

وقيل : كان بعضهم من الملوك ، وبعضهم من صيادي السمك ، وبعضهم من القصّارين ^(٦) ، وبعضهم من الصباغين ^(٧) .

نقل أنّ عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الدين وتمردوا عليه ، فرّ منهم وأخذ يسبح في الأرض ، فمرّ بجماعة من صيادي السمك ، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا أبناء زبدي ؛ وهم من جملة الحواريين الاثني عشر ، فقال عيسى عليه السلام : الآن تصيد السمك ، فإن اتبعتني صرت بحيث تصيد الناس حياة الأبد ، فطلبوا منه المعجزة ، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء ، فما اصطاد شيئا ، فأمره عيسى عليه السلام بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى ، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه ، فاستعان بأهل سفينة أخرى ، وملأوا السفينتين ، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام ^(٨) .

وقيل : إنّ واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه ، وكان عيسى عليه السلام على قصعة لا

يزال

(١) في تفسير الرازي : وقصد اليهود قتله.

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٦٠ .

(٣) كذا ، والحواري ، هو الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق . وخبز الحوّارى : الخبز المعمول من هذا الدقيق .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٧٩ / ١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٥ .

(٥) التوحيد : ٤٢١ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٥ ، وفي التوحيد : لوقا ، بدل : لوقا .

(٦) القصّار : المبيّض للثياب .

(٧) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٢ .

(٨) تفسير الرازي ٨ : ٦١ .

يأكل منها ولا تنقص ، فذكروا ذلك للملك ، فاستدعاه عليه السلام [و] قال له : من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، فترك ملكه وتبعه مع أقاربه ، فاولئك هم الخواريون ^(١) .

وقيل : إنه سلمته أمه إلى صباغ ، فأراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته ، فقال له عليه السلام : هاهنا ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها علامة معينة ، فاصبغها بتلك الألوان فغاب ، فجعل عليه السلام كلها في جيب واحد ، فقال : كوني بإذن الله كما أريد ، فرجع الصباغ فسأله ، فأخبره بما صنع ، فقال : أفسدت عليّ الثياب ! قال : قم فانظر ، فجعل يخرج ثوبا أحمر ، وثوبا أخضر ، وثوبا أصفر ، إلى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسب ما كان يريد ، فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه السلام ، وهم الخواريون ^(٢) .

قيل : إنهم كانوا إذا جاعوا قالوا : جعنا يا روح الله ، فيضرب بيده الأرض ، فيخرج منها لكل واحد رغيفان ، وإذا عطشوا قالوا : عطشنا ، فيضرب بيده الأرض فيخرج منها الماء فيشربون ، فقالوا يوما : من أفضل منا ؟ قال عليه السلام : أفضل منكم من يعمل بيده ، ويأكل من كسبه ، فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة ^(٣) .

وقيل : إنه عليه السلام قال للحواريين الاثني عشر : **﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾** وهذا لما طلبته اليهود للقتل ، وكان هو في الحرب منهم ، فأراد : أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقي عليه شبيهي ، فيقتل مكاني ؛ فأجابه إلى ذلك بعض ، وذلك قوله تعالى : **﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾** وحماة دينه ، وأعوان أنبيائه في إعلاء كلمته ، ودفاع أعدائه ، حيث إننا **﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾** والإيمان به مقتضي محبته المقتضية لبذل النفس والمال في سبيله **﴿وَأَشْهَدُ﴾** أنت يا نبي الله يوم القيامة ، حين يشهد الرسل على أمهم عند الله **﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** لك منقادون لأمرك ، مخلصون في محبتك وطاعتك .

ثم توجهوا إلى الله متضرعين إليه بقولهم : **﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾** من الإنجيل **﴿وَاتَّبَعْنَا﴾** بقلوبنا وجوارحنا **﴿الرَّسُولَ﴾** الذي أرسلته إلينا بالحق ، في جميع ما يأتي وما يذر .

ثم أنهم - بعد عرض الإيمان بالرسول وبما جاء به ، وإظهار الانقياد والطاعة له - سألوا رفعة المقام عند الله ، والدخول في زمرة أوليائه الكرام بقوله : **﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** لك بالتوحيد ، ولأنبيائك بالتصديق ، أو مع أولي العلم الذين قرنتهم بنفسك في آية **﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾** ^(٤) ، أو مع محمد صلى الله عليه وآله وأمثه الذين هم شهداء على جميع الأمم ، وهو مروى عن ابن عباس ^(٥) ، أو مع الأنبياء الذين هم شهداء على

(١) تفسير الرازي ٨ : ٦٤ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٤١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٤١ .

(٤) آل عمران : ٣ / ١٨ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٧٥٧ .

أهمهم.

قيل : إنّه تعالى قد أجاب دعوتهم ، وجعلهم أنبياء ورسلا ، فأحيوا الموتى وصنعوا ما صنع عيسى عليه السلام (١) .

في اجتماع اليهود على قتل عيسى ورفعاه إلى السماء
ثم إن كفّار بني إسرائيل أصروا على عداوة عيسى عليه السلام ﴿وَمَكَرُوا﴾ به وسعوا خفية في قتله ، بأن وكلوا به من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بأن دبر ما يدفع القتل عنه ، من رفعه إلى السماء ، وإلقاء شبهه على أحد محبيه وحواريه ، أو على الذي دلّ أعداءه عليه منهم .
قيل : إن يهودا ملك اليهود أراد قتل عيسى عليه السلام ، وكان جبرئيل لا يفارقه ساعة ، فأمره أن يدخل بيتا فيه روزنة (٢) ، فلما دخلوا البيت أخرجه جبرئيل من تلك الروزنة ، وكان قد ألقى شبهه على غيره ، فأخذوه وصلبوه (٣) .

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وأقواهم كيذا وتديبرا ، وأقدرهم على الإضرار بمن يريد الضرر بأوليائه .
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ هَوِّنْ عَلَىكَ صَلَاحَكَ إِلَى النَّاسِ وَمَطْهَرِكُمْ مِنَ الذِّمِّ وَالْإِثْمِ﴾
﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)﴾

ثم بين الله أنّ ذلك المكر كان ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ وحين أوحى إليه بلا واسطة جبرئيل : ﴿يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ هَوِّنْ عَلَىكَ﴾ وقابضك كاملا من الأرض ، أو متوحيّ أجلك المسمى ، عاصما إياك من قتلهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وإلى محلّ كرامتي ومقرّ ملائكتي ، بروحك وجسدك ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ ومخلصك ﴿مِنَ﴾ أيدي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومن سوء جوارهم ، وخبث مرافقتهم .

قيل : إنّ اليهود لما عزموا على قتله ، اجتمع الحواريون في غرفة ، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة ، فأخبر بهم إبليس جميع اليهود ، فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة ، فقال المسيح للحواريين : أيكم يخرج ويقتل ويكون معي في الجنة ، فقال واحد منهم : أنا يا نبي الله ، فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف ، وناوله عكازة ، وألقى عليه شبه عيسى ، فخرج على اليهود

(١) تفسير الرازي ٨ : ٦٤ .

(٢) الروزنة : هي الكوة في الحائط ، غير نافذة يوضع فيها المصباح ، وتسمى بالمشكاة .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٦٥ .

فقتلوه وصلبوه (١) .

وفي رواية عن ابن عباس : فقال الملك لرجل خبيث منهم : ادخل عليه فاقتله ، فدخل البيت ، فألقى الله عَجَلًا شبهه عليه ، فخرج يخبرهم أنه ليس في البيت ، فقتلوه وصلبوه (٢) .
وقيل : إنه عليه السلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ، ثم قال : ليكفرنَّ بي أحدكم قبل أن يصيح الدَّيك ويبيعي بديراهم يسيرة ، فخرجوا وتفرقوا ، وكانت اليهود تطلبه ، فنافق أحدهم فقال لهم : ما تجعلون لي إن دلتكم على المسيح ، فجعلوا له ثلاثين درهما ، فأخذها ودلَّهم عليه ، فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام ، فرفعه إلى السماء ، فأخذوا المنافق وهو يقول : أنا دليلكم ، فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه ، ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا ، فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ، وإن كان صاحبنا فأين عيسى ؟ ! فوقع بينهم قتال عظيم (٣) .

قيل : حملت مريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وهي بنت ثلاث عشرة سنة ، ووضعت به بيت لحم من أرض أورشليم ، لمضي خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل ، وأوحى إليه على رأس ثلاثين سنة ، ورفع الله إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين (٤) .

وقيل : لما صلب المصلوب جاءت مريم عليها السلام ومعها امرأة أبرأها الله من الجنون بدعاء عيسى عليه السلام ، وجعلتا تبكيان على المصلوب ، فأنزل الله عيسى عليه السلام فجاءهما فقال : علام تبكيان ؟ [فقالتا : عليك] . فقال : إن الله تعالى رفعتني ، ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا شيء شبه لهم (٥) .
قيل : إن الله تعالى كساه الرِّيش والتَّور ، وألبسه النُّور ، وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب ، فطار مع الملائكة (٦) .

في افتراق أصحاب عيسى عليه السلام بعد رفعه على ثلاث فرق
ثم أن أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبيَّة ، وقالت فرقة أخرى : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٤٠ ، والرواية ليست عن ابن عباس .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٣ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤٠ .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤٠ .

إليه ، وهم النّطوريّة ^(١) ، وقالت فرقة اخرى منهم : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، فرفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم ، فلم يزل الإسلام منطمسا إلى أن بعث الله محمّدا ﷺ .

ثمّ اعلم أنّه لما كان النّصارى معتقدين بأنّ اليهود أخذوا المسيح وصلبوه في مشهد جمّ غفير من النّاس ، وكانوا يستهزئون به ويسخرون منه وهو مصلوب ، حتّى شهق على الخشبة شهقة ومات ، وكان قتل النّبيّ خصوصا بهذه الدّلة والمهانة من أعظم المصائب على أمّته ومن يعتقد بنبوّته ، كان إخبار الله تعالى في كتابه المنزل على محمّد ﷺ وإخبار الرّسول بكذب القائلين بوقوع هذه الامور ، وتخطئة النّصارى في هذا الاعتقاد ، وقوله ﷺ بأنّه ما قتل وما صلب وما أصابه وهن وضرّ ، بل رفعه الله حيّا في غاية الكرامة إلى السّماء ، وكان المقتول والمصلوب عدوّه ، أو المنافق الدّالّ عليه أو غيرهما ، تسليّة عظيمة للنّصارى ومحيّي عيسى عليه السلام ، فينطبق على نبينا ﷺ جميع ما أخبر عيسى عليه السلام حوارتيّه بمجيء مسلّ بعده ، وأمره إتيّاهم بطاعته واستماع قوله ، حيث لم يجيء أحد بعده بهذه الصّفة إلّا خاتم النّبيين ﷺ .

في إخبار عيسى ببعثة خاتم النّبيين

وفي إنجيل يوحنا المترجم بالفارسية : (اين سخنان را بشما گفتم وقتيکه با شما بودم ، لكن تسلی دهنده ؛ یعنی روح القدس ، که پدر او را باسم من می فرستند او همه چیز را بشما تعلیم خواهد داد وانچه بشما گفتم بيايد شما خواهد آورد) .

إلى أن قال : (والآن قبل از وقوع ، بشما گفتم تا وقتيکه واقع گردد ايمان آورد ، بعد از اين بسيار با شما نخواهم گفت ، زیرا که رئيس اين جهان ميايد ودر من چیزی ندارد) .

إلى أن قال : (لكن چون تسلی دهنده که او را از جانب پدر نزد شما می فرستم ايد ، یعنی روح راستی که از پدر صادر می گردد او بر من شهادت خواهد داد .

إلى أن قال : (ومن بشما راست می گویم که رفتن من برای شما مفید است ، زیرا اگر نروم تسلی دهنده نزد شما نخواهد آمد ، امّا اگر بروم او را نزد شما می فرستم ، وچون او آید جهان را بر [عدم] گناه وعدالت وداوری ملزم خواهد نمود) ^(٢) .

(١) كذا ، والظاهر أنّها التّسطوريّة .

(٢) جاء في النسخة العربية من انجيل يوحنا - الاصحاح (١٤ - ١٦) : وأمّا المعزّي الرّوح القدس الذي سيرسله الأب

إن قيل : إن جَوَزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان لزم السفسطة بحيث يحتمل أن كل من نراه يكون غيره تصوّر بصورته ، ويلزم بطلان الشرائع ، إذ الشرائع لا تثبت إلا بالأخبار المتواترة عن المحسوسات ، فإذا احتمل الخطأ في الحسن ووقوع الغلط فيه ، لا نقطع بقولهم : إن النبي قال كذا ، أو فعل كذا ، وأهم رأوا النبي ، بل يحتمل أنهم رأوا غير النبي بصورته.

وفيه : أن وقوع هذا الأمر بالمعجزة في مورد لا يوجب الشك في سائر الموارد ، كما أن مسخ الإنسان قردا أو خنزيرا لا يوجب احتمال أن كل خنزير تراه كان إنسانا متصوِّرا بصورة الخنزير ، مع أن المسخ مسلّم الوقوع في بعض الامم ، أو إذا رأينا أن موسى ألقى عصاه فصارت ثعبانا ، لا يحتمل أن ينقلب كل خشب ثعبانا.

والحاصل : أن الإعجاز سبب انقلاب صورة بصورة ، فإذا لم يحتمل وجود السبب ، لا يحتمل وجود المسبب.

إن قيل : إن جبرئيل كان ملازما لعيسى ، وكان قادرا على إهلاك اليهود ، وكذا عيسى كان قادرا على إحياء الموتى وإماتة الأحياء ، فكأننا قادرين على إهلاك جميع اليهود.

قلنا : كان صلاح النظام في رفعه إلى السماء ، وحفظه عن اليهود بهذا النحو ، وكان من صلاحه أن يكون حجة على من ينكر طول عمر الحجة بن الحسن عليه السلام ، لشبهة امتناع بقاء الإنسان في هذا المقدار من الزمان الطويل بلا شيب وهم.

إن قيل : إن النصارى على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، وشدة محبتهم للمسيح ، أخبروا أنهم شاهدوه مقتولا مصلوبا ، فلما أنكرنا ذلك كان طعنا فيما ثبت بالتواتر ، وهذا يوجب الطعن في نبوة خاتم النبيين.

قلنا : إنما ثبت بالتواتر أنهم رأوا من كان بصورة عيسى مقتولا ، ولو لا إخبار الله بخطئهم في الحسن ، لقطعنا بقتل عيسى عليه السلام . وأما الإشكال في جواز الخطأ في الحسن فهو الإشكال الأول ، وجوابه جوابه.

باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويدرككم بكل ما قتله لكم - إلى أن قال : - وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون. لا أتكلّم أيضا معكم كثيرا لأنّ رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء - إلى أن قال : - ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي - إلى أن قال : - لكني أقول لكم إنّه خير لكم أن أنطلق. لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يكتّ العالم على خطيّة وعلى بر وعلى دينونة.

إن قيل : إنه ثبت بالتواتر أنّ المصلوب بقي حيّا زمانا طويلا ، فلو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر الجزع ولقال : إني لست بعيسى ، بل إنّما أنا غيره ، ولبالغ في تعريف ذلك ، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق ، فلمّا لم يكن من ذلك أثر ، ولم يوجد في دفتر ، علمنا أنّه ليس الأمر كما ذكر.

قلنا : أمّا على تقدير كون المصلوب مؤمنا قد قبل هذا الأمر لنفسه ، فهو لم يكن يظهر الأمر البتّة ، وأمّا على تقدير كونه عدواً ، أو مؤمنا منافقا ، فقد نقل أنّه أظهر ذلك ، وقال : إني لست بعيسى ، فلم يقبلوا منه ، وكان عاجزا عن إثبات دعواه.

ثمّ أنّه تعالى بعد ما بشره بالبشارتين الراجعتين إلى نفسه المقدّسة ، بشره بكرامة أتباعه المؤمنين به حقّ الإيمان بقوله : ﴿و﴾ إني ﴿جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ في العقائد والأعمال ، وآمنوا بك حقّ الإيمان ، ولم يغفلوا فيك كمحمد ﷺ وأتباعه المؤمنين به ﴿فَوَقَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك من اليهود المكذّبين ، والنصارى الغالين فيك ، بالغلبة عليهم بالسيف ، والعزّة والحجّة ، من الآن ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وجاعل الذين خالفوك تحت سلطان المؤمنين ، أذلاء مقهورين ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ في يوم القيامة ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومرجع مخالفكم بالبعث والنشور ﴿فَأَحْكُمُ﴾ إثر رجوعكم إليّ في ذلك اليوم ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فيما كنتم في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وتنازعون من الكفر والإيمان ، والعقائد والأعمال.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَاصِرِينَ (٥٦)﴾

ثمّ بيّن سبحانه كيفيّة حكومته بينهم مفصّلا بقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ، وجحدوا رسالتك ودينك ﴿فَأَعَذُّهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل ، والسّبي ، والدّلة ، والمسكنة ، وأخذ الجزية ، والأمراض والمصائب التي هي العقوبات الزائدة في حقّ الكفّار على عقوبات الآخرة ، ومن ألطافه تعالى في حقّ المؤمنين ، لكونه ابتلاء لهم ، ورفع درجة. وفي ﴿الْآخِرَةِ﴾ بالنار ، والسلاسل والأغلال ، وسائر ما أعدّ للكفّار ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وحامين ينجّونهم من أحد العذابين فضلا عن كليهما.

فهرس المحتوى

٥	مقدمة المؤسسة
٧	مقدمة التحقيق
١١	ترجمة المؤلف
١٥	هذا الكتاب
٢٣	الطرفة الأولى
٢٧	الطرفة الثانية
٢٩	الطرفة الثالثة
٣٦	الطرفة الرابعة
٤٠	الطرفة الخامسة
٥١	الطرفة السادسة
٥٤	الطرفة السابعة
٥٦	الطرفة الثامنة
٥٩	الطرفة التاسعة
٦١	الطرفة العاشرة
٦٩	الطرفة الحادية عشرة
٧١	الطرفة الثانية عشرة
٧١	الطرفة الثالثة عشرة

٧٤	الطرفة الرابعة عشرة
٧٥	الطرفة الخامسة عشرة
٧٨	الطرفة السادسة عشرة
٨٣	الطرفة السابعة عشرة
٨٥	الطرفة الثامنة عشرة
٩٣	الطرفة التاسعة عشرة
٩٨	الطرفة العشرون
١٠٩	الطرفة الحادية والعشرون
١١٠	الطرفة الثانية والعشرون
١١٥	الطرفة الثالثة والعشرون
١٢٠	الطرفة الرابعة والعشرون
١٢٢	الطرفة الخامسة والعشرون
١٢٣	الطرفة السادسة والعشرون
١٢٨	الطرفة السابعة والعشرون
١٣٢	الطرفة الثامنة والعشرون
١٣٤	الطرفة التاسعة والعشرون
١٣٥	الطرفة الثلاثون
١٣٧	الطرفة الحادية والثلاثون
١٤٢	الطرفة الثانية والثلاثون
١٤٥	الطرفة الثالثة والثلاثون
١٤٧	الطرفة الرابعة والثلاثون
١٤٩	الطرفة الخامسة والثلاثون
١٥١	الطرفة السادسة والثلاثون
١٥٣	الطرفة السابعة والثلاثون

الطرفة الثامنة والثلاثون	١٥٥
الطرفة التاسعة والثلاثون	١٥٦
الطرفة الأربعون	١٦٦
خاتمة	١٧٣
في تفسير الاستعاذة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم	١٧٥
في تفسير (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)	١٧٩
في تفسير فاتحة الكتاب	١٨٥
[١ - ٧] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ	١٨٥
في تفسير سورة البقرة	١٩٣
[١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ...	

١٩٣

[٤ و ٥] وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ	١٩٥
[٦ و ٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ	١٩٧
[٨ و ٩] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ	٢٠٧
[١٠ - ١٢] فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ	٢٠٨
[١٣ - ١٦] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْزِلْهُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ	٢١١
[١٧ - ٢٠] مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ	٢١٥
[٢١ و ٢٢] يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ	٢١٩
[٢٣ و ٢٤] وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ	٢٢٢
[٢٥] وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي	٢٢٦
[٢٦ - ٢٩] إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ	

٢٣٥

[٣٠ - ٣٢] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ	٢٤٠
[٣٣] قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ	٢٤٤
[٣٤] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ	٢٤٤
[٣٥ و ٣٦] وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا	٢٤٦

- [٣٧] فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٥٢
- [٣٨] قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ ٢٥٤
- [٣٩] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢٥٥
- [٤٠] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ٢٥٥
- [٤١ و ٤٢] وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ٢٥٦
- [٤٣] وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ٢٥٧
- [٤٤] أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... ٢٥٧
- [٤٥ و ٤٦] وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ٢٥٩
- [٤٧ و ٤٨] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي ٢٦٠
- [٤٩] وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ ٢٦٢
- [٥٠ - ٥٢] وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ ٢٦٣
- [٥٣] وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٢٦٤
- [٥٤] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ٢٦٤
- [٥٥ و ٥٦] وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ .. ٢٦٥
- [٥٧] وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ٢٦٦
- [٥٨ و ٥٩] وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ٢٦٧
- [٦٠] وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ ٢٦٨
- [٦١] وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ ٢٦٩
- [٦٢] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ٢٧٠
- [٦٣ و ٦٤] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ... ٢٧١
- [٦٥ و ٦٦] وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً. ٢٧٣
- [٦٧ - ٧٣] وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا

٢٧٤

- [٧٤] ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ ٢٧٧
- [٧٥] أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ٢٧٩

- [٧٦ - ٧٨] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ٢٨٠
- [٧٩] فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ٢٨٢
- [٨٠ و ٨١] وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ ٢٨٣
- [٨٢] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ٢٨٤
- [٨٣] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ٢٨٥
- [٨٤ و ٨٥] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ ٢٨٩
- [٨٦] أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ٢٩١
- [٨٧ - ٨٩] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ٢٩١
- [٩٠] نَسَمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ ٢٩٣
- [٩١] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ٢٩٤
- [٩٢ و ٩٣] وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ... ٢٩٥
- [٩٤ و ٩٥] قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ .. ٢٩٦
- [٩٦] وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ٢٩٨
- [٩٧ و ٩٨] قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا ... ٢٩٩
- [٩٩ و ١٠٠] وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوْكَلِمَا ٣٠٠
- [١٠١] وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنْ ٣٠١
- [١٠٢ و ١٠٣] وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ ٣٠٢
- [١٠٤ و ١٠٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ٣٠٥
- [١٠٦] مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ ٣٠٧
- [١٠٧] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ٣٠٨
- [١٠٨] أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ٣٠٨
- [١٠٩] وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ٣٠٩
- [١١٠] وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ٣١٠
- [١١١ و ١١٢] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ ٣١١

- [١١٣ و ١١٤] وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى ... ٣١٣
- [١١٥] وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجَهَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ... ٣١٥
- [١١٦] وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ٣١٧
- [١١٧] بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣١٧
- [١١٨] وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ ٣١٨
- [١١٩] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ٣١٩
- [١٢٠] وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ ٣٢٠
- [١٢١] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ .. ٣٢١
- [١٢٢ و ١٢٣] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي ٣٢٢
- [١٢٤] وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... ٣٢٢
- [١٢٥] وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ ٣٢٧
- [١٢٦] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ٣٢٩
- [١٢٧ - ١٢٩] وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ ... ٣٢٩
- [١٣٠] وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا . ٣٣٥
- [١٣١ و ١٣٢] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا .. ٣٣٦
- [١٣٣] أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ ٣٣٧
- [١٣٤] تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا ٣٣٨
- [١٣٥] وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا ٣٣٨
- [١٣٦] قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. ٣٣٩
- [١٣٧] فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ .. ٣٤٠
- [١٣٨] صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ٣٤١
- [١٣٩] قُلْ أَنَحْنُ جُودُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ ٣٤٢
- [١٤٠ و ١٤١] أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ . ٣٤٣
- [١٤٢] سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ ٣٤٤

- [١٤٣] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ .. ٣٤٨
- [١٤٤] قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ ٣٥١
- [١٤٥] وَلَمَّا أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ . ٣٥٣
- [١٤٦] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ ٣٥٤
- [١٤٧] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٣٥٥
- [١٤٨] وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ . ٣٥٦
- [١٤٩ و ١٥٠] وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ ٣٥٧
- [١٥١ و ١٥٢] كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ٣٥٩
- [١٥٣ و ١٥٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ٣٦٢
- [١٥٥] وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ ٣٦٤
- [١٥٦] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ٣٦٧
- [١٥٧] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ٣٦٨
- [١٥٨] إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ .. ٣٦٩
- [١٥٩ و ١٦٠] إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ ٣٧١
- [١٦١ و ١٦٢] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ ٣٧٣
- [١٦٣] وَاللَّهُمُّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٣٧٤
- [١٦٤] إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ ٣٧٥
- [١٦٥ - ١٦٧] وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . ٣٨١
- [١٦٨ و ١٦٩] يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا ٣٨٤
- [١٧٠] وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ٣٨٥
- [١٧١] وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ .. ٣٨٦
- [١٧٢ و ١٧٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ .. ٣٨٧
- [١٧٤ - ١٧٦] إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ٣٩٠
- [١٧٧] لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ٣٩٢

- [١٧٨ و ١٧٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ ٣٩٥
- [١٨٠ - ١٨٢] كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ٣٩٧
- [١٨٣-١٨٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ ... ٣٩٩
- [١٨٦] وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ٤٠٤
- [١٨٧] أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ ... ٤٠٦
- [١٨٨] وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا . ٤٠٩
- [١٨٩] يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا . ٤١١
- [١٩٠ - ١٩٣] وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ ... ٤١٤
- [١٩٤ و ١٩٥] الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى . ٤١٦
- [١٩٦] وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ٤١٩
- [١٩٧] الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ٤٢٢
- [١٩٨] لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ ... ٤٢٣
- [١٩٩ - ٢٠٢] ثُمَّ أَفِضُوا مِّنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ ٤٢٥
- [٢٠٣] تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٤٣٠
- [٢٠٤-٢٠٦] وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى ٤٣١
- [٢٠٧] وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ٤٣٣
- [٢٠٨ و ٢٠٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ . ٤٣٤
- [٢١٠] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ٤٣٦
- [٢١١] سَلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ ٤٣٨
- [٢١٢] زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ ٤٣٨
- [٢١٣] كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ ٤٣٩
- [٢١٤] أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ٤٤٣
- [٢١٥] يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ الدِّينُ ٤٤٤
- [٢١٦] كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ ٤٤٥

- [٢١٧ و ٢١٨] يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ . ٤٤٧
- [٢١٩ و ٢٢٠] يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . ٤٥٠
- [٢٢١] وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ ٤٥٦
- [٢٢٢] وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ٤٥٨
- [٢٢٣] نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ . ٤٦١
- [٢٢٤] وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٤٦٣
- [٢٢٥ - ٢٢٧] لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ

٤٦٤

- [٢٢٨] وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ٤٦٦
- [٢٢٩ و ٢٣٠] الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ ٤٦٩
- [٢٣١] وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ ٤٧٣
- [٢٣٢] وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ٤٧٤
- [٢٣٣] وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ ٤٧٦
- [٢٣٤] وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ٤٧٩
- [٢٣٥-٢٣٧] وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي ٤٨٠
- [٢٣٨ و ٢٣٩] حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ... ٤٨٤
- [٢٤٠-٢٤٢] وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى ٤٨٧
- [٢٤٣ و ٢٤٤] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ... ٤٨٩
- [٢٤٥] مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ ... ٤٩٢
- [٢٤٦ و ٢٤٧] أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ ٤٩٣
- [٢٤٨] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ ٤٩٧
- [٢٤٩] فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ .. ٥٠٠
- [٢٥٠ و ٢٥١] وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ . ٥٠١
- [٢٥٢] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٥٠٤
- [٢٥٣] تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ . ٥٠٥

- [٢٥٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ . ٥٠٧
 [٢٥٥] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ٥٠٨
 [٢٥٦] لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن ٥١٢
 [٢٥٧] اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ٥١٤
 [٢٥٨ و ٢٥٩] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ ...

٥١٦

- [٢٦٠] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَى . ٥٢٣
 [٢٦١] مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ .. ٥٢٦
 [٢٦٢] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى . ٥٢٧
 [٢٦٣] قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ٥٢٨
 [٢٦٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ .. ٥٢٩
 [٢٦٥] وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ٥٣١
 [٢٦٦] أَيْوَدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ٥٣٢
 [٢٦٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ ٥٣٣
 [٢٦٨] الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا . ٥٣٥
 [٢٦٩] يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا ... ٥٣٦
 [٢٧٠] وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ ٥٣٧
 [٢٧١] إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ

٥٣٨

- [٢٧٢] لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ٥٣٩
 [٢٧٣] لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ٥٤١
 [٢٧٤ - ٢٧٦] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ٥٤٢
 [٢٧٧] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ ٥٤٧
 [٢٧٨-٢٨٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٥٤٨
 [٢٨١] وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ ٥٥٠
 [٢٨٢ و ٢٨٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . ٥٥١

- [٢٨٤] اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُ ٥٦١
- [٢٨٥] آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ... ٥٦٣
- [٢٨٦] لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا ... ٥٦٦
- في تفسير سورة آل عمران ٥٧١
- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٥٧١
- [٣ و ٤] نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٥٧٣
- [٥ و ٦] إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي ... ٥٧٥
- [٧] هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ ... ٥٧٨
- [٨ و ٩] رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٥٨٢
- [١٠] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ ٥٨٣
- [١١ و ١٢] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ ... ٥٨٤
- [١٣] قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ... ٥٨٦
- [١٤] زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ ٥٨٨
- [١٥] قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٥٩١
- [١٦ و ١٧] الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ٥٩٢
- [١٨] شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ ... ٥٩٣
- [١٩] إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا ٥٩٤
- [٢٠] فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ٥٩٥
- [٢١ و ٢٢] إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ .. ٥٩٦
- [٢٣] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ .. ٥٩٧
- [٢٤] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ٥٩٨
- [٢٥] فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ .. ٥٩٩
- [٢٦ و ٢٧] قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ ٦٠٠
- [٢٨] لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ٦٠٢

[٢٩] قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوْهُ يَعْزِمُ اللّٰهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ٦٠٣
[٣١و٣٠] يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ

٦٠٤

[٣٢] قُلْ أَطِيعُوا اللّٰهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ٦٠٦
[٣٤ و ٣٣] إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٦٠٧
[٣٥ - ٣٧] إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ ..

٦١١

[٣٨ و ٣٩] هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ .. ٦١٦
[٤٠ و ٤١] قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ . ٦١٨
[٤٢] وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ ٦٢٠
[٤٣] يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ٦٢١
[٤٤] ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ٦٢٢
[٤٥] إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ٦٢٢
[٤٦] وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ٦٢٣
[٤٧] قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّٰهُ يَخْلُقُ ... ٦٢٤
[٤٨ و ٤٩] وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى ٦٢٥
[٥٠ و ٥١] وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ ... ٦٣٠
[٥٢ - ٥٤] فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللّٰهِ قَالَ ٦٣١
[٥٥] إِذْ قَالَ اللّٰهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفَيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ٦٣٥
[٥٦] فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ ... ٦٣٩